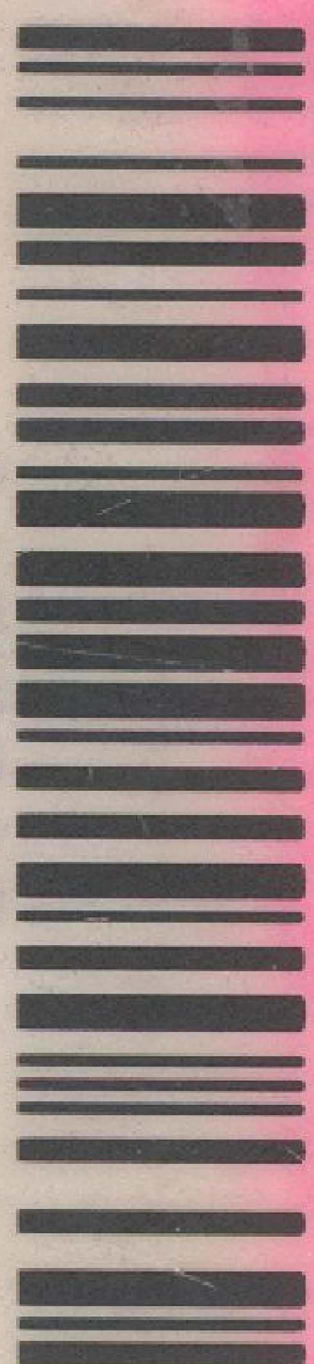




اقرأ

طه حسين - توفيق الحكيم

القصر المسحور

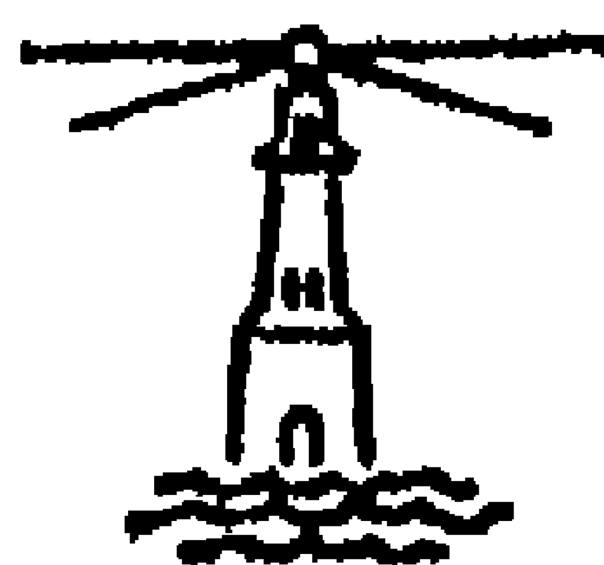
عدد ممتاز





تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر

طه حسين . توفيق الحكيم

القصرُ المسحور

اقرأ ٣٥٦

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٥٦ – أغسطس سنة ١٩٧٢

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

الإهداء

إلى

التي كانت تشيع ذهابنا إلى
القصر المسحور وتتلقى عودتنا
منه بنظرات حائرة وبسمات
ساخرة، ولكن فيها مع ذلك
الرحمة والإشفاق والتشجيع ؛
لأنها تعرف كيف تحيي
زهرات الأدب وتبعث نشاط
الأدباء ... إلى : مدام طه
حسين ... نرفع حديث
القصر المسحور

توفيق الحكيم وطه حسين
« سالنش ١٩٣٦ »

سمیر شہر زاد

« من مأمنه يؤتى الحذر » كذلك قالت حكمة القدماء . .
وأبت الظروف إلا أن أكون أنا الدليل الناصع على صدق ما قالت حكمة القدماء . فقد ضقت بالحياة العنيفة المفعمة بألوان النشاط المختلفة فى مصر حتى لم أستطع لها احتمالا ، وحتى ضعف كل جسمى وانهدت لها قواى ، وعجزت لها أعصابى عن المقاومة فأصبحت سريع الغضب سريع الرضى، سريع الانفعال بوجه عام، حتى أنكرت نفسى وأنكرنى الناس ، ولم أر بدًّا من أن أفر بما بقى لى من قوة العقل والجسم إلى مكان بعيد أخلو فيه إلى نفسى ، وأستريح فيه من هذه الجهود المتصلة وأسترد فيه بعض ما أنفقت من القوة ، حتى إذا استجمعت منه حظًّا لا بأس به عدت إلى مصر فأنفقته مرة أخرى فى غير تقصير ولا اقتصاد .

من أجل هذا كله عبرت البحر ومررت بباريس مرًّا سريعاً كأنه مر الطيف ، فلم يرنى الحى اللاتينى إلا مرة أو مرتين . ثم أويت إلى هذه القرية النائية المنزوية فى عطف من أعطاف الجبل ، إلى هذه القرية التى لا يعرفها المصريون ، والتى يمرون بها فى طريقهم إلى المصايف المعروفة دون أن يخطر لهم الوقوف عندها أو الإقامة فيها . واخترت مع أهلى فندقاً متواضعاً متوسط الحال لا تشغل أهله هذه الحركات العنيفة التى تشغل المصطافين ولا يخطر لمصرى أن يأوى إليه إن ألم بهذه القرية خطأ ، لأن المصريين فى العادة إذا عبروا البحر

لا يأوون إلا إلى الفنادق الفخمة التى يكثر فيها الفرح والمرح ويظن بأهلها الغنى والثروة وتعود الترف والنعيم.

ولما بلغت الفندق أكرهت صاحبى على أن يختار لنفسه ، أو اخترت له أنا غرفة فى الطابق الأعلى لايصعد إليه أحد إلا الذين لايكلفون بالراحة ولايشفقون من الجهد ، لأن غرفة صاحبى إذا كنا فى أوربا هى فى الوقت نفسه الملجأ الذى ألجأ إليه إذا أردت القراءة أو الإملاء.
وكذلك اعتقدت ، وكان لى الحق أن أعتقد ، أنى قد أمنت الضجيج والعجيج وضمنت الراحة والهدوء ، وأعددت لنفسى ما أنا محتاج إليه لأسترد النشاط من جهة ولأعوض الوقت الضائع من جهة أخرى ، فأقرأ كثيراً وأكتب قليلا.

وإنى لمع صاحبى ذات يوم قد خلونا إلى ديوان من دواوين الشعر ننظر فيه وانقطعت الصلة بيننا وبين العالم الخارجى حتى ما نسمع هفيف الريح ولا حفيف الأغصان، ولا غناء الطير ولا صياح الأطفال الذين يلعبون فى حديقة الفندق ، وإذا الباب يطرق طرقاً خفيفاً لا نحفل به ولا نلتفت إليه، نظن أنه لايعنينا وإنما يعنى الغرفة المجاورة ، ولكن الطرق يتصل ويلح ، ثم يشتدشيئاً فشيئاً ، ثم يضطرنى إلى أن ألتفت ، ويضطر صاحبى إلى أن يضع الكتاب ثم يضطره إلى أن ينهض فيفتح الباب ليرى ما دونه ، وكأن قد أغلقه فأحكم إغلاقه إيثاراً للعافية وإغراقاً فى التحفظ والاحتياط ، ولم يكد صاحبى يفتح الباب

حتى رأى شخصاً غريباً كان يقدر أن يرى كل إنسان وأن يرى كل شيء دون أن يراه . شخصاً شرقياً فى زى أهل العراق لم يعرفه قط ، وهو من أجل ذلك ينكره أشد الإنكار وينكر وجوده فى هذه القرية المنعزلة ، وينكر اهتداءه إلى هذا الفندق وصعوده إلى هذا الطابق وطرقه باب هذه الغرفة .

وكان صاحبى مقتنعاً بأن هذا الشخص قد أخطأ طريقه وجار عن سبيله وقصد إلى غير مقصد ، ولكن الشخص يسأله عنى ويدفع إليه كتاباً يطلب منه أن يتلوه على . فيعود صاحبى إلى حيران دهشاً، قد كان يدركه الاختلاط لولا أنه تعود مثل هذه المفاجآت منذ امتحنته الأحداث بمصاحبتى . فهو يفض الكتاب ويقرأ على هذه الأسطر :

« سيدى

« علمت اليوم أنك معتزل فى عطف من أعطاف هذا الجبل الذى أصطاف قريباً من قمته ، فنازعتنى نفسى إلى أن أراك ، ثم دفعتنى نفسى إلى رؤيتك دفعاً لم أجد عنه مندوحة ، وكنت أحب أن أسعى إليك حتى لا أكلفك مشقة الحركة وجهد الانتقال ، ولكنى آثرت أن تسعى إلى حتى لا أكلفك مشقة هى أثقل على نفسك فيما أعتقد من المشقة الأولى ، لأنها معنوية ، فأنت تكره من غير شك أن تسعى سيدة للقائك ،

وأدبك يفرض عليك أن تسعى أنت للقائها . وإذن فأنا أكتب إليك راجية أن تتفضل فتتهيأ للقائى ، ولكنى أحب أن تعلم أنى لاأزار إلاحين منتصف الليل وأن زيارتى لن تكلفك جهداً ولاعناء ، فإذا تقدم الليل وكاد ينتصف فانتظر متهيئاً للخروج . ولك أن تصطحب هذا الفتى الذى يلزمك لزوم الظل إن لم تر من اصطحابه بدًّا ، ولك أن تتركه إن كنت قد ضقت به كما تضيق بكثير من الناس وبكثير من الأشياء من حين إلى حين ، فأنا أعرف من أمرك ياسيدى أكثر مما تظن .. وتقبل تحية المشوقة إلى لقائك »

شهر زاد

أظنك أيها القارئ العزيز غير محتاج إلى أن أصف لك ما أدركنى من الدهش وما أدرك صاحبى من الذهول ، ولكن دهشى وذهول صاحبى تجاوزا حدهما حين التفت صاحبى فلم ير الفتى العراقى الذى حمل إلينا الكتاب ، وحين التمسه فى الفندق لم ير له أثراً ، وحين سأل عنه أصحاب الفندق ظهر له أنهم لم يروه ولم يحسوه ولم يعرفوا له خبراً ، وأن أحداً لم يسألهم عن مكاننا وأنهم لم يدلوا أحداً على هذا المكان .

كان الدهش والذهول ينتهيان بصاحبى وبى إلى الجنون أو إلى ما هو أكثر من الجنون ، وقد خيل إلينا لحظة أن خيالاً من هذه الخيالات التى تملأ الضمائر وتنكرها نفوسنا الشاعرة قد عبث بنا ، وأن الذى

أثار هذا الخيال هو حضور الأستاذ توفيق الحكيم إلى قريتنا منذ يومين .

فقد حضر صديقنا توفيق الحكيم إلى هذه القرية في قصة لعلك تظهر عليها وقتاًما ، ومنذ انتهى إلينا كثر الحديث بالطبع عن « أهل الكهف » ، و « شهر زاد » ، و « عودة الروح » وما يتصل بذلك كله من الأدب والنقد والإنتاج والتقصير ، وكل هذا العناء الذى فررنا منه إلى فرنسا مقسمين أن نتجنبه فى أثناء الصيف . فخيل إلى صاحبى وإلى أن كثرة الحديث فى الأدب وفى أبطال توفيق الحكيم قد سحرت عقولنا وصورت لنا كل هذا القصص الذى عرضته عليك ، ولكن الكتاب كان بين يدى صاحبى يمسه بيديه ويراه بعينيه ويقرأ على ما فيه من الكلام .

وجعلنا كلما تقدم النهار ودنونا من المساء اشتد اضطرابنا وامتلأت قلوبنا وجلا ورعباً حتى أنكرنا خلطاؤنا وأشفق على أهلى وخيل إليهم أنى أتهيأ لعلة من العلل أو للون من ألوان الحمى .

ولست أخفى عليك أنى اجتهدت كما اجتهد صاحبى فى أن نخفى هذه القصة على من حولنا مخافة أن يظن بنا الجنون وأن ندخل الروع على قوم آمنين .

ومن عادتنا إذا رفعنا أيدينا عن طعام العشاء أن نمشى قليلا فى طريق من هذه الطرق الجبلية نستمتع بهذا الهواء الطلق الأرج ثم نعود إلى مخبئنا فنخلو إلى كتبنا حتى يدعونا النوم إلى أن نستريح .

وقد جهدنا برغم ما كان يملأ قلبينا من هذا الخوف المتزايد من لحظة إلى لحظة فى أن نجرى الأمور كما تعودنا أن نجريها دون أن نغير شيئاً مما ألفنا.

فلما آوينا آخر الأمر إلى غرفتنا الشاهقة فى السماء لم نقرأ صحيفة ولم نفتح كتاباً ولم ننظر فى ديوان ، وإنما لبثنا فيما كنا فيه من دهش وحيرة وذهول ننتظر أحد الخطرين. فإما أن يتحقق ما أنبأنا به الكتاب وإذن فالله وحده يعلم ما وراء ذلك ، وإما أن يتكشف الأمر عن لاشىء فينتصف الليل وكأننا لم نتسلم كتاباً ولم نتلق دعوة ولم نتعرض لخطر ولم نحس خوفاً ، وإذن فهو الشر الذى ليس بعده شر ، هو الجنون الذى لايختص به فرد من الأفراد وإنما يشترك فيه اثنان.

وهذه دقات إحدى عشرة تنبئنا بأن انتصاف الليل ليس بعيداً ، وهذا العرق البارد يسيل على جبهتينا ، وها نحن هذان نتكلف الجلد ونأبى على أسناننا أن تصر وعلى فرائصنا أن ترتعد ولكن ماذا ! هذا الباب يطرق طرقاً خفيفاً ، ثم يفتح دون أن نأذن بالدخول ، ثم . . . ونفيق وإذا نحن فى مكان غير المكان الذى أنفقنا فيه أول الليل ، ولكن الغريب أننا لا ننكر أنفسنا ولانحس خوفاً ولا وجلاً ولانجد إلاما يجده الزائر لإنسان ذى خطر من هذا التهيب اليسير الذى يشغله فى أثناء الانتظار أن يؤذن له .

ولايطول هذا الانتظار وإنما هو قصير جداً لايتيح لنا أن نتبين الغرفة التى ننتظر فيها والأثاث الذى يحيط بنا .

فهذا باب يفتح فى جانب من جوانب الغرفة ، وهذه فتاة

رشيقة أنيقة تدخل منه مشيرة قائلة فى خفة وفى لهجة عربية فصيحة عذبة : « هل لهذين السيدين أن يتبعانى ؟ » فنتبعها آمنين مطمئنين كما تعودنا أن نفعل فى مصر حين نزور من نزور من العظماء وأشراف الناس . وهى تسعى بين يدينا رشيقة خفيفة الروح كأنما تمشى فى الهواء ونحن نتبعها متنقلين معها من غرفة إلى غرفة ومن بهو إلى بهو ، تصل إلينا من بعيد أنغام عذبة هادئة متصلة كأنها غناء الأرواح ، إن كنا قد سمعنا غناء الأرواح . ثم تنتهى بنا هذه الفتاة الحسناء إلى أستار ثقال فتقف لحظة مشيرة إلينا أن سيدتها هنا وراء هذه الأستار . ثم تتقدم فتنحى ستراً عن يمين وستراً عن شمال ، وتمضى خطوات ثم تنحنى محيية ثم تنحرف لنا عن الطريق ثم تنصرف وقد تركتنا مع شهر زاد .

وشهر زاد تلقانا باسمة مبتهجة مشرقة الوجه طلقة الأسارير ، ولكنها لا تتحرك من مكانها وإنما تشير إلى صاحبى إشارة خفيفة أن ادنوا ، فدنونا وإذا هى مستلقية على هذا الأثاث الذى يسمونه الكرسى الطويل ، قد كثرت من حولها الوسائد ووضعت قريباً منها مائدة صغيرة قد اثقلتها الكتب والصحف والمجلات وهى تمنحنا يداً صغيرة رشيقة ، فإذا لثمناها أذنت لنا بالجلوس وأبت إلا أن يكون مكانى قريباً منها ، فنجلس ويتصل الصمت لحظات ، ثم نسمع صوتاً لا أستطيع أن أشبهه إلا بخرير الماء حين يتساقط هادئاً نحيلا فى حوض من المرمر . وإذا هذا الصوت الحلو النحيل البعيد يقول لى : لقد روعناك ياسيدى على غير انتظار منك لهذا الخروج ، فعذرة إليك ولا تلم إلا نفسك فقد كثر

الحديث عنك وكثر ما قرأت لك، حتى إذا علمت بقربك منى لم أجد من لقائك بدًّا . قلت فى صوت مضطرب بعض الشيء ، عفواً ياسيدتى أين أنا ؟ ومن تكونين ؟ أريد أن أعرف أنائم أنا أم يقظان، فقد اختلفت على أمور منذ اليوم أذهلتنى عن نفسى ، ولا أكاد أبلغ هذه الجملة حتى يتردد فى هذه الغرفة الواسعة ضحك نحيف حلو ، ثم تمس يدها الرشيقة الناعمة يدى الغليظة الخشنة فى رفق، ويقول الصوت البعيد : لابأس عليك ، لست نائماً ولاحالماً وإنما أنت يقظان حاضر الذهن ، وأنت عند شهر زاد. شهر زاد؟ ألا تعرفها ؟ لقد طال ما استمعت لها أيام الصبا ، وقد طال ما اشتغلت بها أيام الشباب ، وما أقرب ما كتبت عنها منذ عامين اثنين . قلت لاتعبثى ياسيدتى فلن تستطيعى أن تقنعينى ، ولكنها قطعت علىّ حديثى قائلة بل أستطيع أن أقنعك بما أشاء ، لقد ملأت قلبك صبياً وملأت عقلك شاباً ، وما ينبغى أن تنحرف عنى حين ينحرف عنك الشباب . إنك لتعلم حق العلم أن شهر زاد خالدة لم يدركها الموت ولن يبلغها الفناء ولن يتحول عنها شبابها . مابالك تشك فى هذا الآن وقد كنت مؤمناً به حين كنت تقرأ كتاب هذا الشاعر العظيم المسكين الذى فارقنا منذ أسابيع . قلت : هنرى دى رينييه؟ قالت : نعم ، لقد قرأت كتابه وعرفت منه أن لى قصراً فى بغداد ، فوددت لو استطعت أن تطير إلى هذا القصر وأن تلقانى وتسمع منى وتتحدث إلىّ ، فماذا يروعك وقد تحققت أمنيتك ، فأنت فى قصرى وهذه يدى فى يدك ، وأنت

تسمع حديثى وأنا أريد أن أسمع حديثك . ؟!

قلت ، وما شككت فى أنى مريض قد أخذنى هذيان الحمى : فأنا إذن فى بغداد فى القصر الذى وصفه هنرى دى رينييه ؟

قالت متضاحكة : كلا ، أنت فى فرنسا قريب من قمة من قمم الألب . ألم تقرأ كتابى هذا الصباح ؟ أليس من حق شهرزاد أن تصطاف كما يصطاف الناس ؟ ومن الذى قضى عليها أن تنفق الدهر سجينة فى قصرها السحرى القائم على شاطىء دجلة ؟ لقد تغير الزمان وارتقت الحضارة وأتيح لشهر زاد أن تسترد حريتها وأن تطوف فى أقطار الأرض ، فتصطاف فى جبال الألب وتشتو فى الريفييرا .

قلت : وما يمنعك أن تنفقى الشتاء مرة فى مصر ؟

قالت : لاشىء لقد هممت بذلك فى الشتاء الماضى لولا هذا الفتى الغريب الذى تسمونه توفيق الحكيم ، هو الذى ردنى عن مصر بكتابه هذا الذى لم أحبه ولا أستطيع أن أحبه .

قلت متعجباً : لماذا ؟ !

قالت : لأنه كشهريار لم يفهمنى وما أظنه سيفهمنى .

قلت : وهل فهمك أحد ؟

قالت : وما حرصكم على أن تفهمونى ؟ وما هذا المرض الذى أفسد عليكم كل شىء فأغراكم بفهم كل شىء ؟

قلت : مهلا ياسيدتى لاتغضبى ، فإنى لم أفهمك ولم أحاول فهمك ولن أحاوله ، لأنك أحب إلى وآثر عندى وأجمل فى نفسى من أن أمسك

بهذا السوء الذى نسميه الفهم واستكشاف الحقائق .

قالت ، وقد ملأها الرضى والابتهاج واستوت جالسة : لهذا أحببت أن أراك ؛ لأنك ترى مثل ما أرى وتؤمن بأن من فهم شيئاً فقد قتله ، وتحب لى أن أحيا فى نفسك فلا تحاول أن تقتلنى بالبحث عن حقيقتى والجد فى الانتهاء إليها . ولكنك لا تعلم من أمرى كل شىء .

قلت : ولا أريد أن أعلم من أمرك كل شىء .

قالت فى لهجة المتعبة المحزونة : شىء واحد أحب أن تعلمه حتى لا يكون حبك لى إعجاباً كله ، فقد يرضينى أن يكون فى هذا الإعجاب بى شىء من الإشفاق على .

قلت : وما ذاك ؟

قالت فى تهالك وفتور : علة أخذت تعتادنى منذ حين ، هى ضيق الصدر الذى يلم بى إذا جن الليل فيحرمنى الراحة ويحول بينى وبين النوم . وليست فى الدنيا شهر زاد أخرى تستطيع أن تذود عنى هذا الضيق وتسلينى عن هذا الحرج وتقص على من القصص ما يدعو إلى النوم كما كنت أفعل أنا مع شهريار فى سالف الأزمان .

قلت ، وقد أشرق وجهى وامتلأ قلبى بشراً وانطلق من فمى ضحك لم أحس ملاحظته وتنظيمه ، واندفع فى جسمى نشاط لم أستطع كبحه ، وإذا أنا أرفع يدها الرشيقة الناعمة إلى شفتى فألثمها لثماً متصلاً وهى تلحظنى دهشة متعجبة .

قلت حين عاد إلى الهدوء : لا بأس عليك ياسيدتى ، علة

طارئة لن تلبث أن تزول ، سأردها عنك منذ الليلة ، سأصف لك الدواء الذى يردها عنك آخر الدهر .

قالت متلهفة : وكيف ذاك ؟ وما ذاك ؟ ماذا تقول ؟ أجاد أنت ؟ أصادق أنت ؟ لقد عهدتك مشغوفاً بالمزاح ؟

قلت وقد عدت فأشبعت يدها لثماً وتقبيلا : والمزاح وحده شفاؤك من هذه العلة ياسيدتى ، فلأدعون إليك النوم من ليلتك هذه ، ولأعلمنك كيف تدعينه منذ غد .

قالت : وكيف يكون ذلك ؟

قلت : ستتخذين لك سميراً .

قالت مبتسمة فى شىء من السخرية : وستكون أنت هذا السمير ؟

قلت محزوناً : ليتنى أصلح لذلك ياسيدتى إذن أكون أسعد الناس .

قالت : أو لا تصلح أنت لذلك ؟

قلت : كلا ياسيدتى ، أنا أقل الناس حظاً من الخيال وأعجز الناس عن القصص ، وأضيقهم بنفسى وبالوقت ، ولولا أن الله قد ملأ الدنيا كتباً وأذن أنها ستظل أبداً مملوءة كتباً لما استطعت لهذه الحياة احتمالا .

قالت : ومن لى إذن بهذا السمير ؟

قلت : وأنا لك به ياسيدتى ، إنه صديقك العزيز عليك ، الأثير عندك ، الحبيب إليك :

قالت : أوجه

قلت : إنه توفيق الحكيم ، وهو منك قريب ليس بينك وبينه إلا ما كان بينك وبيني من الأمد حين كتبت إلىّ ، إنه فى الفندق الذى أنا فيه .

قالت ، وقد ملأها النشاط وأخذها الاهتمام وامتزج فى صوتها الغضب والفرح معاً : هو إذن هنا هذا الآثم ، ليعلمن كيف تكون الكتابة عن شهرزاد .

قلت : ولتعلمن أنت ياسيدتى كيف يرضيك إذا أقبل النهار ، وكيف يسليك إذا أظلم الليل ، لو تعلمين كيف سقط على قريتنا هذه النائية المعتزلة سقوط الندى .

قالت : كيف سقط على هذه القرية ؟

قلت : سبقته إليها البشائر بمقدمه السعيد ، أو رأيتنا والباب يطرق علينا طرقاً عنيفاً مع الصبح حتى إذا فتحنا للطارق رأينا ساعى البريد يحمل إلينا كتاباً مستعجلاً من صاحبك ينبئنا فيه بمكانه من باريس ورغبته فى أن يلحق بنا ويسألنا أن نختار له فندقاً يأوى إليه وغديراً يصطاد السمك فيه . وما نكاد ياسيدتى نفرغ من قراءة الكتاب حتى يطرق الباب علينا طرقاً عنيفاً فإذا فتحنا للطارق رأينا ساعية البرق تحمل إلينا رسالة من صاحبك ينبئنا فيها بأنه قد ركب

القطار ولم ينتظر رجع الجواب ، ونحن نلتمس له الفندق ونلتمس له الغدير ونلتمس له المواضع التى يجد فيها أدوات الصيد ، وهو يقبل مع المساء كما تعرفينه .

قالت : ومتى عرفته ؟

قلت : ألم تعرفيه من كتابه عنك ؟

قالت : كيف أقبل عليكم ؟

قلت : أقبل كما ستعرفينه يقظان كالنائم ، حاضراً كالغائب ، وغائباً كالحاضر ، قد أخذ من باعة الصحف ما استطاع أن يأخذ ، وأخذ من باعة الكتب ما استطاع أن يأخذ وقضى نهاره فى القطار بين الكتب والصحف مختلساً بين حين وحين نظرة من نافذة العربة ، مفتوناً بما يرى ، حتى إذا اطمأن به المكان بيننا أخذ يتحدث فإذا هو دهش لكل شىء ، سائل عن كل شىء ، عارف بكل شىء جاهل بكل شىء ، يتحدث عن الجو ، ثم يثب إلى مقالة قرأها فى هذه الصحيفة ، ويتحدث عن الجبل ثم يقفز إلى فصل قرأه فى ذلك الكتاب ، يقبل على الطعام ويأخذ فيه ولكنه مشغول بالنشاط الأدبى فى مصر ، وبهذا الفصل الذى كتب عن ذلك المعرض الفنى فى باريس ، ثم يصبح مشغولاً بالصيد مشغوفاً به ، متهالكاً عليه يلتمس له أدواته ويعدها ويهيئها ، وهو يفكر فيك وفيما آل إليه أمرك ، وفى كتابه عنك وفى ترجمة هذا الكتاب إلى الفرنسية وفيما يمكن أولا يمكن من تمثيل قصتك .

قالت وقد نهضت مغضبة : ويل له ، أو يريد أن يظهرنى فى الملاعب ويعرضنى على النظارة ويسلمنى إلى الممثلين؟

قلت فى شىء من المكر : أظنه يطمع فى ذلك ياسيدتى .

قالت : ليعلمن ما جزاء من يعبث بشهرزاد.

قلت : لاتنغصى عليه راحته ، إنه سعيد راض مبتهج مغتبط يزور الجبال لأول مرة ، لو رأيت ابتهاجه حين استكشف فى الغابة شجرة البندق . لقد كان يأكل البندق جافاً ويأكله رطباً ، ويأكله صرفاً ويأكله ممزوجاً ، ويعرف أنه ثمر لشجر ، ولكنه لم يكن يعرف أين يكون ؟ ولا كيف يكون ذلك الشجر ؟ فلما رآه ورأى عليه ثمره لم يملك نفسه ابتهاجاً واغتباطاً . وما أرى إلا أنه سيكتب عن شجر البندق فصلا أو كتاباً ، وما أرى إلا أنه سيحدث بين الشجر وثمره حواراً لذيذاً . لاتنغصى عليه راحته ياسيدتى ، لقد رأى الثلج يغطى رؤوس الجبال لأول مرة ، وكان يقرأ ذلك فى الكتب ويسمع عنه فى الأحاديث وما كان يقدر أنه سيراه ، فلما رآه لم يسع نفسه فرحاً وسروراً ، وأقسم لايطمئن ولا يستريح حتى يدنو منه ويتصل به ، ويملأ منه يديه ، ولو استطاع لا حتمل منه ذخيرة إلى مصر .

لاتنغصى عليه راحته ياسيدتى . لقد قرأ وصف الجبل الأبيض حين كان تلميذاً وطالباً ، وسمع أخباره من السائحين ، ولم يخطر له قط أن الجبل الأبيض شىء يرى ؛ فلما رآه كاد يخرج عن طوره ، لولا أن تمالك واصطنع الوقار ، وهو يقسم لنا جهد أيمانه ليصعدن فيه

وليبلغن قمته ، فإذا صعبنا له ذلك قال فى براءة الصبى النقى : ماذا ؟ أليس يكفى أن أغدو إليه مع الصبح وأعود منه حين ينتصف النهار فأدرك معكم الغداء ؟

* * *

وأنا مندفع فى هذا الحديث عن صديقى الأديب وقد شغلت به بعض الشيء، ولكن صاحبتى مغرقة فى ضحك متصل لا يريد أن ينقضى ، قد ردها إلى مكانها بين الوسائد لأنها عجزت عن القيام فسكت عنها حيناً حتى سكت عنها الضحك.

وإذا هى تسألنى : أهو من السذاجة بحيث تصف لى ؟

قلت : وما وصفت لك من سذاجته إلا أقلها .

قالت : فإن كتابه يصوره معقداً أشد التعقيد .

قلت : هو كذلك معقد أشد التعقيد ، فاتخذيه لك سميراً فستجدى عنده السذاجة المريحة حين تحتاجين إلى الراحة ، والتعقيد المضنى حين تحتاجين إلى الجد والتفكير .

قالت : وسيجد عندى مالم يعلم من أمر شهرزاد .

وكان الخدم قد أقبلوا يحملون ألواناً من الطعام والشراب لا علم لنا بها ، فلما وضعوا ما كانوا يحملون وهموا أن ينصرفوا استوقفت أحدهم ، وقالت له : فى الفندق الذى ذهبت إليه صباح اليوم مصرى يقال له توفيق الحكيم فإذا كان الغد فإنى أريد أن أراه .

سمع الخادم أمر سيدته فانحنى وانصرف .

ولست فى حاجة إلى أن أتم لك بقية ما كان بينها وبينى من حديث ، فما أظن أن ذلك يعنيك وإنما هو يعنينى أنا ويعنى شهر زاد ، وحسبك أن تعلم أنى ودعتها آخر الليل وأنها لمطمئنة النفس قد زال عنها الحرج وتهيأت لاستقبال ساعات نوم لذيذ . وأصبحت ألتمس توفيق الحكيم فى غرفته وفى حديقة الفندق وعند غدير الصيد وفى مظانه من القرية فلا أجده . فأظن أنه ذهب متنزهاً فى طريق من هذه الطرق الخضراء الفيحاء وأنه سيعود إلينا مع الظهر أو مع المساء ، ولكنه لا يعود مع الظهر ولا مع المساء ، فما أشك فى أن أعوان شهر زاد قد اختطفوه وفى أنه سجين هناك فى ذلك القصر السحرى القائم عند قمة هذا الجبل من جبال الألب .



ثمین شہرزاد

(شهر زاد تتمطى بجسمها المشوق
كالحسام بين وسائدها الحريرية)

شهر زاد (للعبد القائم على رأسها) : هل تم خطف توفيق الحكيم ؟

العبد : خطفناه يا مولاتى !

شهر زاد : وماذا فعلتم به ؟

العبد : ألقيناه فى جب القصر المسحور .

شهر زاد (ضاحكة عن در منضد) : هذا الساذج المعقد !

العبد : معقد !؟ هذا الرجل؟ كلا يا مولاتى .

شهر زاد : كيف؟ ماذا رأيتم ؟

العبد : إنه السهولة بعينها . لم نكد نقبل عليه بسلاحنا حتى خلع فى الحال معطفه وعصب ببعضه رأسه واتقى ببعضه جسمه ، ثم انطرح على الأرض فى هدوء رزين ، وجعل كأنه صريع قد أصيب ، وما وصلت إليه بعديد ، وما لمسته أصبع .

شهر زاد (باسمة) : لقد كفى نفسه شر القتال .

العبد : لما وجهتنا إليه يا مولاتى حسبنا أنا سنلاقى هزبراً .

شهر زاد : (ضاحكة) هزبر ؟ توفيق الحكيم ؟

العبد : بل أكثر من هذا يا مولاتى. قد وجدناه يحمل . . .

شهرزاد : كتاباً . .

العبد : بل « سنارة » مما يستعمل فى صيد السمك الصغير . وقد علق « خطافها » بثيابه ، من الروع لمرآنا !

شهرزاد (وهى تضحك) : ألم تجدوا معه قلماً وورقاً ؟

العبد : كلا . .

شهرزاد : لم تجدوا معه غير « سنارة » صاد بها نفسه !!

العبد — بل أنا يا مولاتى لم نجد معه « طعماً » مما يجتذب به السمك . ولم نجد معه سلة يضع فيها ما يصيد . كل ما معه ذلك العود من « الغاب » الذى لا نفع فيه ولا ضر .

شهرزاد (كالمخاطبة لنفسها) : نعم . إنى أعرف هذا الصنف من الرجال . إنه لن يصطاد سمكة فى حياته ، ولا أحسب أنه يذهب يوماً إلى بحيرة أو نهر أو بحر ، إنما هو يخلق فى رأسه كل الرغبات ، ويعد للوصول إليها المعدات ، ويغمر نفسه فى ذلك الجو الذى ابتدعه بخياله . حتى إذا كان على بعد خطوة من التنفيذ والحقيقة ، انتهى حلمه ولم يعد يعنيه من الأمر شىء

العبد : أو مثل هذا الإنسان نائم أو يقظان ؟!!

شهرزاد (على الفور) : إنه نائم كاليقظان ويقظان كالنائم

العبد : مولاتى . . . .

شهرزاد : مابك ؟

العبد : إنك . . . ترددين العبارة التى قالها هنا البارحة ذلك الرجل الذى كنت تنادينه بالدكتور .

شهر زاد (كمن يثوب إلى نفسه) : طه حسين !

العبد : من هذا الرجل ؟ إنى أراه . .

شهر زاد : تكلم !

العبد : شديد الدهاء . .

شهر زاد (باسمة) : ماذا رأيت من دهائه؟

العبد : لست أدرى على التحقيق . إنما فى كلامه وابتسامه شيء ينم عن سر مبهم وغرض خفى .

شهر زاد : رح . إنك لست أعرف منى بالرجال . ليس فى الأمر سر ولا غرض ، إنما هذا الدكتور رجل صريح مستقيم ، وقد أشار على بأمور سأعمل بها .

العبد : هو الذى أشار بخطف هذا الرجل المسكين !؟

شهر زاد : أيها العبد ! الزم مكانك ولا تعترض علىّ .

العبد : عفواً يا مولاتى وغفراً ! إنك تعرفين إخلاصى وخضوعى . إنها زلة لسان .

شهر زاد : هذا الرجل المسكين إنما هو مسكين حقًّا إذا تركناه حرًّا طليقاً ، إنما ينبغى أن نقتنصه ونحبسه فى هذا القصر المسحور لتزهر حياته ويبدو معدنه وتظهر قيمته .

العبد : من هذا الذى لا زهر حياته إلا فى الحبس ! ؟

شهر زاد : إنه ليس مثلك. إنه خلق ليبقى إلى جانبي يبادلني الفكر .

العبد : فهمت ، تريدين سميراً يؤانسك في أوقات الضجر .

شهر زاد (كالمخاطبة لنفسها) : نعم ، إني الآن في سأم دائم ؛ لأني لا أجد ، بعد شهر يار ، عقلاً وخيالاً يبهران عقلي وخيالي .

العبد : إن الملك شهريار ذهب ولم يعد .

شهر زاد (كالمخاطبة لنفسها) : نعم ، لقد أضعته أنا ، لقد كان حرًّا طليقاً مرحاً كالطفل ، فأوحيت إليه بأشياء كبرى مستحيلة ؛ ذهب يبحث عنها فلم يعد .

العبد (كمن نسي نفسه) : وقمر ، وأنا . . كل الناس كانوا أحراراً قبل أن يعرفوك !

شهرزاد (تثوب إلى نفسها) : ماذا تقول ؟

أجننت أيها العبد ! أنت تخاطبني بهذا الكلام ؟ أنسيت ما قلت لك : إن الماضي قد مات ، وإذا أردت أن تبقى حيًّا فكن خادماً لا يذكر شيئاً مما كان .

العبد : غفراً يا مولاتي . إنها كانت أيضاً زلة لسان .

شهر زاد : آه ! إني لفي ضجر . أو لم يعد عقلي قديراً على أن يوحي إلى أحد بشيء . . . ما هذا الشقاء !

العبد : أتأذنين ، أأحضر السجين بين يديك ؟

شهرزاد : نعم إنه الآن كل رجائي .

العبد : يا مولاتى ، لاتضعى كل أملك فى هذا المخلوق المسكين ! إنه غير قدير على صيد سمكة !

شهر زاد : ربما كان قديراً على صيد عقلى .

العبد : حاشا أن يكون عقلك يامولاتى أهون اقتناصاً من السمك !

شهر زاد : أيها الأحمق ! لامحل هنا لتلك المقارنة .

العبد : ومع ذلك . ألا تذكرين قول ذلك الدكتور !

شهر زاد : ماذا قال ؟

العبد : قال البارحة إن هذا الإنسان لم يفهمك قط ...

شهر زاد : سنرى .

العبد : متى تريدين رؤية السجين ؟

شهر زاد : الآن .

(يذهب العبد مسرعاً .. وتبقى شهر زاد بلاحراك تفكر لحظة، ثم تنهض فجأة وتتجه إلى مرآة فى ركن مظلم ناء فى أقصى المكان ، وتأخذ فى إصلاح هندامها وتنظم شعرها وصبغ شفتيها وأظافرها .)

العبد (يعود وهو يقود توفيقاً الحكيم بمعطفه الأسود و « سنارة » صيده) : تقدم يا هذا !

توفيق : (للعبد) إلى أين أيضاً ؟!

العبد : قلت لك تقدم !

توفيق (يتأمل ما حوله ويخاطب نفسه) : أما أنى خطفت فهذا

لاشك فيه . نعم . إن صحت فراستى وصدقت فطنتى فأنا الآن مخطوف . (يستدرك متنبهاً لما قال) ما هذا الحمق ! أهو أمر يحتاج إلى فراسة وفطنة أن أعرف أين أنا الآن ؟ إنى أكاد أجن جنوناً . أخبرنى أيها الأسود ! (يتأمل العبد ويخاطب نفسه معجباً) ما أصلح هذا الأسود لتمثيل دور « العبد » فى قصتى « شهر زاد » ! . . (يمسك بذراع العبد) أخبرنى أيها . .

العبد (يلمح مولاته مقبلة إلى وسائدها فينهر سجينه) : صه ! . .

توفيق : ماذا جرى ؟

العبد (همسا) : اركع !

توفيق : ماذا جرى ؟

العبد (همسا) : أركع ! . .

توفيق (لايفهم) : أركع ؟ لماذا ؟ لمن ؟

شهر زاد (تبدو فى جمال وجلال ودلال) : هذا أنت ؟!

توفيق (يلتفت إلى الصوت الموسيقى مشدوهاً لايتمالك إلا أن يركع من تلقاء نفسه فى غير وعى) ؟

شهر زاد (تبتسم راضية ثم تهمس إلى العبد) : اتركنا ،

العبد : (ينصرف وهو يلقى على السجين الراكع نظرة استغراب لحاله واضطرابه) ؟

شهر زاد (للسجين فى صوتها العذب) : انهض !



توفيق : (ينهض وهو مطرق)

شهر زاد (باسمة) : عرفتنى ؟

توفيق (فى صوت خافت ولم يزل عنه بعد أثر الدهش) : نعم .

شهر زاد (معجبة مغتبطة) : لايدهشني ذلك منك ، فأنت عقل كبير وخيال واسع .

توفيق : (ينظر إليها ولا يفهم عنها)

شهر زاد : لماذا تنظر إلىّ هكذا ! ألا تصدقنى ؟

توفيق : أ . . و . . تعرفيننى . . ياسيدتى ؟

شهر زاد : كيف لا . إنى أعرفك كما تعرفنى . ولقد كان ينبغى أن يلتقى أحدنا الآخر .

توفيق (لنفسه) : أرجو أن ينتهى هذا اللقاء على خير !

شهر زاد : ما هذه النظرة الحيرى ! ألا يسرك أن ترانى ؟

توفيق (مندفعا بتأثير جمالها) : بالطبع . إنه لشرف عظيم . . (ثم يتذكر فيستدرك :) كلا . . إنه ليس كذلك .

شهر زاد (فى تقطيب) : ماذا تقول ؟

توفيق : سيدتى ! لماذا أنا ههنا ؟

شهر زاد (باسمة) : إنك جئت كى ترانى وأراك .

توفيق : فقط ؟ كلا يا سيدتى . فى الأمر ولاشك غلط ! أنا رجل من أهل مصر أضنانى التعب والجهد طوال أعوام قضيتها فى

قراءة وكتابة وأعمال رسمية بغير هدنة أو انقطاع ، فجئت هذا الصيف إلى جبال الألب للنزهة وراحة البال . لكن ... بينا أنا أسير الهوينا فى المساء فى ذلك الطريق المؤدى إلى شاه‌ونيكس ، أستنشق النسيم المعطر بأريج أزهار التفاح والبندق ، القائمة أشجاره فى الغابات الخضراء بسفح الجبل ذى القمة البيضاء . إذا رجال مدججون بالسلاح . . .

شهر زاد (باسمة) : أعرف . . أعرف ؛ ولقد قاومتهم أنت مقاومة الهزبر !

توفيق : فعلت ما استطعت ، ولكن الكثرة تغلب الشجاعة .

شهر زاد (تخفى ضحكها) : صدقت : أيها الشجاع !

توفيق : وبعد يا سيدتى ، ومتى يخلى سبيلى ؟

شهر زاد (فى دلال) : أبهذه السرعة مللتنا ؟

توفيق : أنت حقًّا على غاية اللطف والظرف والجمال ولكن ...

شهر زاد : ولكن ؟

توفيق : روحى الآن ولاشك بين يديك الصغيرتين . وأنت الآن صاحبة الأمر والنهى . فمرى رجالك بإطلاق سراحى وخذوا مالى وثيابى حلالاً لكم .

شهر زاد (فى تقطيب) : ما ظنك بى ؟ إنك فيما أرى تجهل من أنا .

توفيق : لامع الأسف . لست أستطيع أن أجهلك . إن معرفتك لاتحتاج إلى فراسة ولا إلى فطنة .

شهر زاد (فى ارتياب) : من أنا ؟

توفيق : أنت ولا فخر زعيمة الخطافين .

شهر زاد (فى خيبة مرة) : أنا ؟ (كالمخاطبة لنفسها) أنا التى حسبت أنه عرفنى ! صدق الدكتور . إنه ليس ساذجاً فحسب . إنه أبله . !

توفيق (يرى تغيرها) : ماذا جرى ؟ أترينى غلطت يا سيدتى ؟

شهر زاد : لا

توفيق : أرى وجهك قد تغير .

شهر زاد : يا لخيبة الأمل !

توفيق : نعم . كنتم تحسبون أنكم وقعتم على موسر من أصحاب الملايين الأمريكان المصطافين . ولكن رجالك يا سيدتى قصار النظر إذ اختطفوا لك أديباً ، عامر الجيب لا بأوراق البنك ، بل بأوراق النثر !

شهر زاد (ترفع رأسها سريعاً فى أمل) : وهل أنت حقًّا عامر الجيب بالنثر ؟

توفيق : لا نثر ولا شعر . تركت كل هذا فى مصر وجئت هنا للراحة والسكينة وفراغ البال ؛ (بعد لحظة) وأنت ما يعنيك من أمر الشعر والنثر ؟

شهر زاد : هذا كل ما يعنينى . لقد اختطفتك لنثرك وفكرك .

توفيق (ساخراً) : شىء جميل !

شهر زاد : إن شئون الفكر والعقل والخيال هى كل حياتى .

توفيق : أنت ، يامن تخطفين الناس ليلا من الطرقات ! !

شهر زاد : إنى لا أخطف إلا الموهوبين أمثالكم .

توفيق (فى سخرية) : أستغفر الله !

شهر زاد : ألا تصدق ؟ آه لو عرفت حقيقتى لصدقتنى من ساعتك ولكنك نائم كاليقظان ويقظان كالنائم . تمر بك الحقائق كأنها أشباح وترى الأشباح كأنها حقائق . أأنت واثق بأنك لم ترنى من قبل ؟

توفيق : واثق أنك لم تشرفينى بالخطف قبل الآن .

شهر زاد : انظر إلى عينى الصافيتين !

توفيق : إنهما خضراوان كعيون القطط والسنانير !

شهر زاد : لقد شغفت بهما أنت يوماً ، وكتبت عنى وعنهما كتابا .

توفيق : أنا ؟ أين ومتى ؟ حاشا أن أكتب كتاباً عن امرأة أو عيون امرأة .

شهر زاد : إنى امرأة لا ككل النساء .

توفيق : حقيقة . لم أر مثل جمالك قط . ولو كنت ممثلة ، لما صلحت امرأة فى الوجود غيرك لتمثيل ذلك الدور العسير فى روايتى العسيرة. ولكنك امرأة على الرغم من جمالها لايعنينى الآن من أمرها شىء فما جئت الجبل أطلب المغامرات إنما أطلب الراحة والسكينة والصفاء .

شهر زاد : ألا أستطيع أن أدخل حياتك فأثير ساكنها ؟

توفيق : وما حظلك من إقلاق راحتى وصفوى ؟

شهر زاد : قد أوحى إليك بشيء .

توفيق : أى شيء ؟

شهر زاد : قصة مثلا أو كتاب .

توفيق : هل أغراك أحد بى ؟

شهر زاد : كلا . (بعد لحظة) هل تعرف طه حسين ؟

توفيق : إنه يقيم معى فى فندق « مون جولى » بسفح الجبل . ماذا جرى له ؟ أخطف هو أيضاً ؟

شهر زاد (كالمخاطبة لنفسها) : كلا. إنه لا يحوجنا إلى الخطف . إنى إذا طلبته فى أى حين أقبل على دائما دون إبطاء . .

توفيق : وكيف عرفته ؟

شهر زاد : إنى أقرأ كتاباته كلها منذ أن حمل القلم ، وأعرف كتبه « الأيام » و « فى الصيف » و « على هامش السيرة » كما أعرف نفسى .

توفيق : أمرك بدأ يدهشنى . من أنت ! أطالبة من طالبات السوربون ؟

شهر زاد : أنا ؟ ألا تعرف من أنا ؟

توفيق : قلت لك لم أنل بعد هذا الشرف .

شهر زاد : ألم تسمع بامرأة تدعى « شهر زاد » ؟

توفيق : سمعت بها حقيقة .

شهر زاد : سمعت بها فقط !! ياللك من .. كيف أصفك !
توفيق (يطيل النظر إلى شهر زاد) : أنت !؟
شهر زاد : عرفتنى حقًّا هذه المرة ؟
توفيق (كالنائم اليقظان) : هى !
شهر زاد (فى صوت كالهمس) : نعم . أما كنت تتوقع رؤيتى هنا ؟

توفيق : هى .. فى جبال ساڤوا العليا .! أهذا ممكن ؟ أهذا معقول ؟!

شهر زاد : إنك تعرف أنها تستطيع أن تكون فى كل مكان.
توفيق (كالمخاطب لنفسه) : « صورتها كانت تتبعك فى كل مكان . . . » .

شهر زاد : نعم ، هكذا قال شهريار عنى يومًا للقمر.
توفيق عجباً ! أنت إذن هى التى أوحت إلىّ بكتابى . أنت هى التى خرجت من عقلى وفكرى ! ومع ذلك يا شهر زاد. تخطفيننى اليوم وتحبسيننى بين جدران هذا القصر الكبير ؟!
شهر زاد : (باسمة) وأنت أيضاً ، ألم تخطفنى وتحبسنى بين دفتى كتاب من القطع الكبير !؟
توفيق : آه تنتقمين إذن ! ولكنك قد أسرفت وغلوت . فأنت قد خطفتنى وحبستنى فى الواقع والحقيقة .

شهر زاد (فى ابتسامة غامضة) : الحقيقة !

توفيق : هذا ما لاشك عندى فيه .

شهر زاد : دع الحقيقة فى مكانها هادئة .

توفيق (ينظر إليها مليًّا) : يا للعجب ! نعم إنى قد عرفت الآن ابتسامتك الغامضة ! أنت هى شهر زاد بلا مراء ، كما بدت فى مرآة فكرى لأول مرة . أتأذنين لى فى لثم يدك طويلا . ؟

شهر زاد : (باسمة وهى تمد يدها) طويلا ! إنكم معشر الأدباء سواء !

توفيق : هل أطال أديب غيرى لثم يدك ؟

شهر زاد (كالمخاطبة لنفسها) : البارحة فى منتصف الليل !

توفيق : ماذا تقولين ؟

شهر زاد (تلتفت إليه فجأة) : اسمع منى ! أتعرف لماذا طلبتك ؟

توفيق : لا

شهر زاد : آه ! ما أحوجنى اليوم إلى سمير يبقى إلى جانبى يزيل عنى السأم !

توفيق : أنا ؟ !

شهر زاد : ولم لا ؟

توفيق : أو لم تجدى فى هذا الخلق من يصلح غيرى لهذا المنصب الخطير !

شهر زاد : ليس فى الوجود غيرك . لقد دلنى عليك صديق أثق بحكمه وذوقه ورأيه .

توفيق : أهو صديق لك أم لى ؟

شهر زاد : لكلينا.

توفيق : إن صدقت فطنتى وفراستى فهو طه حسين ، اسمعى أيتها الجميلة ! لقد لعب بك هذا الصديق الذى تثقين بحكمه وذوقه ورأيه . فأنا آخر من يصلح لمسامرة الملكات الضجرات فى ليالى الصيف المقمرات !

شهر زاد : سنرى .

توفيق : المسألة لاتحتاج إلى تجربة . إنى رجل جئت من مصر طلبًا للكسل وبحثا عن راحة البال .

شهر زاد : سمعت هذه العبارة منك ألف مرة ومرة !

توفيق : سيدتى العزيزة ! لو سألتك أمنية غالية .

شهر زاد : كل أمنية لك مجابة مهما غلت .

توفيق : أريد أن تتركينى أتثاءب .

شهر زاد : إلا هذه . أنت ما خلقت لهذا .

توفيق : آه ! كم أضيق الآن ذرعا بهذا الصنف من النساء !

شهر زاد : أتسمع نصحى ؟ اذعن لما كتب عليك . ولا تكن عنيداً كشهريار فى أول أمره . إنك باق إلى جانبى تسامرنى رضيت أو أبيت . فلا تضطرنى إلى العنف والإكراه .

توفيق : العنف ! كلا ، لا لزوم للعنف بعد الآن . كفى ما حصل من خطف وقبض وسجن . أسامرك وأمرى لله ! (كالمخاطب

لنفسه) ولكن الله يتولى جزاءك يامن أغريت بى وحرضت علىّ .

شهر زاد (تستلقى على الوسائد وتضع رأسها فى راحتيها) : الآن حدثنى عن أثر جبال الجليد فى نفسك ، وعن الغابات الخضراء . وعن ثمر البندق . هل حقًا استكشفته وأكلته بقشره ! !

توفيق : يحدثك عن كل هذا الذى أخبرك به . فهو قدير على وصف ذلك بالإبداع الذى وصف به جبال « الفوج » فى كتابه « فى الصيف » وأنت تعرفينه كما تعرفين نفسك !

شهر زاد : ولكنى أريد أن أسمع منك أنت ما حدث لك .

توفيق : ماذا حدث لى ؟ لقد نسيت .

شهر زاد : ألا تريد أن تقص علىّ ؟ !

توفيق (فجأة) : صه ! قد خطرت لى فكرة نورانية . أتريدين قتل الضجر ؟ عندى له دواء ناجع . هلمى بنا .

شهر زاد : إلى أين ؟

توفيق : إلى البحيرة . هذه « سنارتى » وآتى لك « بسنارة » ثم نذهب معًا نصطاد سمكاً . . من سمك « التروية » الذى تعجّ به البحيرة والجداول المنحدرة من الجبال .

شهر زاد : أنا أصطاد سمكاً ؟ !

توفيق : وما الضرر ؟

شهر زاد : أهذا رأى تراه لى ؟ ! يالك من . . ماذا أقول لك ؟

توفيق : إنى لا أرى فى ذلك سبة . لقد كان أبوك صياداً .

شهر زاد أبى ؟

توفيق — لقد قرأت ذلك بعينى فى نسخ عدة من كتاب ألف ليلة وليلة .

شهر زاد : إنك قد جاوزت حدك يا هذا .

توفيق : صدقت . وإنى لا أستحق منك الآن غير الطرد خارج هذا القصر .

شهر زاد : إنى لست بلهاء فأفعل ذلك . إنك باق هنا كى تسامرنى . . هلم . ! سامرنى !

توفيق : لا حول ولا قوة إلا بالله !

شهر زاد : إن كنت لا تجد من الحقائق معيناً فأين الخيال؟! هل نضب خيالك هكذا وشيكاً ؟!

توفيق : يظهر لى أنه نضب .

شهر زاد : واخجلاه! هذا مؤلف وروائى وأديب يعجز عن مسامرتى ليلة واحدة . وأنا التى سامرت ملكا جاهلاً غشوماً ألف ليلة وليلة!

توفيق : كلنا نعرف لك هذه العبقرية .

شهر زاد : كنت أحسبك تستطيع أن تستنبط لى شيئاً يسحر لبى !

توفيق : انى أستطيع شيئاً .

شهر زاد : ما هو ؟

توفيق : أستطيع أن أصغى إليك.. تكلمى أنت واستنبطى ما شئت وأنا أصغى .

شهر زاد : هذا بديع ! اختطفتك وجئت بك إلى هنا كى أسامرك أنا ؟!

توفيق : إنك خلقت كى تتكلمى أنت .

شهر زاد : ماذا تقول ؟

توفيق : أقول إن كل عملك فى الوجود أن تتكلمى فيصغى إليك الناس . لا كل الناس . بل المجدودون والموهوبون !

شهر زاد : صدق طه حسين . إنك معقد ! بل أكثر من معقد . إنك خبيث !

توفيق : وطه حسين ! أهو البراءة بعينها ؟ ألا تعرفين أنه مكر بك مكراً جميلا .

شهرزاد : كيف ذلك ؟

توفيق : إنه هو الذى كان يستطيع أن يسامرك أبدع المسامرة . ولكنه مشغول ليله ونهاره « بالمتنبى » ولقد أغراك بى ليفلت هو ويخلص إلى شاعره . وهكذا آثر « المتنبى » على «شهرزاد» . .

شهرزاد : أهو فعل هذا ؟

توفيق (منتصراً) : عليك به ! وخطفه هين سهل . فهو يجلس حيناً بمفرده يفكر تحت شجرة الزيزفون الكبيرة فى حديقة الفندق ، وأحياناً يجلس معه صاحبه « فريد » يقرأ له . ولا جناح ولا تثريب فى خطفهما معاً .



من شهرزاد

سمعت شهر زاد من أسيرها هذا الإغراء فرفعت كتفيها الجميلتين رفعاً رفقاً أنيقاً لا يكاد يحس وقالت فى سخرية لم يلحظها الأسير الأديب: « رأى موفق » . ثم تناولت قضيباً دقيقاً من العاج فمست به إناء أجوف من الفضة سمع له صوت فيه عذوبة وخفاء ، وانفرجت له أستار جانبية من القطيفة المقصبة ، وخرج من بين هذه الأستار ثلاث فتيات حسان قد اعتدلت قاماتهن أجمل اعتدال وصورت وجوههن أحسن تصوير ، تقدمن فى خطى متزنة متقاربة حتى إذا دنون من سيدتهن انحنين فأطلن الانحناء ، ثم استوين فأحسن الاستواء، والأسير قائم ذاهل يردد طرفه الحائر بينهن وبين سيدتهن لايفهم شيئاً ولا يقول شيئاً ، وشهرزاد تنظر إليه وعلى ثغرها ابتسامتها الغامضة وتقول له فى صوت تملؤه الأناة والمكر والدهاء والشعور بقوة الملك والسلطان معاً : « لايزغ بصرك ياسيدى ولا تسرع إليك الفتنة فإنك لم تتجاوز بعد أول الطريق » .

ويختلط الأمر على الأسير فيذهب عنه ما كان قد أظهر من تجلد واصطنع من وقار ، ويسوؤه أن قد نفذت شهر زاد إلى نفسه فرأت اضطرابه وتردده وحيرته بين هذا الجمال الخالد الذى استقر بين الوسائد الحريرية ، والذى كان يحاوره منذ حين ، وهذا الجمال الرائع الذى انفرجت عنه الأستار ،ويهم أن يجمجم معتذراً ، ولكن شهر زاد

تخفف عليه المؤونة وتضع عنه الوزر ، وتتجه إلى هؤلاء الفتيات الحسان قائلة :

خذن هذا السيد ، فأصلحن من أمره وهيئنه لمسامرتى ، ثم عدن به إلى إذا صار لها أهلا . . !

هنالك يطيش لب الأسير ويغيب رشده ويفارقه صوابه ، فيسأل بماذا تأمرين يا سيدتى ! وماذا تريدين أن يصنع بى ! وإلى من تسلمينى ؟! . .

فتجيبه شهر زاد مبتسمة فى شىء من القسوة ، ألم تنظر إلى المرآة ؟ ألم تر أنك أشعث أغبر ؟ أتظن أنك على هذه الحال الرثة تصلح لمسامرة الملوك ؟

قال الأسير :

سيدتى إنى لا أصلح لشىء ولم أطلب شيئاً إلا أن أرد إلى حيث كنت وأعود حرًّا طلقاً أطوف فى المسالك والطرقات حول سالنش وألتمس غديراً أصطاد فيه السمك .

قالت : ولكن الله أراد لك أن تمسى لى سميراً .

قال : وأنت تسلمينى إلى هؤلاء الفتيات الحسان فماذا تريدين أن يصنعن بى ؟

قالت : يصلحن من أمرك ويزلن عنك ما ركبك من الغبار وما علاك من شعث ، يجرين المشط والمقص على رأسك ، وينزهن الموسى فى لحيتك هذه ، ويأخذن من أظافرك ويبدلنك من ثياب المدينة

هذه ثياب القصر ، ثم يردّدنك إلىّ سمحاً طلقاً لاتقتحمك العين ، ولا يتجافى الطرف عن النظر إليك .

قال مرتاعاً : وهن اللاتى سيصنعن بى هذا كله؟

قالت : ومايسوؤك من ذلك .

قال : ما أعرف والله ما يسوؤنى مما يسرنى ، ولكنى أتوقع يوماً كيوم بفنوس .

قالت : فى قصة أناتول فرانس لقد ألهمته هذه القصة فى ساعة من ساعات فراغه وفى لحظة من لحظات عبثى . ولكن لابأس عليك فما أنت بالقديس وما أنا . .

قال مسرعاً : عفواً يا سيدتى .

وأشارت هى إلى الفتيات أن أسرعن ، فأحطن به ودفعنه دفعاً يسيراً إلى ماوراء الأستار .

وخلت شهرزاد إلى نفسها فأخذت قلمها وكتبت إلىّ هذا الكتاب الذى ألفيته من الغد على مائدة صاحبى لم يحمله إلى ساعى البريد ، ولم يعرف صاحبى كما لم أعرف كيف وصل إلينا .

« سيدى :

« لك منى الشكر المضاعف والتحية الخالصة ، لقد وجدت فى زيارتك إياى راحة وترفيهاً علىّ ، ولقد استقبلت بعد انصرافك عنى نوما هادئاً مطمئناً ، ولقد نصحت لى فصدقت النصح ، وأشرت على فأحسنت المشورة ، فقد خطف أصحابى صديقك الأديب وحملوه

إلىّ على الحال التى كان عليها فى طريق من طرق سالنش أشعث أغبر مهملاً قد اختلط أمره وهو يحسب أن الرشد لم يفارقه، وامتلأ قلبه روعاً ورعباً وهو يظن أنه أشجع الناس.

« حملوه إلىّ وقد اتخذ معطفه ترساً يتقى به ما أقبل عليه من شر، ولم يخطر له أن يقاوم المعتدين عليه حتى بعصا الصيد هذه التى كان يهزها فى يده كما يهز الفارس العربى رمحه السمهرى. ولم أكد أراه وأسمع له حتى استيقنت أنه، كما أنبأتنى، ساذج برىء. زعم أنه شجاع وأنه ذاد عن نفسه ما استطاع، ولم يقدر أن الذين حملوه إلىّ قد أنبأونى بما لقوا من مقاومته وما بلوا من حسن دفاعه عن نفسه. ولكنى لم أكد أحاوره وأطيل معه الحديث حتى تبينت أنه — كما أنبأتنى عنه — معقد شديد التعقيد، فقد أخذ يداورنى ويماكرنى ويلتوى إلى جملا ذات وجهين وأخرى ذات أوجه. راعه أنى اتخذته سميراً فأراد أن يخلص من هذه الخدمة التى يتهالك عليها كثير من الأدباء وتتقطع دونها أعناق كثير من أصحاب المواهب والنبوغ. فسلك إلى هذا التخلص طرقاً أيسر ما توصف به أنها يسيرة كل اليسر ملتوية كل الالتواء. ألم يطلب إلى أن آذن له فى أن يتثاءب؟ أرأيت أديباً يتثاءب فى حضرة شهر زاد؟ ألم يعرض على أن أصحبه إلى الغدير أو البحيرة لنصطاد السمك معا؟. فلما لفته إلى أن شهر زاد لا ينبغى لها أن تصطاد السمك لم يخف من أن يذكرنى بأن أبى كان صياداً.

« إنه لساذج كل السذاجة، معقد كل التعقيد. لقد كان يدفعه

تعقيده إلى أن يمكر بى وينثر لى الشباك والأشراك ، ولقد كانت سذاجته تخيل إلى أنى قد انخدعت لمكره ووقعت فى حبائله . فقد كان يفهم كلامى على وجهه ولا يقدر أنى أستطيع أن ألقى مكراً بمكر ، وعبثاً بعبث وخداعا بخداع . له الله ، إنه يظن أن المكر وقف عليه ، وأن الدهاء لم يخلق إلا له . إنه قد فهم كيد النساء فظن أنه أبلغ كيداً من النساء ، ولكنى ملكت أمرى أكثر مما ملك أمره ، فخيلت إليه وخيل هو إلى نفسه أنى لم أنكر مما قال شيئاً ، وأظهرت له يأسى منه وخيبة أملى فيه وفى قدرته على أن يسامرنى ويطرد عنى الحرج والضيق . فسره ذلك وأرضاه وظن أن انتصاره محقق وأن الإفراج عنه قريب ، ولست أريد أن أغريك به ولا أن أفسد ما بينك وبينه من الود ، فأنا حريصة على أن تصلح الأمور أبداً بينكما ، ولست أريد أن أعاتبك ولا أن ألومك ، فإنى لم أصدق ما قال فيك ، ولم أنخدع بكيده لك ، ولكنى أريد أن أؤكد لك أنه ساذج حقًّا . فقد زعم لى وظن أنى سأصدق ما زعم لى ، زعم لى أنك رغبتنى فى مسامرته لتفلت أنت من هذه المسامرة وتخلو إلى شاعرك الذى أنت مشغول به ، والذى تؤثر الاستماع له والتحدث عنه على مسامرة شهر زاد .

« وقد رأى منى ما أقنعه بأنى مصدقة محنقة مفكرة فى الانتقام فتجاوز الكيد إلى الإغراء ، وعرض على أن أخطفك كما خطفته ، ويسر على أمر خطفك من حديقة الفندق تحت شجرة الزيزفون أو من هذه الغرفة التى تخلو فيها مع صاحبك إلى شاعرك هذا الذى

يشغلك فى هذه الأيام . وقد أظهرت له قبول رأيه ، فلا تسل عما ملأ قلبه وظهر على وجهه من الغبطة والبشر ، ولكن ابتهاجه لم يطل ، فما أسرع ما دعوت ثلاثاً من جوارىّ فأمرتهن أن يأخذنه فيفعلن به الأفاعيل . ثم يرددنه إلىّ وقد صار أهلاً لمسامرتى. ولورأيته بين أيدى هؤلاء الفتيات لرأيت عجبا ، ولو سمعته يتحدث إليهن لسمعت عجباً ؛ ولكن لن أقص عليك شيئاً من ذلك وإنما أدع له إنباءك به ، فإن له فى هذا فناً لايخلو من فكاهة ترضيك ، وأنت ستراه من غير شك وستراه عندى ، فما أظنك تكره زيارتى ، وما أصدق أن المتنبي يشغلك عنى . وهب المتنبي قادراً على أن يصرفك عن شهر زاد فإن صاحبك فى حاجة إليك . فأمره أشد مما تظن خطراً . بل هو أشد خطراً مما كنت أقدر ومما كنت أريد .

« لقد كنت ألتمس سميراً فدللتنى عليه ، ولكن قصرى لم يكد يحتويه حتى كثر الماكرون به والكائدون له والمتألبون عليه، هؤلاء أشخاصه الذين خلقهم خلقاً فى هذه القصة التى نسجها حول شهر زاد ، والذين بعد عهدهم بى وانقطعت أخبارهم عنى حتى أنسيتهم أو كدت أنساهم ، وحتى نسونى أو كادوا ينسوننى ، قد عرفوا مكانه من القصر وخضوعه لسلطانى ، ولست أدرى كيف عرفوا ذلك . فأقبلوا جميعاً، ولست أدرى من أين أقبلوا وكلهم يريد أن يخاصمه وكلهم يريد أن يقتص منه لأنه صورهم على غير ما يحبون وأنطقهم بما لا يرضون، وأجرى على أيديهم من الأعمال وأدار فى رؤوسهم من الخواطر ما لم يخطر لأحد منهم

ببال . وما ظنك بشهريار الذى فارقنى منذ أحقاب وأحقاب ، وقد عاد إلى اليوم يحاورنى ويجادلنى فى هذا الرجل الذى صوره كما تعرف وجعله كما يقول مثلاً للغباء الذى يزعم الذكاء ، والغفلة التى تدعى الفطنة ، والضعف الذى يتكلف القوة ، ومثلا لأكثر من ذلك ، وهو يلومنى ويغرينى ويحرضنى ، ويسألنى كيف أعفو عن هذا الذى اتهمنى فيما لا ترضى امرأة حقيرة أن تتهم فيه ، فكيف بملكة كريمة مثلى متسلطة على القلوب خالدة على الأزمان . وقمر يقسم ما أضمر لمليكه غدراً ولا أدار فى خلده شيئاً يستحى أن يظهره .

« والعبد — وويل لصاحبك من العبد — إنه ثائر فائر ، إنه مرغ مزبد ، إنه مبرق مرعد ، إنه يريد أن يمزق صاحبك بأنيابه وأظافره ، إنه لا يطيق التفكير فى العفو على هذا الرجل الذى جعله صورة بشعة لأبشع ما يتسلط عن العقول والأبدان . وهو يغرينى ويحرضنى ويريد أن يضرم النار فى قلبى لولا أن قلبى أهدأ من أن تضطرم فيه النار . وهو يسألنى كيف أترك الحياة لرجل صورنى فى هذه الضعة وجعلنى أهبط من أعلى عليين لأكلف بهذا المخلوق البشع الدنىء ، والساحر يقسم ما سحر ، والجلاد يقسم ما باع السيف لينفق ليلة هنيئة ، وأبو ميسور يقسم ما أظلت حانته إثماً قط ، حتى زاهدة تقسم ما عرفت سراً ولا سئلت عنه ولا باحت به ولا اتخذت وسيلة إلى معرفته . وكل هؤلاء مغيظ محنق يلح على فى أن أنتقم له وأنتقم من صديقك البائس المسكين ، ومع أنى كنت ضيقة به ساخطة عليه حين قرأت كتابه ، فقد أدركتنى

الرحمة له والرفق به حين رأيت هذه الأشباح كلها تريد أن تشرب دمه وتأكل لحمه وتعرق عظمه عرقاً ، أسرع إلى زيارتي ياسيدى فلعلك تعينني على حماية هذا الصديق المسكين .

« على أنني لا أريد أن يظن بي صاحبك أني خطفتك كما خطفته ، فأنت أحب إلى وأوثق عندى من أن تخطف ، ولكني أريد أن تنبئني باستعدادك لزيارتي ، فاكتب إلى إن كنت فى هذه الزيارة راغباً ولا تكلف نفسك محاولة إرسال الكتاب إلى . ولكن إذا أتممت إملاءه فليضعه صاحبك على المائدة فهذا يكفى . وأنا مظهرة أسيرى البائس على كتابك ليعلم أن الناس جميعاً لا يختطفون ، وأن منهم من يزورون شهر زاد عن شوق إليها ورغبة فى زيارتها ، وأن المتنبى مهما يشغلك فلن يصرفك عنى . وإلى أن يصل إلى كتابك أرجو أن تتقبل يا سيدى تحية التى تنتظرك مشوقة إليك »

شهر زاد



إلى شهرزاد

ولست أدرى كيف أصف لك أيها القارئ العزيز ما أحدث هذا الكتاب فى نفسى من الأثر ، فأنا صادق إن أنبأتك بأنه ملأ قلبى بهجة وسروراً ، وأنا صادق إن أنبأتك بأنه ملأ قلبى جزعا وفزعاً ، وأنا صادق كذلك إن أنبأتك بأنه أثار فى نفسى حزناً يسيراً . فأما البهجة والسرور فلأنى كنت أتحرق شوقاً إلى لقاء شهر زاد . . وأما الجزع والفزع فلأنى كنت أرتعد إشفاقاً على توفيق الحكيم أن تتقسمه هذه الأشباح فيذهب شهريار برأسه ، ويذهب كل واحد منها بشلو من أشلائه . وأنا الذى دل عليه شهر زاد فعرضه لهذا الخطر المنكر ، وللرجل أهله وأصدقاؤه فى مصر قد فارقهم منهوكا ضعيفاً ليعود إليهم قوياً أيداً . وهو بعد هذا كله صديق لى حبيب إلىّ ، أوثر له العافية وأضن به على المكروه ، وأتمنى له حياة متصلة مملوءة بحركاته هذه المضطربة المتناقضة التى ترضى وتسخط وتسر وتسوء . وأما الحزن اليسير فلموجدة أحسستها حين رأيت صديقاً يكيد لصديقه وأديباً يتجنى على أديب . ولست أنكر أنى قد مكرت به شيئاً حين أغريت به شهر زاد ، ولكنى لم أرد به إلا خيراً لأنى أتحت له لقاء تلك التى جعلته رجلاً معروفا . فما كنت أقدر أنه سيمكر بى ويكيد لى على هذا النحو . أما صاحبى فلم يجد إلا غبطة وفرحاً لأنه سيرى شهر زاد وقصر شهر زاد . وكان يقول لى : هون عليك فما يتعرض صديقك لخطر ما ، ومتى رأيت الأشباح تتقسم

بينها أجسام الأحياء ؟ وهل تستطيع هذه الأشباح أن تثبت لكيد شهر زاد ومكرك أنت إذا اجتمعتما على حماية توفيق ؟ ومع ذلك فإنك تحفظ كثيراً من هذه الصيغ السريانية والكلدانية التى تتلوها فتطرد بها الأشباح من المكان الآهل بها ، وترد هذا المكان آمناً كله لاخوف على أهله ولا هم يحزنون .

وكان يقول لى لاتجد على توفيق ولا تسىء به الظن ، فقد ضاقت عليه الحيل وأخذت عليه الطرق فاتخذ الوقيعة فيك عند شهرزاد وسيلة إلى الإفلات من سجن شهرزاد . وأنت تعرف صاحبك واندفاعه ورجوعه بعد الاندفاع . ومن طبيعة الأدباء أن يمكر بعضهم ببعض ويكيد بعضهم لبعض ، والأمر منته بينكما إلى مودة لاتشوبها ضغينة ولا حفيظة. فخلص قلبك من الحزن والخوف ، وخل بينه وبين الفرح بلقاء شهرزاد، وامل على الكتاب الذى تنتظره منك .

ثم يبسط الصحف أمامه ويأخذ القلم ويعفينى من هذه الحركة التى ألفتها كلما هممت بالإملاء ، وهى التماس السجاير ، فيقدم إلى السيجارة ويشعلها ويقول ما تعود أن يقول « نعم» فأملى عليه :

« أدركنى كتابك ياسيدتى ، وقد بلغ منى الجهد والإعياء أقصى ما يستطيعان أن يبلغا من رجل لم ينم الليل ولم ينم بالنهار . لو تعلمين كيف أنفقت الساعات واللحظات منذ ودعتك لما احتجت إلى أن تنبئينى بأنك لاتقبلين فى سعاية ولاتستجيبين فى لكيد . أتعرفين شيئاً أروع من الليل العريض يجثم على الفضاء العريض منيخاً بكلكله كما يقول

شاعرنا القديم . وقد أخذت السماء ترميه من أشعة النجوم بسهام ماضية تبلغه وتنفذ فيه ، ولكنها لاتنال منه شيئاً ولاتحدث فيه أثراً ، وإنما هو ثابت لاينتقل ومستقر لايزول. أما أنافقد عرفت روعة هذا الليل ورهبته أمس حين استقبلت المساء على غير موعد منك ، ولكنى مملوء القلب أملاً . ألا يتقدم الليل حتى تأتيني رسلك فأنفق معك ساعات كتلك الساعات التى لن أنساها. ولم يكن صاحبى فيما أعلم أقل انتظاراً منى لهذه المفاجأة الحلوة ولا أقل حرصاً منى على هذه الدعوة الكريمة . إنه لم يتحدث إليك ولكنه رآك واستمع لك ، وهذا يكفيه ليملأ قلبه شوقاً إلى رؤيتك وكلفاً بحديثك، لقد استقبلنا الليل ياسيدتى وإن قلبينا ليضطربان بهذا الأمل ويخفقان بهذه الأمنية ، ولقد حاولنا أن نقرأ الصحف وننظر فى الكتب ، فجعل صاحبى يقرأ ما لا يرى وجعلت لا أسمع لما كان يقول ، تركته تائهاً فى صحفه وكتبه وتركنى ذاهباً مع الأمل والخيال . كلانا يظهر لصاحبه أنه معنى به ملتفت إليه ، وكلانا يخفى على صاحبه أن عقله قد فارقه وأن لبه أسير هناك فى ذلك القصر الذى رأيناه وأقمنا فيه وتحدثنا إلى أهله وسمعنا منهم ، ولكننا لانعرف إليه طريقاً ولانستطيع إليه سعياً . وانتصف الليل فإذا الأمل كاذب ، وإذا الرجاء خائب ، وإذا الحسرة لاذعة ، وإذا هى تبدى نفسها ، وإذا كل منا يرى صاحبه كما هو ، وإذا نحن نفترق لا لنأوى إلى المضاجع ، ولكن لنسأل عنك ظلام الليل ونجوم السماء وهذا النسيم المضطرب فى الجو .

« نعم ياسيدتى لقد تركت صاحبي لا لأستريح ولكن لأخلو إلى خيالك و إلى ذكرك حين أعيتني الحلوة إلى شخصك . فأنفقت ما بقى من الليل جالساً فى شرفة تخرج عن غرفتى شيئاً أستقبل الليل وآنس إلى صمته الرهيب وأستمتع بهذه الموسيقى الخافتة التى تبعثها فيه أحياء الغابة والحقول . أو أذعر من حين إلى حين لهذه الدقات التى تضطرب فى الجو تحسب المسكينة أنها تقيد الليل وتقسمه أجزاء وتنبىء بماضى منه وتتنبأ بما بقى ، وتتأذن بما بيننا و بين الفجر من آمال . وإنها لتفعل هذا كله بالقياس إلى الذين أقفرت قلوبهم من الحب و برئت نفوسهم من الشوق ، فأما الذين رأوا شهر زاد ثم نأوا عنها فليلهم متصل لاينقضى ونهارهم متصل لاينقضى أيضاً ، لأن ليلهم ونهارهم عليهم سواء ، كلاهما مظلم ، وكلاهما جامد ، وكلاهما طويل ثقيل ، كأن هؤلاء المحبين لايعرفون الشمس إلا حين يشرق لهم وجه شهرزاد ولا يعرفون الأمن والهدوء والدعة والنعيم إلا حين يغمرهم جمال شهر زاد .

« لقد صدق توفيق الحكيم ياسيدتى فأنا فى هذه الأيام مشغول بالمتنبي ولكنى مشغول به عن كل شىء وعن كل إنسان إلا أنت . فإن أمنيته الملحة عليه المضنية له المنغصة لليله ونهاره ؛ تشبه أمنيتى الملحة علىّ المضنية ، لى المنغصة لليلى ونهارى ، ولكنى لا أتمنى كما كان يتمنى ملكاً وسلطانا ، ولا أشتهى كما كان يشتهى ثروة وغنى ، وإنما أتمنى لقاءك والاستمتاع بجوارك القريب ، وأى ملك يشبه الخضوع لك أو يعدل الإذعان لأمرك ، وأى ثروة تشبه الشعور بأنى قريب منك ليس

بينى وبين الغنى الذى يمتع القلب والعقل إلا أن أتجه إليك فأسمع منك أو أحس قربك منى ؟

« رحم الله المتنبى ياسيدتى فقد أعاننى على احتمال الشوق ويسر على بعض الشىء ثقل الليل لأنه ترجم عما كنت أجد فى هذه الأبيات التى تغنى بها ذات ليلة فى أنطاكية وتغنت نفسى بها الليلة البارحة فى سالنش ، ولولا بقية من عقل تأبين أن تستأثرى به كله رحمة بمحبيك ، لأطاع لسانى نفسى ولاندفعت مغنياً هذه الأبيات يشق صوتى بها سكون الليل ويوقظ بها الهادئين الهاجعين من حولى .

« أتذكرين هذه الأبيات ياسيدتى ؟ وهل تنسين شيئاً ؟ وهل ينبغى لك أن تنسى شيئا ؟ استمعى لها فإنها لاتصور المتنبى وحده وإنما تصور كل محزون كئيب قد حيل بينه وبين ما يتمنى وأكره مع ذلك على أن يحيا فيسهر الليل ويضطرب فى النهار !

أعزمى طال هـذا الليل فـانظـر
أمنك الصبح يفـرق أن يـؤوبـا
كـأن الفجـر حـب مسـتزار
يـراعى من دجنتـه رقيبـا
كـأن نجـومه حـلى عليـه
وقـد حـذيت قوائمه الجبـوبا (١)

---

(١) الجبوب : الأرض . وحذيت : قطعت ، فكأنه أراد قد قطعت له من الأرض قوائم فليس يبرح .

كـأن الجـو قاسى ما أقـاسى
فصـار سـواده فيـه شحـوبا
كـأن دجاه يجذبهـا سهـادى
فليس تغـيب إلا أن يغيبـنا
أقلـب فيـه أجفـانى كـأنى
أعـد به على الـدهر الذنوبا
ومـا ليـل بأطـول من نهـار
يظـل بلحـظ حسـادى مشـوبا

« بهذه الأبيات تغنى ضميرى بقية الليل ولكنه كان يضع الشوق موضع العزم؛ فإن فراقك لم يبق لى عزماً ولا حزماً. ثم أشار الفجر بأصبعه الوردية التى أريتها أنت يا سيدتى لضرير اليونان منذ ثلاثين قرناً؛ فإذا الليل الجاثم ينهزم ، وإذا الشمس تقبل فتبسط الضوء والحياة على كل شيء وفى كل نفسى ، ولكنى أظل محروماً ضوء الشمس وحياتها لأنك أنت الشمس والحياة . وأنا أحمل الطير المستيقظة التى تغدو من وكناتها فرحة مرحة يسكرها نسيم الصبح وبرد الندى وضوء الشمس رسائلى إليك لعل بعضها أن يمر بقصرك المسحور فيرسل من فيه نغمة تحمل إليك بعض ما أجد من لوعة ، وما أقاسى من ألم . وأنا أهيم مع صاحبى وجه النهار فى الجبال والربى أسأل عن أخبارك طير الغاب وما يعبث بأغصان الشجر من نسيم ، وأسأل عن أخبارك هذه الغدران الضئيلة الصافية التى تنحدر من الجبال متعطفة متلوية تناجى الصخور وتناغى الحصى لعل فى مناجاتها ومناغاتها شيئاً من حديثك يرد إلى بعض ما فقدت من أمن وهدوء .



« ولم تحمل إلى الطير نبأ ولم يبلغني النسيم خبراً ولم ترد إلى مناجاة الغدران ومناغاتها أمناً ولا هدوءاً فأعود قانطاً مستيئساً ، ولكني أجد كتابك ، فتبيني الآن أمشغول أنا عنك بالمتنبي ؟ أكنت زاهداً في جوارك حين ودعتك ، أكنت راغباً عنك حين عدت إلى هذا الفندق الذي أضيق به الآن أشد الضيق .

« لبيك يا سيدتي، لبيك دعوة كريمة وطاعة سريعة لا تنتظر إلا أن تأمري بأن أشخص إليك. لست مشغولاً عنك بشيء ولا بأحد ولست فارغاً لأتحدث عن كيد توفيق لي عندك فليس يعنيني إلا أن أبلغ رضاك عني وأضمن ثقتك بي ؛ ومع ذلك الله يعلم ما أردت بالصديق الأديب شرًّا ومتى كان القرب منك شرًّا . إنما آثرته على نفسي حين دللتك عليه وأنبأتك به . وآثرتك أنت على نفسي ياسيدتي لأن توفيقاً كان يسليني ويلهيني ويفتح لي أبواباً من الرضى والبهجة ، ويعرض علي فنوناً من العبث والضحك ما كنت لأفرط فيها لولا أني أحسست حاجتك إليه .

« لا تيأسي منه يا سيدتي فتجدين عنده ما تريدين ، آمنيه وهدئي روعه ، ثم دعيه يرسل نفسه على سجيتها واستمعي لحديثه وأجيبيه جادة حيناً وهازلة حيناً وانتظري نتيجة ذلك فسترضين . لقد طلب إليك أن تصحبيه إلى الغدير لتصيدي السمك معه ، فاصحبيه يا سيدتي وأظهري أنك تريدين الصيد، فستضحكين كثيراً قبل أن تبلغي الغدير حين ترينه فارساً مغواراً وبطلا كميًّا قد ملأه الفخر والإعجاب والتيه

بما يحمل من أداة الصيد، وستضحكين كما ضحكنا حين يبلغ الغدير ويلقى أداة صيده فى الماء ثم يحس حركتها ثم يحس ثقلها ثم يستيقن ياسيدتى أنه قد ظفر بكنز من هذه الكنوز، التى سحرت بها عقل شهريار، ثم يخرج أداة صيده من الماء إلا أنه قد فقد السنارة.

« ستضحكين يا سيدتى حين ترينه يعاود هذا الجهاد مرة ومرة، ثم يرجع معك وقد صفرت يده من الصيد واضطربت نفسه بين الرضى بما جاهد والسخط على ما أخفق، فهو يرثى لنفسه وهو يضحك من نفسه، وهو يحملك على أن ترثى له وتضحكى منه . نعم وستغرقين فى الضحك حين ترينه يصطاد نفسه بعد أن عجز عن صيد السمك. نعم يصطاد نفسه ياسيدتى، لاتنكرى ولا تدهشى، فقد اصطاد توفيق نفسه ذات يوم؛ اختلط فى خيطه وارتبك ولم يعرف لنفسه مذهباً فاستغاث : « انجدونى فقد اصطدت نفسى » وأقبل أصحابنا عليه فلم يخلصوه من سنارته إلا بعد جهد، ثم خافوا عليه أن يصطاد نفسه مرة أخرى فجردوه من سلاحه الخطر ولفوه فى بعض الورق، وقالوا له احتفظ به ولاتخرجه إلا عند الغدير، ولكنه أضاع سلاحه ياسيدتى، وعاد أعزل إلا من هذه العصى التى لاتنفع ولا تضر.

« وأنا قاس حقاً أتندر بهذا الصديق البائس وقد أحاط به ما وصفت من خطر وتألبت عليه هذه الأشباح العاتية تريد أن تمحقه محقاً وتسحقه سحقاً. كلا كلا لن ترضى نفسك عن هذا ياسيدتى، ولن تسمحى به، ولن تأذنى فيه . . . من يسليك إذن ومن يسلينى ومن يسلى قراء العربية من

المصريين والشرقيين ، وقراء الفرنسية والروسية أيضاً فقد ترجم إلى الفرنسية والروسية كما تعلمين .

« كلا كلا ، ستحمينه وستقومين دونه ياسيدتى إبقاء على شخصه ورحمة لأهله وأصدقائه ومحبيه ثم حفاظاً للأدب وذوداً عن حرية الرأى ، يا للشر يا للخطر ، ياللبلاء حتى أرواح الموتى قد مستها عدوى الطغيان فهى تمقت حرية الرأى وتعاقب العقل حين يفكر والقلب حين يشعر ، والخيال حين يبتكر . ألم يكف حرية الرأى ما تلقاه من عنت الطغاة بين الأحياء حتى تصبح أرواح الموتى عدواً لهذه الحرية وظهيراً لخصومها وأعدائها ، لن ترضى نفسك الأبية عن هذا الذل ياسيدتى ، إن الذين يعتدون على حرية الرأى من الأحياء والأموات إنما يعتدون عليك أنت لأنك مصدر الرأى والشعور والخيال ، وإن الذين يستعدونك على توفيق ويغرونك به لا يستعدونك إلا على نفسك ولايغرونك إلا بنفسك ، فاحذرى يا سيدتى أن تسمعى لهم .

« لبيك لبيك ، مرينى أكن عندما تحبين . . . »

ولم أكد أتم الكتاب وأترك صاحبى يضم عليه الغلاف حتى أحسست حركة خفيفة ، وإذا صاحبى ينهض مذعوراً لأن الكتاب قد اختطف من يده اختطافاً .

في الحمّام

مشى الأسير بين الفتيات الثلاث إلى الحمام مطأطئ الرأس ، يخفى عنهن وجهه بعطفه وهو يردد فى نفسه قانطاً :

— أهكذا قضى الأمر ! ولم يغن عنى شيئاً ذلك الحوار الذى دار بينى وبين شهرزاد ؟ وبعد ! أأترك نفسى حقاً لهاته الفتيات يفعلن بى الأفاعيل ؟ أرى والله أن لم يبق لى غير الهرب .

وسار فى سكون ينتهز نهزة صالحة. وأرادت الجوارى أن يجاذبنه الكلام فلم يتلقين جواباً . فقالت إحداهن :

— عجبا . . . إنه كالنائم .

وقالت الثانية :

— إنه شارد اللب كالذاهب إلى المشنقة !

فأجابت الأخيرة :

— ربما أفاق ونطق إذا غطسناه فى الماء البارد .

فاصطكت أسنان الأسير وسرت فى بدنه رعدة ، غير أنه لزم الصمت . وواصل الجميع السير فى دهاليز ممدودة ، بعضها مضيء وبعضها مظلم ، حتى بلغوا منعطفاً ضيقاً . فوقفت الأولى وقالت :

— أرى أن تذهب إحدانا فتحضر الصابون وأن تذهب أخرى فتحضر المراسى وأن أقود أنا السجين. ثم نتقابل جميعاً عند الحمام ؟

فرفعت الثانية عقيرتها مغيظة :

— عجباً لهذه القسمة الضيزى ! تختارين لنفسك الانفراد به ،

ونذهب نحن للتافه من الأمر ! كلا . هذا لن يكون ، أنا أقود الأسير وأنت تذهبين للصابون !

فصاحت بهما الثالثة :

ـ لا أنت ولا هى . . . بل أنا . . .

ـ أنت ! هيهات ! تعال أيها السجين !

ـ دعيه ! تعال معى أنا أيها الأسير !

ـ أيها السجين ، قف إلى جانبى أنا .

وتناولنه فى أيديهن كالكرة يتنازعنه ، وقد ساءت حاله معهن وبح صوته من الصياح :

ـ حسبكن . . . حسبكن ! قد مزقتن المعطف بهذا الشد والجذب اتفقن أولاً فيما بينكن !

ـ نتفق ! هيهات ، هيهات أن نتفق بغير هذا !

خلعت صاحبة الكلام نعلها وخلعت الأخريان نعليهما . واشتبك الثلاث فى معركة حامية الوطيس والأسير بينهن يصيح :

ـ مهلا ، رفقاً ! إن النعال لاتصيب إلا قفاى! اتركننى ناحية ريثما تصفين ما بينكن من حساب !

فدفعنه بعيداً عنهن ، فنهض ونفض الغبار عن ثيابه والتفت فى الحال يميناً ويساراً فألفى بقربه دهليزا مقفراً مظلماً فانسل فيه هارباً وهو يقول غير مصدق :

ـ تلك هى الفرصة الذهبية التى لن يجود بمثلها الزمان !

فى ذلك الوقت كان طه حسين جالساً إلى صاحبه « فريد » تحت شجرة الزيزفون يصغى إلى ما يقرؤه عليه من شعر « المتنبى » ، وهو فى حقيقة الأمر لا يصغى إلى شيء ولا يستمع إلا إلى « شهرزاد » الماثلة فى أعماق نفسه تهمس إليه بصوتها العذب الرقيق كأنه صوت أجنحة فراش جميل الألوان ، أو حفيف غصن محمل بأزهار الربيع ، ذلك الصوت الذى كلما سمعه فتن به افتتانا. إنه يملأ أذنيه الآن. بل إنه يرقص حوله كما ترقص عرائس الجن فى المروج. هو شيء غير منظور ، لكنه يحس له كياناً حيًّا وجسماً نابضاً لا ككل الأجسام! إنه يدعوه فى إشارة خفية ويجرى أمامه إلى جهة قصية . هنا لم يملك الدكتور نفسه فنهض مستوياً على قدميه . فوقف صاحبه عن القراءة مستغرباً :

— ماذا جرى ؟

— هلم بنا إليها .

— إلى من ؟

— إلى الفاتنة ربة القصر المسحور .

ففكر « فريد » ثم قال فى تردد :

— ولكننا لم نتلق بعد منها دعوة إلى المثول بين يديها !

— لا حاجة بنا إلى دعوة ولا أحسبها تكره لقائى فى أى وقت .

— ولكننا . . نجهل مسالك هذا القصر وهو كثير الدهاليز ، والوقت ليل ولم نعتد دخوله بغير رسول منها أو دليل .

— قلت لك هلم ولا تزد .

ــ إنها المخاطرة .

فضغط « طه » على يد صاحبه ضغطاً قوياً كاد يؤلمه وصاح به :

ــ إنى قد عزمت ، وأنا رجل ــ كما تعرف ــ صلب الرأى عنيد . ولا شيء يثنينى عن اقتحام المخاطر وارتياد المجاهل .

ــ هذه الصلابة قد عرضتك أحياناً إلى ماتكره .

ــ حقيقة . ولكنى . هكذا خلقت ولا قبل لى بتغيير طبعى وسجيتى . . . . هلم . . .

* * *

وفى حلك الظلام سار الاثنان مجدين حتى بلغا أسوار القصر المسحور . فتمهلا وجعلا يتلمسان فى الأسوار باباً أو مدخلاً فلم يجدا من ذلك شيئاً . وأعياهما التعب فقعدا على الأرض وأسندا ظهريهما إلى السور وتساءلا فى يأس :

ــ كيف السبيل إلى داخل القصر ، وكيف دخلنا إذن أول مرة ؟! إنه لاباب له . حقاً إنه لقصر مسحور !

ولم يدم يأس طه حسين طويلا وسرعان ما أسلم نفسه للقدر كعادته . فالتمس فى الظلام يد صاحبه الذى ألجمه الخوف ووحشة المكان وجهل المصير ، وهزه هزاً خفيفاً وقال له :

ــ ناولنى « سيجارة » !

فثاب « فريد » لنفسه وأخرج من جيبه لفائف التبغ وقدم إلى الدكتور واحدة منها ثم أخرج علبة الكبريت وأراد أن يحك العود فى

السور ، وإذا يده قد غارت هى وعود الثقاب فى فجوة لا آخر لها فصاح لساعته :

ــ هنا ثغرة فى السور ؟

ــ أين ؟ أين ؟

وقام « طه » فى الحال نازعاً من فمه « السيجارة » :

ــ فلندخل من هذه الثغرة !

ولم ينتظر من صاحبه رأياً ولا جواباً. فأمسك بذراعه ودفعه أمامه إلى داخل الثغرة دفعاً . ثم مشيا قليلاً ثم كثيراً ، ثم أمعنا فى المشى دون أن يصلا إلى بصيص من نور ، فأوقدا عود ثقاب ، فإذا هما يتخبطان فى دهاليز طويلة مظلمة متشعبة متقاطعة كأنها شبكة منصوبة. عندئذ صاح « فريد » :

ــ حصل .

ــ ما هو الذى حصل ؟

ــ قد وقعنا فيما نكره .

ــ كيف ؟

ــ إن لم يكن هذا جب ، فأغلب الظن أنا الساعة فى موضع لن نصل منه إلى شىء . آه ! وقعنا . من ذا الذى يستطيع أن يخرجنا من هذه الدهاليز التى يضل فيها الخاطر .

ــ وما الرأى ؟

تسألنى الآن يادكتور ؟ ! لم يبق من رأى إلا أن نختار لنا

طريقاً من هذه الطرق ونسير فيه إلى النهاية .

— كلا . . . . تلك ليست عادتى . . . اضرب بنا فى كل طريق .

— لدى فكرة . ابق أنت يا دكتور هاهنا : ولأذهبن أنا ركضاً فى كل جانب من جوانب المكان حتى إذا ظفرت بشىء عدت إليك .

— نعم الرأى ... اذهب وأنا فى انتظارك هاهنا .

ذهب « فريد » وابتعد . وبقى الدكتور وحده فى ذلك الموضع من الدهليز يفكر فى أمره تلك الليلة وفى هذا المأزق الذى أدخل نفسه فيه وقد كان فى الفندق آمناً مطمئناً ، لكنه يتبرم دائماً بالأمن والاطمئنان ويخلعهما عنه فى ضيق كما يخلع الرداء الثقيل فى يوم قيظ شديد. ما الذى حمله على ترك جلسته الهادئة تحت الشجرة ليقف هذه الوقفة فى الظلام يلتمس صوتاً أو حركة فلا يسمع إلا أنفاسه المضطربة . نعم ، لقد بدأ القلق والخوف يجدان إليه السبيل . ويخيل إليه أنه يسمع الآن همسات بعيدة . أهى حقيقة ؟ أم هو الوهم والخيال بدءا يلعبان على مسرح الرأس التعب ! ! ولكن الهمسات تقترب وتتخذ رنيناً واضحاً يدوى بين جدران الدهاليز. بل إنه يسمع الساعة صوت أقدام تضرب الأرض ، إنها تدنو ، تدنو والأصوات تتضح. إنها أصوات نساء . نعم لم يبق ريب فى الأمر ، ولم يلبث طه حسين أن أحاطت به الفتيات الثلاث وهن يصحن :

— هاهو ذا ! قد وجدناه !

ثم هجمن عليه هجمة واحدة وقبضن عليه بقوة وشدة وجذبنه جذباً عنيفاً وهن يقلن فى شبه صوت واحد :

— أيها الهارب !

ذهل طه حسين فى أول الأمر ذهولاً عقل لسانه . فهذا الانقضاض عليه فجأة فى هذا الليل الساجى ليس هين الوقع على النفس . غير أنه ملك سريعاً ناصية أمره وقال دهشاً :

— هارب ؟ على النقيض . إنى جئت بنفسى وأقبلت شوقاً وحبًّا . . . .

فقالت الجوارى ساخرات :

— شوقاً وحبًّا ! يا له من مخادع !

وقالت الأولى وهى تقرصه قرصة مؤلمة .

— أيها الماكر ! انتهزت فرصة خلاف دب بيننا وفررت . .

— آه ! ذراعى ! لا معنى لهذا القرص الموجع أيتها السيدة المهذبة !

وقالت الثانية وهى تخزه بإبرة معها :

— لقد قلبنا الدهاليز رأسا على عقب حتى وجدناك !

— آه ! آه ! كل شيء إلا وخز الأبر !

وقالت الثالثة وهى تعض أذنه :

— لو عرفت المصير المخيف الذى كان معدًّا لنا إن كنت ذهبت ولم نعثر عليك !

ولم يطق الدكتور الألم فصاح وهو يضع يده على أذنه :

ــ كل هذا قد جاوز الحد ! ألا يمكن ياسيدتى أن نتكلم بالعقل وأن نتفاهم بالمنطق . . .

فدوت فى المكان ضحكة الجوارى الهازئات :

ــ المنطق ! سنريك الآن كيف يكون المنطق !

ثم حملنه على أكتافهن حملاً وسرن به سيراً سريعاً يشبه الجرى وإحداهن تقول :

ــ لقد أضعت الوقت ومولاتنا فى الانتظار . ولانرى إلا حملك والركض بك ! أليس يعجبك هذا المنطق ؟ !

وأراد الدكتور أن يتكلم وأن يستعلم وأن يستخبر فلم يسمحن له بالكلام . ولم يصر هو كل الإصرار خشية عودتهن إلى القرص والوخز والعض . وهو الآن على كل حال بخير فوق أكتافهن . وبلغت الفتيات أخيراً مكاناً رحباً مضيئاً ، فى صدره باب جميل النقوش كأبواب قصر من قصور ألف ليلة وليلة . فقالت الأولى :

ها هو ذا الحمام . . . فلندخل به !

ولم ينتظرن . ولم يستمعن إلى اعتراض الدكتور . فدخلن وتهامسن وتغامزن ورفعنه قليلا ثم ألقين به دفعة واحدة فى حوض كبير مملوء بالماء البارد وهن يضحكن ضحكاً عالياً .

غاص طه حسين فى الماء ثم طفا وظهر وهو يشهق ويسعل وينتفض وقطرات الماء تتساقط من شعره ووجهه وثيابه والجوارى مستغرقات فى

ضحك مرتفع . وإحداهن تشير إليه وتقول لصاحبتيها :

ـ انظرا ! إنه ينتفض كأنه عصفور بلله القطر . . . .

فأجابت الثانية على الفور :

ـ أى قطر . إنه كعصفور غمره البحر ؟ !

ونظرت إليه الثالثة وقالت ضاحكة :

ـ انصتا ! إنه يريد أن يتكلم .

والتفت طه حسين حقًّا إليهن وأراد أن يقول شيئاً ولكنه ارتعد وعطس طويلا ، إلى أن هدأ أمره وخف عبء بلائه واستطاع الكلام . فقال لهن :

ـ أهى . . . مولاتكن التى أمرتكن أن تفعلن بى هذه الأفاعيل ؟!

فقلن جميعهن فى صوت واحد :

ـ نعم . .

ـ « شهر زاد » تأمر بهذا ؟ !

فقالت الأولى :

ـ إنها أمرتنا بأكثر من هذا . إننا لم نصنع بك شيئاً بعد ؟

ـ أولا يكفى ما صنعتن بى ؟

قالها طه حسين مرتاعاً على نحو أضحك الفتيات ، فتساند بعضهن إلى بعض . وقالت إحداهن له :

ـ سترى ما نصنع . أين المواسى ؟

فصاح الدكتور من قلب الحوض صيحة مدوية :

— مواسى ؟ أؤمرتن بذبحى؟!

فقالت الجوارى :

— كلا ، لاتخف ، لقد أمرنا فقط بإصلاح شأنك .

— إصلاح شأنى ! إذا كان ما حدث حتى الآن مقدمة لإصلاح الشأن فلا شك أن ما هو آت أدهى وأمر !

فقالت إحداهن :

— كلا . اطمئن إنا لن نصنع بك إلا خيراً . سنحلق لك لحيتك وشاربك ونجعل منك فتى رشيقاً أمرد خليقاً بمجالسة الملكات ومسامرة شهر زاد !

لم يكد الدكتور يسمع كلمة « المسامرة » حتى لمع فى رأسه خاطر وتذكر رسالة شهرزاد إليه ورده عليها فقال للفور :

— أيتها الجوارى إن فى الأمر خطأ . لست أنا المقصود بكل هذا اللطف والعطف !

فقالت الفتيات فى تهكم ظاهر :

— ومن غيرك ؟

— أخرجننى من هذا الحوض ! فقد تبين لى الأمر .

— ما هذا الهذيان ؟ ! أنخرجك قبل أن نغير هيئتك ونجمل سحنتك ؟

— ذاك توفيق الحكيم الذى أمرتن به . . أما أنا . .

— إننا لانعرف أسماء . ولم نتسلم أسماء ، إنما قد أعطينا شخصاً ، نهيئه ونقلبه خير منقلب ثم نرده لمن دفعه إلينا .

— وأين توفيق الحكيم ؟

— من هذا ؟ إنا لم نسمع قط بهذا الاسم ، ولم نر الليلة غيرك .

فحنق طه حسين وملأه حقد ويأس وغيظ فانفجر :

— أكاد أفقد صوابى ! أين توفيق الحكيم ؟ أيها الناس ، دلونى فقط على هذا اللعين وأنا أتكفل بالباقى !

وعندئذ قالت إحدى الجوارى :

— كفى إضاعة وقت ! إن الملكة فى الانتظار . أين المواسى ؟

فصاح طه حسين :

— انتظرن أيتها الفتيات ، إن فى الأمر خطأ ، وما أنا المقصود، اذهبن بى إلى شهرزاد وهى تحكم فى الأمر .

فقالت الأولى :

— ما بالك تخلط الآن فى الكلام . أين المنطق الذى كنت تتحدث عنه ؟

وقالت الثانية :

— إن حكم شهرزاد فيك قد سبق . وأمرها صريح لا إبهام فيه .

وأردفت الثالثة وقد رفعت فى يدها الموسى :

— هاهو ذا الموسى ! تقدم ! ولا أمل لك بعد الآن فى الإفلات

ولافائدة من المطل . فإنا لن ندعك حتى ننفذ فيك أمر الملكة ونعيدك إليها حسن المظهر جميل المنظر !

فأسقط فى يد طه حسين ولم يجد لنفسه مخرجاً فطأطأ الرأس هامساً :

— إنا لله و إنا إليه راجعون!



ثورة الأشباح

استلقت « شهر زاد » على فراشها وغاصت بين دمقس وسائدها . وغاص عقلها فى بحار التأملات . لقد كان يدهشها أمر الأسير الذى اختطفته ليبقى إلى جانبها يؤنس وحدتها فلم تظفر منه بغير الإعراض والرغبة فى الإفلات ! أترى فقدت « شهر زاد » سلطانها على الرجال ! هى التى من بين نساء الوجود قد فازت وحدها بإخضاع ذلك الجبار « شهريار » ! تعجز اليوم ويعجز جمالها وذكاؤها عن اجتذاب مخلوق ساذج مسكين كهذا السجين ذى المعطف الأسود وعصا السمك ! أتراها قد هرمت وهى التى لا عمر لها ولا ينبغى لها أن تهرم؟ أهو عجز وقصور منها حقًّا . أم هو حمق وتقصير من ذلك المخلوق الذى لم يستطع تقدير كنوزها ولآلئها ؟ إلكن أيمكن أن تتهم بالحمق وقلة التقدير رجلاً كتب عنها كتاباً فجعلها فيه صنو « إيزيس » و « بيدبا » ! لكن ماباله إذ رآها الليلة وجهاً لوجه لم يلفظ كلمة تقدير ولم يلق إليها بكلام عميق ولم تسمع منه إلا هراء ينم عن استخفاف . أهى التى كانت تدعى إلى صيد السمك من الغدران ! أم هى التى كانت جديرة أن يدعوها إلى زيارة هياكل الفكر الإنسانى الخالدة على الزمان ؟ حقًّا إنها لاتفهم من أمره شيئاً . هى التى تفهم الرجال كامراة عاشت ألف عام بين الرجال ! لاتستطيع أن تفهم هذا الرجل المعقد ! لكن لماذا لا تريد أن تعتقد أنها قد هرمت قليلا وأن شعرات قد ابيضت فى رأسها الأسود الجميل .

وإن المرأة إذا هرمت كان عليها أن ترضى الرجال وأن تسايرهم وأن تعنى بالتافه من رغباتهم. فإن استبقاء الرجال فن يجب أن تحذقه المرأة إذا علت بها السن . وضاعت امرأة اعتمدت على سحرها الماضى فجلست بلا حراك تنتظر أن يجثو عند قدميها الرجال ! إن لكل سن طرائقها ووسائلها . ولكل وقت أدوات صيده !

لقد صدق صديقها الحميم طه حسين إذ نصحها فى رسالته ألا تهمل رغبات توفيق التافهة وأن تتبعه حاملة مثله « السنارة » إلى الجداول يصيدان السمك الصغير وهى الملكة العظيمة ! وأن ترافقه إلى المقاهى الحقيرة إذا طلبها هناك دون أن ترى حرجاً فى ذلك أو تحقيراً من شأن مقامها الجليل ! إنها قد نسيت أن للرجال صغائر وحماقات لا يخلو منها رجال الفكر والعقل . فلتتبع توفيقاً فى أطواره ولتر منه ما يكون ! نعم هذا هو الرأى ولكن لماذا أبطأت به الجوارى ؟ وقد كاد الليل أن يولى . هنا نهضت شهر زاد واستوت فى فراشها وصفقت بيدها فجاء العبد فقالت :

— أين السجين ؟

— إنه فى أيدى الجوارى يا مولاتى !

— أما فرغن بعد من أمره ؟ فليسرعن به إلىّ !

— مولاتى !

— ما بك ؟ وما هذا التقطيب والغضب على وجهك ؟

— هذا السجين ، قد بلغنا من أمره كما تعلمين خبر عظيم .

فهو قد وصفنا فى كتاب له وصفاً قبيحاً ، وافترى علينا افتراء

أثيماً ! وكلنا هنا يطلب رأسه . وقد أقسم «الجلاد» أن يتولى الجزاء بنفسه ، وقد تلقى أمراً من الملك «شهريار » بذلك و « الوزير ، والساحر ، وزاهدة ، وأبو ميسور » !

— ليس يعنيني من أمرهم شيء . . كل أولئك أشباح تعيش فى الماضى وقد جاءت إذ سمعت بسجن توفيق الحكيم كى تثير قضية تتعلق بالماضى ، ولكنهم جميعاً غير قديرين على الحياة فى الحاضر والكلام فى الحاضر. لقد دخل على « شهريار » منذ لحظة ففرحت به كأنى عثرت على كنز مفقود ، لكن وا أسفاه . سرعان ما تبين لى أنه لايعرفنى ولايعرف عن حياتى اليوم شيئاً . فهو شبح وذكرى . وهو غير قدير أن يعيش خارج المائة والعشرين صفحة التى كتبها توفيق الحكيم ، لقد يئست منه بعد قليل ، وهو أيضا قد تركنى دون أن يعرفنى كأنه نائم أو مجنون .

— إنه يا مولاتى مع الوزير قمر والجلاد والساحر وأبى ميسور وزاهدة .

— نعم مع بقية الأشباح . إنهم يستطيعون أن يفهم بعضهم بعضا . . إياك أيها العبد أن تجلس إليهم .

— إنى يا مولاتى أعيش معك اليوم فى الحاضر . . ولكنى أحيانا . . .

— كفى ! إنى لا أطيق الكلام فى الماضى طويلا . . إنى أعظم من أن أحبس فى عصر واحد . إنى لكل العصور .

— مولاتى ؟

— ماذا تريد ؟

— إن لم نسلم إليهم ذلك السجين فإنهم لن يفارقونا .

— إنها لمحنة . وما الرأى ؟ !

— ماذا يهمنا من أمر هذا السجين ، فلنقذف به إليهم .

— لم يخب ظنى ، إن نصفك معهم ونصفك معى !

— إنما أردت يامولاتى أن أريحك من وجودهم !

— لن أقطع برأى حتى أستشير صديقاً لى . اذهب الآن عنى !

* * *

وسكتت شهر زاد قليلاً وأطرقت ملياً . وإذا الباب يضرب عليها ، فرفعت رأسها وأذنت فى الدخول ، ففتح الباب ودخلت الفتيات الثلاث يقدن طه حسين فى رداء جميل واسع الأعطاف لو لم يكن مزين الحواشى بالذهب والفضة واللآلىء النادرة لحسبته ذلك الرداء الجامعى الذى يرتديه العمداء فى الحفلات الرسمية الكبرى . وقد غدا الدكتور حليقاً وسيماً تطمع فى رضاه الجميلات . فتقدمت به إحدى الفتيات وقالت :

— هاهو ذا يا مولاتى قد هيأناه !

نظرت شهر زاد ، ثم أنعمت النظر ، ثم قالت كالمخاطبة لنفسها :

— مستحيل ماذا فعلتن أيتها الجوارى ؟

هنا رأى طه حسين أن من واجبه أن يلقى الضوء على هذا الموقف

الغامض وأن « يرد الأمر إلى نصابه » فقال :

ــ مولاتى ! إنى لست توفيق الحكيم .

ــ طبعا . .

ــ إنى . . .

ولم تطق شهرزاد صبراً فقالت فى حدة :

ــ أو تجرؤ يا هذا على الدخول على بهذا التمويه ؟!

ــ مولاتى عفواً . . إنى لست فى حاجة إلى التمويه . . كما تعلمين .

ــ وأين إذن توفيق الحكيم ، وما هذا الزى الذى عليك ؟

ــ سلى جواريك !

فالتفتت شهرزاد إلى الفتيات ونظرت إليهن نظرة المستفسر ؛ فقالت إحداهن فى لهجة بريئة صادقة :

ــ أليس هذا هو الذى تسلمناه من مولاتى ؟

ــ مطلقاً . أيتها الفتيات .

فالتفت طه حسين إلى الجوارى وقال فى انتصار :

ــ لقد بح صوتى من القول إن فى الأمر خطأ . ولكنهن مضين يصنعن بى مالا يصنع !

وعندئذ لم يسع الفتيات إلا أن يعترفن بما حدث من هرب توفيق الحكيم والعثور على هذا الذى حسبوه الهارب . ولم يسع طه حسين إلا أن يقص قصته وما وقع له بالتمام والكمال من وقت أن خرج من داره إلى أن مثل بين يدى شهرزاد فى هذه الهيئة والزى. وختم حديثه قائلا للملكة :

– أرأيت يا مولاى ! لقد صدق المثل العامى « من خرج من داره قل مقداره » .

ولكنى مع ذلك راض بما كتب لى مغتبط برؤيتك فى النهاية على كل حال !

فضحكت شهرزاد وقالت فى رقة :

– أيها الصديق العزيز ! إنى آسفة لما وقع لك . وآسفة أنى لم أبعث إليك رسولاً يحضرك إلى بدلاً من الكتابة إليك . ولكنك قد حصلت عندى آخر الأمر . وإنى الآن فى حاجة شديدة إليك .

– إنى خادمك ورهين أمرك .

– أولا أين هرب واختفى توفيق الحكيم هذا ؟ أريد رأيك فى ذلك ؟

– أرى يا سيدتى أن تطلق رجالك فى أثره يبحثون عنه .

– أين ؟ !

– أرى أن يبحثوا عنه عند شواطئ البحار والأنهار والجداول والغدران كافة . فإن السمك وحده الآن هو الذى يعرف مقره .

– نعم الفكرة . هنا لك أمر آخر شديد الخطر أطلب رأيك فيه : أتذكر فى رسالتى أنى حدثتك عن أشباح أشخاص توفيق الحكيم؛ إنهم هنا الآن يلحون فى طلب رأسه . ولا أراهم يبرحون حتى يسلم إليهم . أأسلمه لهم أم أمنعه؟

– مولاتى! لا هذا ولا ذاك . .

— عجباً ! ماذا أصنع إذن ؟

— لا إعدام بغير محاكمة . ولا محاكمة بغير قضية . فاشترطى عليهم ألا تسلميه إلا أمام محكمة يداولون أمامها بما يتهمونه به وما يريدون من أجله رأسه .

— نعم الرأى . نعم الرأى . إن آراءك فى نضجها كآرائى فى سن الشباب الأول . لكأنى بك قد نقلتها عنى واستوحيتها منى .

— كل أفكارى وآرائى مستمدة من ضوئك ياسيدتى !

— بقى أمر واحد : من هو القاضى الذى يحاكم صديقنا ؟

هنا يفكر طه حسين مليًّا ويقلب فى ذهنه الأسماء ثم لايلبث أن يصيح صيحة الفرح والظفر :

— وجدته يا مولاتى وجدته . إنه القاضى الذى لا يرد حكمه . وهو بعد ليس بالمجهول من المتهم ، فقد ردد اسمه كثيراً فى كتبه وذكره على أوضاع شتى فى كتاباته .

— من هو ؟ من هذا القاضى ؟

— الزمن ! . .

محنة توفيق الحكيم

وقد غمرني في محضر شهرزاد من الجمال والسحر ومن الظرف والعطف ، ومن رشاقة الحركة وعذوبة الحديث ، ما أنساني صنيع هؤلاء الجواري الماكرات ، وكاد يردني إلى الأمن والهدوء وإلى الدعة واللذة ، لولا أن خاطراً ملحاً كان يتردد على من حين إلى حين فيذهلني بعض الشيء عما كنت أجد من نعيم ، وكأن شهرزاد قد أحست هذا فهي تدق في ظرف يداً بيد ، وإذا الفتاة التي أدخلتنا عليها ، في الزيارة الأولى قد أقبلت خفيفة ظريفة كعادتها ، فانحنت ثم استوت ، وإذا شهرزاد تسألها ما صنع صاحب الأستاذ . قالت الفتاة في صوت ساحر : هو هنا يامولاتي منذ ساعة ، قلق النفس مضطرب البال ، لايصدق ما أؤكد له من مكان الأستاذ بين يديك ، ولا يريد أن يطمئن حتى يراه .

قالت شهرزاد : فأدخليه .

ثم التفتت إلى الفتاة وانصرفت ، وقالت : أظنك تستطيع الآن أن تخلص لي ؟ وهممت أن أجيبها لولا أن عبدها الأسود أقبل مسرعاً فقطع علينا الحديث وهو يقول : أدركي أسيرك يا مولاتي فقد أشرف على الخطر ودنا من البوار . قالت شهرزاد في هدوء يملؤه الدل والتيه : وماذاك ؟ قال الأسود ؟ اجتمعت على سجنه الأشباح يا سيدتي ، ولولا أني وكلت بهذا السجين أشد من في القصر من أبناء أبي قوة

وأيداً ، وأصلبهم عوداً وأقدرهم على المقاومة وأصبرهم على الجهاد ، لاقتحم السجن عليه اقتحاماً ، ومع ذلك فالأشباح ملحة فى الهجوم تصطنع فيه فنوناً من العنف الصريح والمكر المغرى ، ولست آمن أن تظهر على الجند ، فإن كانت لك حاجة فى أسيرك فأسرعى إليه فلن يرد الأشباح عن سجنه إلا مرآك .

* * *

وكنت قد نسيت توفيق الحكيم وشغلت عنه بما لقيت من شدة أول الأمر ، وبما كنت أنعم فيه من لين ذلك الوقت ، فلما سمعت ذكره وعرفت تعرضه للخطر عادت إلىّ نفسى ، فسألت الأسود : وهل ظفرتم به ؟ وكيف وجدتموه ؟

قال الأسود ، وهو يقاوم الضحك مخافة أن يحفظ مولاته :

ــ أخذناه ياسيدى وأنفذنا فيه قوانين القصر !

قالت شهرزاد :

ــ أو كنت تظن أن ساذجته تغلب مكرى ؟ أو تحسب أن الخروج من هذا القصر ميسر لمن دخله ؟ وإذن فأى أمن لشهرزاد وأى سلطان بقى لها ، وأى سحر هذا الذى يحيط بالقصر إذا أتيح لرجل ساذج كتوفيق أن يفر من أهله وينفذ من أبوابه كما يريد ؟

قلت : فإنى لم أفر من أهله يا سيدتى ، ولكنى دخلت عليهم القصر ولم يشعروا بدخولى ، وانسبت فيه انسياب الحية ولم يعرفوا مكانى منه ..

قالت وهى تضحك :

ــ فإن هذه قصة أخرى لعلها أشد تعقيداً مما تظن ، أواثق أنت بأن

رسلى ليسوا هم الذين أغروك بالخروج فى طلب القصر وداوك على طريقه وانتهوا بك وبصاحبك إلى هذه الفجوة التى انسللتما منها ؟ ولكن فى الأمر تقصيراً من غير شك . .

ثم التفتت إلى الأسود قائلة :

ــ والفتيات ماذا صنعتم بهن ؟

قال : أنفذت فيهن قوانين القصر يا مولاتى . وهن الآن مشدودات من شعورهن إلى السقف فى غرفة العذاب تصب عليهن السياط صبًّا .

قلت مأخوذاً : أو تفعلون هذا بهؤلاء الجوارى الحسان ؟!

قلت شهرزاد : كأن قلبك قد رق لهن ، وكأنك نسيت أنهن أعرضن عما كان يجب من إنفاذ أمرى وفرغن للهوهن . . وما ينبغى لمن اتصل بشهرزاد أن يشغل عنها بنفسه . فكيف بهؤلاء الإماء اللاتى لا وجود لهن إلا مستمدا منى .

قلت مستعطفاً : رفقاً بهن يا سيدتى ، فقد كن ضعافاً وقد كن أغراراً ، ظنن وراء الأكمة شيئاً ، فلم يجدن إلا هواء وغروراً .

قالت شهرزاد : وإعراضا عنهن وفراراً منهن .

قلت : فإنى شافع فيهن .

قالت : سنرى فى أمرهن ، ولكن لنسرع إلى صديقنا الأسير فما ينبغى أن تستأثر به الأشباح الضارية .

ولابد من أن أعيد عليك قصة صديقنا الأسير من بدئها فإنك لم تعرف إلا آخرها : هو الآن محصور فى سجنه مغلوب على أمره ، تتراءى

له الأشباح موعدة منذرة ، ولكنها لا تبلغه لمكان هؤلاء الجنود السود ، وهو كلما رآها اضطرب من رأسه إلى قدميه وجرت الرعشة فى بدنه كله ، فأسنانه تصطك وفرائصه ترتعد وصوته يخرج من فه هائلاً مبهماً لا يفهم منه إلا شيء واحد وهو أنه جزع يستنجد ويستغيث. فكيف انتهى إلى هذا السجن ؟ عرفنا ذلك من أمره فيما بعد ، فلا تسل عن ضحكنا منه ولا تسل عن ضحكه من نفسه . وما أظن إلا أن هذه القصة التى وقعت له فى دهليز من دهاليز القصر المسحور ستملأ ما بقى من حياته الطويلة إن شاء الله ضحكاً وفرقاً .

سيضحك منها إذا لقى الناس وأمن الاعتداء عليه ، وسيفرق منها إذا خلا إلى نفسه وأشفق أن تنجم له الأشباح من الأرض أو تهبط عليه من السقف أو تنشق له عنها الجدران .

كان إذن يضرب فى دهاليز القصر وقد اتخذ معطفه وقاء من كل شر ، لا يخرج من دهليز إلا دفع إلى دهليز ، ولا يفصل عن بهو إلا ألقى إلى بهو ، حتى ضاقت به السبل ، وسدت عليه الطرق ، وكان قد منى نفسه بالإفلات وزين لها النجاة ، وكان قد أخذ ينعم بأول الانتصار ويرى أنه قد خلص من هؤلاء الفتيات الحسان وأمن عبثهن بجسمه وعقله معاً . ولكنه يمضى فى الأبهاء ويدور فى الدهاليز دون أن يجد مخرجاً إلى النور ؛ حتى طال عليه الوقت واشتد عليه الكرب وثقلت عليه المحنة ، وعظم فى نفسه البلاء . وإنه لفيما هو فيه من السعى الذى لا يكل والدوران الذى لا يجدى ، وإذا بصيص من نور ضئيل

يخلص إليه من بعيد ، فيخيل إليه أنه قد وجد خيط اريان ، ويرى نفسه غريقاً قد أتيحت له خشبة النجاة فهو يتعلق إلى هذه الخشبة بيديه ورجليه وأسنانه . وهو يتبع هذا النور الضئيل وقد عقد به أمله كله ، ووصل به نفسه كلها . وهو يجمع ما بقى له من قوة ويجرى فى أثر هذا النور حتى ينتهى إلى فرجة ضيقة فى الجدار فيدخل نفسه فيها ويجاهد ويحتال حتى ينفذ إلى ما وراء الجدار . وإذا هو فى فضاء واسع يضطرب فيه نسيم بارد قوى يرد إليه بعض ما فقد من قوته . وكان خليقاً وقد خرج إلى الفضاء الطلق خائر العزم منهوك القوى أن يتهالك على الأرض ليستريح ، ولكنه يمضى أمامه وقد أسلم ساقيه للريح وأقسم فى دخيلة نفسه ألا يطمئن ولا يستقر حتى يبعد عن هذا القصر البغيض ، والفضاء أمامه واسع عريض قد اختلطت أرجاؤه وأطبقت عليه ظلمة كثيفة يخترقها بين حين وحين هذا النور الضئيل ، فيتبعه صاحبنا جاداً فى ذلك كل الجد ، ومايشك فى أن قدرة الله قد أرسلت إليه هذا الشعاع فرجاً من حرج ، ومخلصاً من ضيق ، ولكنه يقف فجأة فى شىء من الذهول والدهش كأنه قد أحس شيئاً من طريق السمع أو من طريق البصر . فإذا مضت عليه لحظات قصار زال عن نفسه الشك وفارقها الريب ، فهو يحس شيئاً من طريق السمع والبصر معا . يرى بناء متواضعاً قد قام منه غير بعيد ، أو يخيل إليه أن شخصاً ماثلا قريباً من هذا البناء ، ويسمع صوتاً تحمله إليه الريح لا يفهمه أول الأمر ولايثبته ، ولكنه يصغى إليه ثم يدنو منه فإذا هو يسمع ويثبت ويفهم ويعى ،

وإذا هو دهش قد كاد يفقده الدهش رشده، وذاهل قد كاد يغلبه الذهول على ما بقى له من صواب ، إنه يسمع صوتاً عربيًّا يتغنى غناء عربيًّا ، فإذا أطال الإصغاء، خلص إليه من هذا الغناء شعر عربى فصيح ، هنالك ينكر الرجل نفسه، ويتهم حسه ، ولايكاد يشك فى أن أطيافا من هذه الأطياف التى تملأ الجو قد مكرت به واحتالت عليه ، حتى أوقعته فى شر مما فر منه ، ذلك أنه فى فرنسا فى إقليم سفوا العليا ، فإذا أتيح له أن يسمع صوتاً يتغنى فى ظلمة الليل فأقصى ما يمكن أن يكون هذا الصوت فرنسيًّا يتغنى شعراً فرنسيًّا . ولكن ماذا ؟ إنه ليس مجنوناً ولا مختلط العقل ، فهو يسمع غناء ، وغناء عربيًّا فصيحاً يملؤ عليه الجو من حوله ويدعوه ، نعم يدعوه ويلح عليه فى الدعاء والإغراء . إنه يتبين الألفاظ التى يسمعها ، إنه يحفظها ، إنه يعيدها على نفسه ، إنها تقع من قلبه الجاف المحترق مواقع الماء من ذى الغلة الصادى . إنها ملأت قلبه ونفسه ، إنها ملكت عليه أمره ، إنها قد استهوته استهواء ، واستغوته استغواء ، إن هذا الغناء يصل إلى أبيات من الشعر لايكاد ينتهى إليه البيت منها حتى يعيده كما سمعه كأنه صبى يعيد على معلمه ما يلقى عليه من الكلام :

أهلا وسهلا بخائف يمشى مستوحش هارب من الوحش .

نعم أنا والله هذا القادم ، إنى لأمشى فى هذا الفضاء العريض مستوحشاً، وما هؤلاء الفتيات اللآتى هربت منهن إلا وحشاً من وحش الجن لا من وحش الإنس .

فر من القصر وهو يجهل ما دبر من حيلة ومن غش

نعم والله، لقد فررت من ذلك القصر البغيض وما أدرى ما ذا دبر لى كيد شهرزاد ومكر طه حسين .

أقبل فعندى لك الأمان وما يدنيك فورا من أرض سالنش

لبيك لبيك، هأنذا آمن من الخوف ، فاحملنى إلى سالنش ، إلى فندق مون جولى ، فقد بعدت عنه وقد اشتقت إليه ، إنى لمتعب ، إنى لمكدود ، ما أشد حاجتى إلى الراحة .

إن شئت نوماً فعندنا سرر وثيرة فرشها من القش

من القش ، أو من الحطب ، أو من الخشب ، أو من الحجر ، النوم ! النوم ! أريد أن أنام لأفلت من هذه الأحلام المروعة .

أو شئت شربا فإن بيرتنا تملأ رأس النديم بالوش

لقد نضب ريقى ويبس حلقى ، وجف لسانى حتى كأنه الحطب ، بيرة سالنش فى تلك القهوة الصغيرة ، قهوة الجبل الأبيض التى كنت أخلو فيها إلى نفسى وإلى القدح والقرطاس سبع ساعات كاملة .

أو شئت أكلا فإن جبنتنا لا يأتلى دودها من النغش

كاممبير ، ركفور ، روبلوشون ، جبنة مصر ، يجب أن أكون نائماً فما ينبغى أن يكون ما أسمع وما أحس إلا حلماً .

والحب عندى كما اشتهيت له بيض عظام قريبة الفقش

هنا يمتلىء فم صاحبنا بضحك عريض متهلل وتنطلق ساقاه فى الريح ، لقد أيقظه هذا البيت ونبهه ، لقد عرف هذا الصوت ،

إنه صديقه طه حسين قد أقبل يخلصه وينجيه ، إن هذا البيت يذكره بذلك السؤال الذى ألقاه ذات ليلة على المائدة حين قدم له لون من الطعام يسميه الفرنسيون بئر الحب ، وأراد أن يسأل أيدخل البيض فى تكوين هذا اللون . فقال : أفى الحب بيض . فضحكت الجماعة ، وأجابه صديقه طه حسين نعم فيه بيض يفقس عن فروج ، هو إذن طه قد طالت عليه غيبتى فأقبل يبحث عنى ويستنقذنى .

أصحابنا كلهم ذوو بله تأمن منهم مرارة القفش

إنه لطه حسين ما أشك فى ذلك ، إنه يطمئننى ويهدئ روعى ، وينبئنى بأنه لن يعبث بى ولن يتندر على كلما هفوت فى حركة أو حديث .

حياتنا لو علمت ناعمة لم يلقها قط عاهل الحبش

الحبش ! وما خطب النجاشى فى هذه القصة ؟ لقد علمت أنه كان فى لندن ، ثم ذهب منها إلى جنيف ، ثم عاد منها إلى لندن ، فمالى وللنجاشى ، ألا أزال مختلط العقل ، أنائم أنا كاليقظان ! أيقظان أنا كالنائم .

أقل ما فى أقلها سمك يسبح فى بركة من المش

سمك ! بركة ! مش ! فقد أتيح لى إذن كل ما أنا محتاج إليه . أستطيع أن أصيد وأستطيع أن أسبح وأستطيع أن أرتوى .

أقبل أعنا على الهموم فقد ضقنا ذراعا بالكنس والرش

كلا . كلا . لست يقظان بل أنا نائم ، لست نائماً بل أنا يقظان . لست عاقلاً بل أنا مجنون ، لست مجنوناً بل أنا عاقل . ماذا أسمع ؟

الكنس والرش ، إن طه حسين لايكنس ولايرش ، ولكنه يقرأ المتنبي ويتحدث عن شهرزاد. أين أنا ! ماذا دهاني! ماذا أصابني! ثم تنحدر من عينيه دموع غلاظ ساخنة . ولكن يداً ضخمة عريضة ثقيلة تنقض على كتفه ، وصوتاً غليظاً أجش يقول له في نبرات مرتعشة يرتعش لها الفضاء من حوله ويرتعد لها جسمه النحيف : هون عليك فما بك من بأس .

هنالك يصيح الأسير الهارب : من أنت ؟ ألست طه حسين ؟

فيجيب الصوت الغليظ الأجش : كلا يا سيدي ، ولكني رئيس الشرطة في القصر المسحور . علمت بفرارك ولم أرد أن آخذك أخذاً عنيفاً ، فمددت لك أسباب الأمل وزينت لك طريق الهرب حتى انتهيت إلى ما كان يجب أن تنتهي إليه من الإذعان لسلطان شهرزاد . والأمور كلها تجري في هذا القصر المسحور على نحو من هذه الدعابة الحرة التي تظهر قاسية بعض القسوة ولكنها لينة كل اللين . فلا تخف ولا تحزن واستقبل أمرك راضياً مطمئناً فما أرى إلا أنه سينتهي إلى ما تحب وترضى . قال ذلك وقاد الأسير إلى هذا البناء المتواضع ، حتى إذا تجاوز الباب نظر توفيق فإذا سرير عليه وسائد من القش قد هيء له كأنما يدعوه ليستريح ، قال توفيق وقد اختنق صوته بالبكاء : ماذا تريدون أن تصنعوا بي؟

قال رئيس الشرطة : نريد أن نريحك شيئاً فقد أجهدك الهرب ، ونريد أن نطعمك فقد أضناك الجوع ، ونريد أن نسقيك فقد ألح عليك الظمأ ، ونريد أن نرضيك ونرفه عليك فنعود بك إلى غدير

لايفلت منك سمكه . ثم نريد بعد هذا كله أن نردك إلى مولاتنا شهرزاد لترى فيك رأيها ، وما أظن إلا أنها ستدفعك إلى فتيات أخريات ملاح أو فياح ، يصلحن من أمرك ثم يعدنك إليها خليقا أن تكون لها سميراً ، فإن شهرزاد إن قضت شيئاً لم يرد قضاءها إلا الله .

سمع توفيق هذا كله فخر على سرير القش لايعى شيئاً ، أكان نائماً؟ أكان مغشياً عليه؟ ولكنه أفاق بعد لحظة فإذا هو فى مكان مظلم ينفذ إليه نور ضئيل شاحب تمنى بعد لحظة اولم ينفذ إليه. فقداستطاع أن يتبين بفضل هذا النور وجوه ثلاث من الإماء السود كأقبح ما خلق الله وكأبشع ما عرف الناس ، وقد انحنين عليه فى رفق أيسر من العنف وابتسام أجمل منه العبوس ، وهن يداعبنه بأصوات منكرة و يمسحن وجهه وعنقه بأيد خشنة تجرى فى جسمه قشعريرة فظيعة وهو يصيح بهن : من أنتن ! ما خطبكن ! ماذا تردن منى ! إليكن عنى، وكأن زجره لم يكن إلا إغراء فهن يقبلن عليه ويدنين منه ، ويبسمن له عن أنياب كأنها أظفار السباع ، ويمددن إليه شفاههن البشعة المنكرة يظهرن الرغبة فى تقبيله وهو يلتمس معطفه ليتقيهن به فلا يجده ، وهو يهم أن ينهض ليعدو هارباً فلا يستطيع لأنه يحس فى رجليه ثقل القيد، وإذا هو يتقيهن بالوسائد يحمى بها منهن وجهه ، ولكن أيديهن الخشنة تعمل فيما بقى لهن من جسمه عملا ثقيلا طويلا مؤذياً ، حتى إذا بلغ منه الجهد وأدركه الإعياء وكاد يعود إلى النوم أو الإغماء تفرقن عنه لحظة ثم أقبلن عليه وقد ثاب إليه شىء من رشد وقوة فأجلسنه مترفقات وقدمن إليه

طعامه وشرابه من جبن كاممبير وبيرة سالنش . فيسرع إلى ما قدم إليه من ذلك إسراع النهم الشره الذى أنهكه الجوع . وما يكاد يفرغ من طعامه وشرابه ويسترد حظًّا من رشده وصوابه ويبدأ التفكير فى أمره كيف ابتدأ وإلام انتهى؟ حتى يرى رئيس الشرطة مقبلا عليه ومن ورائه غلام أسود نحيف، ولكنه حسن الطلعة يحمل أدوات للصيد كاملة . فإذا رأى توفيق أدوات الصيد عاد إليه نشاطه وجرت على وجهه المتعب الشاحب ابتسامة حلوة فيها سذاجة الطفل البرىء ، وهم أن ينهض ولكن القيد يثقل رجليه فيثوب إلى نفسه حزيناً مبتئساً ، ولكن صاحب الشرطة يدنو منه متلطفاً له فيحط عنه القيد ويخلى بينه وبين الحركة والنشاط .

ونهض الأسير سعيداً بهذه الحرية التى ردت إلى رجليه ، مغتبطاً بهذه النزهة التى تهيأ له عند غدير يصطاد فيه السمك ، معجباً بذكاء هذا الغلام الأسود النحيف الرشيق الذى لم ينس من أدوات الصيد ما تعود هو أن ينساه ، فاحتمل معه سلة رحبة كأنه ينتظر أن يصطاد سمكا كثيراً ، ولكن توفيقاً عندما حدق فى هذه السلة الرحبة عاد إليه الشك وابتسم فيما بينه وبين نفسه والتفت إلى رئيس الشرطة قائلا : « أجادون أنتم فى أمر هذا الصيد أم لا يزال عبثكم بى متصلا ؟ » قال صاحب الشرطة : « هلم ياسيدى ، سترى عندنا وتفهم ما لا تريد أن ترى ولا تفهم من أن حياة الناس مزاج من الجد والهزل لا تخلص لأحد الأمرين». قال توفيق وهو يتبع صاحب الشرطة والغلام يتبعه : ما رأيت كالليلة جدًّا وهزلاً ، وقسوة ولينا ، وعبثاً وفلسفة . ومضى صاحب الشرطة أمامه يتبعه توفيق والغلام

يتبعهما ، حتى إذا مشوا دقائق وقف صاحب الشرطة عند باب ، ثم أدار فى الباب مفتاحاً فانفتح له ، ثم دخل وقال لتوفيق اتبعنى ياسيدى . فلم يكد توفيق يخطو أمامه خطوات حتى ارتد مسرعاً وقد أشاح بوجهه وقد وضع يديه جميعاً على أنفه وفمه . قال صاحب الشرطة : اتبعنى ياسيدى. قال توفيق إلى أين ؟ قال صاحب الشرطة إلى الصيد! قال توفيق : أى صيد ؟ قل إلى الموت : ما هذه الريح الكريهة القاتلة ؟ قال صاحب الشرطة وهو يضحك ! إنها الريح التى تحبها وتكلف بها ، ريح الجبن . لقد أكلت منه حتى عفته ، فمالى وللجبن ، وأين يكون الجبن من الصيد ؟ قال صاحب الشرطة وهو يلح فى رفق : اتبعنى ياسيدى واعلم أن المزاح فى قصر شهرزاد لايكذب أبداً . أنسيت البيت الذى استهواك منذ حين :

أقل ما فى أقلها سمك

قال توفيق :

يسبح فى بركة من العسل

قال صاحب الشرطة : هذا كلام تقرؤه فى ديوان المتنبى مع صديقك طه حسين . وكنت خليقاً أن تصطاد سمك السكر واللوز من بركة العسل لو لم تخالف عن أمر شهرزاد . فأما وقد فعلت ، فستصطاد الفسيخ والرشال والسردين من بركة المش . ثم أحس توفيق كأن قوة خفية تحمله وتدفعه إلى الأمام ، ونظر فإذا هو قد شد إلى كرسى من الخشب وأجلس إلى حوض طويل عريض يضطرب فيه سائل كدر كريه ويلعب فيه سمك مختلف الألوان والأحجام . وإذا أداة

الصيد فى يد توفيق ، وإذا صاحب الشرطة يقول له فى أناة وهدوء : تستطيع أن تلهو بالصيد حتى نأتيك . ثم ينصرف عنه وينصرف عنه الغلام . ويهم توفيق أن ينهض ليتبعهما فلا يستطيع لأنه قد شد إلى كرسيه شداً . على أن محنته هذه لاتطول ، فقد اصطاد سمكتين أو سمكات ، وكان كلما أخرج واحدة منها وهم أن يخلصها من السنارة وثبت إليه هذه تعلق بأنفه ، وهذه تعلق بخده، وهذه تعلق بإحدى ذنيه، وإنه لفى هذا الكرب العظيم والعذاب الأليم، وإذا ضجيج يسمع من بعيد ثم يدنو شيئا فشيئاً ثم يعظم حتى يملأ الجو ، وإذا صاحب الشرطة يقبل ومعه جماعة من الجند فيحملون توفيقاً وقد خارت قواه ويسعون به مسرعين إلى حيث يلقونه إلقاء فى هذه الحجرة التى تهاجمها الأشباح وتقوم دونها الجنود السود . وقد أدركته شهرزاد وأنا معها ولم يبق فيه إلا رمق من حياة ، فلم تكد الملكة تدنو من السجن حتى انحاز عنه الأشباح ناحية ، وأقاموا مع ذلك ملحين يطلبون رأس هذا الأسير الذى أساء إليهم فى أنفسهم وكرامتهم وأعراضهم ، ويقسمون لايريمون حتى يبلغوا منه ما يريدون . قالت شهرزاد فى صوت كأنه حديث الورد النضر ، إن كنت قد سمعت للورد النضر أو الذابل حديثاً ، عودوا إلى مكانكم من القصر ، فسيكون لى معكم حديث ، ولكم على ألا تنصرفوا إلا راضين .

سمع الأشباح هذا الحديث الحلو من ذلك الصوت العذب ، فانصرفوا فى أناة وهدوء ، وهمت شهرزاد أن تعود أدراجها، ولكنى قلت لها مستعطفاً : والأسير ياسيدتى ؟ ألم يأن لك أن ترديه إلى ما أنت

أهل له من العفو والفضل ؟ قالت بلى ، ولكن بعد أن يأخذه الفتيات الحسان فيصلحن من أمره ويعدنه إلى كما أريد أن يكون . وما أتمت هذه الجملة حتى أقبلت الفتيات الثلاث الحسان مستخذيات يسعين على استحياء ويخفضن رؤوسهن ذلاً وانكساراً . فأخذن توفيقاً وأحطن به وانصرفن معه إلى الحمام .

وتعود شهرزاد وأنا معها إلى حيث كنا فيما كنا فيه من حديث المحاكمة لهذا الأسير البائس ، ونلتمس الحيل والوسائل إلى استنقاذه من هذه الأشباح الضارية والأرواح الباغية ، وأنا أهون الأمر على شهرزاد وأؤكد لها أن الزمان قاض عدل حازم لايعرف الضعف ولا الظلم إلى نفسه سبيلا ، تتغير الأشياء من حوله وتتبدل الظروف وتلتبس أخلاق الناس ، ويتنكر الأحياء للأحياء ، ويتنكر الأموات للأموات والأحياء أيضا ، تنقضى الدول وتقوم مكانها دول أخرى ، وتثل العروش وتبنى مكانها عروش أخرى ، ينتظم أمر الناس ويضطرب ، وتجتمع كلمتهم وتفترق ، والزمان كما هو ثابت مستقر لايحول ولايزول . وإن توفيقا لم يقدم على ما أقدم عليه حين كتب قصته إلا وهو عالم بما يأتى وما يدع ، مقدر لما سيلقى من نقد ، متهيئ لاحتمال ما سيتعرض له من تبعات ، وهو قد ثبت للأحياء فليس عليه خوف من الأموات . وإنا لفى هذا الحديث وإذا شهرزاد تبعث من فمها الظريف الدقيق آهة الفرحة المرحة المبتهجة الطروب ، فقد انفرجت الأستار الجانبية عن توفيق الحكيم وهو أجمل منظراً وأبهى طلعة مما يستطيع أصدقاؤه أن يتصوروا مهما

تذهب بهم الظنون .

والفتيات الثلاث الحسان يعلمن وحدهن ماذا أنفقن من جهد، وماذا سلكن من حيلة ليرددن توفيق الحكيم إلى شهرزاد شاباً وسيماً أنيقاً رائع الجمال . ومن يدرى لعله يقص عليك سيرته معهن أو سيرتهن معه حين يكتب مذكراته فى يوم من الأيام .



في حضرة شهرزاد

ألقى توفيق الحكيم على المكان نظرة ذاهلة حيرى ، وإذا عيناه تقعان على شهرزاد الجميلة بين وسائدها الحريرية الموشاة بالذهب والفضة كأنها الشمس بين النجوم ، وقد مثل بين يديها الدكتور طه حسين يتألق فى ثوبه المزركش ووجهه الوضاء كأنه القمر . فما تمالك الأسير أن صاح :

يا للعجب ! طه حسين أيضاً ، حليقاً رشيقاً ، وسيماً أنيقاً !

شهرزاد : ينبغى لمن دنا منى أن يكون كذلك !

طه (فى خيلاء) : أو يعيش إلى جانب شهرزاد إلا من مسته يد الجمال ؟!

توفيق : كلام جميل ! . . لكن ما قولكما . . .

شهر زاد : تكلم أيها العزيز !

توفيق : أمن الجمال ما صنع بى صاحب شرطتك ياسيدتى العزيزة !

طه (يضحك ضحكاً قويًّا) : ماذا صنع بك ؟

توفيق : أتضحك ؟!

طه : قص علينا ما جرى لك بالتمام والكمال .

توفيق : وأنت قص على بالتمام والكمال سر هذا الضحك الذى لا أفهم له معنى !

طه : أما أنا فأفهم له معنىً بديعاً !

شهر زاد (باسمة) : وأنا كذلك أفهم له معنى رائعاً !

طه : (مترنماً باسماً) :

إن شئت نوماً فعندنا سرر وثيرة فرشها من القش
أو شئت شرباً فإن بيرتنا تملأ رأس النديم بالوش
أو شئت أكلاً فإن جبنتنا لا يأتلى دودها من النغش

توفيق (وهو كظيم) : لابأس !

شهر زاد : (تستطرد مترنمة باسمة) :

والحب عندى كما اشتهيت له بيض عظام قريبة الفقس
حياتنا لو علمت ناعمة لم يلقها قط عاهل الحبش
أقل ما فى أقلها سمك يسبح فى بركة من المش

توفيق (فى تقطيب) : مرحى ! مرحى ! أرى أنكما على علم واسع بكل ما وقع وكان . . . .

طه : أمر واحد لاندرى عنه شيئاً .

شهر زاد : نعم أخبرنا ما فعلت بك الفتيات فى الحمام ؟

توفيق : فتياتك يا سيدتى خليعات وما كان من أمرهن معى ليس مما يحسن ذكره فى حضرة الملكات !

طه (فى ضحكة خبيثة) : أكان الماء بارداً أم دافئاً ؟

توفيق : كان كل شيء بارداً ! ! استرحت الآن ؟ واستراحت جلالتها ؟

شهرزاد : وا أسفاه ! إنك قد غضبت . ونحن لانحب لك أن تغضب !

توفيق : وماذا تحبين لى يا سيدتى ؟

شهر زاد : كل الخير .

توفيق : يا لك من ملاك طاهر !

طه (فى خبث ومكر) : أتتهكم على مولاتنا !

توفيق : سبحان الله فى طبعك يا دكتور ! إنك تلقى الكلمة فتحرج بها المواقف ! وتعقد المسائل ، ثم تقول عنى بعد ذلك إنى رجل معقد .

طه (فى قوة) : أنا صريح . ألقى كلمة الحق صريحة !

شهرزاد : نعم . وهو يلقيها فى جرأة ولايخشى فيها لومة لائم . ومن أجل ذلك أحبه .

توفيق : هنيئاً لك به ! وهنيئاً له بك !

شهرزاد : عجباً من العجب ! أدرك بين نبرات صوتك . .

طه : وأنا أيضا أدرك . .

توفيق : ماذا تدركان أيها الصاحبان المتفقان ؟!

شهر زاد : نبرة تنم عن غيرة خفية إذ قلت إنى أحبه !

توفيق : دخلنا منطقة الكلام الفارغ الذى لاتحذقه غير المرأة !

طه (صائحا) : أستغفر الله ! أستغفر الله .

شهرزاد (لطه) : دعه ! فإن عداوته للمرأة سوف تكلفه ما لايطيق .

طه : أريد أن ألقى كلمة صريحة ولكنى أخشى أن يقول عنى . . .

توفيق (مسرعاً) : إياك أن تلقى شيئاً . أهون على نفسى أن ألقى أنا فى بركة « المش » مرة أخرى من أن تلقى أنت فى أمرى كلمة حق ، أو أن تلقى أمامى شهرزاد كلاماً فى الحب والغرام ! . . .

شهرزاد : يا صديقى ! أود او أفضيت إلى بسر . . .

توفيق : ليس عندى سر . . . .

شهرزاد : ما هذا الفتور والنفور بينى وبينك اليوم ؟

طه : ما من سر غير أنه مثل أغلب الشعراء وأهل الفن يلفظ النعمة ثم يبكيها ! . .

شهرزاد (لتوفيق) : أستبكينى غداً ؟ !

توفيق (يصمت ثم يفكر قليلا وينظر إلى شهر زاد قليلا ويهمس) : ربما ، إنى من فصيلة لاتغرد إلا فوق أطلال نعمة ذاهبة وآثار هناء ضائع !

شهرزاد : نعم ، هو مرض الشعراء والفنانين ! وإن شئت فهو ناموسهم الطبيعى . كم أرثى لأولئك الأشقياء البائسين !

توفيق : يعجبنى رثاؤك الحار هذا ياسيدتى ! . . توقعين الناس فى البلاء ثم ترثين لحالهم !

شهر زاد : من أوقعت فى البلاء ؟

توفيق : لا أريد أن أبعث الماضى فأذكر لك شهريار ، وقمراً

وغيرهما ممن تتراءى لى أشباحهم اليوم ثائرة على؛ إنما أريد أن أذكر لك رجلاً ماثلا أمامك و بلاء لم يمض على وقوعه غير قليل !

شهر زاد : أنت ؟

توفيق : نعم.

طه : أتسمحان لى أن ألقى بكلمة حق صريحة . . .

توفيق : أقسم بالله ثلاثاً إن نطق طه حسين بكلمة حق أو باطل لأقذفن بنفسى من النافذة !

شهرزاد (لطه) : انتظر هنيهة ياعزيزى حتى تهدأ نفس صديقنا !

طه : قد سكت . . .

شهرزاد : إنك تحسبنى أنا التى أمرت بك صاحب شرطتى و رجالى !

توفيق : وهل فى هذا القصر آمر ناه سواك ؟

شهر زاد : إنك تبالغ فى مقدار أمرى ونهيى !

توفيق : يا للعجب ! أهذا صحيح ؟!

شهر زاد : ثق أن هذا صحيح . وأنى لم أحب لك كل ما صنع بك . ولو استطعت أن أمنعك وأدرأ عنك لفعلت. قلبى مفعم بالخير والحب . ولكن سلطانى قاصر . . .

توفيق : أيطلب إلى أن أصدق هذا الكلام ؟ أنت الملكة العظيمة صاحبة الحول والطول فى قصرك هذا على الأقل !

شهرزاد : ثق أن الملوك بل الآلهة لايستطيعون دائماً أن يصنعوا كل ما يشاءون !

توفيق : وما قيمة ذلك الإله الذى لايستطيع أن يصنع كل ما يشاء !

شهر زاد : وهل يتصور كون منظم يديره إله يستطيع أن يعبث بكل من يشاء وقتما يشاء ؟!

توفيق (يلتفت إلى طه) : ما رأيك ياصديقى الدكتور ؟

طه : عجباً لك ! الآن تطلب إلى الكلام فى هذا الموضوع الشائك حيث يجب علىّ السكوت ؟ !

توفيق (لشهر زاد) : أرجو منك ياسيدتى أن تطلبى إلى صديقك الجرىء أن يلقى الآن كلمة حق صريحة !

طه (لشهر زاد) : كلا ياسيدتى العزيزة لاتفعلى . إنى الآن عميد مسئول . ولا شأن لى بالكلام فى الأديان والآلهة . وحسبى ما حدث لى قديما . . . .

شهر زاد (لطه باسمة) : يظهر أن صديقنا ليس ساذجاً إلى الحد الذى نظن .

طه : قلت لك إنه معقد .

توفيق (لطه) : أأنا معقد لأنى طلبت رأيك فى موضوع دقيق ؟

طه : أسنعود إليه ؟ رجائى الخالص منك أن تترك آلهة الإغريق والرومان وشأنهم !

توفيق : إن شهرزاد هى التى ذكرت الآلهة ، وما أردت منها إلا أن تذكر لى صاحب الأمر الأعلى فى هذا القصر .

طه : نعم ، تكلما فى شئون هذا القصر .

شهر زاد : فى هذا القصر وغير هذا القصر ، هنالك سلطان أعلى يخضع له كل كائن حى وغير حى ، وكل خالق وكل مخلوق .

توفيق : من هو هذا السلطان ؟

شهرزاد : القانون .

توفيق : وأى قانون هذا الذى أمر بتعذيبى اليوم ؟

شهر زاد : قانون القصر .

توفيق : ومن سن هذا القانون ؟

شهرزاد : أنا . .

توفيق : أو تخضعين له ؟

شهر زاد : لامناص لى من الخضوع ، وإلا اختل نظام القصر وحلت فيه الفوضى .

توفيق : ياللعجب ! أعرف حكومات شتى تسن القوانين ولاتخضع لها . . .

طه : حقاً . . أذكر أن قوانين الجامعة . . (ثم يسكت فى الحال) .

توفيق : تكلم !

طه : كلا . . . لاشىء . . .

شهرزاد (فى سخرية) : نعم إن البشر لهم هذا الامتياز على الآلهة . فهم يستطيعون أن يعبثوا بالقوانين التى يسنونها . أما الآلهة فلا يستطيعون مطلقا أن يحيدوا قيد أنملة عن النظام الذى وضعوه والقانون الذى خلقوه !

توفيق (فى إعجاب) : إنهم آلهة !

شهر زاد : وبعد ؟ أرأيت ياعزيزى كيف أنى بريئة مما ألم بك ، وأن قلبى لايمكن أن يحل فيه غير الحب والصفاء !

توفيق : وأن ما نزل بى هو من فعل القانون ؟

شهر زاد : هو ذاك .

توفيق : ربما كنت صادقة . إنى دائماً يخيل إلى أن العظمة فى عليائها لاتعرف غير الصفاء. ولا أتصور خالقاً ينظر إلى مخلوقاته نظرة غير نظرة الصفاء العميق !

طه : هذا كلام طيب. وما دمنا فى صدد الصفاء ، فما يمنعنا الآن من أن نعمر قلوبنا به . وأن يقبل أحدنا على الآخر باسم الثغر صادق الود .

شهر زاد : لا أحب إلى نفسى من هذا !

توفيق : وأنا أيضا . لا أحب إلى نفسى منه .

شهرزاد (فى فرح) : حتى أنت ! ؟ لا أصدق ما أسمع.

توفيق : ياللعجب ! ماظنك بى ؟ أترينى بهذا المقدار إنساناً لايعرف الود ؟ !

شهر زاد : كدت أظن هذا .

طه : أألقى كلمة حق صريحة ؟!

توفيق : ألق الآن ما شئت .

طه : إنى أعرف توفيق الحكيم أحفظ الناس للود . .

توفيق : أتهكم ؟

طه (مأخوذاً) : سبحان الله ! احكمى ياسيدتى بالعدل ! أأنا تهكمت الآن ؟

شهرزاد : على النقيض .. إن فى صوتك صدقاً وإخلاصاً .

توفيق (فى خجل وندم) : إنى آسف . لقد أسأت الظن بصديقى... ولم أصدق ذلك القول منه .

شهرزاد : لو عرفت ما يصنع صديقك من أجلك . . . إنه لم ينقطع عن التفكير معى فى التماس الحيل وتدبير الوسائل إلى أستنقاذك من هذه الأشباح الثائرة عليك .

توفيق : أهو صنع هذا ؟

شهرزاد : إنه فعل أجمل من هذا . إنه رأى إقناع الأشباح بالامتثال إلى حكم « الزمن » فيك . وهو واثق أن كلمة هذا القاضى ستنصفك وتنصرك عليهم جميعاً .

توفيق : وإذا لزم الزمن الصمت ولم يتكلم فى أمرى بخير أو بشر؟

شهرزاد : إنه قد دعى إلى الكلام والحكم ، فى مجلس تحضره أنت

ويحضره المطالبون برأسك والشهود العدول ، وقد وعد بالكلام والحكم فى الأمر .

توفيق : المطالبون برأسى !

شهرزاد : أو لا تعرف أنهم طلبوا رأسك ؟ !

توفيق : وما ذنب رأسى ! أخزاهم الله !

شهرزاد : ألم يخرجوا منه ! إنهم يريدون تحطيم المكان الذى خرجوا منه على تلك الصُّورة التى لاترضيهم ؟!

توفيق : وكيف يحطمونه !

شهر زاد : « الجلاد » قال إنه سيتولى ذلك فهى مهنته .

توفيق : ذلك « الجلاد » العاطل !

شهر زاد : إن أمرك الآن رهن هذه « القضية » .

طه : إنها ستكون قضية « الفكر والأدب » .

شهر زاد : ينبغى أن تستعد للدفاع عن نفسك .

توفيق : والقاضى . . .

شهرزاد : قلت لك هو « الزمن » .

طه : أظنك لا تطمع فى أعدل منه !

توفيق : ومتى يوم المحاكمة ؟

شهرزاد : لم يحدد بعد ـ فقد رأى القاضى أن يبدأ بدرس موضوع القضية . وقد طلب نسخة من « الكتاب » فأرسلت إليه .

توفيق : كل هذا عجيب . وكل هذا لم يكن فى الحسبان . أنا الذى جاء إلى جبال سافوا طلباً للراحة والهدوء ؟

طه : اصبر ! لئن حكم « الزمن » لك فأى انتصار يكون وقتئذ للفكر وحرية الفكر ! وعند ذاك ننشر هذا الحكم فى الصحف معلنين انتهاء عهود الظلام وابتداء عهد النور !

توفيق : وإذا حكم بتسليم رأسى إلى ذلك الجلاد الذى باع سيفه لصاحب خان يحرق فيه القنب ويؤمه أنصاف المجانين ؟

طه : كلا . . إن إيمانى كبير بحكمة هذا « القاضى » .

توفيق : وأنا . . . مع الأسف . . .

ولم يتم توفيق الحكيم عبارته . فقد هبت فجأة ريح عاصفة خلعت أستار النافذة ودخلت القاعة محملة بغبار كثيف فى لون الرماد ، ألقته على فرش « شهرزاد » كما يلقى الشيء . . ثم خرجت الريح من حيث جاءت وهدأ المكان كأن شيئاً لم يحدث قط . ونظرت شهرزاد إلى فرشها . فإذا الرماد عليه قد اتخذ هيئة الخطوط والحروف وإذا هى رسالة تقرأ موجهة إليها . فطالعتها بإمعان ثم صاحت :

ــ تلك رسالة من « الزمن » !

طه (فى جد واهتمام) : ماذا يقول فيها ؟ . .

شهر زاد (فى كآبة) : واحزناه !

طه (فى قلق) : بحقك ماذا ؟

شهر زاد : إنه لا يريد أن يبقى المتهم طليقاً . ويعلن أنه سيأمر به

فيحبس حبساً احتياطياً حتى يصدر فيه الحكم .

توفيق (لطه متهكماً) : أرأيت « حكمة » هذا القاضى الذى جئتنى به !

شهرزاد : صبراً ولا تخف !

طه (لشهر زاد) : وأين يكون الحبس ؟

شهر زاد : فى مكان لا يعرفه غير « القاضى » .

طه : وكيف يقاد المتهم إلى ذلك المكان ؟

شهرزاد : ربما أمر به الزوابع فاختطفته !

توفيق (صائحاً) : خطف آخر ! . حرت والله وكدت أجن لأمر هذا الخطف ، ألا يعرفون وسيلة أخرى فى هذا المكان غير هذه! إذا طلبت للمسامرة أخطف ، و إذا طلبت للمحاكمة أخطف! ألا نكون فى أمريكا دون أن نعلم ؟!



القلق على توفيق الحكيم

قلت وقد نهضت متثاقلاً كئيباً ، فهل تأذنين لى ياسيدتى فى أن أودعك الآن لا قالياً ولا سالياً . قالت فى هذه السرعة وما يعجلك . قلت : فإن لى ياسيدتى أهلاً ما ينبغى أن تطول عنهم غيبتى . قال توفيق فى غضب وخبث : وعملا ما ينبغى أن يطول إهمالك له . قلت فى ضحك ورثاء : هو ذاك . قالت شهرزاد : نعم ذاك ، إن لأهلك عليك حقاً وإن لعملك عليك حقاً ، فأما الذين ليس لهم فى فرنسا أهل ولا عمل . . .

قال توفيق : فمن الممكن أن يخطفوا وأن يسجنوا وأن تلح عليهم المصائب وأن تفعل بهم الأفاعيل . قالت شهرزاد ، وقلت معها ضاحكا : هو ذاك . قال توفيق فى صوت محزون تكاد تخنقه العبرة : لست جاداً فيما تعزم عليه من الانصراف . قلت كل الجد ، وإنك لتعلم أنى لا أستطيع البقاء ، ولست أدرى فيم حرصك على بقائى . قال : أما أنا فأعلم فيم حرصك على الانصراف ، إنما تريد أن تتركنى وحيداً أقاسى ما أقاسى من الجهد وأحتمل ما أحتمل من الهم وألقى ما ألقى من العناء . قالت شهر زاد : شكراً لك ياسيدى ما أعرف أدباً أجمل من هذا الأدب ولا ظرفاً أرق من هذا الظرف . قال توفيق مرتبكاً : سيدتى إنك لتسيمينى ما لا يسام ، ولست أفهم كيف تنتظرين الأدب والظرف من رجل مثلى قد صبت عليه المحن ، مخطوف يراد به الخطف ، وسجين يراد به السجن ، وأسير كان يطمع فى حريته فإذا أقصى آماله سجن جديد لا يعرف أين

يكون ، ولا كيف تكون حاله فيه . قلت : هون عليك فلست أرى بك بأساً ، ولو كنت مكانك لنعمت بالساعة التى أنا فيها ولأرجأت التفكير فى الخطر إلى وقت وقوع الخطر . قال : فإنى لا أعلم أقريب هذا الخطر أم بعيد ، وأن ما أنا فيه الآن ذو الخطر كل الخطر . أو تظننى قد عرفت حقاً أين أنا وماذا يراد بى ومتى أنا راجع إلى ما كنت فيه . وتفضلت شهرزاد فشيعتنى إلى باب غرفتها وهى تقول فى صوتها المشرق الذى يغرى بالبقاء لا بالانصراف : « إلى اللقاء » وإلى اللقاء القريب . أليس كذلك ؟

وألقيت من دوننا الأستار وقد أسرع إلىّ صاحبى فالتفت إليه ضاحكاً وأنا أقول : ما ينبغى أن يرانى الناس ولا أن يرانى أهلى فى هذا الزى الغريب . قال صاحبى دهشاً : أى زى ! ؟ وهممت أن أتكلم ولكن دهشى لم يكن أقل من دهش صاحبى حين نظرت فإذا أنا فى زيي القديم الذى دخلت به القصر من تلك الفجوة لا أعرف كيف عاد إلى ، ولا أذكر كيف نزعت عنى زينة الاستقبال ؛ وأريد أن أسأل صاحبى دهشاً عن سر هذه الفتنة التى لا أعرف أولها ولا أعرف آخرها ؛ فأنا أذكر كيف خلع علىّ ذلك الرداء الجميل الذى لقيت به شهرزاد ولا أعرف كيف خلع عنى ، وأعرف كيف خرجت من زيي القديم منذ حين ، ولا أعرف كيف دخلت فيه الآن ، ولكن الفتاة الجميلة الرشيقة تدنو منى فى دعابة وظرف وهى تقول :

— لا بأس عليك ياسيدى فإن الزى الذى تلقى به شهرزاد لا ينبغى

أن تلقى به أحداً غيرها ، ولا تنس أنك فى القصر المسحور .

وأبلغ الفندق بعد لحظات فإذا أنا أستقبل فى كثير من التجهم ، وغير قليل من السخط والإعراض . فلم تتعود أسرتى أن تفتقدنى فلا تجدنى ، ولا أن ترانى أغيب عنها دون أن أنبهها بعزمى على الغيبة وبالغرض الذى أنا قاصد إليه، والمكان الذى تستطيع أن تلتمسنى فيه . وأنا أريد أن أتحدث إليها بجلية الأمر وأنبهها بحقيقته ، وهذا لسانى يتحرك فى فمى يريد أن يأخذ فى بدء الحديث، ولكنى أرده إلى الصمت والسكون مشفقاً من العاقبة التى لاشك فيها وهى ضحك الصبيين وإغراقهما فى الضحك وإشفاق زوجى وإلحاحها فى الإشفاق مما أقول . هم جادون فى غضبهم ولو قصصت عليهم الأمر من أوله لأنكروه ، ولرأوا أنى أهزل حين يجدون وأتكلف حين يتبعون طبيعتهم. ولظن الصبيان أنى أعللهما ببعض هذا القصص الذى كنت أعللهما به أثناء الطفولة حين كانا يصدقان كل ما كان يقال . ومن لى الآن بأن يصدق هذان الصبيان — وهما ينكران ما يريان — وأن تصدق أمهما قصة هذا القصر المسحور الذى يقوم عند قمة من قمم الألب ، وقصة اختلافى إليه واشتراكى فيما يقع فيه من الأحداث ، كلا ما ينبغى أن أحدثهم بشىء من ذلك فلن يزيدهم هذا الحديث إلاغضباً وإشفاقاً ، ولعله يدفع هذين الصبيين إلى أن يظنا بأبيهما الظنون ويريانه من العجز والقصور بحيث لايستطيع أن يعلل غيبته بعللها الصحيحة الواضحة ، فهو يتكلف لها ما يتكلفه الأغرار من الحيل والمعاذير .

فأنا إذن أجتهد فى المداورة وأحيد عن القصة كلما دفعت إليها ، ولكن الأمر يتعقد فجأة ، فهم يسألوننى عن صاحبى توفيق ما خطبه ، أو أين ذهب أو كيف مضى على وجهه هكذا دون أن يودع قوماً كان معهم أو ينبئهم بمذهبه أو يستأذنهم فى الرحيل . فإذا زعمت لهم أنى لا أعرف من أمره شيئاً أنكروا هذا كل الإنكار ولاموني عليه كل اللوم ، وزعموا أنى مقصر فى ذات الصديق ، تلم به الأحداث فلا أحفل به وينزل به المكروه فلا أسأل عنه ، ومن يدرى لعله استجاب لهذه النزوات التى تعرض له فخيل إليه أنه يستطيع أن يتسلق الجبل فى ساعة أو ساعات كما كان يقول ، ولعله هم بذلك فمضى لطيته ثم اختلط عليه الأمر وتقطعت به الأسباب فهو لايدرى كيف يعود . ولعله تعرض لأكثر من هذا الشر فهوى إلى قاع سحيق أو غمره هذا الثلج الذى تثيره الريح فى أعلى الجبل أو زلت به قدمه فهو صريع يستغيث ولا يجد له مغيثاً .

لابد إذن من إنباء الفندق بأمره ثم من إنباء الشرطة ثم من إرسال الرسل يلتمسونه فى كل وجه فهو لم يرتحل قاصداً إلى الرحلة ، وهذه غرفته كما تركها ، فيها أثاثه كما تركه ، وهم يهمون أن ينبئوا الفندق والشرطة كما أرادوا ، وأنا أحاول أن أردهم عن ذلك وأكاد أنبئهم بأمر القصر المسحور ، ثم تصدنى عن ذلك بقية من حياء فأزعم لهم أن صاحبنا غريب الأطوار وأنه خليق أن يكون قد عاد إلى باريس كما أقبل منها لم يفكر ولم يقدر ولم يتخذ أهبة ولم ينبئ به أحداً .

والخير فى أن ننتظر لعله أن يعود إلينا أو لعل أنباءه أن تبلغنا بعد حين ، وأنا ألح فى وصف أطواره الغريبة وأحواله المختلطة وتصرفه فى الغربة على غير نظام حتى أكاد أقنعهم بأنه رجل شاذ كل الشذوذ ، لاينبغى أن ينتظر منه ما ينتظر من غيره من الناس ، فإذا فرغت منهم بعد جهد ولأى ، أقبلت على العمل الذى أهملته فأطلت إهماله ، وإذا أنا أمضى فيه ، وإذا هو ينسينى توفيقاً وأنباءه ويكاد ينسينى شهرزاد ، ولكنى أتلقى هذا الكتاب على النحو الذى تعودت أن أتلقى عليه الكتب فى هذا الصيف .



شکوی شهرزاد

« من الحق يا سيدى أنك لم تكن قالياً ولا سالياً حين ودعتنى ، فقد طالت غيبتك عنى وما أرى إلا أن النسيان الآثم قد ضرب بينك وبينى أستاراً . ولو لا بقية من الثقة بك لعتبت عليك ، ولو لا فضل من حسن الرأى فيك لصدقت وشاية سجيننا البائس حين زعم لى أن شاعرك ينسيك حتى شهرزاد . وقد كنت أظن أنى لم أنعم بالخلود وحده ، وإنما نعمت به وبالشباب أيضاً ، ولكن شيئاً من الشك قد أخذ يعترضنى ويشغل بالى منذ أخذت أحس غموضاً فى بعض الأشياء واختلاطاً لبعض الأمر وقصوراً عن تفسير ما يقع حولى من الخطوب ، فأنا لا أفهم فيم طالت غيبتك وقد كنت أظن بك الحرص على لقائى ولا أفهم فيم انقطعت أنباؤك وقد كنت أنتظر منك الحرص على أن تتصل بينك وبينى الأسباب ، وهناك أمر آخر لا أستطيع أن أفهمه ويسوءنى حقًّا أن أشعر بعجزى عن فهمه وتأويله وهو أمر هذا السجين المسكين ، فقد تركته عندى حائراً متولهاً لايدرى ماذا يريد ولا ماذا يراد به ، وقد رجعت من تشييعك شديدة الرفق به والعطف عليه أريد أن أواسيه أوأسليه أو أتوجع له ، كما يقول الشاعر القديم ، ولكنى لم أكد آخذ معه فى الحديث حتى أقبل الأسود ينبئنى بأن ثلاثة نفر غلاظ شداد قد أقبلوا يطلبونه وهم يريدونه على أن يتبعهم ، فإذا سمع ذلك ضاق به أشد الضيق وامتنع عليه أشد الامتناع وجثا بين يدىّ خائفاً وجلاً ، وعائذاً يسألنى أن أجيره

ويتوسل إلى فى أن أحميه ، وهو يزعم لى أنه قد عرف القصر المسحور أو عرف بعضه وبلا آلامه ومحنه أو بلا بعضها ، وهو يؤثر ما يعرف على ما لا يعرف ويفضل ما بلا على ما لم يبل . وهو بعد هذا كله سعيد حين يشعر بأنه فى كنفى وفى ظلى آمن أن ينتهى به المكروه إلى أكثر مما يطيق أو أبعد مما يحتمل .

ولست أخفى عليك أن قلبي قد رق له وإن كان قلبي قد عاهدنى على ألا يرق لأحد . فأخذت أهدئ من روعه وأهون الأمر عليه، ثم طمعت فى أن أخرجه من هذه المحنة وأحميه من غوائل الزمن ، وقلت للأسود اذهب فقل لهؤلاء النفر إن شهرزاد تجير هذا الرجل وتحميه حتى من الزمان . وما سمع ذلك حتى انكب على قدمى يقبلهما فى حرارة وسعادة وفى أمل ورضى ، وأنا قد دبرت أمرى تدبيراً وأحكمته الإحكام كله ، وأزمعت أن أدخل هذا الأسير فى ذلك البهو الحرام من القصر . ذلك البهو الذى لايدخله ولايخلص إليه أحد غيرى ولا يستطيع الزمان أن يتجاوز ما يلقى على بابه من الأستار ، وإنى لأدير الأمر فى نفسى وآمر أسيرى بالنهوض فينهض مشرقًا مغتبطًا وأنا مطمئنة آمنة أن يدخل هؤلاء النفر على قبل أن أمضى ما شرعت فيه ، فما استطاع أحد قط أن يدخل على شهرزاد دون أن تأذن له فى الدخول ، ولكن واأسفاه.. واحسرتاه.. والوعتاه ، هذه النافذة تفتح ولست أدرى كيف فتحت ولا من فتحها ، وهذا الفتى ينتزع من بين يدى ويعلق فى الهواء تعليقاً ويدفع فيه دفعًا بطيئًا وهو موله مدله قد فقد صوابه وغاب عنه رشده وهو يرسل إلى

نظرات فيها التوسل والتضرع والاستعطاف . وأنا واجمة أول الأمر ثم غاضبة لهذا الحرم الذى اعتدى عليه ، ثم ثائرة لهذا الجوار الذى استبيح وأنا أسعى إلى الأسير أريد أن أستنقذه من هذه الأيدى الخفية التى تعلقه وتسعى به فى الهواء ، ولكنى لا أكاد أبلغه حتى يدفع دفعة عنيفة وإذا هو قد خرج من النافذة ومضى فى الجو كأنه السهم . هنالك رجعت كئيباً كاسفة البال تكاد تنحل قواى ، لولا أن قواى لا تعرف الانحلال ، فآويت إلى مجلسى أو إلى مضجعى الذى تعودت أن ترانى مستلقية عليه . وجعلت أفكر فى هذا الأمر الذى أعرف أوله ولا أقدر آخره . وأنت تعلم أن قد كانت بيننا وبين الزمان فى العهود القديمة جداً حرب ضروس كاد يمحقنا فيها محقاً لولا أننا انتصرنا عليه بالحيلة واضطررناه أن يمضى بينه وبيننا صلحاً قوامه أن له منا المسالمة ولنا منه الخلود ، فالزمان كما تعرف يأكل أبناءه جميعاً ، وقد كان يريد أن يأكلنا فيمن أكل ، ولكنا أفلتنا من شباكه وأكرهناه على أن يضمن لنا البقاء ونضمن له السلم . أفتراه قد ألغى ما بينه وما بيننا من صلح ونقض ما أعطى على نفسه من عهد ، افترانا مضطرين إلى أن نعيد الحرب بيننا وبينه جذعة وأن ندك الأرض والسماء دكاً فإما انتصر علينا فأكلنا فيمن يأكل ، وإما انتصرنا عليه فأثقلناه بالقيود والأغلال ؟ أفتراه اتخذ هذه القضية التى لجأنا إليه فيها عن رأيك ومشورتك إلى إفساد الأمر بينه وبيننا ورد الحياة كما كانت قبل أن يعرف القانون والنظام ؟ أم ماذا ؟ ما هذا السجن الاحتياطى الذى يفرضه على رجل مسكين من الناس ليس له

حول ولا طول بإزاء سلطان الزمان الذى لا حد له ؟ مم يريد أن يحتاط ولمن يريد أن يحتاط ؟ أفتراني فى حاجة إلى أن أثير إخوتى جميعًا من قصورهم حيث ينعمون كما كنت أنعم بالراحة الخالدة والهدوء المتصل لنستأنف بين الزمان وبيننا صراعاً كنا نظن أنه مضى إلى حيث لا يعود ؟ لا تغضب ياسيدى ولا يثقل عليك قولى ، لقد أحسست شيئاً من الندم على هذه الفرصة التى أتاحت لى الاتصال بك وبصاحبك ، فما عرفت أننا نجنى من لقاء الناس أو الاتصال بهم خيراً . وإنى لأخشى أن يكون لقاؤنا هذا الصيف نذيراً بشر لا نقدر عواقبه ولا يقدر الزمان نفسه عواقبه . أسرع إلى وأشر على فقد اختلط الأمر أمامى أشد الاختلاط ، وويل للخالدين حين يدبرون أمرهم من الهالكين . ولكن لابد مما ليس منه به ، لقد بدئت القصة فيجب أن تنتهى . ماذا كتبت إليك ؟ أخشى أن أكون قد آذيتك وتحدثت إليك بما لا تحب ، ومع ذلك فما أردت بك شرًّا ولا قصدت إلى ما تكره ، ولكنك تعلم من أمرنا غير قليل فقد ألممت بسيرتنا فى الزمان الأول ، وعرفت ماذا بلونا من الناس وماذا بلا الناس منا . وما أيسر العلم بذلك ، لك ولغيرك ، لو تقرأون ما تسمونه الأساطير .

« معذرة إليك ياسيدى ، أسرع إلى وأشر على ، فما أرى إلا أننا قد استقبلنا عهداً جديداً سنستأنف فيه حياتنا الأولى فنتصل بالناس ويتصل الناس بنا ، فلتعن الأقدار كلاًّ على كل كما قال الخطيب العربى القديم . إلى أن أتلقاك أو أتلقى ردك على ، أرجو أن تقبل ياسيدى تحية المحزونة المشوقة إليك »

شهرزاد

مواساۃ شہرزاد

« سيدتى :

« بعض هذا الفزع والجزع ، وبعض هذا اليأس والقنوط ، فقد روعنى كتابك حقاً وأذهلنى عما كنت أضطرب فيه من شئون الحياة. ولئن كنت عاتبة على ياسيدتى لأنى قد غبت عنك فأطلت الغيبة ، فإنى عاتب عليك لأنك قد روعتنى فأسرفت فى ترويعى دون أن يكون فى الأمر ما يدعو إلى بعض هذا الاضطراب ، فضلاً عن كل هذا الاضطراب تنكرين غيبتى الطويلة ، فقد آمنت لى ياسيدتى بأن لأهلى على حقاً وبأن لعملى على حقاً ، أفتمنحين باليمين وتستردين بالشمال ؟ ولئن طالت غيبتى عنك يا سيدتى فما طالت عن رغبة ولا عن رضى ، ولكنا نتشبه بك وبأترابك الخالدين فنرى أن لقوانين الحق والواجب حرمة يجب أن ترعى ونكره لأنفسنا أن نتجاوز حدود هذه القوانين أو أن نخالف عن أمرها ، ولقد زعمت لصديقنا الأسير البائس أن ملوك الناس وأصحاب السلطان أقدر منك على تغيير ما يشرعون من قوانين ، بل على انتهاك ما لهذه القوانين من حرمات ، وأنك على خلودك وسلطانك الذى لاحد له عاجزة عن تغيير ما شرعت لنفسك وللقصر من قانون ، فنحن ياسيدتى نحب هذه الرعاية للقانون المشروع ، ونكره الخروج عليه ونضيق أشد الضيق بجور الجائرين منا وتجاوزهم للحدود ، ونرى أن نتشبه بكم ما استطعنا وأن نؤدى للحياة حقها ؛ ففى حين يجب

الوفاء ونخلص حين يجب الإخلاص ونعمل حين يجب العمل ، لانؤثر أنفسنا بالراحة ولا باللذة ولابلقاء الأحباء إلاحين تبيح لنا قوانين الحياة والواجب هذه الراحة وهذه اللذة وهذه النعمة بلقاء الأحباء. أفتنكرين على ياسيدتى ما تعرفين لنفسك وما تحبين أن نحمد لك من السيرة والخصال. إنى لأعلم أنكم معشر الخالدين تتهموننا نحن معشر الهالكين بكثير من الغرور والكبرياء ، ترون أننا نتجاوز حدودنا ونخرج عن أطوارنا حين نتأثركم ونسير سيرتكم ونحاول أن نرعى القوانين كما ترعونها وكثرة الناس من حولنا يرون فينا رأيكم هذا ، يتهموننا نحن العقليين بالفلسفة والشذوذ ، والفلسفة والشذوذ عندهم يؤديان ما تؤدونه أنتم حين تذكرون الغرور والكبرياء. فنحن حائرون يا سيدتى ، نتأثركم فتغضبون علينا وتسخطون منا لأننا نطمع فى غير مطمع ، ونتأثركم فينقم الناس منا ويضيقون بنا لأنا نخرج عما يحبون ويألفون ، ولو أننا أعرضنا عن تقليدكم ومضينا مع الدهماء فتبعنا الهوى وأطعنا الغريزة وخرجنا كما يخرجون على قوانين الحياة والواجب لغضبتم علينا ولأنكرتمونا ولألحقتمونا بالعامة وصببتم علينا مثل ما تصبون عليهم من المقت والازدراء . هل لك ياسيدتى فى أن تنبئينا نحن المفكرين البائسين كيف نصنع لإرضائكم فإنا قد يئسنا من إرضاء الناس ؟ أفترين أننا سنيأس من إرضائكم أيضاً وسننتهى إلى ما انتهى إليه جماعة من الأفذاذ النادرين ، فنرى أن العقل خليق أن يستغنى بنفسه وأن يتمرد عليكم وعلى الناس جميعاً ، وألا يحفل إلا بأن يرضى هو وما أقل ما يرضى . لقد طالت غيبتى عنك ياسيدتى وما أحببت ذلك ،



ولو طاوعت نفسى لرغبت إليك فى أن تخطفينى كما خطفت أسيرك البائس وفى أن تمسكينى عندك وترصدى لى العيون والأحراس حتى لا أتجاوز بابًا من أبواب قصرك المسحور . ولكن ماذا أصنع ولأهلى على حقوق ، ولعملى على حقوق ، وللذين أعرفهم والذين لا أعرفهم من الناس على حقوق . إنما حظى من لذة القرب منك والاتصال بك حظ مقدور لم يتح لى إلا بين حين وحين ، حين يأذن لى القانون الذى أخذت نفسى به أن أنعم بهذه اللذة وأستمتع بهذه الحياة الحلوة . فاشفقى على يا سيدتى من هذا الحرمان وارحمينى من هذا القصور ولا تتهمينى بالإهمال والتقصير ، ولا تسمعى فى وشاية مهما يكن مصدرها وإن كان هو أسيرك العزيز عليك وعلى معًا .

على أنى أعود ياسيدتى فأستأذنك فى الرثاء لك والإشفاق عليك ، وأعترف بأن الأمور قد دارت دورتها وتكشفت عما لم أكن أنتظره ولا أرجوه ، فكيف أصدق أن شهرزاد الخالدة التى لا حد لقوتها وسلطانها تحتاج إلى أن يرثى لها ويشفق لها ضعيف هالك مثلى . يظهر أن نظام الكون قد تغير أو أنه آخذ فى التغير . ماذا تشكين فى قوتك وتنكرين سلطانك وذكاءك ، وأنت التى تمنحين أمثالنا القوة والسلطان والذكاء ، ولكن ماذا أنكر وقد انتهينا إلى عهد لا ينكر فيه شيء ولا يعرف فيه شيء . قد اضطرب كله ، فالمطر ينهمر فى أوقات الصحو ، والصحو يشرق فى أوقات المطر ، وقد أصبح الصيف شتاء والشتاء صيفًا ، وقد انقلبت الأوضاع واضطربت النظم واختلط كل تقدير وتدبير ، ولو

أن لعقولنا بقية من الثقة بنفسها لما شككت فى أن الحياة قد عادت كشأنها يوم خلق الله السموات والأرض ، وفى أن ما بلغنا إليه من رقى قد استحال إلى تراجع وانحطاط. ولكن لنتدبر أمرنا ياسيدتى ولنستقبل ما يعرض لنا بشيء من الحزم والعزم ومن الأناة والتفكير. ما هذا الخوف الذى يملأ نفسك الخالدة ، وما إشفاقك أن يكون الزمان قد عاد سيرته الأولى وأراد أن يعيد الحرب بينكم وبينه جذعة ليأكلكم كما يأكل أبناءه الآخرين ؟ أكل هذا لأنه كره أن يموت أسيرك قبل أن يأتى أجله فاستنقذه منك وضمن له حياته ليتم مايريد الله أن يتمه فى هذا الكون ، فأنت يا سيدتى كنت تريدين أن تقتلى أسيرك لا أقل ولا أكثر ، فهل فكرت فى معنى استنقاذه من الزمان وحفظه حتى لايصل إليه ، إنما معنى هذا الموت بل معنى هذا أبلغ من الموت ، معناه الفناء الذى لاوجود معه ولاوجود بعده ، فأى شيء نحن إذا لم يشملنا الزمان بحمايته ورعايته ، وأى شيء أنتم إذا لم يشملكم الزمان بحمايته ورعايته ، لقد ضمن لكم الخلود فى ذلك الصلح الذى أمضيتموه ، ولكنه لم يضمن لكم تجاوز حدوده ولا الخروج عن سلطانه. وهل تعرفين للزمان حداً وهل تعرفين لسلطانه غاية تنتهى إليها ؟

« معذرة ياسيدتى ، لقد كنت أظن أنك أنت التى ألهمت حكيم المعرة هذا البيت العجيب :

ولو طار جبريل بقيـــة عمره
من الدهر ما استطاع الخروج من الدهر

« أترين أبرع أو أروع من هذا فى تصوير سلطان الدهر الذى لاينتهى وملكه الذى لاحد له . لم يضمن الزمان ياسيدتى فراقه ولا الخروج عن سلطانه، وإنما ضمن لكم صحبته أبداً وجعل الفرق بينكم وبيننا أننا نحن نأكل وأنتم لاتأكلون ، فقد كنت تريدين ياسيدتى أن تكرهى الزمان على أن يأكل توفيقاً قبل أن يتم نضجه . أفتغضبين لأنه أبى أن يأكله نيئاً ؟ وما رأيك فيمن يريد أن يكرهك على أن تأكلى من الألوان ما لاتحبين ولا تسيغين ؟ إنما نحن ياسيدتى ملك الزمن ينشئنا وينمينا وينضجنا حتى إذا بلغنا حاجته ورضاه أكلنا كما يشاء هو لا كما نشاء ولا كما تشائين .

« وغريب ياسيدتى ألا تفهمى مم يحتاط الزمن ولمن يحتاط بحبس هذا السجين ، فإنه يحتاط للسجين نفسه أو لا ، فمن يدرى لو خلى بينه وبين الحرية ، لعله أن يكتب كتاباً آخر يسوء به هذه الأشباح الساخطة الصاخبة ، فيزيدها غيظاً على غيظ وهياجاً إلى هياج . ويحتاط لهذه الأشباح التى لجأت إليه وقبلت حكمه ، فمن حقها عليه أن يحميها من كتاب جديد ويحتاط لك أنت من أن يعود الأسير إلى ما يرى خصومه أنه إثم ، فيعود هؤلاء الخصوم إلى إثارة الضجيج والعجيج من حولك وإلى الإلحاح عليك فى تسليمه ، ومن يدرى لعلهم يخرجون عن أطوارهم فيحدثوا فى قصرك حدثاً أو يبطشوا بالأسير بطشاً يسوءك فيه ويحزنك عليه . لاتنكرى إذن على الزمان احتياطه فهو حكيم فيما يأتى إن كنت قد رأيته يأتى شيئاً ، وهو حكيم فيما يقول إن كنت قد سمعته يقول شيئاً . إنما الخير ياسيدتى

أن تطمئنى لقول الزمان وفعله ، وأن تصلحى ما بينك وبينه من الأمر ، وأن تستأذنيه فى لقاء أسيرك من قريب أو البر به من بعيد ، فذلك أنفع وأجدى من ثورة لاتغنى عنك ولا عنه شيئاً . إنما الخير ياسيدتى فى أن تتعجلى نظر الزمان فى هذه القضية حتى لايطول سجن الأسير ، وحتى تنتهى هذه القضية كما بدأت فتستريحى ونستريح ويستريح الزمان . وما أرى أنه سيجيبك إلى السرعة فى إنجاز هذه القضية ، فإن حياة الناس من حولنا مضطربة كما ترين ، وأخشى ألا يفرغ الزمان لقضية صديقنا المسكين قبل أن يفرغ من هذه القضايا الخطيرة الكبرى التى تفسد ما بين الشعوب .

« أما بعد ، فإنى ما كرهت ياسيدتى ، وما ينبغى لى أن أكره شيئاً تقولينه لى أو تسوقينه إلى . فكل شىء يأتى منك عذب لذيذ ، تطمئن إليه النفس وينعم به القلب ، فارضى فالنعيم فى رضاك ، واغضبى فإن الألم فى سبيلك لذة ، ولاتحسبى أن ندمك على الاتصال بى وبصاحبى يسوءنى ، فستعلمين إن لم تكونى علمت من قبل أن الخلود وحده لايكفى لسعادة الخالدين ، وإنما قيمة الخلود أن يتصل من حين إلى حين بالفناء وأصحاب الفناء ، ليقدر نفسه ويكبرها ويرتفع عن السأم والملل ، وعن اليأس والقنوط ، وإلى أن تنعمى على سيدتى بساعة حلوة فى حضرتك أرجو أن تتفضلى فتمنحينى يدك الكريمة الرشيقة لأضع عليها قبلة كلها وفاء وحب وإخلاص »

في الحبس الاحتياطي

أمر « الزمن » بتوفيق الحكيم فحبس فى برج ساعة كبيرة فى رأس كنيسة « كومباو » على ارتفاع ألف متر عن سطح البحر . ذلك أن « الزمن » دائماً يقول : « إذا كانت المساجد والكنائس هى بيوت الله ، فإن أبراج الساعات هى بيوتى » . ولا يعرف غير رب البرج كم من الأيام لبث المتهم فى ذلك الحبس ، لايسمع غير دقات « النصف » و « الربع » وصرير « العقارب » التى تأكل حياتنا لحظة لحظة ، و « التروس » التى تطحن وجودنا ذرة ذرة . وبينما المتهم قد أطرق يأساً وذلاً ، لا يفكر فيما كان من أمره ولا فيما سيكون ، كأنما عقله قد كل وذهنه قد أقفر ، وكأنما يأسه قد أغراه بأن يقذف نفسه فى « طاحونة الزمن » لتحيله العقارب والتروس إلى دقيق يتناثر فى الهواء ويعيش سابحاً فى الفضاء ، إذا « الريح » تلقى إليه برسالة مختومة من كوة فى قمة البرج . ففض الرسالة بيد كسلى ونفس ميتة وقرأ :

« عزيزى 

« يشق على أن تخطف منى سريعاً وأن يذهب عنى الصفاء الذى أشرق به وجهك فى اليوم الأخير . ولكن « السارق مسروق » ولقد سرقتك فسرقت منى ، إن « القاضى » لم يأذن لى فى دخول الحبس كى أراك ؛ غير أنه أذن لى فى الكتابة إليك . ولطف بى فأمر أن تحمل إليك رسالتى

على أجنحة « الريح » فإذا طالعتها فهل لى أن أطمع فى كلمة منك تقيم بها أودى حتى تعود إلى ؟

شهر زاد

وقعت الرسالة من يد السجين ، وقد تغير وجهه . لكنه التقطها فقرأها من جديد وقرأها وقرأها حتى كاد يقطعها قراءة . ثم صاح :
« هذه المرة قد أصابت منى مقتلاً ! » .

« أين القلم والقرطاس ؟ » فتساقطت عليه من الكوة أقلام وقراطيس . . . فجلس من فوره وكتب :

« سيدتى » . ولكن هذا النداء لم يرقه . فمزق الورقة وتناول ورقة أخرى وكتب .

« عزيزتى » . غير أن هذا اللفظ أيضاً فيه فتور . وهو يريد لفظاً كالسياط الساخنة . فمزق القرطاس وتناول غيره وكتب :
« معبودتى .

« إن حبك خالد كالوجود . ولن يستطيع الزمن أن يفرق بيننا أو يحطم حبنا . إن الحب يحلق فوق الزمن ، كما يحلق الفراش فوق الأزهار . إن الحب قد قتل الزمن . . . وما بلغ السجين هذه العبارة حتى سمع ضحكاً عريضاً وقهقهة خشنة كلها سخرية رن صداها فى المكان وارتجت لها عقارب الساعة . ثم خفت الضحك وتلاه صوت أجش عميق النبرات يقول هازئاً :

— من هذا الأبله الذى يزعم أنى قتلت ؟

ولم يسمع السجين غير ذلك . فقد خيم السكون . وكأن شيئاً لم يكن فى هذا المكان . على أن هذا الصوت الهازئ لم يبرح له صدى يرن فى رأس السجين ويلعب بأفكاره حتى قلبها رأساً على عقب . فرفع القرطاس ومر عليه ببصره وابتسم ، ثم مزقه وتناول قرطاساً آخر وكتب :

سيدتى :

أما أنى خطفت منك سريعاً وسرقت وشيكاً وأنت الخاطفة السارقة — ولا فخر — فهذا ما يحدث دائماً . فإن السارق كما قلت مسروق . وما جاءت به الرياح ذهبت به « الزوابع » ! ويظهر أن هذا قانون الحياة كما هو قانون القصر ! وحياتنا السريعة إن هى إلا خطف فى خطف ؛ ولقد خطفتنى من أصحابى فخطفنى منك الزمن ، ولا أدهش إذا خطفنى من الزمن من هو أقوى منه ، أما أن كلمة منى تقيم أودك فهو أمر يدهشنى ، ولا أغبطك عليه ، فيا لضيعة إنسان تقيم أوده كلمة منى ! . . وأما رغبتك فى زيارتى بالحبس فهو رفق بى ولطف لا أحسبنى أنساه لك . وبعد ؛ فإنى أخشى أن تكون كلمتى أغلظ مما كنت تتوقعين . ويخيل إلى ظنى السيئ بالمرأة أن كل رسالة تخلو من الإشارة إلى « الحب » هى عند المرأة رسالة غليظة . وأؤكد لك ياسيدتى أنى ما كنت أضن على مثلك بهذه الإشارة لو لم يكن « الحب » هذا الصبى الرقيق الضعيف لا يبدأ الكلام أول ما يبدأ إلا بتحدى « الزمن » ذلك الجبار الطاغية المخيف ، ولا يفتح فمه الصغير إلا بأغان وأناشيد ينظمها من ألفاظ براقة متلألئة يرى الزمن أنها له وحده ، وأنها ما وجدت إلا ليرصع بها تاجه

الهائل .. هذه الألفاظ هى « الخلود والأبد والبقاء » يلعب بها « الحب » الجميل لعب الأطفال بكرات البلور ذات الألوان تحت أقدام « الزمن » الساخط الساخر . إلى أن يضيق « الزمن » به و يعبثه ذرعاً فينفخ نفخة صغيرة فإذا « الحب » قد طار بأناشيده وألفاظه ولعبه وأغانيه ! ومع ذلك ياسيدتى فأنت تعلمين أن أمرى الآن بين يدى « الزمن » وأن « قضيتى » الساعة موضع نظره . فهل أستطيع اليوم أن أغضب هذا « القاضى » العظيم بالانصراف إلى ذلك الطفل اللعوب !؟ . .

وأخيراً يا سيدتى أرجو أن تتقبلى خالص شكرى على جميل عنايتك ، وأن تأذنى لى فى أن أضع عند قدميك :

توفيق الحكيم

دارت « العقارب » دورتها ، واستقبلتها أجراس البرج بالضجيج ، ورجعت « الريح » مسرعة تحمل إلى السجين الجواب :

« أيها الأسير العزيز

« فهمت كل شىء : ما أشد خوفك وخوف صديقك من « الزمن » !

لقد وجه طه حسين إلى كذلك كتاباً طويلاً عريضاً تترنح سطوره فرقاً من مخاصمة « الزمن » ، ذلك الغول الجائع الذى يأكل الناس فى غير ميعاد غداء أو عشاء .

ولقد تبينت من قول صديقنا طه أنه لا يريد لك ولا لنفسه أن تؤكلا نيئين قبل أن يتم نضجكما وقبل أن تفرغا كل ما فى

جعبتيكما من كتب ومقالات، فراح يتهمنى فى صراحته الجريئة أنى أريد الموت العاجل لمن أسعى إلى استنقاذه من يد الزمن. زعم غريب! فأنا لا أعرف الموت ما هو. لأنى كما تعلم أعيش دائما. وكنت أريد لكما حياة صافية مثل حياتى فى ذلك القصر الجميل الذى لا يموت الصيف فيه أبدا. ولكن... لتكن مشيئة صديقك طه. وليمض فى إشفاقه على نفسه وعليك وعلى الكون المسكين، الذى لا محالة صائر إلى الفناء بعدكما، سائر إلى حيث تنخر فيه عوامل الفساد إن غادرتماه قبل أن تريقا عليه كل ما عندكما من محابر؛ وتنثرا عليه كل ما فى رأسيكما من نثر!! واهاً لكم أيها الأدباء!

« لقد طال بى العهد فنسيت أن رؤوسكم الآدمية العظيمة يوم تقدم للدود لن يجد فيها غير، كلمات مرصوصة، لا تسمن ولا تغنى من جوع! إنى فى حقيقة الأمر أرثى لكم معشر الآدميين: ما أشق جهدكم طول الحياة إرضاء « للزمن »، وما أشد حرصكم على ألا يلقى بكم فى أعماق بحاره الظلماء، التى لا يعرف هو نفسه مقرها ولا غورها: بحار النسيان! ما حرصكم هذا أيها الحمقى! إنكم يوم تذهبون لن يعنيكم من أمر « الزمن » شىء. وسوف تنقلبون أشياء لا تعرف الدنيا ولا تذكرها ولا تحفل بشعرها ونثرها ومجدها. إنكم يوم تتجردون من هذا الثوب الآدمى، تتجردون كذلك من تلك الأوهام والأحلام التى تدفعكم إلى تقدير « الزمن ». فالزمن نفسه ما هو إلا الملك المتوج على عرش تلك الأوهام والأحلام، فإذا ذهبت من أدمغتكم ذهب معها. فهو منسوج من مادتها. وهو

أضعف وأوهى مما تتصورون . فهو لاشيء غير فنائكم الآدمى تجسم شبحاً هائلاً أحاط بكم من كل جانب . بل إن مخيلتكم الفانية هي التى أفرزت هذا السم الذى تسمونه « الزمن » ثم طلت به حياتكم وسجنتها فيه. فشأنكم شأن « دودة القز» تفرز من لعابها تلك المادة الحريرية التى ما تزال تلتف حولها وتحيط بها حتى تحبسها وتخنقها وتميتها .

فالوجود نفسه يسخر من تلك الكلمة ولا يعرف إلا أنها حماقة من من حماقات البشر أو ضرورة من ضرورات حياتهم الزائلة . بل إن الوجود لايعرف ولا ينبغى له أن يعرف هذا الكائن الموهوم « الزمن » ولقد استعان صاحبك ببيت من شعر المعرى ، بديع الخيال حقاً :

ولو طار جبريل بقية عمره

من الدهر ما اسطاع الخروج من الدهر !

لست أذكر أن كنت أنا التى أوحت إليه به فى ساعة من ساعات لهوى وعبثى ، إنما الذى يدهشنى الآن هو هذا السؤال : هل لجبريل عمر ؟ وهل هو يتحرك بجناحيه فى الزمان والمكان ؟ إذاً فهو بشر . إلا إذا قصد بالدهر الله والوجود . فإن الحركة فى الزمان والمكان ليست من صفات الخالدين ، تلك كلمات. ابتدعها البشر لأنفسهم ولوصف حياتهم ! إنى أعجب دائماً لأولئك الذين يريدون كشف أسرار الله بكلمات من قاموسهم اللغوى ! أليس من المضحك أن تصطنع أيديكم الصغيرة ذلك المسبار القصير لتسبر به غور الكون . . ؟!

أما « الحب » الذى تهزأ به ، فهو حقاً ضعيف رقيق كالزهرة التى

لاتعيش أكثر من يوم. ولكنه جميل والجمال لاعلاقة له بالزمن ؛ فإن اللحظة منه تكفى لإضاءة حياة كاملة . إن لم تصدقنى فأصغ إلى همسات فلاسفتك العظام وقد أشرفوا على الحفرة :

« الكل باطل وقبض الريح . . . واحسرتاه ! ولاشىء فى حياتنا الآدمية يستحق منا الآن تحية وداع : غير لحظة حب ظفرنا بها » .

« وبعد ، فإنى أخشى أن أكون قد قسوت عليك . وأحب أن تعتقد أنى على الرغم من رسالتك لم أزل لك صديقة وفية . وإنى أنتظر نافدة الصبر ساعة الحكم ببراءتك . وإنك لن تجد منى فى كل حين سوى عطف خالص لاينتظر أجراً . فنحن الخالدين قد اعتدنا أن نعطى ولا نأخذ . على أنك إذا تفضلت فقبلت منى ، راضى النفس صادق الإيمان ، ما أبعث إليك مع هذا الكتاب من حب هادئ ، لايرجو شيئاً ولا « يتحدى أحداً » ولا يعرف الأغانى والألفاظ والأناشيد ، فإنك تعيد ابتسامة الصفاء إلى ثغر المخلصة لك .

شهر زاد

لم يقرأ المتهم هذه الرسالة مرة ثانية ، ولم يضع وقتاً ، وتناول من ساعته القلم وكتب :

« سيدتى العزيزة :

« أبادر فأعترف لك أن كلامك عن « الزمن » قد أدهشنى حقيقة. كلا ، لست أصدق أنك تؤمنين بما تقولين !

« إنما هى ثورة أهاجها فى نفسك كتابى ، الذى آثرت فيه

الانضواء تحت لواء « الزمن » على السكون تحت جناح « الحب » ، فرأيت أن تنصرى « الطفل » بأن تحملى على « الجبار » على أنى أراك أنت أيضاً تنتضين سلاح « الكلمات » حاسبة أنك بها تستطيعين أن تقتلى وأن تمحى من الوجود هذا الكائن الذى نحيا جميعاً فى أحشائه . أتأذنين لى فى أن أسألك : أين تعيشين ؟ ألا تحسين بأنك تعيشين فى الزمن ؟ هذا الخلود الذى تنعمين فيه ، ما هو ، وما معناه ؟ أليس هو الحياة المتصلة فى « الزمن! » إن الزمن ليس وهماً ، إنما هو إناء عظيم لا قاع له يسبح فيه الأحياء والأموات ، الخالدون والهالكون . فإذا أخرجت منه ، فأين تكونين وإلى من تصيرين ؟ العدم ؟ إن كان لهذه الكلمة أيضاً معنى أو وجود لكانت قليلة ! فإن من خرج من قصر « الزمن » نزع عنه رداء « الخلود » . إذ لا « خلود » إلا بالقياس إلى « الزمن » ! فالزمن كما ترين يفرض سلطانه حتى على الخالدين . فهو الذى يخلع عليهم أبراد « الخلود » الموشاة داخل مملكته التى لا مبدأ لها ولا نهاية ، ولا يستطيع جبريل أن يخرج عن حدودها لو طار بقية عمره فى أرجائها . نعم ، لقد صدق المعرى وطه ، فإن « الدهر » أو « الزمن » يسع فى محيطه جبريل والكون والوجود ، فما دام هؤلاء جميعا قد دخلوا « مجرة » العقل الآدمى فقد خضعوا معه على الرغم منهم ومنه لإمرة « الزمن » . فنحن بغير « الزمن » لانعى شيئاً ولا تصلح عقولنا لشىء . فإن إبرة العقل متصلة « بمغناطيس » الزمن . هكذا خلقنا نحن البشر . وأرجو منك ألا تقولى إن هنالك وجوداً مطلقا خارج « منطقة نفوذ » الزمن



والعقل الآدمى، فإنى أجيبك من فورى ، إن ما يخرج عن منطقة عقلنا وزمننا لا وجود له عندنا، لأننا لا نستطيع أن نتصوره، فأنت موجودة عندى لأنك قد دخلت منطقة تصورى . وما دمت داخل تصورى فإنى لا أملك أن أدفع عنك سيطرة « الزمن » الذى يبسط حكمه على رأسى وعلى كل من دخل رأسى من خالدين وهالكين . أرأيت يا سيدتى قوة « الزمن » وجبروته ؟ أما قولك إن « الزمن » وهم أفرزه رؤوسنا الآدمية ، فهو كلام يصدق على كل ما تقع عليه حواسنا من موجودات مادية أو معنوية . فليس هناك فى الواقع حقيقة ولا وهم . إنما كل شىء وليد رؤوسنا وإفراز أدمغتنا . فما أنت يا سيدتى العزيزة ، وما الجبال التى تحيط بى ، وما الكتب التى أقرؤها وما الأصدقاء الذين أحبهم وما أهلى ، وما عملى ، وما مالى إلا إفرازات تخرج من رأسى . فأنت و « الزمن » فى هذا سيان . لا أستطيع أن أسمى أحدكما وهماً والآخر حقيقة .

« أما دفاعك عن « الحب » ، فهو جميل « كالحب » . ولست أنكر مطلقاً أنه أعجبنى وأثر فى نفسى . ما أصدقك إذ تقولين أن لاشىء يستحق منا تحية وداع على الأرض مثل لحظة حب ظفرنا بها ! نعم . . ولكن . . تلك اللحظة ، أين هى ؟ أنستطيع أن نظفر بها فى كل حين ؟

وبعد ، فأرجو أن تغفرى لى هذه المرة أيضاً جفاء هذا الكتاب ، إنى إنما أردت أن أعيد إليك الثقة فى مولانا « الزمن» ، فما دام هو الذى

ينظم حياتنا فهو ولا ريب الذى يقيم العدل ويرد الحق إلى ذويه .

« واقبلي يا سيدتي المحبوبة خالص شكرى على عطفك الذى تجودين به دائماً علىّ . ولو كنت أرى قلبي جديراً بك لبعثته إليك رسولاً أميناً يقرئك السلام من

أسيرك المخلص

توفيق



المحاكمة

جاء يوم المحاكمة . وعقدت الجلسة فى رأس « الجبل الأبيض » بالقرب من « شامونكس » . واعتلى « القاضى » القمة فى هيبة ووقار . وهو كائن طويل مديد ، لا ظهر له ، ولا يبدو عليه عمر ، له وجهان : أحدهما أسود والثانى أبيض . وقد اتخذ له من « قوس قزح » وساماً يزين صدره الذى كساه الجليد . وعندئذ قصف « الرعد » وهو حاجب الجلسة :

ـ محكمة !

فنهض الحاضرون رهبة ورعباً قبل أن ينهضوا إجلالاً ، وسقط ضعاف القلوب منهم مغشياً عليهم ، فلم يلتفت إليهم أحد ، حتى أفاقوا من تلقاء أنفسهم صفر الوجوه فوجدوا الناس قد جلسوا ، فجلسو وكأن على رؤوسهم طير الرخ !

وعندئذ هبط من القمة صوت هادئ عميق :

ـ فتحت الجلسة !

وأشار « القاضى » إلى « الزوابع » فصفرت ومضت ثم عادت حاملة « المتهم » وألقت به على الجليد ثم استأخرت عنه . وعندئذ هبط الصوت العميق :

ـ أيها المتهم ، قف !

ولكن المتهم لم يسمع شيئاً . فلقد كانت أسنانه تصطك ، وفرائصه

ترتعد ، لا من الخوف وحده ، ولكن من البرد . فهو الساعة على ارتفاع خمسة آلاف متر عن سطح البحر أو يزيد .

ولما رأى « القاضى » أن المتهم لم يبد حراكاً . أشار إلى حاجب الجلسة . فتقدم « الرعد » ودنا من أذن « المتهم » وقصف :

ـ قف ، أيها المتهم ! . .

وكأن لطمة قد أصابت أم رأس « المتهم » فانبطح على الأرض لايعى . ثم ثاب إلى رشده بعد قليل وهو لايذكر من أمره شيئاً . وسمع همساً خلفه فالتفت . فإذا شهرزاد مع حاشيتها وإلى جانبها طه حسين جالسين فى الصف الأول من صفوف المشاهدين وهم يتتبعون ما يقع فى جد وقلق واهتمام . وما علموا أن توفيقاً أحس بهم حتى همسوا إليه مشجعين :

ـ قف ولاتخف ! ذاك حاجب المحكمة !

ـ حاجب . . المحكمة ! . .

همس المتهم بذلك كالمخاطب لنفسه من بين أسنان ما زالت تصطك على الرغم منه : « إذاً كان هذا حاجبها فهل يرجى منها خير ؟! » ثم تحامل على نفسه ووقف مترنحاً كالسكران وصاح :

ـ أ . . أ . . أين هو القاضى ؟ لاسؤال ولاجواب قبل أن تحضروا إلى معطفى الصوفى . سأموت من البرد قبل صدور الحكم ! . .

فأشار « القاضى » إلى « الحاجب » فتقدم « الرعد » إلى المتهم وقصف :

— أين هو معطفك ؟

فانتفض المتهم انتفاضة كادت تطرحه إلى الأرض . لكنه ثبت والتفت صائحاً :

— النجدة يا أهل المروءة ! أما من حاجب ألطف من هذا ! . . . أيها القاضى ، إذا تركت علىّ حاجبك هذا فإنى لا أضمن حياتى إلى آخر الجلسة ، فألتمس من عدالتك لاتجعل بينى وبينك حاجباً . . ! فإن مثلى وإن لم تكفه الإشارة فهو على كل حال لا يحتاج إلى مثل هذا الترجمان الذى يميتنى ويحيينى فى كل لحظة !

— ولكنى أنا فى حاجة إلى هذا الترجمان . فإن سمعى ثقيل ، لا تصل إليه أصواتكم ولا صخبكم وضجيجكم !

— وكيف تسمعنى الآن أيها القاضى ؟

— أمرت « الريح » أن تجلس طول الجلسة تنقل إلىّ ما يدور فيها من كلام !

— لا بأس بالريح ، فهى على كل حال أرق حاشية وأهون خطباً !

— فليكن ما تريد !

وأشار القاضى إلى « الرعد » أن تنح الآن ، فامتثل ووقف فى آخر المكان ينظر ولا يتكلم . وعاد القاضى إلى المتهم قائلا :

— أين معطفك فنحضره إليك ؟

فسكت المتهم وأخذ يتذكر :

– أين معطفى ؟ ذلك هو المشكل ! أين تركته وأين نسيته ، لقد صحبنى فى كل مكان . لازمنى فى مصر وفى السفر وفى الجبل . وحتى فى الجحيم بين اللهيب ما تركته وما نسيته ! واليوم وأنا فى السماء عند السحاب و بين الجليد أتركه وأنساه وأصعد بدونه ! . .

فتهامست شهرزاد وطه مبتسمين :

– حقًّا لا يحدث هذا إلا من توفيق الحكيم !

وعيل صبر القاضى فقال فى شىء من الحدة :

– إنا لم نجتمع فى هذا المكان لننظر فى قضية معطفك ! ولا إخالك تعتقد أنى عاطل لا عمل لى فى الوجود غير النظر فى التافه من أمورك !

فأطرق المتهم وأرتج عليه . فنهضت شهرزاد قائلة :

– فليأذن سيدى القاضى فى أن أدل « الزوابع » على مكان معطفه . إنه فى حمام قصرى !

– فى حمام قصرك ؟ وماذا يصنع فى حمام قصرك ! آه . . . نعم . تذكرت !

همس بذلك المتهم . . وطارت « الزوابع » إذ سمعت قول شهر زاد . وعادت فى لمح البصر بمعطف توفيق وألقته على منكبيه . وما شعر توفيق بثقل معطفه حتى اطمأن وقال :

– وأين عصاى ؟

فكظم القاضى ما به وقال :

– انتهينا من مسألة المعطف وجاء الآن دور العصا . ماذا يفعل

بالعصا فى حضرتى . . ولاهى تقى برداً ولا حرا ولاتدفع شرًّا ولا ضرا !

— إنى لا أشعر بأنى أنا حقيقة توفيق الحكيم إلا بمعطفى وعصاى !

— هاتوا له ما يريد . إن هذا الإنسان قد أضاع « منى » أكثر مما ينبغى فى غير طائل !

ولم يمض قليل حتى كان المتهم ماثلاً بمعطفه وعصاه بين يدى القضاء مستعدًّا لكلمته وأمره . . وتنفس القاضى الصعداء :

— أخيراً ! ألك حوائج أخرى أم ننظر فى الموضوع ؟

— ننظر فى الموضوع .

— حمداً وشكراً ! تقدم أيها المتهم ! ما اسمك ؟

— اسمى توفيق الحكيم . .

— عمرك ؟

— أيها الزمن ألا تعرف عمرى ؟

— معذرة ! صدقت ! إنى أعرف عمرك . ومنذا غيرى ينبغى له على الأقل أن يعرف الأعمار ؟! صناعتك !

— صناعتى ؟ . . أيهما ؟

— أديب وكاتب روائى يختلق الحوادث ويبتدع الأشخاص . . أليس كذلك ؟

— عفواً ، سيدى القاضى ، ليست هذه صناعتى الأصلية .

— لست أعرف لك غيرها . تلك هى التى ورد ذكرها أمامى فى الأوراق . أديب روائى يختلق الحوادث ويزور الأشخاص . .

ـ يزور ؟ !

ـ أليس الأمر كذلك ، أجب بنعم أو بلا !

وقع المتهم فى حيرة . . وجعل يفكر هنيهة ثم قال وكأنه يخاطب نفسه :

ـ نعم ، إنى كذلك ، ومع ذلك ، فإنى لست كذلك . .

ـ ما هذا الجواب المعقد ! إنى أطلب إليك جواباً واضحاً بسيطاً فى لفظ واحد . أتختلق وتزيف ؟ تلك هى التهمة التى يرميك بها المدعون .

ـ أنا أختلق وأزيف ؟ وأنا أعرف القانون . وكنت رجلاً من رجال القانون ! كلا يا سيدى القاضى ! . .

ـ أنكر المتهم التهمة . اجلس أيها المتهم ، وأصغ إلى أقوال المدعين .

أحضروا الشاهد الأول ! . .

وعندئذ استوى « الحاجب » واقفاً ونشر ورقة فى يده وقصف :

ـ الشاهد الأول : شهريار !

فصفرت « الزوابع » وأقبلت تلقى بشهريار أمام القاضى . وتفرس القاضى فى الشاهد ثم قال :

ـ شهريار .

ـ عمرك ؟ كلا هذا من شأنى . . صناعتك ؟

ـ ملك .

ـ فى أى مملكة ؟

ـ فى أى مملكة ! لم يسألنى أحد قبل الساعة هذا السؤال . ولم يخطر لى على بال أن أعرف اسم هذه المملكة؟ لست أدرى . سلوا هذا المتهم !

فالتفت القاضى إلى المتهم ، فوقف :

ـ أيسألنى أنا عن اسم مملكته ؟ وكيف لى أن أعرف ؟ إن كل ما أعلم عن هذا المخلوق أنه ملك . ولست أدرى أين مملكته ، ولا أين موقعها من « خريطة » العالم ؟

فعاد القاضى والتفت إلى الشاهد فاعتدل :

ـ أنا كذلك لست أعرف إلا أنك ملك .

فقال القاضى فى شىء من السخرية :

ـ حسبك هذا . أقسم إنك لاتقول غير الحق .

ـ أقسم .

ـ ما أقوالك ؟

ـ أقوالى : أن هذا المتهم قد قذفنى بالباطل وافترى على كذباً وزوراً واقعة لم تكن ؛ فلقد جعلنى ديوثاً أدخل على شهرزاد فأجد عندها العبد فلا أقتله ولا أشرب من دمه !

فما تمالك المتهم أن وقف وصاح :

ـ كنت تريد أن أجعل منك قاتلاً سفاكاً يشرب الدماء . نعم

لقد أذنبت وأجرمت إليك ، إذ لم أجعلك كما كنت تريد مخلوقاً سخيفاً !

وأراد الملك أن يحتج . ولكن القاضى هدأ من غضبه وأسرع فأمر المتهم بالجلوس والصمت إلى أن يحين وقت الدفاع فيتكلم كما يشاء . وأشار القاضى إلى « الزوابع » فأقصت شهريار وأحضرت الشاهد الثانى قمراً . فسأله القاضى عن اسمه وصناعته ثم عن أقواله . فأجاب الوزير :

ــ أقوالى يا سيدى القاضى : أن هذا المتهم قذفنى وحط من قدرى . فلقد جعلنى أقتل نفسى من أجل امرأة ، فى الوقت الذى يخرج فيه العبد من مخدعها وينكشف لى إثمها ودنسها !

فتغير لون شهرزاد ومالت إلى أذن طه تهمس :

ــ لقد أدهشنى الساعة أن يكون ذاك كلام شهريار العظيم ... الذى كان عظيما حقًّا فى آخر أيامه ! ولكن ما قال هذا الشاهد المدعو قمراً الآن أدهى وأمر !! . يا إلهى ما هذه المخلوقات ! ياله من كابوس ! ..

ولم يطق المتهم سكوتاً فنهض صائحًا :

ــ ياخيبة أملى فيك أيها الوزير الجميل ! أنت الذى عشت تعبد مثلك الأعلى النبيل . فلما ذهب عنك ذهبت . لقد انطفأت فى قلبك شمس حياتك يا قمر ، ففيم بقاؤك ، ولكن هذا الشاهد ليس بقمر ، إنما هو فرد من السوقة !

فضاق القاضى بالمتهم .

ــ قلت لك اجلس ولاتنبس ! . . أحضروا الشاهد الثالث . .

فجيء « بالجلاد » ، وبعد المقدمات المعروفة سأله القاضي عن أقواله :

ــ أقوالي يا مولاى القاضي : أن هذا المتهم قد نسب إلى زوراً أنى بعت سيفى إلى صاحب الخان . وأنا رجل « موظف » أقدر واجبي وأعلم أن هذا السيف ليس ملكي وإنما هو « عهدة » لايباع ولا يشرى ! .

وعندئذ قام المتهم صائحاً :

ــ أرجو من عدالة القاضي أن يسأل فى ذلك صاحب الخان وهو لاشك قد حضر مع الشهود !

فالتفت القاضى إلى « الزوابع » :

أحضروا الشاهد الرابع !

فما مرت ثانية حتى كان « أبو ميسور » ماثلاً أمام القاضى فسأله :

ــ أأنت صاحب الخان ؟

ــ أجل ، مولاى القاضى !

ــ هل تعرف هذا الجلاد ؟

ــ كيف لا ، يامولاى القاضى ، وهو عميلى ونديمى ، واحد المدخنين !

ــ أكان قد باعك شيئًا بدين عليه ؟

ــ باعنى سيفه .

وعندئذ صاح المتهم فرحاً :

ـ فليحى العدل ! ظهر الحق وزهق الباطل ! ألا تستحى أيها الجلاد ! ما أكذبك !

فأسكت القاضى المتهم ثم التفت إلى أبى ميسور :

ـ وأنت ما أقوالك ؟

ـ أقوالى وحق رأسك أيها القاضى ! عجباً ! لست أرى لك رأساً ولا ذنباً ! ومع ذلك فهذا ليس بالأمر الذى يعنينى ، وما دمت أنت القاضى فإنى أشكو إليك هذا المتهم ، أين هو ؟ لايشرفنى أن أراه، هذا المتهم يزعم زوراً أنى أدخن القنب حتى يغيب وعيى. هذا باطل أيها القاضى، فإنى وحق رأسك، كلا لا شأن لى برأسك ، فرأسك هو لك. ولست أدرى إن كان رأس إنسان أو رأس حصان . . ولكنه رأس القاضى . . ولكن أين هو رأس القاضى ، عجباً إن للقاضى رأسين ؟ رأس لاشك فيه الإدانة ورأس فيه البراءة . . وإذا تناطح الرأسان . .

ـ كفى خلطاً ! إنك إلى الساعة غائب الوعى تفوح منك رائحة القنب ! اطردوه! .

ـ فليحى العدل! . .

صه أيها المتهم. لا أريدهنا مظاهرات! ألزم الصمت ! أيها الحاجب ! ناد بقية الشهود! . .

فقصف « الرعد » وصفرت « الزوابع » وطارت فى كل مكان؛ ثم عادت تعلن أن بقية الشهود وهم « الساحر » و « زاهدة » قد هربا ولم

يعثر لهما على أثر . وأن شهرزاد و « العبد » حاضران فى الجلسة بين المشاهدين . وعندئذ قامت شهرزاد وأعلنت أمام القاضى والجموع نزولها عن كل حق لها — إن كان لها حق — فى مقاضاة المتهم . وقام « العبد » فتبع أثر مولاته فيما أعلنت . وكانت الشمس قد غابت ، فزال وجه القاضى الأبيض عن المكان ، وظهر وجهه الأسود ، يملؤه « كلف » دقيق من نور متناثر . وأطرق القاضى لحظة ثم قال فى صوت أشد هدوءا وأكثر عمقا مما كان :

— الدفاع !



الدفاع

وقف المتهم لحظة مضطرباً بين صمت الجموع ووجومهم ، وانتباه شهرزاد والتفات طه حسين وقد أمسك أنفاسه وأصاخ بسمعه .

ثم ارتفع صوت المتهم رويداً رويداً كأنما هو آت من مكان بعيد :

أيها القاضي العادل :

تهمة خطيرة تلك التي رماني بها المدعون ، أو المدعيان ، إذ قد سقط من الحساب اثنان ظهر كذبهما للمحكمة ، وهرب اثنان ضجراً من طول الإجراءات فيما أرى ، وتنازل اثنان كرماً ونبلا من دون ريب ، فلم يصمد في وجهي غير ملك ووزير وهذا شرف عظيم !

قبل أن أبدأ دفاعي . أود أن أبدي أسفي لهذه الدعاوى التي أقامها علي ، أشخاص يمتون إلي بسبب . إنه لمن المؤلم أن أراني منفرداً بين إخواني الأدباء بهذا الموقف الذي وضعني فيه اليوم هؤلاء الأشخاص المحترمون . وإني لأعجب كلما تذكرت أن غيري من الأدباء لم يلق من أشخاصه ما ألقى من هذا الإكرام . فها هو ذا « هيكل » لم ترفع عليه « زينب » قضية في المحكمة « الشرعية » وهذا « العقاد » لم يقاضه « ابن الرومي » أمام المحكمة « المختلطة » . وهذا « المازني » « ترك الأموات والأشباح وأخرج على مسرح كتاباته أهل بيته وذويه من الأحياء فلم يتذمر أحد منهم . فما بال أشخاصي أنا من دون بقية الخلق هم الذين قد أساءوا الأدب وثاروا وتمردوا ، كأني يوم كتبتهم غمست قلمي في

مداد ممزوج بلعاب الجن الأخضر أو ماء الفلفل الأحمر .

وبعد ، فما هي حقيقة الاتهام ؟ إني قد زورت ولفقت وقذفت إذ جعلت الملك والوزير على صورة لايرضيانها لنفسيهما ؟ إني أترك لعدالة المحكمة تقدير الجميل الذي أسديته إلى هذين المخلوقين بذلك التزوير والتلفيق المزعومين ، إنهما قد مثلا الساعة ورأيناهما مجردين عن ذلك الثوب الذي ألبستهما إياه تلفيقي وتزويري ، ما ذا رأت المحكمة منهما الآن غير ملك جاهل سفاك ووزير تافه صعلوك ، أين ذلك التفكير الذي وضعته في رأس شهريار فارتفع قليلا عن الأرض ، فلم يحفل . « بعبده » شهر يار الواقف خلف الأستار بقدر ماحفل بما اختفى وراء عقلها من أسرار . . . ! ! وهذا الوزير . . .

القاضي — (مقاطعا للدفاع) : إنهما قد رفضا هذه الصورة على كل حال . وهي في نظرهما قبيحة !

الدفاع — (يمضي) : أيها القاضي ! ليس من حق أحد أن يرفض صورة وضعها مبدع لأنها قبيحة أو مليحة ! إن للمبدع أن يظهر أشخاصه على أي وجه يريد ما دام فيها حياة نابضة .

القاضي — وهل من حق المؤلف أن يشوه الأشخاص ؟

الدفاع — وهل من حق الخالق أن يشوه بعض المخلوقات ؟ وهل من حقي أن أطالب خالقي بأن يغير الصورة التي وضعني عليها ، وأن يبدل أنفي الذي لايعجبني بأنف آخر ، وطبعي الذي يتعبني بطبع آخر ؟

القاضى — ولكن رجل الفن مطالب بالكمال !

الدفاع — إن الكمال فى الفن وفى الطبيعة هو خلق الحياة النابضه . ولا شىء غير ذلك .

القاضى — أو يستوى عندك فى الجمال : حياة نابضة كحياة المشلولين والمشوهين فى أجسامهم وعقولهم ، وحياة أخرى كحياة « السبياد » الجميل الجسم ، السليم العقل ، و « هيلين » البديعة الحسن الذكية الفؤاد ؟ !

الدفاع — سيدى القاضى ! إنك تضيق علىّ الخناق وتحاسبنى حساباً عسيراً .

القاضى — (باسماً) : ألست تريد قضاء « الزمن » ؟ !

الدفاع — (يفكر ملياً) : نعم ، صدقت ياسيدى . إن الجمال هو كمال الكمال . هو الحياة النابضة الصحيحة المتناسقة المصفاة من عيوب النقص والتشويه ، مرت عليها الطبيعة بيد التجربة والأستاذية على مدى أحقاب الأحقاب ! ولكن . . منذا يزعم أن هذا « الجمال » فى مقدورنا نحن الآدميين فى كل حين ! وهل هو فى مقدور « الطبيعة » فى كل حين ! كم مثلا من أمثلة الجمال الكامل فى « الجسم والقلب والعقل معاً » استطاعت الطبيعة أن تخرجه منذ آدم حتى اليوم ؟ وبأىّ ثمن صنعت تلك الآيات ؟ وبعد كم من التجاريب؟ أليس الثمن ملايين الملايين من المخلوقات العادية والناقصة والمشوهة على مر الأحقاب والعصور ؟ أليس النقص والتشويه والتكرار تجاريب الطبيعة الفاشلة ؟

إن الطبيعة لتتكبد العناء هى أيضاً فى خلق الجمال ! فهى لاتختلف كثيراً « فيدياس » ، إنه كذلك قد أسقط من فتات الرخام الضائع والتماثيل الناقصة أكواماً على أكوام قبل أن يبرز من بينها آيته الفنية « بالاس » وما لى أفرق بين الطبيعة وفيدياس . كأن الإنسان شيء مستقل عن الطبيعة ! إنه جزء منها . خاضع للقانون الذى يسيرها . وذلك القانون وحده هو الكامل المنزه ، لانقص فيه ولا تقصير ، وهو الذى دبر لها وأراد هذا القصور . فإذا كان الكمال أو الجمال نادراً فى الطبيعة على قوتها وعظمتها ، فإن العمل الفنى الكامل هو عند البشر أقل وأقدر .

ولأتحدثن الآن عن نفسى قليلا ، وأنا بين « يدى » الزمن ، فأقول إنى ما زعمت يوماً ولن أزعم أنى صنعت من هؤلاء الأشخاص « المدعين » شيئاً يقرب كثيرا أو قليلاً من الجمال الفنى . وإن كنت صنعت ذلك لما عرفت ، فإن صانع الجمال لايراه . ومن دنا من قمة الكمال أصابه الدوار ففقد شيئاً من إدراكه لما يصنع ولقيمة ما يصنع ، وأصبح شأنه شأن أولئك الصوفيين الذين يقفون بأعتاب « الله » بعد صعود طويل وجهد شاق ، فيغمرهم ضباب النشوة ، فإذا هم لايرون شيئاً ولا يميزون بعقولهم شيئاً .

ولما كنت الآن على ثقة بأنى لا أشعر بدوار ولا بضباب ، فإنى ولاجدال بعيد عن قمة « الكمال » . وكل ما أزعم لك ياسيدى القاضى فى شأن عملى هذا ، أنى كنت دائماً حسن النية ، سليم الطوية ، لا أمل السير

بوسائلى الضعيفة ، صاعداً فى ذلك الطريق الوعر الطويل المؤدى إلى هيكل « الجمال » العظيم ، دون أن أطمع يوماً فى رؤيته ، ولو عن كثب . إنما أقضى حياتى أمشى وأتعثر فى أشواك هذا السبيل إلى النهاية . وعزائى الوحيد أنى أعيش فى طريق « الجمال » وأقضى نحبى فيه . فإذا رفق رب « الهيكل » بى ، وألفانى يوماً خليقاً أن يضع على قبرى زهرة من حديقته ، فذاك كل جزائى ، وغاية ما أطمع فيه . . . وأخيراً ياسيدى القاضى . لست أملك إلا أن أعهد إليك باسمى وشرفى وأمرى فاحكم بما ترى . وأنت إذا حكمت فإنك تحكم بالحق والعدل . ولست أخاف وجهيك . فإن فيك أيها « الزمن » « سواد » الدهماء ، وفيك « نور » العلماء . وبهذا الحكم المزدوج على الأشياء لايفلت حق من مصفاتك .

* * *

جلس المتهم وقد خيم الصمت العميق فى ذلك الليل الساجى على الجموع الساهمة . وأطرق القاضى ملياً ، ثم رفع رأسه :

ـــ النطق بالحكم عند الفجر . وليفرج فوراً عن المتهم بالضمان الشخصى !

فقام « الحاجب » ونادى فى قفصه :

ـــ من يضمن المتهم ؟

فنهضت شهرزاد صائحة :

ـــ أنا أضمنه وأحفظه فى قصرى حتى الفجر .

فتحرك « القاضى » فى جلال رهيب وقال ملتفتاً إلى شهرزاد :

ـ لاتقبل المحكمة ضمانك ، لأنها لا تأمنك عليه .

فبهتت شهرزاد ووجم الحاضرون ، ولكن القاضى لم يطل صمته بل قال مخاطباً شهرزاد :

ـ ولأنك متهمة مثله .



غضب شہرزاد

قلت وقد اتجهت إلى القاضى واثقاً بأنه سيرضى بما أقول : فأنا أكفله إن أذنت يا سيدى . قال القاضى فى لهجة حلوة مرة فيها الحنان والسخرية معًا : او أمنتك على نفسك لأمنتك عليه . فسقط فى يدى ، واستحييت من أن أفجأ بما فجئت به شهرزاد ، وانتظرت فى الوقت نفسه أن أسمع من توجيه التهمة إلى وأمرى بالتهيؤ للدفاع . ولكن صمت القاضى اتصل حتى قطعه صوت مخيف اضطربت له الأرض وامتلأ به الجو ، وأوشك الجبل أن يتصدع منه فرقًا و رعبًا وتهالك له توفيق ففارقته قواه وسقطت من يده عصاه وخر كأنه مغشى عليه ، وإذا هو الحاجب يقول فى قصف الرعد كله ، إلىّ يا مولاى فأنا زعيم به حتى يتصرم الليل . ثم ثاب الهدوء وثابت معه إلى المتهم قوته وعاد إليه رشده فسأله القاضى :

أتقبل هذا الكفيل ؟ قال مضطربًا متهالكًا : على ألا يسمعنى صوته ، فإنى أخشى ألا أعود إلى أهلى كما فارقتهم سميعًا . قال الحاجب فى صوته القاصف : لا بأس عليك . قال المتهم متهالكًا متهالكا : أو بأس أشد من هذا البأس ؟

وصعدت فى ذلك الوقت من أدنى الجبل سحابة تسعى فى هدوء ولين ، فجعلت تغمر المتهم قليلاً قليلاً وهو يضطرب اضطراباً عنيفا ويصيح صياحاً شديداً يريد أن يخلص منها فلا يجد إلى ذلك سبيلا ،

وما هى إلا لحظة قصيرة حتى أخذته من جميع أقطاره ، فإذا شخصه يخفى وصوته ينقطع والسحابة تمضى مصعدة أمامها فى مثل ما أقبلت به من الهدوء والوقار .

والتفت فلم أجد حولى إلا شهرزاد وغلامها الأسود وإلا صاحبى ، وقد أطبق على المكان صمت ليس أقل عمقاً ولا كثافة من هذا الليل الذى غمر كل شىء . على أن ألفاظ شهرزاد كانت تخترق هذا الصمت العميق كما كانت أشعة النجوم تنفذ من هذا الليل الكثيف ، وكانت شهرزاد مغضبة أشد الغضب مغيظة أحد الغيظ ، ساخطة على هذا القاضى الذى لم يكفه أن رد كفالتها فى غلظة وعنف حتى اجترأ عليها وتجاوز حقه فيها ، وزعم أنها متهمة كتوفيق يجب أن تدافع عن نفسها كما دافع هو عن نفسه ، وكانت تقول فى صوتها الفضى الجميل : من هذا الذى يجرؤ على أن يتهمنى أو من هذا الذى يملك أن يقفنى أمام القضاء ؟ ومن هذا الذى يستطيع أن يكرهنى على ما لا أريد ، ثم ترسل فى الجو قهقهة عذبة متصلة وهى تقول : لم يبق إلا أن تدافع شهرزاد عن نفسها وتقف من القضاء موقف المجرمة وهى التى أخذت الناس بالجد والعبث ، وعلمتهم الاتهام والدفاع . سيعلم هذا القاضى كيف أعصيه وكيف أزدريه وكيف أمتنع عليه ، ثم تلفتت إلى وهى تقول فى شىء من الحنق تكظمه وتخنف من حدته :

— أرأيت إلى مشورتك يا سيدى كيف تعرضنى لما لم أتعرض له قط ؟!

قلت فى أناة وهدوء :

— إن شخصك الخالد ياسيدتى قد يكون بمأمن من هذا البرد المهلك الذى لانقوى نحن على احتماله ، فإن شئت أن ترديه عنا أو تحمينا منا قبل أن نأخذ فى هذا الجدال الذى أظن أنه سيكون شاقا طويلا .

قالت خجلة متضاحكة :

— لقد أصبت . ما أدرى كيف ذهب عنى هذا ، ولم تكد لتفت إلى غلامها الأسود حتى تغير من حولنا كل شىء . وإذا نحن فى غرفتها الهادئة الجميلة من قصرها المسحور ، وإذا هى مستلقية بين وسائدها ، وإذا الخدم يسعون بين أيدينا بما يرد إلينا القوة والنشاط .

قالت شهر زاد :

— الآن ياسيدى وقد أتيح لك الأمن والدفء والهدوء تستطيع فيما أظن أن تتحدث إلى برأيك فى هذه الجراءة التى ما كنت لأتعرض لها لولا أنى لقيتك وقبلت رأيك فى أمر صاحبنا المسكين .

قلت : مهلا ، أزيلى قبل كل شىء من بيننا هذه الخصومة التى تخلقينها وتجنين بها على ، فإنها خليقة أن تصرفنا عما يجب من تدبير أمرك . وأنت تعلمين أن الزمن لايذعن لما نريد ، وأنه كثير التقلب والجموح ، يطيل الليل إن أراد ويقصره إن أحب ، إنما هى حركة منه يدفع بها النجوم دفعا فإذا الليل ينجلى ، أو سكون منه يمسك به النجوم فى الجو فإذا الليل ثابت مقيم . وما أدرى أراغب هو فى تعجيل القضاء فيقصر الليل أم راغب هو فى الإبطاء به فيمسك أستاره أن

تنكشف و يمنع ظلمته أن تزول .

قالت وقد رفعت كتفيها الجميلتين وأشاعت فى الغرفة ضحكة ساحرة ساخرة : ما أشد ما تخاف الزمان ، وما أعظم ما تكبره ، وما أكثر ما تحسب له الحساب . هون عليك ، إن أمره أيسر مما تظن ، وأن تقلبه أدنى إلى العبث منه إلى الجد ، وأنه يستطيع أن يتهم ، ويستطيع أن يقضى فلا يغير اتهامه شيئاً ولا يحدث قضاؤه جديداً . إنما هو كائن مغرور ، قيل له إنه قوى فظن بنفسه القوة ، وخيل إليه أنه عظيم فانتحل لنفسه العظمة ، بل خيل إليه أنه موجود فأثبت لنفسه الوجود .

قلت وقد نهضت يظهر على وجهى الغضب ويضطرب فى قلبي الخوف :

— سيدتى ، إن كنت مصرة على المضى فى هذا الحديث فدعينى أنصرف ؛ فإنى لا أحب مخاصمة الزمن ولا أقدر عليها . وإنك لتخدعين نفسك وتكلفينها أكثر مما تطيق ، فقد قبلت الاحتكام إلى هذا القاضى . أترين أنك كنت لاعبة ؟ ثم ما يغضبك من اتهامه إياك وأنت قد قبلت حكمه وسعيت إلى مجلسه ، ومازلت تنتظرين قضاءه وتخافين فى أعماق نفسك أن يكون قاسياً على صديقنا البائس ؟

قالت فى رفق :

— عد إلى مجلسك ياسيدى فما دفعنى إلى ما تكره إلا ما أجد فى نفسى من الحفيظة والموجدة . وما كنت أقدر أن أهان وأتهم جزاء على



ما قبلت من الاحتكام إلى الزمن والرضى بقضائه بين توفيق وتلك الأشباح .

قلت : بل جزاء على عبثك به واستطالتك عليه فيما كتبت إلى أسيرك الذى أخذ منك وأنت كارهة .

قالت : ومهما يكن من شيء فأنت أصل الخصومة التى أخذت نفسي تضيق بها على قلة ما تضيق نفسي بالأشياء .

قلت : فهذا هو التجني الذى لا أطيقه ولا أرضاه، وإنك لتعلمين أنى ما سعيت إليك إلا بعد أن دعوتني ، وما اهتديت إلى قصرك هذا إلا حين دللتني عليه ، بل حملتني إليه حملاً واختطفتني إليه اختطافاً ، أفتعقدين الأمر وتخلقين المشكلات ، ثم تلقين تبعة ماتفعلين على الأبرياء والآمنين الذين أقبلوا يصطافون ، فنصبت لهم من الشباك والأشراك ما ورطهم فى هذه القصة المعقدة التى لا يعرفون لأنفسهم منها مخرجا ؟

* * *

سمعت شهرزاد هذا الحديث هادئة ؛ ثم فكرت فيه مغرقة فى التفكير ، ثم رفعت رأسها إلى وهي تقول : ربما كان هذا كله حقاً ، ولكن الأمر ما زال أيسر مما تظن ، فأنت واثق بأن القاضي سيعدل فى أمر صاحبك ، وإذن فستذهب إلى مجلس القضاء وستسمع الحكم ، فإذا برئ صاحبك عدت معه آمنين إلى حيث تستأنفان اصطيافكما كأن لم تلقيا شهرزاد ولم تعرفا القصر المسحور .

قلت ساخراً : ما أيسر ما تقولين ذلك ، كأنك تجهلين أن لقاءك فتنة وأن قصرك سحر ، وأن من دنا منك لا يستطيع أن يطيل النأى عنك وأن من خرج من قصرك لا يستطيع أن يسلو عن الرجوع إليه ! هل لك أن تدعى هذا الدل وتعرضى عن هذا التيه ، حتى نفرغ من هذه القصة التى طالت واشتد تعقدها ؟

قالت : صدقنى أنى لأبعد مما تظن عن الدل والتيه ، ولكن أكبر نفسى وأنفسكم أيضاً من أن أخضع لسلطان وإن كان سلطان الدهر ، ومن أن أقبل اتهاماً أو أتهيأ لدفاع .

قلت : ومع ذلك فأنت متهمة ولابد من أن تدافعى عن نفسك .

قالت : كلا إن لى عن ذلك مندوحة ، فأنت تعلم أن هناك أستاراً يكفى أن ترفع وأن تسدل بعد أن أجوزها ، وإذا أنا بمأمن من كل عادية لايبلغنى شىء ولا يصل إلى أحد وإن كان الزمان .

قلت : نعم ومن وراء هذه الأستار كنت تريدين أن تلقى توفيقاً .

قالت : كنت أريد أن أحفظه .

قلت : فإنك لاتجهلين أن ما وراء هذه الأستار يسمى الموت بالقياس إلينا ويسمى النسيان بالقياس إليك . أفترضين أن تسدلى أستار النسيان بينك وبين الأحياء ؟

قالت : لقد بلوت الأحياء حتى ضقت بهم ، وما أكره أن أستريح منهم دهراً ، فلينسونى ولأنسهم ، وما أظن أنى سأشقى بهذا كما يشقون .

قلت : ما كنت أعرف فيك هذه القسوة ، إنك لتعلمين أنك عزاء الأحباء وسلوتهم ، وأنك رحمة البائسين ونجاة الهالكين منهم . ومع ذلك فلن يخلى الزمن بينك وبين ما تريدين للأحياء من هذه الحياة الخشنة الجافة التى يملؤها الجحيم والعذاب المقيم .

قالت وقد نهضت مغضبة : الزمن أيضاً ؟ فأنا إذن مثلكم أمة له ، مذعنة لسلطانه لا أستطيع منه فراراً .

قلت :

ولو طار جبريل بقية عمره

قالت وهى لاتكاد تملك نفسها :

من الدهر ما اسطاع الخروج من الدهر

سخف هذى به شاعر من شعرائكم ظنه وظننتموه فلسفة ، ولم تعرفوا أنه الهراء الذى ليس وراءه شىء . سترى يا سيدى أأستطيع الخروج من الدهر أم لا أستطيع . ثم دقت يداً بيد فأقبل غلام أسود فقالت له : سترعى هذا السيد حتى يفرغ صاحبه من قضيته ثم تبلغهما مأمنهما ثم تلحق بى وراء الأستار .

قال الغلام : الأستار ياسيدتى ؟ إنها مأخوذة علينا .

قالت : من أخذها ؟

قال : جنود القاضى ، إنهم يقومون دونها منذ وجه إليك ما وجه من حديث .

قالت : فستنتظرنى إذن فى القصر حتى أعود .

قال : تعودين من أين ياسيدتى ؟

قالت : من وراء الأستار . ألست قد زعمت أن الطريق مأخوذ عليكم ؟

قال : وعليك أيضاً يا سيدتى !

هنالك ثار ثائرها فنهضت ولطمت خد العبد . وإذا هو يجثو بين يديها مستغفراً ، ولكنها مضت أمامه لاتلوى على شىء وتبعها العبد مستخذياً خجلا . ولبثت فى هذه الغرفة مضطرباً بين الحيرة والدهش والغضب ، لولا أن صاحبى أقبل يهمس فى أذنى لقد انتصف الليل . ولم أكد أسمع هذه الجملة حتى انجلت عنى غمرة هذه القصة كلها وذكرت الفندق ومن خلفت فيه ، ونهضت عجلا قلقاً أسأل صاحبى ، ومن لنا بالعودة وكيف الطريق إلى الفندق ؟ وماذا عسى أن يظن بنا من الظنون ؟

ولم يكد صاحبى يهم بالجواب حتى أقبلت شهرزاد شاحبة غاضبة لاتملك نفسها من الغضب والغيظ فتلقى على صاحبى نظرة يطير لها لبه ، فيرجع أدراجه مسرعاً ، ثم تتحول إلىّ قائلة وقد تجاوز السخط بها حده :

— إنك تفكر فى العودة إلى أهلك . كلا ياسيدى ، يجب أن تعلم أنى أسيرة فى هذا القصر ، أسيرة قاضيك الذى اخترته ووثقت به ، فلتكن أنت أسيرى ولن يخلى بينك وبين الحرية حتى يخلى بينى وبين النسيان !

حكم الزمان

فلما تقضى الليـــل إلا أقله

وكادت توالى نجمــه تتغور

يممنا مجلس القضاء ، فكنا السابقين إليه ، ولبثنا لحظات مأخوذين يبهرنا هذا الجلال الذى لا يرقى إليه الوصف ، جلال الصمت قد امتدت أرجاؤه حتى طبقت الجو كله من حولنا ، لاتشقه إلا هذه الموسيقى الضئيلة المتهالكة التى كانت تضطرب فيه اضطراباً متصلا حلواً ، فيه أمن للقلوب ولذة للنفوس ، والتى كانت تصدر عن هذه الحشرات الضئيلة المنبثة المستخفية فى ثنايا ذلك العشب الكثيف . وجلال هذه الظلمة التى كانت تزرع لكثافتها وامتدادها من كل نحو وفى كل وجه ، لاتشقها إلا أشعة ضئيلة متفانية ، ملائمة لتلك الموسيقى الضئيلة المتهالكة ، كانت تصدر من هذه النجوم البعيدة التى أخذت تجد فى الهرب ، كأنما كانت تريد أن تبلغ مأمنها قبل أن يدركها ضوء الصباح . وكانت نفوسنا تجد فى أعماقها شعوراً قوياً بجمال حزين مغرق فى الحزن ، كأنه صورة لهذا الكون الذى كان يحيط بنا وبغيرنا ، والذى كان يأتلف من مزاجين مختلفين أشد الاختلاف ، ظلمة كثيفة قد شاع فيها صمت عميق وأصوات نحيلة تصعد من الأرض فتلقاها فى الجو أشعة ضئيلة تهبط من السماء . ومع أنا كنا قد افترقنا مختصمين أو كالمختصمين منذ ساعات قصار ، فقد أحسست نفسى تدنو من

نفس شهرزاد . وما أرى إلا أنها كانت تجد مثل ما أجد ، وإذا يدانا تلتقيان ، وإذا هى تسألنى فى صوت لم يكن أقل تحولاً من بعض هذه الأصوات التى كانت تضطرب فى الجو ، ما رأيك فى هذه الموسيقى؟ أليست باهرة للعقول ساحرة للقلوب ، منسية للخطوب والأحزان ؟

وأهم أن أجيبها ، ولكن يدها اللطيفة تضغط يدى الخشنة كأنها أنكرت صوتها فهى لاتريد أن تسمع صوتى ، وكأنها تؤثر ألا يأخذ الحديث بيننا طريق الألسنة والأسماع ، بل طريقاً أخرى هى أيسر وأقرب ، وهى طريق النفوس حين تتحدث إلى النفوس فى غير صوت مسموع أو جرس محسوس .

* * *

وما أدرى ألبثنا كذلك وقتاً طويلا أو قصيراً ، ولكننا نشعر فجأة كأنا انتزعنا فى عنف من عالم الغيب ورددنا فى قوة إلى عالم الشهادة . وهذه سحابة تسعى فى وقار وأناة كأنما تنزلق على الجبل حتى إذا جازت هذا المكان الذى كنا نقيم فيه لم تقف ولم تتمهل ، وإنما مضت فى طريقها منحدرة ولكنها تنحسر فى لطف وظرف عن شخص نجده ماثلا أمامنا ، فإذا تبيناه عرفناه وإذا هو المتهم ، عليه معطفه وفى يده عصاه . وأنت تستطيع أن تسأله عن ليلته تلك التى قضاها ضيفاً على السحاب ، فقد حدثنا عنها حديثاً ظريفا طريفاً شائقا رائقاً ما أريد أن أسوقه إليك ، لأنى أقدر حقوق الأدباء فى إذاعة ما يعرض لهم من الأحداث ، وما توحى إليهم به الخطوب ، ولا سيا فى

هذه الأيام التى اشتدت فيها مطالبة الأدباء وأهل الفن بحماية حقوق المؤلفين . وما أظن أن صديقنا يبخل عليك بهذا الحديث ؛ فقد سمعته يتحدث إلى نفسه — وما أكثر ما يتحدث صديقنا إلى نفسه فيسمع الناس — بأنه خليق أن يذيع هذه القصة فى كتاب . وأخذت أشخاص مختلفة متباينة تبلغ هذا المكان ، منها مايصعد ومنها مايهبط ، ومنها مايأتى عن يمين ومنها ما يأتى عن شمال ، وكل صامت لا يسمع له صوت ، وكل هادئ لاتحس له حركة . ثم يضطرب الجو ويهتز الجبل وتمتلئ النفوس مهابة ووقاراً ؛ فقد قصف الحاجب العنيف بأن القاضى قد أخذ مكانه من مجلس القضاء .

ثم يمتلئ الجو من حولنا بصوت رقيق رفيق يدعو شهرزاد ويتهمها بأنها أهانت القاضى باللفظ والكتابة ، ويسألها أن ترد عن نفسها هذه التهمة إن عرفت إلى ذلك سبيلا .

فتقف شهرزاد ولا تقول إلا ألفاظاً قليلة ، ولكنها قاسية بما كان يملؤها من سخرية ويترقرق فيها من مزاح ، ولله ذلك الصوت ما كان أعذبه وأجمل موقعه من القلوب حين كان يذيع فى ذلك الجو الرهيب نغماته الساحرة التى كانت تشيع فيه شيوع الكهرباء فتسحر لها النفوس ، وتسرى لها فى الأجسام رعدة لذيذة لاتعقب أذى ولا ألماً .

قالت شهرزاد :

— لا أقف هذا الموقف لأدافع عن نفسى ، فلست أعرف لأحد الحق فى أن يتهمنى بإثم مهما يكن . وأنا الحرية كلها ، والحرية التى

تشيع النشاط فى العقول وتذيع الحياة فى القلوب وتبعث الحرارة فى العواطف والمشاعر والأهواء . أنا الحرية الخالصة التى لاتعرف حدًّا ولا تنتهى إلى غاية ولا أمد ، ولا ترجو لشيء ولا لأحد وقاراً . أنا الحرية الطاغية التى يظلم كل من يحاول أن يحد من طغيانها ويبغى كل من يحاول أن يكبح من جماحها ، لأن نظام الحياة ، بل نظام الكون يريدها على أنها تكون طاغية جامحة لاتذعن لقوة ولاتؤمن لسلطان ، لاأقف هذا الموقف لأتلقى اتهاماً ؛ لأنى فوق الاتهام ، ولا ألقى دفاعاً لأنى فوق الدفاع . وإنما أقف لأرد هذا القاضى إلى رشاده وأعيد إليه فضلاً من صوابه ، وأنعى إليه نفسه إن مضى فى غروره أو أسرف فى غلوائه ، فظن أنه يقدر على الحرية ويسيطر على شهرزاد . لقد أصاب المتنبى حين قال منذ ألف سنة . . .

قال توفيق مقاطعاً : وأنت أيضاً قد أدركتك عدوى المتنبى ؟ ولكنه لم يمض فى حديثه ، فقد قصف الرعد قصفة ردته إلى السكوت .

ومضت شهرزاد فى حديثها عن إصابة المتنبى حين قال منذ ألف عام:

أتى الزمان بنوه فى شبيبته

فسرهم وأتيناه على الهرم

قالت : وكنا نحسب أن ألف عام لاتعدل يوماً بالقياس إلى هذا القاضى . وأنه يستطيع أن يهرم على مهل ويشيخ فى أناة ، دون أن ينتهى إلى خرف ويفارقه حلم أو يذهب عنه صواب ، وكنا

نظن أن آلافاً وآلافاً من السنين ستمضي قبل أن نحتاج إلى أن ننبهه بين حين وحين أنه أخطأ فى الحكم أو جار عن قصد السبيل . وكنت أتهيأ لأكون منه مكان تلك الفتاة الأعرابية التى كانت تقرع لأبيها العصى تنبهه أنه جار فى الحكم أو حاد عن القصد ،ولكن قاضينا أسرع إلى الهرم وأسرع الهرم إليه حتى تجاوز كل حساب ، وما كان ينبغى لى أن أجهل ذلك أو أجادل نفسي فيه وأنا أرى بوادره تشيع فى أقطار الأرض وتفسد على الناس حياتهم فى غير بيئة ، فإذا الحرية تضطهد ، وإذا آثارها تصادر ، وإذا العقل ينفى من الأرض . وإذا الأقلام والألسنة تخضع بألوان القهر والمراقبة والتضييق. وإذا رسلى يعودون إلى يائسين بائسين ، يشكون زهد الناس فيهم وفيما يحملون إليهم من ثمرات الحرية التى تذيع الخصب فى العقل والشعور . كنت أظن أنها أزمة تأتى الناس من إسرافهم فى الحضارة وتعرضهم لأخطارها وأمراضها التى تعرض وتزول ، فإذا هى أزمة تأتيهم من أبيهم الزمان الذى فارقه الشباب وتصرمت عنه الكهولة القوية وأدركته الشيخوخة وما يتبعها من أعراض الفناء والانحلال ، إلا أن أكون مخطئة وأن يكون هذا الشيخ الوقور مريضاً ألم به بعض العلة . وإذن فأنا كفيلة بعيادته والقيام على تمريضه والطب لما يلح عليه من الداء .

قال القاضى فى صوته الهادئ الشائع العريض :

— حسبك ياشهرزاد فقد استنار القاضى .

ثم دعا المتهم وسأله :

— ألا تريد أن تزيد على ما قلت شيئا ؟

قال توفيق وهو يرتعش ارتعاشاً عنيفا :

— لا يا سيدى ، ولكنى أتوسل إليك ألا تحملنى من تبعات شهرزاد قليلاً أو كثيرا ، فإنى أراها أسرفت كثيراً ، فليكن إسرافها على نفسها لا علىّ .

قالت شهرزاد وقد التفتت إليه ضاحكة :

ويحك ! وكيف خنتنى قبل أن يصيح الديك ؟

ثم غمر المجلس صمت عميق لم يتصل إلا لحظات قصار ، وإذا نحن نسمع صوتاً هادئاً عذباً يتلو علينا الحكم ، ولكننا لا نتبين من أين يبلغنا هذا الصوت .

قال الصوت : والآن وقد سمعنا ادعاء المدعين وسماع المتهم الأول ، ولاحظنا اعتزال من اعتزل وعدول من عدل عن الاتهام ، نقرر أن من حق الأديب أن ينشئ أشخاصه كما يريد هو لا كما يريدون هم ، بل إن من الحق على الأديب أن يتلقى أشخاصه كما يؤديهم إليه فنه ، لا يغير من صورهم التى تلقاهم عليها ولا يبدل ، ولو حاول ذلك لما استطاعه ولما وجد إليه سبيلا . ولمن شاء أن ينكر عليه أو على فنه هذه الصورة كلها أو بعضها ، وأن يعيب عليه فنه أو على فنه ما يكون فيها من ضعف أو نقص أو تشويه ، وما ينبغى لهذه الأشخاص نفسها أن تثور بمنشئها أو تمكر به أو تكيد له أو تتألب عليه ، أو تبغى له سوءاً أو تستنزل عليه عقاباً . فإن فعلت فهى طاغية يجب أن ترد عن طغيانها ، وباغية

يجب أن تصد عن بغيها ، وجامحة يجب أن يكبح جماحها ، ومنشئها وحده هو القادر على ذلك ، وسبيله إليه ترقية فنه وتجديده ، واصطناع الأناة والدقة والإتقان فى التصوير والتعبير جميعا . ولما كان المتهم قد أعلن تواضعه واعترف بقصوره وسلم بأنه فى حاجة إلى أن يسعى ويطيل السعى ، وإلى أن يجد ويمعن فى الجد لا ليبلغ الكمال، بل ليدنو منه، ولما كنا نقدر للمتهم تواضعه وطموحه إلى الكمال واعترافه ببعد الأمد أمامه . ولما كنا نحرص على أن نمنحه المعونة على ما يريد من الرقى الفنى ، فقد قضينا أولا بإسقاط دعوى المدعين وتبرئة المتهم مما وجه إليه، ثانيا بنفيه عن سالنش وعن الأرض الفرنسية كلها شهراً وإرساله إلى سالزبورج حيث الفصل الموسيقى وحيث يستطيع أن يجد من جمال الفن ما يدنيه خطوة أو خطوتين من الكمال .

* * *

ثم انقطع الصوت لحظة أتاحت لتوفيق أن يدفع من صدره آهة عميقة تصور ابتهاجه بما حط عنه من ثقل وما أزيل عنه من حرج ، وما مهد له من سبب لترك سالنش وسمكها الذى لم يصطده ، إلى سالزبورج وموسيقاها الرائعة الحلوة معًا . ولكن الصوت يعود فيملأ علينا الجو من جميع نواحيه قائلا : أما المتهمة الثانية فبعد أن سمعنا دفاعها الذى تزعم أنه نعى علينا وتأديب لنا، نقرر أن من حقها أن تستمتع بطبيعتها التى هى الحرية الخالصة ، ولكن فى غير إسراف ولا جموح ، لأن الإسراف فى الحرية قتل لها واعتداء عليها . ومن حيث

إنها قد تجاوزت الحد وجارت عن القصد واستطالت على السلطان ، بعد أن اطمأنت إليه ، وثارت به بعد أن اعتمدت عليه فى إقرار العدل . ومن حيث إنها بهذه السيرة تؤذى نفسها ، وتؤذى الذين يتبعونها من رسلها الخالدين وأشياعها الهالكين ، ومن حيث إنا نحرص على الحرية ونرفق بها من أن نخلى بينها و بين هذا الطغيان الخطر ، ومن حيث إنا مع ذلك نقدر حاجة الحرية إلى أن تمد لها الأسباب ولا يشتد عليها التضييق . فقد قضينا بأن يلزمها الأرق المضنى الذى تعانيه إلى آخر الصيف .

هنا نهضت مندفعاً فى شىء من العنف غير قليل قائلاً فى صوت لم أملك تهدئته ولا تنظيمه ، إذن فلن تأرق وحدها ما بقيت قريباً من القصر المسحور .

قال توفيق فى صوت المنكر الدهش :

— ما رأيت مثلك رجلاً يعترف بالسلطان ثم يتحداه ويخرج عليه !

والتفتنا فإذا كل شىء قد عاد إلى هيئته قبل أن ينعقد مجلس القضاء ، ظلمة مطبقة تضطرب فيها أشعة النجوم المنهزمة وصمت عميق تتردد فيه أصوات الحشرات المتغنية . وتوفيق حائر الطرف يهز رأسه عجباً ودهشاً واستغراباً ، ولسانه يتردد فى فمه :

— حقاً لا أدرى أين أنا وماذا يراد بى !

وشهرزاد تقول فى صوتها العذب :

— أنت على قمة الجبل الذى طالما تمنيت أن تصعد فيه ،

وطالما غرك به الغرور ، فظننت أنك تستطيع أن تبلغ قمته ثم تنتهى إلى حضيضه فى ساعات ، ولا يراد بك إلا ما تحب لنفسك وما يحب لك الزمن من الاستماع للموسيقى فى سالزبورج.

قال توفيق : ولكن كيف السبيل إلى سالنش لأركب القطار ؟

قالت شهر زاد : لا بأس عليك ، سنبلغك مأمنك ، وإن خنتنا قبل أن يصيح الديك .

وهنا أراد توفيق أن يعتذر ، ولكنها أخذت عليه طريق الاعتذار قائلة له : بل أنا المعتذرة إليكما ، فقد كلفتكما أهوالاً وحملتكما أثقالاً وضيعت عليكما شهراً من أشهر الصيف .

قلت : لم تضيعى علينا شيئاً ياسيدتى ، بل رفهت علينا وأرحتنا من سخف الحياة بما فيها من جد الأمر وهزله .

قالت : من يدرى ، لعلك لم تخطئ ، ولعل ما فى هذه القصة من سخف لا يلائم ما ألف الناس من سخف الحياة الجادة والهازلة أن يسلى غيركما من الناس عن أثقال الدهر وهموم الحياة ، فما أظن أن الناس تعودوا عندكم أن يروا أديبين يعبثان بنفسهما وبالأدب . . أذيعا هذا اللهو إن شئتما ؛ فمن يدرى ، لعل اللغو خير ما فى الحياة .

وأدرك شهرزاد الصباح

فسكتت عن الكلام المباح .

سلسلة (اقرأ)

الكتب التى نشرت فيها منذ
صدورها فى يناير ١٩٤٣ حتى الآن

القصة

١ أحلام شهر زاد (د. طه حسين)
٦ شاعر ملك (على الجارم)
١٢ سنوحى (د. محمد عوض محمد)
١٤ من يوميات فتاة عصرية (حسين شوقى)
١٨ قنديل أم هاشم (يحيى حقى)
١٩ سيدة القصور (على الجارم)
٢٢ جحا فى جانبولاد (محمد فريد أبو حديد)
٣٠ قطر الندى (محمد سعيد العريان)
٣٢ الشيخ قرير العين (كرم ملحم كرم)
٣٤ فارس بنى حمدان: أبو فراس الحمدانى (على الجارم)
٤٣ عنترة بن شداد (محمد فريد أبو حديد)
٥١ الشاعر الطموح: المتنبى (على الجارم)
٥٨ خاتمة المطاف (على الجارم)
٦٠ شجرة الدر (محمد سعيد العريان)
٦٢ مرح الوليد (على الجارم)
٦٣ رقيق الأرض (نظمى لوقا)
٦٧ أمير قصر الذهب (طاهر الطناحى)
٨٧ غادة رشيد (على الجارم)
٩٢ الجامحة (أمينة السعيد)
١٠٥ الحب الضائع (د. طه حسين)
١٠٦ سجل التوبة (أمين الريحانى)
١٠٨ سارة (عباس محمود العقاد)
١١٦ اللحن الشرود (كرم ملحم كرم)
١٢١ عذراء الأندلس (أحمد الصاوى محمد)
١٢٢ أشطر من إبليس (محمود تيمور)
١٢٩ زامر الحى (محمود تيمور)
١٣٠ فى بطون الليالى (رشاد دارغوث)
١٣٥ ليلى العفيفة (عادل الغضبان)
١٣٦ أبو على الفنان (محمود تيمور)

١٤١ بنت قسطنطين (سعيد العريان) ٢٨١ خالدون فى الوطن (إبراهيم المصرى)
١٤٥ عيون معصوبة (محمود كامل) ٢٨٣ دماء فى الفجر (فاروق حلمى)
١٥٢ قلوب معذبة (قدرى قلعجى) ٢٨٤ عروسة على الرف (صوفى عبد الله)
١٥٣ دماء وطين (يحيى حقى) ٢٨٧ قصص من جوته
١٥٥ بنت يزيد (سامى الكيالى) (عبد الغفار مكاوى)
١٥٩ أجواء (حسن محمود) ٢٨٨ قصص الحب العربية
١٦٥ مصرع طاغية (حسن رشاد) (عبد الحميد إبراهيم محمد)
١٦٧ أنات الساقية ٢٨٩ البارونة أم أحمد (محمود تيمور)
(عبد الله القرشى) ٢٩٢ شىء من الخوف (ثروت أباظة)
١٧٦ عودة المفقود (حسن رشاد) ٢٩٧ ابن السلطان (عبد الغفار مكاوى)
١٨٣ الثريا (كمال بسيونى) ٣٠٢ نشيد الكروان (طاهر الطناحى)
١٨٦ عاشقة نفسها (حسن رشاد) ٣١٣ عفراء : قصة الحب الخالد
١٩٥ محكمة الضمير (حسن رشاد) (فايد العمروسى)
١٩٩ عرس ومأتم (البدوى الملثم) ٣١٥ أعترف إليك (أحمد فؤاد تيمور)
٢٠٠ مواطن أمام القضاء ٣٣٩ مومس تؤلف كتاباً . وقصص
(فاضل السباعى) أخرى (فتحى رضوان)
٢٠٩ حال الدنيا (حسن رشاد) ٣٤٣ إنى صاعدة (حلمى سلام)
٢١٩ ثمن الكرامة (سلامة خاطر) ٣٤٤ الوادى السعيد (لويس عوض)
٢٣٤ حبة البرتقال (أحمد العنانى) ٣٤٧ بنك القلق (توفيق الحكيم)
٢٣٨ قلب عذراء (إبراهيم المصرى) ٣٥٠ دموع فى عيون ضاحكة
٢٤٠ نفوس تتكلم (ودادسكاكينى) (يوسف جوهر)
٢٧٣ مذكرات طبيبة (نوال السعداوى) ٣٥١ من أخطاء القضاء
٢٧٦ صنيعة الشيطان (حسن رشاد) (حسن صالح الجداوى)
٢٧٨ يوسف الصديق (محمد طلبه رزق) ٣٥٢ عندما تحب المرأه (حلمى مراد)

في الأدب

٢٠٣ القومية العربية فى الأدب الحديث (د. محمد زغلول سلام)
٢٢٠ الحب المثالى عند العرب (د. يوسف خليف)
٢٢٦ النفس الإنسانية فى أدب الجاحظ (سامى الكيالى)
٢٣٣ المرأة فى شعر البحترى (د. نعمات أحمد فؤاد)
٢٤٤ التماثيل المكسورة (رجاء النقاش)
٢٤٨ من الأدب الإفريقى
٢٥٩ مع العقاد (د. شوقى ضيف)
٢٦٠ دعاء (على أمين)
٢٦٧ آخر كلمات العقاد (عباس العقاد)
٢٩٨ ٤ كتب و ٤ كتاب (محمد بدر الدين خليل)
٣٣١ البطولة فى الشعر العربى (د. شوقى ضيف)
٣٣٢ يوم بيوم (أنيس منصور)
٣٣٧ فى اللغة والأدب (د. إبراهيم بيومى مدكور)
٣٤٢ صراع الأجيال فى أدبنا المعاصر (غالى شكرى)
٣٤٦ ذكريات عارية (د. السيد أبو النجا)

السير والتراجم

٥ ديستويفسكى (حسن محمود)
٧ الشاعر الرجيم بودلير (عبد الرحمن صدقى)
١٥ بايرون (أمينة السعيد)
١٧ شكسبير (م. ف. أبو حديد، ر. ن. محمود، أ. خاكى)
٢٤ لا فوازييه (عبد الحميد يونس وعبد العزيز أمين)
٢٨ بوشكين (نجاتى صدقى)
٣١ الغزالى (طه عبد الباقى سرور)
٣٥ جوته (صديق شيبوب)
٤٢ قصة عبقرى: الخليل بن أحمد (يوسف العش)
٤٦ الشيخ الرئيس ابن سينا (عباس محمود العقاد)
٥٠ تشيخوف (نجاتى صدقى)
٥٤ تولستوى (حسن محمود)

٦٥ عمر بن عبد العزيز (أحمد زكي صفوت)
٦٨ جمال الدين الأفغاني (عبد القادر المغربي)
٧٠ الجبرتي (خليل شيبوب)
٧٢ فولتير (سليم سعده)
٧٧ المغني المجنون : كاروزو (أحمد الصاوي محمد)
٧٨ سقراط (على حافظ بهنسي)
٧٩ بيرانديللو (محمد أمين حسونة)
٨٢ فرانزليست (خليل هنداوي)
٨٥ بيتهوفن (محمد فهمي أبو النصر وهدى حبيشة)
٨٩ برناردشو (عباس محمود العقاد)
٩١ جابر بن حيان وخلفاؤه (محمد محمد فياض)
٩٩ نساء محاربات (: صوفي عبدالله)
١١٢ مع طه حسين (سامي الكيالي)
١١٣ عبقرية الإمام (عباس محمود العقاد)
١١٥ الإمام المراغي (أنور الجندي)
١١٩ نساء شهيرات (مبارك إبراهيم)
١٢٥ الصديقة بنت الصديق (عباس محمود العقاد)
١٢٧ شلي (أحمد الصاوي محمد)
١٣٩ تيمورلنك (محمد محمد فياض)
١٤٠ عائشة بنت طلحة (كمال بسيوني)
١٤٢ بطل السند ومحمد بن القاسم (محمد عبد الغني حسن)
١٤٣ ابن عمار (ثروت أباظة)
١٥١ العاشقة المتصوفة : رابعة العدوية (وداد سكاكيني)
١٦٢ مكسيم غوركي (نجاتي صدقي)
١٦٤ دانتي (مصطفى آل عيال)
١٧٢ المخترعون (أحمد طه السنوسي)
١٨٧ طاغور (د. جميل جبر)
١٩٢ أدباء من الجزائر (د. إبراهيم الكيلاني)
١٩٧ جان جاك روسو (د. محمد سامي الدهان)
٢٠٤ فيكتور هوجو (د. جورج زايد)
٢٠٧ الناصر صلاح الدين (د. محمد سامي الدهان)
٢٢٣ الشاعر الشهيد هاشم الرفاعي (محمد كامل حته)
٢٣٢ أبو القاسم الشابي (رجاء النقاش)

٢٥٠ ابن حمد يس الصقلى (على مصطفى المصراتى)
٢٥٤ من أعلام الحرية فى العالم العربى الحديث (أنور الجندى)
٢٥٦ عشرة من الخالدين (إبراهيم المصرى)
٢٦٩ قلوب الخالدين (إبراهيم المصرى)
٢٧٧ عبد المطلب جد الرسول (د. على حسنى الخربوطلى)
٣٠١ مع طه حسين، الجزء الثانى (سامى الكيالى)
٣٠٦ سندباد فى رحلة الحياة (د. حسين فوزى)
٣٢٤ هوشى منه (جورج عزيز)
٣٣٦م. أيام خالدة فى حياة عبد الناصر (د. جمال الدين العطيفى)
٣٤٠ محمد عبد الوهاب (محمود عوض)
٣٤٩ هؤلاء علمونى (سلامة موسى)

سياسة وعلوم سياسية

٩ المذاهب السياسية المعاصرة (على أدهم)
٥٧ قضية فلسطين (محمد رفعت)
١٠٧ تحرير وادى النيل (محمود كامل المحامى)
١٤٥ أخى المواطن (فتحى رضوان)
١٧ هذا الشرق العربى (فتحى رضوان)
٢١٢ العرب ورسالتهم الإنسانية (د. على حسنى الخربوطلى)
٢١٦ وحدة العرب (إبراهيم الدسوقى البساطى)
٢٦١ عروبتنا (محمود كامل)
٢٧٤ المزاعم الصهيونية فى فلسطين (فتحى فوزى عبد المعطى)
٢٧٥ الوحدة الإفريقية (محمد أبو الفتوح الخياط)
٢٩٥ فلسطين قلب العروبة (محمد فيصل عبد المنعم)
٢٩٦ البترول العربى فى المعركة (د. محمود أمين)
٣١٠ حوار مع برتراند راسل وسارتر (لطفى الخولى)

علم النفس

علوم

٣٨ العلم والحياة
(د . على مصطفى مشرفة)

٤٨ غرائز الحيوانات
(محمد محمد فياض)

٥٢ النار الخالدة (فؤاد صروف)

٥٥ مع الأسماك
(د. حسين فرج زين الدين
وموسى باسيليوس)

٦١ الموج الساحر
(محمد عاطف البرقوقى)

٦٦ مملكة العذارى
(د . أحمد زكى أبو شادى)

٧٣ أسرار الحياة
(د . مصطفى عبد العزيز
و د . عبد العزيز أمين)

٧٥ العيون فى العلم
(قدرى حافظ طوقان)

٨٤ الوراثة والجنس
(د . عبد الحليم منتصر)

٩٠ قصة البترول
(يوسف مصطفى الحارونى)

٩٣ العالم سنة ٢٠٠٠
(على عبد الجليل راضى)

١٠٠ قصة العناصر (إمبابى أحمد)

١٣٢ البساط السحرى
(عبد السلام فهمى)

١٤٩ بين البقاء والفناء
(قدرى حافظ طوقان)

١٥٤ أينشتين والعالم
(محمد عاطف البرقوقى)

١٧١ حرب الخامات
(د . عبد الحليم منتصر)

١٧٨ الصعود إلى المريخ
(د . محمد جمال الدين الفندى)

١٨١ هجرة الحيوان
(د. أحمد حماد الحسينى)

١٨٥ الغبار الذرى
(د. محمد جمال الدين الفندى)

١٨٩ عصر الإلكترونات
(د . جورج وهبه العفى)

١٩١ الهزات الزلزالية
(محمد على المغربى)

١٩٦ قوى الطبيعة فى خدمتك
(محمد جمال الدين الفندى)

١٩٨ الكلف الشمسى
(محمد على المغربى)

٢١٤ عصر التليفزيون
(د . جورج وهبه العفى)

٢٤٩ عصر الطاقة الشمسية
(د . جورج وهبه العفى)
٢٥٥ العوالم الأخرى
(د. محمدجمال الدين الفندى)
٢٦٣ عجائب الأرض والسماء
(د. محمدجمال الدين الفندى)
٣٠٣ من عجائب الحياة
(فوزى الشتوى)
٣٠٨ البحر والناس
(د. سيد حسن شرف الدين)
٣٣٤ ماذا نستخرج من البترول
(د . جورج وهبه العفى)
٣٤٥ مذكرات ذرة
(عبد المحسن صالح)

جغرافيا ورحلات

١٦ دمشق مدينة السحر والشعر
(محمد كرد على)
٢٧ بغداد مدينة السلام (طه الراوى)
٤٠ مهد العرب (د. عبدالوهاب عزام)
٤٥ مشاهدات فى الهند (أمينة السعيد)
٦٩ رحلة الربيع (د . طه حسين)
٨١ فى بلاد النجاشى
(د . مراد كامل)
١٠٤ أرض المعجزات (د. بنت الشاطئ)
١٦٣ غرائب من الرحلات
(محمد عبد الغنى حسن)
١٦٨ القارة العذراء
(محمود العزب موسى)
١٧٣ الجزر الخضراء: أندونيسيا
(حبيب جاماتى)
١٧٧ صور من إفريقيا
(د . محمد محمود الصياد)
٢٠٦ جولة فى الإقليم الشمالى : سوريا (د . يوسف سماره)
٢١٨ الشفق القطبى (محمد على المغربى)
٢٢٥ المجتمع العربى (محمود الشرقاوى)
٢٣٠ الجغرافيون العرب
(مصطفى الشهابى)
٣١٧ صور باريسية
(يوسف فرنسيس)
٣٢١ الإنسان الأوربى فى الجد واللعب
(عبد الستار الطويلة)

طب وصحة

تاريخ

اجتماع

الفلسفة

معارف عامة



وصلت فى قفزتها الأولى إلى ٥٠,٠٠٠ نسخة
وستصل فى هذه القفزة إلى ٧٠,٠٠٠ نسخة

صدر منها فى الأشهر الأخيرة :

أكتوبر	١٩٧١	:	ذكريات عارية للدكتور السيد أبو النجا
رمضان	١٣٩١	:	أحاديث رمضان للدكتور عبد العزيز كامل
نوفمبر	١٩٧١	:	بنك القلق للأستاذ توفيق الحكيم
ديسمبر	١٩٧١	:	نحو النور للأستاذ محمد زكى عبد القادر
يناير	١٩٧٢	:	هؤلاء علمونى للأستاذ سلامه موسى
فبراير	١٩٧٢	:	دموع فى عيون ضاحكة للأستاذ يوسف جوهر
مارس	١٩٧٢	:	من أخطاء القضاء للأستاذ حسن الجداوى
أبريل	١٩٧٢	:	عندما تحب المرأة للأستاذ حلمى مراد
مايو	١٩٧٢	:	خدعوك فقالوا للدكتور سعيد عبده
يونيو	١٩٧٢	:	رحلة الشرق والغرب للدكتور لويس عوض
يوليه	١٩٧٢	:	بلابل من الشرق للأستاذ صالح جودت

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم ٣١٨٦ / ١٩٧٢
مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢

محتويات الكتاب

١٥



اقرأ

إبراهيم المصري

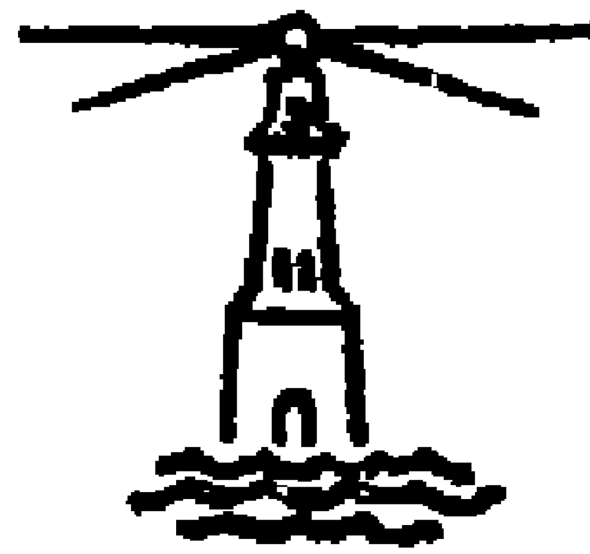
أغلال القلب





تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر



إبراهيم المصري

أغلال القلب

«مجموعة قصص مصرية تصور ألواناً من عاداتنا وتقاليدنا ، وتمثل الإنسان فى صراعه الأبدى بين الخيال والواقع ، والغريزة والإرادة ، والقلب والضمير».

اقرأ ٣٥٧

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٥٧ – سبتمبر سنة ١٩٧٢

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع .

أغلال القلب



كان « حامد » سابحًا فى تأمل « زينات » ، غائبًا عن نفسه ، ناسيًا بنت عمه التى خطبها منذ أكثر من عام ، يستمتع بنشوة وجود زينات بقربه ، وهى تبتسم له فى ودّ وإقبال ، وتنظر إليه مع ذلك بعينين متفرستين هادئتين كأنها تتفرج عليه . . .

أهمل بنت عمه من أجلها ، وأبى أن يستعجل زواجه عندما عرف زينات واتصل بها .

وكان حامد شابًّا فى نحو الثلاثين ، منحدراً من أسرة ميسورة ، وسيمًا وأنيقًا ، مرهف الحس ، مضطرم العاطفة ، أولع بالأدب منذ نعومة أظفاره ، وانكب على مطالعة القصص والشعر . فاستبد به خياله الشعرى ، وضاعف من جموح تصوره . فشرع يبحث عن فتاة تجمع بين الجمال والعقل ، وتشاركه فى العاطفة والفكر ، وتمثل فى نظره مثل الأنوثة الأعلى . فلما لم يوفق ويئس ، خطب بنت عمه ، وظل متردداً فى عقد زواجه حتى التقى بزينات .

والحق أن زينات ، برغم أنها قد نشأت فى وسط فقير ولم تتلق تعليمًا عاليًا ، إلا أنها كانت ذكية ، بل متوقدة الذكاء، تنزع إلى التثقف بفطرتها ، وتتهافت على المعرفة والاطلاع ، وتستعير شتى المؤلفات من حامد، تقرؤها ، ثم تراسله وتكتب إليه ما استوحته منها ، ثم تزوره وتناقشه فيها ، وقد تتفوق عليه أحيانًا فى تعمق المعانى والمقاصد المنطوية عليها .

٨

وكانت إلى ذلك امرأة جميلة لم تجاوز الثلاثين ، ذات وجه أبيض شفاف ، وعينين عسليتين لوزيتين ، وجبهة عالية مهيبة ، وأنف مستقيم وفم دقيق ، ورقة فى البسمات والحركات لا تفتأ تقابل بها حامد كى تشعره بأن صرامة الفكر لا تطغى على أنوثتها ، ولا تشوبها منها شائبة غلظة أو جفاف .

هذه المرأة التى تعرف إليها حامد منذ بضعة أشهر فقط فى بيت قريب له ، وتعرف أيضاً إلى زوجها وإلى أختها العانس « فوزية » التى تعيش معها ، هذه المرأة التى اعتاد هو أيضاً أن يزورها ، واعتادت هى أن تستقبله فى لهفة سواء أكان زوجها حاضراً أم غائباً ، هذه المرأة المتزوجة ملكت على الشاب عقله وقلبه ، وأنسته الفتاة المسكينة المنبوذة بنت عمه ، وأصبحت هى غايته وقبلته ، لا يستغنى عنها ، ولا يستطيع أن يعيش بدونها ، ولا يحتمل الحياة إلا إذا رآها ، وجلس إليها بمعزل عن زوجها وأختها ، وتملى من حديثها الممتع ، وعبّ فى جمالها الفتان .

وكانت هى أيضاً تستعذب محضره . فإذا طالت غيبته عنها سعت ليه فى مكتبه فى الشركة حيث يعمل ، أو بعثت إليه مَن يستقدمه من بيته حيث يسكن بمفرده بعد وفاة أبويه . فيبتهج هو ويفرح . فتبتسم له زينات ابتسامتها الرقيقة ، مرتاحة وراضية ، وتمضى فى النظر إليه بعينيها المتفرستين الهادئتين كأنها تتفرج عليه . . كانت تعلم علم اليقين أنه قد شغف بها . ولكنها كانت متحفظة ومتنبهة ويقظى ، لا تشعر

نحو حامد بأى حب ، بل بعاطفة أضمرت وأرادت ألا تجاوز أبداً حدود الود والعطف والإعجاب .

كانت امرأة شديدة الكبر ، تصطنع الرقة والدماثة إخفاءً لكبريائها ، وترتمى فى عالم المطالعة والفكر تخلصاً من همها ، وتلوذ بحامد وتهرع إليه فراراً من عذاب أليم تعانيه فى حياتها مع زوجها الذى اقترنت به منذ ثلاث سنوات ولم تعقب منه بعد خلفاً . . . وكان زوجها شوكت « بك » رجلا فى الخمسين ، من ذوى الأملاك ، أحبها وغض عن فقرها ، ورضى بأن تعيش معها أختها العانس المنكمشة المتطوية الصموت فوزية التى تعمل حائكة فى مشغل ، والتى يحز فى صدرها ويخنقها أنها قد بلغت السادسة والثلاثين ولم تتزوج .

وكان شوكت قد أخلص أول الأمر لزينات . ولكنه سرعان ما ارتد إلى طبعه المتقلب المتلون الشهوى ، فأسلس قياده لرذائل المترفين العاطلين أمثاله ، وانكب على الخمر ولا سيما النساء ، يستبدل واحدة بأخرى أظمأ ما يكون إلى التمتع ، وأبعد ما يكون عن الشبع والارتواء .

ولم يكن شوكت رجلاً جميلاً بل كان كما تسميه خايلاته رجلا فاتكاً . كان مديد القامة ، عريض المنكبين ، ذا وجه أبيض ضارب إلى الحمرة الداكنة ، وعينين مغروستين تحت حاجبين كثيفين . فإذا نظر إلى امرأة شع من عينيه بريق حاد قاتم الزرقة ، فبدا أشبه بقاطع طريق ، مغامر وجسور ، مستبسل ومستمتع ، فتؤخذ به النساء . فيستدرج

البعض منهن إلى الشقة الصغيرة التى استأجرها فى إحدى العمارات ، والتى لم يكن يعرف بها غير إنسان واحد هو سائق سيارته .

فزينات المتكبرة التى أيسرت بعد عسر ، والتى يميزها الجمال والذكاء كانت تتفطر وتتمزق كلما قارنت بين جمالها وذكائها ، وبين النساء المتبذلات الرخيصات اللاتى يسعى وراءهن زوجها .

والواقع أنها كانت تحب هذا الزوج الخائن المستهتر حبًّا مبرحًا غلابًا عاتيًا . فكان يهولها أن تتهالك النساء عليه ثم تعجز هى عن امتلاكه ، فتأبى إلا أن تمعن فى الاستمساك به ، وفى محاولة تبديل أخلاقه وسلوكه ، عساها أن تقهره فى النهاية وتحوزه وتفخر أمام الجميع بأنه أصبح لها وحدها . . . ولكنها كانت تأخذه بالرقة والدماثة فيهزأ بها ، وتجتهد فى رده عن غيه بالعقل فيسخر منها ، وتتبرج له تبرج الغانيات فيصد عنها ، وتفقد صوابها أحيانًا وتكتب له وهو فى بيتها رسائل تسترحمه فيها وتبثه حبها وعذابها ، فيلقى هو بالرسائل فى درج مكتبه مستغربًا ومتهكمًا . فتضيق هى ذرعًا به ، وتنفجر عليه غيرتها فى ثورة عارمة . فيهز كتفيه ويضحك ثم يقبلها . فتفرح وتأمل وتهدأ فترة كى تعود إلى سابق جهادها وصراعها . . .

ومع ذلك فهى لم تيأس من التغلب يومًا على زوجها ، إذ كان شوكت برغم زهده فيها وخياناته لها ، لا يفكر لحظة فى طلاقها ، بل يضن بها ، ويباهى أمام الناس بجمالها وثقافتها ، ويعلم أنها متفانية فى حبه ،

وأنها مستقيمة وشريفة ، لا خوف عليها من أى رجل تتصل به فى الخارج أو تستقبله وتنفرد به فى بيتها .

بيد أن هذا الاطمئنان الأنانى ، هذه الثقة الغاشمة ، هذه الخيانات المتعاقبة مقرونة بما كانت تحتمله زينات من نبذ وإذلال ومجاهدة عنيدة لتقويم أخلاق زوجها ، كل هذه العوامل أرهقتها ونغصت عليها حياتها . فعصف بها الكبر والحنق ، وأحست أنها فى حاجة إلى صديق ، صديق يفرج عنها بالصداقة فقط . . . لا . . بل يحبها . . . كانت تتلهف على رجل يحبها ، ويتشبث بها ، وتثأر بحبه الكامل المطلق من الجفوة المثيرة التى يقابلها بها زوجها . فأضمرت لو ظفرت بهذا الرجل ، بهذا الصديق ، ثم استشعرت منه ميلاً إليها ، أن تتسلل إلى قلبه شيئاً فشيئاً ، وأن تضرم فى صدره نار حبها ، ثم تتمنع عليه وتعذبه ، كى تنعم بتوكيد سلطانها ، وتستوثق من قوة فتنتها وإغرائها ، فتتحول بهذه القوة وتسلطها على الرجل الذى تهواه والذى هو زوجها . . .

وهكذا استخدمت سلاح الفكر وتقربت إلى حامد المولع بالقصص والشعر . ولما كان حامد الخيالى المثالى يطمع فى أن يجعل من الخيال واقعاً ، ومن الشعر حقيقة ، ومن المرأة جمالاً وثقافة وفكراً ، فقد رأى فى زينات ضالته المنشودة وحلمه المبتغى . فأحبها حباً عميقاً غريراً ساذجاً ، واعتقد أنها هى أيضاً قد أحبته ، ووجدت فيه صنو عقلها وروحها ، ولم يعد فى مقدورها هى الأخرى أن تستغنى عنه .

على أن حامد مع حبه المثالى لزينات كان رجلاً كبقية الرجال . كان يشتهيها ويتعذب . أما زينات فكانت تقبل عليه ثم تعرض ،

تستفزه ثم تروغ منه . فيلتمس هو ويتوسل . فتخاف هى أن تضعف وتسلم . فتسرع وتضبط حواسها وتتحفظ . فيعجب حامد بتحفظها ، ويستنكر منها فى الوقت نفسه كيف تعذبه على هذه الصورة وهى تراه يهيم فى حبها متولعاً متحرقاً كالظامئ المجهد الهائم فى قفر ، ينبثق الماء فجأة أمامه ، فيعجز عن بلوغ مسراه ولا يستطيع أن ينقع غلته منه ولو برشفة واحدة .

* * *

وها هو ذا حامد فى بيت زينات ، جالس تجاهها ، يسبح فى نشوة وجوده بالقرب منها ، ثم يثور ثائره بغتة فيقبض على يدها ويصرخ فيها نافد الصبر : أين هو زوجك ؟ . . تقولين إنه دخل البيت فجر اليوم ولم يشأ أن يوقظك فنام فى حجرة مكتبه بعد أن أمضى ليلة أمس ولا شك مع غيرك . . ولكننا الآن فى مغرب النهار وهو ما يزال نائماً . . . ينام النهار ويسهر ويعربد فى الليل ، وترضين أنت بهذا ؟ . . أين هو كبرك ، أين هى عزة نفسك التى تعذبنى أنا الذى أحبك وأخلص لك ؟ . . . انفصلى عن هذا الرجل المستمتع الخائن وأنا متأهب للتخلى عن ابنة عمى والاقتران بك !

ونهض لينصرف . فخشيت زينات أن تفقده . فأجلسته عنوة ، وقالت وهى تلاطف خده بأناملها : أمهلنى بضعة أسابيع أيضاً . . . إن شوكت يخوننى ومع ذلك فهو لا يريد أن يطلقنى . وأنا مذ عرفتك أنا صبه العداء وأسمم حياته كى أدفعه دفعاً إلى كرهى والتخلص منى . . .

ورفعت رأسها فى شموخ وأردفت : وإذا كنت أتمنع عليك فذلك لأنى لا أريد أن أسقط فى عينك . . . لا أريد أن أهبك نفسى قبل الزواج وإلا اعتقدت أنى كنت لآخرين من قبلك . . . فاصبر قليلاً واحتمل إذا كنت حقًّا تحبنى . . .

وأهاجت عامدة أعصابها ، وأطلقت بعض الدموع وجعلتها تتحير فى عينيها فذعر حامد ، وطيب خاطرها ، وانحنى وقبل يدها فى ولع وشكر ونهض . نهض ولكنه توقف . توقف إذ سمع حركة خفيفة خلف أحد الأبواب لم تتنبه إليها زينات . فخيل إليه أن شوكت قد صحا . فأبى أن يلتقى به ، واتجه نحو باب الصدر وتبعته المرأة . غير أنها لم تكد تبلغ الردهة الصغيرة التى تفصل بين مخدعها ومكتب شوكت ، حتى انتهزت الفرصة لتمضى فى تنفيذ خطتها . فأرادت أن يعلم زوجها أن حامداً كان الآن أيضًا بمفرده معها ، وأن يزداد زوجها يقيناً بأن حامداً يحبها ، وأن يعتقد أنها قد تحب حامد ، وأن يتأثر وينفعل وتلتهب فيه مشاعر الغيرة والاستنكار والنخوة ولو بضع لحظات . ففتحت زينات باب حجرة المكتب ودخلت . بيد أن حامد لم يكد يلقى على الحجرة نظرة حتى تقبضت عضلات وجهه وجمد . كان شوكت منطرحًا على مقعد مستطيل ، مشوش الشعر ، محتقن الوجه ، منتفخ العينين والخدين ، مستغرقًا فى الرقاد أشبه بجثة ، وبالقرب منه وعاء عميق ملىء بما أفرغه فيه من جوفه بعد سهرة

الأمس التى التهم فيها ولا ريب كمية كبيرة من الطعام ، واجترع كمية أكبر من الخمر .

وكان منظر الرجل وهو ميت الرأس ، مفتوح الذراعين ، مدلى الساقين ، يثير الاشمئزاز والرعب . فهتف حامد : أهذا هو زوجك ؟! ثم فأسرعت المرأة وحملت الوعاء وخرجت به دون أن تنادى الخادم ، ثم عادت واندفعت لتوقظ زوجها . فاعترضها حامد وأبى إلا أن ينصرف ، ولكنها صاحت بشوكت أن حامداً هنا وأنه يحييه . فاستيقظ الرجل وتململ وغمغم : حامد هنا ؟ . . . أهلا وسهلاً . . . كيف أنت يا حامد ؟! فوزية . . . أين فوزية ؟ خرجت ؟ . . . طيب . . .

وانكفأ رأسه على الوسادة وغلبه النوم . فاكفهر وجه زينات ، ودفعها غيظها من زوجها الذى لم ينفعل ولم يكترث لوجود حامد ، إلى مضاعفة رغبتها فى التمسك بالشاب والحرص عليه . فلكى تطمئنه وتذكى فيه الحب وتجدد الأمل ، أشارت إلى زوجها فى ازدراء وقالت : دعه ينام . دعه يمعن فى رذائله . وأنا ، أنا سأنغص أيضاً حياته وأدفعه دفعاً إلى الطلاق . وهكذا نتخلص نحن منه ونستريح ! . . .

فتهلل وجه حامد ، وانصرف مثلج الصدر قريراً ، يردد كلمات زينات ، ويروض نفسه على التحمل والصبر ، ويتعلل بأمل لا بدّ أن يتحقق فى مستقبل زاهر وقريب .

* * *

وكان قد هبط الليل ، وهب النسيم فى الخارج ندياً منعشاً كأنه

يشارك حامداً فى فرحته . فابتسم الشاب لأمله ، ومط أعضاءه فى عزة ، وأخذ يصفر ويدندن . وفجأة وبينما هو يجتاز إحدى العطفات ويوشك أن ينطلق فى الطريق العام ، ترامى إلى سمعه وقع خطوات تتعقبه . فالتفت مستغربًا ، فأبصر نفسه وجهاً لوجه أمام العانس المنكمشة المنطوية الصموت فوزية أخت زينات . فأجفل وحياها ومشى . ولكنها لحقت به ، ومشت بجواره ، وظلت تلتقط أنفاسها وتختلج .

وكانت فوزية فتاة مهزولة البدن ، سمراء اللون فى شحوب ، ذات فم عريض وأنف قصير . ولكنها كانت ممشوقة القد ، سوداء العينين ، واسعة الحدقتين ، غزيرة الشعر ، تحمل فى يدها على الدوام منديلا أبيض رسمت عليه ورود صغيرة حمراء ، لا تفتأ تلوكه بين أصابعها كلما تحدثت أو فكرت أو ضاقت ذرعًا بحظها .

ولبثت تمشى بجوار حامد وهو متأفف يهم بأن يعتذر إليها وينطلق . غير أنها استوقفته وقالت : لماذا تنفر منى ؟ . . . لست دميمة إلى هذا الحد . . . نعم . أنت تنفر منى . . . . ومن جميع النساء . . .

وأردفت : بقدر ما تحبها هى ! . . .

فانتفض الشاب . فلم تمهله وقالت : سمعت الآن كل ما دار بينكما من حديث . . .

فحملق فيها حامد دهشًا وساخطًا وقال : إذن فتلك الحركة ؟ . .

كنت أنت التى تتسمعين علينا خلف الأبواب ؟ . . . ولكن ما شأنك بنا ، وما الذى يدفعك ؟ . . .

فاستطردت الفتاة وهى ترتجف ومنديلها يتلوى بين أصابعها : أريد أن أفتح عينيك . . . أن أبصرك بأنك واهم . . . مخدوع . . . وأن زينات إذا كانت تحبنى أنا أختها فهى يمكن أن تحبك أنت ! . . .

وفاض بها الحقد وصاحت : إنها تحتقرنى . تعيرنى بعنوستى . تتفضل علىّ بالحياة فى بيتها لتذلنى . تزهو علىّ لأنى عاثرة الحظ ولأنها هى قد فازت بزوج ثرى . . . وكما أنها تقسو علىّ كذلك هى تقسو عليك دون رحمة وأنت لا تشعر . . . ولكنها هى القاسية ذليلة ، هى المكتفية محرومة ، هى الغنية فقيرة ، فقيرة لأنها تتعذب فى كبرها ، فقيرة لأن لا ولد لها ، فقيرة لأنها تحب رجلاً لا يحبها ! . . .

فوجم حامد وصرخ : كذب . . . رجلا آخر . . ومن ، من يكون ؟ . . .

فقالت الفتاة : إنه زوجها . هو الذى تحبه . تحبه إلى حد العبادة . ذلك السكير الوقح الدنىء الذى لا يعف عن امرأة مهما كانت ، والذى كثيراً ما يلاحقنى أنا أخت زوجته بنظرات جائعة مروعة ، أتمنى حياتها لو استطعت أن أجد فى ربحى من عملى ما يكفينى كى أفر من بيته ومن امرأته وأعيش فى غرفة على سطح عمارة أوفى بدروم تحت الأرض . . هو الذى تحبه ! . . لا تصدقنى ؟ . . . إذن فخذ . . . خذ واقرأ . . . أنت تعرف خط زينات وأنا أعلم أنها تراسلك . فاقرأ الآن هذه الرسالة



العجيبة . . . رسالة من رسائل اعتادت زينات أن تكتبها لزوجها ، لزوجها نفسه ، كلما خانها وعذبها وأذلها ، واعتاد هو أن يلقى بتلك الرسائل فى درج مكتبه مستهتراً وساخراً . اقرأ رسالتها هذه ، وستعلم منها كل ما خفى عنك . . . . .

فاختطف حامد الرسالة وقال وهو يهدر : ولقد اجترأت أنت وسرقتها ؟ ... كنت جاسوسة وأيضاً سارقة ؟ ...

فصاحت الفتاة : ثورة منى على قسوة المرأة ونفاقها ، وخدمة لك يا حامد وشفقة عليك . . . لا تنفر منى هكذا ... لا تبغضنى ... اقرأ الرسالة وردها إلىّ واكتم كل شىء وارحمنى ، وإلا طردتنى زينات من بيتها وشردتنى وأنا بعد لا أستطيع أن أعيش معتمدة على عملى وربحى .

وتهدج صوتها تهدجاً مريراً ، وأردفت وهى تكاد تقطع منديلها : ثم ابتعد . . . ابتعد عن زينات . . .

وتجمع كيانها كله واستقر على الشاب فى نظرة عميقة وتائهة . ثم سقط رأسها بغتة على صدرها كأنما قد فصلته يد مجهولة وباطشة . فارتعد حامد وظل لحظة يتأملها . ثم تشجع وبسط الرسالة وقرأ . وما إن أنعم النظر فيها وتبين له من عباراتها أنها رسالة حب قاهر وأنها كتبت لشوكت منذ يومين فقط ، حتى أحس كأن مخلباً ضارياً ينشب فى عنقه ، وكأن قلبه يعتصر فى صدره ، وكأنه يرى الأشياء والأشخاص من خلف ضباب . فرد الرسالة إلى الفتاة ، ونظر إليها مخبولاً كأنه يريد أن يقتلها. ثم دفع بها عن طريقه ، واستجمع قواه ومشى . مشى وفكره يلهث

كأنفاسه . مشى كمن به سعر مكبوت . مشى وهو يتصور غريمه وعدوه منطرحًا على الفراش . مفتوح الذراعين ، مدنى الساقين ، وبالقرب منه الوعاء القذر العميق تحمله زينات . فغلى دمه ، وتصاعدت من صدره موجة التقزز مقرونة بشهوة ثأر وتنكيل وإجرام . فتشنجت أعضاؤه ، وخاف من عنف ثورته ، وارتمى فى الطريق العام ، وظل يمشى ويختلط بالناس عساه أن يهدأ ويرتد إلى صوابه . وعندئذ ، وبينما هو يمشى ، تولته رجفة وتوقف . توقف إذ لاح له الرجل ، نفس الرجل . شوكت ، مقبلاً عليه بوجهه المحتقن ، وعينيه المغروستين تحت حاجبيه الكثيفين ، وقد تجمل وتأنق وتأهب لقضاء سهرة الليلة . . .

واتجه الرجل نحو حامد مبتسماً وصاح : لماذا أسرعت بالذهاب ؟... أما كان يمكنك أن تبقى فترة أيضًا مع زينات لتسليها ؟ ... عد إليها ... أرجوك ... حرام عليك ...

وقهقه فاتحاً شدقيه واستطرد : أم أنك قد تغيرت يا حامد وأصبحت مشتاقًا إلى الدنيا ؟ . . . الدنيا يا عزيزى أجمل من الحب ... أجمل وأرحب وأمتع ... الدنيا هى الهواء الطلق ، أما الحب فهو الانزواء الخانق ... أليس كذلك ؟ ... ها ... ها ... ها ...

وطوق الشاب بذراعه وأسر إليه : أتظن أن المرأة يمكن أن تحب ... أن تخلص للرجل ؟ ... كيف يمكن أن تخلص المرأة للرجل . هل هى تخلص لموضة الموسم الراحل متى ظهرت موضة الموسم الجديد ؟... ها ... ها ... ها ... تعال معى إلى الدنيا ... تعال نسهر ونأكل

ونشرب ونتمتع ... انظر إلى هذه الحسناء ... ألا تشبه، كما يقول الأدباء أصحابك ، غصن البان فى رياض الجنان ؟ ... ها ... ها ... سأتبعها ... سيارتى فى الانتظار عن قرب ... الحق بى ... لا تريد؟... على كيفك ... باى باى ...

وانطلق مصعراً خده ، متخطراً فى مشيته ، واختفى . فتفاقم فى نفس حامد شعور التقزز والسخط ، وانصب على المرأة التى كان يؤمن بأنها الصدق حياً والوفاء ثابتاً والإباء مجسداً ، وإذا بها تسقط وتكتب تلك الرسالة الذليلة المستجدية ، وتنافق وتخدع لأنها تعشق هذا الرجل ... كيف ، كيف يمكن أن تكون المرأة ممتازة بالجمال والعقل ثم تهوى على هذه الصورة ، وتفصم شخصيتها وتصبح ذات وجهين ؟ . . . نعم . إنها تحبه هو وتستخدمنى أنا . أنا الموكل بأن أضاعف قوة حبها له ، وأوقد النار فى أتون هيامها به ، النار التى اكتسب هو مناعة ضدها والتى ترتد إلىّ وأحترق بها أنا ! . . . لا . لن أكون طعمة للمرأة ووسيلة لمآربها . لن أتصل أبداً بها . سأنتزعها من فكرى . سأقتلعها من وجدانى وخيالى . سأقتلها فى قلبى وإلا فقد أجن وأقتلها بيدى !

واتجه صوب منزله وحاول إن ينام . ولكنه ما إن تمدد فى فراشه حتى استوت أمامه زينات . فنهض محنقاً وأراد أن يخرج . بيد أنه لم يستطع . امتلأت الحجرة بهيكل المرأة . انتشر فيها صوتها وحديثها وذلك الجو المتقد الحار الذى كان ينبعث من مجرد وجودها . فدب الذعر فى قلب حامد . أحس أنه فى الحجرة سجين ، وأنه بالرغم منه يستعذب سجنه ،

وأن السجن قد بات رحبة فسيحة زاخرة بالحياة يمرح فيها هيكل زينات فثار مع ذلك على وهمه ، وارتدى ثيابه وهم بالخروج . بيد أنه لم يكد يتصور زحمة الشوارع التى لا بد أن يغيب فيها هذا الهيكل الفاتن حتى ارتد إلى عزلته ، واندمج فى طيفه ، وظل مؤرقاً ومسلوباً لا يغمض له جفن .

وأشرقت عليه شمس اليوم التالى وهو فى عمله مشتت الذهن منهوك الحواس . فأرهقه عذابه ، وهجس فى روعه أن يتخلص ويذهب إلى المرأة . ولكنه استنكر وجاهد وأوى أيضاً إلى بيته . فخيم عليه الليل ففاجأه الطيف وأعجزه عن النوم . فلبث مكبلاً بهواجسه ، وحاول أن يقرأ فى كتاب .

وفيما هو يقرأ والسطور تتراقص أمام عينيه ، دق الجرس . فهب من فراشه ، وفتح الباب . وإذا به يبصر المرأة ، يبصرها هى ، زينات نفسها ، تدخل عليه ممتقعة الوجه ، زائغة العينين ، ترتعش وتلقى عنها معطفها وترتمى على مقعد .

وتطلعت إليه وهو مذهول ، وقالت وأنفاسها المتعاقبة تكاد تخنقها : أتدرى ماذا فعل . . . زوجى ؟ . . . بات ليلة أمس خارج البيت ، ودخل بعد ظهر اليوم سكران . وكانت أختى ، أختى فوزية نائمة ، فتسلل إليها ، واقتحم عليها مخدعها . فصرخت الفتاة . فأمسك بها عنوة وأغراها بالمال ، فقاومته . ولما أسرعت أنا ، ألفيتها وقد تمكن منها الرعب ، تختطف أحد مقصاتها وتهم بأن تطعنه به . فلما أبصرنى كف

ا ، وجعل يضحك ويردد فى استهتار مروع : عندى غيرها . . . ثم
إلىّ كأنه لا يعرفنى ، وهز كتفيه وخرج . . .

واستبد الحنق بزينات وصاحت : هذا الرجل الوضيع ، هذا الرجل
ستيرى الحقير . . . إنى أبغضه . . . أبغضه . . . لم أعد أحتمله . . .
نص ما شاء من النساء ويستبيح أيضاً أختى ؟ . . . جن جنونى ،
رت من البيت ، وتركت فوزية تجمع بعض أثوابنا على أن تلحق
إلى هنا ثم نلجأ إلى منزل عمتى حيث أبقى هناك ، مصرة على عزمى ،
البة بحريتى ، حتى يمتثل شوكت ويخضع ويطلقنى !

وتهاوت على نفسها وقالت مستصرخة : ولقد جئت إليك يا حامد
ول لك أن ليس لى غيرك . . . أنت الآن كل حياتى . فهل حقاً
بنى ، هل ما زلت متأهباً للاقتران بى لو طلقت من زوجى ؟ . . .
مة منك تهبنى القوة وتطمئننى وتثبت قدمى . . .

فنظر إليها حامد ونسى كل شىء . نظر إليها كمن كان قد فقد
فألفاه بغتة بين يديه . فكاد أن يغشى عليه من فرط الفرح . ولكن
الفرح نفسه أدهشه وأيقظه . ذكر الرسالة ، فاستعر غضبه ، وأمسك
أة وجعل يهزها هزاً عنيفاً ويقول : أنت ؟ . . . أأنت هى زينات ؟ . . .
كذا كنت بالأمس ؟ . . . أواثقة من أنك اليوم غيرك بالأمس ؟ . . .
يقظى يا زينات . . . راجعى نفسك . . . امتحنى عواطفك . . .

فحدقت فيه المرأة مستغربة وموجسة وقالت فى ثبات : الموت أحب
من العودة إلى شوكت !

فعاد الإيمان ورسخ فى نفس حامد ، وعاد حلمه المثالى يبرق دانياً أمام عينيه . فارتمى على المرأة ملهوفاً وأراد أن يعانقها . ولكن جرس التليفون دق فى تلك اللحظة ، فتحول مكرها ورفع السماعة وقال : من ... فوزية ؟ ... نعم . أختك ما تزال هنا ....

واردف وكلماته تحتدم : ماذا ؟ ماذا تقولين ؟ ... شوكت ؟... سيارته كانت تنتظره ... أين ؟ ... بجوار شقة له ، شقة خاصة ، جرسونيير ؟ .... وهو ، هو ؟ ... ارفعى صوتك ... ماذا ؟ ... أصابته نوبة ؟ ... نوبة شلل ؟ ... أنت قادمة ؟ ... أسرعى ... أسرعى ...

فذهلت زينات واشتعلت عيناها وجعلت تردد : شقة ! ... يتخذ شقة للبغايا وأنا لا أعلم ؟! ... مشلول ... مشلول ... رذائله قد أهلكته . لن يقف بعد اليوم عقبة فى سبيلنا . إن ما وقع يعجل بطلاقى منه وخلاصنا .

فاستطار الفرح لب حامد ، وضمها إلى صدره . فتركته يقبلها لأول مرة . ثم تملصت منه ، وارتدت إلى مقعدها ، وأطرقت ولبثت تحدق إلى الأرض .

وساد بينهما صمت زافر ، هى تتصور المسكن المستقل الذى أخفاه عنها زوجها وترتجف ، وحامد ينساب إليها ، ويجلس بجوارها ، ويميل برأسه على كتفها ، ويسبح فى نعيمه المقبل المكفول ، وفجأة دق الباب . فوثبت زينات وفتحت . فدخلت فوزية ونظرت إلى الشاب ، ثم صوبت إلى أختها نظرة حاقد متفرسة تريد أن تستبطن ما عزمت المرأة عليه . ثم

قالت فى صوت غائر أجش وهى تشد بأصابعها أطراف منديلها الأبيض ذى الورود الصغيرة الحمراء : كان شوكت فى الجرسونيير مع امرأة ، فأصابته النوبة بغتة ، ففرت المرأة وتركته وحيداً . فلما انقضى وقت طويل ، صعد سائق سيارته ودق الجرس : فزحف شوكت وفتح له الباب . فأسرع السائق إلى بيتنا وقص علىّ ما حدث ... إنه فى الخارج ينتظرنا . . . .

فهتف حامد : إلى المستشفى ... يجب أن ننقل الرجل إلى المستشفى .

فقطبت زينات حاجبيها ، وتمهلت فترة ، ثم صاحت : بل إلى البيت المسألة تتعلق بكرامتى . ماذا يقول أهله عنى لو بعثت به إلى المستشفى من تلقاء نفسى ، غير مكترثة لمرضه ، ودون أن أسرع إليه بأى إسعاف أولى ، وأستقدم له فى البيت أى طبيب ؟ ... كلهم يعلم أنه كان صاحب فضل علىّ . يجب أن ينقل إلى بيته . فإذا مات ، كنت لك يا حامد . وإذا اقتضت حاله علاجاً طويلاً ، فسأطالب أنا على الفور بحقى فى الحياة ، وأنفصل عنه وأقترن بك .

فلم يسع حامد إلا أن يمتثل . فاختطفت زينات حقيبتها ومعطفها ، وأردفت :

ـ هيا بنا ...

وخرج الثلاثة واستقلوا السيارة ودخلوا الشقة يتقدمهم السائق وهو يعتذر ويردد أنه كان مجبراً على الكتمان وإلا طرده البيه وقطع عيشه .

وكان شوكت مرتمياً على مقعد وقد غاض لونه الدموى ، أصفر

الوجه ، ملتوى الخد ، مشوه التقاطيع ، منعقد اللسان ، يهتز رأسه ا
متواليـاً ، وتتهدل ذراعاه على مقعد خائرتين شقيتين ، وتتوه عي
الفضاء وملؤهما الحيرة والدهش والتلمس كأن البريق الفاتك الذى
ينبعث منهما قد أطفأته النوبة وأخمدت فيه كل قوة وكل سطوة
حياة .

وتأملته زينات وتسمرت فى مكانها . ظلت تحدق فيه وهو ي
مستنداً إلى حامد ، والسائق يرفعه ويحمله ويهبط به إلى السيارة .

واتخذ الثلاثة أماكنهم ، وحامد ساهم وصابر ، وفوزية منـ
ومنطوية ، وزينات شامتة ولاهثة ، لا تفتأ تحدق إلى شوك
جامدة الحركة ، مكبوحة الرجفة ، متصلبة الأعضاء .

وما إن دخلوا البيت ، وأرسلوا فى استدعاء طبيب ، وأرقدوا شو
على فراشه فى مخدع النوم ، وأبصرته زينات يهز رأسه الكليل ، و
بذراعه الواهنة ، ويدمدم كالأخرس ، ويفتح فمه الملتوى ويناد
باسمها ، حتى وقع شيء مذهل ، شيء عجيب . تلفتت زينات
كمجنونة ، ونظرت إلى حامد فترة ، ثم إلى أختها ، ثم إلى نفسا
وانفجر كل ما كان مكبوحاً ومحتبساً فى صدرها . فارتمت على شوك
وطوقته بذراعيها ، وصرخت وهى تضمه ضماً عنيفاً ، وتقبل شعره و
وعينيه : تكلم ... حاول أن تتكلم ... لا تخف ... أنت معى
وستشفى ... ستحيا ... ولكن كيف أصبحت هكذا يا شوكت ؟
كيف ؟ ... ومع ذلك فأنت أنت ... لماذا تدور بعينيك هكذا ؟

نبحث ؟ ... عن فوزية ؟ ... أتعجبك فوزية ؟ ... أتراها
؟ ... إنها هنا ... أمامك ... تقدمى يا فوزية ... ابتسمى له
فوزية ... لا تريدها ؟ ... تريدنى أنا ... تنظر إلىّ أنا ؟ ...
كن عيناك أبداً أجمل وأفتن مما هما الآن ! ... أنا رهن إشارتك
وكت ... سأترامى تحت قدميك ... سأخدمك ليل نهار .. ضع
المرتعشة فى يدى .. ألق برأسك الكليل على صدرى .. ألا ترون
هو ضعيف ... كم هو مسكين ... إنه فى حاجة إلىّ .. أبداً ...
أتخلى عنه أبداً ... هذا أقوى منى ... إنه أغلال فى عنقى ...
أنا ... لى أنا ... لى وحدى ... إلى الأبد وحدى ... إنه زوجى
بيبى وطفلى ! ...

ثبتت فوزية بصرها فى حامد ، ثم سددت إلى أختها نظرة ملؤها
كراهية والحقد . فتجاوب حقدها فى صدر حامد بما هو أبلغ منه
يد ، وظل يشخص إلى المرأة مقشعر البدن وهو يلهث ويرتجف .
يصدق أن زينات هى التى تكلمت . لم يصدق أنها هى التى رشقت
كلماتها فى صدره كسهام مسمومة . أهى التى كانت بين ذراعيه منذ
لحظات تصيح وتؤكد أنها ستكون له . نعم هى وليست هى . ومع ذلك
فى زينات بعينها ، امرأة شبيهة بالمياه الغادرة ، شفافة الظاهر ، غشاشة
اطن ، تنكرت لكل شىء ، واندمجت بالفكر والقلب والجسد والروح
هذا الرجل الفاجر الذى أهدر كرامتها وأذلها ، والذى هو الآن ضائع
كسيح ومشلول .

ونكس حامد هامته وانسحق . أحس فى أعماق نفسه ، فى صميم روحه ، أن زينات لن تكون أبداً له ، وأنه قد خدع نفسه ، وغالط عقله ، وكابر مكابرة المقهورين .

أحس وأدرك أن حبه المثالى العنيف لزينات كان أملاً فخاب ، وحلماً خارقاً فتبدد ، ورحلة حافلة بالروائع أفضت إلى صحراء . فتمزق قلبه ولم يشأ أن يرى . . . لم يشأ أن يرى المرأة المرهوبة ، المرأة المنيعة ، المرأة الصماء . كما لم يشأ أن يرى الرجل المشلول الذى صرعه ، فاستدار لفوره واتجه نحو الباب ، وخرج ... خرج محنى الرأس ، متساقط البدن ، محموم الخطى . فاستضاء وجه فوزية ، وأبرقت الفرحة فى عينيها ، وأتبعت الشاب النظر من النافذة ، وقلبها المحقر المعذب المحروم يتفطر حسرة عليه . ولكنها تراجعت بغتة وجحظت عيناها . أبصرت الشاب الذى كان ينطلق فى الشارع بخطى المطارد المطعون ، يتمهل فجأة ويتوقف ثم يتطوح ويتخبط كالغريق ، ثم يرفع رأسه ويحدق إلى الفضاء تحديق معتوه ، ثم يكر راجعاً ، ويدخل البيت ، وينفذ إلى المخدع ، وينتزع كرسياً ، ويجر الكرسى وهو شارد ، ويجلس بالقرب من زينات ، وتجاه فراش زوجها المشلول . . .

وانهمرت الدموع من عينى فوزية ، ونهشتها الغيرة ، وعصفت بها مشاعر الكمد والحقد والبغض . فزفرت زفير مخنوق ، وعضت على منديلها الأبيض ، وخيل إليها وهى ترتعش وتتأمل المنديل ، أن وروده الصغيرة ، وروده الحمراء قد استحالت فى عينيها الجاحظتين إلى بقع من الدم ...

الجراح الملهمات



نشأ « مختار » فى أسرة فقيرة تسكن إحدى الحارات بالعمرانية بالجيزة . فلم يستطع أن يتم دراسته الجامعية لعجز والده « البقال » عن مواصلة الإنفاق على تعليمه . فاشتغل كاتبًا فى مكتب أحد المحامين الشرعيين .

وكان منذ نعومة أظفاره مولعًا بالغناء والموسيقى ، فظل يقتصد ويدخر من مصروفه الخاص حتى تمكن من شراء « عود » مستعمل ، أدخل السرور على قلبه وأشاع الفرح والبهجة فى أنحاء البيت .

وكان مختار لا يلبث أن يفرغ من عمله حتى يهرع إلى عوده ويأخذ فى رياضة نفسه على العزف عليه .

ولم يكن قد عرف النساء . فخوف الله كان متأصلا فى نفسه ، والاستمساك بشعائر الدين كان يعصمه ـــ أما عواطفه ورغبات شبابه فكانت تجد فى الغناء والموسيقى منصرفًا لها .

وكان مختار يحاول أن يجيد العزف على العود ، ويجيد الغناء والتلحين أيضًا . والواقع أن ميله إلى الغناء والموسيقى كان قد انحدر إليه عن والدته التى اشتغلت أربع سنوات « كودية زار » قبل أن تقترن بوالده « الحاج بسيونى » البقال .

فالطبلة والمزمار والدف كانت اللعب التى تلهى بها مختار وهو طفل ، وكانت الحوافز الأولى التى أيقظته على حب الفن وحب الطرب .

على أن مختار لم يأخذ عن أمه هبة الفن فحسب بل هبة الجمال أيضاً . فقد كان وهو فى الثانية والعشرين ، شاباً مديد القامة فى عزة وكبر ، أبيض الوجه فى شحوب فاتن ، أسود العينين فى وداعة وسهوم ، لا يحفل بجماله قدر احتفاله بفنه . . . والحق أن صوته كان رخيماً ، وبحته مشجية ولكن زفرة الألم ولوعة الوجد وحرقة الهيام كانت تنقصه ، كما كان ينقصه اكتمال الصناعة والفن . فما زال بعوده يعالجه ويروضه حتى طوع أوتاره جهده . فاستطاع أن يحذق العزف إلى حد بعيد وإن كان لم يستطع أن يبعث فى غنائه ذلك النبض المتهدج المختلج الحى الذى يخلب ألباب السامعين .

واستفاضت شهرة مختار عند أهل الحارة . فكانوا يسعون إليه ، ويتسابقون إلى دعوته فى المناسبات السعيدة مثل كتب كتاب ، أو ليلة الحنة أو الدخلة أو الحج أو ختان الأطفال أو الاحتفال بإطلاق سراح سجين .

وكان مختار برغم اعتزازه بنفسه، يلبى فى سماحة وتواضع رغبات أهل حارته ، سعيداً بحبهم له ، فخوراً بإعجابهم به ، ذلك الإعجاب الصادق النزيه الذى كان يلهب فى خياله الأحلام الواسعة والآمال الكبار . بيد أنه كان يتهيب النظر إلى أحلامه ، ويخشى إن هو أقدم على ترك وظيفته واحتراف الغناء ، أن يخونه الحظ فيفشل فى ميدان الفن ويفقد الوظيفة الغالية . فظل يتأرجح طويلا بين الأمل والخوف . ولكن صديقه الحميم الأسطى شعبان الكواء المشهور بأنه ذواق للغناء و « سميع » ،

زين له آماله الكبار ، وشجعه عليها . فاشتعلت فى صدر مختار نار الطموح . فغافل والديه ، وشرع يتصل بأهل الفن حتى تمكن فى النهاية من تحقيق حلمه وأصبح مطرباً فى كازينو « الست فردوس » ، يغنى ثلاث ليال فى الأسبوع لقاء أجر يفوق كل ما كان يتقاضاه وهو فى وظيفته .

وكانت فرحة غامرة شاركه فيها أهل الحارة . أما أمه الست نفوسه ، فمضت تزغرد ، وتنثر الملح ، وتبخر ابنها لتحميه من العين . وأما الحاج بسيونى الذى كان ما يفتأ يتبرم بأن امرأته كانت بالأمس كودية زار ، فقد أغضبه أن يصبح ابنه مطرباً ، واعتبر ما حدث انتقاصاً صارخاً من قدر أسرته ، وأبى إلا أن يرتد مختار إلى مكتب المحامى . ولكن الست نفوسة تصدت له وتغلبت عليه . فامتثل آخر الأمر وأطاع . فسر مختار واغتبط وارتمى فى حياته الجديدة بجمع قواه . . . وبدأ يكافح كفاحاً مريراً ليشق طريقه ويلفت أنظار الجمهور إليه . فاستطاع بفضل ثباته وجهاده أن يحرز نجاحاً ظاهراً ملحوظاً . بيد أن ألحانه كانت ما تزال فجة ، وعزفه ما يزال فاتراً ، وغناءه برغم حلاوته ورخامته ما يزال يفتقر إلى ذلك النبض العاطفى المختلج الذى كان ينشده .

والواقع أن جمال مختار كان يشفع له عند الجمهور وبخاصة عند النساء . فالبعض من سيدات الطبقة المتوسطة أعجبن به ، وبالغن

عند أزواجهن فى إطراء مواهبه ، مما حمل أولئك الأزواج على دعوته إلى بيوتهم لإحياء حفلات خاصة فى شتى المناسبات .

وهكذا ابتسم الحظ لمختار . ومع ذلك فهو لم يكن سعيداً . كان يستشعر نقص فنه ، وضعف ألحانه ، وفتور غنائه . فبات يعلم علم اليقين أن الفضل فى نجاحه يرجع إلى جماله ، فكان يتألم بل ويتعذب .

وكانت « فتحية » وهى فتاة فى السابعة عشرة ومن أهل حارته ، تحبه أشد الحب ، وترقبه من شباك حجرتها . فإذا ما أبصرته فى غرفته يعالج العزف على عوده ، أسرعت إلى بيته ، وتفانت فى خدمة أمه ، ومضت تغسل لها المواعين ، أو تكنس الأرض وتمسحها ، أو تجمع القمصان والجلاليب المنشورة ، وعينها ما تفتأ تحوم حول مختار .

وكانت فتحية سمراء الوجه ، عسلية العينين ، ذات نظرة بريئة مرحة ، وضحكة صريحة رنانة ، وجسد صغير لا يتحرك بل يثب ، ولا يمشى بل يرقص . . وكان مختار يلمس إخلاصها وحبها له . ولكنه كان يأبى أن يرتبط بامرأة وأطفال قبل أن يملك ناصية فنه ويطمئن إلى مستقبله . فتحفظ مع فتحية جهده . فدب اليأس فى قلب الفتاة ، وزادها يأساً ورعباً أن والدها الفكهانى « المعلم جمعة » أصر على أن يزوجها بصديقه الميسور الخضرى الكهل الدميم « المعلم أبو سريع » .

وكفت الفتاة عن زيارة بيت مختار فأحزن الشاب عجزه عن إسعادها ،

وشعوره بأنه لا يحبها بل يشفق عليها . فلبث يفكر فيها أياماً ويرثى لحالها ثم استبدت به أحلامه ، فاستغرق فى الكد والمران لإتقان فنه ، محاولا فى مرارة وإعنات آن يودع فى غنائه تلك النبرة العاطفية المختلجة ولكن على غير جدوى .

وفى ذات صباح ، وبينا هو فى المسرح منهمك فى تجربة أغنية جديدة ، استدعى فجأة إلى التليفون . وكان المتحدث إليه وجيهاً يدعى « عصمت بك » ، ما إن اتصل بمختار حتى عرفه إلى نفسه ، وأثنى عليه ، ثم طلب إليه فى رجاء وإلحاح أن يتكرم بإحياء الحفلة التى يقيمها الوجيه بعد أسبوع فى منزله الكائن فى حى الزمالك بمناسبة عيد ميلاد السيدة زوجته . . . واضطرب مختار لحظة ، ثم أسرع بتلبية دعوة الوجيه شاكراً له ثقته وثناءه .

وكانت هذه أول مرة يدعى فيها مختار لإحياء حفلة فى حى الزمالك . فتنازعت نفسه عوامل الفرح والخوف ، وأوشك أن يتصل بالوجيه ويعتذر ولكن مطامعه استيقظت فيه ، وأغرته بانتهاز هذه الفرصة الثمينة النادرة .

ولم يشأ أن يصارح بالأمر إنساناً ، وأسرع وأعد فرقة موسيقية ممتازة ، وطفق يدربها الأسبوع بطوله . ثم عنى بمظهره كى يكون خليقاً بالوسط الرفيع الذى دعى إليه .

وجاءت الليلة المرهوبة ودخل الأستاذ مختار فى صحبة فرقته منزل الوجيه عصمت بك . وما إن أعلن الخادم نبأ وصوله حتى خف الوجيه وحرمه لاستقباله . فبادر مختار بتهنئة ربة البيت بعيد ميلادها . فشكرته

« بهية هانم » مبتسمة ومرحبة . فأجال البصر حوله ، فراعته السيدات المتحليات بالجواهر ، المختالات فى فساتين « السواريه » ، كما راعته اللوحات البديعة ، والتحف الغريبة ، والمرايا اللامعة ، والطنافس اللينة العميقة التى كانت تغيب فيها قدمه كأنها تسبح فى لجة من المخمل الناعم .

وصفق المدعوون ، وشرعت الفرقة فى عزف مقطوعة موسيقية ، ثم قسم مختار على عوده ليالى مشجية . فتصاعدت الآهات والصرخات . فتشجع الشاب واندفع يغنى موالا . بيد أنه أحس أن صوته لا يخفق بذلك النبض المختلج الذى كان يتهالك عليه . فحنق وابتأس . ولكن المدعوين ولا سيما السيدات قابلوه بتصفيق حاد . فمضى يغنى أغنية عاطفية شائقة النظم ، وينثر كلماتها فى رقة ورخاوة ودلال . فتأثرت السيدات بسحر جماله أكثر مما تأثرن برخامة صوته . فصحن هاتفات واقتدى بهن جميع المدعوين .

وكانت ربة الدار بهية هانم تتصدر ركناً من الصالون ، وحولها بعض صديقاتها ورهط من الشباب جلس بينهم رجل من ذوى الأملاك ينادونه باسم حلمى ويخلعون عليه رتبة الباشوية .

وكان « حلمى باشا » كهلا فى نحو الستين ، وخط الشيب شعره ، مكتنز الوجه ، داكن اللون ، حاد البصر ، متأنقاً ولكن فى ذوق سقيم ، تصرخ ربطة عنقه العريضة الحمراء على ثوبه البنى الفاتح ، وتلمع فى أصابعه فصوص خواتم ضخمة ، وتنساب على بطنه المتكرش سلسلة

ساعته الذهبية تنحدر منها دلاية مستديرة لا تنفك تمايل وتتطوح على وقع حركاته ... وكان لا يفتأ يطاب خمراً و « مزة » من الخادم . فيشرب الخمر وهو يمصها من الكأس مصاً ، ويلتقط المزة من الأطباق كأنه يختطفها ، ويضحك الوقت بعد الآخر فى قهقهة مدوية ، ويرشق من حوله بنكت معنوية نابية ، ثم يحس فجأة أنه قد جاوز حده ، فيسرع ويهتف للمطرب هتافاً مزعجاً متواصلا .

وكانت بهية هانم ترقبه خلسة وهى ممتعضة . فلما أتم مختار أغنيته واتجه الجميع نحوه مهنئين ، دنت منه بهية هانم واقتادته ورفاقه إلى البوفيه وهى تلحظه بنظر ثاقب وتقول له وكأنها تهمس أنهاتعرفه من زمن بعيد ، وأنها كثيراً ما شاهدته على مسرح الكازينو وأعجبت بصوته الشجى الرخيم . فأخذ مختار يتأملها فى وجوم ، ويرمق ذراعها البضة ، ويدها الرخصة ، وأعضاءها المتماوجة ، وعينيها الخضراوين المبتسمتين الوسنانتين ، وأناقتها الخلابة الرائعة .

ولم يكن مختار قد تصور أبداً أن فى العالم مثل هذا اللون من النساء . فنسى كل شيء . نسى أهله وأحبابه ، ومضى يعب فى وجه بهية هانم ، لا يعكر صفوه ويخنقه ويثيره غير صوت حلمى باشا الخشن الجهير ، وقهقهته السوقية المدوية .

وأحست المرأة أن الشاب متبرم ومأخوذ. فتحولت به وأجلسته بالقرب من زوجها ، ثم راحت تنعم النظر فيه كأنها ترشف سحر جماله وعذوبة انكماشه وخجله .

أيقنت أن هذا الفتى الذى يعيش فى وسط حافل بالنساء لم يعرف المرأة بعد ، وأنه بسيط النفس ، خالى القلب . فسألته فى عدم اكتراث ما إذا كان قد تزوج . فأجابها بالنفى . فعضت على شفتيها ، وتألقت عيناها الخضراوان تألقًا قريراً حالمًا .

ولما انتهت الوصلة الأخيرة ، انسلت بهية هانم إلى مخدعها ثم عادت واتجهت نحو مختار . وبحركة خفيفة لطيفة دست فى يده شيكاً وهى تعتذر إليه . فأراد أن يتكلم ويشكرها ، ولكنه ألفاها صامتة تحدق فيه . فعقلت نظرتها لسانه ، فانحنى أمامها انحناء بالغًا وهو يصافحها ، وانصرف فى صحبة زملائه ، والمدعوون يثنون عليه ، وحلمى باشا يصافحه فى حرارة مهنئًا إياه بصوته الخشن الجهير .

* * *

وخرج « الأستاذ » مختار ذاهلا مبهوراً ، تملأ نفسه عوامل الفخار والعزة ، ويسبح خياله فى صورة تلك السيدة العظيمة الكريمة التى لم ير لها بين النساء شبيهًا .

وفيما هو متجه نحو حارته ، أبصر الأسطى شعبان الكواء مقبلا عليه فى لهفة . ففتح ذراعيه وعانق صديقه الأثير . فقال له شعبان إنه سيحتفل بعد ثلاثة أيام بختان ولده الصغير « مدبولى » . فلم يتردد مختار ووعده بالغناء فى ليلة الحفلة ولا سيما أنه معفى فى تلك الليلة من الغناء فى الكازينو . فانصرف شعبان مبتهجًا ، ودخل مختار بيته وهو ما يزال يفكر فى المرأة التى سلبت نهاه .

وأثلج صدره أنه قد استطاع لأول مرة أن يظفر له ولفرقته بشيك قدره خمسون جنيهاً . فأسرع واشترى لأمه طرحة وملاية من حرير ، وقفطاناً شاهياً لأبيه الحاج بسيوني ، ثم بادر وفصل بدلة دفع قسطها الأول ، كما اشترى بالقسط أيضاً فونوغرافاً صغيراً وبعض أسطوانات شرقية لمشاهير الموسيقيين .

واستمع لنصيحة أمه فأخفى النبأ السار عن رفاقه خشية أن تصيبه العين . ولكن البدلة الجديدة والقفطان والفونوغراف لفتت أنظار أهل الحارة ، فطفقوا يتقولون ويتهامسون . فارتعدت فرائص الست نفوسة ، وأبت إلا أن تكتب لابنها حجاباً ، وتلبسه إياه ، وتبخر بيتها كل يوم فور سماعها أذان الظهر .

* * *

وأمضى مختار يومين مشتت الفكر ضائعاً ، يغنى فى الكازينو وكأن ليس هو الذى يغنى ، بل كأن صوته قد ازداد رخاوة وفتوراً ، وكأن ذلك الاختلاج الحى الذى ينشده فى غنائه لن يتحقق له أبداً .

وظل يتخبط فى كمد وحيرة ، ويتطلع فى يأس إلى حدث خارق يرد إليه ولو بعض الثقة فى قدرته وقواه ، حتى نودى عليه فى ظهر اليوم الثالث فى التليفون وهو فى المسرح . فما إن رفع السماعة وأصغى حتى تهدى إليه صوتها ، صوت بهية هانم تدعوه لتناول الشاى مساء فى منزلها .

واحتواه فرح لا يوصف ، وأسرع إلى المرأة فى الميعاد . فاستقبلته

السيدة فى ثوب أسود مزين بوردة كبيرة بيضاء ، واعتذرت له عن غياب زوجها ، وشرعت تحدثه عن فنه وحياته وهى تبتسم وتقدم له قدح الشاى وطبق الحلوى . فأفضى إليها بكل شىء . فشجعته ، وقالت إنها لا بد أن تعاونه وتأخذ بناصره حتى يبلغ ما هو خليق به من شهرة ومجد . ثم رفعت رأسها بغتة ، وصعدت نفسًا مستطيلا ، وسألت الشاب عما إذا كانت رخامة صوته ترجع إلى أنه اتصل بامرأة وعرف الحب . فعلت وجه مختار حمرة الخجل . فأدنت هى مقعدها منه ، ومالت إليه ، وصبت له فنجانًا آخر . فتهدلت خصلات شعرها ، ولاحت أمامه عيناها الخضراوان ، وذهب بلبه بياض صدرها الناصع حيث منبت نهديها ينبثق خطًّا دقيقًا مصوبًا كالسهم . فارتجف مختار وتراجع . فتراجعت هى أيضًا شبه تائهة ، وتنهدت وقالت إنها امرأة شقية ، وإن زوجها يهتم بلعب البوكر وسباق الخيل ويهملها وإنها فى حاجة إلى صديق ، فجاشت نفس مختار وهتف أنه هو الصديق ، وأقبل عليها . فتراجعت مرة أخرى كأنما هى تقاوم شعوراً ملك عليها قلبها وحواسها . فأكبر منها مختار تمنعها ، وأيقن أنها امرأة نبيلة وعفيفة تحبه وتغالب حبها . فاتقد فى صدره عشقه الطارئ الجامح لها ، ومد ذراعه بالرغم منه يحاول أن يعانقها . فارتدت عنه فى رفق مرة ثالثة ، ثم ترنحت كأنها لم تستطع مجاهدة عاطفة أقوى منها ، وارتمت عليه خائرة وتركته يضمها ويقبلها . وما إن قبلها حتى نهضت جزعة ومستنكرة ، والتمست منه أن ينصرف وتقدمته . فتبعها متوسلا . ولكنها صافحته وهى تضغط على يده ، وهمست فى أذنه أنها

ستتصل به ، ثم ابتسمت له ابتسامة كسيرة ، وأوصدت خلفه الباب .

* * *

وانطلق الأستاذ مختار فى شوارع حى الزمالك نشوان ذاهلا ، لا يستطيع أن يصدق أن مثل تلك المرأة قد أحبته وأنه قد قبلها . فازداد يقيناً أن حبها له قد غلبها على أمرها ، وأنها الحب والصدق والكمال مجسماً . فدخل بيته بعد أن فتحه بمفتاحه الخاص ، وراح يصفر ويدندن وينادى أمه الست نفوسة كى يضمها هى أيضاً إلى صدره ويقبلها . ولكنها كانت فى زيارة لصديقة لها . فجعل مختار ينتقل فى أرجاء البيت معللا نفسه بلقاء حبيبته ، واثقاً من أنها ستتصل به فى يوم قريب .

وفجأة دق الباب ، فأسرع مختار وفتح . بيد أنه جمد فى مكانه إذ أبصر أمامه فتحية .

ودخلت الفتاة التى كانت بالأمس تمرح وتضحك ، وتمشى وكأنها ترقص ، دخلت وئيدة الخطى ، ضامرة الوجه ، صفراء اللون ، محنية الظهر كأنما هى ترزخ تحت حمل ، ووقفت لحظة تجاه مختار صامتة . ثم قالت إنهم سيقرءون فاتحتها غداً على الخضرى الكهل الدميم المعلم أبو سريع ، وأطرقت وانتظرت ... انتظرت إشارة رقيقة ، كلمة رحيمة ، عبارة قد تكون شافية ومنقذة ... ولكن مختار ، مختار الذى أسعده القدر بحب امرأة عظيمة ، زهاه كبره ، وقسا قلبه ، وزايلته شفقته القديمة على الفتاة . فنظر إليها فى ترفع بل فى ازدراء .

نظر إليها نظرة المنتصر إلى المهزوم، والممتّع إلى المحروم ، ولم يتكلم ... لم ينطق ... فرفعت إليه الفتاة عينين زائغتين يائستين مخبولتين ، واستدارت مسرعة ، وخرجت وهي تجهش بالبكاء . فهز هو كتفيه وأشعل سيجارة. ثم ضاق ذرعاً بوحدته التي عكرت صفاءها فتحية . فأراد أن يتخلص من الفتاة ، أن يطرد خيالها ، أن يفكر فقط فى بهية هانم ويعيش معها حتى يلقاها . فترك البيت وهبط إلى الشارع وظل يمشى ...

ومشى طليق النفس ، مصعر الخد ، منتفخ الصدر ، ينظر إلى الناس مستعلياً عليهم ، مستهزئاً بهم ، موقناً بأن لا أحد منهم قد خالس النعيم الذى كان من نصيبه والذى سيرتع هو غداً فيه .

وقادته قدماه إلى طريق الهرم . وكان الوقت ليلا ، والنسيم عليلا ، والسيارات تغدو وتروح ساكبة من مصابيحها الكبيرة رشاشاً أزرق من الأضواء يلتمع الطريق فترة تحت بريقها الساطع ثم تكتنفه الوحشة والجهامة والظلام .

والتمع الطريق فجأة كأنما النهار قد لاح . فتوقف مختار وانتفض ولم يعد يدرى أين هو . ماج به كل شيء . تلاحقت أنفاسه . توترت أعصابه . فغر فاه كأبله . خيل إليه أنه لا بد أن يكون أعمى . ولكنه لم يكن أبداً حديد البصر والبصيرة كما كان فى تلك اللحظة ... رآها ... رآها رأى العين ... هى ... هى نفسها ... بهية هانم ... المرأة العزيزة الشريفة النبيلة التى غلبها حبها له على أمرها والتى كانت تئن وتزفر بين ذراعيه منذ ساعات ، رآها منطرحة فى جوف سيارة ، محلولة

الشعر ، مكشوفة الصدر والذراعين ، ورأسها مسند فى نشوة إلى كتف الرجل الوضيع ، الرجل الحقير ، الرجل الدنىء ، حلمى باشا الذى كان لا يفتأ يلثم وجهها وشعرها وهو يبتسم ابتسامة الظافر الساكن المطمئن . . .

واختنق مختار . تفطر قلبه وتخاذلت ركبتاه وكاد أن يسقط . بيد أنه أبصر السيارة تقف بجوار أحد المقاهى المنتشرة فى الطريق . فتماسك وأسرع واحتجب خلف باب إحدى العمارات . فأخذت عينه المرأة والرجل يدخلان المقهى . فغلى الدم فى عروقه ، ونهشته الغيرة، وهم بأن يبرز من مكمنه ويندفع لينتقم ويتشفى . ولكنه خشى أن يفقد صوابه فيشهر بالمرأة ويعتدى على الرجل . فتهاوى على مقعد بواب العمارة وانهارت قواه .

أيقن أن حبه الأول المؤمن الواثق البرىء قد تحطم ، وأن بهية هانم قد ضاعت منه إلى الأبد ، وأن من المستحيل عليه أن يسعى فى الغد إليها وإلا كان كمن يسعى إلى بؤرة يعيث فيها ديدان . ولكن كيف يمكنه بعد اليوم أن يعيش... بل كيف يمكنه الآن أن يتنفس ويغنى ؟... الليلة ليلة الاحتفال بختان ابن صديقه . . . ولقد وعد ولا بد أن يغنى ... المدعوون فى انتظاره ، والأسطى شعبان لن يغفر له أبداً أن يخلف الوعد ! ...

وتحامل على نفسه مكرهـاً واستقل سيارة .

وكانت الحارة مضاءة بالكلوبات ، غاصة بأهل الحى الجالسين على الدكك ، يضحكون ويصخبون ويتراشقون بالنكات وهم يستمعون إلى

شاب وقف على منصة وجعل يعزف على الأكورديون ...

وما إن ظهر مختار حتى تعالت الأكف بالتصفيق والحناجر بالهتاف فاختفى عازف الأكورديون ، وأرسل مختار فى طلب عوده ، ثم اعتلى المنصة التى وقف بالقرب منها الأسطى شعبان ، يبتسم للمدعوين فى اعتزاز ، ويحيى « المعلمين » منهم ، وهو يحمل على منكبه مدبولى ابنه الغالى ، ويلوح بذراعه ويصيح : « سمع هس ... اللى يحب النبى يسمع ... »

وبرح بمختار العذاب ، ولم يحتمل ـ أراد أن يفر من نفسه ، أن يطلق قلبه من عقاله ، أن ينفث الدم الجاثم فى صدره ، أن يشرك الناس فى لوعته وأساه . فانطلق يغنى دوراً لسيد درويش ويقول :

« كنت افتكر حبك يزودنى كمال
خيبت ظنى
والهوى ما جاش سوا
خيبت ظنى ! ... »

وكانت اللوعة فى صوته صادقة ، والحسرة حارقة ، والأنين ممزقاً ، والنبض المختلج الذى طالما تلهف عليه ينبعث من نغماته حياً خالباً . فالتهبت مشاعر الجمهور ، واستلبه التأثر والطرب ، فطفق يصفق ، ويهتف هتافاً لم يقابل به مختار أبداً . وكانت أمه الست نفوسة مستوية على شرفتها تكسو فمها بطرحتها وتزغرد . وكانت فتحية البائسة تطل من شباكها ودمعها يسيل . فأحس مختار حيال روعة انجذاب الجمهور

وتأثره ، أن ما كان فيه خامداً قد اشتعل ، وأنه كان صانعاً فأصبح فناناً ، وأن الجمرة التى تتقد فى صدره هى الينبوع الذى سيتفجر منه فى الغد مجده . ولكنه فى اللحظة نفسها ، وبرغم ما أحرز من تفوق ، أحس أن فنه لم يزل ناقصاً ، وأن إعجاب الجمهور لم ينقع غلته ، ثم أحس شيئاً عجيباً ، شيئاً قاهراً . أحس أنه الآن ، الآن ، يريد أن يخلق ، أن يُبدع ، أن يطلق أنغاماً عظيمة أخرى ما تزال محتبسة ومحتدمة فى صميم كيانه . فاعتذر إلى صديقه بتعب طارئ ألم به ، ولم يكترث لإلحاح الجمهور وهتافه ، وحمل عوده وانسل إلى بيته وأوى إلى حجرته . وفى هدأة الحجرة تفتحت مغاليق ذهنه ، وانصب عليه بغتة سيل من نور . . . أدرك مختار أن ما صوره الساعة فى غنائه كان اللوعة والحسرة والأنين فقط . ولكن أين هو وجدانه الخفى ، أين هى سائر المشاعر التى اضطرم بها قلبه الجريح ، أين فجر حبه الزاهر ، وليل أحلامه الضائعة ، وقسوته على فتحية المسكينة ، وحقده على المرأة الخائنة ، وغيرته الوحشية من غريمه ، ونية الاعتداء والانتقام التى تمشت فى عقله وعروقه ودمه . . . لم يكن فى صوته ولا فى الدور الذى غناه أى شىء من هذا ... كل هذا أراد أن يعبر عنه بالموسيقى ، أن يبعثه ويصوره ، أن يبدعه فى لحن فذ جديد شامل . فعاجل العود جهده ولكن العود خانه هو أيضاً . كانت نغماته هى نفس نغمات كل أداة موسيقية شرقية ، نغمات شاكية نائحة رتيبة محدودة ، لا يمكن أن تؤدى العوامل المتضاربة التى تعتلج فى حنايا النفس وتستعر فى أعماق الروح

فتملك مختار الحنق . فأمسك بالعود ورفعه وهم بأن يضرب به الأرض ليحطمه . ولكنه ألقاه جانبًا ، وراح يفكر فى اللحن الشامل الفذ الذى تصوره خياله . راح يفكر منجذب العقل والقلب والحواس ، وظل يفكر لاهثًا حائراً متخبطًا ، وهو يتنقل فى الحجرة ، ويدور حول نفسه كمجنون . . .



الشيخة منذورة



كان الجميع يشفقون عليها ، ويرددون أنها عاطلة من كل حسن يميزها ، وأنها قد جاوزت الثلاثين وأمست عانساً ، وأن هذا هو الحظ الذى كتب لها .

والواقع أن « مندورة » كانت فتاة شاحبة اللون ، خامدة السمات ، ذات وجه مغضن مربد ، وعينين ضيقتين ، وخدين غائرين ، وفم عريض غليظ ناتئ الأسنان .

وكانت كغيرها من الفتيات قد حلمت بالحب والزواج طويلاً ، ولكن تعاقب الأيام عليها ، ونفور الشبان منها ، والحظ السعيد الذى أصابته أخواتها الثلاث ، كل هذه العوامل أيأستها وألقت فى روعها أنها لم تخلق للحب والأمومة كبقية النساء .

والعجيب فى أمرها أن حظها العاثر لم يُحفظها أبداً على غيرها. فالحسرة العميقة المريرة لم تتطرق إليها ، والغيرة الخبيثة الشريرة لم تعرف سبيلاً إلى قلبها . فلكى تجد منصرفاً لعواطفها ، أنكرت ذاتها ، وودعت شبابها ، وأقبلت بكل قواها على مختلف ضروب العبادة والتقوى. اتشحت بالسواد من قمة رأسها إلى أخمص قدميها . تباعدت عن الرجال والشبان جهدها ، وشرعت تصوم وتصلى ، متجهة بعقلها وقلبها نحو أمل واحد هو أن تحج بيت الله وتزور النبي الحبيب وتسعد .

وكانت تقرأ الأدعية والأوراد للتكفير عن الذنوب والاستكثار من

الحسنات ، وتتحجب بالمصحف الشريف ، وتولع باستخدام البخور فى الأيام العشرة من المحرم . وإذا مات جار أو قريب ، قرأت هى القرآن على النساء صباحًا . وإذا كان الأول من رجب أسرعت إلى المدافن ووزعت الفطير والشريك والفاكهة على روح الفقيد . وإذا فاضت بها لواعج الشوق إلى الملأ الأعلى، أوصدت عليها باب حجرتها، وجعلت من الحجرة خلوة كخلوة الصوفى تكثر فيها من التأمل وذكر الله .

وأطلقت عليها الجارات لقب « الشيخة مندورة » . فكن يرحبن بمقدمها ، ويتبركن بها ، ويفزعن فى الملمات إليها ، ولا يقطعن بأمر خطير إلا بعد استشارتها والتأكد من رضاها .

وأضفى الإيمان على مندورة حلة غريبة من وقار ، تراءت فيها بغتة بعض أضواء خاطفة من جمال

أثر إشراق روحها فى ظلمة جسمها ، ولطف صفاء نفسها من دمامة وجهها ، وسكبت عليها العفة الشامخة المقرونة بالتواضع ، ظلاً من الملاحة عذبًا فاتراً .

وكانت سعيدة . ومع ذلك فقد كان فى قلبها شىء يتألم بالرغم منها، وفى خيالها شىء ما يزال يحلم ويدهشها ... كانت فى غمرة الصوم والصلاة ، ما تفتأ تهفو إلى الزواج ، وتصبو إلى الأمومة ، وتنزع إلى الحياة . على أنها لم تصارح نفسها بهذا الإحساس أبداً ، بل لقد حاولت على النقيض أن تنساه ، خشية أن يغرر أيضًا بها ؛ ويضاعف الألم الخفى الذى تحمله فى صدرها .

وظلت مندورة هكذا تتأرجح بين قسوة اليأس ومجاهدة الأمل ، حتى ابتسم لها الحظ ووقع عليها بصر شوكت أفندى ...

وكان شوكت زميلاً لوالدها فى الديوان ، وكان يزوره فى بيته ويسمع عن مندورة دون أن يراها . ففى ذات مساء ، وبينما هى تصلى ، دفع شقيقها الطفل باب حجرتها ، فلمحها شوكت اتفاقاً ، وأعجب بها . راعه منها جلال مظهرها ، وقدس هيبتها ، وسحر صمتها ، وجو الراحة والسكينة المنبعث منها . فأخذ بها ، وأعرب عن رغبته فى أن يراها ويتحدث إليها توطئة للزواج بها .

وكان شوكت أفندى كهلا عزباً فى نحو الخمسين من عمره ، بدين الجسم ، جاحظ العينين ، متكور البطن ، يتهدل لحم ذقنه على صدره ، وتهتز طياته الثقيلة كلما تحدث أو تلفت أو استرسل فى الضحك الطويل كالأطفال .

والحق أنه كان على ضخامة بدنه ، طفلا ، سريع الحركة ، خفيف الروح ، برىء النفس ، ساذجاً طيباً رقيقاً . فلما أعلن عزمه على الزواج بمندورة ، اضطرب والدها ، وشكا إليه غرابة أطوارها ، وحذره من نفورها وتمنعها . فأصر شوكت على أن يراها ويحادثها . فبرزت إليه مندورة ، تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، محدقة بعينين ذاهلتين إلى هذا الرجل الوحيد الذى سمعته يطلبها ...

وجلست إليه مشدوهة العقل ، مسلوبة اللب ، لا تصدق سمعها ،

ولا بصرها ، ولا تلك الفرحة الطارئة العميقة التى غافلتها واستقرت بغتة فى صميم أحشائها .

وخيل إليها أنها ما تزال تحلم . أحست كأنها توشك أن تموت . ثم حانت منها التفاتة ، فأبصرت شوكت يضحك ، وطيات ذقنه تهتز ، وكرشه الكبير يتوثب ، وعيناه الجاحظتان تدوران وتلمعان كعينى طفل . فتفرست فيه ، فضحك أيضًا لها . فاطمأنت إليه ، وشعرت براحة غريبة تندفق منه وتسرى فى كيانها .

ولاطفها كما يلاطف المحب حبيبته . داعبها فى رقة ، وغازلها فى أدب . فنظرت إلى نفسها ، وتحسست وجهها ، وهجس فى روعها أنها لم تعد مندورة ، وإن شيئًا خارقًا عجيبًا قد أصابها ...

واستمهلها شوكت شهراً كى يعد المهر ويشترى الشبكة ويتهيأ للخطبة والزواج . ثم أقبل على الأسرة ، وانخرط فى سلكها ، وطفق يزور البيت كل مساء .

وكان يفد إليهم مثقلا بالهدايا . فتارة يحمل الموز أو التين أو الرمان ، وتارة بطيخة بلدية كبيرة ، أو كمية محترمة من الكنافة ، أو قرطاسًا عظيمًا يبرق فيه البلح الأحمر الزغلول النابض بالحب والحياة .

وكانت مندورة تستقبل شوكت فى لهفة ، وتجلس إليه فى فرح ، وتحادثه فى رقة ناعمة خفرة ، لا يلبث أن ينعشها الزهو وتلهبها الخيلاء .

وشيئًا فشيئًا ، وعلى مر الأيام ، تألق محيا مندورة . التمعت عيناها ، وامتلأ خداها ، وتقلصت غضونها ، وانسجمت تقاطيع وجهها الدميمة

انسجاماً أثار العجب والدهشة فى جميع من حولها .

وطرحت مسوحها السوداء ، وارتدت أثواباً جميلة ، أثواباً حديثة ، أثواباً تكاد بألوانها الزاهية أن تصرخ بالفوز وتهتف بالهناء ــ ومع ذلك فقد كانت غائبة عن وعيها .

كانت تستيقظ على دعوة الحياة وهى تائهة . كانت ما تزال حائرة وذاهلة وغير مصدقة ، حتى وقع حادث بسيط أشعرها بعظم الانقلاب الذى طرأ عليها .

دخل شوكت ذات مساء ، ودنا منها ، ثم قدم إليها فى ابتسامة صبيانية فاتنة بضعة أعواد من التمر حنة ... وفى تلك اللحظة نفسها ، وبينما هى تتأمل الأعواد وتتنشق عبيرها ، تصاعد فى الشارع صوت بائعها يدوى فى الفضاء : « التمر حنة روايح الجنة ... » فترنحت مندورة ، ونظرت إلى شوكت ، وتلفتت إلى المرآة بالرغم منها ... وفجأة ، ولأول مرة فى حياتها ، لأول مرة منذ فوزها ، أبصرت نفسها جميلة وساحرة . فخفق قلبها ، وتعاقبت أنفاسها ، واستندت إلى شوكت كى لا تقع مغشياً عليها .

ولما ردد البائع : « التمر حنة روايح الجنة .. » ، تفتح ذهنها ، فعرفت حقيقتها ، ولمست يقظتها ، وشعرت شعوراً دافقاً غامراً أن شوكت قد بعثها ، وحملها بالفعل إلى رحاب الجنة ...

وتنشقت عبير الأعواد ملء رئتيها . ولكنها لفرط ما طوحت بها النشوة ، رفعت رأسها فى كبر ، وصعرت خدها فى اعتزاز ، وآمنت

إيمانًا راسخًا بأنها قد تغيرت وتطورت واستحالت إلى امرأة أخرى .

ومنذ ذلك اليوم تبدلت أخلاقها ...

نظرت إلى شوكت من عليائها . رمقته بنظرة فاحصة ، وتقطب جبينها . غاظها منه وجهه المتغضن ، وكرشه المتكور ، ولحمه المتهدل ، وضحكه الصاخب الصبيانى السخيف .

استنكرت مظهره ، واستثقلت حديثه ، واستغربت منه كيف يحمل جسم عملاق ورأس طفل .

وقارنت بينه وبينها فدهشت ... عز عليها أن تكون زوجًا لمثله . فتبرمت به ، وتجهمت له ، وتدللت عليه ، وغافلته وبدأت تنظر إلى الشباب ...

وكان لزوج أختها الصغرى شقيق فى مقتبل العمر يدعى «ممدوح»، لم يجاوز الخامسة والعشرين ، مشرق الطلعة ، جم الفكاهة ، حلو الحديث فتقربت إليه منذورة ، وراحت تغازله ...

وكان النصر قد أحياها . ألهب أنوثتها ، وأطلق غرائزها، وحباها بضرب من جمال تجتمع فيه الرصانة بالخفة ، والتردد بالجرأة، والوقار بالطيش . فهام بها ممدوح ورأى فيها المرأة الناضجة التى ينزع إليها خيال كل شاب .

ولم تكد تشعر أن الفتى قد أحبها ، حتى تاه عقلها ، وختم الفوز الجديد على بصرها ، فانصرفت بجمع قلبها إلى ممدوح ، وأعرضت بجُمع كبرها واحتقارها عن شوكت .

وباتت تخاف العين وتخشى الحسد ، تخشى أن يحسدها إنسان على حب ممدوح . فكانت عندما تُبخر حجرتها تضيف إلى البخور بعض « الشب » فيحترق الشب متخذاً شكل مخلوق غريب . فتهتف مندورة أن هذا هو الحسود بعينه ، وأنه قد تلوى الساعة فى النار وارتد كيده إلى نحره .

ولما كان يشتد بها التلهف على الحبيب الشاب ، كانت تجىء بحجر من الزلط الرمادى الهش ، تسميه جاراتها حجر الحب ، وتضع الحجر فى الماء فتنحلل منه مادة بيضاء . فتسرع هى ، وتغافل أهلها ، وترش من هذا الماء على عتبة البيت . فإذا ما أقبل ممدوح وخطا على الماء ، أيقنت أنه سيظل مولعًا بها ، وأنه لا بد أن يتقدم وشيكًا ويطلبها .

وهكذا تبدل كل شىء فيها . فتمزق فؤاد الكهل شوكت ذلاً وحسرة . فانطوى على نفسه ، وأرجأ مكرها موعد الخطبة ، وطفق يتسلل من البيت ليفسح لغريمه الطريق ...

وبهت أهل البيت وروعوا . ولكن مندورة لم تحفل ، وارتمت شبه مخبولة فى غمرة حبها الجديد .

وكانت نشوة طاغية لم تحلم أبداً بها . كان نصراً مزدوجًا لم يجر قط فى وهمها . كان تفوقًا رائعًا لم تظفر به عانس قبلها . فاضطرب عقلها ، وتشوش فكرها ، وفقدت بغتة ملكة الحكم على نفسها .

أسرفت فى التسلط كما أسرفت فى الحب . ما زجت حبها قسوة غلابة عاتية ، ورغبة فى الاستئثار عنيدة متهافتة .

أرادت أن تُخضع ممدوح ، أن تأسره ، أن تحوزه ، أن تغيبه فى ذاتها بحيث لا تكون إلا له ولا يكون إلا لها . فأمعنت فى الغيرة عليه ، وأغرقت فى الاستبداد به ، وتورطت فى تذوق حلاوة امتلاكه وتعذيبه وهى بعد لم تصبح خطيبة له ...

وأفاق الفتى من غشيته ورآها ... لم ير فيها الحب بل الكبر ، ولا الخير بل الشر ، ولا الجمال بل القبح ؛ فانخلع قلبه ، ولم يجد بدًّا من الفرار . فانطوى هو الآخر على نفسه، وطفق يتسلل من البيت ليفسح لغريمه الطريق ...

وعندئذ تزعزعت أعصاب مندورة وأوشكت أن تفقد البقية الباقية من صوابها .

همت بأن تسعى إلى الشاب ، أن تتوسل إليه ، أن تترامى عند قدميه وتستصرخه للرحمة والمغفرة . ولكن شعورها بما كان لسلطانها عليه من قوة ، أشعل كبرياءها ، وألقى فى روعها أن الشاب لا بد أن يعود صاغراً إليها . فأبت أن تهدر كرامتها ، وآثرت أن تنتظر . فانتظرت طويلاً ، وتعذبت طويلا ، ولكن على غير جدوى .

ولما برّح بها اليأس ، وألفت نفسها وقد حرقتها اللوعة ، وسحقتها الحسرة ، وافترسها الكمد ، تواجه فجأة فراغ قلبها ، وترتد فى مثل خطف البرق إلى وحدتها المظلمة ، ارتعدت فرائصها ، وتبددت كبرياؤها ، وعادت فاستقدمت شوكت ، وأقبلت عليه ملهوفة ومتواضعة .

وكان ذلك فى ليلة من ليالى الصيف ، والقمر فى تمه ، وضوؤه الساطع ينصب من النافذة ويغمر وجه شوكت .

وتقدمت مندورة فى بهرة الضوء وابتسمت ... ابتسمت لشوكت ، فأسرع إليها ، وأمسك بيدها ، ولبث يحدق إلى عينيها كالعابد المذهول .

وفى تلك اللحظة دوى فى الشارع صوت بائع التمر حنة. فأومأت إليه الفتاة بأصبعها . فأدرك الكهل مرادها ، وانطلق من فوره، ثم عاد يحمل إليها الباقة وهو يلهث .

وتناولت مندورة أعواد التمر حنة ، وراحت تتأملها فى بطء وتتنشقها. ولكنها أجفلت وتراجعت ثم ردتها .

لم تحس للأعواد أى عبير ... لم تر فيها أى جمال ... لم تشعر على الإطلاق بأن فيها شيئاً من روائح تلك الجنة الخالدة التى حملها إليها بالأمس شوكت ... وتفرست فيه ، فرأت لحمه المتهدل ، وكرشه المتكور ، وعينيه الجاحظتين . فذكرت ممدوح ، وذكرت جماله ، وذكرت شبابه ، وصرخت فى صوت حانق وهى تلقى بالأعواد ، وتدفع شوكت كأنما هى تطرده :

ــ أبداً ... أبداً ... لن أتزوج أبداً !

فتطلع إليها الكهل ذاهلاً مبهوتاً وخيل إليه أنها قد جنت !

* * *

وعادت مندورة الشيخة إلى منسكها ، واتشحت بالسواد من قمة

رأسها إلى أخمص قدميها ، وعكفت على الصوم والصلاة وحياكة الجلاليب والفساتين لجاراتها ، كى تجمع قرشًا على قرش ، وتحقق الحلم الأمثل الذى أصبح وحده غاية حياتها ، وهو أن تحج بيت الله الحرام وتزور النبى الحبيب وتسعد ! ...



شيطان المساء



كانت « الست مشيرة » امرأة وديعة وطيبة ، مؤمنة وتقية، صافية النية ، خالصة السريرة ، لا تستطيع أن تكره أو تحقد أو تلحق الأذى بمخلوق . فما الذى طرأ عليها فجأة ؟ ... لقد تسهدت ليلة أمس وأضناها التفكير الطويل . فهبت من فراشها فى صميم الليل وظلت مؤرقة تفكر ، ثم عادت ورقدت ، ثم لاح ضوء النهار ، فنهضت وتوضأت وأدت صلاة الصبح فى وقتها .

وحاولت النوم . ولكنه استعصى عليها . فأخذت تروح وتغدو فى غرف البيت مذهولة وشبه تائهة ... هالها ما انتابها فجأة من تبدل غريب . هالها شعورها بأنها لأول مرة تكره ، ولأول مرة تحقد . فأسرعت واستغفرت ربها عما ساورها من نزعات السوء ، ثم تلفتت وأنعمت النظر فى « جلال » أنعمت النظر فى زوجها وهو يغط فى نومه وارتعدت فرائصها ... كيف وقع هذا ، ومن ذا الذى كان فى وسعه أن يتصور حدوث شىء مثل هذا ... إن زوجها ، زوجها الذى كان بالأمس مثال الورع والتقى ، يستمسك بشعائر الدين ويحرص على تأدية فروض العبادة فى مواقيتها ، زوجها الكهل الذى أشرف على الستين واضمحلت قواه وأوشكت الشيخوخة أن تعصف به ، أمسى وكأنه قد فقد البقية الباقية من عقله ، ينزع إلى الحياة ، ويتوق إلى الدنيا ، ويخالس حباً محرماً ،

حبـًّا منكراً وأثيمـًا ، ممثلاً في مَن؟ ... في شخص « إلهام » ، ... في ابنتها ... ابنتها من زوجها الأول المتوفى ... ابنتها الصبية الجميلة التي لم تناهز بعد ربيعها العشرين ! ...

والعجيب أن جلال الذى لم يعقب خلفـًا ، هو الذى ربى تلك الفتاة اليتيمة ، وهو الذى تعهدها بعنايته أكثر من سبع سنوات ، وهو الذى كان يحبها حب والد لولده . بيد أن الفتاة لم تكد تشب وتترعرع وتزدهر أنوثتها فى كيان غض نضير ، حتى تغيرت نظرة الرجل إليها ... أصبح يحادثها وهو خائف ، ويلاطفها وهو مذعور ، ويتفرس فيها وهو مبتهج وذاهل ، كأنه حيال قوة ملكت عليه مشاعره واستقرت من جسده وروحه فى الصميم ! ... أجل . لقد استغرقته عاطفته ، واستبدت به نشوته . فبات يتخبط كأعمى ولا يفكر لحظة فى ما يمكن أن تكون عليه حياته ، وما يمكن أن ينتهى إليه مصيره ومصير امرأته لو فوجىء بالضربة القاصمة ، وتزوجت إلهام ، واختطفها منه رجل غريب ...

وأرسلت الست مشيرة أنة مخنوقة ، وهتفت لنفسها وهى ترتجف : رجل غريب ؟ ... إن غريمه ليس بالرجل الغريب . . . إنه شقيقه ... إنه شاب ... إنه « عاطف » ... شقيق زوجى ... هو أيضـًا يحب ابنتى . وهى تحبه . وكلاهما لا ينشد فى الحياة أكثر من أن يكون زوجـًا لصاحبه ... فالأخ الأكبر يعشق الفتاة ، والأخ الأصغر ينازعه فيها . ولسوف تدنو الساعة المرهوبة ويصطدم الشقيقان . وعندئذ تهرع ابنتى الوحيدة إلى أنا وتلتمس منى أن أنقذها . فماذا يجب على أن

أفعل ، وأى السبل يجب أن أسلك ؟ ! ... لا ... أبداً ... لن تتزوج إلهام بشقيق زوجى ! ... لن تتزوج عاطف وإن كانت تحبه ... يجب أن تبتعد عنا ... لقد طلبها « مصطفى » ويجب أن تقترن به وتتبعه خارج القطر حيث يعمل ... أما أنا فلن أشفق عليها وإلا حطمت حياتها لو بقيت هنا .... إن واجبى اليوم أن أسرع إلى مصطفى ، أن أحثه على الثبات فى وجه زوجى ، أن أعده وعداً قاطعًا بأنى لن أقبل غيره زوجا لابنتى ! ...

وصعدت الست مشيرة نفسًا مستطيلا ، وانسلت إلى الفراش بجوار زوجها ، ولكن النوم كان قد امتنع عليها ، فظلت تتمتم ببعض الأدعية والأوراد وهى ساهمة شاردة .

وفجأة تبدد الصمت حولها ، وترامت إليها من راديو جارهم المدرس الأستاذ عبد الرحيم ، أصداء أغنية مرحة مجلجلة ، تنشدها مطربة يتقد فى صوتها العذب نداء الأمل وفرح الحياة . فانبعثت من صدر الست مشيرة تنهدة عميقة أعقبتها زفرات ، وجاشت فى نفسها الحسرة على حظها التاعس وشبابها الضائع . فملكها الأسى ، وأوشكت أن تطفر من عينيها الدموع .

* * *

ولم يكن على زوجها أن ينهض مبكراً إلى عمله فى الوزارة. فاليوم كان يوم جمعة . فلبث فى الفراش بمفرده ، يتقلب ويتمطى حتى ساعة متأخرة من الصباح . وبغتة فتح عينيه شبه ملهوف وصفق . فأسرعت

إليه الست مشيرة . ولكنه لم يكترث لها ، وصفق أيضاً ونادى إلهام . . .
فأقبلت الفتاة حاملة صينية عليها قدح الشاى وأطباق الفول والجبن والمربى.
فنظر جلال إلى الفتاة وتألق وجهه المغضن ، وانفرجت شفتاه الغليظتان عن ابتسامة كبيرة مهللة ومرحبة ... وطوق الفتاة بذراعه فى رفق ، وأجلسها على الفراش بقربه فى حنان . وطفق يشرب ويأكل ويدعوها إلى مشاركته ، وهو يشخص فى بهجة وطرب إلى عينيها السوداوين الساحرتين، وجدائل شعرها المشوش الغزير ، وجبينها الساطع ، وخدها اللامع ، وبدنها اللين الغض الذى كانت تهزه ضحكاتها البريئة فيتماوج ويتثنى أشبه بغصن تداعبه هبات النسيم . أما الست مشيرة التى كانت قد ارتدت ثوبها الأسود وتلفعت بطرحتها السوداء وتهيأت للذهاب إلى بيت مصطفى ، فقد كانت تسارق زوجها النظر وهى مطرقة ، تعض على شفتيها ، وتزفر وتتصعب ، وتحول وجهها نحو الباب كى لا تسمع ولا ترى .

وضاق زوجها ذرعاً بتلكؤها وصاح : إذا كان فى نيتك الذهاب لزيارة فلا تتأخرى ... أما أنا فلن أخرج ... سأبقى ... سأبقى هنا فى صحبة إلهام ...

فحزت الكلمات فى صدر المرأة وجمدت . أما جلال فعاد يلاطف الفتاة ، ويجذبها إليه فى خفة ، ويدس فى فمها قطعاً صغيرة من الخبز محشوة بالمربى ، والفتاة تلتهم القطع وتضحك ، وهو يضحك لضحكها ولا يفتأ ينعم النظر فيها ويتأملها . فلم تستطع الست مشيرة احتمال المشهد وكبح سخطها . فصرت على أسنانها ، وشددت من عزيمتها ، وأسرعت



بارتداء معطفها وهمت بالخروج .

وفى تلك اللحظة ، سمع طرق على الباب ، وصوت مألوف يستأذن بالدخول . فكفت إلهام عن الضحك ، واكفهر وجه جلال ، وأجفلت الست مشيرة وقطبت حاجبيها . ولكنها بعد أن تنهدت وتصعبت ، تقدمت كارهة وموجسة وفتحت الباب .

وكان القادم هو شقيق زوجها ، هو عاطف .

ودخل الشاب ثابتاً متمهلا . وما إن أبصر إلهام قرب الفراش الذى استوى عليه شقيقه ، حتى تقبضت عضلات وجهه وارتجف . بيد أنه تمالك نفسه ، وحيا الجميع فى ابتسامة مغتصبة . ثم رمق إلهام بنظرة معنوية عازمة ، وارتمى على معقد ، وقال لأخيه وهو يشعل سيجارة : أظنك لن تخرج اليوم ... أليس كذلك ؟ ... لى إليك حديث . ولقد انتهزت فرصة العطلة لأخلو طويلا بك .

فلمعت عينا إلهام ، ووثبت من فرط الفرح ودخلت مخدعها . أما الست مشيرة فهزت رأسها ، ومشت إلى الخارج كأنها تزحف . ولما أوصدت الباب على زوجها وأخيه ، آلت على نفسها أن تبقى وأن ترجئ زيارتها لمصطفى . فلم تتحرك ، وظلت حيث هى . ومضت ترهف السمع ، وقلبها يخفق ، وأنفاسها تتعاقب ، وعزمها الباتر يقر فى نفسها الصبر والتجلد والهدوء .

* * *

وتطرح عاطف على مقعد وجعل يحدق إلى شقيقه تحديقاً فاحصاً . ثم

قال فى صوت جهير وهو يشتف من سيجارته فى بطء ويرسل ذوائب دخانها فى الفضاء : لقد عدلت ... عدلت عن الزواج بإلهام ! ...

فبهت جلال ، ثم أبرقت أساريره . ولكنه لم يصدق سمعه وأراد أن يستوثق . فلم يمهله الشاب وأردف : فكرت طويلا فيما قلته لى أنت أول من أمس ... لذلك عدلت ...

فارتمى جلال على أخيه كأنه يريد أن يعانقه وهتف : صحيح ؟ ... ألم أقل لك ... كيف كان يمكنك أن تعيش مع إلهام لو تزوجتها ؟... أمثالك يمكن أن يعيش معها ؟ ... مع امرأة لم تتلق غير قشور من التعليم ، جاهلة وخاملة وقعيدة بيت ؟ ... أنت اليوم محام ناشئ وممتاز ، ولا بدّ أن تشتهر غداً وتنفتح أمامك أبواب أرقى الأسر والمجتمعات . أنت فى حاجة إلى امرأة ترفع بها رأسك . امرأة مستنيرة ومثقفة مثلك ... إن إلهام تصلح لغيرك ، أما لك أنت فحرام ... حرام ... وأنا أحمد الله من صميم قلبى على أنك تعقلت يا عاطف وعدلت ...

والتقط أنفاسه وهو جذلان وصاح : ألك فى قدح شاى ؟ ...

فعاجله الشاب بنظرة كاسرة ، وقال وهو يشير إلى الحائط ، والحقد يدوى فى صوته : انظر ... أليست هذه مرآة ؟ ... إن غاية ما أطلب منك هو أن تتحول فترة وتنظر فى المرآة ...

فابتسم جلال مستغرباً وقال : ماذا تعنى ؟ ...

فأجاب عاطف : انظر ... انظر إلى وجهك وعينيك وشفتيك ... ما رأيت فرحة مرتسمة على وجه إنسان كالفرحة التى أراها الآن مرتسمة

على وجهك . . . ولكنك لن تنعم بهذه الفرحة طويلا يا جلال . لن أدعك تنعم بها على حساب مخلوق طاهر برىء مسكين ...

واستطرد على الفور وهو يهدر : لقد ضللتك ؟ . . . أتسمع ؟ ... ضللتك لأفهمك تماماً . . كنت مع كل ما لاحظته عليك أريد أن أكذب ظنى فيك ، ولكنى الآن وثقت وتيقنت ... أنا ما زلت أحب إلهام ... وما جئت اليوم إلا لأطلب يدها .. لا منك أنت بل من أمها صاحبة الحق الأوحد عليها . لقد خرجت وسأنتظرها !

فامتقع وجه جلال امتقاعاً مروعاً ، وأمسك بأخيه ، وقال وهو يرتعش ودمه يغلى : كنت تخدعنى إذن وتنافق ؟ ... ولكنى لن أعطيك إياها ... الفتاة يتيمة الأب وأنا اليوم والدها . أنا الذى كفلتها وربيتها ، ولن أزوجها بشاب ما يزال غامض المستقبل والمصير .

فدفعه عاطف وقال وهو يوشك أن يضحك : كنت تقول العكس منذ لحظة ...

فاختلج جلال وردد : لن تأخذها ... لن تأخذها ...

واحتبست الكلمات فى صدره وكاد أن يختنق . ولكنه اندفع وصاح : لو تم ذلك ، فسأنفض يدى . .. أتفهم ؟ . . . سأنفض يدى من كل شىء ... من البنت والأم على السواء ؟ ...

فجحظت عينا عاطف وقال : تهددنى بطلاق امرأتك لتحرجنى . . . لتقهرنى ؟ ... أإلى هذا الحد بلغ بك هوس الغيرة وجنون الحب ؟ ...

فتراجع جلال مستنكراً وتمتم : ماذا ... ماذا تقول ؟ . . .

فصرخ عاطف فى وجهه : أنت تحبها ... نعم ... لا تحبها كوالد بل تحبها كرجل . رجل حسي شهوانى لا قلب له ولا ضمير . لماذا كنت وما تزال تبذل المستحيل لتصرف الخطاب عنها ؟ لماذا كنت وما تزال تستخدم كل ذكائك وخبثك لتضع العراقيل فى طريق زواجها ؟ لماذا كنت وما تزال تهمل امرأتك التاعسة المنكودة وتهتم بإلهام وحدها ؟ بل لماذا أصبحت اليوم تكرهنى أنا ... أنا شقيقك ، وتأبى إلا أن تمنع زواجى بها ؟ ... أنت تحبها ... أنت أعمى عن كل شيء ما خلاها هى ... فماذا ... ماذا تريد ؟ ...

واشتد هياج عاطف وأردف : أتريد أن تعطل ما استطعت زواجها لتستدرجها فى غد وتغويها وتتخذ منها خليلة لك ؟ ... بنت زوجتك تصبح يوماً خليلتك ! ... أى رجل أنت ، وماذا حل بك ؟ ... أنسيت بمثل هذه السرعة ماضيك ؟ ... لقد كنت مثال الرجل المؤمن الورع التقى . كنت تؤدى الصلوات فى مواقيتها ، وتصوم حتى النوافل غير المفروضة ، وتعتزم أيضاً حج بيت الله . فهل تلبسك فى مساء العمر شيطان ؟ ... ألا ترى فى المرآة نفسك ؟ ... ألا تخجل من شعرك الأبيض الذى تخضبه بالأصباغ ، ومن عينيك اللتين لولا نظارتك لم تعرف بهما طريقك ، ومن غضونك المجتاحة ، وأسنانك النخرة ، وصدرك المقوس المتداعى الشبيه بصدر مسلول ؟ ... لن أدع إلهام فريسة لك . سأتزوجها وأنقذها منك !

فذهل جلال وانسحق . ثم نظر إلى أخيه فى دهشة ، ثم إلى نفسه فى شرود . وفجأة تشنجت عضلاته ، واتسعت حدقتاه ، وشع منهما بريق وحشى وجعل يردد : أبداً ... أبداً ...

وعندئذ فتح الباب ، ودخلت الست مشيرة ، محتقنة الوجه ، متصلبة الأعضاء ، وقالت فى هدوء وعزم : لن أزوج ابنتى إلا بمصطفى !

فصاح جلال كمجنون : كنت هنا ؟ ... عظيم ... ولكن إلهام لن ترحل ... لن أدعها تحت رحمة رجل فى بلد غريب ... لن تتزوج إلا بمن أختاره أنا ! ...

فعيل صبر عاطف واندفع نحو الباب وصرخ : إلهام... إلهام ...

وتقدم وأمسك بيد الفتاة ، وقال لها وهى تقبل مهرولة ومذعورة : أمك تفرض عليك الزواج بمصطفى ، وعمك لا يريد أن يزوجك بأحد على الإطلاق !

فرددت الأم بصوتها القاطع : بل ستقترن بمصطفى .

فقال الشاب : إذن فأنا ذاهب كيلا أعود !

واستدار ليخرج ، فصرخت إلهام : عاطف . . .

فتوقف ونظر إليها . فرفعت إليه الفتاة عينين عاجزتين زائغتين تائهتين ، وارتج بدنها كله ، وانفجرت من عينيها الدموع . فشخص إليها عاطف وغمغم متوسلاً : تكلمى يا إلهام ...

فقالت الأم : لن تتكلم إلا بما أردته أنا .

ولكن إلهام لم تلتفت إليها ، ولا إلى عاطف ، بل نظرت إلى عمها

فقط ، إلى جلال ، إلى جلال الذاهل الشارد . وفى حركة أقوى منها ، فى حركة طارئة وعاتية ، أسرعت وارتمت عليه، وألقت برأسها على كتفه، وصاحت وهى تضمه إلى صدرها وتجهش بالبكاء: بابا ... بابا ... ليس لى سواك ... أنت وحدك الذى تحبنى ... أنت وحدك الذى تريد أن تسعدنى ... أنا أتعذب يا بابا ... فلا تكن أنت أيضاً قاسياً على كأمى ... لا تحرمنى من عاطف ... وإلا فقد أموت يا بابا .. سأموت ... لا بد أن أموت .

وكانت تتكلم وهى تحضنه ، وصرخاتها المتعاقبة تنهب سمعه ، وشعرها الأسود الغزير يتهدل على صدره ، وأنفاسها الحارة تهب عليه وتطوقه . وكان هو يشعر بنضرة البدن الزاهر تملأ ذراعيه فيرتعد . كان يرتعد ويتمزق . كان موزع النفس بين إغراء البطش واستنكاره ، بين فرح التعذيب وفظاعته . كان الحيوان الرابض فيه يدفعه إلى التنكيل بإلهام وحرمانها ممن تحب ، وكان الأب الراقد فى أطواء قلبه يدفعه إلى الترفق بها والشفقة عليها . ولم يكن يعرف إلى أى الصوتين يتجه وإلى من منهما يستجيب . وبغتة وفى غفلة منه ، ضمته إلهام إلى صدرها ضماً عنيفاً ومبتهلا . فأحس ناراً تشب منها ، وتندلع من بدنها الغض ، وتوشك أن تأخذه فى وقدها الجارف وتحرقه . فاستهول ملمس الفتاة ، وانفتحت عيناه المسلوبتان وأدرك ... أدرك فى لحظة كل شىء . تنبه وعيه ، وتفتق ذهنه ، وذكر كل كلمة من الكلمات الكاشفة التى نطق بها أخوه . أيقن أنه يشتهى الفتاة : أيقن أنه لا يحبها فقط كوالد .

أيقن فى قرارة نفسه أنه مستمتع ومجرم وشيطان وأن إلهام لو ظلت فى بيته ولم تتزوج ، فهو لا بد أن يحاول ... يحاول أن يلوثها ، أن ينتهكها ، ولو راكم حوله الأطلال والأنقاض . فلم يستطع أن يتصور . لم يستطع أن يحتمل . فأراد أن يسرع قبل أن يضعف ، أن يقطع قبل أن يسقط . فاستجمع مدخر قواه ، وأمسك بالفتاة ، ونحاها عنه فى عنف ، ثم دفع بها إلى أخيه ، وقال وكأنه ينتزع شغاف قلبه بيده: خذها ! ... خذها ياعاطف ! ... ولكن احرص عليها ! ...

فذعرت الأم وهمت بأن تصرخ . ولكنه صاح فيها : اسكتى ...

ثم أهاب بشقيقه وصوته الغائر يتحشرج : ماذا تنتظر ؟ ... لماذا أنت هنا ؟ ... اليوم يوم جمعة ... اخرج معها ... متعها بالدنيا... إنها خطيبتك ... اذهب بها ومبروك عليك يا عاطف ...

فانهارت الأم على مقعد . وأسرع عاطف ، الذى لم يصدق وذهبت بلبه الفرحة وارتمى على أخيه، وعانقه ، وجعل يلهج بفضله ويستغفره . أما إلهام التى استغرقتها هى أيضًا فرحتها، فقد التصقت بخطيبها ، وخرجت فى صحبته مبهورة ومأخوذة ، دون أن تكترث لأمها، أو توجه كلمة شكر إلى جلال الذى كان يتبعها النظر والحسرة تأكله وشيطانه يحوم حوله ويكاد أن يلهب فيه عوامل الكمد والحرقة ويشعره بالندم على ما فعل .

* * *

وما إن خيم الصمت والفراغ على الرجل والمرأة ، حتّى اندفعت الست مشيرة نحو زوجها ، وقالت له وهى ترتجف : لماذا خذلتنى ؟ . لماذا لم ترض بزواجها من مصطفى . كيف يمكنك أن تعيش غداً معى ... هنا ... فى هذا البيت ... بعد أن تتزوج إلهام ؟ ... أنت ما زلت تحبها ... أنت تتعذب لفراقها ... لا تكذب ... سوف تسعى إليها ... إلى بيت عاطف ... إلى بيت أخيك .. فيشتد كرهك لى وقد لا تحتمل وجودى . أنا خائفة منك وخائفة عليك يا جلال ...

فرفع إليها بصراً تائهـاً ، ثم جال به حوله. فأحس بالفعل كأن بيته قد أقفر من حركته ، وأقفر من أهله ، وكأن بهجته قد اختفت ، وروحه قد انطفأت ، والكآبة والوحشة والفراغ قد استقرت فى جنباته ، وأحالته إلى عالم حالك الظلمة مرهوب الصقيع . فانتفض وتصور فى اللحظة نفسها عالماً آخر ، عالماً أشد من عالمه حلوكة وهولا ، عالماً يقتحم هو فيه حرم أخيه ، ويخون عهداً قطعه على نفسه لأخيه ، ويطارد امرأة هو نفسه قد زوجها لأخيه . فاقشعر بدنه ، وظل ينقل الطرف فى ما يحيط به ، ويلوى برأسه جاهداً ليتنفس ، كان لا حيلة له فى شيطانه الذى ما يزال متشبثاً به وممسكاً بخناقه .

وكان الصمت المخيم على البيت قد تلاشى منذ لحظات ، وبدأت صلاة الجمعة فى أحد المساجد . فترامى إلى سمع الرجل وامرأته من راديو جارهم المدرس عبد الرحيم ، صوت الإمام جليلاً مهيباً يتلو فاتحة الكتاب ، وإصغاء المصلين يصاحبه فى غمغمة ملؤها الخشوع والتقديس .

واختتمت الفاتحة وردد المصلون : « آمين » . وعندئذ وقد عاد وانتشر فى الجو صمت غامر وعميق ، ارتفع صوت الإمام بالآيات الكريمة : « ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك . الذى أنقض ظهرك ... » فبهت جلال واختلج اختلاجًا عنيفًا وأطرق . أحس كأن الآيات الكريمة قد تليت من أجله هو ، وأنه هو المقصود بالرحمة ، وهو الموعود بالخلاص ، وأن الله الذى خف لنجدته ووضع عنه وزره ، يطالبه بأن يقدر نعمته عليه ، وأن يستأصل من قلبه كل هوى أثيم . فتطلع إلى النافذة المفتوحة ، ومنها إلى الفضاء الرحيب . ثم تحول إلى امرأته . فألفاها وقد أسرعت وبسطت سجادتها ، تشرع فى تأدية صلاة الظهر . فحدق فيها وهى تصلى ، ولبث يحدق فيها منعمًا متأملاً حتى انتهت من صلاتها . وإذ ذاك ، والآيات الكريمة ما تزال تتردد فى سمعه ، وتهز روحه من سباتها الغاشم ، وتبعث فى خياله المتقد صفحات ماضيه ناصعة البياض ، تبدلت فجأة قسمات وجهه ، وانسكب عليه صفاء عجيب مقرون بعزم راسخ . فلم يتمهل ومشى . . . مشى لفوره واتجه صوب منضدة صغيرة ، وعاد والمصحف فى يده ، وارتمى على السجادة أمام امرأته . ثم وضع يسراه على كتفها ويمناه على المصحف الشريف ، وقال فى سكون وقد شع من عينيه بريق ساطع : أقسم بالله العظيم ، وبكتابه المجيد ، أنى لن أرمق إلهام أبداً بنظرة نابية ، ولن أدخل أبداً بيت شقيقى إلا ... إلا وأنت معى !

فحملقت فيه المرأة واستضاء وجهها . تنهدت ولم تتكلم . بل تناولت المصحف وقبلته ، ثم انحنت ملهوفة وقبلت يد زوجها ...

النّداء الأعلى



كان يلذ للأستاذ عبد الجواد أو لعبد الجواد بك ، أن يحتقر زوجته ، ويستخف بعقلها ، وينظر إليها من علياته ، ويكايدها مكايدة خبيثة لئيمة دائبة .

كان رجلاً قصير القامة ، داكن السمرة ، غائر العينين ، غليظ الشفتين ، أصلع مقدمة الرأس ، لا يستطيع أن يتصور نفسه قميئاً ودميماً ، فيحاول أن يثأر لقصر قامته بالإمعان فى مظاهر التكبر والترفع والاستعلاء ، وأن يثأر لدمامته بالإقبال على شتى ضروب التأنق ، يفتن فيها ، ويسخو فى الإنفاق عليها ، ويحرم أحياناً فى سبيلها زوجته وأولاده الثلاثة حتى من قوتهم الضرورى .

وكان لا يحمل غير شهادة فى التجارة المتوسطة ، فأسعده الحظ وعين رئيساً على بعض صغار الكتبة فى الوزارة التى يعمل فيها . فلم يصدق سمعه وبصره ، وامتلأ زهواً وغروراً ، وشرع يثأر أيضاً لقصره ودمامته بالتحكم فى مرءوسيه ، والاستبداد بهم ، والإسراف فى محاسبتهم على كل صغيرة ، وإجبارهم على مراجعة عمل مرهق أنجزوه لمجرد غلطة عارضة يمكن أن تصحح فى يسر دون أن تلحق بالعمل أى تشويه .

وكما كان يجد لذة عميقة فى الاستبداد بمرءوسيه ، كذلك كان يجد لذه عميقة فى الاستبداد بامرأته وأولاده . كان فوق تعاليه على زوجته « الست نعيمة » لا يفتأ يعذبها بنزوات أشبه بنزوات طفل مدلل شرير . فيصدر إليها أمراً ثم ينسخه ، ويطلب إليها تهيئة طعام معين ثم ينبذه ،

ويفرض عليها عملاً يكبدها جهداً شاقاً ثم يتبرم به ، ويتنقص من قيمته ويحكم بفشله ، ثم يفرض عملاً غيره وهو مثلج الصدر نشوان . وكل ذلك ليذل امرأته ، ويفرح لحيرتها ، ويبتهج لتخبطها ، ويشعر بتفوقه الدائم عليها ، ويمثل فى بيته دور السيد المطلق صاحب الكلمة المرهوبة الفاصلة . أما أولاده الثلاثة فكان يعاملهم على اعتبار أنهم يجب أن يكونوا صوراً أوشخوصاً لا مخلوقات . كان يريدهم طائعين ساكنين جامدين ، متصفين بالأدب والرصانة والاجتهاد ، يستذكرون دروسهم فى دأب ، ويقبلون أيدى الكبار من الضيوف فى احترام ، ولا يتكلمون إلا بإذن والدهم ، ولا يلعبون إلا بأمره ، ولا يشتهون إلا ما يمكن أن يقدمه لهم ، وإلا صب جام سخطه على أشدهم عصياناً وتمرداً، واندفع يضربه ضرباً مبرحاً ، متوعداً الست نعيمة بالطلاق إن هى صرخت وولولت وحاولت أن تخف لنجدة ولدها المستصرخ المسكين .

وكان بعد أن يضرب أولاده ليؤدبهم أو بعد أن يعذب امرأته بإذلالها ومكايدتها وفرض نزواته الجائرة عليها، يتبدل فجأة ويبتسم ثم يضحك كأنه قد نسى كل ما فعل . ثم يقبل على امرأته ويمازحها ، ثم ينفح أولاده ببضعة قروش ، ثم يعود فينظر إلى الجميع مستكبراً ، ثم يتجه إلى مخدعه فيتجمل ويتعطر ، ويرتدى بدلته الخضراء الصارخة ، وصداره الصوفى الأصفر المخطط ، ويخرج متعاظماً متخطراً ، إلى حيث المقهى الذى اعتاد أن يرتاده ، والذى تؤمه نخبة مختارة من علية القوم وكبار الموظفين ...



والحق أن عبد الجواد كان يعرف أنه يظلم مرءوسيه وأهل بيته وكان يشعر أنه يثأر منهم عامداً لنقصه . ولكنه كان كلما أراد أن يضبط أعصابه ويكافح شعوره بالنقص ورغبة الإذلال ، يتلفت حوله فيبصر الست نعيمة فيزداد حنقًا وكمداً ، فيتفاقم فيه إحساس النقص ، ويدفعه إلى الإمعان فى الكبر والغطرسة ونزعة التحكم والاستبداد .

وكان يغيظه فى امرأته أنها نقيضه ، برغم كونه قد اختارها وتزوجها لأنها نقيضه . كان يغيظه منها أنها طويلة القامة وهو قصير ، وأنها رائعة الجمال وهو دميم ، وأنها فوق ذلك صامتة وصابرة ومتحملة ، بل أبية وشامخة وعزيزة ، تقابله مهانة بترفع ، وكبراً بكبر ، واحتقاراً باحتقار .

فمظهرها الساكن الأبى المقرون بالحسن الباهر والبدن الفارع والصبر المحتقر ، كان يحز فى صدره ، ولا يدفعه إلى الإسراف فى التعاظم والتحكم فقط ، بل فى الغيرة على امرأته أيضًا .

كان يغار عليها غيرة طائشة حمقاء . كان يريد أن يؤكد رجولته بقوة غيرته ، ويعوض نقصه بعنف حرصه ، ويدلل على سلطانه بفرض أدق وأقسى ضروب الرقابة على امرأته . وكان يحبها ويخفى حبه لها ما استطاع . كان يحبها لإحساسه الخفى بضعفه وتفوقها ، واضطرابه وهدوئها ، وافتعاله العظمة والكبر ، وأصالة العزة والشموخ فيها .

وكانت الست نعيمة ، وهى بنت تاجر غلال كبير جار عليه الزمن ، قد ألفت الإباء والعزة ، لا لشعورها فقط بما كان عليه والدها من

مكانة مرموقة ، ولا ليقينها من أن زوجها لم يكن أبداً جديراً بها ، بل لفرط إحساسها بأنها جميلة ، وأنها برغم زواجها غير المتكافئ ، الذى أجبرت عليه لما أصاب والدها من إفلاس ، وبرغم جمالها الرائع الذى يبهر أبصار الرجال ، لم تتنكر لحظة واحدة لتقاليد أسرتها المحافظة ، ولم ترتكب فى حياتها أية هفوة يمكن أن تشينها . فإحساسها بجمالها وعفتها وطيب منبتها ، هو الذى كان يخلع عليها تلك العزة المكينة الآسرة ، فيخلب لب عبد الجواد ، ويضرم فى أعماق نفسه نار غيرة عاشقة حاسدة مستبدة آكلة .

والواقع أنه كان يحبسها فى البيت الأيام الطوال ، ولا يسمح لها بزيارة الأهل والأصدقاء إلا فى رفقته ، ولا يجيز لها استقبال أى قريب أو صديق فى غيبته ، ولا يخرج بها إلى المتنزهات أو السينما إلا مرة كل شهرين ، ولا يكف عن زجرها وانتهارها متى أبصرها تتأنق وتتجمل وهى على أهبة الخروج معه .

وكان كثيراً ما يترك عمله فى المكتب ليهبط فى البيت بغتة ويفاجئها ، فإذا ما أبصرها فيه ، أبرقت عيناه ثقة وفوزاً واطمأن . وإذا لم يجدها وقالت له الخادمة إنها تزور إحدى الجارات ، استفسر عن الجارة خشية أن تكون امرأته قد عصته وزارت فى العمارة سيدة لها شقيق مستهتر عزب أو زوج ماجن خليع . ولما كان يستوثق من أن الست نعيمة لم تتجاوز فى أى تصرف من تصرفاتها الحد الواضح الذى رسمه لها ، كان برغم اطمئنانه يتململ ويغتاظ ، ويود لو أنها تكون قد عصته بالفعل هذه

المرة ، كى يجد سبباً واقعياً يمكنه منها ، ويغلّبه عليها ، فيسرع هو ويخلق أى سبب ، ثم ينفجر ويثور ، ويظل يصيح ويصرخ ، وعيناه الغائرتان تتوهجان ، وشفتاه الغليظتان ترتعشان ، والعرق يتصبب على رأسه الأصلع ، والست نعيمة تنظر إليه ثابتة جامدة، وتتأمله فى برود متقزز مترفع كأنها تتحداه .

ولم يكن فى وسعه بعد أن يشفى غليله منها ويتخلص من توتر أعصابه ويستريح ، إلا أن يهمهم ويدمدم ، مخفياً خجله ، ساتراً ضعفه ، ممعناً فى تعاظمه ، ثم يكر راجعاً إلى المكتب حيث يثأر من هزيمته فى مرءوسيه .

وعندئذ كانت الست نعيمة ترتمى على كنبة ، وتأخذ أولادها الثلاثة فى حضنها ، ويفيض بها الحنق والذل والضيق ، فتختلج اختلاجاً عنيفاً ، وتنهمر من عينيها الدموع .

وكانت تبكى وهى تفكر ، وتختلج وهى تحلم ، وتضم أولادها إلى صدرها فى لهفة مشبوبة كأنها تستنجد بهم ، وتحاول أن تستمد من فرحة قربهم ونعمة وجودهم قوة تقيها شراً متربصاً وخطراً مستطيراً .

ولم تكن الست نعيمة قد عرفت فى حياتها رجلاً غير زوجها . لم تكن قد اتصلت بأى شاب وهى عذراء ، ولم يكن قد تقرب إليها وغازلها وأطرى محاسنها بعد الزواج أى رجل . ولكن ها هى ذى اليوم ، وزوجها الأنانى الفظ الغليظ يستبد بها ، ويجحد فضلها ، ويتهمها فى استقامتها وولائها ،

ويأبى إلا أن يحقرها ويسجنها ، خانقًا فيها كل كرامة وكل حرية وكل حياة ، ها هى ذى اليوم ترى الرجل الساحر الجميل الغريب بعين خيالها ، وتبصر طيفه المرهوب منبثقًا من بين هياكل أولادها ، وتحس وهج كلماته ، وخفق أنفاسه ، ورجفة بدنه ، وعذاب تلك النظرة المتوسلة الممزقة الشائعة فى عينيه التائهتين البديعتين .

لماذا دخل هذا الرجل بيتها ؟ . . لماذا أراد الله أن يكون هو بالذات الرجل الوحيد الذى يدخل بيتها ؟ . . . بل لماذا وكيف اصطفاه زوجها ووثق فيه واطمأن إليه وفتح له أبواب بيته ، وهو الذى يغار على امرأته حتى من أشقائه ، ولا يطيق أن تقع عليها عين رجل فيه لمحة من جمال أو شبهة من جاذبية وإغراء ؟ . . .

لم تفهم الست نعيمة كيف جلب زوجها هذا الرجل إلى البيت . لم تفهم طبيعة زوجها الغيور . لم تفهم أن الغيور مخلوق غريب الأطوار ، وأنه إذا كان يرتاب فى الجميع فهو قد يثق فى واحد ، وأنه برغم عنف الغيرة المستولية عليه قد يتبرم بأن يعيش مع امرأته فى عزلة كئيبة تفرضها عليه غيرته . فيتوق مكرهًا إلى تآلف عاطفى وفكرى لا يجده بالطبع فى زوجته التى يعذبها والتى تنفر منه . فيندفع فى الغالب إلى اختيار صديق فرد ، معتقداً تحت تأثير اعتداده بنفسه ويقينه من تسلطه المطلق على زوجته ، أن هذا الصديق أضعف منه شخصية ، ودونه قوة ورجولة ، وأنه لا يمكن أن ينظر إلى امرأته نظرة سوء حتى ولو كان شابًا وجميلاً .

وهذا ما وقع لعبد الجواد . أحس أن العزلة الكئيبة تخيم على حياته

بسبب غيرته ، وأنه وزوجته قد استحالا إلى شبه وحشين يتصارعان فى قفص ، فخشى إن هو فرج عن نفسه بالفرار من بيته والإسراف فى السهر فى صحبة أصدقائه أن تشك امرأته فى مسلكه وتتمرد يوماً عليه وتفكر فى خيانته ، فآثر أن يمكث معظم لياليه بجوارها ، وأن يصطفى له صديقاً واحداً مأموناً ، ينعش جو بيته ، ويلطف من وطأة كآبته ، ويشيع روح البهجة والمرح فيه .

وهكذا اختار ابن عمته « رءوف » الإنسان الحالم الوديع المريض ، صديقاً فرداً مقرباً أثيراً . فتألق بالفعل جو البيت ، وبهتت الست نعيمة ودبت فيها الحياة فترة . ولكنها ما لبثت أن انكمشت وتجهمت ، وأحست لأول مرة عوامل القلق والاضطراب والخوف .

وكان رؤف شاباً عزباً فى نحو الخامسة والعشرين ، يشتغل بتدريس فن الرسم ، ويعرض أحياناً بعض لوحات من صنعه ، ويهوى الطرب والغناء ، ويقرض الشعر أيضاً فى ساعات فراغه . وكان فتى منكوباً مصاباً بداء الصدر ، واسع الحدقتين ، ملتمع الوجنتين ، مهزول البدن ، يبدو لأول وهلة خجولا ومنطوياً ، ولكنه متى استأنس بمن حوله ، وتشجع وابتسم واسترسل فى الحديث ، جلجل صوته ، وتدفقت كلماته ، واتقدت عباراته ، وشعت من عينيه السوداوين القاتمتين بوارق خالبة تتراقص فيها أطياف غريبة وأحلام عجيبة وأضواء مذهلة . فكان إذ ذاك يتكلم كأنما هو ينظم شعراً وينشده فى رخامة وحماسة وفرح . بيد أنه كان لا يكاد يتعب حتى يسعل ويصمت ، فيكفهر

وجهه ، وينطفئ بريق عينيه . فيطرق إطراق التأمل والأسى ، كأنه يتحسر على نفسه ، ويتحسر لعجزه عن جعل الشعر حقيقة ، والخيال واقعًا ، والحلم وجوداً حيًّا يزخر بالنور والحركة والجمال .

ولم يكن رءوف قد أبصر الست نعيمة إلا فى لمحات خاطفة خلال بعض زيارات قصيرة قامت بها لسيدات أسرته مصحوبة بزوجها . فلما دخل بيتها وجلس إليها ، وأنعم النظر فى جمالها الخارق الشامخ المعتز ، تولاه بالرغم منه ضرب من وجوم وشرود أصابه أول الأمر بلكنة وعى . أحس كأنه معقود اللسان ومخنوق ، بل كأنه حيال قوة كان يحلم بها ولم يتصور أبداً وجودها . فانتابته عوامل القلق والاضطراب والخوف هو أيضًا . فأراد أن يرحل ، أن يكف عن زيارة البيت ، أن يتملص من عبد الجواد ويفر . ولكنه كان فنانًا وشاعراً . فجذبه الجمال والسحر . فلم يستطع إلا أن يخضع ويعود . . . راعه من المرأة جلال مظهرها ، وخفر حركاتها ، وهيبة تحفظها ، ودقة قسمات وجهها الهادئ ، وفتنة امتلاء بدنها الغض ، وسحر عينيها العميقتين الحزينتين ترف عليهما أهدابهما الطويلة كأنها تذود عنهما لهفة الناس . فظل رءوف بضعة أيام واجمًا وشارداً وعييًّا ، ثم فاض به إعجابه . فأطلق العنان للسانه كى يخفى اضطرابه وهو طائر اللب مبهور . ولكنه خشى أن يوجس الزوج منه . فجعل يتخبط بين الكلام والصمت ، بين التبسط والانطواء ، بين النظر المفاجئ إلى الأرض والتطلع فى نشوة إلى المرأة الخارقة البهاء .

وأحس رءوف شيئًا فشيئًا أن هذه المرأة هى ضالته المنشودة . هى

الجمال نابضاً ، والشعر حياً ، والوحي فياضاً بأروع الصور والخيالات . فلم يعد يكلف نفسه عناء ضبط نفسه ، وطفق يتكلم ويبدع ، ثم يصمت ويكتئب ، ثم يتكلم أيضاً ويبدع ، وهو يرمق الزوج في يقظة وحذر محاولاً أن يكسب ثقته ، ويرقد شكوكه ، ويطويه في غمرة حديثه الشائق ، ويأخذه في شبكة كلامه المبتكر المنمق الجميل .

ولكي يعيش رءوف منقطعاً لحلمه ، موصول الفكر والروح بضالته ، هجر بيته وأهله ، واستقر عند زميل فقير ، شاءت المصادفة الرحيمة أو الساخرة أن يكون منزله مطلاً على منزل الست نعيمة .

وهكذا كان رءوف يتنفس على مقربة منها ، ويغافل صديقه لا ليغازلها أو يخاطبها بل ليلمحها فقط ، ويتخذ من هذه اللمحة قوت نهاره ريثما يهبط الليل فيلتقي بها في بيتها .

وكان لفرط تلهفه على رضاها ، يدخل في بعض الأمسيات حاملاً عوده ، فيرحب به عبد الجواد ، ويلتف حوله الأولاد مهللين ، وتنظر إليه الست نعيمة في شوق وقلق . فيجلس رءوف حانياً رأسه على العود ثم يسعل سعالاً جافاً متقطعاً ، ثم تتوه عيناه ، ويندفع ويغني أنشودة لأم كلثوم أو دوراً لسيد درويش ، فيحملق فيه الأولاد مأخوذين ، ويهتف له عبد الجواد متأوهاً ومشجعاً ، وتظل الست نعيمة تحدق إليه في إعجاب وقلق ، ونظرته الشاردة ترجفها ، ورنين صوته الخفيض الحنون يذهلها ، ونغمة الدور الشاكية الأليمة المنبعثة من صدره الممزق في

تضرع وابتهال تذيب قلبها ، وتزعزع أعصابها ، وتوشك أن تفجر من عينيها الدموع .

ومع ذلك فقد كانت الست نعيمة تكبح جماح نفسها ، وتعتدل وتتزن فى الإعراب عن إعجابها . أما عبد الجواد فكان يعجب برءوف وهو يستخف به ، ويمتدحه وهو يسخر منه ، ويطرب لغنائه وهو ينكت من طرف خفى عليه ، ويحمسه ويشجعه وكأنه يهزئه ويثأر منه . . . كان برغم ابتهاجه واعتزازه بألوان النبوغ التى يمتاز بها صديقه ، يأبى إلا أن يحقرها ، ويشوهها ، كى يخنق كل تأثير يمكن أن يحدثه الشاب فى نفس امرأته ، بحيث يظل هو المتفوق فى نظرها عليه ، ويظل الشاب مجرد تابع له ، ومحض أداة يستخدمها للمرح والتسلية والتفريج .

والواقع أنه كان ينظر إلى رءوف نظرة السيد إلى مهرجه ، فلا يقربه إلا ليتعالى عليه ، ولا يستزيده حديثًا أو غناء إلا ليمعن فى تهزيئه وهو جذلان . .

وكان رءوف يتجاوز عن كل هذا ويحتمل . بل كان يدرك تمام الإدراك ما يعتمل فى نفس عبد الجواد . فكان يضحك لضحكه ، ويشاركه فى عبثه ومجونه ، وينكت هو نفسه على نفسه ، ويمثل عن طيب خاطر دور المهرج الذى فرضه الزوج عليه . بيد أنه وهو يبذل قصاراه فى التضاؤل أمام رب البيت ، كان يجاهد جهاد المستميت فى التفوق عليه . فينطلق فى حديثه الشائق تارة ، ويفتن فى غنائه الساحر أخرى ، وينشد قصائد من شعره فى تحمس عاطفى محموم ، عساه أن يرد اعتباره

فى عين الست نعيمة ، برغم القفشات الصارخة والنكت اللاذعة التى كان يسددها زوجها إليه .

وكانت الست نعيمة تلحظ همه وجهاده . فتسارقه النظر فى وجل ثم تبتسم له ابتسامة خاطفة كأنها ترفه عنه ، وتشعره بقيمته ، وتمسح بابتسامتها ما أصابه من ذل وهوان . وعندئذ كان الشاب يفقد صوابه . فيبدع فى الحديث إبداعاً رائعاً ، أو ينشد الشعر إنشاداً خالبا ، أو يحلق فى الغناء تحليقاً يخيل معه إلى الست نعيمة أن بيتها الكئيب قد اختفى ، وأن آلامها المريرة قد زالت ، وأن الأرض حولها قد أشرقت وتألقت واختلطت فجأة بالسماء .

وأحست المرأة أن قلبها يخفق ، ونفسها تتقد ، وحياتها الضيقة الخانقة تبدو أمامها رحبة الفسحات ، مليئة وقشيبة ، يغمرها فرح دافق وقرير .

واحتواها الفرح بالرغم منها ، وأطلقها بغتة من عقالها ، فشرعت تتحرك وتتنفس وتعيش .

بدأت تتجمل فى حيطة ، وتتكلم فى حذر ، وتضحك فى ارتباك . ثم أسلست قيادها لفرحتها ، فتجملت فى صراحة ، وتكلمت فى طلاقة ، وضحكت فى نشوة وزهو وخيلاء .

ولم تكن قد استرعتها قبل ذلك أية فتنة من مفاتن الدنيا ، بل لم تكن قد تنبهت لحظة إلى أن الوجود باهر وعظيم . فلما أيقظها الفن واستبد بها الفرح مضت تغافل زوجها وتنهض فى صميم الليل ، كى تتأمل

روعة البدر الكامل وهو يصب ضوءه الساطع على فراشها ، أو تهيم فى الليل الساجى وهو يوسوس بأحلامه فى أذنها ، أو ترقب انبثاق الفجر الفاتن وهو يخلع نوراً من البنفسج الناضر على حياتها .

وفطنت إلى سحر الوجود المتألق حولها والمنبعث منها . فدبت في كيانها الخامل حيوية طارئة أذهلتها ، فكانت فى الصباح وهى قابعة في المطبخ ، تخرط الملوخية ، أو تعصر الطماطم ، أو تقشر الباذنجان تقفز فجأة وبلا سبب ، وتضحك للشمس المتدفقة عليها من النافذة وتدندن بعض مقاطع من الأدوار التى يغنيها فى الليل رءوف ، ثم ترتمي على أولادها وتنهب منهم القبل ، ثم تركض فى المطبخ رشيقة خفيفة مجنحة كأنها تمرح فى حديقة غناء .

ومع ذلك فقد كانت تخاف وترتعد . كانت تدرك بفطرتها السليمة الأبية أن كل هذه العواطف المحتشدة فى صدرها ، قد تعصف يوماً بماضيها النقى وتهلكها . ولكنها فى الوقت ذاته كانت تحس أن هذه العواطف أصبحت واسطة حياتها ، وينبوع وجودها ، ومصدر الفرحة النادرة التى كشفت لها النقاب عن وجه الدنيا . فأرادت أن تتشبث بها وتذود عنها على أن تستخدم كل عزمها وإرادتها وكبرها وما غرسته فيها بيئتها المحافظة من مبادئ وتقاليد ، كى تصون فكرها من التهور ، وماضيها من التشوه ، وفرحتها من الدنس ، وتكتفى بالعواطف المجردة التى أيقظها فى نفسها رءوف ، وتنهل منها ، وتعيش بها ، وتجد فيها عزاءها ، دون أن تنظر إلى الشاب الذى أثارها باعتباره رجلاً من لحم ودم ، ودون

أن تخلط لحظة فى ميلها إليه بين نعمة الصداقة ولعنة الهوى .

وأثلج هذا العزم صدرها ، وضاعف من فرحها واطمئنانها . فلم تكف عن العناية بأناقتها ، ولم تكف عن التبسط فى حديثها وضحكها . ولكنها استطاعت أن تضبط نفسها ، وتوازن بين كل مناسبة ومقتضياتها ، ولا تسرف فى الكلام والضحك أبداً ، بل تحتفظ بوقارها وهى مبتهجة ، وترقب ذاتها وهى متنبهة ، بحيث لا تدع أية حركة من حركاتها أو نظرة من نظراتها تلقى فى روع رءوف أن فيها ولو شبهة من ميل أثيم إليه ، يمكن أن يغريه بها ، ويشجعه على اقتحامها .

أما رءوف فكان منذ البدء قد فهمها . كان قد نفذ ببصيرته المشرقة إلى جوهر نفسها . كان يعلم علم اليقين أنها امرأة معصومة بكبرها ، محصنة بعقلها ، منيعة بإرادتها وماضيها ، وأن من المحال عليه أو على أى رجل سواه أن يزعزع سلطانها على نفسها وينال منها فى النهاية مأرباً . فكان وهو يفتن فى حديثه أو غنائه أو إلقاء شعره ، لاينشد فى أعماق نفسه أكثر من أن يروق فى عينها ، وأن يظفر بإعجابها ، وأن ينسى مرضه الوبيل بجوارها ، وأن يتقلب فى جوها ما استطاع ، ويعيش هو الآخر بفرحة العاطفة المجردة التى توحيها إليه ، ونضرة الأخيلة الشائقة التى يستمدها منها ، وروعة الشعر الخالص الحى المتدفق من محض وجودها . وكان فوق ذلك وبرغم احتماله من زوجها شتى ضروب السخرية والمهانة والتهزىء ، لا يفكر لحظة فى خيانة قريبه وصديقه ثأراً منه ، بل يمضى فى التجاوز والاحتمال ، ولا يطلب إلا أن يحتمل أيضاً ،

ويظل طوال عمره مهرجاً للزوج ومسخاً ، على أن يملأ من الست نعيمة بصره وقلبه وخياله ولو مرة واحدة كل أسبوع .

بيد أنه فى الواقع كان يحبها أشد الحب ويتعذب . . . كان يتعذب لأنها زوجة صديقه ، ويتعذب ليأسه منها ، ويتعذب لشعوره وهو الرجل الضعيف العليل أن لاحق له فى التطلع إليها أو إلى غيرها ، ولا قدرة له على إنقاذها وإسعادها كما يتمنى ويشتهى .

وكان يلحظ استخفاف زوجها بها ، وغيرته منها ، واصطناعه الخشونة والفظاظة فى معاملتها تعويضاً لنقصه . فكان يزداد ولعاً بها ، ويزداد حسرة على نفسه وعليها ، ولا يستطيع إلا أن يبدع فى فنونه ، كى يشارك المرأة فى حزنها ، ويلطف عليها ولو بعض همها ، ويحملها إلى جو طليق جميل ويسرى عنها .

كان برغم عذابه سعيداً بهذه الحياة ومكتفياً ، كما كانت المرأة أيضاً سعيدة ومطمئنة ومكتفية . بيد أن عبد الجواد لم يكن غافلا . ولم يكن رجلا متبلد الذهن غبياً . كانت غيرته تفتح عينيه ، ونقصه يلهب ذكاءه ، ورغبته فى تعويض هذا النقص بالتفوق الدائم على رءوف ، تمكنه من السيطرة على عقله ، وملاحظة كل حركة أو نظرة تبدر من زوجته أو من صديقه .

وكان فى مبدأ الأمر ، ولفرط اعتداده بنفسه ، لا يستطيع أن يتصور أن ذلك المخلوق الغر الخيالى المريض ، يمكن أن ينقلب فجأة إلى رجل جذاب ، ويحاول أن يتفوق عليه ويهزمه . فلما أحس على مر

الزمن وأدرك أن المهرج قد تغلغل شيئاً فشيئاً فى بيته ، وأنه استحال فجأة إلى قوة سحرية عجيبة لم تسلبه هو قدراً كبيراً من هيبته ومكانته فقط ، بل استهوت أيضاً قلب زوجته دون ما حاجة إلى مغازلات صريحة ، أو نظرات نابية ، أو عبارات ملتوية تنم عن حب وغرام ، هاله هذا التحول الذى جلبه بنفسه على نفسه . فاشتعل نقصه ، واضطرمت غيرته ، وحار واضطرب ، ولم يعد يدرى ماذا يجب عليه أن يفعل . كان يخشى على زوجته ، ويضن فى الوقت ذاته بصديقه . كان يستنكر تحول امرأته ، ويتشبث مع ذلك بمهرجه . كان يستعذب حديث رءوف ويطرب لغنائه ، ثم يستبد به شعور النقص فيعجز عن التحرر من لذة امتهان الشاب وتهزيئه .

وأراد أن يصرفه . أن يطرده . ولكنه تمثل الكآبة البغيضة التى لابد أن تعود وتخيم على بيته ، وتمثل العزلة المريرة التى لابد أن تخنقه وتخنق امرأته . فتمهل أياماً ، وتروى طويلا ، ثم اهتدى آخر الأمر إلى فكرة أعجبته وأيقن أنها هى التى ستعوض نقصه ، وهى التى ستحفظ عليه كرامته ، وهى التى ستغنيه عن رءوف ، وتجذب إليه الست نعيمة ، وتبقى على جو البهجة والمرح الشائع فى بيته .

ولم يتردد ، وتصاغر بدوره عامداً ، وطلب إلى رءوف أن يعلمه العزف على العود . . .

واستغرب الشاب هذه النزوة وبهت لها . أما الست نعيمة فقد أذهلتها من زوجها رغبته الطائشة ، فحاولت أن تثنيه عن عزمه حرصاً

على كرامته . ولكنه استمسك بفكرته ، وتزلف إلى صديقه ، ورجاه واستعطفه . فانخدع رءوف وازدهى واعتقد أن نزوة الرجل ستوثق صلته به . فأجابه إليها وهو مبتهج ، واصطحب عبد الجواد ذات مساء ، واشترى له عوداً لين الأوتار جميلاً ، وبدأت على الفور دروس العزف والغناء .

بدأت الدروس فى جو عاصف بالضحك ، زاخر بالتلهف ، مثير وطريف وعجيب . فكان رءوف يعزف ويلقن وينبه ويغنى ، وعبد الجواد يحتضن عوده ، ويرهف سمعه ، ويلتقط ويراجع ويقلد ويتخبط ، ثم تأخذه فجأة حمى الطرب ونشوة الغيرة والمنافسة ، فيفتح فى تحمس شدقيه الواسعين ، ويلوى فى حمية شفتيه الغليظتين ، ويرجف فى حرارة رأسه الأصلع ، ثم يندفع ويغنى . فينبعث من حلقه صوت أشبه بمواء الهررة ، أو « نعير » الساقية ، أو صراخ دجاجة على وشك أن تذبح . فيفزع الأولاد ثم يضجون بالضحك ، فيعاود رءوف الدرس مسلماً أمره إلى الله ، وتتطرح الست نعيمة فى مقعدها ، وتظل تتفرج على زوجها ، وهى ترشقه بنظرات كليلة حزينة ملؤها التهكم والرثاء .

ولم يكترث عبد الجواد لا لترخصه ولا لتهكم امرأته ولا لضحكات أولاده ، بل لم يحز فى صدره لحظة أنه أصبح هو المسخ وهو المهرج . فظل يتسمع ويتدرب ويتمرس ويحتمل ، حتى خيل إليه أنه قد حذق أصول الفن ، ومهر فى العزف ، وبرع فى الغناء . فكشر إذ ذاك عن أنيابه ، وتجهم لصديقه ، ثم أشعره فى عزة وصلف وبرود أنه غريب

ودخيل وغير مرغوب فيه .

ووقع هذا الأمر وقع الصاعقة على رءوف والست نعيمة .

أجفل الشاب ولم يصدق ، ثم استفاق وتيقن . فتحطم أمله ، وتفطر قلبه ، وهوى بغتة من ذروه حلمه ، واصطدم بالأرض الصلبة وأفاق .

لم يجد كلمة يقولها . لم يجسر حتى على العتاب . لم يستطع حتى أن يتوسل . أدرك أن كل جهوده فى إهدار كرامته ذهبت أدراج الرياح . أدرك أن صديقه لم يعد فى حاجة إليه حتى كمسخ . أدرك أنه عليل وفقير ، وأنه قد تهالك فى غرور على طلب المحال . فأحس إحساساً محرقاً ومذيباً أنه كان بالفعل غير مستحق لأية متعة من متع الحياة ، وأن الخيال نفسه أصبح محرماً عليه ، ونعمة اشتهاء السعادة فى الحب ولو بالوهم لم تعد من نصيبه ، ومجرد التطلع إلى مخالسة الشعر والفن بنية خالصة لم يقسم له ، وأن التخبط فى لجة الوحدة والحسرة والمرض والعذاب ، هو حظه الجائر الذى كان مرصوداً منذ الأبد له .

وحنى رأسه فى انكسار وذل وسلم . ولكنه قبل أن ينصرف كى لا يعود ، ذكر الليالى المشرقة الخصبة الزاهرة التى كان يقضيها بجوار معبودته ، وذكر ابتسامتها الخاطفة الراضية الشفيقة التى كانت تقنعه بأبدية حلمه . فعز عليه أن يرحل ، وكبر عليه أن يطرد . فعانق فى لوعة عوده الغادر ، ونظر إلى الست نعيمة ، وجاشت عواطفه بالرغم منه ، وطفق يغنى فى صوت متضرع متهدج كأنه يستغيث :

« تركت أهلي وملت لك
والناس بتعطف ع الغريب
وأنت لك أخلاق ، أخلاق ملك
دانـــا قلبي انشبـــك
امتى وصالك ياقمر . . ؟ »

وما إن أتم أغنيته وأحس أن الدمع يوشك أن يسيل من عينيه ، حتى تنبه واستنكر وخجل . فنهض من فوره والسعال يكاد أن يبعث الدم من صدره ، واستجمع قواه وصافح المرأة وزوجها ، ثم قبل الأولاد الثلاثة، وتمهل وألقى على الست نعيمة نظرة كأنه يريد أن يدمجها فى كيانه قبل أن يرحل ، ثم تجلد وتماسك ، ودفع الباب فى رفق وخرج .

وظلت الست نعيمة شاردة جامدة ، تحدق إلى الأرض كأن هوة قد احتفرت عند قدميها . لم تنطق هى الأخرى بكلمة واحدة . لم توجه إلى زوجها أية نظرة . تشنجت أطرافها ، وتلاحقت أنفاسها ، ولم تستطع أن تتحرك . ثم غلبها الضيق والكمد ، فنهضت بعد فترة ، ونادت أولادها ، وأرقدتهم فى حجرتهم ودخلت ملهوفة إلى مخدعها . ولكن عبد الجواد الذى كان يرقبها ساكنًا متربصًا ، لمعت عيناه . فأسرع هو أيضًا ودخل المخدع ، يريد أن يؤكد انتصاره على غريمه وعليها بأن يظفر على التو بحقه الزوجى منها . فتطلعت إليه المرأة فى ذعر ، وبسطت يديها فى توسل . ولكنه ضمها إلى صدره فى عنف وقبلها . فلم تتمنع

وتصلبت وأدت واجبها . فأثلج الفوز صدر الرجل . فخرج إلى فسحة البيت ثم كر راجعاً إلى المخدع يحمل العود . ولكى يضاعف نشوته ، ويحل محل خصمه ، ويكافئ امرأته ويطربها دون أن يزعج الأولاد النيام ، جلس على حافة السرير ، واحتضن عوده وأمال رأسه الأصلع ، وشرع يعزف ويغنى بصوت أبله أجش كريه ، والمرأة تشخص إليه بعينين خامدتين ، وتحس أن سمعها يتهشم ، وبدنها يتمزق ، وأنفاسها تكاد تختنق .

ولم تصدق الست نعيمة أن رءوف قد ذهب كى لا يعود . لم تصدق أن وقدة حياتها يمكن أن تفتر ، وفرحة قلبها يمكن أن تخمد ، وبهجة بيتها يمكن أن تزول . بل لم تصدق أن فى وسع زوجها أن يكتفى بعوده ، ويستغنى عن صديقه ، ويرتد إلى جو العزلة الكئيبة التى أراد هو نفسه بالأمس أن يتخلص منه .

والواقع أن عبد الجواد لم يكد يصرف رءوف ويستفيق بعد أيام ويحس أن نبرات صوته تخونه ، وأوتار عوده تخانده ، وأنه بعزفه وغنائه يؤلم امرأته بدل أن يطربها ، وينفرها بدل أن يجذبها ، ويصبح فى نظرها مثار تقزز بدل أن يكون موضع إعجاب . لم يكد يحس هذا حتى ناء عليه من جديد شعوره بنقصه . فصبا قلبه إلى صديقه ، وفكر جاداً فى مصالحته . ولكنه كان فى الوقت نفسه يذكر تأثير الشاب على زوجته فيهلع ويرتجف . كان يخاف منه ويود مع ذلك أن يستقدمه . كان يفزع من سحره ولا يطيق مع ذلك أن يعيش بدونه . كان لابد له أن

يحقر إنساناً ويذله وينكت عليه . فظل يتأرجح بين حاجته إلى رءوف وبين خوفه الشديد على امرأته التي كان ما يفتأ يتصورها وهي تبتهج لمقدم الشاب ، وتحدق إليه بعينين مشدوهتين . فاشتعلت غيرته كما لم تشتعل أبداً ، والتهب كبره وعناده ، وأبى أن يستقدم الشاب ، ولم يجد متنفساً لنقصه وضيقه ، إلا في الثأر من أولاده ومرءوسيه وزوجته نفسها .

وعاد يستبد بها ويسلط عليها حقده وغيرته ، ثم ينقلب فجأة ويمازحها ، ثم يجذبها من ذراعها وهي مذهولة ، ويجلسها عنوة أمامه ، كي ينهال عليها بعزفه المشوش وغنائه المهشم ، مجبراً إياها على الإشادة بفنه ، فارضاً عليها الإعجاب بصوته والهتاف لمواهبه .

ولما كانت تسايره وتطريه تخلصاً من لجاجته كان يدرك أنها تكذب عليه وتمالئه . فيزداد غيظاً منها ، ومكايدة لها ، وحنقاً على نفسه لأنه لم يستطع أن ينافس رءوف ويتغلب عليه ويتمكن من استمالة المرأة وإخضاعها .

وأيقنت الست نعيمة أن رءوف لن يعود ، وأن زوجها قد أحلها محله ، واتخذها هي فريسة بدلاً منه . فضاقت ذرعاً بعذابها ، وفقدت زمامها ذات يوم ، وثارت لأول مرة وعلى الرغم منها في وجه زوجها . صارحته وهي ترتجف بأنها لم تعد تحتمل طغيانه ، وأن صوته يكربها ، وغناءه يثير أعصابها ، ثم طلبت إليه أن يذهب ، أن يترك البيت ، أن يكف عنها ، أن يسهر ما شاء ، أن يبحث له في الخارج عن صديق آخر يتخذ منه فريسة ، وأن يدعها هي سجينة في بيتها تخدم أولادها وتستريح .

وكانت قاسية فى غضبتها ، مروعة فى ثورتها . فاستهول عبد الجواد وهو الرجل الذى يدارى نقصه بغطرسته ، أن تشعره امرأته بهذا النقص وتتطاول بمثل هذه الجرأة عليه . فتاه عقله ، ورفع كفه بالرغم منه ، ولأول مرة صفع زوجته .

وبهتت الست نعيمة وحدقت إليه . تجمدت أعضاؤها كلها تجمداً ملؤه الكراهية والبغض ، ولبثت تتفرس فيه . وفى تلك اللحظة فقط ، فى تلك الدقيقة فقط ، أحست المرأة إحساساً جارفاً ، إحساساً طاغياً ، أنها لم تعد تعرف هذا الرجل . أحست أنه قد بتر من حياتها ، واستؤصل من جثمانها ، وانسلخ إلى الأبد عنها ، وأنه سواء أراح بعد اليوم أم جاء . أطغى أم ترفق ، أضرب أم احتضن ، فهى لن تراه ، ولن تشعر بوجوده ، ولن تحن للمسه ، ولن تتقلب فى بيته المظلم الكئيب الدميم إلا كما تتقلب آلة صماء سخرت لتأدية الواجب وضمان المصلحة .

وعلى دهش منها ، وفى غفلة من عقلها الواعى ، وتحت تأثير الإهانة المنكرة التى أصابتها فى صميم عزتها وكبريائها ، لاح أمامها وجه رءوف ، ودوى فى سمعها صوته الساحر ، وانسكبت عليها ابتسامته الوديعة ، ونظرته الحزينة ، وفرحة الحياة التى كانت تهدر فى صدره ، وتتدفق من حديثه وغنائه وشعره ، وهو معذب ومحروم وعليل . فاحتواها الوجه وغزاها . فاستضاء بغتة عقلها ، ورأت بعين بصيرتها حقيقة نفسها ، وأدركت إدراكاً واقعاً ساطعاً حياً ، أنه لم يعد لها فى هذه الدنيا بعد اليوم غير هذا الفتى الذى احترمها ، وأيقظ قلبها ، وأطلق عواطفها ،

وأفعم كيانها بالحياة .

أدركت أنها تحبه ، وأنها كانت وما تزال تحبه . ولكنها فى اللحظة نفسها أدركت أيضًا وأحست وتيقنت أن رءوف يتصل بشيء أبعد وأعمق وأسمى من تراب جسدها الفانى وحفنة حياتها الدنيوية الزائلة . أدركت أنها لم تحبه أبداً بالجسد ، وأن حبه كان وما زال أغلى وأبقى من كل شهوة ينبض بها الدم ويختلج بها الجسد . وكانت هى نفسها قد عافت ملذات الجسد لفرط استبداد زوجها بها ، وكانت فوق ذلك من أولئك النساء العزيزات اللاتى لا يمكن أن يتصورن أن فى وسعهن أن يهبن أنفسهن لغير رجل واحد . فاعتزمت أن تصون أيضًا ذاتها ، وتصون بيتها وأولادها ، على أن تظفر فى الوقت نفسه بحقها ، وتتنفس وتعيش من حب رءوف ، فى ظل البراءة الخالصة ، والعفة الراسخة ، والطمأنينة الكاملة ، ولهفة القلب المكبل المخنوق على مجرد نسمة من حنان تبعث الحياة وتنعش النفس وتملأ فراغ الروح .

وكانت تعلم أن رءوف يحبها هذا الحب النقى نفسه . فكانت لا تطلب أكثر مما كان يطلبه هو . كانت لا تطلب أكثر من أن تراه ، أن تتصل بأسرته ، أن تجلس إليه على مشهد من أهله ، أن تتملى من نظرته وابتسامته وسحر حديثه ، كى تعود فتشعر أن الكون يتفتح أمامها ، وأن فى الطبيعة جمالاً يناديها ، وأن فى وسعها أن تنهض فى صميم الليل كما كانت تفعل ، وأن تتأمل روعة البدر الكامل ، وتشرب فتنة الفجر الوليد وهو يخلع نوره البنفسجى الناضر على حياتها .

واستقر عزمها على أن تنفض عنها عبء الضعف والخمول ، وأن تثبت فى قوة شخصيتها ، وتؤكد فى حزم إرادتها ، وتطالب زوجها الذى امتحن استقامتها عشر سنوات كاملة ، أن يطلقها اليوم من إسارها ، ويدعها تخرج لزيارة الأهل والصديقات بمفردها ، ويعترف لها فى النهاية بقسطها المشروع من الحياة ، وحقها المقدس فى الكرامة والحرية .

وكان قد بدا على عبد الجواد أنه استنكر من نفسه كيف رفع يده على زوجته ، وأنه يريد برغم كبره وصلفه أن يتقرب إليها على شرط ألا ينزل عن مكانته . فشجع مظهره الست نعيمة ، واعتقدت أنها لو صارحته برغبتها فى حزم وضيقت عليه الخناق وأحرجته ، فهو فى سبيل أن تصفح عنه وتقبل عليه ، لن يخيب سؤلها ولن يغامر بإثارة نزاع جديد . فاستجمعت قواها ذات يوم وتحفزت . تحفزت لتحقيق الحرية وطلب الخلاص . ولكن اليوم نفسه ، اليوم الذى اختارته لخلاصها أدهشها وأكربها ، واستغربت من الطبيعة لماذا أرادته أن يكون عاصفاً وملبداً .

كان يوم من أيام شهر مارس ، لاح فى مستهله رائع الزرقة ناصع الضياء . ففرحت المرأة باليوم المبتغى ، وأجالت الطرف فى سمائه وهى تلهث وتبتسم ، وإذا بريح عاتية ، ريح من رياح الخماسين تهب فجأة فيه ، وتشوه سماءه ، وتفسد هواءه ، ثم تصليه حرارة من لهب ، يملأ جوه بغبار أصفر دقيق كثيف ، يدور حول نفسه فى شكل أعمدة لولبية ، فيزهق الأنفاس ، ويعمى العيون ، ويجعل من الأرض كلها

شبه صحراء قاحلة يزمجر فيها إعصار .

وبهتت المرأة وارتعدت ، وظلت تحدق فترة إلى الجو الأصفر المعتوه ثم أسرعت وأغلقت نوافذ بيتها وأبوابه ، ومضت مع ذلك ، وقلبها يخفق تنتظر مقدم زوجها لتصارحه .

وبلغت الساعة الثانية والنصف ولم يعد عبد الجواد . ثم بلغت الثالثة ، فالرابعة ، فأيقنت الست نعيمة أنها كانت مخدوعة فى مظهر زوجها ، وأنه ولا ريب قد تغدى فى صحبة بعض رفاقه متعمداً أيضاً مكايدتها وإهمالها . فأبت أن تأكل ، واهتاجت أعصابها ، واشتد عزمها ، وراحت تجول فى فسحات البيت ، مغيظة ومحنقة ، والجو يثيرها ، والحر يخنقها ، وصورة الصحراء المروعة المنتشرة فى الخارج ، تحتل عينيها الزائغتين وتقبض قلبها .

ودخل عبد الجواد . دخل ممتقع الوجه ، محنى الظهر ، يتباطأ فى مشيته ، وينظر حوله فى سهوم ، وتشع من عينيه برغم اضطرابه بارقة خفية متهكمة باردة . فلم تكد تبصره الست نعيمة حتى انفجرت . قالت له إنها لم تعد تحتمل حياتها ، وإنها توشك أن تختنق فى سجنها ، وإنها لابد أن تتنفس وتعيش كغيرها ، وتخرج بمفردها متى شاءت ، وتزور أقاربها وصديقاتها ، وإلا فهى قد تفقد عقلها فى النهاية وتجن ، فتقضى على نفسها بنفسها .

واحتدمت ثورتها وصاحت :

ــ ألست أنا أيضاً إنساناً مثلك ؟ . أليس لى فى الحياة مثل حقك .

أنت تعلم تماماً أنى لن أسىء استخدام حريتى ولكنك تريد إذلالى إرضاء لكبريائك . بيد أنى منذ اليوم لن أسلم بأنك اشتريتنى لأنك تزوجتنى ... لا . . لن تحبسنى . . لن تمنعنى من الخروج. سأخرج . . سأخرج بمفردى . . أتسمع ؟ . . سأخرج . . .

فرشقها بنظرة ساخرة مستمرئة وقال :

– وإلى أين تريدين أن تذهبى ؟ . .

ثم عاجلها بصوت غائر :

– إلى بيت رءوف ؟ . أليس كذلك ؟

فشمخت برأسها وهمت بأن تجيب . ولكنه دنا منها ، وأمسك بذراعها ، وثبت فى عينيها بصره ، وقال فى صوت خفيض :

– لقد مات رءوف . . مات اليوم فى بيته . . . أصابته نزلة رئوية لم يحتملها صدره الضعيف . ولقد كنت أنا الساعة هناك . وستشيع الجنازة صباح الغد !

فذهلت المرأة وصرخت :

– ماذا تقول ؟ . . .

فردد الرجل عباراته وهو جامد . فشخصت إليه الست نعيمة فى تأمل جنونى وطفقت تختلج . اختلجت اختلاجاً متداركاً مروعاً . ثم أحست ظلمة حالكة تغشى بصرها ، ويداً جبارة تهصر قلبها ، وشبه طعنات وحشية متعاقبة تتخطفها ، وتأبى إلا أن تمزقها وتستنزف دماءها .

ولبثت فترة تتطوح وكأنها توشك أن تسقط . ثم تماسكت بغتة وهتفت:

— أريد أن أراه . . . لابد أن أراه . . .

فصاح الزوج :

— أبداً . . . لن تخرجى . . . يمكنك أن تذهبى للعزاء غداً .

فتوهجت عيناها وقالت :

— بل سأذهب الآن .

وقبل أن يتنبه ويعترضها ويحاول أن يقطع عليها الطريق ، كانت قد ألقت عليها معطفها الأسود ، واختطفت حقيبة يدها ، واندفعت كمخبولة ومرقت من الباب. فثارت ثائرة الرجل وتبعها. اعتزم أن يردها عنوة كى تعد له طعام الغداء . ولكنه توقف بغتة وابتسم . ذكر أن غريمه قد أصبح الآن جماداً أبكم أصم غير مرهوب . فهز كتفيه ، ثم كر راجعاً ، ونادى الخادم ، واستعجلها أن تهيئ له طعامه . ثم فتح النافذة ، وأطل منها ، وعاد يبتسم وهو يشيع امرأته بنظارته المستمرئة المتشفية .

* * *

وانطلقت الست نعيمة فى الجو الأغبر الثائر المعتوه ، واستقلت سيارة حملتها إلى بيت رءوف ، وما إن دخلت البيت حتى ارتمت على صدر الوالدة المطعونة وعانقتها ، وعانقت أخوات الفقيد ، ومضت تقبلهن فى خبال وتجهش بالبكاء . ثم تملصت منهن وتسللت . تسللت بين رهط النسوة النائحات ، ودخلت الحجرة الزافرة المعتمة وأبصرت رءوف . أبصرته أصفر بلون النهار الغاشم ، معتصر التقاطيع التى كانت تبهرها ،

مخنوق الصوت الذى كان يخلبها ، مهدود القوى التى كانت تملأ بالفرح والنشاط حياتها ، مغمض العينين السوداوين الرائعتين اللتين كانت ترقص فيهما أعجب الأطياف وأغربها . ولكن الصفاء كان يغمر رءوف . الصفاء كان ينسكب عليه كبلسم إلهى . الصفاء كان يطوق وجهه بشبه هالة من نور . فحدقت فيه الست نعيمة ولم تر غير هذا النور . لم تر غير هذا الصفاء . فحدقت أيضًا ، وظلت تحدق . وأشربت النور والصفاء قلبها وعقلها وخيالها وروحها . ثم أطرقت وابتعدت ، وارتدت إلى أهل الفقيد وعزتهم . ثم كفت عن البكاء ، وتجلدت وتصلبت ، وقفلت راجعة إلى بيتها .

* * *

ومنذ ذلك اليوم تبدلت الست نعيمة واستحالت إلى امرأة أخرى . لم تعد تطالب بحريتها ، أو تجزع من قضبان سجنها ، أو تصبو إلى أى شىء من متاع هذه الدنيا . كانت بعد أن ودعت جثمان رءوف قد قطعت على نفسها عهداً مقدسًا بأن تقضى العمر كله منزوية وطائعة وصابرة حتى تقترب النهاية وتدق الساعة الفاصلة .

قبعت فى بيتها ، ورصدت قواها على خدمة وتربية أولادها ، ومضت فى البيت ساكنة صامتة حائمة ، لا هم لها إلا البحث عن عمل يشغلها ، وواجب يستغرقها ، وجهد شاق تخلقه خلقاً ، وتتشبث به ما استطاعت وتتفانى فيه .

وكان الصفاء الذى تدفق عليها من جثمان رءوف يملأ قلبها ،

والنور الذى تفجر من هيكله يغمر كيانها ، والسلام العميق الذى انسكب عليه يترقرق فى صدرها كماء قراح ، ويطهر نفسها من كل حقد وكل ضغينة وكل كراهية .

لم تشأ أن تفكر فيما فعله زوجها . لم تشأ أن تفكر فى أنه هو المسئول عن كل ما وقع لها ، وربما كان هو المسئول أيضاً عن موت رءوف الذى لابد أن تكون الصدمة التى تلقاها عقب طرده قد هدت قواه ، وضاعفت من وطأة المرض الذى أصابه فى صدره المعتل ، فأعجزته عن مقاومته وقتلته . لم تشأ أن تفكر فى شىء من هذا ، خشية أن تبغض زوجها ، فتعاف قربه ، فتنقض العهد الذى قطعته على نفسها ، وتفقد نعمة الصفاء والسلام التى حلت عليها .

وهكذا لم تتجهم قط لقرينها . لم تتبرم لحظة بغطرسته . لم تحاسبه على استبداده . لم تضن عليه أبداً بنفسها ، بل غالبت حواسها النافرة وفطرتها المتأبية ، ووهبته ذاتها عن طيب خاطر ، كأنها تهب شيئاً قد اجتث منها ، وأصبح غريباً عنها ، ولم يعد فى قليل أو كثير عزيزاً عليها .

بيد أن هذا المسلك بالذات ، هذا المسلك القويم المفروض ، أثار ثائرة عبد الجواد .

أحس أن امرأته قريبة منه وبعيدة عنه . قريبة منه بمظهر الجسد وبعيدة عنه بجوهر الروح ، وأن جوهر روحها أصبح ملكاً لها . بل بات حرماً لا يدخله غيرها ، وأنه هو الآن كلما أنعم النظر فيها وتأملها لم يجد فى أخلاقها عيباً يسلط عليه نقصه ، ولا فى واجباتها

مطعنًا يسدد إليه غضبه ، ولا فى سلوكها مغمزاً يصب عليه جام استبداده وغيرته . فاستنكر منها هذا الكمال الخالص فى أخلاقها ، واشتد إحساسه بأن كمالها يتحداه ويجرده من كل سلاح ، وأن هذا الكمال الصارم ، هذا الكمال الدائب العنيد لا يصدر عنها هى ، بل عن تلك القوة الغالبة العزيزة الأثيرة التى اندست فى قلبها ، وانتشرت فى كيانها ، وتمثلت وما تفتأ تتمثل فى جسدها الذى يخونها بالرغم منها ويتقلص ويتقبض ، ويبترد برودة الصقيع ساعة القرب والمحبة .

وتيقن أنها ما تزال تحب رءوف . تيقن أنها تحبه اليوم وهو ميت أضعاف ما أحبته بالأمس وهو حى ، وأنها لم تنزع إلى هذا السمو الخارق فى سلوكها وإلى هذا الكمال المطلق فى أخلاقها إلا لتظفر براحة الفكر والضمير ، فتستطيع أن تنقطع لحبها ، وتهب الطيف وحده الجزء الثمين الحميم من عقلها وقلبها وروحها .

وهاله موقفه منها ، وموقفها منه . هاله أن تكون امرأته فى بيته وهى ليست معه ، متصلة به وهى غائبة عنه . فأحس غيرة لم يحسها قط من قبل . غيرة محيرة مخبلة مسعورة ، تريد أن تصل إلى الغريم فتعجز ، وتريد أن تستقر منه على شيء فتخيب ، وتريد أن تنشب فيه مخالبها فلا تصطدم بغير الصمت والسر والظلام .

وكبر على عبد الجواد ألا تكون امرأته بالجسد والقلب والفكر ملكه وحده . فبدل أن يلطف من غلواء كبره ويحاسنها ، ويلاطفها ، ويترضاها ، كي يمحو من ذهنها ما أصابها منه فى الماضى ، وينتزعها

شيئاً فشيئاً من جاذبية تلك القوة المسيطرة عليها ويردها إليه ، سلك على النقيض مسلكه المألوف ، واستخدم الغلظة والعنف غير حافل .

واجه المرأة بحقيقة عواطفها ، ثم اتهمها بالغش والنفاق واصطناع الكمال فى أخلاقها ستراً لخيانتها ، ثم عيرها ببرودها ، وحقرها فى أنوثتها ، وطفق يحقر أيضاً ذكرى رءوف ، ويخلق له المساوئ والنقائص ، كأنه يريد أن يخمد طيفه فى نفس المرأة عنوة ، ويقتلعه ويستأصله ويرده إلى عالم الموت والعدم . بيد أنه كان يثور والمرأة هادئة ، وكان يمعن فى التجريح والمرأة لا تنطق بكلمة . وكانت هى فى غمرة غيبوبتها الحالمة ، تزداد بعداً وانطواءً وصفاءً وصبراً . فأحس الرجل كأنه يغمد سكيناً فى ماء ، أو يصارع ظلاً أو يحاول أن يقبض على هواء . فضاق صدره ، ونفد صبره ، وأراد أن ينبذ المرأة ، أن يطلقها . ولكنه كان مكبلاً بكسبه المتواضع ، وبأولاده الثلاثة ، وحاجتهم إلى أمهم . فآثر أن يبقيها ويستخدمها ويتمتع مع ذلك بها ، على أن يفر من البيت ما استطاع ، ويقضى ساعات فراغه فى المقاهى بصحبة رفاقه مطلقاً لأهوائه وميوله العنان ، باذلاً قصاراه فى ألا يكون غبياً ، وأن يكسب نفسه على الأقل ويربح الدنيا .

وكف عن المرأة وابتعد . وعندئذ تنفست الست نعيمة ملء صدرها وارتمت فى الحياة التى كانت تتوق إليها وتنشدها . ملكها العهد الذى التزمت به وقطعته على نفسها . فأبت إلا أن تبر بعهدها فى أكمل وأروع صورة يمكن لإرادة حبها ووفائها أن تبدعها .

اتشحت بالسواد من فرعها إلى قدمها . لم تعد تحفل حتى بالضرورى من مطالب حياتها . عكفت على الصلاة والصوم ، وتلاوة القرآن ، وقراءة الأدعية والأوراد ، ومحاسبة ضميرها على أقوالها وأفعالها ، بحيث لا تظل كامنة فى نفسها أيسر شبهة من ضغينة أو نميمة أو حسد أو أية رذيلة يمكن أن تلوثها وتشوه روعة حلمها .

وفاض من كيانها كله نور ساطع وعجيب . فافتتنت بها جاراتها ، وأكبرنها ، وقلد سنها . فوهبت نفسها أيضاً للبائسات منهن ، ومضت تخدمهن فى تواضع ، وتخف لنجدتهن عند الشدائد ، وتعنى بأطفالهن المرضى ، وتزودهن بالنصائح الغالية ، وتحضهن على الصبر والإيمان والصلاح والتقوى .

وكانت فى غضون ذلك ، وبعد أن استغنت عامدة عن خادمتها ، لا تكف عن بذلها الخالص فى سبيل بيتها وأولادها . فتغسل المواعين بيدها ، وتكنس الأرض وتمسحها . ثم تجمع الأولاد حولها فى المساء ، وتهون عليهم دروسهم وتراجعها معهم ، وما تزال بهم تشجعهم وتحفزهم حتى يؤدوا جميع فروضهم على خير وجه ويأووا إلى أسرتهم مبتهجين .

ولما كان يجن الليل ، وتطول غيبة عبد الجواد ، وتعمق الوحدة ، وتهمد الحركة ، وينتشر الصمت الزافر المجنح المجيد ، كانت الست نعيمة تثب من مكانها ، وتنظر حولها فى فرحة . ثم يشرق وجهها ، وتتألق عيناها . فتسرع وتجلس حيث كانت تجلس بالأمس تجاه رءوف . ثم تشرئب بعنقها ، وتسدد بصرها ، وترهف سمعها ، وتتجه

بكل قواها إلى مستقر حلمها . فينبثق الطيف فجأة أمامها ، حزيناً شريداً ضاوياً ، ويبتسم لها ، ويخاطبها ، ويعاتبها . فتتحدث هي إليه في لوعة وأسى ، وتطيب خاطره ، وتستغفره وتستمهله ، مناشدة إياه حبها وولاءها ألا يعذب نفسه على هذه الصورة ويعذبها ، وأن يصبر أيضاً وينتظر لأن الساعة لم تحن بعد .

وكان الطيف يمتثل ويختفى . فتبسط الست نعيمة ذراعيها ، فيمتلئ الفضاء بالأغنيات القديمة التى طالما خلبتها . فتود أن تتوه فيها . فيسود الصمت بغتة ويخيم عليها . فتجيش حسرتها ، وتندلع عيناها ، وتظل تحدق إلى الفضاء الأبكم الغادر ، وقلبها يخفق ، ودمعها يسيل .

وتعاقبت الأيام والأسابيع ، والأشهر والأعوام ، وتصرم من عمر الزمن أكثر من خمس وعشرين سنة . شب أولاد الست نعيمة وترعرعوا ، وأتموا علومهم وتزوجوا ، وإذ ذاك ، إذ ذاك فقط ، أحست المرأة التى فى شبابها وشاب شعرها ، أنها قد أدت واجبها ، وأبرأت ذمتها ، واستكملت جهادها . فاندفعت وأسامت نفسها إلى مقدس روحها ، واتجهت صوب الطيف بكل توقها ولهفتها واستعدادها فأقبل الطيف عليها مبتهلاً ، وجعل يستعجلها ويستصرخها . ولكنها استمهلته أيضاً واستغفرته وانتظرت . . . انتظرت وهى لا تدرى إلى متى يجب أن تنتظر . انتظرت وهى لاتدرى ماذا ينبغى لها أن تفعل ، ومتى يجب عليها أن تفى بالعهد ، وتبر بالقسم ، وتلبى النداء .

وظلت متحيرة وتائهة . وفى يوم من الأيام ، وكان قد اجتمع فى بيتها أولادها ، وزوجات أولادها ، وأولاد أولادها ، وجمع من الصديقات والأصدقاء ، وانطلق الكل يأكلون ويشربون ويمرحون ، استشعرت الست نعيمة شيئاً غريباً يخامرها ، وشيئاً عنيفاً يعتمل فى نفسها ويجذبها ، ثم يردها فى عنف نحو أولادها . فنظرت إلى أولادها وانخلعت . تأملتهم طويلا . تأملتهم فى زهو وفخار . رأتهم أمامها رجالاً . فتفطر قلبها أسفاً عليهم ، وأحست كأن شبابها الضائع يدب من جديد فيها ويهتف بها أن تتبعهم . . . وكادت أن تنسى . كادت أن تحنث . كادت من أجل أولادها أن تخون . ولكنها نظرت إلى نسائهم وتمثلت بيوتهم . فأيقنت أن أولادها ليسوا لها ، وأنها ربتهم لغيرها ، وأن أعزهم وأغلاهم سيكر راجعاً إلى بيته وامرأته وأولاده وينصرف هو الآخر عنها . فحدقت فيهم ، ثم حدقت فى زوجها وهو يثير حماستهم ، ويأكل فى شره ، ويشرب فى ظمأ ، ويترنح وينكت ويقهقه . فتحولت بغتة عنهم ونظرت بالرغم منها إلى النهار . نظرت إلى النهار فى سهوم . . وحينئذ ، وبينما هى واجمة ، بينما هى تائهة ، سمعت صوتاً ، صوتاً بعيداً ، صوتاً هامساً ، صوتاً فيه عذوبة خالبة وفيه أيضاً أمر قاطع وعنيد . فأجفلت وانتفضت وأنعمت النظر . فأبصرت النهار ، النهار الذى كان قد لاح فى مستهله رائع الفتنة ناصع الضياء ، أبصرته يتبدل فجأة ويتحول ، ويتخذ شكل الحياة فى ظلمها القاسى ، وتهب فيه نفس الرياح الصاخبة ، رياح الخماسين العاتية ، وتملأ جوه بغبار

أصفر دقيق ، يدور حول نفسه فى أعمدة مدوية ، ويحيل الأرض كلها إلى شبه صحراء يزمجر فيها إعصار .

وشخصت المرأة إلى الجو الثائر وهى تسمع الصوت الآمر ، واستضاءت بصيرتها فجأة وأدركت . أدركت إدراك اليقين والنور أن اليوم نفسه أقبل ، وأن الساعة المرصودة الموعودة قد دنت . فلم تتمهل . لم تتلفت . لم تشأ أن تلقى حتى على ابنها الأصغر العزيز نظرة ، وتحفزت ومشت . مشت مدفوعة بقوة لا تقاوم ، ودخلت مخدعها ، وفتحت باب شرفته ، وارتمت على مقعد فى الشرفة ، وظلت جالسة وسط العاصفة تشخص إلى ما وراء الأفق الأغبر الهادر حيث يطل عليها وجه رءوف .

وانقضت لحظات . وافتقد الأولاد أمهم . ونادى عليها زوجها والأصدقاء . ولما لم يجبهم غير الصدى ، أسرعوا وطافوا بغرف البيت . ثم دخلوا الشرفة . وما إن دخلوا حتى ذهلوا وروعوا ، إذ أبصروا الست نعيمة مرتمية على المقعد ، مفتوحة العينين ، مبتسمة الشفتين ، ولكن جثة هامدة لا حراك لها .



الورق الساحر



كانت « الست محفوظة » بنت المعلم سالم النقاش قد تعذبت وهى فتاة باستبداد زوجة أبيها التى حلت فى بيتهم محل أمها المتوفاة . فاشتدت لهفتها على الزواج ، وطفقت تحلم بشاب ينقذها ويهبها نعمة الحرية فى بيت مستقل .

وكانت محفوظة فتاة ذكية وجميلة ومطيعة ، تبذل غاية جهدها فى إرضاء زوجة أبيها بانكبابها المتواصل على أعمالها المنزلية. فتعمل النهار كله فى صبر ، وتغض عن الإهانة في سماحة ، وتحتمل الاستبداد فى جلد ، معللة نفسها بالخلاص يوماً ، ملتمسة عزاء وسلوى فى هوايتها المحببة وهى « الكتشينة » ، تفزع إليها فى المساء بعد العمل ، وتحملها فى صدرها كرقية ، وتذهب بها إلى الفتيات جاراتها حيث تلاعبهن « البصرة » أو « الكونكان » . . .

وكان كلما تقدم إليها شاب تمتعض زوجة أبيها ، ويهلع قلبها إذ تفكر أن عبء البيت سيقع على عاتق أولادها هى . فتسرع وتناصب الشاب العداء ، وتلصق به شتى العيوب ، وتوغر صدر زوجها عليه . فييأس الشاب وينصرف ساخطاً . فتنزوى محفوظة فى ركن من البيت وتبكى . ثم يعز عليها وهى شابة أن تحزن وتبكى ، فتخف إلى صديقاتها تلاعبهن الكتشينة وتفرج بهذا اللعب عن نفسها .

وهكذا ابتعد الشبان عنها وأهملتها الخاطبات . فلم يتردد الكهل

الأرمل المستمتع السكير « الأسطى حسنين النجار » أحد زملاء والدها ، وشرع يتقرب إليها فى جرأة ، ويغازلها فى الشارع وهى تبتاع لوازم البيت ، ويعرب لها فى حرارة عن حبه ، مقسماً بأنه قد ادخر من أجلها المهر سبعين جنيهاً كاملة ، وأنه متأهب فى أى وقت لقراءة الفاتحة وعقد الزواج .

ولم تكن محفوظة قد سمعت بأن شابًّا فى حيهم قد دفع مثل هذا المهر فى فتاة . فاضطربت وحارت ، وزهاها أن تكون مميزة ومحبوبة . فأقبلت على الأسطى حسنين تنعم النظر فيه ، وتحاول أن تتصور الحياة معه وهو زوجها . بيد أن الرجل كان ضخم الرأس ، أفطس الأنف ، مهزول البدن . فروعها منه رأسه الضخم يترنح فوق بدنه المهزول ، ونظراته المتقدة تندلع من عينيه الجاحظتين . فنفرت منه وأعرضت عنه . ولكنه لم يغضب ولم يتراجع بل تسلل إلى بيتها ، وأمعن فى التودد إلى زوجة أبيها ، وجعل يستميلها بشتى الهدايا . ثم أسعده الحظ فانتهز فرصة ضائقة مالية نزلت بالمعلم سالم النقاش ، فأقرضه مبلغًا من المال ؛ واتأد بعد ذلك أيامًا ، ثم لوح له بالمهر الكبير وطلب ابنته . فانبهر المعلم سالم ، وأحرجت امرأته . ولكنها لم تستطع أن تقابل إحسان الكهل بالإساءة وقد أخذت فى شبكة هداياه وطمعت فى المزيد منها . فامتثلت لرغبة زوجها ، وتحالف كلاهما على محفوظة حتى أطاعت الفتاة ورضخت ، وتم زواجها بالأسطى حسنين النجار .

واندفع الكهل فى العام الأول من زواجه، مفتونًا بشباب امرأته ، يرعاها ويدللها ، ويتهافت فى شغف عليها، ويجيبها إلى كل ما تطلب ، ترضية لها وتعويضًا عن كهولته العاجزة المتهدمة . أما محفوظة فكانت رغم هذا تنفر منه، وتخفى نفورها جهدها، وتحاول كعادتها أن تسرى عن نفسها بهوايتها المحببة . فتهرع إلى جاراتها ، وتلاعبهن الكتشينة ، وتنساق بين ضحك الجارات ومرحهن إلى لعبة جديدة ، لعبة طريفة لم تكن قد خطرت لها قط فى بال ، لعبة أثارها فى نفسها ميل كامن إلى الزهو والمباهاة ، ورغبة نسوية مشبوبة فى التفوق على أترابها. وهذه اللعبة هى أن تكشف لصديقاتها عن المجهول، وتقرأ طوالعهن من خلال ما يتنبأ به الورق .

واستهوتها هذه اللعبة وميزتها . فكانت تنثر الورق وهى تضحك ، ثم تتفرس فيه وهى تصطنع الجد والاهتمام ، ثم تستلهمه تنبؤات خرافية وطوالع خارقة ، وجاراتها منحنيات عليها ، يحطن بها ملهوفات ، ويصغين إليها صامتات مأخوذات ، وعيونهن الذاهلة تتسع فجأة وتبرق .

وشاء القدر الساخر أو المصادفة العجيبة أن تتحقق إحدى تنبؤات العرافة العابثة اللاهية ، وأن ترتد جارة لها إلى عصمة زوج كانت قد يئست من عودتها إليه . فطربت الست محفوظة وانتشت ، وأكبرت الجارات قدرتها الخارقة على كشف المجهول ، فتقاطرن عليها يسألنها فتح بختهن . فكانت تدهش هى وتسخر فى قرارة نفسها من بلاهتهن ثم

تطيب مع ذلك خاطرهن وتفتح لهن الورق . فينصرفن معجبات بها ، لاهجات بذكرها ، موقنات بأنها تقرأ الغيب فعلاً ، وتتنبأ بكل دقيق وخطير من حوادث المستقبل .

ولبثت الست محفوظة على هذه الحال يقربها زوجها الكهل فتنفر منه ، وتقبل عليها جاراتها فتبتهج بهن وهى تكشف لهن عن طوالعهن ، حتى انطوت فجأة وتباعدت وانكمشت ، وتبدلت حياتها تماماً .

تبدل مظهرها ، وزايلتها بهجتها ، وأفلت منها ذلك الجزء اليسير من الرفاهة والأمن الذى كانت تنعم به مع ذلك راضية وقانعة .

تغير زوجها الأسطى حسنين النجار . أسرف الكهل الظامئ فى التهافت على امرأته الشابة ، واستنفد قواه فى العام « العسلى » الأول من زواجه . فغلظ طبعه ، وجف خلقه ، وساءت معاملته . وبات وهو محنق ومغيظ وثائر على عجزه ، يمعن كل ليلة فى تعاطى الخمر ، يدفن فيها ذله وهمه وأساه . ثم يدخل البيت وهو سكران يتطوح . فتشتد زوجته فى زجره وتقريعه . فتهوله منها جرأتها ، فينهال عليها سباً وضرباً . فتصرخ المرأة وتولول ، فيجتمع عليهما الجيران . فتشهدهم الست محفوظة على مسلك زوجها وقسوته واستبداده ، ثم تغرق فى البكاء والشكوى نادبة حظها وهى فتاة وحظها الآن وهى زوجة .

وما كاد ينتصف العام الثانى حتى كانت الخمر قد أنهكت بدن الأسطى حسنين وأصابته بشتى العلل . فظل يكابر ويقاوم الأسابيع الطوال . ولكنه ازداد عجزاً وحنقاً وضراوة ، ثم رزح بغتة تحت وطأة

المرض والأسى ، فمات ذات ليلة وهو عائد إلى بيته قبيل الفجر . .

* * *

وتنفست الست محفوظة الصعداء، وأثلج صدرها أنها قد تخلصت من ذلك الكهل المهدم الغليظ السكير، وإن كان قد روعها أنها ألفت نفسها وحيدة ولا عائل لها. بيد أنها كانت قد ادخرت بعض المال ، فأبت أن تلجأ إلى والدها وتستهدف من جديد لعداء زوجته . فآثرت أن تبقى فى بيتها ، وتفكر فى وسيلة تعاونها على الحياة. ولكن ماذا تفعل، وأية مهنة يمكن لمثلها أن تحترف. إنها لا تحسن تفصيل ثوب أو حياكته ، وليس فى مقدورها أن تمارس فى بيوت الآخرين تلك الأعمال المنزلية الشاقة الوضيعة التى كانت تمارسها فى بيت والدها . لقد ألفت اليوم أن تكون فى بيتها سيدة، سيدة تنعم بحريتها واستقلالها . وإذن فماذا تفعل ، وأى السبل تسلك ، وكيف يمكنها أن تعيش ؟

وطافت بها شتى الخواطر والرؤى ، فتلفتت حولها ذات مساء قلقة وحائرة . فواجهت فى المرآة صورتها . فانجذبت إليها ، وأقبلت عليها ، وحدقت فيها كأنما هى تسائلها ، وإذا بعينها المتأملة تأخذ فجأة ورق الكتشينة وقد تبعثر فوق منضدة ، والتمعت ألوانه الزاهية فى صقال المرآة . فارتعشت الست محفوظة ، وأشرق ذهنها . أبرق فيه الخاطر الذى كان يراودها فى غفلة عن وعيها . فلم تتمهل واندفعت لتوها إلى الأوراق المتناثرة ، وشرعت تجمعها فى عناية وحرص وقد استقر فى نفسها بعد أن أفلحت فى تغفل جاراتها أن تضحك أيضًا على الناس ، وتستغل

سذاجتهم ، وتقبل على فتح البخت لا لمجرد العبث واللهو كما كانت تفعل بل لقاء أجر محدد تفرضه على من شاء أن تقرأ له فى الكتشينة طالعه . . .

* * *

وها هى ذى الست محفوظة فى مسكنها المتواضع الكائن فى زقاق مظلم من حى باب الشعرية ، تفتح البخت لسيدة جالسة تجاهها ، بينما قبعت سيدات أخريات فى ركن من الحجرة تنتظر كل منهن دورها فى تململ ونفاد صبر .

وكانت الست محفوظة متربعة على كنبة ، تنسدل على رأسها وكتفيها طرحة كبيرة سوداء ، تبدو من تحتها حافة منديل أبيض ناصع عصبت به رأسها . كانت جميلة وساكنة ومطوقة بشبه هالة من سحر . وكانت عيناها عسليتين واسعتين ، وخداها ممتلئين ناضرين ، وأنفها مستقيما ، وفمها دقيقـًا ، ويدها بضة ورخصة تقلب الورق فى تؤدة حالمة وتنظر فيه نظر الخبير الواثق . ثم تقطب جبينها فجأة ، وتتلع جيدها الممشوق فتلمع عندئذ عيناها العسليتان ، وترف أهدابها الطويلة ، وينفتح فمها الدقيق ويكشف عن الطالع المحجب المنشود .

والحق أنها كانت قد اشتهرت فى الحى كله وفى الأحياء المجاورة بميزتين كبيرتين : جمالها الناعس المتحفظ المهيب ، وتنبؤاتها الصادقة المثيرة المدهشة . . .

وكان جمالها وشهرتها يطمعان فيها رجال الحى من صغار التجار

ومهرة الصناع . فكانوا يتصلون بجاراتها ، ويسلطون عليها الخاطبات ، ويبعثون إليها بأمهاتهم وأخواتهم عساها أن ترضى بواحد منهم يبذل من أجلها كل مرتخص وغال . ولكنها وقد غدت معتزة بعملها وربحها ، أبت إلا أن تظل عاكفة على مهنتها ، ولا تتزوج أبداً بكهل ولو كان ميسوراً ، بل بشاب يملأ العين ، قوى وجميل ، تشعر هى فى أعماق نفسها أنها تحبه الحب كله ، وأنه هو الرجل الخليق بها .

كان هذا هو عزمها . أما حلمها ، حلمها الرائع ، حلمها الذى ما برح يستبد بها . ، فقد كان الاقتران بذلك الشاب المخيل على أن يكون من طبقة الأفندية ، من موظفى الحكومة الثابتين المرموقين ، يقدرها قدرها ، ويعلى من مكانتها ، ويستطيع أن ينتقل بها إلى حى العباسية مثلا أو المنيرة ، بحيث يكون فى وسعها أن تندمج فى أوساط الذوات وتتخذ من الهوانم الثريات زبائن لها . . .

والواقع أنها كانت قد أصبحت فى مستوى أطماعها ، ماهرة كل المهارة فى فتح البخت، تعرف كيف تستبطن شخصيات زبائنها ، وتعرف ماذا يجب أن تقول للمرأة العاقر، والفتاة العانس ، والأرملة المتحرقة، والزوجة المخدوعة المذعورة ، كى تقر السكينة فى نفوسهن وتملأ قلوبهن بهجة وأملاً . . .

على أنها كانت تستقبل الرجال أيضًا ، ولا تتهيبهم ، بل تغرر بهم، وتخدع أطول وأغزر شنب فيهم ، كما كانت تخدع حتى الذكيات الواعيات من النساء .

كانت تخدع ، وتجد لذة كبيرة فى مهنتها الخداعة ، وتستغرب كيف يصدقها الناس ، وتعجب لغبائهم وسلامة نواياهم ، وتدهش كلما أبصرت نفسها تربح مالا وتحرز شهرة بأيسر مجهود .

ومع هذا كله فهى لم تكن سعيدة . كان حلمها الرائع يلازمها . كان حلم الحب والطمع يؤرق لياليها . كان يفعم خيالها بصور عذبة شائقة تمثل لها الشباب الزاهر ، والعشق الغامر ، والأمومة الغالية ، والنجاح المؤمل المكفول . فيضنيها هذا الحلم ويشقيها ، ويملأ حياتها لهفة ومرارة ولوعة .

وظلت هكذا ردحاً من الزمن ، يداعبها الأمل وتداعبه ، ويفر منها فتلاحقه ، حتى وقعت الواقعة ذات يوم وحدث ما لم يكن فى الحسبان .

دخل عليها شاب فى مقتبل العمر ، شاب بديع الحسن ، شاب لم تر له بين الرجال شبيهاً ، وافر الحيوية ، أنيق الهندام ، ينم مظهره عن رفعة شأنه وعلو مكانته ، وطلب إليها وهو يمنحها بمبلغ كبير من المال أن تقرأ فى الورق السحرى طالعه .

وما إن تفرست فيه الست محفوظة حتى ارتجفت وتاه صوابها . كان هو ضالتها . كان هو أمير أحلامها . فتأملته أيضاً وروعت واختبلت ومسها الحب ، وأصابها منه دوار . . .

وطوح بها الدوار ، ولفها فى شبه دوامة ، ثم فصلها بغتة عن مهنتها ، وواجهها بالعاطفة التى استحوذت عليها . فلم تعد تشعر بغير هذه العاطفة

جياشة فى صدرها . فشرعت تقرأ للشاب طالعه وهى تقرأ فى نفسها هى ، وتهدف إلى مرادها هى ، وترمز إلى غايتها هى ، فى ضوء آمالها الواسعة وحبها الطارئ العظيم .

قالت له إن هناك امرأة تحبه ، ثم مثلت ذاتها وجمالها ومحاسنها ومختلف المشاعر التى يضطرم بها قلبها ووجدانها. وطفقت تؤكد للشاب وهى تقسم أغلظ الأيمان أن هذه المرأة التى تصفها له هى « لقطة » ، وهى ضالته المنشودة التى لا يمكن إلا أن يحبها مكرهـًا ويتزوجها . . . واستنار وجه الشاب ، وهز رأسه منشرح الصدر مغتبطـًا ، ولم يستطع من فرط فرحه إلا أن يطل برأسه على الكتشينة ، وينحنى على المنجمة كأنما هو يريد أن يقبلها . فخيل إلى الست محفوظة أنه قد فهم . ولكنه نهض مسرعـًا ، وابتسم لها واعداً إياها بالعودة . ثم مد يده وصافحها فى حرارة . فأجفلت المرأة واضطربت ، واستبقت يده فى يدها لحظة ، وهمت بأن تصارحه . ولكن الخوف احتواها ، والخجل استبد بها ، والحب تمكن منها وعقل لسانها . فتركت الشاب ينصرف ولم تجسر على النطق بكلمة .

ولم يكد يختفى حتى اشتعل قلب الست محفوظة وانطلقت من صدرها زفرة حانقة . هالها أن قوة غاشمة أخرستها . فأخذت تعض شفتيها وتردد : « لماذا . . . لماذا لم أتكلم ؟ . . . » . ثم أطلقت العنان لخيالها وجعلت تفكر : أيمكن أن يكون قد تنبه ؟ . . . أيمكن أن يكون قد فهم وانجذب ؟ . . . أيمكن حقـًا أن يعود ؟ . . . حبذا لو كان

فى مقدورها أن تعرف الآن أين هو ، إذن لسعت إليه ، وتهالكت عليه ، و بذلت المستحيل كى تجذبه وتغريه وتخضعه . . .

واحتواها الحب مقرونًا بالأمل ، وزادتها الأيام الحاوية المتعاقبة تشبثًا بحلمها ، وتخبطًا فى الحيرة والقلق ومتاهة اللهفة والصبر والانتظار .

وفجأة وعلى دهش منها ، أحست فى نفسها شيئًا جديداً ، شيئًا غريبًا ، شيئًا لم تكن قد تصورته أو توقعته أبداً . . . أحست أنها كغيرها ، فى حاجة إلى إنسان ، إلى منقذ ؛ إلى من ينير لها الطريق ، بل أحست وهى مذهولة أنها أصبحت كز بائنها سواء بسواء . . .

أمضها الحب ولذعتها ناره وتحكم فيها طيف الشاب . فأرادت أن تعرف مصيرها معه . فتحولت إلى المستقبل ، وتطلعت إلى الغيب ، وتمنت لو أتيح لها أن تميط اللثام عن حظها ، وتكتنه كالآخرين سر المجهول . . .

و برغم يقينها أنها دجالة ، وأن ورقها زائف وخداع وأن جميع أشباهها دجالون ، تمكنت منها فكرة ثابتة ، وأبت إلا أن تعتقد أن غيرها من العرافين يمكن أن يكون صادقًا . فلم تتردد لحظة واستجمعت قواها وذهبت . . . ذهبت إلى أبرع المشايخ ، وأحذق المنجمين ، وأشهر قراء الطوالع وضاربى الرمل . ولكن « الشيخة نور » هى وحدها التى فهمتها ، وهى التى أسعفتها ، وهى التى أقرت فى نفسها الطمأنينة والثقة والأمل .

قالت لها إنها تحب ، وإن حبيبها لا بد عائد إليها ، عائد إليها

فى ظرف شهر واحد ، ليخطبها ويمهرها مهراً غالياً ويقترن بها .

فصدقت الست محفوظة ، وطارت نفسها شعاعاً ، ولم تعد تسعها الدنيا . . .

وانتظرت أيضاً وصبرت ، وأشرق وجهها ، وازدهر بدنها ، وتهيأ كل حسن فيها لاستقبال زوجها الجميل الحبيب . . .

وفى ذات صباح ، وبينما هى جالسة تفكر وقد عيل صبرها وران على عينيها الأسى ، سمعت طرقاً على الباب . فخفت إلى الخارج مهرولة . ولكنها ما إن فتحت حتى شهقت وتراجعت وجمدت فى مكانها .

أبصرت الشاب . . . الشاب نفسه . . . الشاب الأنيق الجميل . . . حبيبها وزوجها المرتقب ومعقد آمالها ، يدخل متأبطاً ذراع امرأة باهرة الحسن ، ساحرة الرواء . فحملقت فيهما مذهولة . فلم يتمهل الشاب ، وأخذ يصيح ويردد أن هذه المرأة هى التى كان يحبها ، وهى التى استشف طالعه من أجلها ، وهى التى وصفتها له الست محفوظة ، وهى التى عقد عليها بالأمس وأصبحت اليوم زوجته . . .

وانثنى إلى المنجمة الشهيرة يشدو بقدرتها ، ويطرى علمها ، ويعترف بصدق نبوءتها ، ويقدم لها « الحلاوة » ورقة مالية بمائة قرش !!!

عندئذ تمزق قلب الست محفوظة . تداعت على الكنبة ، وغشى عينيها البائستين ظلام . خيل إليها أنها قد تردت فى وهدة شقاء سحيق . تدافعت أنفاسها فى لغط مبهم أجش . ولكنها ، والحنق ينهشها والخيبة

المرة تحرق صدرها ، لم يسعها إلا أن تتمالك نفسها ، وتكبح عواطفها ، وتشكر الشاب ، وتصرف العروسين السعيدين قبل أن تخور قواها وترزح تحت وطأة اللوعة والذل والهوان .

ولما أوصدت خلف العروسين بابها ، وعادت إلى مجلسها متطوحة ومتعثرة ، أحست أنها وحيدة ، أنها منبوذة ، أنها تائهة . فهالها الفراغ الأصم وطوقه الغاشم يلتف حول عنقها ويكاد يخنقها . فلم تستطع أن تصدق . لم تستطع أن تقتنع . لم تستطع أن تسلم . فاندفعت لفورها ، واختطفت الكتشينة ، ونثرت ورق اللعب فى إصرار ، وراحت تغالب حظها ، وتفتح بختها ، وتقول وتؤكد وملء نفسها اليقين بأنها لم تكن أبداً دجالة ، وأن ورقها صادق ، وأنها لم تكذب يوماً على أحد :

– سيعود ! . . . سيطلقها ويعود ! . . . لابد سيعود ! . . .

ولبثت تقلب الورق الساحر ، وعينها المؤمنة ملهوفة ، ويدها الرخصة ترتعش . . .

حياة امرأة



« من عنايات إلى زوجها صفوت »

عزيزى صفوت

« أنا لم أشأ أن أهدم حياتك ولكنى أريد أن تعلم علم اليقين أنك أنت الذى هدمتها بنفسك . لا تضطرب مما سأقوله لك . لاتدع الغضب يتمكن منك والسخط يستولى عليك . ولكن هل يمكن لمثلك أن يغضب أو يسخط أو يثور ؟ . . . ذلك هو محور المسألة . أنت رجل لا تحفل بشىء ، ولا تتأثر بشىء ، ولا تقيم وزنـًا لأى شىء . . . كل ما تنشده فى هذه الدنيا هو راحة البال ، واطمئنان النفس ، وفراغ القلب ، والضحك ، والتنكيت والفرفشة . أنت لا تؤمن إلا بنعيم مستمد من الصغائر ، وبسعادة نابعة من كل ما هو مادى ونفعى ورخيص . هكذا أنت وتلك هى صورة نفسك . ولكنى ما بدأت خطابى بالتحدث إليك عن هذه الصورة الظاهرية منك ، إلا لأتحدث عن سر روحك ، وجوهر طبيعتك ، ورذيلة حياتك ، تلك الرذيلة الشائنة البغيضة التى عصفت آخر الأمر بنا ، وقوضت صرح بيتنا ، وألقت بى أنا فى تيار مأساة مروعة كادت تفقدنى سلطانى على نفسى ، وتقضى القضاء المبرم على .

لقد تزوجتنى ياصفوت وأنت تعلم أنى كنت مدرسة ملحوظة المكانة فى أوساط التعليم ، وأنى كنت فتاة رقيقة الحس ، مشبوبة العواطف ،

مولعة بالفكر ، كلفة بالأدب وسائر الفنون . ولقد اخترتنى لهذه الخلال نفسها ، أو للمفاخرة بها ، لا أدرى . ولكنك على كل حال قدرت فضائلى وأقبلت علىّ إقبال رجل معجب ذاهل مفتون ، يتمنى أن يشاطرنى عواطفى ويقاسمنى ميولى ونزعاتى ، ويبادلنى الحياةالمعنوية التى كنت أنزع إليها والتى كانت هى غاية فكرى وقبلة خيالى .

هكذا رأيتك فى مبدأ الأمر ، وهكذا تصورتك . اعتقدت أنك مخلص فى إعجابك ، صريح فى إطرائك ، صادق فى عزمك على أن تعيش معى وفق ميولى وعلى نفس المستوى المعنوى الذى كنت تعلم أنى أحبه وأوثره وأنشد العيش فيه .

والحق الذى يجب أن أعترف به هو أنك فى العام الأول من زواجنا حاولت أن تشعر . حاولت أن تفهم . حاولت أن تتغير . أردت أن تسمو بنفسك ولو قليلاً . أردت أن تهذب من فكرك بالمطالعة ، وتهذب من عاداتك بالملاحظة ، وتهذب من أنانية أهوائك وطباعك بالرقة والدماثة ورياضة النفس أيضا على التضحية . ولكنك فى الواقع كنت تمثل . كنت تتكلف وتتصنع . كنت تقاوم ذاتك ، وتكافح طبعك ، وتستر حقيقة أخلاقك ، وتود فى أعماق نفسك أن تمزق ذلك القناع الذى أسدلته بيدك على وجهك .

وشيئًا فشيئًا ، وعلى مر الزمن ، مزقت القناع بالفعل ، ثم أطلقت لنفسك عنانها ، وأرسلتها على سجيتها ، وبرزت فجأة رجلا قاسيًا فظًا

غليظاً لا يمت بأية صلة إلى ذلك الرجل المهذب الممتاز الرقيق الذى ارتضيته أنا زوجاً لى .

تبدل كل شىء فيك بغتة . عدت إلى طبيعتك . طبيعة الإنسان الفطرى البدائى المتحلل من كل ضابط . أيقظت غرائزك من سباتها : ثم ارتميت فى غمرتها ، أسعد ما تكون باتخاذها وسيلة للزهو والاستهتار والتحدى .

وكانت غرائزك هى المجون الوضيع ، والكسل البغيض ، والشراهة المنفرة ، والبخل ، البخل الشائن الحقير المزرى .

كنت ما تكاد تدخل بيتك عائداً من الديوان حتى تطلب الطعام وأنت تجأر . فإذا ما جئتك به ، ارتميت عليه كوحش كاسر ، وطفقت تأكل بيديك وعينيك وقدميك وكل عضو فيك حتى تتخم . وبعد فراغك من تناول الطعام كنت لا تكلف نفسك عناء الجلوس إلىّ ولو لحظة ، بل تسرع وتتناول شيئاً من كربونات الصودا ، ثم تدخل مخدعك ، وتنام . تنام حتى الساعة السادسة ثم تستيقظ .. . تستيقظ ونفس النهم متمكن منك ونفس الشراهة مستولية عليك . فترسل فى طلب جارك وصديقك الوجيه العاطل إحسان بك ، وتجلس فى الشرفة معه ، مرتدياً جلابيتك المخططة التى أبيت أن تستعيض عنها بالبيجامة ، ثم تنادى بأعلى صوتك كل بائع متجول ، و « تفاصله » ، وتساومه ، وتشترى منه الخس أو الملانة ، أو البرتقال ، أو « اليوسف افندى » أو الجزر ، ثم تميل على صاحبك وترشقه بالنكت المكشوفة البذيئة ، ثم تقهقه قهقهة مدوية

والطعام لا يزال يملأ شدقيك ، ثم تلقى بأعواد الخس أو أعواد الملانة أو قشر البرتقال فى الشارع أو على أرض الشرفة النظيفة التى غسلتها أنا ومسحتها بيدى فى الصباح ! . . .

ولقد حاولت . أن أغفر لك شراهتك ، وأعتبرها شبه تسلية تساعدك على تغذية روح المرح المتأصلة فيك . ولكنك كنت تمعن فيها إمعان بعض النسوة البلديات المتلهفات على السمنة بأى ثمن . أجل . كنت مثلهن تماماً . لا تتهافت علىَ الطعام فقط بل تتهالك أيضاً على « المفتأة » والحلبة و«الكتيرة» وتأبى إلا أن تسمن وتترهل وتستكرش وتصبح كباشوات العهد القديم ، تتباطأ فى حركتك ، وتتئد فى إشارتك ، وتتهادى فى مشيتك ، وتتخطر وتتعثر تعثر الوجاهة والدلال .

ولقد كان يثيرنى منك فوق ما تقدم ، ولعك الوحشى بأكل اللحوم ، ومعرفتك الراسخة بأنواعها ، ودقتك العجيبة فى اختيارها ، واتجاهك فى معظم أمسيات الشتاء إلى قتل وقتك باستحضار ذلك القرطاس الكبير المملوء بالفحم ، ورص الفحم فى الموقد ، وإشعال النار فيه ، وخنق أهل البيت بدخانه ، كى تشوى عليه شرائح اللحم ثم تلتهمها التهاماً وهى ساخنة طرية تنضح بالدهن .

تلك كانت هوايتك المفضلة التى طالما زجرتك عليها ، وحاولت أن أحذرك منها ، حرصاً على صحتك ولكن دون جدوى .

بيد أن شراهتك كانت لا تخيفنى ، وميلك إلى المجون والكسل لا

يزعجنى ، ونزعتك إلى الاستهتار وعدم الاكتراث لا تذهب بهدوء أعصابى .

كل هذه الأهواء كانت تبعث فى نفسى على الرغم منى شعوراً بالتقزز فقط ، تخالطه الحسرة واللوعة والندم . أما الرذيلة التى كانت حقاً تثيرنى ، وتجثم على صدرى ، وتملأ قلبى بالكراهية والخوف والحقد ، فهى بخلك الغريب ، بخلك الخارق ، بخلك الذكى اللئيم الخبيث ، الذى جعل من ذهنك آلة حاسبة عجيبة ، آلة تكيل بكيلين ، وتنزع نزعتين ، فتسخو على نفسها مختارة ، بينما هى ، فى مناورات مدهشة ، تذل الآخرين ، وتحرمهم ، وتقتر عليهم أشد وأبلغ وأبشع تقتير .

هو ذاك . الطعام الشهى لك ، والكساء الأنيق لك ، وتحقيق مختلف الرغبات والنزوات هو دائماً طوع مزاجك . وأنا ، أنا زوجتك ، زوجة صفوت أفندى ، أستغفر الله ، بل زوجة صفوت بك الموظف فى الدرجة الرابعة ، فيجب ألا أكون امرأة ، ويجب ألا أتجمل ، ويجب ألا أفصل فستاناً على « الموضة » أو أشترى زجاجة كولونيا ، أو علبة بودرة ، أو أصبعاً من الروج ، أو علبة من الكريم . . . كل هذه الأشياء كانت فى نظرك مساخر وترهات وكماليات يجب أن أحتقرها أنا وأستغنى عنها ، وأعرف كيف أكون امرأة جميلة أنيقة بدونها . أما طفلتك ، بنتك ، بنتك الوحيدة ، فلا يجوز أن تصرخ ، ولا يجوز أن تبكى ، ولا يجوز أن تمرض ، فتعكر مزاجك ، وتقلق راحتك ، وتجلب إليك الوساوس

والهموم . أما إذا حدث وأصيبت بأى داء فواجبي أنا أيضًا ، أنا وحدى ، أن أعنى بها ، وأن أتجنب جهدى عرضها على طبيب ، وأن أحملها وأطوف بها على المستوصفات الشعبية ، أو المستشفيات المجانية ، أسرق لها العلاج من الفقراء المساكين . . . والويل لى ثم الويل لو حاولت أن أضللك ، وأحتال عليك ، وأغالطك فى الحساب ، وأخفى عنك قرشًا واحداً أنفقه على ابنتى ، أو على زينتى ، أو على بيتى ، إنك حينئذ تفتح عينيك ، وترهف أذنيك ، وتنقلب إلى صراف مجرب حذر يقظ . ثم تبدأ بمحاسبتى على كل قرش ، بل كل مليم وأنت تبتسم ابتسامة فاترة ناعسة ، ملؤها اللؤم والخبث ، والرغبة فى الإحراج والاتهام والإذلال .

هذا البخل الوضيع ، هذا البخل النابع من الأنانية ، والصادر عن غلظة العواطف ، وجفاف المشاعر ، وجشع النفس ، وفراغ القلب والروح ، هذا البخل الذى كان يمكّن لك من التمادى فى الشراهة ، والتمتع بالأناقة ، والإغراق فى الكسل والمجون وعدم الاكتراث ، على حساب امرأتك وبنتك وبيتك ، هذا البخل ولد فيك على مر الأيام ، وأنت لا تدرى ، ولعًا مضاعفًا بالجشع ، وشغفًا جنونيًا بالمال ، وتكالبًا مسعوراً على المصلحة ، وشذوذاً مخيفًا فى الميول والأهواء .

وهذا الشذوذ هو الذى ابتلانى بالكارثة التى أرزح تحتها اليوم ، بل هو الذى احتفر الهوة تحت قدمى ، وزين لى بالرغم من صبرى وطول احتمالى أن أثور ثورة جارفة على حظى وأن أكتب إليك هذه الرسالة ،

بعد أن غادرت بيتك أنا وابنتى ، وبلجأت مذعورة مخبولة إلى منزل أبى ! . . . فاسمع الآن . . . اسمع الحقيقة كلها . . . الحقيقة المروعة التى صنعتها أنت . . . وعساك أن تنفعل وتضطرب وتراجع نفسك قبل فوات الوقت .

لقد عشنا معًا خمسة أعوام ،ولكننا لم نعش فى بيتنا بمفردنا . كان معنا شقيقك « سامح » منذ أول يوم تزوجنا فيه . لم أشأ فى مبدأ الأمر أن أعيش فى بيت يلازمنى فيه رجل غريب ، وكدت أرفض هذا الزواج . ولكننى بعد أن رأيت سامح ، وتعرفت إليه ، وقص على قصته ، وعلمت أنه كان متزوجًا منذ أكثر من عشر سنوات بامرأة أحبها إلى حد العبادة ثم طلقها لسوء سلوكها ، وآلى على نفسه أن يعيش عزبًا وأن ينصرف عن النساء ولا يقدم على الزواج مرة ثانية ، بعد أن علمت كل هذا ولمست فى شخصية سامح حسرة عميقة على امرأته ، وحنينًا خفيًا إلى الأيام والأعوام التى أمضاها معها ، تأثرت له ، واطمأنت نفسى إليه ، ولا سيما أنه كان رجلا دمث الطبع ، لين الجانب ، رقيقًا مهذبًا ، يعرف كيف يحترم نفسه كما يعرف كيف يحترم الآخرين .

وهكذا رضيت بالحياة معكما تحت سقف واحد . رضيت وأنا متنبهة متيقظة ، أرقب كل حركة تصدر عنى ، وكل كلمة أو إشارة تبدر منى ، وأحاول ما استطعت أن أكون مع سامح بسيطة فى ظرف ، متحفظة فى كياسة ، رقيقة فى عزة وأدب واحتشام .

وكان سامح يحترمنى ويقدرنى ، ويعاملنى معاملة الأخت ، متجنبًا

كل مباسطة معى ، وكل خلوة تجمعه بى ، وكل حديث خاص يرفع الكلفة بينه وبينى . وكنت أنا مستريحة إلى هذا الضرب من الحياة ، أغبط نفسى على ما حالفنى من هدوء وتوفيق ، ولا أخطر على بالى لحظة واحدة أن أزداد تقرباً من سامح أو أقتحم شخصيته ، أو أجاوز فى معاملته حد الود الأخوى الصريح .

ولقد أحس هو منى هذا التحفظ ، فازداد احتراماً لى ، وتشبثاً بالجمود المؤدب المتباعد الذى كان قد فرضه على كل تصرفاته معى .

ولبثنا على هذه الحال طوال تلك السنوات الخمس . ثم تغير فجأة كل شىء . . . كنت أنا مثال التحفظ وكان سامح مثال الأدب بل مثال الجمود . ولكن هذا الجمود الواقى ، هذا الجمود العاقل المتزن لم يعجبك أنت . . . أنت زوجى . . . فشرعت تتبرم وتتململ . فاستغربت أنا تحولك ، ولم أدرك علة استيائك ، ولم أستطع أن أتبين حقيقة نواياك .

وفى ذات يوم ، فى ذات يوم تذكره ولا شك تماماً ، دعوتنى إلى مخدعنا ، ثم أوصدت بابه ، ثم انحنيت علىّ فجأة ، وقلت لى ولمعة البخل تومض فى وجهك ، ولهفة الجشع وحب المال تتقد فى عينيك ، قلت لى إن أخاك سامح موظف ممتاز ، وإنه يتقاضى اليوم من الشركة التى يعمل بها مرتباً كبيراً ، وإنه لا يعول زوجة ولا أولاداً ، وإنه قد ادخر فى العشر سنوات الأخيرة التى أمضاها عزباً مبلغاً يربى على الثلاثة آلاف جنيه ، فتطلعت إليك أنا ولم أفهم . . . لم أتبين . . .

فزجرتني وصحت بي وعيناك تبرقان ، أن واجب الحكمة والعقل يقضي علينا بأن نربح سامح لأنفسنا ، وندمجه في حياتنا جهدنا ، ونرفه عليه قدر استطاعتنا ، كي يخرج من انكماشه وجموده ، فلا يحس مرارة الوحدة ، ولا يشعر بالحنين إلى الحياة العائلية ، ولا يفكر برغم تعلقه بالعزوبة ، في الإقدام يوماً على زواج جديد . وهكذا يبقى جهاده لنا ، وخيره لنا ، وماله لنا ولأولادنا . . .

هذا ما قلته لي أنت بالحرف الواحد ، ثم ضممتني إلى صدرك ، وهمست في أذني أن سامح بدأ يتردد على أسرة صديقنا المحامي الأستاذ صلاح ، وأنه يعجب بابنته الجميلة « لطفية » وأنهم قد فاتحوه بشأن الزواج منها ، وأنه حائر محجم ، يشعر بميل إلى الفتاة ، ولكنه يتردد في التضحية بحريته وتكبيل نفسه بقيد أصبح لا يألفه . . . فتفرست أنا فيك دهشة وسألت مزيداً من الإفصاح . فقلت لي بلهجة آمرة جافية ، إني يجب أن أتقرب جهدي إلى سامح ، وأن أحاسنه وأسايره ، وأجامله وأتملقه ، وأجتذبه وأستميله ، وأبذل قصاراى في التغلب على تحفظه وجموده ، بحيث يركن لنا ، ويطمئن إلينا ، ويحس أنه واحد منا ، فلا تتمكن منه الوحشة والجهامة ، ولا تدفعه مرارة الوحدة إلى التفكير يوماً في الزواج بلطفية أو بغيرها .

وكنت تتكلم ، وبصرك يلمع ، وصوتك يتلهف ، وأنفاسك تغلي ، وخيالك يتصور أن مال أخيك أصبح في النهاية لك وحدك . وكنت أنا

أنظر إليك ، وأتأملك ، وأعدك بأن أذعن لأمرك ، وملء نفسى الشعور بالكبر والأنفة والتقزز والضجر .

أجل . لم أكترث لتدبيرك . لم أعلق عليه أهمية كبيرة . ولكنى مع هذا نفذته لأرضيك . أقبلت على سامح بوجه أوفر بشاشة وأكثر استجابة وأقل تحفظاً . بيد أنى لم أستطع مغالبة طبعى والتحلل دفعة واحدة من مختلف ضوابط العرف والعادة التى كانت تسيطر على تصرفاتى ، فاستأت أنت وتذمرت ، وانتهرتنى فى عنف ، ثم رميتنى بضيق الذهن ، وقصر النظر ، وقلة الحيلة ، فكنت أنت ، أنت الذى حفزتنى وشجعتنى . . .

نعم شجعتنى . فمضيت أنا طوعاً لأمرك أستدرج سامح وأحاسنه ، وأروضه وأدلله ، وأترضاه وأجتذبه . فبهت الرجل لتحولى ، وانكمش وتراجع وازداد جموداً ، بل ازداد انطواء وتباعداً وتجهماً . فأحسست أنا ، وأحسست لأول مرة فى حياتى بغريزة الأنثى تجيش وتصطخب فى صدرى . كبر على أن يتحدانى رجل ، ويروغ منى ، ويثبت أمامى ، ويستعصى على . فلم ألجأ إلى التلطف والتودد فقط كما نصحتنى ، بل وجدتنى ألجأ ، بالرغم منى ، إلى الدهاء .

فطفقت أقبل تارة على سامح ثم أعرض عنه ، أمنيه بصداقتى ، ثم أنقلب عليه ، أرضى عنه فترة ، ثم أتبرم به وأدعه فريسة الحيرة والقلق والتخبط والذهول .

هذا الجو المضطرب المكفهر ، المتأرجح بين مد وجزر ، أحدث أعمق الأثر فى نفس سامح . فخشى أن يغضبنى ، وخشى أن يثيرنى ،

وخشى إن هو أسرف فى جموده أن أسرف أنا أيضًا فى إعراضى ، فتستغرب أنت أمرنا ، وترتاب فينا ، وتتشكك فى براءة ونزاهة صداقتنا . فلم يستطع سامح بعد جهد إلا أن يلين لى مكرهًا ، ويقبل على متردداً ، وبادلنى فى الوقت بعد الآخر تبسطًا بتبسط ، وودًا بود .

وكان تعسًا ومحرومًا لم يألف متعة التجاوب مع امرأة منذ سنين . وظل فترة طويلة يعاند ويكابر ، ويتمنع ويتحفظ ، تدفعه الرغبة ويمنعه الخجل ؛ حتى استمرأ فى النهاية حلاوة الألفة ، وعذوبة التقلب فى جو المرأة ، فطأطأ الرأس صاغراً ، ولان تمامًا وأذعن لى وخضع .

وكنت أنت سعيداً بهذا التبدل الفجائى الذى أردته وأغريتنى به .

كنت من فرط ارتياحك وابتهاجك تمعن فى هوايتك المفضلة ، فتقيم سهرات شواء صاخبة ، وتلتهم شرائح اللحم وأنت تنثر النكت الجريئة البذيئة ، وتضحك وتغنى وتكاد ترقص . . . لم أرك أبداً سعيداً كما رأيتك فى تلك الأيام . كنت ما تفتأ تقبلنى ، وتهنئنى ، وتهتف فى أذنى أنى فى الحق امرأة وفى الحق أنثى ! . . .

وشرعنا نعيش معًا أنا وأنت وسامح كأسرة متفاهمة متآلفة .

بدأنا نسهر معًا ، ونلعب الورق معًا ، ونتبرم بزيارة الغريب ونؤثر أن نبقى فى البيت وحدنا .

وإذ ذاك ، وفى هدأة ليالينا الحلوة الناعمة ، بدأت أنا أهتم اهتمامًا جديداً بسامح وأتأمله وأتفرس فيه .

كان رجلا شامخ الرأس فى عزة ، وئيد الحركة فى هيبة ، ذا عينين

ساهمتين تفيضان عذوبة ورقة ، ووجنتين تضطرمان نضرة وفتوة ، وشفتين دقيقتين ترتسم عليهما ابتسامة حالمة متحسرة .

هذا المزيج من الأنفة والسماحة ، من الرجولة والرقة ، سكن هواجسى وضاعف اطمئنانى ، وحبب إلىّ المضى فى هذه الحياة الجديدة التى شعرت أنا أيضًا أنى أحوج ما أكون إليها للترفيه عن نفسى .

ثم بدأنا نخرج إلى النور ونستجلى معًا طلعة الدنيا . كنا نخرج إلى المسارح ودور السينما ، إلى الكازينات وملاهى الليل . وكنت أنت تزعم تارة أنك نسيت حافظة نقودك ، أو تتململ أخرى لأنك فى حاجة إلى « الفكة » أو تصطنع السهوم والشرود والاستغراق فى التفكير كلما كان يقتضيك واجب اللياقة أن تدفع على الأقل نصيبك ونصيب امرأتك . فكان سامح هو الذى يدفع . . . كان يسبقك إلى الدفع حتى لا يحرجك ويصيبك فى عزة نفسك أمام زوجتك . . . ولما كنا نجلس للعشاء فى أحد المطاعم الكبيرة ، كنت أنت تنتهز الفرصة ، وتطلق العنان لبخلك وطمعك وشراهتك . فتطلب لنفسك عشاء كاملا ، وكأسين أو ثلاثاً من الويسكى ، ولونين أو ثلاثة من الحلوى . فإذا ما جاء وقت الحساب ، أشحت بوجهك ، ولذت بالشرود كعادتك ، وانهمكت فى إخراج علبة سجائرك وأنت ترمق أخاك من طرف خفى ، كى تتغفله مرة أخرى وهو يحاسب الجرسون عنك ، وتضن عليه أيضًا حتى بسيجارة . . .

وكنت أنا ألحظ ذلك وأكاد أموت خجلاً وغمًّا . ولكنك كنت تستخف بى ولا تقيم وزنًا لحنقى ، بل كنت على النقيض تغمزنى بعينك ،

وتنبهنى بقدمك ، وتحثنى على التغافل و « الصهينة » مثلك . . .

وكان سامح يدفع وينفق إكرامًا لى ، وخجلاً منى ، وابتهاجًا بوجودى ، وتأدية لواجبه كرجل مهذب يخرج فى صحبة امرأة . فكنت أشعر شعوراً مرًّا عميقًا بأنه ينفق من أجلى . وأنك أنت تعرف ذلك يا زوجى ، تعرفه وتريده ، تريد أن تتخذ من امرأتك وسيلة لإشباع غرائزك وأداة لاستغلال أخيك ! . . .

هذا الشعور ، شعورى بإسفافك إلى هذا الحد وهوان شأنى عندك ، هو الذى ذهب بعقلى ، وأفقدنى اتزانى ، وبدد البقية الباقية من تحفظى ، وأثارنى عليك ثورة دفعتنى بالرغم منى إلى محاولة الثأر منك بمضاعفة التقرب إلى سامح . . .

أجل . كنت تسرف أنت فى استغلالى ، فأسرف أنا فى التودد إلى سامح عساك أن تغار وترتدع وتفهم . بيد أنك كنت ممعنا فى بخلك ، سادراً فى طمعك ، غافلا أو متغافلا عن نتائج تصرفك . فضاق صدرى ذرعًا بك ، وضاق صدرى ذرعًا بحياتى المظلمة الوضيعة معك ، فلم أجد بدًّا من أن أنفس عن كربى فى التعلق والتشبث بتلك الصداقة النامية الناضرة التى كانت قد بدأت تتوثق بينى وبين أخيك .

وهكذا حملنى التيار على دهش منى فأخذت بسحر سامح . . . رأيت فيه نقيضك وما كان يجب أن تكون عليه أنت . رأيت فيه ملاذى وملجئى . شعرت أنى فى حاجة إليه .

أحسست أنى أتخلص فى قربه من ربقة غلظتك وعبء ضجرى .

كل ما كنت أتحرق عليه وأتمناه فيك وجدته فيه ، رقة الطبع وأدب النفس وكرم اليد وحنان الروح . فأذهلتني نشوتي ، وأفقدتني سلطاني على عقلي ، وأسلمتني إلى هذا النعيم الذي لم أكن أتوقع أن أخالسه ولو بالوهم طول عمري . . .

وكان جواً مبهماً وغامضاًوعجيباً ، ينقبض ويتكاثف تارة ، وينفرج ويصفو أخرى ، ذلك الجو الذي سبحت فيه أنا وسامح . . . كان سامح لا يتكلم . كان ينظر إليّ فقط . وكنت أرى في نظراته الحيرة والقلق ، والارتباك والتعثر ، والتهافت والتأبي ، والخجل والإغضاء . فكنت أحدق فيه طويلا ، وأرسل إليه على الرغم مني نظرات وابتسامات تثيره وتدعوه . فكان يطرق ويغمغم ، ثم يرتجف ويتخبط ، ثم يقبل عليّ مكرهاً ، ويظل شاخصاً إليّ وفي عينيه رغبة محمومة يوشك أن يخالطها من فرط المجاهدة والكبح ، تلهف مندفع مخبول . .

وألهبت أنا فيه هذا التلهف ما شاء لي مكري وخبثي وضجري وانتقامي وفرحي الطارئ بالسعادة النادرة التي غمرتني .

. . ولكني شعرت فجأة أن هذا التلهف نفسه يجتاحني ، لأني قد بدلت سامح ، ولأنه قد أصبح تحت تأثير إغرائي رجلا لا يكفيه أن ينظر إليّ ويتأملني وينعم بصداقتي . بل يود لو استطاع أن يقتحمني ويغزوني . فانخلع قلبي ، وارتعدت . عرفت لأول مرة شعور الفزع والخوف



والحب . . . ولكنى ما كدت أفزع وأخاف حتى اضطرب هو أيضاً وملكه الذعر . . .

وبتنا كلانا والذعر يطاردنا ، نهمس ولا نتكلم، نلهث ولا نتنفس ، ننساب ولا نمشي ، نتلامح بعيوننا فترة ، ثم نسرع فنغض من أبصارنا جزعاً وهولا ، كأننا قد ارتكبنا الجريمة بالفعل، ولم يعد فى وسعنا إلا أن نرتكبها أيضاً كى نخنق فيها تبكيت ضميرنا ، فنقر السلام فى قلبينا ونستريح . . .

وكان خوفنا من الجريمة يدفعنا إليها ويغرينا بها. فكنا نراها دائماً أمامنا ، زاحفة إلينا ، مخيمة علينا ، مطوقة أفكارنا ، مندسة فى خيالنا ، تبتسم لنا وتضحك منا ، وتهزأ بخوفنا وجبننا . . .

واستبد بنا الخوف . فاشتغل حبنا ، واضطرمت عواطفنا ، وضقنا بالصبر والألم والحرمان ، وأحسسنا فى لحظة من لحظات وعينا المتيقظ المستهول أن الهاوية المروعة تحتفر شيئاً فشيئاً تحت أقدامنا . . .

فى تلك الليلة، وأظنك تذكرها ، تلك الليلة المقمرة الحارة الخانقة وأنا راقدة فى فراشى بجوار ابنتى ، أفكر فيك يا زوجى وأنتظر عودتك من الحفلة التى دعاك إليها رئيسك بمناسبة ترقيته ، تولانى قلق عصبي غريب . كنت أعلم أن سامح لم يغادر البيت وأنه الآن فى حجرته بجوارى . فلم أستطع أن أهدأ وأعالج النوم . ساورتنى رعدات متعاقبة كرعدات الحمى . خفقت دمائى خفقاً عنيفاً ضاعف عنفه وجيب قلبى . شعرت أن أعصابى تفلت منى وكأن كيانى كله ينسلخ عنى ، بل كأن هناك

شيء أقوى من إرادتي وعقلي يدفعني إلى الحركة والنهوض فنهضت ، نهضت ومشيت . . . مشيت دون أن أفكر لماذا نهضت ولماذا أمشي . . . مشيت دون أن أفكر في ابنتي ، أو أسمع غطيطها أو ألقي عليها نظرة . مشيت بخطى اللص الحذر . لم أسمع غير لهثات أنفاسي وطنين الليل حولي ، وتدافع الدم الذي كان يهدر في عروقي . . . وتقدمت وإذا بي تجاه حجرة سامح أريد أن أقتحمها وأدخلها . . . وما إن عزمت ودنوت من بابها وهممت بأن أفتحه ، حتى تقهقرت مذعورة وصرخت . . صرخت إذ أبصرت الباب يفتح من تلقاء نفسه ، ويبرز منه سامح ، ويقف أمامي وجهًا لوجه ! . . .

كان هو أيضًا يرتعش . كان في مثل حالتي . أراد هو الآخر أن يتسلل إلى حجرتي . لم يستطع هو أيضًا إلا أن يلبي ندائي ويسرع إلي . . . ولبثنا واقفين ، يحدق كل منا إلى الآخر ، ويرى كل منا عيني الآخر ، ونظراته ، وقسمات وجهه تملؤها الرغبة العاتية ، ويبرق في تضاعيفها العزم الأثيم .

وتخاذلت ركبتاي وأوشكت أن أتهاوى . فأسرعت واستندت إلى مصراع الباب وأنا أرتجف .

وكانت أشعة القمر المنصبة من النافذة ، تمتد إلى سامح وتغمر وجهه الذي انسكب عليه ، برغم احتقانه وتصلبه ، فيض من حرارة الابتهال ومرارة التضرع ، وعذوبة الأسى . روعني وفتنني ، وأشاع في جسمي وعقلي تهافتًا كتهافت الدوار . . .

وحالف الصمت لهفتى ، ولفنى فى ضبابه الزافر . فتاه فكرى ، وغلى دمى ، وتوترت أعصابى برغم خوفى ، وأحسست أنى أتقدم أيضًا ، وأتأمل سامح ، وأوشك أن أصافح أنفاسه التى كانت تهب كالنار على وجهى . . .

واستشعر هو ضعفى وتخاذلى . فأبرقت عيناه ، وأرسل صيحة مخنوقة ثم فتح ذراعيه وحاول أن يعانقنى . ولكنه ما إن دنا منى ، ما إن لمسنى ، وما إن شعرت أنا بوطأة ذراعيه اللينة القوية تحط فى إرادة حاسمة على كتفى ، حتى جحظت عيناى ، ودبت فى مفاصلى رجفة زلزلت كيانى ، وأجبرت سامح على الترفق بى ، والتراجع عنى لحظة ريثما أتمالك نفسى .

وفى تلك اللحظة ، فى تلك اللحظة التى كادت تجرفنى وتطوينى وتغيبنى فى لجة لا قرارلها ، اندفق على من موجها الصاخب ضوء ساطع ، رد إلى عقلى وأيقظنى .

أدركت فى مثل خطف البرق إدراكًا ثابتًا فى تجبره ، دقيقاً فى توعده ، فظيعاً فى صورته : أنى سأشطر جسدى بين أخوين وأبذل نفسى لشقيقين وأعيش فى بيت واحد بين رجلين ، يفترسنى كل منهما فأصمت ، ويستريب بى من هو صاحب حق على فأكتم وأمكر ، وأخدع وأكذب ، وأنافق وأضلل ، وأتقلب أبداً فى جو عاصف من الإقدام والإحجام ، والحذر والتوجس ، والقلق والرعب ، والتدهور والعذاب . فتصاعدت من أعماق ذاتى شهقة استنكار دفعتها موجة اشمئزاز طاغية ، تمكنت منى ، وأخذت بمخنقى ، وأشاعت الخدر فى أعضائى . فخشيت

إن أنا قاومتها أن أعود فأقع تحت سلطان رغبتى . فلذت بها، وتركت سيل الاشمئزاز والرعب يحملنى ، وانتفضت وصرخت :

ــ سامح . . .

ثم لوحت بذراعى وقلت :

ــ يجب أن ترحل ! . . .

فتطلع إلىّ الرجل مبهوتًا وجمد . فأردفت وأنا أجاهد كى لا أنظر إليه :

ــ غداً . . . يجب أن ترحل غداً . . . يجب أن تغادر البيت ! . .

فاختلج اختلاجًا عنيفًا، وصوب إلىّ نظرة مسترحمة ممزقة . ولكنى لم أرحمه ولم أرحم نفسى ، بل واجهت عينيه التائهتين، وقلت فى صوت خفيض :

ــ ويجب أن تتزوج لطفية ! . . .

فامتقع وجهه ، ثم رفت أهدابه رفيفًا متداركًا ، وتلوت شفتاه تغالبان وتحبسان فى صدره انفجار عواطفه . ثم تداعى رأسه بغتة، وتساقطت كتفاه ، وانبعث من هيكله المحطم صوت غائر يقول :

ــ سأرحل . . .

ومد ذراعيه بالرغم منه ، وحاول أن يلمسنى . ولكنه ارتد مذعوراً ودفع أصابعه فى شعره كمن يريد أن يستفيق . ثم صعد نفسًا مستطيلا، ورمانى بنظرة أخيرة ، واستدار فجأة ودخل حجرته وأوصد خلفه الباب .

وأحسست أنا كأنما هذا الباب قد أوصد على حياتى . فنازعتنى نفسى أن أغامر وأدفعه . ولكن هذا الباب نفسه ، هذا الباب الذى أوصده سامح فى وجهى ، هو الذى أسعفنى . ومثّل أمامى فى صلابته الراسخة ما يجب أن تكون عليه صلابتى . فالتقطت أنفاسى ، وقفلت راجعة إلى حجرتى ، وأوصدت أنا أيضاً بابها علىّ .

ولم أكد أرى ابنتى راقدة على فراشى ، تغط فى نومها الطاهر الساكن القرير ، حتى أسرعت واستلقيت على الفراش بجوارها ، وعزمت أن أطرد كل شىء وأنسى . ولكنى عندما حاولت أن أنام ، شعرت كأن لوعة ما تزال تشتعل فى قلبى . فارتميت على ابنتى وقبلتها . فاستيقظت الطفلة وقبلتنى ، فضممتها فى عنف إلى صدرى ، وأحسست راحة منقذة تغمرنى . فأغمضت عينى ، وعجبت لنفسى كيف طوانى النوم واستغرقت فيه . . .

وعدت أنت يا صفوت من الحفلة قبيل الفجر ، مكتظاً بالطعام والشراب ، هاتفاً بكرم رئيسك ، تتحدث فى إعجاب وانبهار عن اللحوم السمينة ، والطيور المحشوة ، والحلوى الفاخرة ، وشتى أنواع المأكولات الشهية التى كانت تزين مائدة الحفلة والتى استمتعت بها دون أن تكلف نفسك قرشاً واحداً . ثم ارتميت على فراشك ونمت كالقتيل . . .

وفى صباح اليوم التالى ، وكان يوم جمعة ، استفقت أنا من نومى الخاطف مبكرة ، وأسرعت فأعددت طعام الإفطار والغداء . وقبل

أن تصحو أنت ويستيقظ سامح ، ارتديت ملابسى ، وأمرت الخادم بأن تحل فى خدمة البيت محلى. ثم أصطحبت ابنتى وخرجت لزيارة شقيقتك إجلال . . .

كنت على أتم اليقين من أن سامح لا بد أن يبر بوعده، ولا بدّ أن يغادر بيتنا فى هذا اليوم. وكان فى وسعى أن أوقظه . كان فى وسعى أن أزوّده منى ولو بنظرة قبل رحيله .ولكنى كنت قد استعدت قوتى وسيطرتى على نفسى . فلم أشأ أن ألتقى بسامح ، أو أن أتيح له الفرصة لتوديعى .

ولما عدت إلى البيت عصراً شاهدت ما كنت أتوقعه . . . رأيتك أنت فى حالة هياج عصبى ما رأيتك عليها أبداً من قبل . كنت مهتاجاً هياجًا لا يثير الدهشة قدر ما يبعث على الضحك والرثاء . . . رأيتك تغدو وتروح فى البيت كمعتوه ، تنتظر بفارغ الصبر عودتى ، زائغ العينين ، منتفخ الصدغين تهدر وتزفر غيظًا ، وتصدم المقاعد وتركلها ، وتنهر الخادم وتسبها ، وتصرخ وتهذى وكأنك تود أن تحطم كل شىء .

وما إن أبصرتنى حتى تفاقمت ثورتك وانفجر مرجل غضبك. . . على أنها لم تكن ثورة رجل وإنما كانت ثورة طفل حانق بائس مسكين. صحت بى والدمع يكاد يطفر من عينيك، أن سامح قد جمع ملابسه وحزم حقائبه وترك البيت دون سبب . . تركه إلى غير عودة . . . ثم زايلتك طفولة غيظك وكمدك، وارتدت إليك قسوتك وغلظة طبعك . فأردفت وفى عينيك بريق وحشى ، إن سامح قد صارحك بأنه قد سئم

حياة العزوبة واعتزم أن يتزوج لطفية . . . ثم انقضضت علىّ ، وأمسكت بى ، وصرخت فى وجهى ، وأنت تهزنى هزًّا عنيفًا وتوشك أن تضربنى ، أنى أنا . . . أنا السبب فى رحيل سامح ، وأنى لم أعرف كيف أستميله ، وكيف أجتذبه ، وكيف أغريه ، وكيف أحبب إليه الحياة الدائمة فى بيتنا . . .

ثم مضيت تندب وتولول ، وتذكر ثروة سامح وكرمه وخيره ، وكل تلك النعم التى كان يغدقها بالأمس علينا والتى ستغدق فى الغد على الغريب . . .

وأصابك شبه مس . فتحولت إلىّ ثانية تسألنى كيف أهملت ؟ وكيف تهاونت ؟ وأى ذنب قد ارتكبت فى حق أخيك كى يرحل عنا هكذا فجأة وبدون سبب . . .

وكنت تصرخ وهوس البخل يتلهب فى عينيك ، وشهوة المال والتكالب عليه والحسرة على ضياعه ، تمسخ معالم وجهك وتفجر الزبد من شدقيك . . .

وكنت أنا ، إزاء هذا المشهد المخجل ، ما أزال ثابتة هادئة ، أصطنع الاستغراب والدهشة من كل ما وقع ، وأفكر فى أن أجبهك بالحقيقة لأستريح . ولكنى استهولت أن أضرم فى نفسك باعترافى نار ثورة أعنف وأشد . فاحتفظت بصمتى وهدوئى . فضاعف هذا الهدوء نفسه من هياجك وثورتك وإمعانك فى اتهامى . فكبر على أن تكون أنت

السبب فى ورطتى ثم تحملنى عبء المسئولية كلها وتظلمنى . فتطاولت عليك بالرغم منى . فضل عقلك ، ورميتنى بيمين طلاق واحدة شفعتها بطردى من بيتك . ثم دفعت الباب فى عنف وخرجت . أما أنا فلم أتردد لحظة واحدة ، واصطحبت ابنتى ، واتجهت من فورى إلى منزل أبى . وما كدت أستقر هناك حتى جاش فى صدرى شعور الاستنكار والظلم ، ولم يعد فى وسعى احتمال الكتمان والصمت . كنت قد احتفظت بالصمت حرصاً على بيتى ، أما وقد طردتنى أنت منه ، فقد رأيت أنا أن من واجبى أن أتكلم ، ومن واجبى أن أتهم ، ومن واجبى أن أكشف النقاب عن الصراع الذى نشب فى نفسى ، وعن العذابات المريرة التى كابدتها ، وعن الورطة القاسية التى تخبطت فيها ، لتعلم أنت ، أنت يا من كنت بالأمس زوجى ، أنك أنت الذى حرضتنى وأنت الذى أغريتنى ، وأنت الذى أوشكت ببخلك الدنىء وجشعك المرذول ، أن تلوثنى وتهلكنى .

لهذا حزمت أمرى وكتبت إليك هذه الرسالة .

فأنعم النظر فيها مليًّا لعلك الآن تتأثر ، ولعل ضميرك يبكتك . فتشعر وتقدر وتفهم .

بيد أنك لو فهمت حقًّا موقفى ، وقدرت حقًّا مبلغ عذابى ، وآمنت بصدق كل كلمة كتبتها فى هذه الرسالة ، ولم يداخلك أيسر شك لا فى استقامتى وشرفى ولا فى استقامة وشرف أخيك ، ثم أردت أن تثوب إلى رشدك ، وأن تفكر فى ردى يوماً إلى عصمتك ، فاعلم أنى لن أعود إليك حتى لو قبضت يدك عنى ، وحتى لو أجبرتنى على أن أعول ابنتك

بنفسى . لن أعود إليك إلا إذا أقلعت أولا وقبل كل شيء عن كبرى رذائلك ، أى رذيلة البخل التى نجم عنها اليوم دمار بيتك ، والتى كادت تعصف بى أنا أيضًا وتجرفنى . أما إذا أبيت إلا أن تمعن فى البخل ، وتوغل فى الطمع ، وترتع فى بحبوحة الأنانية والشراهة والغلظة وعدم الاكتراث ، فابق حيث أنت. فلن أعدم أنا بعدك رجلا يفهمنى ويقدرنى ويجدد حياتى ويستطيع أن يحفظ بشهامته ورجولته ، كرامته وكرامتى .

عنايات

* * *

وأدهشت هذه الرسالة صفوت ، وكادت تزعجه إزعاجًا شديداً . ومع ذلك فهو لم يستطع ، من فرط اعتداده بنفسه وثقته فى امرأته وإيمانه بشرفها ، أن يتصور أن تلك الوقائع التى وردت فى الرسالة على النحو الذى رسمته عنايات ، يمكن أن تكون قد أفضت إلى أشياء نابية ومزعجة إلى هذا الحد . . .

كان من عادته حرصًا على هدوئه ، وضنًّا براحة باله ، وذوداً عن روح العبث والاستهتار والمرح المتأصلة فيه ، كان من عادته ألا يؤمن بوجود العواطف الكبيرة والانفعالات العميقة ، ولا يصدق أو لا يريد أن يصدق أن تلك العواطف والانفعالات يمكن أن تتطور فى نفس إنسان تطوراً خطيراً يؤدى إلى وقوع كوارث ونكبات .

لهذا سخر من الرسالة ، أصر على اعتبارها قصة محشوة بالمبالغة والخيال ،أرادت بها امرأته التنصل من ذنبها .بيد أنه أحس على الرغم منه، أن تفاصيل الرسالة دقيقة ، وأن لهجتها حارة وصادقة . فأكربته تلك الدقة اللعينة ، وهذا الصدق المزعج . فأبى أن يتأثر بهما خشية إن يؤثرا فى جو حياته الرخى المرح ، كما أبى حرصًا على كرامته وكبريائه أن يفكر فى مناقشة امرأته حول محتويات الرسالة ، أو أن يواجه أخاه ويطلعه عليها . . .

ولم يكن فى الواقع مشغولا بالرسالة ، ولا بالنزاع الذى أقصى عنه امرأته ، ولا بيمين الطلاق التى أفلتت منه . بل إن ما كان حقًّا يشغله، وينغص عليه عيشه ، هو خوفه من ضياع المال ، هو حرصه على الدجاجة التى كانت تبيض له كل يوم ذهبًا .فانطلق يتعقب أخاه ،ويطارده، ويضيق السبل عليه ، عساه أن يقنعه بترك البنسيون الذى نزل فيه ، والعدول عن التزوج بلطفية ، والعودة فوراً إلى البيت . . .

ولكن سامح لم يضعف . لم يسلم . كان يقاوم ويرفض . كان ، وقد تأثر بما حدث وهاله أن تطلق عنايات بسببه ، يمعن فى التشبث بموقفه ، ويأمر شقيقه بالعودة إلى امرأته ، ويثنى عليها ، ويطرى خلالها ، ويحمل على أخلاق صفوت ، ويبرىء عنايات من كل عيب وذنب .

وكما كان يصر سامح على وجوب عودة أخيه إلى زوجته ، كذلك كان يصر هو على استمساكه بحريته ، وعلى حقه فى الحياة واعتزامه أن يقترن وشيكًا بلطفية :

وتحطمت محاولات صفوت وأفانين مكره على صخرة عناد أخيه . يئس من إمكان الفوز بالمال . فملأ الغيظ قلبه ، ونهش الكمد صدره ، وتحولت ثورته إلى امرأته . فأبى أن يذهب إليها ، أو يتصل بها ، أو يرى ابنته الوحيدة التى كان لا يعطف فى العالم على أحد غيرها .

وبدأ يدفن همه فى الأكل ، ويعيش فى البيت وحيداً شريداً تائهاً ، تلفه العزلة ، وتكتنفه الجهامة ، ويسحقه الضيق والضجر والكمد .

وانقضى أسبوع بطوله وهو يتقلب فى هذه الوحشة الخانقة ، هذه الوحشة التى لم يألفها . والتى لا تتفق وعاداته وميوله ، والتى ناءت عليه بغتة كحمل ثقيل أو هم وبيل لم يكن قط فى حسبانه . فحاول أن يفر من تلك الوحشة باللهو والسهر فلم يفلح . وحاول أن يتغلب عليها بفكرة الزواج من امرأة أخرى فلم يستقر أيضاً ولم يهدأ .

كان فكره لا يطاوعه ، وقلبه لا يعاونه ، وإرادته لا تستجيب إليه . كان ضميره يهمس فى أعماق روحه البليدة الكثيفة همساً دائباً متقطعاً خفياً ، أن امرأته صادقة ونزيهة ، وأن الذنب ذنبه هو لا ذنبها وأنه هو المسئول عن كل ما وقع لا هى .

وكما يحدث فى نفوس الضعاف الغلاظ المستمتعين ، العاجزين عن الصبر على الألم ، التواقين إلى الراحة والمرح ، النزاعين إلى الحركة السهلة والحياة اللينة ، لم يستطع صفوت احتمال عزلته وجهامته ووحشته . فتمنى أن يتحول ، وأراد أن يتحول . فلم يعد يجد بأساً فى الاعتقاد أنه بالفعل قد تحول ، وأنه هو المذنب حقاً . ذلك لأن قلبه وجسده وكل ما فيه

كان يصبو إلى التمتع بامرأته ، وبجو الراحة والأمن والائتناس الذى اعتاد أن يحس به منبعثًا منها ، منتشراً فى البيت حول أنوثتها ووجودها . . .

ولم تكد هذه الصورة الحلوة تندس فى خياله وتتمكن منه ، حتى ارتد من فوره إلى طبيعته وتنفس . . . لمعت عيناه ، وأبرقت أساريره ، وعادت الابتسامة العابثة المستهترة فازدهرت فى غبطة وفرح على شفتيه . . .

وفى ذات مساء ، حزم أمره ، ونهض فحلق ذقنه ، ونسق شعره ، وارتدى أجمل أثوابه وتعطر ، ثم خرج .

وقبل أن يستقل الترام ، عرج على محل حلوانى ، واشترى علبة متواضعة من الفواكه المسكرة ، وملفًا صغيراً من الشكولاته ثم توكل على الله وقصد إلى بيت حميه . . .

ودخل على امرأته ، مشرق الطلعة ، برىء النظرة ، ضاحك السن ، كأنه كان منذ لحظة معها ، وكأن لم يحدث بينهما أى شىء .

ودهشت عنايات وتحفظت . وقابل أبوها وأمها وأخوها تصرف صفوت بالسرور والارتياح وإن كانوا قد التزموا هم أيضًا جانب التحفظ ، وبدت عليهم أمارات الفتور . فلكى يحل صفوت عقدة تحفظهم ، ويبدد فتورهم ويدهشهم ويبهرهم ، لم يسرع بمصالحة امرأته ، ولم يعتذر إليها ، ولم يشر ولو من طرف خفى إلى حدوث أى نزاع بينهما ، بل أسرع وقدم إليها علبة الفواكه المسكرة ، ثم اجترأ وعانقها فى حرارة

وقبلها ، ثم استفسر عن صحة جميع أفراد العائلة ، ثم داعب حماته العابسة ومازحها ، وطفق ينثر المجاملات الرقيقة والدعابات اللطيفة والنكت المستملحة ، وهو يحتضن ابنته ويهدهدها ، ويلمس فى يدها ملف الشيكولاته ، ضاحكاً لنكته ، متباهياً متفائلاً مستبشراً . . .

وأذهلت الكل هذه الروح البسيطة الطيبة السمحة وطمأنتهم . فانتعش جو البيت ، وانتعش صفوت نفسه بهذا الجو. فأمعن فى القفش والتنكيت . فانتشر المرح مجلجلا ، وابتسمت الحماة بالرغم منها ، وقهقه زوجها ، وكاد ابنه أن يستلقى على ظهره من فرط الضحك .

أما عنايات فقد ظلت ثابتة فى تحفظها ، ولكنها ما لبثت أن ابتسمت مكرهة ، ثم ضحكت ، ثم لم تستطع حيال طوفان النكت إلا أن تقهقه كالآخرين وهى ناقمة على نفسها .

ولما اطمأن صفوت إلى أن الجو قد صفا ، عرض فى لباقة على امرأته أن يعود بها إلى البيت . ولكن عنايات التى أرادت أن تمتحنه وأن تستوثق مما إذا كان قد طالع الرسالة بإمعان وتدبرها وأصبح وفى عزمه أن يغير حقاً من طباعه وأخلاقه ، رمته بنظرة متأبية صارمة أدرك هو معناها ، ولكنه تجاهلها وأغضى عنها . فقالت له إنها الآن طالق ولن تعود إلى بيته ، وإنها فى حاجة إلى التفكير الطويل والترفيه عن نفسها فى جو أسرتها قبل أن ترضى بالعودة إليه لو اعتزم أن يردها . فصاح أنها امرأته وأن لا غنى له عنها ، وشفع قوله بنكتة طريفة فذة . فاطمأنت الحماة وزوجها وابنها ، وراعتهم النكتة . فهتفوا لها ، وضحكوا ضحكاً قاصفاً

وابتهجوا بقضاء السهرة فى صحبة صفوت المرح الطروب . فاستبقوه ملحين متشبثين . فأراد أن يستزيدهم سروراً ومرحاً . فنهض مسرعاً ونضا عنه بعض ثيابه ومال إلى حجرة النوم فاختطف من الشماعة إحدى جلاليب حميه ، وارتدى الجلابية وخرج عليهم .

وكانت الجلابية ضيقة وقصيرة . فانحشر فيها صدره المكتنز ، وبرز منها كرشه المتكور ، وبدت من تحتها ساقاه عاريتين ملبدتين بالشعر . فرشقته عنايات بنظرة احتقار ، وتصورت لفورها هيكل سامح . وضج الجميع وأغرقوا فى الضحك . فأجال صفوت البصر فيهم وهو يضحك مثلهم ويتواثب كأنه يوقص ، ثم راق له بغتة أن يدهشهم أيضاً ، أن يبهرهم أيضاً ، أن يضاعف أيضاً سرورهم بهذه الليلة السعيدة الشائقة . فاندفع نحو سترته ، وأخرج منها حافظة نقوده . ثم نادى الخادم فى صوت معتز جهير وناولها فى شجاعة جنيهين كاملين ، وأمرها بأن تذهب وتشترى « اثنين كيلو » من لحم الضأن الـ « ملبس » باللية ، وعشرة أرغفة وكثيراً من البقدونس والطماطم والخيار . . . وما إن اختفت الخادم حتى أسرع هو إلى الحمام وأشعل وابور الغاز ، ثم ثبت فوقه المشواة ، ثم حمل الوابور إلى غرفة الصالون ، ووضعه على الأرض ، وتربع تجاهه ، وأشار إلى الجميع أن يتربعوا حوله ، وجعل يفرك يديه ويبتسم . . . ولما عادت الخادم أمرها بأن تغسل البقدونس ، وتعد طبقاً من السلاطة المتقنة . ثم تناول منها اللحم ، وقلبه لحظة ، وتفحصه ، ورضى عنه ، ثم بدأ يرص الشرائح فى دقة على المشواة ، ورأسه يهتز ، وعيناه المتلهفتان تلمعان .

وتصاعدت فى الجو رائحة الشواء . وعادت الخادم تحمل صينية فيها السلاطة والبقدونس والخبز . فتقاطر الجميع على صفوت ما خلا امرأته ، فاستمهلهم فلم يمهلوه . فجعل يلتقط بأصابعه قطع اللحم المشوية ويدس كل قطعة فى شطيرة من الخبز ، ويقدمها مبتهجاً لأقرب يد ممتدة إليه متهافتة عليه . واختص نفسه بالقطع الكبيرة ، وشرع ينهشها فى نهم ، ويمضغها فى شغف ، ويستمرئها فى نشوة ، وعنايات التى لم يستخفها كل ما كان يجرى حولها ، تتأمل صفوت ، وترى شراهته وغلظته ومكره وسخاءه الغشاش ماثلة فى عينيه ، وفى فكيه ، وفى شفتيه ، وفى أسنانه الوطيدة التى تطحن الطعام طحناً وتبتلعه كأنها تختزن ثروة عزيزة وتطمرها . . .

وعاودها شعور التقزز ، وظلت تنعم النظر فى الرجل . . .

أيقنت أنه لم يتغير ولن يتغير . . . وعندما تحول إليها مبتسماً وقدم لها قطعة الخبز الدافئة ، لم تنظر إليه هو ، بل نظرت إلى قطعة الخبز وما فيها . . . . نظرت إلى اللحم . . . إلى شريحة اللحم المشوية المتألقة النضاحة بالدهن . فوهن منها العزم وهى ذاهلة ، وتراخت أعصابها على الرغم منها ، وانجابت السحب عن ذهنها فجأة وأدركت . . . أدركت وهى ترتعد أن هذا اللحم هو الخمر ، هو النسيان ، هو الخلاص ، وأنها فى أعماق ذاتها وبرغم الثورة التى انفجرت فى رسالتها ، امرأة تقنع بالكلام فقط ، وتفرج عن صدرها بالكلام فقط ، وأنها أضعف وأعجز من أن تثور بالفعل على هذا الخلاص ، وأنها ما دامت عاجزة أمام

نفسها وأهلها ، عاجزة عن تحطيم بيتها وأمنها ومستقبل ابنتها ، عاجزة عن المغامرة بحياتها فى زواج جديد مجهول المصير ، فيجب أن تعيش فى الغد أيضًا مع هذا الرجل ، ويجب أن تنسى إلى الأبد قلبها وحبها وآمالها ، ويجب أن تضحك ، ويجب أن تمرح ، ويجب أن تحب هذه الخمر ، هذا اللحم . . . هذا اللحم الذى يثير حتى الآن تقززها واستنكارها .

وترددت لحظة وارتجفت . ولكنها تناولت قطعة الخبز ، وأدنتها من فمها ، وعضت على اللحم بأسنانها ، واحتواها عبير الشواء الخانق ، وتحدرت من عينها المقهورة دمعة . . .



اللحظة الحاسمة



كان ممدداً على فراشه ، محنقًا وساخطًا ، يحاول أن يجمع شتات خواطره ، ويفكر . . .

لماذا أراد له القدر أن يفقد أباه وأمه ، وأن يعيش هنا فى بيت شقيقته ، بجوار زوجها الفظ الغليظ ؟ . . . خمسة أعوام وهو سجين هذا البيت ، ينفق على نفسه من دخل منزل شعبي صغير آل إليه بعد وفاة والده . أين يومه الحالك من أمسه الباهر ، وأين حاضره الملبد من شمس ماضيه التى لم تحجبها أبداً غيوم . لقد فقد حنان الأب والأم . إنه اليوم غريب فى بيت غريب . إن زوج شقيقته يكرهه ويحتقره ، ولا يطيق من امرأته أن تعطف عليه كما تعطف على أولاده هو . ومع ذلك فقد حاول « عاصم » أن يتقرب إلى هذه الرجل ، أن يخطب وده ، أن يتفانى فى خدمة أولاده . ولكن الرجل كان يزجره وينهره ، ولا يطمئن ويستريح إلا إذا رآه ، وقد ضاقت فى وجهه السبل يحتجب الأيام الطويلة فى حجرته ، تأكله المرارة والحسرة ، ويحبس الدمع فى عينيه ما استطاع . . . هذه هى حياته . لا مفر له اليوم منها . يجب أن يحتمل أيضًا ويصبر أيضاً ، حتى يتم دراسته ويتخرج من الجامعة ، ويصبح فى مقدوره أن يستقل بنفسه ، ويسترد كرامته ، ويشعر أنه فى الحق رجل وفى الحق إنسان . ولكن بأية قوة ، بأى حافز ؟ . . . أسفاه . . . كان يستلهم القوة من بنت عمه « إنعام » . كان يزورها فى

بيتها وهو يرتجف حبًّا لها وشغفًا بها . كان واثقًا من ميلها الشديد إليه ، مؤمنًا بطيبة قلبها الكريم السمح ، عاقداً أمله على أن يفوز يومًا بها ويتزوجها . بيد أنها الآن وقد شبت وترعرعت أصبحت تحتقره هى الأخرى ، تنظر إليه من عليائها ، تعرض عنه باحثة عن الزوج الثرى الذى فى وسعه أن يغدق عليها شتّى مناعم الترف ومباهج الدنيا . فبنت العم حالفت عليه زوج الأخت ، وبصيص النور الذى كان يتعلق به قلبه شارك الليل فى قسوته وبطشه وغاب واختفى هو أيضًا فى لجة من ظلام . . .

طافت هذه الخواطر بذهن عاصم ، فأغمض عينيه وحاول أن يقر السكينة فى نفسه وينام . ولكن الأرق استبد به وأعياه . فنهض مكروبًا . وأطل من نافذة حجرته . وفجأة حانت منه التفاتة إلى الشرفة المواجهة . فانتفض وكاد أن يرتد ويوصد النافذة . . . أبصر فى الشرفة بنت جارهم المهندس الأشيب العجوز ، أبصر « روحية » الفتاة الشاحبة الوجه ، الساهمة العينين ، الغائرة الخدين ، الفاحمة الشعر ، أبصرها ساهرة تحدق فى القمر وكأنها تائهة فى عالم بعيد مجهول . . .

وأحست الفتاة بعاصم وهو يطل من النافذة ، فانحنت على سور الشرفة ومضت تشخص إليه . أما هو فاضطرب وارتبك ، ولم يشأ أن يرفع النظر إليها ، وأسرع وارتد إلى حجرته دون أن يغلق النافذة . . .

كان يعلم علم اليقين أن روحية تحبه ، وأنها هى الطيبة ، وهى الوديعة ، وهى التقية الورعة الحريصة على تأدية شعائر الدين . ولكنه

برغم هذا كان ينفر منها . كان يتجنبها لفرط ما طبعت عليه من انطواء يخنق فيها روح الطلاقة والمرح . أجل . كان ينفر منها وينسى أنها هي وحدها التي تحبه أضعاف ما تحبه شقيقته ، وهي وحدها التي كانت تزوره كل يوم لتطمئن عليه عقب إصابته بتلك النزلة الرئوية التي التي كادت تهلكه .

ولم يستطع أن يفكر فيها أو يتمثلها في خياله . فاندفع ملهوفاً وطفق يفكر في إنعام ، في بنت عمه المستكبرة الشامخة ذات المرح المستهتر الصارخ الجرىء .

تمثلها هي . تمثل إنعام بعينيها الزرقاوين ، وخديها الموردين ، وصدرها الناهد ، وبياضها الناصع ، وشعرها الكستنى الثائر الذي يهدر كالموج على منكبيها العريضين .

وما إن تمثلها حتى خلبه جمالها ، ودوت في سمعه ، في الوقت نفسه ، ضحكتها ، ضحكتها العابثة الماجنة المتبجحة التي يكرهها والتي طالما التمس من الفتاة أن تقلع عنها . فكانت إنعام تعده ، ثم تخلف ، ثم تندم وتطلب الصفح ، ثم ترتد إلى طبيعتها القاسية ، فترمق عاصم بنظرة ترفع وازدراء وهي تلوى عنه مختالة وتبتسم . . .

تصور الشاب كل هذا ، فثار دمه ، واشتعل مع ذلك حبه وأمله . فاتقدت عزيمته اتقاداً يشبه غائلة من الحمى ، وأقسم أن يكافح كفاح جبار كي ينجح ، فيثبت بالنجاح شخصيته ، ويؤكد كرامته وحريته ، ويقترن فوق ذلك ببنت عمه الشامخة المستكبرة إنعام .

* * *

وارتمى فى تيار العمل بهمة لا تعرف الكلال . أمضى أسابيع وأشهراً وهو مكب على الدرس والتحصيل . واستمد من جرح كرامته دماً جديداً حفزه إلى التغلب والاستعلاء .

ولما أقبلت أيام الامتحان لم يجزع ، بل جازها فى ثقة راسخة وعزم مكين . فنجح بتفوق، وتخرج من كلية التجارة فائزاً فطربت أخته ، وأسرعت جارته الرقيقة الوديعة روحية وهنأته على نجاحه وهى تحدق فيه محنية الرأس ، رازحة تحت وطأة يأسها . أما زوج شقيقته الفظ الغليظ ، فقد هنأه وهو يسخر منه ويقول له إن النجاح شىء والعثور على الوظيفة شىء آخر . وأما إنعام التى أذهلها نجاحه ، فقد استخفت بهذا النجاح اعتقاداً منها أن المؤهل الذى حصل عليه عاصم لن يمكنه من الظفر بالمكانة الممتازة والمنصب الكبير الذى تحلم هى به لمن تختاره زوجاً لها .

وهكذا أقبلت لتهنئة الشاب ولكن بعد أيام ، وغلبها طبعها، وكادت أن تطلق تلك الضحكة العابثة المستهترة التى يكرهها . ولكنها خشيت أن تغضبه . فاصطنعت الرصانة والجد، وصافحته فى حرارة ، ثم هنأت أيضاً شقيقته ، وانصرفت كأنها لم تقبل إلا لتأدية واجب ، ومجاملة غريب . فاستهول منها عاصم هذا المسلك المزرى . فاشتد حنقه ، واستعر حبه ، وعاهد نفسه على أن يبذل المستحيل كى يخضع هذه الفتاة الشامخة المستكبرة ويطوعها آخر الأمر لإرادته .

وانطلق يجاهد ويسعى ويطرق جميع الأبواب ، حتى أسعده الحظ

ووفق فى إحدى الشركات إلى وظيفة مجزية ومرموقة، خليقة بنبوغه ، ولم يكن هو نفسه يحلم أبداً بها .

عندئذ تبدل فى مثل لمح الطرف كل شىء . تغيرت بنت العم وتغير زوج الأخت . راعهما المنصب الثابت والأجر الوفير . فأراد زوج الأخت أن يزوج عاصم بإحدى قريباته ، وأرادت إنعام التى لطفت بعض الشىء من كبرها وغرورها أن تقهر زوج الأخت وتفوز بعاصم لنفسها . فبدأت المنافسة بينها وبين الرجل الفظ الغليظ . فكان كل منهما يتبارى فى التقرب إلى عاصم والتزلف إليه والمبالغة فى تقديره ، وهو ينظر إليهما وقد ردّ اعتباره إلى نفسه ، مثلج الصدر مرفوع الرأس ، يستمرئ لذة تفوقه ونصره ، ولا يستطيع أن ينسى عذابه ، وينسى ما كان بالامس من تصرف إنعام .

حزّ فى صدره أنها أقبلت عليه بعد أن ابتسم له الحظ ، فأدرك أنها دمية لا امرأة ، دمية لا قلب لها ولا روح ، وأنها لا تحبه بل تحب أسباب الترف وألوان النعيم التى تعتقد أن فى مقدوره اليوم أن يغدقها عليها . ولكنه مع ذلك كان يهيم بها . كان يعشقها . كان يحس أن ليس فى وسعه أن يعيش ويسعد إلا إذا تزوجها . فودع بيت شقيقته ، وتخلص من قرينها الفظ الغليظ ، واتخذ له مسكناً مستقلاً فى نفس الشارع الصغير الذى ينهض فى زاوية منه بيت إنعام ، ثم اندفع يلقى فى روع نفسه أن فى استطاعته أن يبدل من خلق بنت عمه بعد الخطبة والزواج ، وأن يهذب من طبعها ، ويوقظ قلبها ووجدانها ، ويدفعها

إلى التعلق به تعلقًا عاطفيًا نزيهًا خالصًا .

ولم يتردد وصارحها برغبته فيها . فرحبت به الفتاة متهافتة . فخطبها وقدم لها شبكة ثمينة ، ورجا عمه أن يمهله بضعة أشهر يعد فيها المهر ويتهيأ للزواج .

* * *

ووقع النبأ على روحية وقع الصاعقة . أيقنت أن «عاصم» لم يهتم أبداً بها ، لم يفكر أبداً فيها ، لم يشعر لحظة بمبلغ حبها وإخلاصها فاشتدت لوعتها ، وزاد فى حرقة يأسها أنه ابتعد عنها واتخذ له مسكنًا بجوار منزل إنعام ، وأنها مهما أطلت اليوم من شرفتها ومهما أراقت من ماء عينيها ، فهى لن تبصر على الأقل طيفه أمامها ، يروح ويغدو فى بيت شقيقته ، هذا البيت الذى استحال فى نظرها إلى كتلة غاشمة هامدة صماء ..

وأظلمت الدنيا فى وجه روحية ، فانطوت أيضًا على نفسها ، واتشحت بالسواد كأنها فى حداد على حظها ، وباتت ولا ملاذ لقلبها وروحها إلا فى الصلاة والصوم . ومختلف ضروب العبادة والتقوى .

وفى غضون ذلك كان عاصم يتعذب أكثر مما تتعذب روحية . كان يزور خطيبته إنعام كل يوم تقريبًا ، ويحاول جاهداً أن يهذب من أخلاقها ، أن يبدل من روحها النفعية المغرضة ، أن يحرك قلبها وعواطفها ، أن ينفرها من ضحكتها العابثة المستهترة التى يكرهها . ولكن إنعام كانت قد استوثقت من عمق حبه لها ، وتأكدت من سلطانها البالغ عليه ، واطمأنت إلى أنه قد ارتبط بها ولم تعد له غاية فى الحياة إلا أن يصبح

زوجها . فارتدت إلى سابق زهوها وكبرها ، وأطلقت لغرائزها العنان ، ومضت تستبد به ، وتتحكم فيه ، وتنتقص من قيمة الشبكة الثمينة التى كانت قد أعجبتها ، وتسخر من هداياه وتقول إنها شائعة ، وتطمع فى غيرها مستوردة ونادرة ، وتطلب مهراً كبيراً ، وسكناً وجيهاً ، وحياة مترفة تليق بها ويمكن أن تكون إطاراً رائعاً خليقاً بجمالها .

وتمزق قلب عاصم وانهار حلمه . أحس أنه مهما حاول فلن يستطيع أن يبدل ما جبلت عليه إنعام من طمع مروع مقرون بالتلون والتجبر والسخرية والإذلال . فازداد يقينه أن من المحال عليه أن يعيش فى غد معها . فباعد من زياراته لها ، ثم انسحب شيئاً فشيئاً ، ثم استجمع قواه ذات يوم ، وحزم أمره وفسخ الخطبة . . .

وعبثاً حاول عمه أن يسترده ويوفق بينه وبين إنعام . كان عاصم يتوقع من الفتاة أن تراجع نفسها ، أن تتنبه لنقائصها ، أن تسعى إليه أو تكتب له ولو مرة . ولكنها استكبرت عليه كعادتها ، بل وتمادت فى عدم اكتراثها ، وبعثت إليه بالشبكة والهدايا . فردها من فوره ، والتهب فيه شعور مزدوج عجيب . زاده هذا التحقير تعلقاً بإنعام ، وأضرم فى صدره ، فى الوقت نفسه ، نار العزة والرجولة والإباء .

كان ما يزال يحب الفتاة ، ولكنه غالب نفسه وأبى أن يعود إليها . أبى أن يرمق بيتها المجاور لبيته ولو بنظرة . غير أنه ما إن حجبها عن مرآه حتى شقى بنفسه المتوحدة وأوشك أن يتردى فى هوة ما لها من قرار . أحس لأول مرة وطأة الحرمان والذل . تولته كآبة مستعصية ، وظل أياماً

بطولها حاملاً همه ،قابعاً فى عزلته ، ثائراً على أحلامه الجميلة الخائبة . ثم ضاق ذرعاً بنفسه ، وعزّ عليه أن يحزن ويبتئس من أجل فتاة نفعية لا قلب لها . فأراد أن يتخلص ، أن يتنفس ، أن يعيش . فتراءى له فجأة طيف روحية ، روحية الوديعة الرقيقة المنكسرة ، روحية التى أحبته حق الحب فتنكر لها ،وجحد حبها ، وسامها أقسى ضروب الصد والهوان . ففكر فيها . فلاحت له بوجهها الشاحب ، وشعرها الفاحم وعينيها الساهمتين . فألفاها جميلة جمال الأسى الصابر ، وأحس على دهش منه أنه بقدر ما كان ينفر منها أصبح الآن يصبو إليها ، ويعتقد ، بل يؤمن ، أنها بقلبها الطاهر وطبعها القانع ونفسها الصافية ، هى التى يمكن أن تنقذه وتجدد حياته وتجعل منه أسعد الأزواج .

ولم يتمهل وعزم أن يذهب إليها ، عزم أن يطلب يدها ، أن يفصل فى مستقبله ومصيره ويسدل على الماضى الستار .

وطرق بابها عصر يوم ودخل منزلها . دخل مطمئن النفس ، منشرح الصدر ، متخففاً من عبئه الذى أثقل كاهله . فاستقبله والدها دهشاً ومرحباً . فتهلل وجه الشاب ، وتلفت يبحث عن روحية . بيد أنه ما إن اتجه نحو الصالون ونفذ إليه حتى أجفل وتراجع إذ وقع بصره على الفتاة جالسة فى ركن قصى ، محنية الرأس ، مسبلة الطرف ، شاحبة الوجه ، تتحدث فى تعثر إلى رجل جالس تجاهها يناهز الخامسة والأربعين ، مترهل الجسم ، مصبوغ الشعر ، ضيق العينين ، كث

الحاجبين ، أنيق الملبس ، يتكلم فى ثقة واعتزاز وهو يبتسم للفتاة ابتسامة ملؤها التودد والملاطفة .

ورفعت روحية رأسها ، فالتقت عيناها بعينى عاصم . فذهلت ثم نهضت وحيته ، وجعلت تحدق فيه مستغربة وهى ترتعش. فتحول هو إلى الرجل الغريب . فأسرع والدها وعرفه به قائلاً إنه تاجر الأخشاب الوجيه المعروف الحاج عبد المحسن ، وأنه قد شرف الأسرة بأن طلب يد روحية وخطبها منذ أسبوع . . . فامتقع وجه عاصم . أحس كأن ظلمة عاتية تغشى بصره، ويداً جبارة تطبق على صدره، وكأن شيئاً عزيزاً ثميناً كان يثق أنه فى قبضة يده قد انتزع منه انتزاعاً وفى غمضة عين . فلم يستطع إلا أن يحيى الرجل ، ويهنئ الخطيبين وهو يتجلد ويحاول أن يجامل ويبتسم . أما روحية فكانت ما تزال تحدق فيه . كانت تحدق فيه مبهوتة وحائرة ، لا تعرف ما الذى جاء به الآن ولأى غرض . ولكنها وهى تتأمله ، وتبصر وجهه الممتقع ، وعينيه البائستين، وهيكله المتداعى ، أشرقت بصيرتها ، واستشعرت لفورها أن إنعام قد عذبته ، وأنه قد تخلى عنها، وأقبل ملهوفاً ولائذاً بها هى . فعادت وأنعمت النظر فيه ، ثم أطرقت وشردت ، ثم نظرت إلى الرجل الغريب ، إلى خطيبها ، ثم إلى والدها ، وانتفضت ولم تستطع إلا أن تغادر المكان وتسرع لإعداد القهوة . ولما عادت وقدمت القهوة بيد ترتجف ، كانت سحابة كثيفة تخيم على وجهها . فتأكد عاصم أنها قد رضيت بهذا الزوج على الرغم منها ، وأنها قد يئست واستسلمت لحظها . فنهض

متحاملاً على نفسه ، وحيا الرجلين ثم صافح الفتاة وهو يقول لها :

— مبروك يا روحية . . . إن شاء الله تتهنى وتفرحى . . .

فتطلعت إليه الفتاة بعينين زائغتين ورفت أهدابها ولم تتكلم . ثم رافقته حتى الباب ، وهى تتبعه النظر الساهم الشارد ، وتعض على شفتيها وتختلج .

* * *

وخرج عاصم منقبض الصدر ، كسير النفس ، محطم الأمل . وطفق يتجول فى الشوارع ، ويتأمل الشمس الغاربة ، ويتصور الظلمة توشك أن تغمر حياته كما توشك أن تغمر البقية الباقية من ضوء هذا النهار . بيد أن الحنق المرير احتواه ، وتصاعد من صدره غصة كادت أن تخنقه . عزّ عليه أن يودع كل شىء ، أن ينهزم فى كل شىء ، أن يفقد روحية ويفقد أيضاً إنعام . فتمثل إنعام وخفق قلبه . لم يجد أمامه غيرها . لم يبق له سواها . فانبعث حبه لها انبعاث الأمل المجدد الأخير فى وجدان تائه محروم . فلم يستطع إلا أن يتجه إليها ، ويتهافت عليها ويتعلق بها . فمشى مدفوعاً بقوة لا تقاوم . مشى كما يمشى المتلهف الظمآن ، حتى بلغ الشارع الصغير الذى ينهض فى زاوية منه بيت إنعام ، وبقربه البيت الذى يسكنه هو .

وكانت إنعام إذ ذاك فى لحظة من لحظات الفراغ والضجر ، تتلهى بالنظر إلى الشارع من نافذة حجرتها . فما إن لمحت عاصم مقبلاً حتى قطبت حاجبيها ، واعتقدت أنه سيدخل بيته كعادته دون أن يرفع رأسه

ويتطلع إلى حجرتها . فانزوت خلف النافذة معتزة وغير حافلة . ولكنها سرعان ما دهشت إذ أبصرت الشاب يتحول ويتجه صاغراً نحو بيتها هي . فلمعت عيناها ، واضطرم كبرها ، وأطلت من النافذة ولوحت بيدها .

فأحس عاصم بوجودها ، ورفع رأسه ونظر إليها . وكانت بصدرها الناهد ، وبياضها الناصع ، وشعرها الكستنى المموج ، جميلة جمالاً ساحراً . فتوقف الشاب وظل يشخص إليها وهو منجذب ومأخوذ . فابتسمت له . فهم بأن يدخل بيتها . وعندئذ وقع شيء غريب ، شيء لم يكن فى الحسبان أبداً . ترامت إلى سمع عاصم خطوات إنسان .

فالتفت وإذا به يبصر روحية ، روحية نفسها ، قادمة إليه ، مندفعة صوبه ، لا ترفع عينها إلى النافذة ، بل تقف تجاهه صامتة وهى ترتعش . فاكفهر وجه إنعام ، ولم تشك أن عاصم قد اتصل بروحية . فانحنت أيضًا ولبثت تطل على الشاب والفتاة ، وتحدق إليهما بعينين جاحظتين وتنتظر . . .

ودنت روحية من الشاب ، وانحنت عليه ، وقالت فى نبرة قاطعة :

ــ الراجل اللى شفته عندنا . . . الحاج عبد المحسن . . . أنا مش عايزاه . . . أنا قلتلو ما فيش قسمة . . . وقلت كمان لابويا ماخدوش أبداً . . . أبداً .

والتقطت أنفاسها وأردفت :

— وانت لما افتكرت فينا وجيت وزرتنا ، قلت يمكن تكون عايزنى . . . واديني اهو يا عاصم . . .

فذهل الشاب ، وتفرس فيها ، واشرأب بعنقه ، وجعل ينقل الطرف بينها وبين إنعام . بين بنت عمه الحسناء الخالبة التى عذبته والتى يشعر مع ذلك أنه متعلق بها ومنجذب إليها ، وبين الفتاة المنكمشة المنطوية الوفية التى راعته شجاعتها وما أقدمت عليه فى سبيله من تضحية .

وظل متخبطاً فى حيرته واضطرابه لحظة . ولكن عينه التى كانت ترمق بنت عمه ، لم تقو على التخلص منها ، لم تقو على التحرر من تأثيرها ، لم تقو على التحول عن صدرها الناهد وبياضها الناصع وجمالها الفتان . فانثنى بالرغم منه إلى الفتاة وغمغم :

— ليه . . . ليه عملت كده يا روحية ؟ . . .

فحملقت فيه الفتاة وتحطم قلبها .

أدركت أنه لم يزل مأخوذاً ومفتوناً بإنعام ، وأنها هى قد تهورت وضحت وأهدرت كرامتها على غير جدوى .

فتراجعت محنية الرأس منسحقة وهمت بالرحيل .

وفى تلك اللحظة ، فى تلك اللحظة الفاصلة ، فى تلك اللحظة الحاسمة ، أيقنت إنعام أن الشاب قد امتثل وخضع وأصبح لها وحدها . فلم تستطع أن تغالب طبعها ، وأطلقت تلك الضحكة التى كان عاصم يبغضها ، تلك الضحكة العابثة الساخرة المستهترة المتبجحة ، تؤكد بها انتصارها على الشاب وعلى غريمتها . فتسمرت روحية فى مكانها إذ رأت



عاصم يرتعش وقد احتقن وجهه . لم يرتعش فقط بل ثبت بصره فى إنعام وهى ما تفتأ تضحك ، وغلى الدم فى عروقه ، واشتد سخطه فجأة وصحا .

أحس وأدرك وتيقن أن هذه الفتاة العابثة الماجنة المستكبرة التى انتصرت اليوم عليه ، لابدّ أن تثبت انتصارها أيضًا فى غد لو تزوجها بأن تمعن فى الاستبداد به والتحكم فيه وتسميم حياته كما كانت تفعل بالأمس . فكبر عليه أن يذل ويمتهن العمر كله ، أن يُستعبد ويؤسر طوال حياته . فلكى يفر من ضعفه ، لكى يتخلص من صغاره وذله ، أهاب بكل ما فيه من مدخر الإرادة والعزم . وقبل أن تتحرك روحية وتعود وتهم بالرحيل ، اندفع نحوها ، وأمسك بها . فبهتت الفتاة ولم تصدق فرحتها . فجذبها إليه ملهوفًا ومشى بها وهو يتأبط ذراعها . فذهلت إنعام ، وجن جنونها ، ولم تستطع وقد كان النصر ملك يمينها . إلا أن تترخص وتنزل مكرهة عن كبريائها . فأخذت تضرب حافة النافذة بكلتا يديها ، وتصرخ :

ــ عاصم . . . عاصم . . .

فلم يكترث الشاب لها ، وسار بضع خطوات متأبطًا ذراع روحية . ولكن صراخ إنعام تعقبه وأرجفه وهزه من الأعماق . فاختلج بالرغم منه اختلاجًا عنيفًا ، وتقبضت عضلات وجهه ، وطفرت من عينه دمعة . فتوقفت روحية مستهولة ، ونظرت إليه ، ثم صدته عنها ، وأفلتت ذراعها

منه ، وقالت وقد اصفر وجهها ، وانطفأت فرحتها ،وتهدج صوتها لوعة ومرارة وأسى :

— بتبكى يا عاصم ؟ . . . بتبكى ليه ؟. . . بتبكى عليها . . . مش كده ؟ . . . انت عمرك ما حبتنى . . . انت طالب منى تعزية مش حب . . . ولو اجوزتنى حاتعذب نفسك أكتر وتعذ بنى . . . انت بتحبها هى . . . بتحبها هى . . . روح لها . . . روح . . .

وأسرعت الفتاة ، وحولت وجهها عنه ، واجتازت الشارع بخطى واثبة ومحمومة واختفت . فأبرقت عينا إنعام ، وأشرقت أساريرها ، وتأكدت من النصر بعد الهزيمة . فتطلع إليها عاصم ، وظل فترة يحدق فيها . ولكنه لم يستطع أن يتقدم نحوها . لم يستطع أن يدخل بيتها . لم يستطع أن ينسى ضحكتها . فأرسل نفساً مستطيلاً وتصلب ، ثم استدار فجأة ، وحث خطاه ، وانطلق فى الشارع الكبير ، وجعل يمشى على غير هدى . . .

سلسلة (اقرأ)

الكتب التى نشرت فيها منذ صدورها فى يناير ١٩٤٣ حتى الآن

القصة

١٤١ بنت قسطنطين (سعيد العريان)
١٤٥ عيون معصوبة (محمود كامل)
١٥٢ قلوب معذبة (قدرى قلعجى)
١٥٣ دماء وطين (يحيى حقى)
١٥٥ بنت يزيد (سامى الكيالى)
١٥٩ أجواء (حسن محمود)
١٦٥ مصرع طاغية (حسن رشاد)
١٦٧ أنات الساقية (عبد الله القرشى)
١٧٦ عودة المفقود (حسن رشاد)
١٨٣ الثريا (كمال بسيونى)
١٨٦ عاشقة نفسها (حسن رشاد)
١٩٥ محكمة الضمير (حسن رشاد)
١٩٩ عرس ومأتم (البدوى الملثم)
٢٠٠ مواطن أمام القضاء (فاضل السباعى)
٢٠٩ حال الدنيا (حسن رشاد)
٢١٩ ثمن الكرامة (سلامة خاطر)
٢٣٤ حبة البرتقال (أحمد العنانى)
٢٣٨ قلب عذراء (إبراهيم المصرى)
٢٤٠ نفوس تتكلم (ودادسكاكينى)
٢٧٣ مذكرات طبيبة (نوال السعداوى)
٢٧٦ صنيعة الشيطان (حسن رشاد)
٢٧٨ يوسف الصديق (محمد طلبه رزق)

٢٨١ خالدون فى الوطن (إبراهيم المصرى)
٢٨٣ دماء فى الفجر (فاروق حلمى)
٢٨٤ عروسة على الرف (صوفى عبد الله)
٢٨٧ قصص من جوته (عبد الغفار مكاوى)
٢٨٨ قصص الحب العربية (عبد الحميد إبراهيم محمد)
٢٨٩ البارونة أم أحمد (محمود تيمور)
٢٩٢ شىء من الخوف (ثروت أباظة)
٢٩٧ ابن السلطان (عبد الغفار مكاوى)
٣٠٢ نشيد الكروان (طاهر الطناحى)
٣١٣ عفراء : قصة الحب الخالد (فايد العمروسى)
٣١٥ أعترف إليك (أحمد فؤاد تيمور)
٣٣٩ مومس تؤلف كتاباً . وقصص أخرى (فتحى رضوان)
٣٤٣ إنى صاعدة (حلمى سلام)
٣٤٤ الوادى السعيد (لويس عوض)
٣٤٧ بنك القلق (توفيق الحكيم)
٣٥٠ دموع فى عيون ضاحكة (يوسف جوهر)
٣٥١ من أخطاء القضاء (حسن صالح الجداوى)
٣٥٢ عندما تحب المرأة (حلمى مراد)

فى الأدب

٢ شاعر الغزل : عمر بن أبى ربيعة (عباس محمود العقاد)
٤ عود على بدء (إبراهيم عبد القادر المازنى)
٨ مذكرات دجاجة (د. إسحق موسى الحسينى)
١٣ جميل بثينة (عباس محمود العقاد)
٢١ أبو نواس (عبد الحليم عباس)
٢٣ صوت أبى العلاء (د. طه حسين)
٢٦ العشاق الثلاثة : كثير وجميل وابن الأحنف (د. زكى مبارك)
٣٣ فى بيتى (عباس محمود العقاد)
٤٧ أبو زيد الهلالى (محمد فهمى عبد اللطيف)
٤٩ بين البحر والصحراء (شفيق جبرى)
٥٩ الجوارى (د. جبور عبد النور)
٧٤ قصر الرشيد (د. طه الحاجرى)
٧٦ ثم غربت الشمس (د. سهير القلماوى)
٨٣ من النافذة (إبراهيم عبد القادر المازنى)
٩٦ شيخ التكية (محمد عبده عزام)
١٠٢ من نافذة العقل (د. نقولا فياض)
١٠٩ نديم الخلفاء : الحسين بن الضحاك (عبد الستار أحمد فرج)
١١٨ المعذبون فى الأرض (د. طه حسين)
١٢٠ شاعر الشعب : حافظ إبراهيم (د. محمد سامى الدهان)
١٢٦ من ذكريات الفن والقضاء (توفيق الحكيم)
١٢٨ الجدة الصغيرة (حسن محمود)
١٣١ أمين الريحانى (فاروق عبود)
١٤٧ مارس يحرق معداته (عيسى الناعورى)
١٥٧ غرام الأدباء : طه والحكيم والعقاد وتيمور والزيات وأبو حديد والعريان والشناوى (عباس خضر)
١٨٢ لمحات من الأدب الروسى (ماهر نسيم)
١٩٣ دون جوان (لطفى عبد البديع)

السير والتراجم

٦٥ عمر بن عبد العزيز
(أحمد زكى صفوت)
٦٨ جمال الدين الأفغانى
(عبد القادر المغربى)
٧٠ الجبرتى (خليل شيبوب)
٧٢ فولتير (سليم سعده)
٧٧ المغنى المجنون : كاروزو
(أحمد الصاوى محمد)
٧٨ سقراط (على حافظ بهنسى)
٧٩ بيرانديللو (محمد أمين حسونة)
٨٢ فرانزليست (خليل هنداوى)
٨٥ بيتهوفن (محمد فهمى أبو النصر
وهدى حبيشة)
٨٩ برناردشو (عباس محمود العقاد)
٩١ جابر بن حيان وخلفاؤه
(محمد محمد فياض)
٩٩ نساء محاربات (صوفى عبدالله)
١١٢ مع طه حسين (سامى الكيالى)
١١٤ عبقرية الإمام
(عباس محمود العقاد)
١١٥ الإمام المراغى (أنور الجندى)
١١٩ نساء شهيرات (مبارك إبراهيم)
١٢٥ الصديقة بنت الصديق
(عباس محمود العقاد)

١٢٧ شلى (أحمد الصاوى محمد)
١٣٩ تيمورلنك (محمد محمد فياض)
١٤٠ عائشة بنت طلحة
(كمال بسيونى)
١٤٢ بطل السند ومحمد بن القاسم
(محمد عبد الغنى حسن)
١٤٣ ابن عمار (ثروت أباظة)
١٥١ العاشقة المتصوفة : رابعة
العدوية (وداد سكاكينى)
١٦٢ مكسيم غوركى (نجاتى صدقى)
١٦٤ دانتى (مصطفى آل عيال)
١٧٢ المخترعون (أحمد طه السنوسى)
١٨٧ طاغور (د. جميل جبر)
١٩٢ أدباء من الجزائر
(د. إبراهيم الكيلانى)
١٩٧ جان جاك روسو
(د . محمد سامى الدهان)
٢٠٤ فيكتور هوجو (د. جورج زايد)
٢٠٧ الناصر صلاح الدين
(د . محمد سامى الدهان)
٢٢٣ الشاعر الشهيد هاشم الرفاعى
(محمد كامل حته)
٢٣٢ أبو القاسم الشابى
(رجاء النقاش)

سياسة وعلوم سياسية

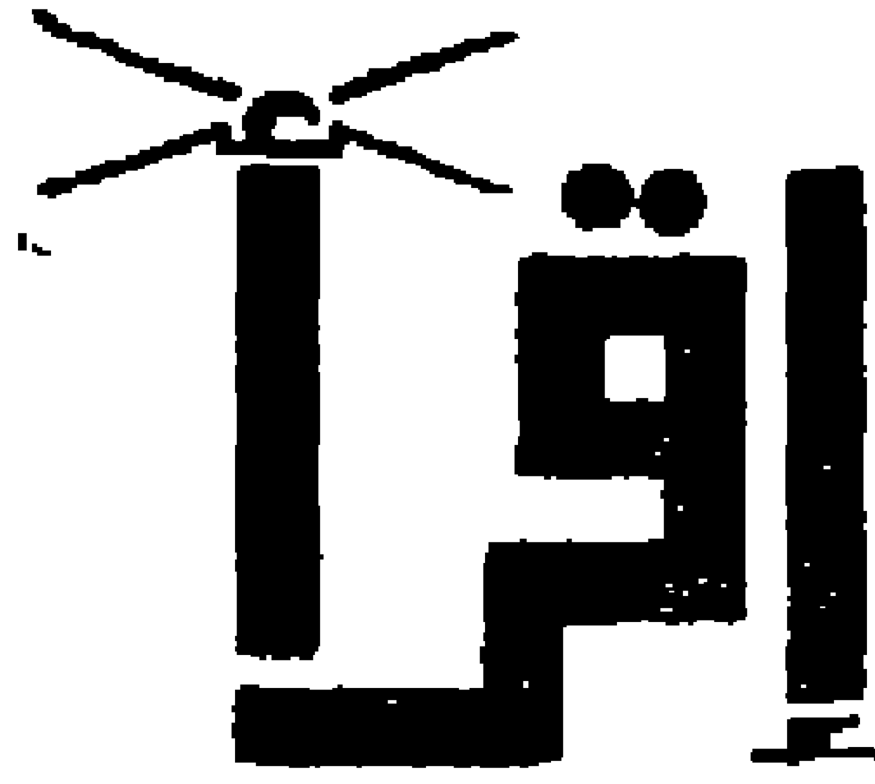
علم النفس

علوم

جغرافيا ورحلات

طب وصحة

٢٥ قصة البنسلين (د. مصطفى عبد العزيز)
٤١ الفيتامينات (د. مصطفى عبد العزيز و د. محمد رشاد الطوبى)
٤٤ قصة العدوى (د. محمد عبد الحميد جوهر)
٦٤ الأغذية الشعبية (حسن عبد السلام)
٧١ الهرمونات (د. فؤاد خليل و د. محمد رشاد الطوبى)
١١٠ نحن المعمرون (حسن عبد السلام)
١٢٤ قصة العقاقير (د. محمود محمد سلامة)
١٤٦ هذا الإنسان (د. حبيب صادق)
١٨٠ ضعاف العقول (مترى أمين)
٢١٠ أمراض الصيف (د. أنيس فهمى)
٢٢٤ الأسنان: أمراضها وعلاجها (د. حليم الكدوانى)
٢٢٧ الإنسان والمرض (د. أحمد مختار)
٢٣٧ باقة طبية (محمد كامل سند)
٢٣٩ أخطاء الأطباء (د. فائق الجوهرى)
٢٧٢ الجسد والميكروب (د. مصطفى عبد العزيز)
٢٨٢ الصيدلة علم وفن وإنسانية (د. جورج وهبه العفى)
٢٨٥ فيتامينات وهرمونات (د. محمد صدقى عبده و د. محسن الدناصورى و د. نجيب الأبراشى)
٢٨٦ الغذاء الكامل أساس الصحة (أسامة أمين العطار)
٢٩٩ التغذية ومخاطر الصناعة (د. أسامة أمين العطار)
٣١٨ أسنانك وكيف تحافظ عليها (د. فاروق مرشد)
٣٣٦ النفس والبدن (د. إبراهيم فهيم)



وصلت فى قفزتها الأولى إلى ٥٠,٠٠٠ نسخة
وستصل فى هذه القفزة إلى ٧٠,٠٠٠ نسخة

صدر منها فى الأشهر الأخيرة :

أكتوبر ١٩٧١	:	ذكريات عارية للدكتور السيد أبو النجا
رمضان ١٣٩١	:	أحاديث رمضان للدكتور عبد العزيز كامل
نوفمبر ١٩٧١	:	بنك القلق للأستاذ توفيق الحكيم
ديسمبر ١٩٧١	:	نحو النور للأستاذ محمد زكى عبد القادر
يناير ١٩٧٢	:	هؤلاء علمونى للأستاذ سلامه موسى
فبراير ١٩٧٢	:	دموع فى عيون ضاحكة للأستاذ يوسف جوهر
مارس ١٩٧٢	:	من أخطاء القضاء للأستاذ حسن الجداوى
أبريل ١٩٧٢	:	عندما تحب المرأة للأستاذ حلمى مراد
مايو ١٩٧٢	:	خدعوك فقالوا للدكتور سعيد عبده
يونيو ١٩٧٢	:	رحلة الشرق والغرب للدكتور لويس عوض
يوليه ١٩٧٢	:	بلابل من الشرق للأستاذ صالح جودت
أغسطس ١٩٧٢	:	القصر المسحور للدكتور طه حسين والأستاذ توفيق الحكيم

محتويات الكتاب

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم ٤٣٨٨ / ١٩٧٢

مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢

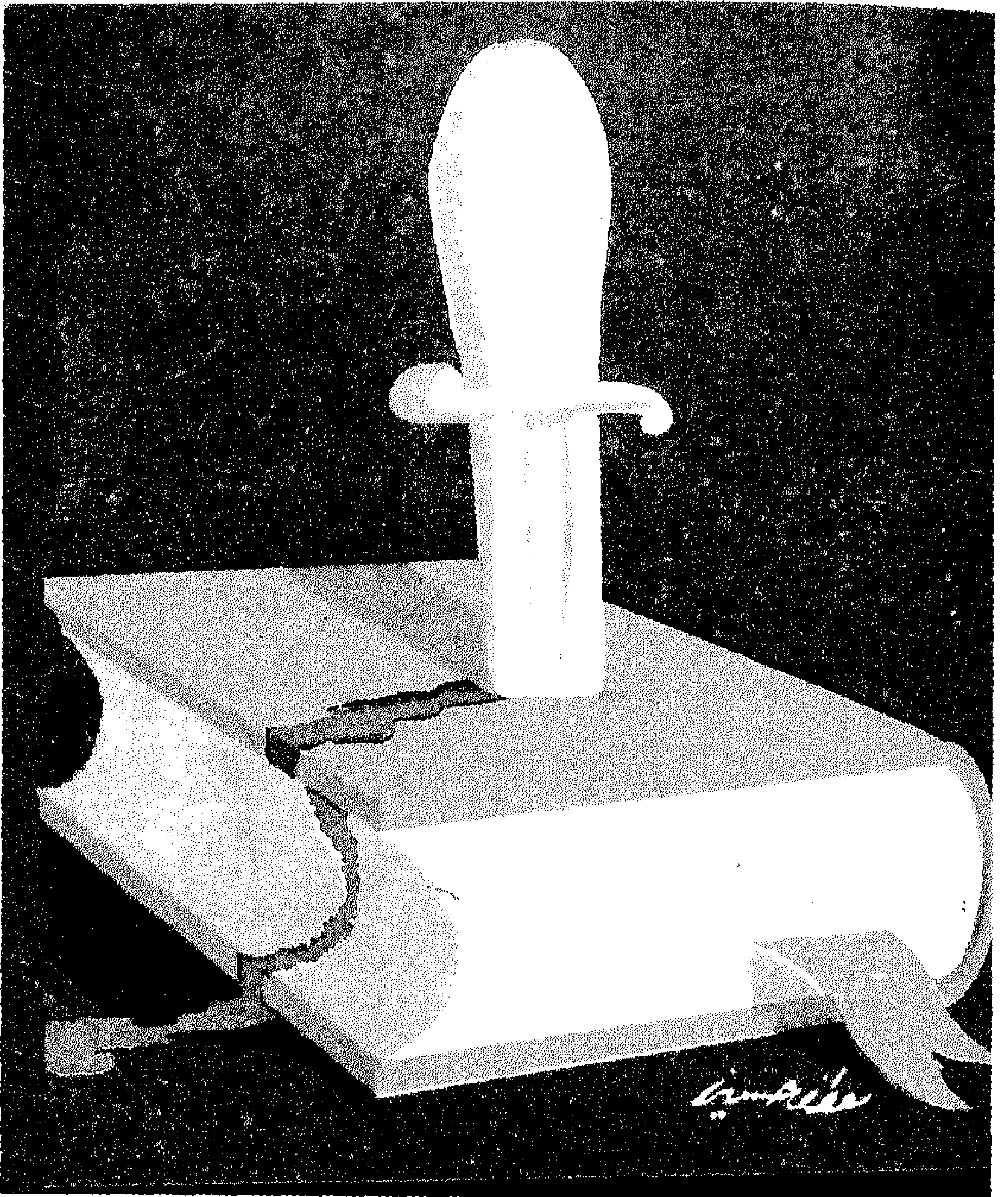
١٠



اقرأ

محمود عوض

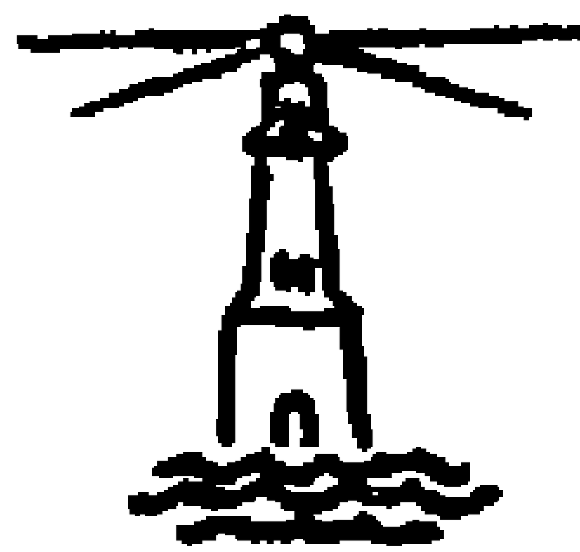
أفكار ضدّ الرصاص





تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر



اقرأ ٣٥٨ - أكتوبر ١٩٧٢

الناشر: دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة . ج.م.ع

محمود عوض

أفكار ضد الرصاص

اقرأ ٣٥٨

دار المعارف بمصر

« حيث العقل لا يخاف ، والرأس مرفوع عال

وحيث المعرفة حرة

وحيث العالم لم يمزق التعصب جدرانه

وحيث تخرج الكلمات من أعماق الحقيقة

وحيث الكفاح المستمر يمد ذراعيه نحو الكمال

وحيث لا يفقد جدول العقل مجراه فى صحراء التقاليد الميتة

وحيث يقود العقل نحو ساحات أفسح من الفكر والعمل

تحت سماء الحرية تلك .. ياإلهى .. أيقظ وطنى ».

طاغور

مقدمة

فى الصفحات التالية سوف تجد أربع جرائم قتل !

إنه قتل مع سبق الإصرار والترصد . قتل مع التعمد . قتل مع التنفيذ . إنه ليس تفكيراً فى قتل، ليس شروعاً ، ليس محاولة . إنه . . قتل ! ومع ذلك . . فإن الجانى يخرج بعد كل جريمة بغير عقاب!

إن القتيل معروف . . وأداة القتل مضبوطة . . وسبب القتل واضح . والشهود موجودون . . والقاتل معترف . ومع ذلك — فإن جريمة القتل يتم تسجيلها فى النهاية ضد : مجهول .

إن القتيل ليس شخصاً عاديًّا . والقاتل ليس شخصاً واحداً . .

القتيل هو « كتاب » . مجرد كتاب . مجرد حبر وورق . . وعليهما رأى . . لكن — إذا كان القتيل هو « مجرد » كتاب ، فإن القاتل لم يكن « مجرد » شخص .

إن القاتل فى كل مرة كان مجموعة أشخاص . أحياناً أغلبية . إن السكين ربما تحمله فى النهاية أكثر من يد واحدة (السلطان ؟ الملك ؟ رئيس الوزراء ؟ الحكومة ؟) ، ولكنهم فى النهاية سلطة واحدة . لها تفكير السلطة ، وأسلحة السلطة ، وجبروت السلطة .

إن هدف الجريمة فى كل مرة هو هدف عاجل : إعدام كتاب . مصادرة رأى — لكن بعد هذا — هناك هدف آجل : إعدام الحرية .

فأى محكمة حينما تقرر إعدام مجرم — قتل مجرم — فإنها لا تقصد بذلك تصحيح الجريمة التى ارتكبها . وإنما تقصد — بالدرجة الأولى — أن تحذر الآخرين من سلوك طريقه .

وحينما قررت السلطة فى المجتمع المصرى «إعدام» الكتب الأربعة التى سنتناولها حالا ، فإنها تعرف بالضبط أسباب هذا الإعدام .

إن كلا من قاسم أمين ، والكواكبي ، وعلى عبد الرازق ، وطه حسين . . قد أصدر كتاباً يدافع فيه عن الحرية .

كانت جريمة قاسم أمين هي أنه طلب الحرية للمرأة . . في مواجهة الرجل . . .

وجريمة الكواكبي هي أنه طلب الحرية للشعب . . في مواجهة السلطان . .

وجريمة على عبد الرازق هي أنه طلب الحرية للدين .. في مواجهة الملك . .

وجريمة طه حسين هي أنه طلب الحرية للأدب . . في مواجهة السياسة . .

إن جوهر القضية هو نفسه في كل مرة . ومعنى العقوبة هو نفسه في كل حالة . لقد تم التشهير بقاسم أمين ، وقتل الكواكبي ، وعزل على عبد الرازق ، وفصل طه حسين . . كإجراء نهائي . وقبل ذلك ، أعلن المجتمع حكمه على الأربعة : أنهم خونة . . زنادقة . . ملحدون . . فاجرون.

ولم يكن كل هذا مفاجئاً . .

فالسلطة في المجتمع العربي كانت لها دائماً مقاييسها الخاصة التي تخفيها دائماً وتعلنها أحياناً .

إنها تعتبر : أن الخوف صبر . . والجمود عقل . . والتطور جنون . . والتجديد إلحاد .. والحرية كفر . . والتفكير جريمة . الضعف نعمة . . والجبن قيمة . . والشجاعة رذيلة . . والصمت حكمة . . والجهل فضيلة . . والتمرد زندقة . . والاختلاف خيانة . الظلام نور . . والظلم عدل . . والطغيان قوة . . والإرهاب قانون . . والحاكم إله . . والمرأة حيوان . . والشعب عبيد . والتاريخ أسطورة . . والماضي مقدس . . والحاضر مقبول . . والمستقبل ملعون .

هذه ليست اوغاريتمات . هذه مجرد عينة مما ستجده فى هذا الكتاب مجرد نموذج من المقاييس التى حوكم على أساسها الرجال الأربعة.

إنها أيضاً ليست مفاجأة . فكل من الأربعة كان يعلم مقدماً بما ينتظره ، ومع ذلك قرر اختيار طريقه . فكلما اضطر واحد منهم إلى الاختيار اختار الحرية قبل الضغط . . اختار الاختلاف قبل الموافقة . . اختار المفكر فوق السياسى . . اختار الإنسان الواحد فوق القطيع الضخم . لهذا كله دفعوا ثمناً غالياً وتعرضوا لعقاب صارم . ومع توقع النتيجة وانتظار العقوبة ، فإن أحداً من الأربعة لم يتردد لحظة واحدة قبل أن يخرج كتابه . لقد قال رأيه وبدأ يحارب من أجله . إنهم يحاربون من أجل إعلان رأيهم . ليس من أجل وظيفة . ليس من أجل مركز . ليس من أجل سلطة . بل من أجل فكرة . مبدأ . رأى .

وفى كل مرة كانت المعركة تدور بين طرفين غير متكافئين من البداية : رأس ضد الحائط . . قلم ضد السيف . . شيخ ضد الكعبة . . وطه حسين ضد مصر .

وكان الصراع يجرى بين رأى ورأى . حجة وحجة . ومع ذلك لم تكن هناك مجادلة . لم تكن هناك مناقشة . كانت هناك فقط . . ملاكمة . والأسوأ من هذا أنها ملاكمة تحت الحزام . إن السلطة تصدر حكمها على المؤلف فى كل مرة بأنه كفر بالله ، ثم تستصدر من الله تأكيداً بالحكم . . حتى لا يقدم المؤلف استئنافاً إلى السماء !

وفى كل مرة كان كل كتاب يثير ردود أفعال كثيرة بين المثقفين فى المجتمع المصرى . ولكن السلطة هى التى كانت تحتفظ لنفسها بحق الحسم فى النهاية . وحينما تحسم السلطة فإنها لا تفكر ، لا تقدر ، إنها تذبح . . تستأصل . . تقتل . وللأسف . . كانت السلطة تجد دائماً مثقفين آخرين يمهدون الطريق أمامها . مثقفين تجدهم فى كل مجتمع مستعدين للتصفيق للسلطة . طالما أن رأساً آخر هو الذى تحت السيف !

وفى كل مرة أيضاً كان كل كتاب يثير الشكوك فى صحة واحدة من العلاقات الرئيسية داخل المجتمع : علاقة الرجل بالمرأة ... علاقة السلطان بمواطنيه . . أو علاقة السياسة بالدين والأدب .

وبالنسبة لكل واحدة من هذه العلاقات كان المجتمع يحتفظ لنفسه بمجموعة من المفاهيم الثابتة المستمرة التى أصبحت خبزاً يومياً يأكله الناس . مفاهيم خاطئة . . لا يهم . مريضة . . لا يهم . إن المهم فقط هو أنها موجودة وأن على كل فرد فى المجتمع أن يقبلها على ما هى عليه . وعلى كل كاتب أن يصفق لها . . أو يغلق فمه .

وبالطبع من الممكن دائماً أن تصفق للخطأ . . وتستمر فى الكتابة ، أو تعرف الخطأ . . لكن تستمر فى التصفيق له . هذا ما اختارته الأغلبية فى تلك الأيام التى صدرت فيها تلك الكتب الأربعة .

ولكن كلاً من طه حسين وعلى عبد الرازق والكواكبى وقاسم أمين اختار طريقاً آخر : طريق العذاب . لقد عرفوا أن مكانهم ليس مع القطيع ، ولكن مع الحقيقة . . مع المستقبل .

وفى اختيارهم هذا فإنهم دفعوا الثمن الذى كان لابد أن يدفعوه نيابة عن غيرهم . فى كل جيل من المثقفين تستطيع أن تجد دائماً عدداً قليلا من الذين يقبلون التضحية بكل شىء — الأسرة ، والثروة ، والمركز ، والأصدقاء ، والوظيفة — لكى يجيبوا عن السؤال المفزع : كيف يجب علينا أن نعيش . . ونفكر ؟ السؤال صعب . . والإجابة هامة . . والثمن فادح .

إن حياتهم تصبح جحيماً . . والصداقة معهم تصبح تهمة . . والاستماع إليهم يصبح جريمة . . ولكن ضميرهم يستريح . إن الضمير يستريح . . لأنهم قالوا ما يؤمنون بأنه حق ، ولأنهم رفضوا الانضمام إلى القطيع ... فالأسماك الميتة فقط هى التى تسبح مع التيار .

ولأنهم لم يكونوا أسماكاً ميتة .. لم يكونوا عقولا ميتة .. فإنهم قالوا

للناس رأيهم بصراحة .

وكان أول ثمن دفعوه لهذه الصراحة هو أن المجتمع وضعهم فى قائمته السوداء . نعم . لسنوات طويلة ظل طه حسين وعلى عبد الرازق والكواكبى وقاسم أمين .. رجالا فى القائمة السوداء . إن العقوبة هنا شخصية ، ولكن الهدف الأكثر أهمية هو تحذير غيرهم من سلوك الطريق نفسه .

لهذا تساوى مركزهم فترة طويلة مع مركز المجرمين . أسوأ من المجرمين . لهذا قام المجتمع سريعاً بقتل كتبهم . بقتل آرائهم .

ولماذا لاتسمى العنكبوت عنكبوتاً ؟

القضية هى حرية الرأى . .

إن جرائم القتل الأربعة ليست هى الجرائم الوحيدة التى ارتكبتها السلطة ضد حرية الرأى . إنها فقط حالات «التلبس» . الحالات التى وقف فيها الجانى « متلبساً » أمام التاريخ . . وأمام المستقبل .

وهى جرائم ساهمت فيها أطراف كثيرة . ولكن السياسة كانت هناك دائماً وراء كل جريمة . هذا طبيعى . لأن السياسة فى مجتمعاتنا كانت دائماً مع الأمر الواقع ، وضد التغيير . إن التغيير يقع ، والمستقبل يصل ، ولكن المستقبل يفاجئنا فى كل مرة حيث لم نتصوره ، أو نستعد له . ولأن السياسة كانت ترفع حرية الرأى كمجرد شعار . منذ ألف سنة وهى شعار . ولأن السياسة كانت تجد فى حرية الرأى خطراً مباشراً عليها ، وترفاً لا تريده بالنسبة لمواطنيها .

وعندما كانت السياسة فى مجتمعنا تقتل حرية الرأى — منذ ألف سنة وهى تقتل حرية الرأى — فإنها كانت فى الواقع تقتل أشياء كثيرة فى مجتمعنا . إنها تقتل العلم والأدب والتفكير والكرامة والعدل . تقتل المستقبل . إنها تزرع الطاعة بدلا من النقد ، النفاق بدلا من الصدق ، الخوف بدلا من الشجاعة .

وفى النهاية كان المجتمع كله هو الذى يدفع الثمن . إن العلم غير

موجود . . لأنك لا تستطيع أن تبنى مجتمعاً علمياً من العبيد . والأدب غير موجود . . لأن الأدب الجيد لا يكتبه أدباء خائفون . والثقافة لا تنتشر . . لأن النفاق يحقق لك ما تحققه الثقافة . . وأكثر .

ثم إن السياسة نفسها كانت تقع فى تناقض آخر بعد ذلك . إنها تريد من المواطن أن يكون جباناً فى مواجهة ماضيه . . شجاعاً فى مواجهة مستقبله . جباناً فى مواجهة حاكمه . . وشجاعاً فى مواجهة عدوه . هذا مستحيل . لأن الجبن والشجاعة لا ينقسمان إلى أجزاء . إن الجبن يتحقق بإعدام الحرية . والشجاعة تتحقق بانتشار الحرية . هذا هو التناقض. لأن الحرية هى فى النهاية شجاعة عقلية. وحينما تموت شجاعة المواطن فى بيته . . فإنها لن تولد فيه فجأة خارج بيته .إن الإنسان لا يستطيع أن يصبح شجاعاً فجأة بمجرد شعار، بمجرد خطبة.. مثلما لا يستطيع الإنسان أن يصبح موسيقاراً فجأة بمجرد سماعه قطعة من الموسيقى.

إننى أستطيع أن أعطيك قلبى . . سوف أصبح عاشقاً .
أعطيك طعامى . . سوف أصبح جائعاً .
أعطيك ثروتى . . سوف أصبح فقيراً .
أعطيك عمرى . . سوف أصبح ذكرى .

ولكننى – أبداً أبداً – لا أستطيع أن أعطيك حريتى . إن حريتى هى دمائى ، هى عقلى ، هى تفكيرى ، هى خبز حياتى . إننى لو أعطيتك إياها . . فإننى أصبح قطيعاً . حيواناً . كمية مهملة . شيئاً بلا قيمة . شيئاً له ماض . ولكن ليس أمامه مستقبل . إن حريتى هى رأيى ، هى شجاعتى ، هى نبض الحياة فى شرايينى .

دعنا إذن نناقش القضايا الأربعة – الجرائم الأربعة – التالية باعتبارها نموذجاً فى الشجاعة العقلية . نموذجاً من الصراع بين الخوف والشجاعة . بين الماضى والمستقبل . بين السلطة وحرية الرأى .

أما الباقى . . فهو تاريخ .

محمود عوض

قاسم أمين



١

رأس ضد الحائط !

« حيث إن أفراد عائلتنا المخصوصة قد وهبوا حسب الإيجاب ٤٢٥٧٢٩ فداناً من الأراضى ، والمقدار المعلوم بأملاك كماهو مبين بالكشف ، وإنه فى هذه الحالة طبعاً سيحصل عسراً فى المعيشة . . فلأجل موارد معيشتهم قد تخصص لهم مبلغ ٢٦٠ ألف جنيه من مبلغ ٣٦٠ ألف جنيه المخصص لمقام خديويتنا بحسب لمخصص لاسم كل منهم » .

هذه ديباجة الأمر الذى أصدره الخديو إسماعيل — والى مصر — سنة ١٨٧٨ . أمر يفرض على الحكومة المصرية أن تدفع للخديو وأسرته ٣٦٠ ألف جنيه كمرتب سنوى حتى لا . . « يحصل عسر فى المعيشة » لأفراد الأسرة . وهذا المبلغ تدفعه الحكومة المصرية برغم أن كل ميزانيتها ستة ملايين جنيه ، أى أنه بعملية حسابية بسيطة ، يعادل ٧٢ مليون جنيه تدفعها الحكومة المصرية الآن !

وفى الشهر التالى مباشرة — نوفمبر سنة ١٨٧٨ — أصدر الخديو أمراً عالياً آخر يحدد طريقة توزيع الـ ٣٦٠ ألف جنيه على أسرته ، فى قائمة تضمنت على رأسها كل من :

١٠٠ ألف جنيه — الحضرة الفخيمة الخديوية .

أربعة وخمسون ألف جنيه — والدة الجناب العالى الخديوى .

عشرون ألف جنيه — برنجى هانم
عشرون ألف جنيه — إيكنجى هانم
عشرون ألف جنيه — أوتشنجى هانم
خمسون ألف جنيه — دورتنجى هانم .

إن الهوانم المشار إليهن بـ « برنجى هانم . . إيكنجى هانم . . إلخ » هن زوجات الخديو الأربع . وقد ذكرن بالترتيب التركى ، أى الهانم الأولى والهانم الثانية . . إلخ .

أربع هوانم تركيات تدفع لهن الحكومة المصرية من ميزانيتها مائة وعشرة آلاف جنيه ، فى حين أن الحكومة — نفس الحكومة — تدفع فى نفس السنة .. عشرة جنيهات شهريا لجمال الدين الأفغانى . وحتى هذه الجنيهات العشرة لم يتقرر صرفها إلا بعد أن توسط « داخلية ناظرى عطوفتلو أفندم حضرتلرى رياض باشا » — رئيس الوزراء . . لدى الخديو . بعد هذه الوساطة فقط وافق الخديو على صرف الجنيهات العشرة مرتباً شهرياً لجمال الدين الأفغانى ، أكبر مفكر فى مصر فى وقتها . وحتى بعد سنوات أخرى من هذه الوساطة لم يزد المرتب الذى دفعته الحكومة المصرية للشيخ محمد عبده مقابل عمله فى جريدة الوقائع المصرية على خمسة عشر جنيهاً ، وسعد زغلول ثمانية جنيهات . إنهم لا يستحقون أكثر من ذلك . هذا هو رأى حكومة مصر .

ولم يكن خديو مصر يدفع هذه المرتبات إيماناً بالفكر والمفكرين بل لأنه يريد أن يستكمل لنفسه مظاهر الحاكم العصرى . بل إنه عندما يحاول تطوير الجريدة المصرية الناطقة باسم الحكومة يصدر أمراً خديوياً عالياً يأمر فيه لمحررى الجريدة « .. بالبن والفحم لزوم القهوة والماء العذب لزوم المشروب » . ماذا يبقى لهم بعد ذلك ؟ لا شىء سوى تدبيج المقالات فى مدح فخامته !

هذا هو مفهوم العصرية عند الخديو إسماعيل . إنه يبنى داراً للأوبرا

على الطراز الأوربى ، يبنى قصراً بالجزيرة على مثال قصر الحمراء فى الأندلس ، ثم يبنى قصراً فى الجزيرة ، وقصراً فى القبة ، وقصراً فى الإسماعيلية ، يشترى قصراً فى باريس ، ينفق مليوناً و ٤٠٠ ألف جنيه فى حفل واحد لافتتاح قناة السويس .

هذه هى العصرية : مظهر براق يختفى تحته شعب يعانى الجهل ، والفقر والمرض . إن الخديو لا يهتم بالواقع . إنه يهتم فقط بالشكل الخارجى ، بالمظهر ، بالديكور . لهذا لم يكن هناك مفر من أن تصل ديون مصر فى آخر حكمه إلى ٩٥ مليون جنيه . ديون تبعها الإفلاس والتدخل الأجنبى ثم الاحتلال الأجنبى .

و . . هذا هو الجو الذى نشأ فيه وتربى طفل صغير اسمه قاسم محمد أمين .

إن قاسم أمين ولد فى أول ديسمبر سنة ١٨٦٣ لأم مصرية وأب من أصل تركى . وعندما تقدم لنيل إجازة الحقوق سنة ١٨٨١ كان أول الناجحين فى الليسانس . لم يكن عمره قد تجاوز الثامنة عشرة بعد . ولكنها سن لا تكفى للانتباه إلى الأحداث الخطيرة التى يمر بها بلده — مصر : خديو آخر يحكم — هو الخديو توفيق — تدخل أجنبى فى الاقتصاد المصرى . ثورة وطنية بقيادة عرابى تصاب بالإخفاق . احتلال إنجليزى يستعمر مصر منذ سنة ١٨٨٢ . شعور عام بالنكسة يستمر سنوات . صعاليك أجانب يأتون إلى مصر فيصبحون أثرياء فى غمضة عين ، لا لشىء إلا أنهم صعاليك . . ولأنهم أجانب . خديو آخر يعتلى كرسى الحكم : الخديو عباس حلمى الثانى .

فى عهد عباس باعت مصر ١١ باخرة تملكها إلى شركة إنجليزية بمبلغ ١٥٠ ألف جنيه ، مع أن إنجلترا كانت قد باعت ثلاثة من هذه البواخر إلى مصر بـ ٢٠٠ ألف جنيه !

هذه هى أيضاً السنة التى حاول فيها اللورد كرومر أن يبيع سكك

حديد الحكومة المصرية فى السودان إلى شركة إنجليزية . إنها سنة ١٨٨٨ . سنة يسميها المؤرخ عبد الرحمن الرافعى سنة التصفية . تصفية ممتلكات الحكومة المصرية .

ولكنها كانت أيضاً السنة التى بدأ قاسم أمين يستعد فيها لأكبر معركة فكرية خاضها فى حياته . معركة انطلقت شرارتها بسبب كتاب له أخرجه إلى النور فى السنة التالية ١٨٨٩ . كتاب عنوانه « تحرير المرأة » . كتاب « . . كان ظهوره حادثاً ، بل حادثاً خطيراً » على حد تعبير الدكتور محمد حسين هيكل بعد ذلك بسنوات .

إن قاسم أمين ، فيما بين حصوله على إجازة الحقوق سنة ١٨٨١ ، وبين إخراجه كتابه سنة ١٨٨٩ ، كان قد مر بأحداث هادئة . . على عكس الأحداث الضخمة التى عاشتها مصر .

فى خلال تلك السنوات تعرف قاسم أمين بجمال الدين الأفغانى فى « باريس» ومحمد عبده وسعد زغلول . . وكان قد سافر إلى فرنسا فى بعثة دراسية . عاد من هناك ليعمل فى سلك القضاء وعمره ٢٢ سنة . انتقل إلى نيابة بنى سويف ثم طنطا . وفى النهاية عين مع سعد زغلول بقرار واحد قاضيين بمحكمة الاستئناف . . إلى أن أصبح كل منهما مستشاراً فى سنة ١٨٩٤ ، حينئذ قرر قاسم أمين أن يتزوج ، وسرعان ما أصبح رب أسرة .

هذه هى حياة قاسم أمين عندما نتأملها فى تلك الفترة . حياة هادئة ، عادية ، سالمة .

وخلال تلك السنوات كانت أحوال المجتمع المصرى قد بدأت تجذب اهتمامه شيئاً فشيئاً . لقد أمضى سنوات طويلة يتأمل طريقة حياة هذا المجتمع وأسلوب تفكيره بالنسبة لمجال رئيسى هو علاقة الرجل والمرأة .

كيف كان المجتمع يرى تلك العلاقة فى تلك السنوات ؟

نعود إلى التاريخ . .

إن المجتمع المصرى يضع الرجل والمرأة على أبعد مسافة ممكنة بعضهما من بعض . . فالرجل يجب أن تكون له لحية طويلة أو – على الأقل – شارب ضخم ، حتى تكون رجولته ظاهرة من بعيد . من مسافة !

أما المرأة فيجب أن تبدو كخيمة تمشى على قدمين . خيمة لا يبدو منها سوى ثقبين ضيقين يسمحان لعينيها بالرؤية .

إن كلاً من الرجل والمرأة يجب أن يتميز عن الآخر فى سلوكه .

فالرجل قوى . . عدوانى . . جهورى الصوت .

والمرأة ضعيفة . . خجلة . . خافتة الصوت . . تلتزم دائماً موقف الدفاع . . المرأة لا تتكلم ، بل تستمع . لا تناقش ، بل تطيع . لا تتحرك . بل تنتظر .

إنها تنتظر فى البيت حتى يصل إليها العريس . إن العريس دائماً هو ابن الحلال المنتظر . ويجب أن يصل ابن الحلال هذا قبل أن يصل سن الفتاة إلى الثانية عشرة . إن الرجل يستطيع أن يتزوج فى أى وقت ، أى سن . أما المرأة فلابد أن تتزوج فى سن الثانية عشرة . تصرف ضد ما تريده الطبيعة نفسها .. ولكن هذا ما يريده المجتمع . إن المجتمع صارم فى هذه النقطة . إنه يعطى الفتاة مهلة للزواج حتى تصبح فى سن السادسة عشرة . بالكثير السابعة عشرة . أما إذا لم تتزوج قبل هذه السن ، فالويل لها . ابتداء من السابعة عشرة سوف ينظر المجتمع إلى الفتاة غير المتزوجة على أنها « عانس » . سوف تنظر إليها أخواتها الصغريات على أنها حاجز . سوف تنظر لها زميلاتها على أنها نحس .

لهذا السبب فإن أى فتاة تبدأ – منذ سن الثانية عشرة – « تنتظر » .

فابتداء من هذه السن – وأحياناً ابتداء من سن العاشرة – تسحب الأسرة فتاتها إلى داخل المنزل . من الآن يجب أن تبقى الفتاة داخل الجدران ، يجب أن ترتدى الحجاب والحبرة ، تتوقف

عن اللعب والمرح والخروج إلى الشارع .. من الآن عليها أن تتقوقع على نفسها . إذا نظرت إلى الشارع فمن خلال ثقوب « المشربية » . إذا جلست ففى ركن الحريم . إذا تعلمت فعن طريق « المعلمة » التى تعلمها بعض مبادئ تفصيل الملابس .

من الآن على الفتاة أن تترقب .. تفكر .. تتأمل ، تحلم ، تنتظر . خبر زواجها . إنها لا تنتظر زوجاً محدداً . . فهذا من اختصاص والدها . لا تنتظر يوماً محدداً . فهذا من اختصاص والد العريس المنتظر . إن عليها فقط أن تنتظر . . تنتظر شخصاً ما . . فى ليلة ما . . تزف إليه .

بل إن الرجل نفسه عليه أن ينتظر قراراً غيابياً آخر يتخذه والده بشأن اختيار شريكة حياته . إن المجتمع يرى أن الزواج هو عملية تدخل فى اختصاص أى انسان إلا الزوج والزوجة ! أحياناً يتم الاتفاق على الزواج بين والدى العريس والعروس وهما ما يزالان أطفالا فى الخامسة أو السادسة . . أحياناً أخرى يتم هذا الاتفاق قبل الزواج الفعلى بشهر ، أو حتى بأسبوع . . وفى جميع الأحوال فإن العروسين يواجهان بعضهما بعضاً لأول مرة ليلة الزفاف .. بدون أن تكون لدى أحدهما أقل فكرة عن الآخر .

إن العروس – قبل أن يتم الزفاف فعلا بخمس دقائق فقط – لا تكون لديها أدنى فكرة : هل زوجها هذا شاب ، عجوز ، أخنف ، أهتم ، أعرج ، قصير ، طويل ؟!

والعريس لا تكون لديه أقل فكرة عما إذا كانت شريكة حياته هذه صحيحة . . مريضة ، حدباء الظهر ، مقوسة الساقين ، سمراء ، بيضاء ، رفيعة ، سمينة !

هل تريد مثلا واقعياً ؟ خذ هذه القصة التى يرويها أحمد شفيق باشا عن نفسه فى الجزء الأول من مذكراته .

يقول أحمد شفيق : « فى نوفمبر سنة ١٨٩١ ، عندما كنت راجعاً فى أحد الأيام من السراى إلى المنزل قابلنى عبده بك البابلى رئيس الجواهرجية وفاجأنى بتهنئة لم أعرف لها مناسبة .. فسألته الإفصاح عن سبب ذلك ، فأجابنى بأنه كلف بإعداد بعض المجوهرات والفضية لجهاز إحدى كريمات العائلات الشريفة اسماً وأصلا والتى ستزف إلىّ . فدهشت وأخبرت والدتى بذلك ورغبت فى رؤية خطيبتى قبل الزواج ، فقالت : إن ذلك لا يتأتى مع عائلة شريفة كهاته ، ولا سيا أن ذلك لم يكن مألوفاً . فرجوتها أن أرى على الأقل صورتها . وبعد يومين من ذلك حضرت إحدى السيدات منتدبة من قبل هاته العائلة لإبلاغ والدتى قرارها باختيارى زوجاً لإحدى كريماتها . فطلبت منها والدتى أن تقدم لوالدة العروس الشكر ، وأن تعلمها بأنها ستزورها لترى خطيبتى . وعقب ذلك رجعت هاته السيدة ثانية وأبلغت والدتى استياء العائلة من طلبها . وكان هذا سبباً فى عدم إتمام الزواج » .

هكذا كان المجتمع يعيش ويفكر . . إن كل فتاة عليها أن تنتظر قرار زواجها . . كقرار . . قرار لا يقبل مناقشة . . قرار يبلغه والدها إليها عن طريق والدتها . وإلى أن تبلغها والدتها هذا القرار عليها أن تنتظر . وفى خلال مدة انتظارها هذه عليها أن تتعلم كل المهارات التى تجعلها فى المستقبل زوجة ناجحة . عليها أن تتعلم من أمها كيف تغسل ، تطبخ ، تكنس ، تنظف ، تفصل ، تعجن ، تخبز ، تلد ، تطيع ، تستمع . . والأهم من هذا كله أن تحتفظ بزوجها المنتظر .

إنها تعلم من أمها أن هناك وصفة سحرية للزوج : أن تنجب له طفلا من السنة الأولى . طفل — لا طفلة ؛ فالرجل يحب الأولاد ، لا البنات . . وعليها أن تنجب الطفل الثانى ، الثالث . . الرابع ، الخامس ، الثامن بأقصى سرعة . من الأفضل أن تلد مرة كل سنة . . لأن هذا يجعل زوجها مشدوداً إليها من البداية بقيد متين .

ومن اللحظة التى تتزوج فيها الفتاة يبدأ الحائط بينها وبين المجتمع يزداد ارتفاعاً .. وسمكاً . من الآن سوف يصبح المنزل – أكثر من أى وقت مضى – هو كل دنياها . إن أى شىء يحدث خارجه هو شىء تافه أو شىء لم يحدث مطلقاً . أن يكون اليوم هو السبت أو الأربعاء .. مسألة لا تهم كثيراً ، فكل الأيام تتشابه . من الآن سوف يناديها المجتمع بلقب « السيدة المصونة والجوهرة المكنونة حرم فلان » . إن قيمتها إذن هى أنها مصونة .. مكنونة . تعبير مهذب بديل عن « مدفونة » . مدفونة خلف حائط . . داخل منزل . ومن الآن سوف يصبح المجتمع كله الفرصة . ومهمة المجتمع أن يسحب منها هذه الفرصة حتى لا تفسد المرأة بتصرفاتها أخلاق المجتمع كله . وهذه الفرصة موجودة فى كل مرة تخرج المرأة فيها من منزلها . . إذن . . يجب ألا يسمح لها بالخروج . ولماذا تخرج ؟ أليس السقاء يقوم بإحضار المياه العذبة إلى البيت كل يوم ؟ ألا تقوم « الدلالة » بإحضار أنواع الأقمشة والخضراوات كل صباح ؟ إذن . . يكفى أن تخرج المرأة كل أسبوعين ، أو كل أسبوع ، إن المجتمع لا يستطيع أن تكون مسرفاً مع المرأة أكثر من ذلك .

وإذا خرجت المرأة فبصحبة رجل . . ولكى تزور والدتها أو سيدة أخرى متزوجة ، أو قريبة لها .

وقبل أن تخرج المرأة فإنها تقضى ساعات طويلة تستعد لهذا الخروج . إنها تمشط شعرها – مع ملاحظة أن الموضة هى أن تطيل المرأة شعرها حتى خصرها . شعر معقوص .. ممشط ، مفتول فى ضفائر . شعر يتماسك بفضل كومة من الدبابيس والمشابك .

وبعد أن تتزين المرأة تلبس – فراجية – على جسمها و – عزيزية – على رأسها و – يشمك – على وجهها به ثقبان تطل منهما عيناها . إنها ترتدى – شنتيان – و – سلطة – و – سبلة –

ومصطلحات أخرى كثيرة . وفوق هذا كله ترتدى — حبرة — تغطى بها جسمها من كعب قدمها حتى قمة رأسها . . على رأسها منديل كغطاء تحت الحبرة ، ثم برقع يغطى الوجه . وفى قدميها تضع المرأة حذاء أو خفاً أصفر من قطعتين : قطعة تغطى القدم والأخرى تلبس داخل الأولى وتغطى الساق . . أحياناً تضع فى قدمها خلخالا .

وفى النهاية تخرج المرأة بهذه الكومة من الملابس — هذه التحصينات الدفاعية — لكى تركب حماراً . يسير أمامها خادم يقودها إلى مكان زيارتها .

وبالطبع يستطيع الفقر أن يعفى المرأة من بعض هذه الملابس ، ولكن فى النهاية تظل هذه هى الصورة الكاملة التى يريدها المجتمع من ملابس المرأة .

إن المرأة تضع فوق جسمها كل هذه الملابس — طبقة فوق طبقة — تماماً كطبقات جلد البصل . . حتى يختفى الأثر الأخير لأنوثتها . بل إن العناصر الطبيعية الأساسية — الشمس والضوء والهواء مثلا — ليس مسموحاً لها أن تنفذ إلى جسم المرأة بأى حال من الأحوال . وعلى المرأة أن ترتدى كل هذه الملابس مهما كان الجو . . حاراً أو بارداً . مهما كان الوقت صباحاً أو مساء . . إن المجتمع يريد فى النهاية أن تختفى كل الملامح المميزة لجسم المرأة . ومن لحظة زواجها حتى موتها .. فلن يرى إنسان واحد أى جزء من جسمها غير زوجها . لن يرى أحد فى الشارع وجهها . . ومهمة الحجاب هى منع مثل هذه الفضيحة . سوف يظل الحجاب حاجزاً على وجه المرأة طوال حياتها إلى أن تموت . وحتى عندما تموت ، فربما تصعد روحها إلى السماء وهى أيضاً من خلف حجاب ! هذه هى الوسيلة الوحيدة أمام المجتمع لكى يضمن انتشار الفضيلة واختفاء الرذيلة .

ومع ذلك . .

هل انتشرت الفضيلة واختفت الرذيلة حقاً ؟

هل كانت مدينة القاهرة مثلا — فى تلك السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، أكثر فضيلة وأقل رذيلة من القاهرة الآن ، بعد عشرات السنوات من التطور ؟

إن الإجابة هى كلمة واحدة : لا . أبداً . مطلقاً ! !

لقد أقام المجتمع حائطاً عالياً بين الرجل والمرأة ، لقد غطى جسم المرأة بعباءة واسعة لا ينفذ منها الضوء ولا الشمس ولا الهواء ، عباءة أخلاقية كان من المتوقع أن تختفى تحتها كل الرذائل . . وتبرز خارجها كل الفضائل .

ومع ذلك كله . . كانت هذه العباءة الأخلاقية مهلهلة . . ملأى بالثقوب .

وفى هذه النقطة نعود إلى مذكرات أحمد شفيق باشا — أول من أعطى صورة شاملة لتلك الأيام ، نعود إلى الجزء الأول من المذكرات ، وهو يؤرخ أحوال مصر حتى سنة ١٨٩٢ .

إن أحمد شفيق يسجل فى سطر واحد مستوى الأخلاق العامة للمجتمع المصرى فى القاهرة ، طبيعى أنه يرفع من قيمة الجيل الذى ينتمى إليه ، ولكنه بعد سطر واحد سوف يبدأ يستدرك بحيث تنسف سطوره التالية السطر الأول من أساسه .

يقول أحمد شفيق : « . . لم يكن التهتك معروفاً فى الملبس أو الخروج أو السير أو غيرها ، إلا بين العاهرات فى الأحياء الخاصة بهن . وكان الحجاب من لوازم المرأة ، فلم يكن يتاح لها الخروج إلا فى وقار وحشمة ومع هذا . . » .

ومع هذا . . ماذا ؟

هنا يبدأ أحمد شفيق يتراجع خطوة خطوة ! . .

« . . ومع هذا فقد كان هناك نوع ظريف من المغازلات الخاصة ، ذلك أن بعض الفتيان كانوا يتعرفون ببعض الأسر ، فيقضون ليالى فى

بيوتها ، كلها أنس وسمر وطرب ، وقد يشركون معهم بعض زملائهم متفكهين فيقودونهم فى العربات إلى هذه المنازل معصوبى الأعين ، فلا ترفع العصابات عن أعينهم إلا فى داخل المنزل ، وبعد قضاء السهرة يخرجون كما دخلوا معصوبى الأعين ، حتى لا يعرفوا فى أى مكان كانوا ، ولا فى أى منزل أتيحت لهم تلك السهرات ، وكان أخى محمود أفندى وهى شاباً وسيماً مولعاً بالطرب جميل الصوت ، وكثيراً ما كانت وسامته وجمال صوته يتيحان له فرصاً كهذه لا يدرى أين ولا كيف سنحت ، حتى يكون فيها وحتى يستمرئ لذاتها ، وقد كانت تذاع يومئذ روايات غريبة ، منها اقتناص أفراد من رجال الجيش الأشداء بجهة العباسية ليلا ، ووضعهم فى عربات مقفلة ، والسير بهم إلى دار سيدة عظيمة الشأن يتوصل إلى مقرها بواسطة سرداب تحت الأرض ، ثم لا يعرف لهم من بعد ذلك مقر » .

عزيزى القارئ — انتهت كلمات صاحب المذكرات ، هل فهمت منها ما فهمته أنا ؟ أشكرك .

خذ أيضاً مثلا آخر — من نفس المذكرات . يقول أحمد شفيق :

« كان يوجد فى القاهرة بيوت خاصة ببيع الرقيق تعرض بواسطة يسرجيات أو يسرجيين ، وكان يرتاد هذه البيوت من يريد اقتناء الجوارى أو المماليك أو العبيد ، وكان المعتاد أن يكشف على الجنسين وهم عرايا . . وكان مالكو الرقيق يستمتعون بالإناث — الجوارى — وخصوصاً البيض منهن . وكن يملأن بيوت الكبراء . . وبذا اختلط الدم المصرى بدم الجراكسة فى بعض الأسر »..

ولكن شراء الرقيق أمر لا يستطيعه غير الأغنياء — الكبراء بلغة العصر — فضلا عن أنه كان قد منع رسمياً منذ أيام الخديو إسماعيل ، إذن . . نبحث عن وسائل أخرى لقياس الحجم الحقيقى للرذيلة فى القاهرة خلال تلك الفترة . .

إن القاهرة — فى بداية العقد الأخير من القرن التاسع عشر — هى مدينة يقيم فيها ٣٧٥ ألفاً من السكان . هؤلاء كل سكانها ، بما فيهم ٣٢ ألفاًمن الأجانب ، خواجات من كل صنف وكل لون .

إن المليمات الخمسة تستطيع أن توفر لك إفطاراً جيداً . رغيف بمليم ، فول وزيت بمليمين ، طبق سلطة بمليم ، برتقالة بمليم ، الغداء أو العشاء — المكون من الخضراوات المطبوخة والأرز ولحم البقر أو الضأن — يكلفك عشرين مليماً .

كل شىء رخيص فى القاهرة إذن . . بما فى ذلك الأخلاق نفسها !

خذ مثلا ما كتبته صحيفة الإخلاص بالقاهرة فى ١٧ يوليو سنة ١٨٩٧ : « إن الرقص المصرى مبتذل ومنظره شنيع لا يستحسنه إلا من ضرب الجهل أطنابه على قمة رأسه ،سيا وإن الراقصات المصريات هن من المومسات اللواتى لم يتخذن هذا الفن إلا قضاء لشهواتهن وإيقاع الشبان الجهلاء فى شباكهن ليسلبن مالهم » . .

خذ هذه الكلمات أيضا من صحيفة المقطم . نشرتها فى ١٩ أغسطس سنة ١٨٩٨ فى مجال حديثها عن أخلاق الأدباء وعن « . . ارتيادهم الطرقات والمنتديات ، وهم كلما رأوا سيدة عارضوها فى طريقها وأسمعوها من أقوالهم ما يحمر له الوجه ، وأنكى من ذلك وأشد وقاحة شراؤهم الصور القبيحة وإبرازها أمام كل مخدرة يلتقون بها . . فتأخذ تلك المسكينة الرعدة من هذه السفالة . . ولا يزالون فى أثرها حتى تلج حانوتاً أو تركب مركبة تخلصها من شرهم » .

مرة أخرى تنشر (المقطم) إعلاناً فى ٨ ديسمبر من نفس السنة تقول فيه : « أعلن صاحب حمام شنيد الشهير فى بناء حليم باشا بالأزبكية أنه فتح أبوابه من أول ديسمبر الجارى لطالبى الاستحمام فيه نساء ورجالا ، وفى جميع ساعات النهار » .

بعدها تقول صحيفة المؤيد : « . . وبلغ الفساد مبلغاً لم يشاهد فى البلاد الأجنبية ، فقد عثروا فى يوم واحد على ثلاثة عشر لقيطاً فى جوانب القاهرة » . .

والصحف كلها تنشر إعلانات عن طبعات جديدة من كتاب يشرح وسائل (رجوع الشيخ إلى صباه) ، وعن الأدوية التى (. . تشفى من ارتخاء الأعضاء التناسلية ، ثمن الزجاجة ١٤ قرشاً) ، وتنشر إعلانات عن أدوية أخرى (. . مضمونة فى شفاء أمراض السيلان والزهرى) . .

ماذا جرى ؟ . .

أليس هذا هو نفس المجتمع الذى اتخذ من قبل أقصى احتياطاته لنشر الفضيلة والقضاء على الرذيلة ؟ نفس المجتمع الذى أراد أن يحمى المرأة من الرجل . . والرجل من المرأة ؟ نفس المجتمع الذى ارتدى من قبل عباءة أخلاقية محكمة تحصنه ضد الرذيلة ؟

نعم . . هو نفس المجتمع . . هى نفس المدينة . .

ولكن . . فى مجتمع كهذا ، ومدينة كهذه . . فإن تفكيراً كهذا بدأ القضية من مقدمات خاطئة . . فانتهى إلى نتائج خاطئة .

لقد رأينا من قبل كيف أن الخديو إسماعيل انطلق يبنى القصور ، يقيم الحفلات ، يؤسس داراً للأوبرا . . متصوراً أنه — بهذه الواجهة البراقة — قد بنى دولة عصرية ، إن كل ما أثار اهتمامه هو الشكل الخارجى المظهر ، الديكور . . وكانت النتيجة فاحشة الأضرار عليه وعلى مصر كلها .

والمجتمع كله فعل نفس الشىء بالنسبة لقضية المرأة ، لقد وضع أكواماً من الملابس على جسم المرأة وضع حجاباً على وجهها . . ورقيباً فى ذيلها . . وحائطاً أمامها . . متصوراً أنه بذلك قد نشر الفضيلة وقضى على الرذيلة .

ولكن الحقيقة كانت عكس ذلك تماماً . .

إن كل ما حدث هو أن الرذيلة انتقلت لتعمل تحت الأرض . . بعيداً عن الضوء ، فعلى السطح يحتفظ المجتمع بستار كاذب ، وتحت السطح تنتشر بؤرة فساد أخلاقية تتسع وتتسع ، لا لشيء إلا لأنها بعيدة عن الضوء . كان المجتمع ينظر إلى مياه النيل فيتصور أنها هي هي لم تتغير . . ولكنه لم يكن يعلم أن هذه المياه تتغير كل دقيقة ، كل ثانية . كان يتصور أنه - بمنطق الإكراه - سيرغم المرأة على الفضيلة ، ولكنه لم يكن يعلم أنه لا يوجد إنسان فاضل أو غير فاضل قبل أن يملك حق الاختيار ، قبل أن يكون حراً .

كانت وسائل المجتمع فى نشر الفضيلة غير طبيعية ، فقاومتها الرذيلة بوسائل غير طبيعية أيضاً ، انتشر البغاء ، انتشرت الكتب الصفراء ، انتشرت الأمراض التناسلية ، إن عدد الشبان المصابين بالأمراض التناسلية وقتها كان مائة ضعف العدد المصاب بها الآن .مع فارق جوهرى . . هو أن الأمراض وقتها كانت أكثر خطورة لأن الأدوية كانت أقل نجاحاً . بل إن الصحف تسجل أن مقاهى القاهرة فى تلك الفترة كانت مقراً دائماً للباعة المتجولين الذين يبيعون الرسوم العارية والكتب الجنسية للشبان .

ومع ذلك . . يقال إن المجتمع كان يقصد بهذه الإجراءات الاستثنائية أن يحمى خليته الرئيسية أولا . يحمى الأسرة . وطالما أن هذه الأمراض الاجتماعية تنتشر بعيداً عن الأسرة فلا خطر ولا ضرر طالما الأسرة - كخلية للمجتمع - تعيش هادئة مستقرة . . فإن الأمر يستحق كل هذه الإجراءات غير الطبيعية .

هذه هى الحجة الأخيرة التى يلقيها أنصار تلك التقاليد والحواجز التى أقامها المجتمع . حجة مفحمة . حجة يتوقع أصحابها أن تنتهى عندها كل مناقشة .

يا ريت ! . .

يا ليت الأمر كان كذلك . .

لم يكن كذلك . . .

إن الإحصائيات الرسمية للزواج والطلاق عن تلك الفترة تقدم الرد . هذا هو : إنه فى مدينة القاهرة وحدها . . نجد أن من بين كل أربع زوجات يتم طلاق ثلاثة منهن . . وتبقى واحدة فقط ! . . .

هنا بالضبط تنهار جميع الحجج التى ارتفعت بسببها الحوائط وأقيمت الحواجز . هنا بالضبط سقطت جميع الخطوط الدفاعية التى أقامها المجتمع . سقطت فى نفس النقطة التى كان من المفروض أن تدافع عنها .

لقد ركز المجتمع وسائل دفاعه كلها على المرأة . . لقد منعها من الاختلاط ، من التعليم ، من المشاركة حتى فى اختيار زوجها ، لقد غطى جسمها بحبرة ووجهها بحجاب ، لقد فصلها عن الحياة بحائط سميك مرتفع خوفاً من نزواتها . إلى هذه الدرجة كانت الأخلاق العامة تخاف — ترتعد — من الرذيلة . إنها — بخوفها هذا — سهلت مهمة هزيمتها بيديها !

ولم تكن الأخلاق العامة هى وحدها التى يحكمها الخوف . .

كان كل شىء فى مصر يحكمه الخوف . الخديو يخاف من الاحتلال : عقوبته العزل من السلطة . الحكومة تخاف من كرومر : عقوبتها الطرد من كرسى الحكم . الموظف يخاف من رئيسه : عقوبته الفصل من الخدمة . التلميذ يخاف من أستاذه : عقوبته الحبس فى الزنزانة . الزوجة تخاف من زوجها : عقوبتها النفى من المجتمع . إن عليها أن ترضى دائماً بنوع المعاملة التى قررها لها المجتمع مقدماً . . عليها أن ترضى أن تكون مواطناً من الدرجة الثالثة . الرجل مواطن من الدرجة الثانية . لا توجد درجة أولى . إنها محجوزة لأى أجنبى يعيش فى مصر . . إنجليزى أو غير إنجليزى !

هذا هو المجتمع المصرى فى تلك السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر. هذه هي حواجزه : حاجز كبير بين الحاكم والمحكوم ، حاجز آخر بين الفقير والغنى . حاجز ثالث بين الأب وابنه . حاجز رابع بين المرأة وزوجها .

والآن . .

سوف يقف شخص واحد وسط هذا المجتمع ، هذه المدينة ، هذه التقاليد . ليحاول نزع واحد من هذه الحواجز : حاجز المرأة عن المجتمع .

شخص واحد هو قاسم أمين – تتذكره ؟ – سوف يحاول أن يعترض على هذا الحاجز المرتفع ، هذا الحائط السميك . . الذى يفصل المرأة عن مجتمعها . .

لقد أعد قاسم أمين كتاباً عنوانه « تحرير المرأة » . إنه سوف يبدأ ينشره خلال الأشهر الأولى من تلك السنة – سنة ١٨٨٩ .

إن قاسم أمين تردد كثيراً قبل أن يضع كتابه هذا . تردد لأن الحائط أمامه سميك جدًّا، قوى جدًّا، مرتفع جدًّا . إنه لا يخفى عنا تردده، بل خوفه .

فمن الصفحة الأولى فى الكتاب – بل حتى من السطر الأول – يكتب قاسم أمين : « . . سيقول قوم إن ما أنشره اليوم بدعة » .

أخطأ قاسم أمين . .

فبعد صدور الكتاب لم يقل أحد إنه أتى ببدعة ، ولكنهم قالوا فقط – فقط – إن هذا الرجل يجب قتله ! مسكين . . قاسم أمين !

لقد حاول أن يستخدم رأسه لإزالة الحائط الكبير بين المرأة والمجتمع . ولكن رأسه سوف يتهشم أكثر من مرة . . قبل أن ينجح ، حتى فى فتح ثقب واحد فى هذا الحائط ! .

٢

الحائط
أو : هذه جدتى

أى امرأة تلك التى عاشت فى مصر ، فى تلك السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ؟ أى امرأة كانت جدتى ؟ أى عقول ؟ . . أى تفكير ؟ . . أى ظروف ؟ . . أى بيئة ؟ . . أى مجتمع ؟ أى عادات أحاطت بجدتى ؟

سؤال ضرورى لكى نفهم قاسم أمين .

إنها — جدتى — امرأة يمكن أن تكون فى سن العشرين ، أو الثلاثين ، أو الأربعين . . ولكنها مع ذلك كانت فى حالة طفولة دائمة . إن الطفولة ليست عمراً تحدده شهادة الميلاد . إنها حالة عقلية . الطفولة معناها أن شخصاً آخر يحمل عنك الهموم ويسحب منك المسئولية ويفرض عليك الوصاية . إن أفعالك لا تصبح صحيحة قبل أن يوافق هو . . وهى ليست خاطئة إلا إذا اعترض هو . بهذا القياس فإن المرأة هى طفل مستمر . طفل تحت الوصاية . إن الوصاية مفروضة عليها من الناس والمجتمع والأسرة والأقارب والجيران . . قبل أن يفرضها عليها زوجها . وعندما تتزوج فإن الزوج يقوم بالمهمة نيابة عن الجميع .

إن المجتمع زرع فيها مبكراً أهم صفات الطفولة الدائمة . زرع فيها من البداية القدرة على الطاعة وعدم القدرة على التفكير لحسابها . إن قدرها وحظها هو الطاعة العمياء ، إنها ليست زوجة مخلصة قبل أن تكون مطيعة . . وعمياء . إنها لن تكون طيبة قبل أن تستسلم للدنيا المحيطة بها . إن تلك الدنيا التى تعيش فيها ليست حلاً وسطاً بين

أحلامها وواقعها ، بين إرادتها وظروفها . . ولكنها دنيا غامضة ، مبهمة ، مظلمة . دنيا تخضع لأهواء القدر . . والقسمة والنصيب . إنها شيء فى علم الغيب . شيء لا بد للمرأة أن تخضع له فى سلبية وصبر وصمت .

إن دنياها تعطيها كل يوم درساً جديداً يؤكد ضرورة السلبية . إنها كامرأة عليها أن تطبخ . إن الطبخ يعلمها كل يوم أن تصبر وتطيع وتستسلم . إن عليها أن تطيع النار . . تطيع الماء . . تنتظر السكر حتى يذوب ، والعجين حتى يختمر . . والغسيل حتى يجف . . والزوج حتى يأكل . إنها تنتظر العريس حتى يصل . . تنتظر الأب حتى يختار . . تنتظر الأسرة حتى تقرر . إنها تنتظر زوجها حتى يأتى من العمل . . تنتظر الدورة كل شهر . . تنتظر الطفل كل سنة . إن حياتها كلها انتظار طويل لا ينتهى . إنها فى انتظار عودة زوجها من العمل . . لكى تعمل . فى انتظار ابتسامته . . لكى تهدأ . فى انتظار ضحكته . . لكى تستريح . فى انتظار نقوده كل شهر . . لكى تأكل . حتى فى الفراش تظل فى انتظار رغبته . . لكى تبدأ رغبتها .

إنها تشعر بأنها لا حول لها ولا قوة أمام الأشياء والناس والمجتمع . أمام الظروف والتقاليد والزوج . إن السلبية فيها تتحالف مع الطاعة ، لكى تجعلها فى النهاية مخلوقاً صبوراً مستكيناً ، صابراً أمام الكوارث والمصائب . إن هذا يقتل فيها أيضاً القدرة على تقويم الأشياء . القدرة على الرفض ، على الموازنة ، على النقد ، على فرز الطيب من الخبيث . . والجيد من الردىء . إن الجيد جيد لأن زوجها يراه كذلك ، والردىء ردىء لأنه يقول كذلك . إن كلمة « لماذا » مشطوبة دائماً من لغتها وحديثها . إذا قال زوجها شيئاً فليس من حقها أن تقول لماذا . لا من حقها ولا من سلطتها ولا فى قدرتها . إن سلطة زوجها أمامها نهائية وحاسمة وقاطعة وفاصلة . إن الإله الذى يخاف منه الرجل موجود هناك بعيداً فى السماء .

ولكن الإله الذى تخشاه جدتى كان موجوداً على بعد خطوتين منها : زوجها . إنه إله يعيش معها داخل المنزل ، ويقتسم معها السرير . إن سلطة زوجها واضحة أمامها فى داخل البيت . لهذا فإنها – حتى وهى تتعامل مع أولادها – تطلب منهم ، تعاقبهم ، تكافئهم . . باسم الرجل ومن خلال سلطته . إن سلطة الرجل أمامها ليست محل مناقشة ، وشخصيته ليست محل جدل . إن الساعات التى يقضيها زوجها فى المنزل ، الحجرة التى يجلس فيها ، المائدة التى يأكل عليها ، الأشياء التى تحيط به .. لها صفات مقدسة . بل إنه – فى كثير من الأسر أيام جدتى – كانت الزوجة لا تجرؤ على أن تأكل مع زوجها على مائدة واحدة !

إن هذا ليس شعوراً طبيعياً بين زوج وزوجته . ولكن الزوج بالنسبة لجدتى لم يكن مجرد زوج . كان رمزاً . كان سلطة . كان رمزاً للسلطة . إنه يعمل ويخرج ويتصرف ويفكر بالنيابة عن نفسه وعنها . إنها تتعامل مع الدنيا كلها من خلاله . إنه حلقة الاتصال الوحيدة بينها داخل البيت وبين الدنيا خارج البيت . إن رؤية الدنيا . . رؤية الأشياء بوضوح . . ليست من عملها . إن الاختلاط بالناس والدنيا ليس من اختصاصها . إن البحث والتفكير ليس فى قدرتها . لهذا فإن جدتى لم تكن تعرف كيف تنتقد ، كيف تتحرى الحقيقة ، كيف تقوّم الأشياء . الطفل لا يقوّم شيئاً . الطفل ينتظر أبوه لكى يختار له . المرأة تنتظر زوجها لكى يختار لها . إنها تترك له كل شىء ، ليس لأنها تريد فقط ، ولكن لأنه – فعلا – يفهم الدنيا أحسن منها . إن أفكارها عن الدنيا والناس تدخل عقلها عن طريقه وبوساطته . إنها فى الواقع لم تكن أفكاراً . إنها اتجاهات وميول وعواطف . إذا كانت جدتى ترى أن الحكومة فى مصر طيبة ، فلأنها تسمع أن جارها – جندى البوليس – يصلى كل فرض فى موعده . إن المقاييس عندها بسيطة ، وهى تلتقطها من أقرب شىء تراه بحواسها . . وليس بعقلها . إن المجتمع جعل

مستقبلها مسدوداً وسماءها منخفضة ودنياها مغلقة وحياتها ملأى بالتكرار والروتين . إن الزمن لا يأتى لها بعنصر جديد ، وهى بدورها لا تتحكم فيه ولا تشعر بأن لإرادتها أدنى تأثير عليه . إنها ترى المستقبل كمجرد تكرار للماضى . ترى أن حياتها تسير كالقطار ، فوق قضيبين موضوعين مقدماً ، ونحو هدف محقق سلفاً . هدف لم تختره ولا تعرفه .

أقول إن المجتمع حكم على جدتى – وهى هنا رمز لجيلها كله – بأن تعيش حياتها داخل دنيا مغلقة . دنيا محدودة ، بسقف فوق عقلها وأربعة حوائط حول أفكارها . لهذا فإن من الطبيعى أن تلجأ جدتى إلى تكبير تلك الدنيا فى الخيال كتعويض عن حجمها وصغرها فى الواقع . إنها بالأوهام التى ستنمو فى رأسها . . سوف تحس بأن حجم دنياها قد تضاعف ، وحدودها قد اتسعت .

إنها – جدتى – تعبر فى ذلك عن النموذج التقليدى للمرأة فى مجتمع زراعى مغلق . امرأة تؤمن بالسحر ، بالأحلام ، بتفسير الأحلام ، بالحظ ، بالنصيب ، بالقدر ، بالمصادفة ، بالشعوذة ، بالدجل ، بالأساطير ، بالشياطين ، بالتنجيم ، بالفلك وضرب الرمل وقراءة الكف والأشباح والعفاريت .

إنها إذا أرادت الحمل فعليها أن تزور أحد الأضرحة . هذا الضريح لشفاء العاقر ، هذا الضريح لكسب الزوج ، هذا لمنع الحسد ، هذا لجلب الحظ ، هذا لإبعاد النحس .

إنها تفعل هذا كله تعبيراً عن قلقها . إن قلقها هو تعبير عن عدم ثقتها فيما يمكن أن يأتى به إليها المستقبل . عن عدم ثقتها فى الدنيا التى تعيش فيها . إنها دنيا ملأى بالتهديد ، جاهزة للانهيار ، وهى تعيش فيها خائفة من كلمة غضب يصيح بها زوجها ، خائفة من يمين طلاق يقذف به فى وجهها ، خائفة من المعاملة التى يمكن أن تتلقاها من المجتمع لو أعادها زوجها إلى بيت أسرتها . إن الأمثال الشعبية تقول لها :

« اللى تخرج من دارها . . يتقل مقدارها » ، وتقول لها : « نار جوزى ولا جنة أبويا » . إن الدائرة حولها مغلقة . لهذا فإن عليها أن تستسلم لقدرها ونصيبها وجهلها وضيق دنياها . تستسلم بذعر وخوف وانتظار للمجهول . انتظار بخوف واستسلام بذعر . لهذا فإن جدتى — مع جيلها كله — كانت دائماً تحس بعداء للمستقبل . إن كل شىء مجهول ، أو غامض ، أو لم يحدث بعد .. لا ضرورة للتفكير فيه . إن أى شىء جديد عليها — ولم تره من قبل — هو شىء لابد من تأجيله دائماً. إن المرأة كانت دائماً محافظة سياسياً ورجعية فكرياً .. ولكن جدتى كانت أكثر التصاقاً بالواقع الذى تعرفه وخوفاً من المستقبل الذى تجهله .

إن النسبة الكبرى من تصرفاتها — جدتى — يمكن تفسيرها على ضوء هذا الخوف . إن لديها دائماً الإحساس بأن القدر هو شىء لا يمكن تفاديه ولا صده ولا مواجهته . الإحساس بأن كل شىء يمكن أن ينهار فى لحظة ، وكل شىء يمكن أن يحدث بعد لحظة . إنها — مع جيلها كله — لا تستطيع أن تفرق بوضوح بين الممكن والمستحيل . إنها مستعدة لتصديق أى شىء ، مهما كان تناقضه مع العقل . إن دنياها ملآنة بالحقائق القليلة المطلقة . . وكل شىء بعد ذلك هو شائعات . إنها تستمع أولا إلى الشائعات ، ثم تنشرها سريعاً ، وعندما تسمعها من جديد فإنها تبدأ تفزع . تفزع من لا شىء . من إشاعة . . من وهم . . من خيال . . من شبح .

إن خوفها يقود إلى الشك فى كل شىء . . فى الناس والأشياء والمستقبل . إنه خوف يقودها أيضاً إلى الاستسلام . استسلام يقودها بدوره إلى شعور بالعجز . شعور يترجم نفسه فى نوع من اللوم المستمر . لوم على الظروف وعلى الحياة وعلى نفسها. إن لهجتها مملوءة دائماً بالمرارة والشكوى . إنها تشكو من همومها ومتاعبها وظلم القدر ومرارة الدنيا وقسوة الرجال . إنها تشكو لزوجها من أطفالها . وتشكو لأطفالها من أبيهم .

إنها تشكو من كل شيء حتى من حالة الجو. إن شكواها ملأى دائماً بالتفاصيل . إنها كذلك لأن حياتها نفسها هي مجموعة تفاصيل . إن عقلها تم تدريبه من البداية على أن ينحصر تجوله داخل مساحة محدودة ، لهذا فإنها الآن — بعد أن أصبحت ست بيت — وربة أسرة — أصبحت أكثر اهتماماً بالتفاصيل .

إن أقل شيء يشد انتباه الرجل للحظة واحدة كفيل بأن يشد انتباه المرأة يوماً كاملا . « الفاضي يعمل قاضي » . إنها — للحقيقة — دائماً مشغولة ، ولكنها لاتعمل شيئاً . . لا تخلق شيئاً . إنها تعمل وتكرر ما تعمله ، ثم تبدأ من جديد . إن اهتمامها ووقتها موجه دائماً نحو أشياء لا تمثل أهدافاً فى حد ذاتها . إنها مشغولة كل يوم بنفس الأشياء . مشغولة بأن تطبخ ، تغسل ، تكنس ، تنظف ، تطبخ من جديد ، ثم . . بين وقت وآخر . تلعن حظها وظروفها .

إن الإنسان الحر ، المسئول ، الناضج ، يلوم نفسه فقط على أفعاله وظروفه . إنه مسئول عن أفعاله . مسئول عن مقاومة ظروفه . ولكن بالنسبة للمرأة فإن كل شيء يحدث لها يتم من خلال الآخرين . لهذا فإن « الآخرين » هم دائماً مسئولون عن كروبها ، ويلامون على أزماتها . إنها تعتبر أن الدنيا كلها مسئولة لأنها صنعت — وتسير فعلا — بدونها وضدها . إنها تحتج ضد حالتها منذ الطفولة . لقد وعدها المجتمع بتعويضات كثيرة مقابل استسلامها . لقد أكد لها المجتمع أنها لو وضعت مستقبلها — مصيرها — فى يد الرجل فإن ما وضعته سوف يعود إليها مائة ضعف . إنها الآن — لو تنبهت لحظة واحدة — تشعر أنها تعرضت للغش . لهذا فإن الشعور التالى عندها هو دائماً الاستياء . إن الاستياء هو نقيض التبعية . حينما يعطى الإنسان كل شيء فإنه لايحصل أبداً على ما فيه الكفاية . إن حالتها دائماً هى حالة المهزوم ، ولا أمل لديه — حتى يوماً ما — فى تغيير هذه الهزيمة .

إن العادات والتقاليد علمت الرجل مبكراً التجلد أمام المتاعب ، ولكنها علمت المرأة : الدموع . إن الرجل يريد غالباً أن يواجه المتاعب التي تثيرها الحياة أمامه . إنه لن يستسلم لها ، لن يخضع ، لن يرفع الراية البيضاء عند أول هزيمة . ولكن مع المرأة — مع جدتي وزميلاتها حتى اليوم — تأخذ الأمور اتجاهاً آخر . مع المرأة فإن أقل متاعب تذكرها على الفور بعجزها المطلق فى دنياها والظلم فى حظها . إن الحل الذى يبدو أمامها متاحاً فى هذه الحالة سهل وبسيط : إنها تلجأ إلى أقرب شخص إليها . تلجأ إلى نفسها . إن تلك الآثار التى نراها على خديها ، وهاتين العينين الحمراوين . . . ما هى إلا الجزء الظاهر من روحها . إن دموعها تتساقط من عينيها . . ساخنة على خديها . . مالحة فى لسانها . دموع تلاطف وجهها مع أنها تملؤه مرارة . إن وجهها يصبح — مع الزمن — مدرباً على عدم الاحتراق من هذا الفيضان السريع من الدموع . دموع هى فى وقت واحد رثاء وعزاء وتهدئة . دموع تنطلق دائماً فى عاصفة مفاجئة ، وفيضان متدفق لتصبح فى النهاية إثباتاً غيابياً لبراءتها واستشهادها . إنها — بحكم العادة — تستخدم الدموع دائماً فى « الفارغة والمليانة » . إنها لم تعد تعرف كيف تميز بين دمعة ودمعة . كلها . . دموع . كلها . . إجابات ، حتى لو لم تكن هناك أسئلة تستدعى كل هذا الفيضان من الإجابة . إن عينيها تصبحان عمياوين . . مليئتين بالضباب السائل ، ذائبتين فى المطر . إن المجتمع يريدها مهزومة — نعم — ولكنها تغرق فى هزيمتها . تغرق كحجر لا اختيار أمامه : إنها تغرق ، وفى أثناء غرقها تتملص من الرجل الذى يتأملها . إن الرجل بالنسبة لها هو شلال . . وهى عديمة القوة أمام الشلالات . عديمة القوة ولكن غزيرة الدموع . . إن المجتمع يعتبر أن لجوء المرأة إلى دموعها هو استخدام غير عادل لعينيها ، ولكنها هى — هى — ترى أن الصراع لم يكن عادلا من البداية . . لم يكن عادلا ولا نظيفاً لأن المجتمع لم يضع فى

يديها أى سلاح آخر فعال تواجه به ظروفها المحكوم عليها بها بغير استشارتها . إن سلبيتها وخضوعها واستسلامها ، إن طاعتها وانقيادها ، إن صبرها وصمتها ودموعها ، إن شعورها بالانقياد ، إن حياتها فى دنيا يتحكم فيها القدر تحكماً عابثاً لاشفقة فيه ولا رحمة ، إن الرعب الذى ينتظرها كبديل لانهيار بيتها ، إن إحساسها بأن الباب مغلق عليها والنوافذ مقفلة فى وجهها ، والحوائط مرتفعة فى طريقها ، إن شعورها بأنها تعيش فى دنيا من الرجال الذين صنعوا الأخلاق والقيم والمثل والتقاليد وقاموا بحراستها . . دنيا تحترمها وتخشاها . . دنيا تحترمها بغير أن تجرؤ على أن تتقدم إليها ، إن إحساسها بأن الرجل بالنسبة لها هو المصدر الوحيد — والسبب الوحيد أيضاً — لحياتها ، إن رؤيتها الرجل وهو يعيش حياتها هى بالنيابة عنها ... كل هذا يسحب منها فى النهاية أى شعور ذاتى بالعزة والكرامة . إن العبد لا يمكن أن يعثر فى داخله على عزة أو كرامة ، يكفيه أن يخرج من المسألة كلها بلقمة عيش يأكلها .

إنها تخرج من عمرها كله بحياة لم تخطط لها ، بأفكار لم تفكر فيها ، بقيود لم تخترها . إن الأيام — أيام عمرها — تنزلق من بين يديها يوماً بعد يوم . . شهراً بعد شهر . . سنة بعد سنة . . فى تكرار ورتابة وملل وقيود وسلاسل .

ولكن السلاسل — للحقيقة — تتساقط من حول أقدامها . . سلسلة بعد سلسلة . . كلما تقدم بها العمر سنة بعد سنة . إن المجتمع لايبدأ يتسامح قليلا مع المرأة إلا إذا تقدمت بها السن . إنها تعيش حياتها ، سنة بعد سنة . . إنها تنجب الأطفال ، طفلا بعد طفل . . لهذا فإن القيود تبدأ تتساقط من حولها قيداً بعد قيد . . إلى أن تصل إلى الحد الأدنى حينما تتقدم المرأة نحو سن الخمسين .

إنها — جدتى وزميلاتها — بوصولها إلى سن الخمسين قد أصبحت موضوعاً لا يستحق الحراسة من المجتمع . لقد تساقطت ملامح

أنوثتها على الطريق . أنوثة كانت هي السبب الأساسي للأسوار التي رفعها المجتمع حول المرأة من البداية . إن تقدم السن بها يصبح بالتالي مسوغاً لتخفيف القيود عنها مرة بعد مرة . إنها الآن في خريف حياتها .. والخريف بطبيعته ليس مغرياً لأحد . في الخريف تتساقط الأوراق ، تذبل الأشياء ، وتموت القدرات . إنها قبل أن تصل إلى سن الخريف ، كانت قد اعتادت كل ما أرادها المجتمع أن تعتاده . إنها أيضاً عرفت زوجها وأدت واجباتها وولدت المطلوب منها . الآن أصبح البيت مستقراً ، والزوج مألوفاً ، والأولاد كباراً . الآن إذن تستطيع هي أن تكون حرة .

يا للحسرة !

إنها — جدتي — تكتشف أن هذه الحرية قد وصلت متأخرة في عمرها . متأخرة جداً . لقد أصبحت تملك أقصى حرية عندما وصلت طاقتها إلى أقل كفاية . إن عقلها أصيب بالصدأ ، ورأسها دب فيه الشيب ، وظهرها تقوس ، وأسنانها تساقطت ، وقدرتها على التجربة تلاشت ، واعتيادها الواقع تجمد . إن المجتمع كان في شبابها يخشاها .. فأقام الأسوار حولها ، والآن أصبح المجتمع — في شيخوختها — مطمئناً إليها .. اطمئناناً يصل بعد أن أحالها الزمن — وأحالها الواقع — إلى التقاعد .

إنها تقاوم وتقاوم كأي شخص اقترب يوم إحالته إلى المعاش . إنها تستدير حولها لكي تخلق لنفسها دوراً جديداً تستخدم فيه صوتها الذي ارتفع وحريتها التي تحققت . دوراً لا يتحمل كل وقتها الذي أصبح فارغاً . وطاقتها التي ولدت حالا . إنها تستدير حولها ، تستدير إلى ابنها مثلا . إذا وصل ابنها إلى سن الزواج فإنها تحاول أن تفرض عليه بدورها شريكة حياته . إذا تزوج ابنها فإنها تحاول أن تفرض الوصاية على زوجته . إنها الآن « حماة » في أسوأ صورة يمكن أن تكون عليها الحماة . إنها تعتبر أن ابنها مدين لها هي بحياته . ولكنه ليس مديناً بشيء لتلك الزوجة التي رآها أمس فقط بعد عقد القران . لقد عاشت هي عمرها كله

تحت الوصاية ، وليس أقل من أن يتحمل ابنها الآن جزءاً من الوصاية . إنها تراقب وجهه لكى تتلمس فيه أقل بادرة على الاستياء من زوجته . إذا لم يبتسم هو اليوم فلأن زوجته لم تكن مطيعة له أمس . خناقة . إذا ابتسم كثيراً فلأن زوجته بدأت تسحب عقله بعيداً عن أهله بواسطة السحر. خناقة . إذا بدا عليه التعب لحظة واحدة فلأن زوجته لم تجعله ينام كثيراً أمس . خناقة . إذا اصفر لونه درجة واحدة فلأن زوجته لم تطبخ جيداً فى الليلة السابقة .خناقة !

إنها الآن — جدتى وزميلاتها — تبدأ تشفق على ابنها وتتجسس على زوجته . التجسس عليها ، وانتقادها ، واصطياد الأخطاء فى تصرفاتها .

وفى مقابل ذلك فإنها تقوم بالدور العكسى فى حياة ابنتها . إنها تتحالف معها ، تقدم لها النصائح ، تحكى لها التجارب ، لكى تطيق هى الأخرى حياتها الجديدة . إن زوج ابنتها — على العكس من زوجة ابنها — يصبح صديقاً لها ، وهى بدورها تحاول أن تكسب ثقته لكى يكون أكثر لطفاً مع ابنتها .

إنها — جدتى — لن تقتنع أبداً بأن على هؤلاء الجدد — أبنائها وبناتها — أن يعيشوا حياتهم مستقلين عنها ، بإرادتهم وباختيارهم . إنها لن تقتنع لأن أحداً لم يهتم من قبل بإرادتها هى وباختيارها هى . إنها — حينما تستعرض الآن حياتها هى فى شريط سينمائى لن تخرج منها بغير المرارة والتعاسة أو — بالكثير — الرضاء الخالى من أى حماس .

إنها تتذكر الآن — فى سن الفراغ والتقاعد والحسرة والندم — أن الزوج كان فى حياتها إلهاً فى جسم إنسان . لقد كانت له سلطات الإله ، وإرادة الإله ، وأوامر الإله ، . . بدون أن يكون هو نفسه إلهاً . إنها — حينما تزوجت ، لم تختر زوجها ، لم توافق عليه ، لم تعجب به . . ومع ذلك توقع منها المجتمع أن تحب زوجها ، بمثل ما توقع منها أن تطبخ له الطعام وتلد له الأطفال . إن زوجها لم يكن بالنسبة لها مجرد

زوج .. أو شريك حياة ، ولكنه كان مرشداً ومقرراً وآمراً وناهياً وفى النهاية .. سيداً . إن كل مصادر الاستياء التى تراكمت عليه خلال طفولته ، ومؤخراً فى حياته .. كل المشاكل التى تراكمت عليه يومياً من الظروف ومن الرجال الآخرين .. كانت تذهب معه إلى المنزل لكى يتم تطهيرها فيه أولا بأول . إن أقل إخفاق يواجهه خارج المنزل لابد أن يتحول إلى أكبر انتصار داخل المنزل كبديل وتعويض . إنه كان معها دائماً فى داخل المنزل عنيفاً وقوياً وآمراً وقاسياً كرد فعل لكل نقطة ضعف أصابته فى مقابلة خارج المنزل . إنه يصيح ويدق المائدة ولا يبتسم ... لأن زوجته قد تفسر ابتسامته كمظهر ضعف . إنها الآن — جدتى — تتذكر أن تلك المسرحية كانت حقيقة يومية بالنسبة لها . إنها تتذكر أن أقل علامة أظهرتها فى حياتها على الاستقلال — حتى بغير وعى — كانت تبدو بالنسبة له تمرداً خطيراً يجب أن يسحقه فوراً .

ولكن .. هل كانت جدتى — فعلا وحقاً — عاجزة عن التمرد ؟ هل كانت تربية المجتمع لها من البداية على الطاعة والاستسلام والجهل والخوف ... تسحب منها كل طاقتها على التمرد ؟

أبداً . غير صحيح بالمرة !

إن ما حدث — فى تلك الأيام التى عاشتها المرأة المصرية — هو أن راية التمرد لم تكن ترتفع مطلقاً فى الهواء الطلق ، ولكن التمرد كان موجوداً — وينجح كثيراً فى الأعماق . إن البخار الذى يظل محبوساً مكبوتاً فترة طويلة يندفع بعنف من أضعف نقطة فى السطح .

إن المرأة — أيام جدتى — كانت تبدأ حياتها الزوجية بدنيا جديدة تنتقل إليها . إنها فى البداية كانت تنبهر ببيتها الذى انتقلت إليه ، تنبهر برجلها ، تنبهر بدنياها الجديدة التى انتقلت إليها . ولكن — مع الوقت والقيود والقسوة والأسوار — فإن الانبهار كان يفسح مكانه لشعور جديد : الاستياء . التمرد . الثورة . إنها ثورة مكتومة ، ولكنها ما تزال ثورة . إن المرأة

كانت تكتشف سريعاً أن زوجها هو إنسان عادى ، وليس ما يسوغ أبداً أن تعيش تحت أقدامه . بجانبه — نعم — ولكن ليس تحت أقدامه . إن استياءها من سيطرته عليها يتحول فى البداية إلى لوم طويل صامت لظروفها . لوم سرعان ما يبحث عن مجال يتنفس فيه. إن صوتها الذى ظل هامساً طوال وجوده فى المنزل سوف يرتفع فجأة بمجرد خروجه . إنها تصبح سعيدة كل صباح بمجرد أن يغلق الباب خلفه ذاهباً إلى عمله . تتنفس الصعداء . إنها حرة . حرة الصوت والحركة ، ولو لمدة زمنية محدودة .. وداخل مساحة منزلية ضيقة . إنها تنصرف إلى ألف مهمة صغيرة . . بيدين مشغولتين وعقل فارغ .

ولكن العقل الذى يبدأ فارغاً . . لايظل إلى النهاية فارغاً . إنها الآن ستشغل عقلها فى أفكار على مستوى قدراته : كيف تطيع الزوج علناً . . وتتمرد ضده سرًّا ؟ كيف تحقق له كل المظاهر التى يريدها . . وفى الوقت نفسه تحقق لنفسها كل المضمون الذى تريده ؟

إن الإجابة فى عقلها قد تكون هى اللجوء إلى السحر ، أو المبالغة فى الأنوثة ، أو استخدام هذه الأنوثة نفسها . إن زوجها ظل يسعى دائماً — بمجتمع كامل يسانده — لكى يشكل شخصيتها حسب هواها ، ولكنها هى الآن — فالدور أصبح عليها — التى ستشكله حسب هواه . إن المجال الوحيد المفتوح أمامها ليس الثورة المكشوفة ، ولاالتمرد الواضح ، فالمجتمع كله سيقف ضدها . إنها لاتملك سوى هذا السلاح السرى داخل ثوبها — أنوثتها — إن الأنوثة كانت من البداية نقطة ضعفها ، وسبب الوصاية عليها ، ولكنها الآن ستستخدمها لمصلحتها . . ولحساب الانتقام منه هو — زوجها . إن إثارة الغيرة فيه هى إذلال له . إن التظاهر بالبرود أمامه هو إهانة صامتة لرجولته . إن هذا الزوج — هذا الرجل — الذى ظل طوال النهار مخلوقاً غامضاً ، وسرًّا مغلقاً ، سوف يفقد غموضه فجأة فى السرير . إنه إذا كان يجعلها ضحية نهاراً ، فإنها سوف تجعله ضحية ليلاً. إنها لاتستطيع

أن تعلنه بتمردها . . ولكن طلباتها التى تأجل تنفيذها طوال اليوم . . سوف تتحقق واحداً واحداً فى هذه المنطقة البعيدة عن عيون الناس ورقابة المجتمع ، هذه المنطقة المحايدة : السرير !

ربما لهذا السبب كانت تنمو فى المجتمع مجموعة كاملة من الأسرار التى تتناقلها المرأة جيلا بعد جيل . أسرار الأنوثة والإغراء والدلال والصد خلف قناع ، والبرود تحت حجاب . أسرار كانت المرأة تستخدمها كوسيلة أخيرة للدفاع عن النفس والحصول على تنازلات من الباب الخلفى ، وتحقيق انتقام لايتيحه ضوء النهار . إن انتقامها يسير على خطين متوازيين كالصراط المستقيم . انتقام يروح بين الرغبة فى الاحتفاظ بالزوج . . وفى الوقت نفسه مقاومة سيطرته عليها . إنها سوف تكره وتخاف . . وتحب . . معاً . إنها سوف تلعب على غروره وضعفه فى وقت واحد . ربما من أجل هذا أيضاً كان الجنس يشغل جزءاً كبيراً من تفكير الرجل فى تلك الأيام. إن الجنس موجود دائماً ، فى أفكارنا وتصرفاتنا . ولكن الجنس عندما يصبح هماً ثقيلا، وكابوساً مزعجاً . . . فإنه يصبح مرضاً بدل أن يكون صحة . إن الرجل كان يأخذ أقل تشكيك فى رجولته ككارثة . . أكثر من كارثة . إن حرصه على الإنجاب المستمر ، حرصه على الزواج المتكرر لو أمكن ، حرصه على تبادل الأسرار مع أصدقائه . . . هو تعبير مستمر عن أنه ما زال مسيطراً ، ما زال سيداً ، ما زال رجلا . إن الأمثال الشعبية تقول له : « جوز الاتنين عريس كل ليلة »، وتقول له : « الراجل ابن الراجل اللى عمره ما يشاور مراته »، وتقول له أيضاً إن معظم القيم الرئيسية فى الحياة هى قيم بمقدار بعدها أو قربها من الجنس . فى الواقع أن القاموس الأخلاقى فى المجتمع كله يشهد بأهمية نظرة المجتمع إلى الجنس، خلال تلك السنوات . إن كلمات مثل الفضيلة ، الأدب ، قلة الأدب ، العفة ، حسن الأخلاق ، عدم الأخلاق كانت فى جوهرها تتضمن معانى جنسية . إننا لو اخترنا كلمة واحدة منها — العفة . . مثلا —

فسوف نكتشف ما هو المضمون الحقيقى الذى كان المجتمع يعنيه منها .

إن العفة كانت تعنى بالدرجة الأولى أن تكون الفتاة عذراء يوم الزواج . إن عذريتها مقدسة بالنسبة للزوج وأهله ، وهى شىء عادى بالنسبة للعروس وأهلها . . ولكنها خسارة خطيرة لو ضاعت . خسارة تصل فى خطورتها إلى درجة تسيل فيها الدماء ، ويسقط معها القتلى .

إن عذرية الفتاة هى رمز لرغبة الرجل فى أن يسجل ملكيته المطلقة لعروسه منذ نقطة البداية . ملكية تطلبها الأخلاق ويحرسها الدين ويحافظ عليها المجتمع . إن الأهمية المطلقة لعذرية الفتاة كانت تصل إلى قمتها ليلة الزفاف . فى ليلة الزفاف يدخل العروسان ، مع أقرب مساعدين لهما ، فى حين ينتظر أهلوهما فى جمع من المدعوين خارج باب حجرة النوم . إنهم ينتظرون ضاحكين مغنين مهللين ، فى انتظار خروج الزوج منتصراً لكى يريهم منديل الدم الذى ما زال ساخناً فى يده . منديل البراءة . براءة الفتاة وعذريتها وطهارتها . بهذا المنديل ، بهذا الدليل الشكلى الذى يقطع الشهود بصحته ، فإن أهل العروس قد يطوفون به فى الصباح التالى على منازل الجيران . رحلة ضرورية لكى لا تخرج الأقاويل وتنتشر الشائعات ويبدأ الثأر .

هكذا عاشت جدتى ! هكذا عاشت زميلاتها . هكذا عاش مجتمعها . مجتمع تعيش فيه المرأة من الباب إلى الباب : من رحم أمها إلى باب قبرها . حياة تقضيها فى جهل ، تعيشها فى خوف ، تمر بها فى ذعر ، تعبرها فى ظلام ، وتسير فيها من خلف حجاب .

إن صوتاً واحداً سوف يرتفع ضد شىء واحد من هذا كله . ضد : الحجاب . صوت واحد سوف نسمعه محتجاً فى هدوء ومقنعاً بمنطق .

إن هذا يعيدنا إلى الكتاب الذى أصدره قاسم أمين .

٣

المسنبوز

عندما عاد قاسم أمين إلى منزله فى ذلك المساء أدرك بعد خمس دقائق أنه ارتكب غلطة فظيعة . لقد توقع قاسم أمين أشياء كثيرة .. ولكنه لم يتوقع هذا المنظر الذى يراه أمامه داخل منزله فى شارع الهرم بالقاهرة ...

رجل غريب .. يقول لقاسم أمين ببساطة شديدة :

— أنا عاوز الست بتاعتك !

— نعم ؟!

— إيه ! . . أنا عاوز الست بتاعتك . .

وبهدوء شديد سأل قاسم أمين : عاوزها فى إيه ؟

— عاوز اجتمع بيها .. عاوز أختلط معاها . . عاوزها تخرج معايا ..

ومرت لحظات صمت ووقاحة قبل أن يستأنف الرجل الغريب حديثه مستفزًّا قاسم أمين : ألست تدعو إلى سفور المرأة ؟ إلى اختلاطها بالرجال ومساواتها بهم ؟ ألست تنادى فى كتابك بأن تنزع المرأة الحجاب وتكسب حريتها كاملة ؟ أليس هذا كتابك « تحرير المرأة » ؟ !

ورد قاسم أمين ببساطة : نعم هذا كتابى . ولكنك أسأت فهم أفكارى فى هذا الكتاب .

.. وفعلا !

لقد أساء الرجل فهم كتاب قاسم أمين الذى أصدره فى تلك السنة بالقاهرة : سنة ١٨٩٨

إن قاسم لم يناد فى الكتاب بتحرير المرأة ! أكثر من هذا — لم يناد قاسم أمين بنزع حجاب المرأة ! إن قاسم أمين فى الواقع دافع عن

الحجاب ، فى كتاب « تحرير المرأة » يقول قاسم أمين : إننى لا أزال أدافع عن الحجاب وأعتبره أصلا من أصول الأدب التى يلزم التمسك بها. غير أنى أطلب أن يكون منطبقاً على ما جاء فى الشريعة الإسلامية .

هذا كل ما قال قاسم أمين. إنه لم يهاجم الحجاب ، بل دافع عنه . لم يطلب نزعه ، بل طلب استمراره. لم يناد بإلغائه ، بل بمجرد التخفيف منه .

ولكن هذا لم يمنع الجمهور من اعتباره « إباحياً فاسقاً فاجراً » . لم يمنع الصحف من إطلاق صفات كثيرة عليه أخفها أنه . . « زنديق كافر ، متساهل فى عرضه وشرفه » . بل إن أحمد لطفى السيد عندما كتب عن قاسم أمين بعد ذلك بسنوات مشيراً إلى كتاب تحرير المرأة قال : « ما علمت امرأ يخاطر بنفسه ، ويقف حياته لإحياء أمته بهذه الشجاعة الفائقة كما فعل قاسم » .

يخاطر بنفسه ؟ الشجاعة الفائقة ؟

ما هذا ؟ هل احتاج الأمر من قاسم أمين إلى كل هذه الشجاعة ، وهذه المخاطرة ؟

يبدو ذلك . لا . . بل حدث ذلك .

إن قاسم أمين نفسه كان يشعر بشىء من هذا كله قبل أن يصدر كتابه « تحرير المرأة » فى سنة ١٨٩٨ . لقد كتب فى مقدمة الكتاب قائلا : هذه الحقيقة التى أنشرها اليوم شغلت فكرى مدة طويلة كنت فى خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها . .

بل إن قاسم خشى أن يتحمل وحده مسئولية إصدار هذا الكتاب ، فعرض على أحد أصدقائه أن يشترك معه فى تأليفه . . إن هذا الصديق هو أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوى الذى تخرج فى مدرسة العلوم السياسية وكلية الحقوق بباريس . ولكن الخوف تغلب على أحمد شفيق فاعتذر بأن . . « الأفكار لم تتهيأ بعد لقبول مثل هذه الدعوة » !

وكان قاسم أمين هو الآخر يعلم أن الأفكار لم تتهيأ بعد لقبول الدعوة

إلى تحرير المرأة . ولكنه كان يؤمن أيضاً بشيء آخر . لقد سأل نفسه : من الذي يحب صاحبه أو قريبه أو مواطنه أكثر : أهو الذي يكشف الستار عن عيوبه ويظهرها له كما هي ؟ أم الذي يغض البصر عن نقائصه ويخفيها عليه ويمدحه ليسره ؟ . . . لا شك أن الأول هو الصديق المكروه والثاني هو العدو المحبوب . . »

ليكن . .

ليكن هذا هو المكان الذي يختاره قاسم أمين لنفسه مقدماً : الصديق المكروه . ليكن مكروهاً — أو حتى منبوذاً — طالما يريد أن يكشف لوطنه عن عيوبه كما هي . هذه هي الوسيلة الوحيدة أمامه لكي ينبه وطنه إلى ضرورة التخلص من هذه العيوب .

عندما استقر قاسم أمين على هذا الرأى أمسك بقلمه وبدأ يكتب الصفحات الأولى من كتابه « تحرير المرأة ».

كتب قاسم أمين :

« هل صنعنا شيئاً لتحسين حال المرأة ؟ هل قمنا بما فرضه علينا العقل والشرع من تربية نفسها وتهذيب أخلاقها وتثقيف عقلها ؟ أيجوز أن نترك نساءنا فى حالة لاتمتاز عن حالة الأنعام ؟ أيصح أن يعيش النصف من أمتنا فى ظلمات من الجهل بعضها فوق بعض لايعرفن فيها شيئاً مما يمر حولهن ، كما فى الكتاب صم بكم عمى فهم لايعقلون ؟ »

هكذا يتساءل قاسم أمين فى كتابه « تحرير المرأة » . إنه يسجل الفجوة الضخمة بين الرجل والمرأة . فالرجل « له الحرية ولها الرق ، له العلم ولها الجهل ، له العقل ولها البله ، له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن ، له الأمر والنهى ولها الطاعة والصبر ، له كل شيء فى الوجود .. وهى بعض الكل الذى استولى عليه » .

لماذا هذه الفجوة فى حين أن المرأة . . « إنسان مثل الرجل ،

لا تختلف عنه فى الأعضاء ووظائفها ، ولا فى الإحساس.ولا فى الفكر ، ولا فى كل ما تقتضيه حقيقة الإنسان من حيث هو إنسان اللهم بقدر مايستدعيه اختلافهما فى الصنف » .

لماذا إذن لاتتعلم المرأة كالرجل ؟ إن « . . تربية العقل والأخلاق تصون المرأة ولا يصونها الجهل ، بل هى الوسيلة العظمى لأن يكون فى الأمة نساء يعرفن قيمة الشرف وطرق المحافظة عليه . . إن من يعتمد على جهل امرأته ، مثله كمثل أعمى يقود أعمى مصيرهما أن يترديا معاً فى أول حفرة تصادفهما فى الطريق » .

ثم ينتقل قاسم أمين إلى الموضوع الثانى : الحجاب . إنه يناقش أصله وتاريخه . إنه « لايجد نصًا فى الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة » . كل المسألة أنه عادة « . . تمكنت فى الناس باسم الدين ، والدين منها براء » .

إنه يقدم الدليل بعد الدليل على تحرير نظرة الدين إلى المرأة .. وبعد أن يجرد الحجاب من هذه الحماية الوهمية .. يرد قاسم أمين على نظرة المجتمع إلى الحجاب . إن المجتمع يرى أن الحجاب مانع للفتنة . هنا يتساءل قاسم أمين : أحذف الفتنة إذن هذا الحجاب ؟ هل اعتبرت عزيمة الرجل أضعف من عزيمة المرأة حتى أبيح للرجال أن يكشفوا وجوههم لأعين النساء ، ومنع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال ؟ . . إن أسباب الفتنة ليست فيما ظهر من أعضاء المرأة وما خفى ، بل . . « فيما يصدر عنها من أفاعيل فى أثناء سيرها. والنقاب من أشد أعوان المرأة على ذلك . إذ هو يخفى شخصيتها . ولو كان وجهها مكشوفاً فإن كرامتها ونسبتها إلى عائلتها يشعرانها بالحياء والخجل فى كل عمل يتوهم منه أدنى رغبة منها فى استلفات الأنظار » .

إن قاسم أمين يرى أن الحجاب رمز لانعزال المرأة عن المجتمع ، إنه مانع عظيم يمنعها من الارتقاء . إنه سجن إجبارى تقضى المرأة حياتها

داخله باسم العفة . و . . « لاأدرى كيف نفتخر بعفة نسائنا ونحن نعتقد أنهن مصونات بقوة الحراس وارتفاع الجدران . أيقبل من سجين دعواه أنه رجل طاهر لأنه لم يرتكب جريمة وهو فى السجن ؟ »

هكذا يناقش قاسم أمين قضية الحجاب ، ومن قبلها قضية تعليم المرأة . هذا هو الجزء المتحرر فى عقل قاسم أمين . ولكنه بعد دقائق يضع التحفظات واحداً بعد الآخر حتى لايساء فهمه . هذا هو الجزء المحافظ فى عقل قاسم أمين . إنه يقول :

« لست ممن يطلب المساواة بين المرأة والرجل فى التعليم فذلك غير ضرورى . وإنما أطلب الآن ولا أتردد فى الطلب أن توجد هذه المساواة فى التعليم الابتدائى على الأقل ، وأن يعتنى بتعليمهن إلى هذا الحد مثلما يعتنى بتعليم البنين » .

تحفظ آخر : « إنى لا أقصد رفع الحجاب دفعة واحدة ، والنساء على ماهن عليه اليوم . فإن هذا الانقلاب ربما ينشأ عنه مفاسد جمة لايتأتى معها الوصول إلى الغرض المطلوب ، كما هو الشأن فى كل انقلاب فجائى . وإنما الذى أميل إليه هو إعداد نفوس البنات فى زمن الصبا إلى هذا التغيير » .

إن قاسم أمين إذن متواضع فى طلباته . إنه لايدعو إلى السفور ولكنه يدعو إلى الحجاب الشرعى. إنه لايهاجم الحجاب وربما يعتبره أصلا من أصول الأدب . إنه لايطالب بنزعه ، وإنما يريد التمسك به . إنه يرى تحصين المرأة بالتربية السليمة ، ولكنه يطالب بتعليمها حتى الابتدائى . إنه يرى إعطاء المرأة فرصة للعمل كالرجل ، ولكنه يشترط أن يكون ذلك فى حالات الضرورة القصوى كفقرها أو وفاة زوجها أو عدم زواجها .

هذا ما قاله قاسم أمين فى كتابه « تحرير المرأة »
قاله بكل حسن نية ، بكل التمنيات الطيبة للمرأة وللمجتمع .

ولكن النتيجة لم تكن طيبة مطلقاً بالنسبة لقاسم أمين .

إن قاسم أمين عندما أصدر كتابه « تحرير المرأة » كان عمره خمسة وثلاثين سنة . خمسة وثلاثين سنة قضاها فرداً فى هذا المجتمع ، عضواً فيه مختلطاً به مدافعاً عنه . ولكنه الآن ــ بعد هذا الكتاب وهذه الآراء سوف يكتشف مجتمعاً آخر ووجهاً آخر .

إن قاسم أمين يريد للمرأة تخفيف الحجاب . يريد لها التعليم والحرية

ما شاء الله !

إذن فليتحمل النتيجة . لقد نبه المجتمع إلى أحد عيوبه بصراحة . إذن فليستمع إلى رأى المجتمع فيه بصراحة . هذا هو : رجل فاسق . . فاجر . . زنديق . . كافر . . إباحى مع كل النوايا السيئة فى العالم !

إن قاسم أمين طابور خامس يريد تجريد هذا المجتمع من فضائله . يريد أن ينشر الفساد والفجور وقلة الحياء . إنه متآمر على أخلاق هذا المجتمع وآدابه . متآمر مع الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية . لا . . . بل متآمر مع اللورد كرومر المندوب السامى البريطانى فى مصر .

هكذا بدأت الاتهامات تتردد على قاسم أمين فى صفحات الصحف وأحاديث الناس . ولم يكن هذا كافياً . إن قاسم قال كلمته فى كتاب واحد ولكن المجتمع سوف يقول كلمة فى أربعين كتاباً . أربعون كتاباً صدرت للرد على قاسم أمين واتهامه . كتاب منها عنوانه « الجليس الأنيس فى التحذير عما فى تحرير المرأة من التلبيس » . كتاب آخر : « السنة والكتاب فى حكم التربية والحجاب » كتاب ثالث « الدفع المتين فى الرد على قاسم بك أمين » . كتاب رابع « السبب اليقين المانع لاتحاد المسلمين ». كتاب خامس ، وسادس وعاشر. إنها جميعاً ترد عليه ، تتهمه ، تعاقبه ، تنكل به .

ماذا جرى ؟

لقد ألقى قاسم أمين بحجر فى المياه الساكنة . لقد هز المجتمع النائم بعنف. لقد أعطاه مرآة يرى فيها واحداً من عيوبه بلا رتوش. هذا ما جرى. وحتى لايتكرر ما جرى . . . حتى لاينبهنا شخص ثان إلى عيوبنا. حتى لايوقظنا شخص ثالث من نومنا العميق . . لابد أن يلقى قاسم أمين جزاءه . لابد أن يجرى اتهامه وتتم إدانته علناً . من الآن سينظر إليه المجتمع باعتباره « مارقاً . . فاجراً . محرضاً النساء على الفساد» !

هكذا ببساطة شديدة تحول القاضى إلى متهم. تحول من محام خارج القفص إلى مذنب داخل القفص . إن قاسم أمين احتاج إلى ١٨ سنة ليكون متعلماً ، احتاج إلى ٢٢سنة ليكون موظفاً ، و ٣١ سنة ليكون مستشاراً . ولكنه لكى يكون متهماً لايحتاج لأكثر من كتاب واحد يؤلفه ، لرأى واحد ينادى به ، لعادة واحدة يهاجمها .

من هذه الدقيقة سوف يصبح مركز قاسم أمين كمركز أى صاحب ثورة فى التاريخ . إن التاريخ يعامل الثوار بطريقة مختلفة . إن صاحب الثورة إذا نجح فهو بطل . إذا فشل فهو مجرم . والمجتمع لن يسمح لأفكار قاسم أمين بأن تنتشر . لن يسمح لكتابه بأن ينجح . إذن لم يبق أمامه سوى أن يرضى بمعاملته كمارق ، كمجرم ، كمنبوذ . من الآن سوف تؤلف كتب ضده . سوف تنشر المقالات معرضة به . سوف يذهب إلى منزله ليجد شخصاً غريباً يطلب منه الاجتماع بزوجته !

ولم يكن جوهر المشكلة بين قاسم أمين ومعارضيه هو حجاب المرأة مع أنها تبدو كذلك على السطح . إن المشكلة هى فى أسلوب كامل تعامل به المرأة . إن المجتمع يريد من المرأة أن تقدم لزوجها المتعة بغير متعة . تعطيه الحرية بغير حرية . تمنحه السعادة بغير سعادة . إن المجتمع إذا تساقطت من فمه كلمة المرأة فإن كلمات أخرى كثيرة تتساقط أوتوماتيكياً. كلمات مثل : الشهوة ، السرير ، الغريزة ، الضعف ، النزوة ، الخيانة . إن المجتمع لا يستطيع أن يتذكر المرأة بغير أن يتذكر هذه الكلمات .

فكلمة المرأة تقرن دائماً بفضيحة أو خيانة . إن المشكلة هي أن كل رجل فى هذا المجتمع لم يكن يستطيع أن يكون حرًّا فى وطنه ، فى حكومته ، فى عقله . والبديل لذلك أن يكون حرًّا فى امرأته . إن المندوب السامى البريطانى يخبر الحكومة بما تفعله أو لا تفعله . والحكومة تحدّد للمواطن مايجب أن يفكر فيه وما لايجب . والمواطن فى النهاية يريد أن تكون له نفس السلطة على امرأته . يريدها أن تفكر ، تشعر ، تريد ، تعيش . . كما يريد هو أن تعيش. إن علمها أن تخرج من هذه الدنيا كما دخلتها : عارية كما ولدتها أمها . جاهلة كما علمها أبوها . مطيعة كما أرادها زوجها . إذا أخبرها زوجها أن الأسود أبيض فهو أبيض . إن هذا الزوج لم يتعود أن يناقش أباه ولا رئيسه ، ولا حاكمه . فلماذا يسمح لامرأته بأن تناقشه؟ وهذا المجتمع لايريد أن يفكر أو يناقش أو يتمرد . إنه يريد أن يعيش مستريح البال . إن شيئاً فى العالم لا يستطيع أن يسلبه راحة البال هذه. لا كارثة ولا هزيمة ولا — حتى — احتلال أجنبى يستطيع أن يوقظه من نومه . إنه مجتمع يريد إن يصدق أنه مجتمع الفضيلة مثلما يصدق أن مصر أم الدنيا . ومع أنه مجتمع يعيش منذ سنوات فى هزيمة مستمرة أمام حضارة أجنبية ، فإنه لايريد أن يتفوق على هذه الهزيمة. إن أى هزيمة إما أن تصيب الإنسان بالشلل أو تدفعه إلى الحركة . الهزيمة تدفع فيك اليأس أو تثير فيك التحدى . هذا يتوقف على الشخص نفسه . على المجتمع نفسه . ولكن المجتمع المصرى فى تلك السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر كان يقنع نفسه بأباطيل كثيرة : إذا كان الآخرون متفوقين ماديًّا فهو متفوق روحيًّا ، إذا كان الآخرون يملكون العلم فهو يملك الأدب. إذا اشتكوا من الرذيلة فهو يمتاز بالحشمة .

ومثلما نلاحظ فى الحياة العادية أن الكاذب يظل يكذب ويكذب حتى يصدق نفسه ، فقد ظل المجتمع يتوهم ويتوهم حتى صدق أوهامه . صدق أنه متفوق أمام حضارة منحلة أخلاقيًّا . صدق أن الرذيلة تعيش

تحت غطاء محكم ، تحت حجاب واضح وظاهر للجميع .

هنا تتركز أهمية أفكار قاسم أمين فى كتابه « تحرير المرأة » إن قاسم أمين فى هذا الكتاب ليس ثائراً ليس متمرداً . ليس بعد . ليس فى هذا الكتاب. إنه الآن مجرد مصلح. مجرد إنسان مثقف يرى عيباً وينبه إليه . يرى مرضاً ويصف له دواء متواضعاً . . إنه يتكلم باعتدال ، يناقش بمنطق ، يكتب باتزان . لأن القلم فى يده هو سكين يمزق بها الستائر التى يغطى بها المجتمع عيوبه . سكين غير حاد — نعم ، غير قطاع — صحيح ، ولكنه سكين على أى حال ، وحينما فاحت الرائحة الكريهة من تحت الغطاء ادعى المجتمع أنه فوجئ بها . إن المجتمع يعلم أن حجاب المرأة لم يمنع الرذيلة من الانتشار . يعلم أنه فى إحاطته الرذيلة بجو الكتمان والسرية جعلها تبدو أكثر إغراء مما هى عليه . . والفضيلة أكثر خوفاً مما يجب أن تكون عليه .

ولقد رأينا من قبل أن الخوف كان يسيطر على كل العلاقات داخل المجتمع . لهذا فمن الطبيعى أن يرتعد المجتمع كله من أى فكرة جديدة ، أى عادة حديثة . إن المجتمع كان ينظر إلى كل شىء جديد بعين الشك والريبة . من هنا كان المجتمع عنيفاً فى مواجهته لقاسم أمين.

وكان المجتمع يريد أن يصدق أن الصدام بينه وبين قاسم أمين هو صدام بين الفضيلة والرذيلة . فضيلة يتمسك بها المجتمع ، ورذيلة يدعو إليها قاسم أمين . أليس هؤلاء هم طرفى المعركة ؟ يجوز . لهذا فإن علينا الآن أن نحكم بهدوء وحياد وأعصاب هادئة بين الطرفين .

إن قمة القطيعة الاجتماعية التى مارسها المجتمع ضد قاسم أمين هى قرار الخديو عباس بمنعه من دخول قصر عابدين . قرار أصدره الخديو كعقاب لقاسم أمين على أفكاره الفاجرة فى كتاب (تحرير المرأة) . موقف مجيد من الخديو دفاعاً عن الفضيلة . عاش الخديو !

ومع ذلك.. فلندرس بحياد تام نوع الفضيلة التى يمثلها الخديو. . .

فى هذه النقطة نعود إلى مذكرات أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوى الذى كان أول المتحمسين له . يقول أحمد شفيق فى مذكراته : « فى يوم ٨ ديسمبر سنة ١٨٩٤ ذاع بين رجال المعية نبأ يختص بظهور أعراض الحمل على فتاة من ربيبات الخديو هى إقبال هانم أفندى ، وكانت إحدى جاريات ثلاث خصصتهن الوالدة لخدمة الخديو أثناء إقامته بقصر القبة . . وكانت تمتاز برائع جمالها وساحر قوامها . فشغف بها الخديو وتوثقت بينهما العلاقات . . .وكانت إقبال هانم تطمح إلى الزواج من الخديو وترقب فرصتها . فلما فشل مشروع زواج سموه من إحدى الأميرات السلطانية فرحت فرحاً شديداً ، ولما عاد عباس إلى مصر كان رأيه قد استقر على الزواج بها ، خصوصاً بعد ظهور حملها . ولم يلبث أن نفّذ عزمه بعقد هذا الزواج » . و . . . أكثر من هذا !

يسجل أحمد شفيق من جديد : « فى ١٢ فبراير سنة ١٨٩٥ أعلنت بشرى أول مولودة للخديو . وفى يوم ١٩ منه عقد سموه قرانه على أمّ وليدته إقبال هانم أفندى . وأجرى صيغة العقد قاضى مصر »

و . . . أعطنى عقلك . .

خديو مصر لا يخشى على الفضيلة من ممارسة علاقة غير شرعية مع إحدى جارياته . لا يخشى على الفضيلة من أن يعلن رسمياً خبر أول مولودة له قبل أن يعقد الزواج فعلا بأسبوع . . ومع ذلك فالخديو يخشى على الفضيلة من كتاب يصدره قاسم أمين بعد ٣ سنوات بتعليم المرأة وتخليصها من الحجاب . إن خشيته تصل إلى حد منع قاسم من دخول قصر عابدين وقد تتصور الآن — ولو من باب السخرية — أن قصر عابدين هذا هو قصر العفة والأخلاق والفضيلة . . بحيث لو دخله قاسم أمين فإنه سيكون خطراً داهماً على كل هذه العفة . يجوز ! والدليل على ذلك ما كانت تكتبه الصحف وصفاً للحفلة السنوية الراقصة التى كان الخديو عباس — نفس الخديو عباس — يقيمها فى قصر عابدين .

نفس الحفل تصفه مجلة (العجائب) بقولها : أتدرى أيها المصرى ، ويا أيها المسلم ماذا يجرى فى هذه الليلة ؟ يجرى فيها ما يحمر منه وجه الإسلام خجلا ، ويصفر من منظره وجه الدين وجلا . يجرى فيها ما نلوم عليه الشبان ونشكو منه فى كل زمان ومكان . يجرى الرقص على أنواعه والخمر على أشكاله .

هذا هو الخديو عباس — نفس الخديو عباس — الذى أصدر قراراً بمنع دخول قاسم أمين قصر عابدين عقاباً على آرائه (الفاجرة) فى كتاب « تحرير المرأة » .

ولم يكن الخديو عباس هو الوحيد الذى أراد معاقبة قاسم أمين على آرائه . . . فى الواقع أن الخديو كان يمثل قوى أساسية فى المجتمع ، يحكمها نفس الموقف نحو أى فكرة جديدة أو عادة جديدة . لهذا السبب ، أحسّ قاسم أمين — قبل أن تمضى سنة واحدة على صدور كتاب (تحرير المرأة) — أنه يعيش كالمنبوذ . إن له أصدقاء — نعم — على رأسهم الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وأحمد لطفى السيد . إن الثلاثة كانوا يوافقونه على كل ما يكتبه . . . بل قرءوا الكتاب قبل نشره . ولكنهم جميعاً التزموا الصمت . إن واحداً منهم لم يجرؤ على تأييد الكتاب علناً . . إن أحمد لطفى السيد لم يفعل ذلك إلا بعد أن مات قاسم أمين ، وسعد زغلول لم يفعل إلا بعد أن أصبح زعيماً قومياً لمصر سنة ١٩١٩ .

أقول إن واحداً من أصدقاء قاسم أمين لم يجرؤ على تأييده علناً . فما بالك بالمعارضين له فى الرأى ؟ لقد قلت من قبل إن قاسم أمين أصبح يعيش كالمنبوذ . . لا . . بل أصبح منبوذاً فعلا . إن محمد طلعت حرب (مؤسس بنك مصر فيما بعد) سجل هذه الصورة عندما حلل آراء الناس حول كتاب قاسم أمين . يقول طلعت حرب إن الناس « . . انقسموا إلى حزبين : حزب يرى رأى المؤلف وهم قلائل يعدون على الأصابع ،

والحزب الآخر . وهو الأعظم عدداً أجمع على استهجان ما ورد فى الكتاب ويقول إنه يدعو إلى بدعة فى الدين لا فى العوائد فقط » . . .

إن طلعت حرب سجل هذه الأسطر فى كتابه الذى أخرجه هو نفسه للرد على قاسم أمين . كتاب عنوانه (تربية المرأة والحجاب) كتاب يقول فيه طلعت حرب :

« . . أول شىء طرأ على ذهننا حين قرأنا الكتاب ورأينا . الناس أخذت تسلق حضرة المؤلف بألسنة حداد ويحملون عليه وعلى كتابه حملات لم نتعودها على مؤلف غيره من قبل ، إنه لابد فى الأمر شىء مهم حمل الناس على ذلك إذ لا يمكن أن يجتمع الناس على ضلالة . ولا يخفى أن ألسنة الخلق أقلام الحق »

ما هذا المنطق؟ هل يكفى إجماع الناس على شىء لاعتباره ضلالا؟ ربما !

المهم أن طلعت حرب يواصل الرد على قاسم أمين. وبعد مناقشته لآراء قاسم يقول طلعت حرب محدداً رأيه فى وظيفة المرأة : « ظهر من ذلك أن للمرأة أعمالا غير ما للرجل ليست بالأقل أهمية من أعماله ولا بالأدنى منها فائدة وهى تستغرق معظم زمن المرأة إن لم نقل كله . فالرجل يسعى ويشقى ويكد ويتعب ويشتغل ليحصل على رزقه ورزق عياله . . وامرأته ترتب له بيته وتنظف له فرشه وتجهز له أكله وتربى له الأولاد وتلاحظ له خدمه وتحفظ عينه عن المحارم» .

هذه وظيفة المرأة فى رأى طلعت حرب . وظيفة خادمة لا زوجة فحتى الأولاد يتكلم عنهم طلعت حرب باعتبارهم أولاد الرجل وحده ، لا أولادهما معاً .

صفحة وأخرى ثم يقول طلعت حرب . . . « أليس معنى ذلك أن الله خلق المرأة للرجل للملاذ الدنيوية ، وحمل الشئون المنزلية ؟ »

ومع ذلك ، كان طلعت حرب فى الواقع أكثر من ردوا على قاسم أمين اتزاناً وموضوعية . إنه — على الأقل — لم يتهمه بالخيانة أو الكفر أو

الفساد أو الزندقة كما فعل غيره . .

والواقع أن الصحف — كل الصحف المصرية — أفردت صفحاتها للرد على قاسم أمين . . وكان التيار الغالب هو المعارض للكتاب . وحتى جريدة (المؤيد) التي كانت متحمسة للكتاب فى البداية اضطرت بعد قليل أن تخفف من تأييدها وأن تفسح صفحاتها للمعارضين أيضاً . وكان على رأس هؤلاء المعارضين محمد فريد وجدى الذى كتب يقول : « هل المرأة مساوية للرجل فى سائر الحيثيات ؟ فالجواب لا . وهل لدينا دليل حسى على هذا الجواب السلبي أصدق من وجود المرأة من ابتداء الخليقة للآن تحت سيطرة الرجل يوجهها كيف يشاء ويحكم عليها بما تقتضى أمياله ؟ إذا كانت المرأة مساوية للرجل من الجهة الجسمية والعقلية ، فلماذا خضعت كل هذه الألوف المؤلفة من الأعوام لسلطان الرجل وجبروته ؟ »

بل إن الزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل — أتتصور ؟— يقف ضد قاسم أمين . إننى لا أدرى السر فى أن معظم مؤرخى قاسم أمين تعمدوا إغفال هذه النقطة بالذات .

إن مصطفى كامل أفرد صفحات جريدة (اللواء) أشهراً طويلة للقيام بحملة قاسية على قاسم أمين . . . وأحياناً كانت (اللواء) تمتلىء بمقالات تشكك فى وطنية قاسم وتتهمه بأقصى درجات سوء النية .

ولم يقتصر الرد على قاسم أمين فى الصحف المصرية وحدها ، التى كانت منتشرة ومقروءة فى العالم العربى . . بل انتقلت المعركة إلى هناك أيضاً . ولم يختلف الصدى هناك عن الصدى هنا .

. فى العراق والشام انتشرت قصيدة للشاعر الشبيبى يقول فيها مؤيداً الحجاب :

صونى جمالك بالبراقع إنها ستر الحسان ومظهر الحسنات

شاعر آخر ، هو عبد الحسين الأزرى يقول :

نص الكتاب على الحجاب ولم يبح
للمسلمين تبرج العذراء
هل فى مجالسة الفتاة سوى الهوى
لو أصدقتك ضمائر الجلساء

شاعر ثالث – من مصر هذه المرة – هو أحمد محرم يقول متهماً قاسم أمين :

أقاسم لاتقذف بجيشك تبتغى بقومك والإسلام ما الله عالم

وشاعر رابع ، وخامس ، وعاشر . وللإنصاف ، فإن المعركة لم تخل من مؤيدين أيضاً لقاسم أمين . مؤيدين بالشعر كذلك ! إن من هؤلاء مثلا الشاعر العراقى جميل صدقى الزهاوى الذى كتب قصيدة يقول فيها :

لم يقل بالحجاب فى شكله هذا نبي ولا ارتضاه حكيم
هو فى الشرع والطبيعة والأذوا ق والعقل والضمير ذميم

على أن المؤيدين – كما سجل طلعت حرب من قبل – كانوا أقلية تعد على الأصابع . وكان التيار الغالب هو تيار المعارضين . . بعنف . ولم تكن المعارضة فى حد ذاتها ظاهرة مرضية ، بل هى ظاهرة صحيةفى جميع الأحوال . . ولكن أسلوب الاتهام فى المعارضة هوالذى كان ظاهرة مرضية ، فى الواقع أن المجتمع لم يكن يعرف وسيلة أخرى للتعامل مع النقد الذى يوجه إليه . لايعرف وسيلة غير الإسراع إلى التشكيك فى إخلاص الناقد ووطنيته ودينه . هو أسهل الأشياء ، وأكثر ألماً فى الوقت نفسه . إن إلقاء الغبار على ناقدك هى أسهل طريقة لإعفائك من الدخول فى مناقشة موضوعية لأفكاره . هذا هوالجزء المؤلم فى الموضوع كله .

لهذا لم يكن غريباً أن يسجل قاسم أمين فى مذكراته الخاصة هذه الواقعة .

« سئل ح . بك : ما رأيك فى كتاب – تحرير المرأة – ؟ فأجاب : ردىء !!

– هل قرأته ؟
– لا .
– أما يجب أن تطلع عليه قبل الحكم برداءته ؟
– ما قرأت ولا أقرأ كتاباً يخالف الدين . »

ولم يكن غريباً أيضاً أن يكتب قاسم أمين أنه في البلاد الحرة قد يكتب الإنسان ما شاء له » . . ولايفكر أحد ولو كان من ألد خصومه في الرأى أن ينقص شيئاً من احترامه لشخصه متى كان قوله صادراً عن نية حسنة واعتقاد صحيح . كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية » .

إن قاسم أمين لايوجه هذه التساؤلات إلى أحد . . إنه يوجهها إلى نفسه فقط . إن عنف وقسوة الهجوم الذى تحمله قاسم أمين بسبب كتابه ملأته بالمرارة . . . في الواقع أنه فقد إيمانه بالرأى العام وأصبح يؤمن بأنه « لو انتظر المصلحون دائماً إرضاء الرأى العام لما تغير العالم عما كان عليه من زمن آدم وحواء » .

. . ولم ينتظر قاسم أمين . فبرغم أنه لم ينجح في هدم الحائط بين المرأة والمجتمع ، ولا حتى في فتح ثقب واحد فيه . . إلا أنه سيستمر بالرغم من أن رأسه تهشم في مواجهته لهذا الحائط . إنه سوف يصر على أن يقول كلمته . إن قاسم أمين كان مصلحاً في كتابه الأول (تحرير المرأة) . ولكنه سوف يكون متمرداً وثائراً في كتابه الثانى (المرأة الجديدة) . . إنه سوف ينزع كل التحفظات التى قيد بها آراءه السابقة . سوف يلغى كل الشروط التى وضعها من قبل على مفهومه للمرأة ، وهو حين يفعل ذلك لاينتظر مكافأة . إنه يرى « أن الوطنية الصحيحة لا تعلن عن نفسها » . إنه سوف يهدى كتابه الثانى إلى سعد زغلول . وحين يفعل ذلك فهو يخاطب سعداً بقوله : « فيك وجدت قلباً يحب وعقلا يفكر وإرادة تعمل » .

إنه سوف يستمر فى الكتابة . . سنة . . ستين ، إلى أن يموت . وإلى أن يموت فإنه لن يكون مرحاً . لن يختلط بالناس ، لن يؤمن بالرأى العام . إنه سيوجه جهوده إلى ناحيته أخرى مكملة لناحية الأولى . سوف يدعو إلى إنشاء جامعة فى مصر . فربما . . أدى التعليم إلى ترويض القوى الكريهة فى هذا المجتمع التى وجهت سهامها إليه وهشمت رأسه.

وعندما مات قاسم أمين فى ٢٣ أبريل سنة ١٩٠٨ مات فى الثالثة والأربعين.

لقد مات قبل موعده . . مات بالسكتة القلبية ، ولعلها السكتة القلمية .

وبعد أن مات قاسم أمين بسنوات طويلة بدأ المجتمع يعيد النظر فيه. لقد تراجع المجتمع عن آرائه السابقة فى قاسم أمين . تراجع — هذا صحيح — ولكن ليس قبل أن يموت ، فبموته . . زال خطره . بموته سكت قلمه . لا بأس إذن من تسميته بـ « المصلح العظيم » و « المفكر الثائر » . . . إلى آخر هذه الكليشيهات . .

لا بأس من هذا كله . . بشرط أن يموت قاسم أمين أولا !

وحتى الآن — حتى الآن — فإننا عندما نحتفل بقاسم أمين سنوياً ، نحتفل بذكرى وفاته . لامولده : إننا نكرم فيه رحيله عنا . . لاقدومه إلينا .

و . . .

بعد أن مات قاسم تحول منزله إلى متحف ، أو مكتبة ، أو معرض . . لا أتذكر بالضبط . آه . . أنا آسف . لم يتحول منزله إلى متحف أو معرض أو مكتبة . تحول منزله إلى كباريه . كباريه اسمه . . اسمه . . الأريزونا !

عبد الرحمن الكواكبي



٤

قلم ضد السيف !

الآستانة .

تركيا .

القرن التاسع عشر

« . . سبحان الله » !

هكذا عبر جمال الدين الأفغانى عن دهشته من كلمات رئيس الديوان السلطانى داخل قصر السلطان بمدينة الآستانة ، عاصمة الإمبراطورية العثمانية . إن رئيس الديوان يلفت نظر جمال الدين إلى أنه كان يلعب بحبات مسبحته . . وهو فى حضور السلطان عبد الحميد ، وفى هذا عدم احترام كبير للسلطان .

ولكن الكلمات تندفع من فم جمال الدين الأفغانى وهو يرد : « . . سبحان الله ! إن السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة على هواه وليس من يعترض منهم : أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بمسبحته كما يشاء » ؟!

ولكن السلطان عبد الحميد لا يقبل اعتراضاً من أحد . إنه « شاهنشاه ملك الملوك » . . إنه « السلطان الأعظم والذات المقدسة » إنه « خليفة المسلمين وسلطان البرين وخاقان البحرين » . ألقاب رسمية . إن عبد الحميد هو السلطان العثمانى فى تلك السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر . إنه يرأس إمبراطورية عثمانية يزيد سكانها على ٣٠٠ مليون ، وتقع أراضيها فى ثلاث قارات : أوربا وآسيا وأفريقيا . إمبراطورية يديرها السلطان من داخل قصره فى مدينة الآستانة بتركيا . قصر ترتفع أسواره إلى عشرين قدماً .

إن الآستانة — فى تلك السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر — هى مدينة خانقة . لقد وصفها الشيخ محمد عبده بدقة عندما قال إنه لم ير بيئة فى العالم كالآستانة فى « . . سوء تأثيرها فى العقل والفكر والقلب . . . ولهذا كان أحرار الترك معذورين فى شرودهم منها ، وتوطيد أنفسهم على كل ما يمكن أن يلقاه الإنسان من ضروب البلاء والمحن » .

والسلطان عبد الحميد نفسه — بتعبير جمال الدين الأفغانى — هو شخص « . . سيئ الظن ، لا يأمن أحداً ، ويسيء الظن بكل أحد » .

والواقع أن السلطان عبد الحميد لم يكن يستطيع غير ذلك . إنه لا يستطيع أن يحكم الناس بالاختيار ، ولا بالثقة ، ولا بالحب ، ولا بالرضا . إذن فعليه أن يحكمهم بالسيف . إن السلطان مثله فى هذا مثل أى سياسى . فالسياسى إما أن يقنع الناس ، أو يضربهم بالرصاص . والسلطان العثمانى لم يكن يستطيع أن يقنع الناس بحكمه . إذن . . على السيف أن يقوم بهذه المهمة .

لهذا فمن الطبيعى أن تكون الآستانة مدينة خانقة فى تلك السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر . إذا اجتمع اثنان فخلفهما دائماً أذن تسمع وعين تراقب ، وسجن مفتوح وسيف مستعد . إن كل عميل للسلطان يتحسس سيفه فوراً إذا التقطت أذنه كلمة واحدة : الحرية . عند هذه الكلمة — هذه الكلمة بالذات — يفقد السلطان عقله ويفقد المتكلم رأسه. الحرية ؟ ! هذه الكلمة اخترعت لكي يستخدمها السلطان عبد الحميد فقط . إنه حر فى إيقاف العمل بالدستور الذى سبق أن أصدره هو نفسه . لا دستور . حر فى الحكم على أى شخص بأنه عدو أو صديق. لا وسط . حر فى نفي عدوه أو سجنه أو قتله . لا مراجعة .

إن دنياه مملوءة بالأشباح والعفاريت والخوف والإرهاب . . دنيا السلطان بلا ظلال : فالناس إما صديق وإما عدو . وساعة السلطان بلا عقارب : فالوقت إما نهار وإما ليل . وسلطة السلطان بلا فرامل : فهى لا تريد

إلا النفاق أو الخوف . إن السلطة بالنسبة له هى فن إبقاء الناس على جهلهم . والحكم بالنسبة له هو فن إرغام الناس على إغلاق أفواههم . لهذا كان طبيعياً أن يصبح الجو كله معبأ بالظلم والاضطهاد والاستبداد ثم . . الرغبة فى كسر هذا الاستبداد . لقد فر عدد من أبناء البلاد المثقفين إلى مدن أوربا يكتبون فيها آراءهم بصراحة وحرية ضد السلطان ، ويطبعون فيها المنشورات التى تتسرب سراً إلى الآستانة. إن مدناً مثل جنيف أو باريس . . أصبحت ميداناً للعمل السرى ضد السلطان الحاكم بأمره .

وفى داخل البلاد انتشرت الجمعيات السرية التى تريد الإصلاح. ولكن بمرور الوقت لم يعد الإصلاح كافياً لتصحيح ما يرتكبه السلطان . ليس أقل من الثورة التى تهدم كل شىء فوق رأسه . إن السلطان يحكم الناس بالجواسيس . . بالقوة . . بالسيف . . ولن يمنع استبداده سوى السيف .

ولم يكن السلطان يستطيع أن يمسك بالسيف إلا ضد مواطنيه فقط . أما مع الأعداء الحقيقيين له ولمواطنيه . . فإنه لا يستطيع أن يستخدم ضدهم سيفه . . ولا حتى صوته . إن فرنسا تحتل الجزائر — لا يهم . تحتل تونس — لا يهم . بريطانيا تحتل عدن — لا يهم . تحتل مصر — لا يهم . إذن . . ماذا يهم ؟ لا شىء . لا شىء سوى أن يظل السلطان فى كرسى الحكم ، حتى ولو كانت خزائنه مدينة بـ ١٠٦ ملايين جنيه استرلينى ، حتى ولو كانت إمبراطوريته هى « الرجل المريض » فى العالم . لا يهم . السلطان يهمه فقط أن يظل فى القمة . . . حتى ولو كانت قمة جبل من الثلج الذى يذوب تحته دون أن يدرى . إن السلطان يهمه فقط أن يحكم بأى ثمن ، حتى ولو جعل داخل كل بيت ضحية . . حتى ولو جعل نصف رعاياه جواسيس على النصف الآخر . جواسيس بلغ عددهم أربعين ألفاً فى منطقة الشام وحدها .

الشام . . مدينة حلب

إن مدينة حلب هي – فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر – صورة مصغرة لما يحدث فى الإمبراطورية العثمانية كلها . فيها وال عثمانى صغير ممثل للسلطان العثمانى الكبير – الوالى عارف باشا . وفيها أيضاً صوت صغير يشكومن ظلم الوالى . صوت رجل عادى – عادىّ جدّاً – اسمه . عبد الرحمن الكواكبى .

إن الكواكبى يعيش فى مدينة حلب منذ ولد بها فى سنة ١٨٤٨ . لقد ماتت أمه وهو فى السادسة . ولكن أباه استطاع أن يعلمه كما يتعلم أى طفل فى تلك الأيام : اللغة والدين .

وعندما وصل عبد الرحمن الكواكبى إلى سن العشرين أصبح يتكلم الفارسية والتركية ، بالإضافة إلى العربية ، وبالإضافة إلى دراسة الكتب الدينية والتاريخية وقوانين الدولة العثمانية . بعدها عمل الكواكبى فى وظائف عديدة . عمل صحفيًّا وكاتباً ورئيساً للبلدية ثم محامياً وقاضياً للحاجات وتاجراً .

وفى كل وظيفة يعمل بها الكواكبى . . كان يرى الاستبداد والطغيان حوله فى كل مكان . إن الولاة والحكام يستخفون بالشعب ويضربونه بالنعال . إن الشعب عندهم لا فائدة منه سوى دفع الضرائب . إنهم ينشرون فيه الرشوة والفساد . يحكمونه بالسيف والجواسيس . يستعبدون الناس ويخرقون القانون ويدوسون العدالة ويتجاهلون الحقوق ويستغلون الدين ويفسدون الأخلاق ويراقبون الصحف ويحجبون الحرية . إنهم يذلون الغنى ويستعبدون الفقير ويسجنون الأحرار ويعدمون المتمردين .

إن الكواكبى يصطدم بنتائج هذا كله فى كل تجارة يعمل بها أو وظيفة يشغلها . إنه دائماً يصطدم بالإدارة الفاسدة والموظف المرتشى والوالى المستبد والحاكم الظالم . إنه يصطدم . . ولكنه فى الوقت نفسه يفكر . إن الكواكبى لم يكن مجرد فرد يعمل ويعيش . . يعيش ويأكل . .

يأكل وينام . إنه يعمل . . ويعيش . . ويتأمل . إنه يتأمل حال هؤلاء الحكام الذين يراهم أمامه . . وهذا الشعب الذى خرج منه . إنه يتأمل حال المسلمين فى ماضيهم وحاضرهم . لماذا ضعفوا ؟ لماذا استكانوا ؟ لماذا تدهوروا ؟ لماذا هزموا ؟ لماذا هم راضون عن هزيمتهم ؟ لماذا يستسلمون لمن يستبد بهم ؟ لماذا ؟ .. لماذا ؟ . . لماذا ؟ أسئلة كثيرة شغلت بال الكواكبي فى تلك الأيام . كل سؤال يجر سؤالا آخر . كل مرض يكشف عن مرض آخر .

وشيئاً فشيئاً بدأ الكواكبي يضع يده على بعض الإجابات. هنا أشياء كثيرة يراها سبباً لتدهور حال المسلمين . أسباب دينية : أهمها الإيمان بالقضاء والقدر . أسباب خلقية : أهمها استيلاء اليأس على النفوس وإهمال طلب الحقوق العامة جبناً وخوفاً . أسباب سياسية : أهمها فقدان المسلمين الحرية بجميع أنواعها : حرية التعلم ، حرية الخطابة ، حرية البحث العلمى . . إلخ . إن المسلم تدهور حاله حينما أصبح مجرداً من حرية القول والعمل ومجرداً من الأمن والأمل . وحينما فقد المجتمع حريته فقد أمله وبطل عمله وماتت نفسه وفسد عقله واختل قانونه وسم حياته .. فاستولى عليه الفتور واستسلم للاستبداد . الاستبداد ؟ !

هذه كلمة لاتمر بسهولة . من الذى يقصده الكواكبي بالاستبداد ؟ الوالى ؟ الصدر الأعظم ؟ السلطان ؟ إن أحداً منهم لن يتسامح إذا سمع من الكواكبي – أو غيره – هذه الكلمة . من هنا بالضبط سوف تبدأ مشاكل الكواكبي مع الولاة الذين يمثلون السلطان الأكبر . المستبد الأكبر . وآه إذا بدأت مشاكل أحد مع ممثلى السلطان ! إذا عرف ممثلو السلطان طريقهم إلى أحد . . فلن يستريح باله طوال حياته .

ولم يكن الكواكبي استثناء لهذه القاعدة . هذا هو جميل باشا والى حلب يتنبه إلى الكواكبي . لقد علم أن جميع ما تنشره صحف الآستانة

وبيروت ضده مستمد من قلم الكواكبي . والشكاوى التي يكتبها الناس استغاثة من ظلمه . . ساهم في تحريرها الكواكبي . لهذا بدأ الوالي في مراقبته ، في التضييق عليه . وأخيراً . . قام بإلقاء القبض عليه . التهمة : التآمر على الوالي . المتهمون : الكواكبي . . وآخرون . إن الوالي واثق من إدانتهم إلى درجة أنه سمح بمحاكمتهم سياسياً . براءة .

ولكن البراءة لم تكن نهاية كل شيء بالنسبة للكواكبي . إذا كانت مشاكله مع الوالي قد بدأت . . فإنها لن تنتهي . لقد منعه من السفر ، وراقبه ووضع الجواسيس في ذيله واغتصب مزرعته ونهب أمواله . ولكن هذا أيضاً لا يكفي فعندما جاء إلى حلب وال آخر — هو عارف باشا — وجد أن الكواكبي قد افتتح مكتباً للمحاماة خصصه للدفاع عن المظلومين ضد مظالم الوالي وكبار الأعيان . وحتى يستريح الوالي الجديد من إزعاج هذا الكواكبي — هذا المشاغب — اختار لإسكاته سلاحاً آخر . هذا هو : القبض عليه بتهمة أنه يعمل على تأليف جمعية لمناوأة الدولة . تهمة خطيرة . سلاح قاتل . ولكي تكون الإصابة مضمونة فإن الشرطة — عند تفتيش منزل الكواكبي — دست له في الأوراق المصادرة صورة خطاب — مزور طبعاً — زعموا أن الكواكبي قد « . . بعث به إلى قناصل الدول الأجنبية يحرضهم فيه على مخاصمة الحكومة والعمل على تخليص البلاد من المظالم » .

هذه إذن خيانة عظمى . هذه تهمة خطيرة يا كواكبي . تهمة تجرح حتى ولو لم تقتل . تهمة تصيب بأذى كبير حتى ولو خرج منها الكواكبي سليما . ولكنه لن يخرج سليماً — هكذا صمم الوالي وأعوانه .

عدلية حلب

فتحت الجلسة

« وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » — هكذا يقرأ الكواكبي

من مكانه داخل قفص الاتهام فى عدلية حلب – محكمة حلب . إن الكواكبي واثق من براءته . واثق تماماً .

ولكن قبل أن ينتهى اليوم كان الكواكبي قد تعلم أنه فى ظل الاستبداد لا يستطيع الإنسان أن يثق تماماً بأى شيء . . حتى ببراءته . فبعد تلاوة تقرير الشرطة والأوراق المدسوسة جاء دور الشهود . هل كان هناك شهود؟ نعم . هناك دائماً شهود على كل شيء لم يحدث . شهود يشتريهم الوالى . إن أموال الوالى تستطيع أن تشترى أى شيء – بما فى ذلك الشهود . وما لا تشتريه الأموال . . يضمنه الإرهاب .

ولكى تكون إدانة الكواكبي مضمونة لم يكن يكفى شاهد واحد . لا يكفى عشرة . لا يكفى عشرون . لا بد من ثبوت التهمة هذه المرة . تهمة الخيانة العظمى . إذن . . ليس أقل من خمسين شاهداً حتى تكون الخيانة مؤكدة ، وحتى لا يجرؤ صوت واحد فيما بعد على الدفاع عن الكواكبي . خمسون شاهدا أحضرهم الوالى إلى عدلية حلب لكى يؤدوا هذه المهمة .

ولكن الكواكبي ما زال واثقاً من براءته . إن الوالى يستطيع أن يشترى الشهود . . أن يرهبهم . ولكنه قطعاً . . قطعاً . . لن يستطيع شراء القضاء أو إرهابه . إن الاستبداد يستطيع أن يستخدم أسلحته خارج هذه المحكمة ، ولكنه فى داخلها – قطعاً قطعاً – سوف يلتزم حدوده . إن الفيصل فى النهاية هو أن ينتظر الكواكبي . ساعة أو ساعتين . . حتى يتبين بالضبط . . هل يمكن أن يخضع القضاء للاستبداد . . أو لا يخضع؟ يخضع . . أولا يخضع ؟ يخضع . . أولا . . يخضع .

نعم يخضع . فبعد سماع الشهود والأدلة والمرافعات – كما لو كانت المحاكمة عادلة حقاً – نطقت المحكمة بالحكم . إن الحكم هو . . هو . . هو . . الإعدام .

مرفأ بيروت ١٨٩٩

مكتب ناظر النفوس

عندما قام مدير جوازات بيروت – يسمونه ناظر النفوس – بمراجعة جوازات المسافرين على الباخرة من بيروت إلى الإسكندرية. لم ينتبه إلى أن من بينهم رجلاً في السابعة والأربعين. رجلاً مستدير الوجه، واسع الجبين، أزرق العينين، كثيف الحاجبين والشارب واللحية. رجلاً شابت فيه أشياء كثيرة غير مجرد شعر رأسه. رجلا يكاد يكون طويل القامة – وإلى جانبه يسير ابنه الشاب – كاظم.

وبعد أن مر الجمع برجال الشحنة (الشرطة). صعدوا إلى الباخرة. ساعتها فقط التفت كاظم إلى أبيه وتنهد بعمق ثم قال: الحمد لله!

وتمتم الأب: نعم يا بني. الحمد لله أننا نجونا أخيراً من هذه البلاد. هذه بلاد لا يعيش فيها حر، ولا ينجح نزيه، ولا يسلم مفكر..

ولم يكن هذا الرجل سوى شيخ سوري اسمه عبد الرحمن بن أحمد بهائي بن محمد بن مسعود.. الكواكبي. نعم الكواكبي الذي صدر عليه حكم الإعدام من قبل في مدينة حلب. لقد كان هذا الحكم صدمة عنيفة بالنسبة للكواكبي. صدمة كشفت له عن قرب أن الاستبداد يستطيع أن يشتري كل شيء. يستطيع أن يشتري الشرطة والشهود والقضاة والمصفقين. صدمة جعلته يتحرك بضراوة دفاعاً عن نفسه. لقد اعترض على حكم الإعدام، وأعلن عدم ثقته بحكومة حلب وواليها، وأصر على أن تحول محاكمته إلى محكمة أخرى. وبعد أخذ ورد مع نظارة العدل في الآستانة... قررت محكمة التمييز محاكمته أمام محكمة بيروت. وفي بيروت تبينت المحكمة أن التهمة ملفقة من أساسها، فحكمت ببراءة الكواكبي. وطلبت عزل الوالي.

وعندما أطلق سراح الكواكبي عين نائباً شرعياً في قضاء راشيا بولاية

سوريا . ولكنه قبل أن يتسلم عمله الجديد بدأ يفكر .

لقد قضى عمره حتى الآن يصطدم بالاستبداد العثمانى ويصارعه . فى كل مرة اصطدم فيها بوال أو سلطان كان يكتشف أن المشكلة ليست مشكلة جميل باشا أو عارف باشا .. أو أى باشا. المشكلة هى أسلوب فى الحكم . فى الإدارة . فى السياسة . إنه . . الاستبداد . هذه هى المشكلة . إذن . . لماذا لا يتفرغ لدراسة الاستبداد كأسلوب فى الحكم ؟ . . ما هى أسبابه ؟ . . ما هى نتائجه ؟ . . ما أساليبه ؟

إن هذا أمر طيب حقاً. ضرورى حقاً . ضرورى أن يدرس الاستبداد . . أن يكتب عنه . . ولكن ، أين ينشر ما يكتبه ؟ هذه بلاد يختنق فيها كل صريح ، ويتهم كل نزيه ، ويعذب كل حر ، وتموت كل حقيقة . . فلماذا يبقى فيها ؟ لماذا لايهاجر ؟ نعم يهاجر . ولكن إلى أين ؟ إلى . . إلى . . إلى مصر .

إنها قطعاً بلاد أكثر أمناً . أكثر صبراً . أكثر احتمالا . و — الأهم من هذا كله — أن مصر تبعد عن السلطان العثمانى بألف كيلومتر .

مسافة طويلة بمقاييس تلك الأيام .

وفعلا. ها هو ذا الكواكبى يستقل الباخرة من بيروت إلى الإسكندرية مصطحباً معه ابنه كاظم . لقد تكتم الكواكبى كل شىء حتى عن أقرب أصدقائه . إنه لم يتكتم فقط قراره بالهجرة إلى مصر.. ولكنه تكتم أيضاً أوراقاً أكثر أهمية . أوراقاً تحمل عنواناً بسيطاً هو: « طبائع الاستبداد » . إنها عنوان الدراسة التى انتهى إليها الكواكبى أخيراً عن الاستبداد السياسى . إن الكواكبى سوف ينشر كتابه هذا فى مصر . بل إنه سوف يقضى بقية حياته فى مصر . الحياة فى مصر ! مصر ! مصر ! إن مجرد الاسم يؤدى إلى تدفق سلسلة كاملة من الأحلام فى خياله .

إن مصر تحمل معانى كثيرة بالنسبة للكواكبى . مصر تعنى الضخامة. الهواء النقى . الحرية . هكذا تبدو مصر من بعيد . فى مصر يستطيع

الكواكبي أن يتكلم بصراحة، يعيش فى أمن، يتنفس بحرية . هذا يكفيه . أقل من هذا يكفيه . إن الكواكبي يكفيه أن تحتمله مصر . إنه لا يطلب من أحد التصفيق لآرائه . إن مجرد احتماله — مجرد الصبر عليه — يكفى .

وإذا كان الأمر كذلك فسوف يجد الكواكبي فى مصر كثيرين على شاكلته . سوف يجد كثيرين من أحرار الشام الذين سبقوه إلى مصر . حاملين نفس التوقعات بين صدورهم .

هكذا بدأت الأحلام تتدفق فى خيال عبد الرحمن الكواكبي وهو على ظهر الباخرة المتجهة إلى الإسكندرية . لاشىء يراه الكواكبي فى جلسته غير السماء والبحر . لاشىء يسمعه سوى صوت أحلامه داخل رأسه . لاشىء — ولا حتى السؤال الذى يوجهه إليه الخادم الآن على ظهر الباخرة : يا شيخ ؟ يا شيخ عبد الرحمن ؟ قهوة سكر ؟ سكر يا شيخ عبد الرحمن ؟ آه . . من غير سكر ؟ قهوة مرة ؟ تحت أمرك !

ولكن الكواكبي يسأل الخادم : متى نصل بإذن الله إلى الإسكندرية ؟

— غداً إن شاء الله .

ساعتها التفت الكواكبي إلى ابنه كاظم وهو يتمتم : أخيراً . . أخيراً نستطيع أن نكون فى الإسكندرية غداً ، ثم فى القاهرة بعد غد ! الحمدلله!

القاهرة ١٩٠٠

شىء لا يصدقه عقل !

هذه فصول تنشرها جريدة « المؤيد » فى القاهرة . غريبة فى اللهجة والأسلوب والموضوع . إنها فصول . . مشبعة بالصراحة والجرأة . إنها مجهولة التوقيع .

— ترى ، من الذى كتبها ؟ هل يكون كاتبها هو الشيخ محمد عبده ؟

— مستحيل . فصحيفة «المؤيد» هي لسان حال الخديو عباس الثانى ، الذى بدأ يختلف مع الشيخ الإمام . إن الشيخ على يوسف — صاحب المؤيد — علاقته بالشيخ محمد عبده سيئة .

هكذا بدأ الجمهور يتساءل عندما بدأ الكواكبي ينشر مقالات عن طبائع الاستبداد فى صحيفة « المؤيد » بالقاهرة . فمنذ وصل الكواكبي إلى القاهرة سنة ١٨٩٩ توثقت علاقته بالشيخ على يوسف صاحب « المؤيد» بواسطة صديق مشترك هو رشيد رضا — مفكر سورى آخر هاجر إلى مصر . وبعد أيام قليلة من وصول الكواكبي إلى القاهرة بدأت مقالاته الغريبة تنشر فى « المؤيد » . التوقيع : مجهول .

وفى هذه السنة — ١٩٠٠ — جمع الكواكبي مقالاته فى كتاب . وحتى عندما فعل ذلك فإنه لم يوقع باسمه . إن الكتاب كان له عنوان غريب هو « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، وهى كلمات حق وصيحة فى واد ، إن ذهبت اليوم مع الريح لقد تذهب غداً بالأوتاد . . محررها هو الرحالة ك » .

إن الكواكبي يبدأ كتابه بالتساؤل : ما هو الاستبداد ؟

ومن السطر الثانى مباشرة يبدأ الكواكبي فى إجابة السؤال ، والانطلاق منه . هكذا يكتب :

إن الاستبداد هو « . . صفة للحكومة المطلقة العنان ، التى تتصرف فى شئون الرعية كما تشاء بلا خشية ولاعقاب » .

وسبب الاستبداد هو أن تكون الحكومة « .. مطلقة العنان ، لايقيدها قانون ولا إرادة أمة ، أو أنها مقيدة بنوع من ذلك ، ولكنها تملك بنفوذها إبطال هذه القيود والسير على ما تهوى » .

والحكومات ميالة بطبعها إلى الاستبداد . . لا يصدها عنه إلا « .. وضعها تحت المراقبة الشديدة ومحاسبتها محاسبة لاتسامح فيها ،

وإلا قوة الرأى العام وعظمة سلطانه » .

و . . « المستبد يتحكم فى شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم ، ويحاكمهم بهواه لابشريعتهم . ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدى فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعى لمطالبته . .

« . . والمستبد عدو الحق وعدو الحرية وقاتلهما .

« والمستبد يتجاوز الحد لأنه لايرى حاجزاً . فلو رأى الظالم على جنب المظلوم سيفاً لما أقدم على الظلم .

« والمستبد يود أن تكون رعيته كالغنم دوراً وطاعة . . وكالكلاب تذللا وتملقاً . . وعلى الرعية أن تعرف مقامها ، هل خلقت خادمة للمستبد أو هى جاءت به ليخدمها فاستخدمها .

« والمستبد إنسان مستعد بالفطرة للخير والشر . فعلى الرعية أن تكون مستعدة لأن تعرف ما هو الخير وما هو الشر . مستعدة لأن تقول لا أريد الشر . مستعدة لأن تتبع القول بالعمل . .

« . . والحكومة المستبدة تكون مستبدة فى كل فروعها من المستبد الأعظم إلى الشرطى إلى الفراش إلى كناس الشارع . ولايكون كل صنف إلا من أسفل أهل طبقته أخلاقاً لأن الأسافل لايهمهم جلب محبة الناس ، إنما غاية مناهم اكتساب ثقة المستبد فيهم بأنهم على شاكلته ، وأنصار لدولته ، وشرهون لأكل الفتات من ذبيحة الأمة . ، وبهذا يأمنهم ويأمنونه ، فيشاركهم ويشاركونه . وهذه الفئة المستبدة يكثر عددها ويقل بحسب شدة الاستبداد وخفته . . فكلما كان المستبد حريصاً على العسف احتاج إلى زيادة جيش المتمجدين العاملين له والمحافظين عليه ، واحتاج إلى الدقة فى اتخاذهم من أسفل السافلين الذين لاأثر عندهم لدين أو وجدان واحتاج لحفظ النسبة بينهم فى المراتب بالطريقة المعكوسة ، وهو أن يكون أسفلهم طباعاً أعلاهم وظيفة وقرباً . »

لقد انفجر البركان . . أخيراً . بركان ضخم متفجر ، ملتهب . بركان ظلت فوهته مسدودة مدة طويلة داخل عقل الكواكبي . الآن ، انفجر البركان . انفجار يقذف إلى صفحات الكتاب بكل الملامح التي ظل الكواكبي يختزنها داخل عقله سنة بعد سنة . إنك في هذا الكتاب لا تشعر أنك تقرأ كلاماً مكتوباً . لا . أنت تشهد بركاناً يتفجر .. بركاناً تلفح حرارته وجهك وعينيك وعقلك .

إن هذا الكتاب ليس خيالا أو أحلاماً أو تجريداً أو ميتافيزيقا . . إن الكواكبي في هذا الكتاب ليس شاعراً . ليس أديباً . ليس قصاصاً . إنه مصور . إن المصور لايخترع ، لايبتكر ، لايخلق ، لايضيف . إنه يلاحظ . إنه يرى . إنه يسجل . إن الصورة نفسها تحمل رأيه . والكواكبي في هذا الكتاب مجرد مصور . إن عينه هي كاميرا تسجل ما تراه حولها من مظاهر الاستبداد . إنه ليس رساماً . لايستطيع أن يحذف جزءاً من الواقع أو يجمّل الواقع . لايستطيع أن يضيف للواقع جمالا يفتقده ، أو يستر قبحا لا يريده . إن الكواكبي هنا ليس قاضياً يصدر الأحكام ، ولا هو محام تهمه البراءة . إنه مجرد شاهد على الواقع الذى يراه . على السلطة التي يخضع لها . إنه — في متابعته لملامح هذه السلطة — لايصورها كمحايد .. ولكنه كمجرب . لا يكتب عنها كمتفرج .. ولكن كضحية .

إن الاستبداد الذى يكتب عنه الكواكبي ليس مجرد كلمة . ليس خيالا يطوف برأسه . إنه سيف يهدد رأسه . شيء أمام عينيه . عفريت . شبح . إننا نحس بآثار الأشباح لكن لا نراها . الكواكبي يراها . إنه يرى جواسيس السلطان حوله في كل مكان . إن الخوف داخل كل منزل . والسيف فوق كل رأس . لهذا نحس أن الكواكبي يكتب عن الاستبداد بصدق ، بحرارة وبخوف . إنه من البداية يخاف حتى من ذكر اسمه على الكتاب . إنه من الصفحة الأولى يؤكد أنه لا يقصد ظالماً بعينه ، ولاحكومة

مخصصة . إن إحدى عينيه تراقب قلمه . . وعينه الأخرى تراقب سيف السلطان . إن يده اليسرى تراقب ما تكتبه يده اليمنى . واحدة تكتب . . والأخرى ترتعش . واحدة تسجل . . والأخرى تطمئن . إنه يكتب بيده اليمنى . . فى حين أن يده اليسرى تتحسس رأسه لتطمئن على أنه ما زال فوق كتفيه . إن سيف السلطان حاد . . والرءوس تتطاير منه بخبطة واحدة . لهذا يكتب الكواكبى كلمته ويجرى . لهذا يتنكر . إن كلماته عامة ، مجردة ، إنه يدق الجرس مرة واحدة — ليس أكثر من مرة واحدة — لأنه يعلم أن كل الآذان معه ، كل العقول ، تعرف ما يقصده . إنه لايكتب للناس عما يمكن أن يفعله الاستبداد بهم . . بل عما يفعله بهم فعلا . إنه يكتب عن قواعد عامة . ويهرب . من التفاصيل . يهرب من الأمثلة . فلكى يعطينا الكواكبى أمثلة لابد أن يكتب عن كل مايرتكب السلطان من أعمال : النفى ، التشريد ، الدم ، القتل ، التعذيب ، الخراب ، الفقر ، الاضطهاد ، العزل ، السجن ، الظلام ، الرقابة ، الإعدام . إن الكواكبى لايستطيع أن يعطى هذا كله ظهره ثم يعطى أمثلة . مستحيل . لو أن الكواكبى يستطيع أن يعطى أمثلة . . او أنه يستطيع أن يضع النقط على الحروف ! . . لو أنه يستطيع أن ينقد السلطان علنا ! . . إذن فلا توجد مشكلة . لايوجد حاكم مستبد . فطالما أن السلطان يسمح بالمناقشة ، بالوضوح ، بالنقد ، بالاختلاف معه ، بالمعارضة له . . إذن فهو سلطان قوى . . عادل . . واثق من نفسه . . وأبعد ما يكون عن الاستبداد . ولكن السلطان مستبد . إذن لامناقشة ولاوضوح ، لاتفكير ، لا اختلاف ، لامعارضة ، لا حرية . المعارضة حرية .

إن الاستبداد الذى يتحدث عنه الكواكبى ليس جملة فى كتاب . ليس كتاباً . إنه استبداد يستبد بعقله حينما يفكر . . فمن الطبيعى أن يستبد بقلمه حينما يكتب . إن كابوس الاستبداد يسيطر على عقله فى أثناء الكتابة . . كمغص يسيطر على معدته . يمزق معدته . يمزق عقله .

إن القلم فى يده ليس قلماً . إنه كاسح ألغام . إنه ينير الطريق ويطهر العقل ويزرع الحقل . يزرعه بفكرة . الفكرة هى أن الاستبداد قاتل لكل شىء ؛ للموهبة ، للكفاية ، للعلم ، للثقافة ، للكرامة للأخلاق ، للحرية .

إن الكواكبى يعلم أن علاج الاستبداد هو الحرية . لهذا يدعو إلى الحرية فى كل صفحة . إن المهمة أمامه صعبة مرتين . مرة لأنه يريد نشر الدعوة للحرية ، ومرة لأنه يريد نشر الإيمان بالحرية نفسها . إنه يكتب عن الحرية وسط قوم غابت عنهم الحرية زمناً طويلاً . لقد غابت عنهم لضعفهم ، وغابت عنهم لإهمالهم . إن الحقوق والحريات يمكن فقدها بالإهمال . . مثلما يمكن فقدها بالهزيمة . إن الحرية كالقوة ، كالذراع ، كالعضلات . . أستعملها أو أخسرها . وحينما يخسر شعب حريته فإنه يدفع لاستعادتها ثمناً مضاعفاً . ثمناً للحرية نفسها . . وثمناً لاستعادة الإيمان بها . إن فقدان الحرية لا يعدّ خسارة فى نظر قوم لم يعرفوا الحرية أبداً . . نحن هؤلاء القوم . لقد عرفنا فقط أن السلطان هو قيصر . . وهو مندوب الله . . وهو الله نفسه فى أحيان كثيرة ! لقد اعتدنا أن السلطان عبد لسلطته . ونحن عبيد للسلطان . نحن إذن عبيد للعبيد . أسوأ عبيد . إن العلاقة بين الاثنين — بين السيد والعبيد — هى علاقة ذات طابع خاص . علاقة منفعة . حتى العبودية لها منفعة . حتى العبودية يمكن فلسفتها !

إن كلاً من العبد والسيد يقنع نفسه بأنه يعمل لمصلحة الآخر . إن السيد يريد أن يستغل عبده إلى أقصى حد ممكن . وكلما حصل منه على أكثر ما يستطيع كان راضياً . وفى الوقت نفسه يريد العبد ضمان حدّ أدنى من الحماية والطعام والراحة من المسئولية . السجين لا يتحمل مسئولية . إن السيد ، إن السجان ، إن المستبد ، يعطيه الطعام ويعفيه من المسئولية . لهذا ليس غريباً أن نجد العبد نفسه — الشعب المستعبد نفسه — قد يندفع أحياناً فى تمجيد سيده . إن تمجيده له هو

دفاع عن نفسه . فكلما أقنع الشعب نفسه بأن المستبد إنسان قوى عظيم ومدهش . . أحس أنه أقل خجلا من طاعته . لهذا نجد أن المستبد نفسه يغذى هذا الشعور . إنه يغذيه لأنه يحتاج إلى شعب مؤمن به ، مؤمن باستبداده . فلكي يستمر الاستبداد لايكفى أن يوجد حاكم مستبد أو حكومة مستبدة . لابد أيضاً من شعب يقبل هذا الاستبداد . إن الاستبداد لايتم بواحد من الاثنين . لابد من الاثنين . إن وجود أحدهما يشجع على وجود الآخر . ضرورى للآخر . هذا طبيعى . . لأن الاستبداد طريق واحد ذو اتجاهين . لابد من إنسان يريد أن يسلب حرية غيره . . وإنسان آخر يقبل النزول عن حريته لغيره . ركنان أساسيان لقيام الاستبداد . لهذا قالوا دائماً إن كل شعب يستحق الحكومة التى تحكمه . كل عبد يستحق السيد الذى يستعبده . إذا أراده حاكما . فهو شعب ، والآخر حاكم ، والسلطة عبء . إذا أراده سيداً . . فهو عبد والآخر مستبد ، والسلطة ميزة .

إن السلطة عند المستبد تخدم نزوة ، وعند الحاكم تخدم هدفاً .

السلطة عند المستبد امتياز بلا حدود ، وعند الحاكم مسئولية بلا حدود .

إن المستبد يحكم الناس بنزوات فردية ، والحاكم يحكمهم بقواعد عامة .

إن الناس عند المستبد حيوانات تتلقى الأوامر ، وعند الحاكم شعب يعطى الأوامر .

إن المستبد يريد من الناس أن تحصل على الطعام . . وتترك له السياسة . فالناس عنده ليس لهم حق فى شىء أكثر من العلف الذى يعطيهم إياه . أما الناس عند الحاكم فيحصلون على السياسة . . ويتركون له الطعام . يحصلون على السلطة . . ويتركون له المسئولية .

وبينما المستبد يخاف من الناس انقلابهم عليه . . فإن الحاكم يخاف من الناس محاسبتهم إياه .

وبينما الأعداء الذين يحاربهم المستبد هم المنافسون له داخل بلده .. فإنهم عند الحاكم الطامعون خارج بلده .

إن البقاء فى السلطة هو عند المستبد هدف يسعى إليه . . وعند الحاكم ثمن يدفعه . لهذا نجد أن المستبد يحس بالراحة حتى ولو كان كل شيء على خطأ . . فى حين يحس الحاكم بالخوف عندما يبدو كل شيء على ما يرام . لهذا نجد أن رءوس الناس هى عند المستبد مجرد جماجم يسير فوقها . . وعند الحاكم هى عقول يستنير بها !

إن النجاح عند المستبد شخصى ، وعند الحاكم موضوعى . إن التمرد عند المستبد كفر . . والحرية شبح . والمعارضة كابوس . . والنقد تآمر . إن النفاق عنده أهم من الكفاية . والقرابة أشرف من العلم . والوساطة أغلى من القدرة . إنه لايريد من حوله مثقفين ، وإنما يريد منافقين يؤدون خدماتهم لمن يدفع الثمن . ولايريد علماء ، يريد « عوالم » . تدق الدفوف لمن يقف على رأس « الزفة » .

إن المستبد يحس أنه عملاق بقدر ما يحيط به من أقزام . . فى حين أن الحاكم عملاق بقدر ما يخلق من عمالقة .

إن عظمة المستبد مخصومة من عظمة رعاياه . . وعظمة الحاكم انعكاس لعظمة مواطنيه .

إن المستبد يريد من حوله بطانة تغذى فيه نقاط الضعف . . على حين يريد الحاكم مساعدين يؤكدون فيه نقاط القوة . لهذا فعندما ينتهى كل شيء ، نجد أن المستبد قد ترك خلفه كلاباً تتقاتل على السلطة . . بينما الحاكم يترك خلفه تقاليد تحكم السلطة .

وعندما نعود إلى الكواكبى وكتابه نجد أن كل شيء لم ينته بعد . إنه سوف ينتهى يوماً ما . . ولكن ليس بعد . لهذا نكتشف — عندما نعود إلى تأمل كتاب الكواكبى من جديد — أنه يكتب كلماته بالقطارة . إن الكتاب نفسه هو كتيب أكثر مما هو كتاب . إنه مجرد وسيلة للوصول

إلى الهدف من أقصر طريق . الهدف عند الكواكبي هو كشف الاستبداد ونتائجه . الهدف هو أن ينزع الكواكبي كل الستائر التي يغطى بها الاستبداد نفسه . وكلما نزع الكواكبي ستاراً وجد ستاراً آخر تحته . وبعد أستار كثيرة يكشف لنا الكواكبي عن الوجه الحقيقي للاستبداد . وجه قبيح.

إن الكواكبي يبحث في الكتاب علاقة الاستبداد بالدين . . إنه ينقل عن الإفرنج رأيهم فى أن الاستبداد فى السياسة متولد من الاستبداد فى الدين أو مساير له . إنهم يقولون إن الأديان تعلم الناس الخوف من قوة عظيمة لاتدرك العقول كنهها . . وتهددهم بالعذاب إن لم يطيعوها . والمستبدون السياسيون يتبعون الأساوب نفسه . . فيرهبون الناس ويذلونهم — بالقوة وسلب الأموال والإرهاب — حتى لايجدوا مفراً من التزلف إليهم وتملقهم .

ولكن الكواكبي يدلل على أن الإسلام قد فرق بين شيئين جوهريين : النظرة إلى الله ، والنظرة إلى الحاكم . إن الحاكم فرد . . يخطئ ويصيب . . يظلم ويعدل . . إنه فى جميع الأحوال يلتزم — بحكم الدين — ألا يستبد بالرأى . إن الله تعالى يقول : « وشاورهم فى الأمر » ، أى فى الشأن . ويقول : « وأمرهم شورى بينهم » ، أى شأنهم . ويقول : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ، أى أصحاب الشأن منكم ، وهم العلماء والرؤساء على ما اتفق عليه أكثر المفسرين .

إذن . . لماذا ؟ لماذا استبد الحكام برغم تعاليم الإسلام ؟

يقول الكواكبي إن إهمال الشعوب مراقبة أمرائهم ومؤاخذتهم وسؤالهم هو الذى أوسع لهم مجال الاستبداد وتجاوز الحدود .

* * *

ثم ينتقل الكواكبي إلى نقطة أخرى هى : علاقة الاستبداد بالعلم . . يقول : « ما أشبه المستبد فى نسبته إلى رعيته بالوصى الخائن القوى على أيتام أغنياء ، يتصرف فى أموالهم وأنفسهم كما يهوى ما داموا قاصرين . فكما أنه

ليس من صالح الوصي أن يبلغ الأيتام رشدهم ، كذلك ليس من غرض المستبد أن تتنور الرعية بالعلم » إن الحاكم المستبد يخاف من انتشار العلم . إنه يريد الإبقاء على رعيته فى الظلام ، لأن الجهل يضاعف سيطرته عليهم .

إن الكواكبي يرى الحاكم المستبد « لا يخشى علوم اللغة . وكذلك لا يخاف من العلوم الدينية . . . لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة » . ولكن المستبد يخشى — بل ترتعد فرائصه من « . . علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الأمم وسياسة المدنية والتاريخ المفصل والخطابة الأدبية وغيرها » . وبالإجمال إن المستبد لايخشى من العلوم سوى تلك التى « . . توسع العقول وتعرف الإنسان ما هو الإنسان ؟ وما هى حقوقه ؟ وهل هو مغبون ؟ وكيف الطلب ؟ وكيف النوال ؟ وكيف الحفظ ؟ »

« إن المستبد سارق ومخادع ، والعلماء منبهون محذّرون ، وللمستبد أعمال وصوالح — مصالح — لايفسدها عليه إلا العلماء .

« المستبد كما يبغض العلم لنتائجه يبغضه لذاته ؛ لأن للعلم سلطاناً أقوى من كل سلطان . . لذلك لايحب المستبد أن يرى وجه عالم ذكى ، فإذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس . . يختار المتصاغر المتملق . .

« وينتج مما تقدم أن بين الاستبداد والعلم حرباً دائمة وطراداً مستمراً ، يسعى العلماء فى نشر العلم ، ويجتهد المستبد فى إطفاء نوره . .

« العوامّ هم قوات المستبد وقوته ، بهم عليهم يصول ، وبهم على غيرهم يطول . . يأسرهم فيتهللون لشوكته ، ويغصب أموالهم فيحمدونه على إبقاء الحياة ، ويهينهم فيثنون على رفعته ، ويغرى بعضهم ببعض فيفتخرون بسياسته ، وإن أسرف بأموالهم يقولون عنه إنه كريم ، وإذا قتل ولم يمثل يعتبرونه رحيماً ، ويسوقهم إلى خطر الموت ، فيطيعونه حذر التأديب . وإن نقم عليه بعض الأباة قاتلوهم كأنهم بغاة . .

« ولا شك أن خوف المستبد من نقمة رعيته أكثر من خوفهم بأسه لأن خوفه ينشأ عن علم ، وخوفهم ناشئ عن جهل . .

« وكلما زاد المستبد ظلماً واعتسافاً زاد خوفه من رعيته ومن حاشيته وحتى من هواجسه وخيالاته ! » . .

مرة أخرى هذا ليس قلماً يكتب . هذه كاميرا تصور . كاميرا يستخدمها الكواكبي ، ليس فى تصوير ما يمكن أن يحدث . . بل ما يحدث فعلا حوله فى أنحاء الإمبراطورية العثمانية . لقد بدأت الكاميرا فى يده تلتقط الصور ، وهى ستستمر فى ذلك لتكشف كل الوجوه الخفية للاستبداد .

إن الكواكبي يخصص فصله التالى فى الكتاب بمناقشة علاقة الاستبداد بالمجد والتمجد . فصل آخر لمناقشة علاقة الاستبداد بالمال . فى الحكم الاستبدادي يستبد كل شخص بمن تحته ، ويخضع لاستبداد من فوقه . . إن كل مستبد صغير هو موظف عند المستبد الكبير . وليس موظفاً عند الأمة كما يجب أن يكون فى الحكم الصحيح .

وفى ظل الحكومة المستبدة يصبح التظاهر بالفقر ميزة كبرى لأن أحداً لا يأمن على ماله . إن « . . حفظ المال فى عهد الإدارة المستبدة أصعب من كسبه ، لأن ظهور أثره على صاحبه مجلبة لأنواع البلاء عليه ولذلك يضطر الناس فى زمن الاستبداد لإخفاء نعمة الله ، والتظاهر بالفقر والفاقة » .

والحكومة المستبدة تغدق المال على محاسيبها ومن يساعدونها فى طغيانها « ويكفى الواحد منهم أن تكون له علاقة بواحد من المستبدين حتى يصبح فقره ثروة ، ونفاقه نفوذاً ، ورياؤه سلطة » . .

ولا يقف تأثير الاستبداد عند الدين والعلم والمال . إنه يمتد ليؤثر فى كل شيء حتى أخلاق الناس . هذا هو الفصل التالى فى كتاب الكواكبي . إن الاستبداد فى رأى الكواكبي يضعف الأخلاق ويفسدها

أو يمحوها . . إنه يجعل الإنسان كافراً بمن أنعم عليه ، حاقداً على قومه لأنهم عون الاستبداد عليه . إنه يصبح « . . فاقداً حب وطنه لأنه غير آمن على الاستقرار ويود لو انتقل منه . . وضعيف الحب لعائلته لأنه ليس مطمئناً على دوام علاقته معها . . ومختل الثقة فى صداقة أحبابه لأنه يعلم أنهم مثله .. قد يضطرون إلى إضرار صديقهم — بل قتله — وهم باكون» . إن الاستبداد ينشر النفاق بين الناس . إنه يفقدهم ثقتهم بعضهم ببعض وثقتهم بأنفسهم . .

ثم يرد الكواكبي على المزايا التى يدعى الحكم الاستبدادى عادة أنه يحققها . ان الاستبداد يعلم الطاعة والانقياد . . صحيح . . ولكنها طاعة عن خوف وجبن لا عن إرادة واختيار . الاستبداد يربى النفوس على احترام الكبير وتوقيره . صحيح . ولكنه احترام عن كراهية لا عن حب . الاستبداد يقلل الفسق والفجور . صحيح أيضاً . ولكن الفجور يقل عن فقر وعجز لا عن عفة ودين . الاستبداد يقلل الجرائم . صحيح . ولكن الجرائم لاتقل . . وإنما تصبح خفية . . إنها لاتختفى . ولكن الذى يختفى هو الحديث عنها علناً . .

إن الاستبداد يسىء أيضاً إلى التربية . إنه « .. يضطر الناس إلى إباحة الكذب والتحيل والخداع والنفاق والتذلل ومراغمة الحس وإماتة النفس » . . إن الآباء يرون أن تربيتهم لأبنائهم تذهب عبثاً تحت أقدام النماذج التى يضربها لهم الاستبداد فى سوء التربية. إن الاستبداد يسمى الشجاعة طيشاً والإنسانية حمقاً والنفاق سياسة والدناءة لطفاوالنذالة ظرفاً . .

* * *

الآن . .

الآن اكتملت صورة الاستبداد عند الكواكبي . الآن نزع الرجل كل الستائر من فوق الوجه القبيح للاستبداد . . وكلما كان ينزع ستاراً كانت ملامح الوجه القبيح تبدو شيئاً فشيئاً . أكثر من هذا . . فإن

واقعية الكواكبي ، إن إصراره على أن ينطبق ما يكتب على ما يراه الناس ، أصبح ميزة له فى كتابه ، ولكنه لن يصبح كذلك فى حياته .

إن الكواكبي أراد أن يكون كتابه مصباحاً ينير الطريق أمام أمته . . ولكنه نسي أن هناك رجلا آخر يهمه الأمر . طرف آخر تعنيه المسألة ، تعنيه جداً . لقد نسي الكواكبي — يبدو هذا — أن هناك سلطاناً يحكم ، ويحكم بنفس الأساليب التى كشفها هو . نسى الكواكبي أن السلطان عبد الحميد يقضي حياته فى التلصص وراء كل فرد من رعاياه والتجسس عليه بعصا غليظة فى يده بل بسيف حاد . إن السلطان يراقب من قصره فى الآستانة — كل صوت يهمس بين رعاياه فى أى جزء من الإمبراطورية العثمانية كلها . إن جيش الجواسيس الذى كان يجب أن يعرف مطامع الدول الأجنبية فى أراضي الإمبراطورية . . قد ترك مهمته الأصلية وتفرغ ليسمع همسات المواطنين داخل الإمبراطورية. إن التلصص ، التسمع ، والتجسس أصبح مهمة هذا الجيش من العملاء . . فما بالك والأمر هنا لايحتاج إلى تلصص أو تجسس . الأمر هنا ظاهر وواضح . منشور فى كتاب !

ولم تكن غلطة الكواكبي هى الكتاب ، ولكن ما يدل عليه الكتاب ، هو الغلطة . إن ما يدل عليه الكتاب هو أن عبد الرحمن الكواكبي ضعيف الذاكرة ! إن الكواكبي وهو يكتب كتابه تذكر شيئاً ، ونسى شيئاً . تذكر أن اسمه : عبد الرحمن . . ونسى أنه عبد السلطان . السلطان التركي . هذا ضعف فى الذاكرة . هذا فقدان للذاكرة . إن الكواكبي يجب أن يخشى السلطان كما يخشى الله ، بل قبل أن يخشى الله . فالله يغفر . . والسلطان لايغفر . الله يؤجل الحساب . والسلطان لا يؤجل العقاب . . الله يرحم . . والسلطان لا يرحم !

لقد ردد الكواكبي فى كتابه كثيراً أنه لا إله إلا الله . خطأ كبير . كان يجب على الكواكبي أن يخشى السلطان عبد الحميد أكثر مما يخشى الله

. . وسوف يندم الكواكبي كبيراً . . على هذا الخطأ . .
من الآن سوف يصير الكواكبي فى علم الغيب . .
لله أمرك يا كواكبي . . لله أمرك . وللسلطان !

الآستانة ١٩٠١

قصر السلطان

كتاب الكواكبي قيد البحث . من الناحية المبدئية يمنع الكتاب – وأى كتاب آخر للكواكبي – من التداول . أمر سلطانى يبلغ إلى جميع الولايات فى الإمبراطورية العثمانية . . هنالك عقوبات أخرى فى الطريق .

إن الكواكبي هاجم السلطان بهدوء . إذن . . سيعاقبه السلطان بهدوء أيضاً . عقاباً صارماً .

إن السلطان هو الذى يبحث المسألة . . شخصيًّا . هذا طبيعى . ففى السجن تستطيع أن تجد دائماً أن أكثر الناس قلقاً . . هو السجان . إن السلطان مرتعش ، مرتعد ، خائف . إنه خائف على نفسه . على سلطته . إنه مهزوم أمام الدول الأجنبية ، مهزوم أمام العدو الأجنبى ، فلا أقل من أن ينتصر على مواطنيه كبديل وتعويض . إن السيف وحده هو الذى يضمن له الانتصار على مواطنيه . السيف هو السلاح الوحيد الذى يجعل السلطان مطمئنًّا على سلطته . إن السيف مخيف . وصاحبه خائف . وعندما يخاف السلطان – عندما يخاف من مواطنيه – فإنه يطلب راحة وليس نقداً . صمتاً وليس فكراً . إن أى صوت يهز أمنه . . وأى هزة تقلب سفينته . ولأن الرياح عاتية ، والسفينة مملوءة بالثقوب . . تتسرب المياه إليها. إن العدو أصبح الآن داخل السفينة . العدو الآجل هو شعب بأكمله . والعدو العاجل هو كتاب بمفرده . إذا كان الكواكبي قد أصدر هذا الكتاب متنكراً . . فإن السلطان سوف يعاقبه متنكراً

أيضاً . . إذا كان الكواكبي يملك قلماً ، فإن السلطان يملك سيفاً إن القلم يكتب ، يناقش ، يرد ، يعترض . ولكن السيف لا يناقش لايفكر . إنه يقتل . فقط .

وبالنسبة للكواكبي لم يكن السؤال هو : أيعاقبه السلطان أم لا ؟ سيعاقبه . ليس السؤال : أيكون العقاب خفيفاً أم حازماً ؟ . . سيكون حازماً . ليست المشكلة : أيكون العقاب بطيئاً أم سريعاً ؟ . سيكون سريعاً . ولكن السؤال هو : كيف يكون هذا العقاب ؟ كيف يتم العقاب فى صمت وحذر . . وبغير أى دليل يشير إلى فاعله ؟ كيف . . كيف . . . . .

الإسكندرية ١٩٠٢

قصر الخديو عباس

« . . يا كواكبي ، أريد أن أستشيرك فى أمر يخصك . إننى أستعد للسفر إلى الآستانة لأجدد فروض الطاعة لمولانا السلطان . . لماذا لا تحضر معى لاستجلاب رضا السلطان عنك ؟ » . .

هذه هى الفكرة التى قالها الخديو عباس للكواكبي عندما استدعاه فى الإسكندرية . لقد خرج الكواكبي من القصر وهو يحس شيئاً مريباً فى الأمر . لايمكن أن تكون هذه فكرة الخديو . لايمكن أن تكون الفكرة بهذه البساطة .

وعندما سأل الكواكبي صديقه محمد كرد على عن رأيه قال له : إن السلطان لاتأخذه رحمة بالذين يخرجون عليه . لقد أغرى جمال الدين الأفغانى من قبل بالذهاب إلى الآستانة . وحينما ذهب الأفغانى اكتشف أنها خدعة . إن السلطان جاء به إلى الآستانة ليراقبه .. ليحد من نشاطه ليجعله حياً كالميت .

و . . اعتذر الكواكبي عن عدم السفر مع الخديو إلى السلطان . . إذن . . لم تنجح هذه الحيلة .

القاهرة ١٩٠٢

مقهى يلدز . حديقة الأزبكية

– ياكاظم ؟ هات لى كوباً من الماء ! بسرعة يا ولدى . . !
– ماذا بك يا أبى ؟
– لا شئ يابنى . . مجرد آلام بسيطة . . هات لى الحنطور . . أريد أن أعود إلى البيت . . إلى الأزهر يا أسطى . . إلى شارع الإمام الحسين بالأزهر .

وفى الطريق كان الابن قلقاً والأب يفكر كثيراً . . « . . ماذا جرى لك يا كواكبي ؟ لقد اعتدت أن تجلس فى مقهى يلدز منذ سنتين . واعتدت أن تشرب فيه القهوة السادة فى كل مرة . . لماذا ؟ . . لماذا ؟ . . لماذا إذن كانت القهوة غريبة المذاق هذه المرة ؟ . . لماذا يا كواكبي ؟ . . إن الفنجان كان طعمه غريباً . . وهذه الآلام حلت بك بعد فنجان القهوة بنصف ساعة فقط . . ماذا جرى ؟ . . اللهم اجعله خيراً ! »

حى الأزهر

شارع الإمام الحسينى

الخميس ١٤ يوليو – ١٩٠٢

بمجرد وصول الكواكبي إلى منزله فى هذا المساء بدأت الآلام تطارد جسمه جزءاً جزءاً . . من الأمعاء إلى القلب ، إلى الصدر . بعد قليل أصبح واضحاً بالضبط ماذا جرى . بعد قليل أصبح كاظم – ابنه –

يعرف بالضبط سر الخطر . ولكن الابن يتساءل بينه وبين نفسه . . لماذا اختار السلطان ، أن يقتل الكواكبي بالسم . . وليس بأي سلاح آخر ؟

ولم تكن الإجابة صعبة. إن الكواكبي فضح في كتابه استبداد السلطان جزءاً جزءاً . لهذا أراد السلطان أن يجعل جسم الكواكبي يموت قطعة قطعة .

إن السم وحده يضمن ذلك . . إنه الآن يسري في جسم الكواكبي بوصة بوصة . . إن الكواكبي كان جريئاً . . إن جرأته كانت في عقله الآن يجري السم في دمائه . هذا عقاب السلطان . عقاب تحت الجلد . عقاب بطيء . وعذاب بطيء .

إن الكواكبي يحاول الآن أن يتحدث مع كاظم ، مع ابنه . إنه يقول له بصوت عال يتجه إلى الانخفاض شيئاً فشيئاً : يا بني . . استدع لنا طبيباً فوراً . . دكتور . . بسرعة . دكتور بسر . . دكتور . . . دكتو . . . مات الكواكبي .

حي الأزهر

منزل المرحوم الكواكبي

اليوم التالي لدفنه

شيء غريب ! كيف استطاع السلطان عبد الحميد — وهو في قصره بالآستانة — أن يعلم بوفاة الكواكبي بمثل هذه السرعة . كيف استطاع خبر تمام المهمة أن يصل إليه في مثل هذا الوقت الضيق ؟

لقد أرسل السلطان إلى مندوب له في بيروت بأن يهبط سريعاً إلى القاهرة . هناك سيجد أن الكواكبي قد مات . هناك سيقابل أناساً آخرين يمثلون السلطان . إن على الجميع أن يذهبوا فوراً — مع أقصى الحذر — إلى بيت الكواكبي . إن السلطان يريد مصادرة كل الأوراق التي كتبها الكواكبي بخط يده . هذه الأوراق يجب أن ترسل فوراً إلى السلطان

عبد الحميد شخصياً فى قصر يلدز بالآستانة . السلطان نفسه ينتظرها .
سلطان فى الوحل .

إن المهم . . هو السرعة ، قبل أن يظهر أى دليل يشير إلى علاقة السلطان بوفاة عبد الرحمن الكواكبى . ولكن . عندما ذهب جنود السلطان إلى بيت الكواكبى بعد يوم واحد من دفنه . . وجدوا مفاجأة جديدة فى انتظارهم .

فمن بين الأوراق والكتب التى تركها الكواكبى بعد وفاته كان هناك كتاب قد بدأ تأليفه . . ولم ينته منه بعد . كتاب يحمل عنواناً بسيطاً . عنواناً يقول :

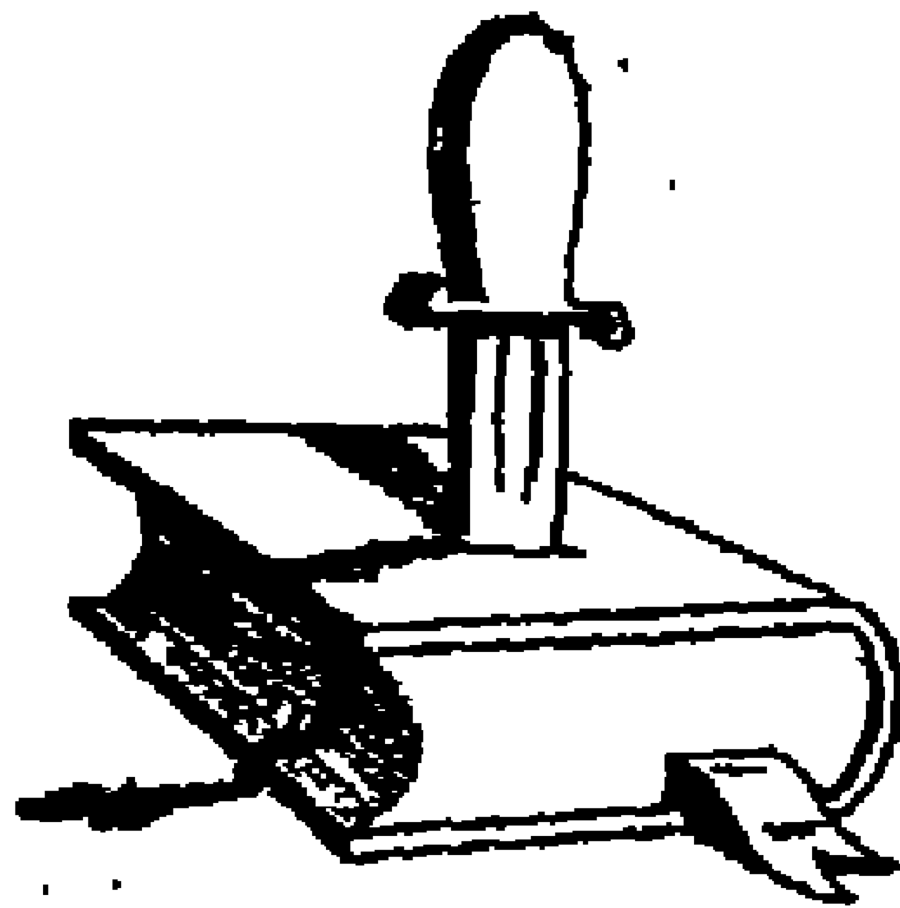
« العظمة لله » !

إن الكواكبى — حتى وهو ميت — ما زال محتفظاً برأيه . الله وحده هو العظيم . . الله وحده . . الله . .

نعم يا كواكبى . .

لله العظمة . أما السلطان — السلطان الذى قتلك بالسم — فله شيء آخر . له . . الوحل !

* * *



علی عبد الرازق



٥

شيخ .. ضد الكعبة !

يستطيع السلطان أن يضرب بالسيف . . ولكنه لايستطيع أن يجلس عليه !

يستطيع أن يخدع ، يطارد ، يعاقب ، يسجن ، يعتقل ، يشرد ، يعذب ، يقتل . . ولكنه لايستطيع أن يضيف ملحقاً إلى عمر استبداده . عمر قصير .

إن السلطان العثمانى عبد الحميد — خليفة المسلمين عبد الحميد — سرق ونهب وهدد ونفى وحكم وأعدم مئات الآلاف من مواطنيه . وفى النهاية كان هناك شيء واحد أقوى من كل أسلحته . شيء واحد . . كلما حرص السلطان عليه ، أصبح يفلت منه . شيء واحد كان السلطان يسعى إليه : الزمن . وشيء واحد كان يرتعد منه : الزمن !

إن السلطان كان يسعى — بالإرهاب — إلى زيادة أيام سلطته سنة ، شهراً ، يوماً ، خمس دقائق او لزم الأمر . لكن — مع كل رأى كان السلطان يعدمه كان عمره فى السلطنة والخلافة ينقص ولو حتى دقيقة واحدة !

وبينما كان السلطان يتجسس على رعاياه ، وبينما كان سيفه مشغولا بإعدام معارضيه ، وبينما هو يتوقع الخطر من كل مكان سوى ما تحت أقدامه . . وقع التغيير .

لقد استطاعت الثورة فى تركيا أن تخلع عبد الحميد — كسلطان وخليفة للمسلمين . وخلال السنوات الخمس عشرة التالية كانت

الثورة قد خلعت ثلاثة سلاطين آخرين خلفوه . . إلى أن أصبح فى السلطة أخيراً : خليفة المسلمين عبد المجيد . لقد عينته الثورة بلا سلطات . ومن الآن فصاعداً أصبح محرماً عليه التدخل فى السياسة .

ولقد ظلت الثورة فى تركيا تخلع سلطاناً وتعين بدلا منه ، إلى أن قررت فى إحدى الليالى أن تتخذ الخطوة الحاسمة . خطوة أجلتها الثورة طويلا .

كانت الثورة فى تركيا تحكم بزعامة الضابط التركي مصطفى كمال .

وفى ليلة ٣ مارس سنة ١٩٢٤ أصدر برلمان الثورة قراراً . . سرعان ما وقعه مصطفى كمال ، وطلب تنفيذه فوراً . كان القرار بسيطاً وحاسماً : إلغاء منصب الخلافة نهائياً . خلع السلطان عبد المجيد خليفة المسلمين . طرده من تركيا مع كل أسرته قبل الخامسة صباحاً .

وعلى الفور حمل قائد الشرطة القرار فى يده وتوجه إلى مقر الخليفة . قصر السلطان عبد المجيد .

وعندما قال الخدم لقائد الشرطة : إن الوقت ليل . . والخليفة نائم . . رد قائد الشرطة : أيقظوه . . أيقظوه فوراً .

نعم . كان هذا قرار الثورة . إذا كان خليفة المسلمين قد نام فإن الثورة لا تنام . إذا كان لم يمهل ضحاياه من قبل ، فإن الثورة لن تمهله الآن .

وعندما استيقظ الخليفة بعد دقائق كان مجرد شبح . منذ سنة وهو شبح . إنه نصف نائم ، نصف متيقظ ، نصف خائن ، نصف قلق ، نصف متردد ، نصف شاحب ، نصف مرتعد ، نصف شبح . إن الثورة لاتريد أنصاف أشباح ، ولا هى تؤمن بأنصاف حلول : على السلطان — على الخليفة ، أن يحمل ثيابه فوراً حتى تقذف به الثورة خارج الحدود . أى مكان . . ولكن خارج الحدود .

وبدأ السلطان يتهته ويستغفر ويسترحم ويرجو ويتوسل . لا .

وقبل الفجر كانت الشرطة قد حملت الخليفة وحريمه فى سيارته إلى محطة سكة الحديد . من هناك قذفوا به القطار فى المتجة إلى سويسرا .

لقد خرج الخليفة من إستانبول فى يوم ثلاثاء . نفس اليوم الذى دخل فيه أجداده إلى العاصمة التركية كغزاة . إنه اليوم فى حال غير الحال . . . وعصر غير العصر . . كان غازياً . . فأصبح طريداً . كان فاتحاً . . أصبح منفياً . كان مستبداً . . أصبح ذليلا . إنه يسافر إلى غير رجعة . يسافر لأول مرة بغير حاشية تحيط به . لا أصحاب عزة ولا أصحاب رفعة ولا ضباط ولا وزراء ولا بطانة ولا حاشية . مجرد سلطان . مجرد خليفة سابق . . مع زوجاته وحقائبه .

وكأنما كتب على هذا الخليفة التركى – آخر خليفة بعد ألف سنة – أن يشرب حتى الثمالة كأس الذل التى أذاقها لمواطنيه . فعند الحدود السويسرية توقف القطار . .

– ما الخبر ؟

– ممنوع دخولك سويسرا .

– لماذا ؟

– لأنك متعدد الزوجات . والقانون هنا يمنع دخول متعددى الزوجات .

– ولكننى سلطان . والسلطان فوق القانون .

– من الآن سوف تصبح تحته !

– إننى خليفة المسلمين . .

– لقد أصبحت خليفة . . بلا مسلمين .

– ولكننى كنت خليفة . .

– أنت الآن خليعة . . ولست خليفة !

– والعمل ؟

– عد إلى بلادك . .

– بلادى طردتنى . . نفتنى فى منتصف الليل .

— إذن . . نعطيك تصريحاً مؤقتاً بالدخول .

— مؤقتاً . . إلى متى ؟

— إلى أن نستعلم عن حالتك الاجتماعية . . وعن عدد زوجاتك بالضبط

هكذا خرج آخر خليفة عثمانى من تركيا . . بعد ليلة تاريخية شهدتها مدينة إستانبول . إن الخليفة — بتنفيذه لقرار الثورة فى تلك الليلة — استطاع أن ينقذ حياته . ولكن . . ليس أكثر من حياته . فى تلك الليلة لم يمت أحد . الخلافة فقط .

* * *

ومن اليوم التالى مباشرة بدأ اللعاب يسيل . لعاب الملك فؤاد فى القاهرة ، ولعاب الحكومة البريطانية فى لندن . لقد أصبح العالم الإسلامى — لأول مرة منذ ألف سنة — بلا خليفة . لقد أعلن مصطفى كمال قيام الجمهورية فى تركيا وفصل الدين عن الدولة ، ورفض أن يتحول هو نفسه إلى خليفة آخر . ولكن الملك فؤاد لا يرفض . . بالعكس . . إن لعابه يسيل الآن على اللقب الرنان « خليفة المسلمين » . كما أن بريطانيا هى الأخرى بدأت تكتشف أن من مصلحتها تشجيع فؤاد على ذلك . إن فؤاداً كان بالنسبة لها حتى عشر سنوات مضت تابعاً بدرجة سلطان . موظفاً بدرجة سلطان . . ثم أصبح منذ سنة موظفاً بدرجة ملك . لماذا لايصبح فؤاد إذن موظفاً بدرجة خليفة ؟ ! إن الترقية سوف تجعل فؤاداً خليفة بالنسبة لشعبه فقط . . ولكنها لن تغير وضعه كتابع لبريطانيا التى تحتل مصر ، وتتطلع إلى أجزاء أخرى فى الوطن العربى . وإذا كان السلاطين العثمانيون قد استخدموا « يافطة » الخلافة لحسابهم الخاص طوال خمسة قرون . . فإن بريطانيا أصبحت تريد ذلك الآن لحسابها هى . . ومن باطن الملك فؤاد . لهذا فبعد أن حصل الملك فؤاد على النور الأخضر من رؤسائه فى لندن . . أضاء النور الأخضر لمرؤوسيه فى القاهرة . المطلوب : مبايعة الملك فؤاد خليفة على المسلمين . . . . .

ونظراً لأن الملك فؤاد لا يستطيع الحصول على هذه المبايعة بحد السيف – كما كان الوضع بالنسبة الكل خليفة من قبله – فإنه لم يبق أمامه غير الإقناع . وحتى لا يحمل الإقناع شبهة المطامع الشخصية ، استقر الرأى على أن يقوم الأزهر بالدعوة إلى مؤتمر إسلامى فى القاهرة . الهدف الظاهرى : بحث موضوع الخلافة بعد سقوطها من تركيا . الهدف الحقيقى : إقناع ممثلى الأقطار الإسلامية بمبايعة الملك فؤاد خليفة للمسلمين .

وعلى الفور شكلت لجان من بعض رجال الدين – تحت إشراف شيخ الجامع الأزهر – بهدف الاتصال بمندوبى الأقطار الإسلامية إلى المؤتمر ، بهدف الترويج لفكرة الخلافة ولأهمية المؤتمر بين الشعب المصرى . وعند هذا الحد فإن الشيخ الأحمدى الظواهرى – شيخ الأزهر فيما بعد ورئيس إحدى تلك اللجان حتى الآن – يكتب فى مذكراته : « لم يكن التمهيد لانعقاد مؤتمر الخلافة بالقاهرة يحضره مندوبون من جميع أمم الإسلام أمرا بسيطاً هيناً كما ظن علماء الأزهر فى بادئ الأمر . فقد امتد زمن الدعوة إليه من سنة سقوط الخلافة فى إستانبول إلى عام ١٩٢٦ عندما عقد المؤتمر فعلا فى القاهرة . . أما سبب التأخير فيرجع إلى أنه قد دخلت نفوس بعض كبار المسلمين وأمرائهم فى الأمم الإسلامية الأخرى شكوك من جهة مصر . فقد ظنوا أن علماء الأزهر ، إنما يقصدون من مؤتمر القاهرة الذى يدعون إليه أمراً آخر له باطن غير ظاهره . وأنهم إنما يثيرون مسألة حماية الخلافة. . لا خوفاً على الخلافة وإشفاقاً على كلمة الإسلام كما يدعون ، بل لغرض آخر . . هو نقل الخلافة من شاطئ البوسفور إلى شاطئ النيل وضم أريكة الخلافة إلى أريكة الملك فى عابدين وفى رأس التين » .

هكذا إذن فاحت رائحة الدوافع السياسية فى موضوع الخلافة من

بعيد . . لم يكن السؤال : ماذا ؟ . . ولكن السؤال هو : من ؟ لمصلحة من ؟ هذه هي القضية .

* * *

وعند هذه النقطة لم يكن أحد يدرى بعد بما يفعله شيخ شاب فى مدينة المنصورة ، شيخ اسمه على عبد الرازق . إن هذا الاسم لم يكن يعنى بالنسبة لمشايخ الأزهر سوى أشياء محدودة . إنه يعنى فقط أن الشيخ على عبد الرازق ، هو واحد من أسرة عبد الرازق ، المشهورة بثرائها المادى والفكرى . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الاسم يعنى أيضاً أن صاحبه من خريجى الأزهر — من علماء الأزهر — ويعمل قاضياً شرعياً بمحكمة المنصورة . هذا كل ما يعنيه اسم على عبد الرازق بالنسبة للأزهر ، وبالنسبة للملك فؤاد . . حتى تلك الأيام المبكرة فى سنة ١٩٢٧ . .

فى تلك الأيام كان الشيخ على عبد الرازق يضع اللمسات الأخيرة فى كتاب جديد له — فى الواقع هو بحث أكثر مما هو كتاب . إن الشيخ على عبد الرازق — وهو يراجع الصفحات الأخيرة للكتاب — لم يكن يعلم أن كتابه هذا سوف يصبح أسطورة فى التاريخ السياسى الحديث لمصر . كتاب أسطورة . ولكنه ليس كذلك بعد . إنه الآن مجرد كتاب . مجرد صفحات يراجعها الشيخ على عبد الرازق فى منزله بالمنصورة ، قبل أن يرسلها إلى مطبعة مصر بالقاهرة .

إن على عبد الرازق يراجع صفحات كتابه بدقة متناهية . إنه يعلم أنه يكتب فى موضوع خطير . يعلم أنة أول من يجرؤ على الكتابة فى هذا الموضوع . يعلم أنه بمجرد أن يخرج الكتاب من يده . فإنه لن يستطيع تعديله ولا التراجع عنه . لهذا يختار كلماته بحرص ويحدد أدلته بدقة وحيث يحتاج الأمر إلى دليل واحد فإنه يقدم عشرة ، ليس أقل من عشرة ، حتى لايكون فى رأيه محل لشك .

لقد اختار الشيخ على عبد الرازق عنواناً محدداً لكتابه . .العنوان هو « الإسلام وأصول الحكم– بحث فى الخلافة والحكومة فى الإسلام » .

من هنا يبدأ المؤلف فى شرح الخلافة وطبيعتها . إنه يرى أن الخلافة هى عند معظم المسلمين « . . رياسة عامة فى أمور الدين والدنيا نيابة عن النبى صلى الله عليه وسلم ». فالخليفة له على المسلمين « الولاية العامة ، والطاعة التامة ، والسلطان الشامل » . وبناء على ذلك أصبح السلطان هو : « خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أيضاً حمى الله فى بلاده ، وظله الممدود على عباده » . إن ولايته على المسلمين عامة ومطلقة . إنه وحده « له الأمر والنهى وبيده وحده زمام الأمة ، وتدبير ما جل من شؤونها وما صغر . كل ولاية دونه فهى مستمدة منه وكل وظيفة تحته فهى مندرجة فى سلطانه ، وكل خطة دينية أو دنيوية فهى متفرعة عن منصبه ». إنه يحكم بغير شريك ولا نائب. إن قراراته لا تخضع للمراجعة أو الحساب .

وعندما يراجع على عبد الرازق آراء علماء المسلمين فى ذلك يجد أنهم انقسموا إلى مذهبين : فريق يرى أن الخليفة يستمد سلطته من الله تعالى ، فهو ظل لله وحاكم بأمره . هذا الفريق هو الأغلبية . ثم هناك فريق آخر – أقلية هذه المرة – يرى أن الخليفة يستمد سلطانه من الأمة . . بحيث تصبح هى مصدر قوته . .

ثم يتساءل على عبد الرازق : ما هو سند الخلافة ؟ هل هو القرآن ؟ السنة ؟ إجماع المسلمين ؟ إنه مبدئياً يقرر أن القرآن والسنة لم يتعرضا مطلقاً لموضوع الخلافة . إن الخلافة ليست – ولم تكن قط – حكماً من أحكام الدين الإسلامى . كما أن الإجماع – أى اتفاق المسلمين – لم ينعقد قط على خليفة . بل إن التاريخ الإسلامى لا يكاد يعرف خليفة إلا وعليه خارجون ومتمردون .

إذن . . ما هو سند الخلافة ؟ ما زال السؤال قائماً .

يقول على عبد الرازق : « إن الخلافة فى الإسلام لم ترتكز إلا على أساس القوة الرهيبة وإن تلك القوة كانت — إلا فى النادر — قوة مادية مسلحة . فلم يكن للخليفة ما يحوط مقامه إلا الرماح والسيوف ، والجيش المدجج والبأس الشديد، فبتلك دون غيرها يطمئن مركزه ، ويتم أمره . .

« . . قد يسهل التردد فى أن الثلاثة الأول من الخلفاء الراشدين مثلا شادوا مقامهم على أساس القوة المادية ، وبنوه على قواعد الغلبة والقهر ، ولكن أيسهل الشك فى أن علياً ومعاوية رضى الله عنهما لم يتبوءا عرش الخلافة إلا تحت ظلال السيف ، وعلى أسنة الرماح ، وكذلك الخلفاء من بعد إلى يومنا هذا . . » .

ثم يضرب على عبد الرازق مثلا بقصة مبايعة يزيد بن معاوية بن أبى سفيان للخلافة . لقد وقف أحد المبايعين خطيباً فى الحفل وقال : « أمير المؤمنين هذا » ، وأشار إلى معاوية . . « فإن هلك فهذا » وأشار إلى يزيد « . . فمن أبى فهذا » ، وأشار إلى سيفه . .

إن على عبد الرازق يرى أن النظرة الدينية إلى الخلافة قد دفعت الحكام إلى الاستبداد والظلم . وسهلت عليهم العدوان والبغى . لهذا فإنه « .. ليس بنا من حاجة إلى تلك الخلافة لأمور ديننا ولا لأمور دنيانا . ولو شئنا لقلنا أكثر من ذلك ، فإنما كانت الخلافة ولم تزل نكبة على الإسلام وعلى المسلمين » . .

* * *

فى هذه السطور الأخيرة لخص على عبد الرازق القسم الأول من رأيه . ما زال هناك قسم ثان . إنه يخصص هذا القسم لبحث مكان الحكومة فى الدين الإسلامى . .

إنه يتساءل : أكان محمد صلى الله عليه وسلم نبياً . أم كان نبياً وزعيماً سياسياً ؟ إنه يسجل مبدئياً أن هذا الموضوع لم يناقشه أحد من قبل بصراحة . ولكن المسلم العامى يعتقد — مع ذلك — أن النبى

كان ملكاً رسولا . . وأنه أسس بالإسلام دولة سياسية مدنية . . كان هو ملكها وسيدها . هل هذا صحيح ؟

يقول على عبد الرازق : إن النبي لم يكن إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين . . لاتشوبها نزعة ملك ، ولا دعوة لدولة . بكلمات أخرى : إن محمداً نبى . . فقط . إنه لم يكن ملكاً ، ولا حاكماً ، ولا زعيماً سياسيًّا . إن الفرق بين الاثنين خطير . لأن سلطة محمد – النبي – هى سلطة دينية ، يستخدمها فى سبيل الله والدين . أما سلطة محمد – الزعيم السياسى – فهى سلطة سياسية يستخدمها فى سبيل الناس والدنيا . حاشا لله . إن محمداً لم يكن قط كذلك. لم يكن مطلقاً زعيماً سياسيًّا . إن القرآن صريح فى منعه النبي من أن يكون حفيظاً على الناس ولا وكيلاً ، ولا جباراً ، ولا مسيطراً . إنه – حتى – ليس من حقه أن يكره الناس على الإيمان بالإسلام . لهذا كان النبي يكرر دائماً للمؤمنين : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » .

وإذا كانت زعامة النبي إذن زعامة أساسها الدين لاالسياسة ، فإن هذه الزعامة – يقول على عبد الرازق – قد انتهت بموته ، وليس لأحد من بعده أن يخلفه فى زعامته . لايصح . لايجوز .

إن الصحيح إذن أن الزعامة التى توجد بعد النبي هى زعامة أخرى . زعامة من نوع جديد . زعامة مدنية سياسية . زعامة الحكومة والسلطان . . وليست زعامة الدين . زعامة سوف تبحث من الآن فصاعداً فى مملكة تقيمها ، ودولة تشيدها . . وحكومة تنشئها . زعامة سوف تهتم بالدين – صحيح – ولكنها سوف تهتم أيضاً بالإمارة والأمراء . بالوزارة والوزراء . بالقوة والسيف . . بالدنيا والناس . . بالجاه والثروة . .

والسؤال الآن : لماذا أصر الحكام بعد وفاة النبي وطوال ألف سنة – على استخدام لقب « الخليفة » وهم يقصدون بذلك « خليفة رسول الله » ؟

يقول على عبد الرازق إن السبب كان يرجع فى البداية إلى أن هذا اللقب له روعة . . وفيه قوة . . وعليه جاذبية . . كان الحكام الأوائل فى حاجة إليها لتدعيم الدولة الإسلامية الناشئة .

ولكن . . سرعان ما اختفى هذا السبب وحل محله سبب جديد . لقد أصبحت لسلاطين المسلمين مصلحة سياسية فى استخدام هذا اللقب بمعناه الدينى فى أغراض سياسية . لهذا استطاع السلاطين أن يروجوا بين المسلمين أن « طاعتهم من طاعة الله . . وعصيانهم من عصيان الله » . هذا كذب . هذا افتراء ولكن «تلك جناية الملوك واستبدادهم بالمسلمين ، أضلوهم عن الهدى ، وعموا عليهم وجوه الحق ، وحجبوا عنهم مسالك النور باسم الدين ، وباسم الدين أيضاً استبدوا بهم ، وأذلوهم وحرموا عليهم النظر فى علوم السياسة . . وباسم الدين خدعوهم وضيقوا على عقولهم . . وضيقوا عليهم أيضاً فى فهم الدين ، وحجروا عليهم فى دوائر عينوها لهم ، ثم حرموا عليهم كل أبواب العلم التى تمس شئون الخلافة . .

« كل ذلك انتهى بموت قوى البحث ونشاط الفكر بين المسلمين . . فأصيبوا بشلل فى التفكير السياسى ، والنظر فى كل ما يتصل بشأن الخلافة والخلفاء » .

* * *

إلى هنا أصبح رأى على عبد الرازق واضحاً تماماً : لا خلافة فى الإسلام . هناك دين . . وهناك سياسة . هناك إسلام . . وهناك سلطان . إن السلطان يستخدم الدين دائماً لخدمته . . هذه سياسة . هذه جريمة . . هذه جناية . جناية على الدين لمصلحة السياسة . إنها جناية يجب أن يحاسب عليها ملوك المسلمين وسلاطينهم ولا يحاسب عليها الدين الإسلامى نفسه . .

منتهى الوضوح . منتهى الجرأة . ولكنها ليست منتهى الكتاب . ليست بعد .

إن على عبد الرازق بعد أن كشف طبيعة الدين . . وموقف الدين من الخلافة . . اتجه إلى نقطة أخرى : طبيعة الملوك أنفسهم . الآن انتهى الدين فى كتاب على عبد الرازق . انتهى الدين . . وبدأت السياسة . .

يقول الشيخ فى كلمات من نار « إن ذلك الذى يسمى عرشاً لا يرتفع إلا على رؤوس البشر ، ولا يستقر إلا فوق أعناقهم ، وإن ذلك الذى يسمى تاجاً لا حياة له إلا بما يغتال من قوتهم ، ولا عظمة له ولا كرامة إلا بما يسلب من عظمتهم وكرامتهم . .

« إن الغيرة على الملك تحمل الملك على أن يصون عرشه من كل شىء قد يزلزل أركانه أو ينقص من حرمته أو يقلل من قدسيته . لذلك كان طبيعياً أن يستحيل الملك وحشاً سفاحاً وشيطاناً مارداً . . إذا ظفرت يداه بمن يحاول الخروج عن طاعته وتقويض كرسيه . .

« وإنه لطبيعى كذلك فى الملك أن يكون عدواً لدوداً لكل بحث ولو كان علمياً يتخيل أنه قد يمس قواعد ملكه ، أو تهب من تلقائه ريح الخطر ، ولو كان بعيداً . .

« من هنا نشأ الضغط الملوكى على حرية العلم ، واستبداد الملوك بمعاهد التعلم كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا .

ولا شك أن علم السياسة هو من أخطر العلوم على الملك ، بما يكشف من أنواع الحكم وخصائصه وأنظمته إلى آخره . . لذلك كان حتماً على الملوك أن يعادوه وأن يسدوا سبيله على الناس . .

« إن هذا هو السبب فى أن حظ العلوم السياسية كان عند علماء المسلمين أسوأ حظ ، وأن وجودها بينهم كان أضعف وجود ، فلسنا نعرف لهم مؤلفاً فى السياسة ولا مترجماً . . ولا نعرف لهم بحثاً فى شىء من أنظمة الحكم ولا أصول السياسة اللهم إلا قليلا » .

نعم . هذا هو السبب . الملوك هم السبب . السلطة هى السبب . الاستبداد هو السبب . محاربة الملوك لحرية الفكر هى السبب .

* * *

الآن ، بعد أن انتهى على عبد الرازق من كتابه ، أصبح واضحاً تماماً ما يريده . لقد قام الشيخ على بتعرية الخلافة من قناعها الديني . لقد فضح أساليب السياسة في استخدام الدين لحساب أغراضها . لقد كشف دور الملوك في استغلال الدين والخلافة معاً . . ضد الحرية والتفكير والعلم .

الآن انتهى الشيخ على عبد الرازق من تأليف كتابه . لم يعد أمامه سوى كتابة المقدمة . بعدها سوف يبدأ طبع الكتاب فوراً في القاهرة . .

ولأن على عبد الرازق يعلم أن في مصر ملكاً ... ملكاً يسعى للخلافة .. ملكاً يسعى للخلافة الآن — الآن أكثر من أي وقت مضى — لهذا كله . . ولأسباب أخرى كثيرة . . اختار المؤلف سطرين محددين يقدم بهما كتابه . سطرين يقولهما المؤلف لنفسه بصوت عال : أشهد أن لا إله إلا الله ، ولا أعبد إلا إياه ، ولا أخشى أحداً سواه . له القوة والعزة ، وما سواه ضعيف ذليل . .

المنصورة في يوم الأربعاء ٧ رمضان سنة ١٣٤٣هـ أول أبريل سنة ١٩٢٥ م .

* * *

بعد هذا السطر ، أرسل على عبد الرازق كتابه إلى المطبعة ، ثم عاد يستأنف حياته العادية في المنصورة : يصلى ، يقرأ ، يحكم بالعدل ، ويعيش في هدوء .

ولكن الهدوء سوف يستمر في حياة علي عبد الرازق حتى الساعة العاشرة والربع فقط من صباح يوم ١٥ يونيو .

ثم : الجحيم

٦

شيوخ.. ضد الشيخ!

« . . يقول العبد الفقير إلى مولاه ، الغنى بفضله عمن سواه ، محمد بن نجيب المطيعى الحنفى : قد ظهر فى هذا الزمان كتاب اسمه (الإسلام وأصول الحكم) نسب تأليفه إلى الشيخ على عبدالرازق القاضى بمحكمة المنصورة الشرعية حالا ، فاطلعت عليه . فوجدنا أنه لم يذكر فى كتابه هذا رأياً إيجابياً ينسبه لنفسه ويقيم عليه البرهان . بل كل ما قاله فى هذا الكتاب قضايا سالبة وإنكار محض لما أجمع عليه المسلمون أو نص عليه صريحاً فى الكتاب العزيز أو السنة النبوية ، واستند فى إنكاره إلى السفسطة العقلية والآراء الظنية والأدلة الشعرية ، مع أن تلك المسائل التى أنكرها وأنكر أدلتها مسائل فقهية شرعية لايجوز الخوض فيها بمجرد العقل » .

هذه مقدمة واحد من الكتب الكثيرة التى بدأت تتدفق إلى أسواق القاهرة بسرعة عقب صدور كتاب على عبد الرازق . كتب تهاجم — تهاجم كلها — بقسوة . . بعنف . . بغير رحمة . إن كتاب على عبد الرازق يدافع عن الدين ضد السياسة . ولكن الكتب التى تهاجمه تستغل الدين لمصلحة السياسة . إن على عبد الرازق قال إن الخلافة ليست ديناً . . إن السلطان هو موظف مدنى . . إن الملوك استبدوا بالمسلمين. الآن . . سوف تخرج الكتب سريعاً ضده لتقول إن الخلافة ركن من أركان الدين . . إن السلطان ظل الله على الأرض . . إن الملوك من حقهم أن يمارسوا القتل ويحكموا بالسيف ويستمروا بالإرهاب .

إن أول هذه الكتب التى خرجت تهاجم على عبد الرازق هو كتاب بعنوان . . . (حقيقة الإسلام وأصول الحكم) . تأليف « . . الأستاذ العلامة الكبير صاحب الفضيلة الشيخ محمد نجيب المطيعى ، مفتى الديار المصرية سابقاً » . إن الألقاب رنانة . . والاسم ضخم . . والوظيفة السابقة ساحرة ، مفتى الديار المصرية .

وإذا كان المؤلف قد سبق له أن شغل وظيفة المفتى . . فإن هذا لايعطى آراءه فى الكتاب أى وزن خاص . . ولا يجعلنا نعطى كتابه أية قيمة استثنائية . إن سلطة القاضى أو المفتى أو شيخ الإسلام هى بتعبير الشيخ محمد عبده « . . سلطة مدنية قررها الشارع الإسلامى ، ولايسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه ، أو ينازعه فى طريق نظره » .

لا حرج من المناقشة إذن . . ولا ضرر .

إن المفتى السابق الشيخ المطيعى — مبدئياً — يستغرب إصدار على عبد الرازق كتابه . إنه ينكر عليه أن يكون مسلماً « . . فضلا عن أن يكون عالماً وقاضياً بين المسلمين . . حاشا وكلا ، ثم حاشا وكلا » !

إنه يعتبر أن كتاب على عبد الرازق هو « . . كفر صريح يجب على قائله أن يتوب منه ليرجع إلى حظيرة الإسلام » . تهمة خطيرة سوف تلتصق من الآن فصاعداً بعلى عبد الرازق .

إن على عبد الرازق أخرج كتابه فى هدوء وكتبه بدقة ، وقدمه بمنطق ، ودعمه بالأدلة . . ولكن الكتب التى ترد عليه ليس فيها هدوء ولادقة ولامنطق ولاأدلة . فيها أولا . . اتهامات . اتهامات شخصية تجريح شخصى .

إن الشيخ المطيعى يردد فى كتابه أكثر من مرة أن على عبد الرازق « طفل . . أعمى الله بصيرته . . أبله . . يعبث بالأمن العام . . يسعى فى الأرض بالفساد . . يطعن الملوك . . يعتدى على الأمة . . ظالم . . معاند . . كاذب . . ملحد . . كافر . . فاسق . . ! »

هذه مجرد عينة من قائمة الاتهامات الطويلة التى نشرها الشيخ نجيب المطيعى ضد على عبد الرازق فى كتابه . اتهامات لامناقشة فيها . لاموضوعية . مجرد تجريح شخصى .

بعد التجريح يقول الشيخ المطيعى : « . . إن الخلافة هى أكمل أنواع الحكومات » . إنها لم تكن سبباً فى نكبات المسلمين ، ولكن نكبات المسلمين « . . إنما جاءت على المسلمين من مخالفتهم ما تقتضيه الخلافة » . إن الخلافة هى – فى رأى الشيخ نجيب المطيعى « . . منصب شريف عظيم ونعمة كبيرة من نعم الله تعالى ، ونعم الله كالطيور إن أكرمت قرّت وإن أهينت فرّت » .

بل إن الشيخ يكتب بأسلوب خطابى « . . إن الخلافة الإسلامية هى الشبح المخيف الذى لو رآه أشجع رجل فى أوربا ، ولو فى منامه ، لقام فزعاً يرتجف قلبه ، وتعلوه رعدة كما ارتعد العصفور بلله القطر ، أوكما ارتعد المحموم خالطته البردة » !

لهذا يقول الشيخ إن « . . للمسلمين حاجة شديدة – لدينهم ودنياهم – إلى الخلافة » .

لماذا ؟ وكيف؟ ومن قال ذلك ؟

يقول الشيخ إن القرآن هو الذى أوجب قيام الخلافة . . كيف يا شيخ ؟ إلى أى نص فى القرآن تستند ؟

يردّ الشيخ بأنه « . . لايلزم أن يذكر القرآن لفظ الخلافة » وإنما يكفى أن يقول القرآن : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

هل هناك علاقة بين الخلافة وبين تلك الآية الكريمة ؟ نعم . . هناك علاقة . هكذا يقول الشيخ . يقول إنه طالما أن الآية تنص على « أولى الأمر » فإن هذا معناه أنه لابد للأمة الإسلامية من أن يكون لها ولاة أمور يقومون بأمورها الدينية والدنيوية . ثم إن ولاة الأمور مأمورون

بأن يسند كل واحد منهم كل ما يتعلق بأمور المسلمين لمن هو أهل له . بناء على هذا يصبح من الواجب على المسلمين « . . أن يجعلوا منهم حاكماً واحداً أو أكثر ليكون وكيلاً عنهم في أن يقوم بأمورهم الدينية والدنيوية ». وحيث إن تعدد الحكام يؤدى إلى الانقسام فإن هذا يدل « . . على أن الخليفة لابد أن يكون واحداً » .

كيف أقحمت كلمة « الخليفة » يا شيخ ؟ كيف خرجت بهذا التفسير العجيب ؟ لا إجابة !

إن الشيخ يقول فقط إن الخلافة واجبة . إن الخليفة لابد له من استخدام القوة . وحتى لو استخدم الخليفة قوته فى ظلم الناس فإن هذا ليس قرينة ضد الخليفة . . لأن الله سوف يحاسبه على ذلك فى الآخرة ! بل إن من حق الخليفة أن يجعل حكمه وراثياً مثلما فعل معاوية مع ابنه . . لأن هذا العمل من معاوية إنما كان « . . خوفاً من افتراق الكلمة » . إن معاوية هدد بالسيف للحصول على مبايعة ابنه ، ولكن الشيخ يعلن أننا يجب أن نثق بمعاوية وبأن هدفه كان بلا شك هدفاً نبيلا ، و « . . يجب ألا نظن فى معاوية غير ذلك . . حاشا لله لمعاوية » !

هكذا يدافع الشيخ عن الحكم الوراثى . عن الظلم . عن الإرهاب عن السيف . عن غيرة الملوك على عروشهم . إن على عبد الرازق قال فى كتابه إن غيرة الملوك على عروشهم كانت تدفع كلاً منهم إلى أن يستحيل وحشاً سفاحاً وشيطاناً مارداً .

ولكن الشيخ نجيب المطيعى يرد « . . لنفرض أن كل هذا قد وقع . ولكن . . مما لا شك فيه أن كل ذلك قد انطوى بساطه وعفت آثاره » . يعنى — يقول الشيخ — عفا الله عما سلف ! هنالك استبداد ووحشية وإرهاب وقتل ، ولكن . . عفا الله عما سلف ! ليس هذا فقط ، بل إن الشيخ يحاول جرجرة على عبد الرازق إلى معركة صريحة مع الملك

فؤاد شخصيًّا فيقول متحدياً « . . ليذكر المؤلف لنا أمة من الأمم الإسلامية المتمدينة . . ملكها متصف بالأوصاف التي وصف بها المؤلف الملوك . . . . وهل يمكن للمؤلف أن يأتينا بملك في هذا العصر وما قبله من مائة سنة من ملوك الأمم المتمدينة ضغط على حرية العلم واستبد بمعاهد التعلم أو ضغط على علم السياسة ؟ . . . لاشك أنه إذا حاول أن يبحث بكل ما أوتيه من قوة — وظاهره على ذلك عمال جريدة السياسة وكل ملحد على وجه الأرض وكل اشتراكي وكل شيوعي وكل بلشفي — ما وجد إلى ذلك سبيلا » .

إن الشيخ يدافع إذن عن كل الملوك — خصوصاً في السنوات المائة الأخيرة — ومن بينهم طبعاً السلطان العثماني عبد الحميد الذي كان نموذجاً لعصره في الاستبداد .

والشيخ يتهم على عبد الرازق بأنه اشتراكي وأن من يؤيده لابد أن يكون عاملا في جريدة « السياسة » الناطقة بلسان حزب الأحرار الدستوريين ، أو يكون ملحداً أو اشتراكيًّا ، أو شيوعيًّا ، أو باشفيًّا .

هكذا — بهذا الأسلوب وتلك اللهجة — ينطلق الشيخ نجيب المطيعي في كتابه ضد على عبد الرازق ، إنه يستنكر من على عبد الرازق الدعوة إلى تقييد سلطات الملوك أو محاسبتهم ، فيقول متسائلا : « . . أيريد المؤلف أن يكون الناس فوضى لا ملك لهم ولا رئيس . . أم يريد أن الملك يترك ملكه لمن يعبث به ، ويترك أمته لمن يستولي عليها ، ويترك عرشه فتتسلط عليه الرعاع وسفلة الناس » .

إن الشعب عند الشيخ رعاع . إنه سفلة الناس. إن الملك من حقه أن يفعل كل شيء ضد هؤلاء .. ضد هؤلاء السفلة ، طالما يهدف بذلك إلى المحافظة على عرشه. إن من حقه أن يستبد بشعبه ويقف أمام من يعارضه . بل إن من يعارض الملك هو عند الشيخ « . . يجب محاربته ويجب قتله ما لم يتب » .

وفى النهاية يختتم الشيخ نجيب المطيعى كتابه — ٤٥٤ صفحة فى مناقشة على عبد الرازق بهذه الكلمات « كنا نود . . . ألا يظهر المؤلف بمظهر الإلحاد والمكابرة والعناد ، وأن يسلك سبيل الهدى والرشاد ، ولا يخوض فيما خاض فيه فألحق بنفسه عيباً لا يمحى ، وعاراً لا ينسى ، ودنساً لايطهر . إلا بدموع التوبة والاستغفار والندم على ما وقع فيه » !

* * *

ولكن على عبد الرازق لايتوب ، ولا يندم . إنه مستمر . إن كتابه مستمر فى الانتشار وآراءه مستمرة فى الإقناع . لهذا يستمر سيل الكتب فى الصدور ضده . كتاب بعنوان (نقد علمى لكتاب الإسلام وأصول الحكم) يقول فيه مؤلفه إنه كتبه فى الرد على كتاب على عبد الرازق « خيفة أن تتلقفه طلبة العلم كدأب الناس فى تلقف الجديد . فيقع من أذهانهم موقع الصدأ من الحديد » كتاب آخر بعنوان (الرد على على عبد الرازق . . المسمى : سهام اليقين فى نحر أعداء الدين) ، « أصدره مؤلفه للرد على تلك السفاسف التى اوث بها الشيخ على عبد الرازق صحائف كتبه فخرج بها على إجماع المسلمين وفقد ثقة المواطنين »

ثم كتاب ثالث ورابع ، وخامس ، وسادس و . . . شىء واحد يجمع بين هذه الكتب كلها . شخص واحد تخاطبه الكتب كلها : الملك فؤاد . ملك مصر . إن الملك هو الذى يسعى لإعادة الخلافة ، هو الذى يريد أن يصبح خليفة للمسلمين . إنه بالطبع أول من يستفيد ، لهذا فهو أول من يخاطبه المتاجرون بالدين .

مثلا . . فى كتاب (سهام اليقين فى نحر أعداء الدين) يهتم المؤلف للغاية بتقديم « خالص الإجلال والتواضع إلى مولانا الملك المحبوب الذى حفظ الدين من عبث العابثين ، وإلحاد الملحدين ، وحفظ كرامة العلم والعلماء ، ونبتهل إلى الله ونضرع إليه أن يدعم مولانا الملك مؤيداً للدين ورافعاً لشأن الإسلام والمسلمين » .

متى رفع الملك فؤاد شأن الإسلام والمسلمين ،؟ لم يرد المؤلف .

مرة أخرى .. فى كتاب أصدره الشيخ محمد الخضر حسين بعنوان (.. نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) يهدى المؤلف كتابه إلى « .. خزانة حضرة صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر المعظم » مع رجاء منه — من الخضر حسين — بأن يتفضل عليه الملك فؤاد .. بالقبول ، والله يحرس ملكه المجيد ، ويثبت دولته على دعائم العز والتأييد »

وبينما السطر الأول فى كتاب على عبد الرازق هو أشهد أن لا إله إلا الله ، ولا أعبد إلا إياه ، ولا أخشى أحداً سواه » . فإن السطر الأول فى كتاب الخضر حسين هو الحمد لله والصلاة على النبى وآله وصحبه و « .. كل من حرس شريعته بالحجة أو الحسام وأحسن الحراسة »! الكلام موجه طبعاً للملك فؤاد !

ثم ..

يقول الشيخ إنه لاغضاضة مطلقاً فى أن يكون الخليفة ظلّ الله فى أرضه ، فهذا القول« .. ليس بمستنكر » وبينما يقول على عبد الرازق إن استبداد الخلفاء والحكام أدّى إلى انحطاط العلوم السياسية عند المسلمين. فإن الشيخ الخضر حسين يردّ بأن هذا غير صحيح .. وأن هناك أدلة مفحمة على ذلك . من هذه الأدلة التى اعتبرها الشيخ قاطعة . ما قاله أبو سفيان لعثمان رضى الله عنه : « لاترد على من قبلك فيرد عليك من بعدك » . وقول معاوية بن أبى سفيان : « إنى لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا » .

هذه هى العلوم السياسية فى نظر الشيخ !

وبينما يقول على عبد الرازق إن الخلافة كانت تعتمد على السيف دائماً فى قيامها واستمرارها . فإن الشيخ الخضر يرد بأن هذا غير صحيح ، لأن « .. على الأمة اليقظة أن تتخذ من التدابير مايمكنها من مشاركة الخليفة فى تعريف هذه القوة المسلحة حتى إذا خاب ظنها فيه وأخذه

الاستبداد بالإثم وجدت الطريق إلى اتقاء بأسه وكف يده أمراً ميسوراً » .

كيف تتقى الأمة بأس الخليفة بعد أن يستبد ؟ لم يوضح الشيخ شيئاً . . فالمسألة لاتعدو أن تكون حبراً على ورق .

وبينما يقول على عبد الرازق إن الخلافة لا تستندإلى أى دليل من القرآن أو السنة ، ومن ثم فهى مسألةدنيوية ترجع إلى الناس أنفسهم . . يرد الشيخ الخضر بأنه « . . لاغضاضةعلى حكم الخلافة إذا لم يرد به القرآن يتلى ، لأن . . . بحث الخلافة يرجع إلى النظر فى حكم عملى لا فى عقيدة » .

إن هذا ليس رداً . . ولكنه تأكيد لآراء على عبد الرازق : الخلافة ليست من أحكام الدين . . ولكنها من أحكام الدنيا . . .

ولكن الشيخ يرى أنه ليس من الضرورى أن يتفق علماء المسلمين على اختيار الخليفة دائماً « يكفى اتفاق جماعة من أهل الحل والعقد بحيث تكون كلمتهم العليا على من خالفهم » . كيف تكون كلمتهم عليا إلا بالقوة ؟ لم يجب الشيخ عن السؤال .

وبينما على عبد الرازق يقول إننا لانحتاج إلى الخلافة لأمور ديننا ولا لأمور دنيانا ، وإن الخلافة كانت ولم تزل نكبة على الإسلام والمسلمين . . فإن الشيخ الخضر يقول : إن «الخلافة حقيقة شرعية ، وأمر لا غنى للمسلمين عنه » ولكنه فى الصفحة التالية مباشرة يتحسر قائلا إنه « . . لو أن المتأخرين من سلاطين آل عثمان أعطوا للخلافة شيئاً من حقوقها وراعوا ما أمر الله من وسائل استقامتها لما انفرط عقد هذه الممالك الإسلامية وأصبحت كل قطعة منها تحت سلطة أجنبية تستبد عليها فى حكمها » . .

سبحان الله !

إن الشيخ يقول بأن سلاطين بنى عثمان -الذين كانوا خلفاء أيضاً - لم يعطوا الخلافة شيئاً من حقوقها . إن المبدأ صحيح إذن ،

فالخليفة يستطيع أن يستبد وأن ينحرف. ماهو الحل وقتها ؟ لا حل . .
برغم ذلك . . يرد الشيخ بأنه لاغنى للمسلمين عن الخلافة . . « ما داموا يطمحون إلى عز مكين وحياة مستقلة » . لكن . إذا كان استقلال المسلمين يتوقف إذن على الخلافة . فلماذا لم تستطع الخلافة أن تحافظ على استقلال مصر والسودان وعدن وفلسطين واليمن يوم احتلتها بريطانيا . لماذا لم تحافظ على استقلال سوريا ولبنان وتونس والمغرب والجزائر يوم احتلتها فرنسا ؟ أسئلة لا يجيب عنها الشيخ .

والواقع أن الشيخ لم يجب طوال كتابه عن أى سؤال رئيسى : لماذا الخلافة ؟ على أى نص فى القرآن أو السنة تستند ؟ لماذا يستبد الملوك؟ لماذا لا يحاسب الشعب سلطانه ؟ لماذا . . لماذا ؟

لا شىء . إن الشيخ يقول فقط إن سكوت على عبد الرازق أنفع من كلامه . . إنه إباحى . . إنه ينتمى لطبقة أصحابها « لايدخلون فى حساب علماء الشريعة وإن وضعوا على رؤوسهم عمائم وجلسوا بمجلس الفتوى أو الحكم بين الناس » .

إن الشيخ يتناسى أن على عبد الرازق أصبح شيخاً وأصبح عالماً وأصبح قاضياً . . بمقتضى شهادة حصل عليها من الأزهر نفسه ، ومنحها له علماء الأزهر أنفسهم .

إن على عبد الرازق لن الآن – منذ نادى برأى مختلف – لم يعد شيخاً ولا عالماً ولا قاضياً ولا صالحاً للفتوى .

* * *

إن جوهر المسألة إذن هو كلمتان اثنتان : رأى مختلف . جوهر المسألة هو رأى نشره على عبد الرازق فى كتاب من مائة صفحة ، وصدرت ضده كتب فى أكثر من أربعة آلاف صفحة !

إن رأى على عبد الرازق قد يكون خطأ . . وقد يكون صواباً . . إنه صواب لكن . . لنفرض أنه خطأ فلماذا إذن تحدث كل هذه الثورة

ضده ؟ لماذا يتسابق المتاجرون بالدين إلى اتهامه فى دينه وعلمه ووطنيته وأشياء أخرى كثيرة ؟ هل الإسلام يمنع الرأى ؟ يمنع الاختلاف ؟ يمنع الاجتهاد ؟ أبداً . مطلقاً . الإسلام أكبر من كل ما يريد له المتاجرون به . ولكن الإسلام أصبح تجارة يوم جردته السياسة من أهدافه . وحولته لخدمة أغراضها الخاصة

* * *

إن الإسلام ينادى بالحرية . ويقوم على الحرية .

يوم كانت لنا حرية . . كانت لنا إمبراطورية . يوم فقدنا هذه الحرية . . أصبحت تستعمرنا كل إمبراطورية . .

إن الحرية ليست مجرد حرية فى مواجهة الآخرين ، إنها أولا حرية فى مواجهة أنفسنا . نحن أسوأ أعداء لأنفسنا . لقد أصبحت السلطة مغرية وأصبح السلطان مخيفاً . يوم كان السلطان خادماً للشعب . انتشر الإسلام . . وحينما أصبح الشعب خادماً للسلطان خسر الإسلام . هذه هى الحقيقة التى تقف خلف كل الصراع بين على عبد الرازق ومعارضيه .

الحرية . الحرية فى مواجهة أنفسنا . الحرية . الحرية فى مواجهة السلطان ، الخليفة ، الملك .

حينما قال أبو بكر : « أيها الناس . لقد وليت عليكم ولست بخيركم . فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقوِّمونى » . . كان الخليفة يسير بين الناس مطمئناً . وحينما قال عبد الملك بن مروان للناس : « من قال لى بعد مقامى هذا : اتق الله . . ضربت عنقه » ، كان الخليفة يسير بين الناس مذعوراً .

حينما تساءل عمر بن الخطاب : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » . . وصل الإسلام إلى حدود مصر والشام والعراق وحينما أصبح القاضى العثمانى يقول : «أمر السلطان لا يخالف ويجب طاعته » . . تدهور الإسلام .

حينما قال عمر بن الخطاب : « من رأى منكم فىّ اعوجاجاً فليقومه بحد السيف » . . كان الحاكم أميراً للمؤمنين . وحينما قال أبو جعفر المنصور : « أيها الناس . . إنما أنا سلطان الله فى أرضه » كان الحاكم نكبة على المؤمنين .

حينما كان الفرد العادى يستطيع أن يقول لأمير المؤمنين : « والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد سيوفنا » ، كان الإسلام قوة . وحينما أصبح الفرد العادى يخشى سيف السلطان أصبحت أرض الإسلام مستعمرة لكل قوة .

حينما كان الدين عبادة . . كانت أرضه أماناً . وحينما أصبح الدين تجارة . . أصبحت أرضه بغير أمان . إنها بغير أمان لأن المفاهيم انقلبت ، والقيم تدهورت ، والسيف طغى ، والسلطان ظلم ، والحرية اختفت . إن الحاكم لم يعد خادماً . . أصبح ذئباً . والشعب لم يعد سيداً . . أصبح أغناماً . إن النفاق لم يعد عيباً . أصبح مطلباً . إن الرأى لم يعد اجتهاداً . . أصبح جريمة .

لهذا كان عنف المعركة ضد على عبد الرازق . معركة عنيفة . شرسة . . ضارية .

إن الرجل يقف وحده ضد الملك . . ضد حاشية الملك . . ضد السياسة . . ضد المتاجرين بالدين لمصلحة السياسة إنه يجتهد برأيه فى الوقت الذى لا يريد فيه السلطان أى رأى. السلطان الضعيف لا يريد أى رأى . السلطان القوى هو وحده الذى يريد الحقيقة . . ويبحث عن الرأى . . ويشجع حرية الرأى. حينما كان الخليفة الإسلامى قوياً كان يؤمن بالشورى ويمشى بين الناس بسيطاً بلا سيف ولا خوف ولا رهبة ولا بطانة ولا استبداد . كان الخليفة يريد العدل ويزهد فى السلطة ، ويعزف عن العقاب ، ويشجع الاجتهاد . لكن . حينما بدأت الخلافة تخاف ، والدولة الإسلامية تضعف - منذ عشرة قرون وهى تضعف -

بدأ الانحلال يصيب الجسم والعقل معاً . لم تعد هناك . . خلافة واحدة ، أصبحت ثلاثة : الأمويون فى الأندلس ، والفاطميون فى شمال إفريقيا والإخشيديون فى مصر . يومها فقط — بعد الانحلال فقط أقفل باب الاجتهاد فى الدين . عشرة قرون وهو مقفل — لا اجتهاد . لا رأى . لاحرية فى إبداء الرأى .

إن على عبد الرازق يجىء الآن ليساهم — مع قليلين قبله — فى فتح باب الاجتهاد فى الدين ، فى إبداء الرأى . فى المطالبة بحرية الرأى . إنه الآن يواجه كل هذا الرصيد المتعفن الذى ترسب عند المتاجرين بالإسلام طوال عشرة قرون سابقة.إنه يواجه الطابور وحده . . السلطان وحده . إنه — لأول مرة — يجرد الخلافة من عباءتها الواسعة التى ارتدتها طوال فترة الانحلال والتدهور . الدين لله . . والسلطان للدنيا . الدين نقدسه . . والسياسة نراجعها . الدين نؤمن به . . والسلطان نحاسبه.

لهذا خرجت كل الكتب تهاجم على عبد الرزاق . إن كل مؤلف يحاول أن يكون أكثر قسوة ، أعنف هجوماً ، أعلى صوتاً . . من الآخرين . الأعلى هو الأفضل . على عبد الرازق إباحى . . زنديق . . فاسق . . ملحد . إنه كافر . . كافر . نحن معك أيها السلطان ، أيها الملك . يحيا الملك . يحيا صاحب السيف . يحيا ذو الجلالة . النفاق . النفاق . . النفاق !

ولكن النفاق وحده لايؤذى . إنه لايؤذى إلا إذا أصبح فى يده سيف . . لحظتها فقط يستطيع النفاق أن يؤذى ويجرح ويذبح ، ويقتل . و . . . . .

سوف يحصل المنافقون قريباً على سيفهم . . ضد رقبة على عبد الرازق !

الملك يتحرك

كان كتاب الشيخ على عبد الرازق قنبلة مدوية ، قنبلة شديدة الانفجار قنبلة سوف يسمع دويها كل مواطن فى مصر . . ابتداء من أصغر كناس . . إلى أكبر رأس : الملك فؤاد .

إن الناس فى الشوارع بدأت تتهامس . . ماذا يفعل الملك فؤاد ؟

إن الكتاب ليس فيه اسم فؤاد . ولكن الناس تعرف بالضبط من الذى يهمه الأمر فى هذا الكتاب كله . إنه الملك فؤاد . . شخصياً .

إن الملك فؤاد كان يحكم مصر وقتها بدستور أوقف العمل به ، وبرلمان معطل ، وسعد زغلول زعيم الأغلبية خارج الحكم ، ووزارة ائتلافية يرأسها أحمد زيورباشا . وزارة تضم حزب الاتحاد وحزب الأحرار الدستوريين .

وعندما أصدر الشيخ على عبد الرازق كتابه ، لم يكن يعلم أن هذا الكتاب سوف يتسبب فى أخطر أزمة وزارية يشهدها التاريخ المصرى الحديث بسبب كتاب واحد . أزمة لن ينجو من ذيولها أحد .

إن هناك أطرافاً كثيرة يهمها أمر هذا الكتاب . هناك الملك الذى يسعى للحصول على لقب خليفة المسلمين . وهناك الإنجليز الذين يساعدونه من وراء الستار بحرص وحذر . وهناك المتاجرون بالدين ، الذين يسهلون أمام الملك دائماً مهمة استخدام الدين فى أغراضه السياسية ثم . . هناك السياسيون الذين يحصلون من الملك على عمولة مقابل كل زيادة فى سلطته . إن كل طرف من هؤلاء له أنصار وخصوم و : قدر من السلطة . ولكن الرأس الكبير بينهم جميعاً ، ويعمل نيابة عنهم جميعاً ، هو الملك فؤاد .

مرة أخرى يتهامس الناس : ماذا يفعل الملك فؤاد ؟ ماذا ؟

لم يمر وقت طويل قبل أن يتحرك الملك . حركة متوحشة شرسة .

إن رئيس الوزراء مسافر فى أوربا . لهذا يستدعى الملك يحيى باشا إبراهيم رئيس الوزراء بالنيابة . إن كلمات الملك تحمل مزيجاً من التنبيه والإنذار والتهديد والوعيد والإغراء .

قال الملك بحدة لرئيس الوزراء بالنيابة : كيف يجرؤ واحد من الأزهر على المطالبة بقيام الجمهورية فى مصر ؟

وبسرعة جاء الرد : أستغفر الله ! أستغفر الله يا صاحب الجلالة! من الذى يجرؤ على هذا الإلحاد ؟ هذا الكفر ؟ !

ويزمجر الملك غاضباً : هذا ما حدث . هذا ما حدث يا باشا . هذا ما حدث يا باشا فى ظل وزارتك .

ويتلعثم رئيس الوزراء بالنيابة وهو يقول : لكن . . لكن يا صاحب الجلالة . . أقصد . . أرجو عفوك وغفرانك . . إننى سمعت أن الكتاب يهاجم الخلافة . ولكنه لايدعو إلى قيام الجمهورية . .

ويصيح الملك بسرعة : وما الفرق ؟! ما هو الفرق يا باشا ؟الهجوم على الخلافة هو تمهيد للدعوة لقيام الجمهورية ألم يحدث هذا فى تركيا ؟

– نعم . . يا صاحب الجلالة .

– إذن . . ما رأيك ؟

– الرأى رأيك يا صاحب الجلالة . .

– رأيى أن هذا الكتاب تمرد . .

ولكن رئيس الوزراء بالنيابة يسكت قليلا قبل أن يصحح للملك جملته : لا ياصاحب الجلالة . هذا الكتاب ليس تمرداً . إنه ثورة !

ويهدأ الملك قليلا بعد هذه المزايدة من رئيس وزرائه ، ثم يقول :

نعم يا باشا . ثورة وليس تمرداً . ثورة ضد الدين . هذا الكتاب إلحاد . زندقة . كفر .

وبسرعة ، يلتقط رئيس الوزراء كلمة الملك الأخيرة . نعم . لقد فهم الآن بالضبط طلبات الملك : لهذا يرد : نعم . . نعم . . مضبوط يا صاحب الجلالة . إذن . . نصدر بياناً بذلك باسم الحكومة .

ولكن الملك يقاطعه : باسم الأزهر يا باشا . . وليس باسم الحكومة . المؤلف عالم فى الأزهر . دع أصدقاءنا إذن يرتبون هذا الموضوع .

* * *

ولم يكن رئيس الوزراء بالنيابة — ولا الأصدقاء فى الأزهر — ينتظرون سوى هذه الإشارة من الملك . بعدها عرف كل واحد مهمته بالضبط . المهمة عاجلة : إعلان كفر الشيخ على عبد الرازق . تأديب الشيخ على عبد الرازق . من الناحية المبدئية سوف يبدأ التعريض بالمؤلف على صفحات الصحف . صحيفة معه . . وخمس ضده . فى الواقع أن صحيفة واحدة فقط كانت تقف مع الشيخ ، هى صحيفة « السياسة » الناطقة بلسان حزب الأحرار الدستوريين . جريدة « الأخبار » الناطقة باسم الحزب الوطنى : ضده . جريدة « الاتحاد » الناطقة باسم حزب الاتحاد . . ضده . جريدة « البلاغ » الناطقة باسم حزب الوفد . . ضده . جريدة « كوكب الشرق » الناطقة باسم الوفد أيضاً . . ضده .

إن الدوافع تختلف : أحزاب خارج السلطة . . تهاجم المؤلف لمجرد التشفى فى حزب الأحرار الدستوريين ، لأن عائلة عبد الرازق من كبار مناصريه ، ولأن الحزب مشترك فى الوزارة القائمة . وحزب فى السلطة — هو حزب الاتحاد — شكله القصر الملكى منذ أشهر قليلة لكى ينطق بلسان ضد الأحزاب الأخرى . . وهو الآن يسدد بعض ديونه للملك . إن الحقيقة ضائعة وسط كل هذا الهجوم ، ولكنها موجودة على أى حال .

إن عدداً من المثقفين مثلا يناقشون الأمر . إنهم – بتعبير أحمد شفيق باشا الرئيس السابق للدائرة الخديوية – يشمون فى الجو « . . رائحة الحكم على الشيخ على عبد الرازق بالردة والمروق من الإسلام » . لهذا عقدوا فى اليوم التالى اجتماعاً حضره ستة من أعضاء الرابطة الشرقية .

فى الاجتماع يضع أحمد شفيق باشا للحاضرين شرطاً أساسيًّا . إنه يقول لمحمود سالم بك : « . . إنه يجب على الشيخ على عبد الرازق أن يعلن فى دفاعه أنه لايقصد مطلقاً إقامة جمهورية فى مصر » . إن أحمد شفيق يعلم أن هذا هو بيت القصيد فى الموضوع كله . وأن الملك ربما يغفر للشيخ جرأته او صدر منه هذا الإعلان .

ولكن الملك لايغفر . بل إن نفس هؤلاء الأعضاء الستة فى الرابطة الشرقية قدموا فى اليوم التالى التماساً إلى الملك فؤاد لحماية حرية الفكر . التماساً قالوا فيه : « ياذا الجلالة . . نلجأ إليك – وأنت رب الدستور – لتحول دون استباحته فى أقدس ما كفل وصان ، وهى حرية الفكر . إن مؤاخذة مؤلف عالم – وفوق ذلك قاض – لنشره بحثاً علميًّا حوى آراءه الخاصة فى مسائل دينية أو اجتماعية حسبما وصل إليها بحثه فى تأويل مصادرها ومراجعها . . هى مصادرة لحرية الفكر المكفولة بدستورنا المصرى . . والمقدسة لدى جميع الأمم المتمدينة ، ورجوع بمصر إلى عهد الظلمة » .

التماس مؤدب . . مهذب . . ولكنهم قدموه للشخص الخطأ . إن الملك فؤاد هو الخصم . . فكيف يكون هو القاضى ؟

النتيجة : رفض الالتماس . إذا كانت هناك سلطة فى مصر . . فالملك فوقها . إذا كان هناك دستور . . فالملك هو الذى يعطله . إذا كانت هناك حرية . . فالملك هو الذى يصادرها . إذا كان هناك شخص واحد صاحب رأى . . فالملك هو الذى يؤدبه . لاشىء أكبر من الملك . لا شىء ، ولا أحد ، سوى المندوب السامى البريطانى .

إن الاتصالات تبدأ . المشاورات تستمر . مشاورات مع المندوب السامى البريطانى . مع الملك . مع حزب الاتحاد . مع الأزهر .

اجتماعات . لجان مغلقة .

الإلحاد هو التهمة المناسبة .

الجو معبأ .

الوسيلة تحددت .

الشائعات تنتشر .

اليوم يوم الاثنين .

إنها الساعة التاسعة .

تجمعات . أصوات من الغضب . الرشوة تشترى الغضب .

موجات منافقة . السلطة تغرى بالنفاق .

الموجة الأولى : مظاهرة .

أول مظاهرة ضد المؤلف . الساعة العاشرة والربع . اليوم ١٥ يونيو . الجامع الأزهر . عرائض تكتب . الموت لأعداء الدين . على عبد الرازق عدو الدين . إحدى العمائم تتحرك . تحت العمة شيخ . الشيخ يخاطب المتظاهرين . سياسة . . لادين . السياسة الآن . الدين فيما بعد . السياسة تتكلم . الموت لأعداء الإسلام .

الموجة الثانية : مظاهرة . اليوم يوم الثلاثاء .

مظاهرة ثالثة ، رابعة . عرائض تكتب . مقالات تنشر . كتب تصدر . السياسة تتحرك . الدين هو الضحية .

الجريمة : رأى . الانتقام مطلوب . المندوب السامى ينتظر . الملك يشرف . رئيس الوزراء بالنيابة يتابع . الكابوس . رائحة الكراهية . طعم الخوف . خوف من كتب أخرى . ذعر من رأى ينشر . ذكريات خليفة كان يستبد وملك يريد أن يستبد . صيحات غضب . أصوات . أصوات شرسة .

اجتماعات . مزيد من الاجتماعات .
مشاورات .
القرار : محاكمة على عبد الرازق .
المحكمة : هيئة كبار العلماء . التهمة : الإلحاد . الحاضرون :
٢٥ . الرئاسة : شيخ الجامع الأزهر . موعد الجلسة : ١٢ أغسطس ١٩٢٥
اليوم : الأربعاء . العاشرة صباحاً . المكان : الإدارة العامة للمعاهد الدينية .
الأزهر . الإجراءات : يعلن المتهم للحضور .

* * *

حضر المتهم . . .
— السلام عليكم .
لا رد .
مبدئياً : الدين يقول : « إذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » .
لا دين .
— السلام عليكم .
— اقعد عندك .
هكذا صاح رئيس الاجتماع فى المتهم . جلس المتهم .
ما الذى يراه على عبد الرازق أمامه ؟ هيئة كبار العلماء . إنهم لايبدون كباراً ، ولا علماء . ولكن الملك يرى غير ذلك . ما هذه الوجوه ؟ من قبل رأى على عبد الرازق هذه الوجوه ضاحكة . صديقة . ولكنها الآن ليست كذلك . إنه يرى أمامه وجوهاً يغطيها الغضب . . التربص . . الغليان . . الثورة . . الكراهية . . الحقد . . الانتقام . . الرغبة فى الانتقام . . الشر . إنه يرى الشر أمامه فى الأعين ، على الشفاه ، وداخل القلوب . إنه يرى أمامه أسناناً حادة . . لا عقولاً حادة .
سكوت . فتحت الجلسة .

ـ الكتاب ده . . كتابك ؟ !

هكذا لوح شيخ الجامع الأزهر محمد أبو الفضل ـ رئيس الاجتماع ـ بكتاب « الإسلام وأصول الحكم » موجهاً السؤال إلى على عبد الرازق .

ـ نعم .

ـ وهل أنت مصمم على كل ما فيه ؟

ـ نعم .

وبكل طاقة الغضب فى العالم ، ألقى شيخ الجامع بالكتاب على المنضدة أمامه وصاح فى المتهم .

ـ هذا الكتاب كله ضلال وخطأ . ولكنا نحن كتبنا لك عن سبع نقط فيه . . ولو أن فيه غيرها كثير كلها ضلال أيضاً . وسأقرأ لك هذه النقط السبع التى تضمنها كتابك :

١ ـ إن الكتاب جعل الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة لاعلاقة لها بالحكم والتنفيذ فى أمور الدنيا .

٢ ـ وإن الدين لايمنع من أن جهاد النبى صلى الله عليه وسلم كان فى سبيل الملك لا فى سبيل الدين ولا لإبلاغ الدعوة إلى العالمين .

٣ ـ وإن نظام الحكم فى عهد النبى كان موضوع غموض وإبهام أو اضطراب وموجباً للحيرة .

٤ ـ وإن مهمة النبى كانت بلاغاً للشريعة مجرداً عن الحكم والتنفيذ .

٥ ـ وإنكار اجماع الصحابة على وجوب نصب الإمام ، وعلى أنه لابد للأمة ممن يقوم بأمرها فى الدين والدنيا .

٦ ـ وإنكار أن القضاء وظيفة شرعية .

٧ ـ وإن حكومة أبى بكر والخلفاء الراشدين من بعده رضى الله عنهم كانت لادينية .

والآن . . هل عندك ما تقوله ؟

أجاب الشيخ المتهم على عبد الرازق فى هدوء وابتسام : إنى كتبت

مذكرة للرد على هذه النقط أرجو أن تسمحوا لى بقراءتها . وأما إذا أردتم أن تكون المناقشة شفوياً فأنا مستعد . ولكن . .

— لكن إيه ؟ !

— لكن . . هناك نقطة سابقة لهذا كله أرجو أن تسمحوا لى بذكرها . إننى لاحظت الآن أن هناك محاضر تكتب فى الجلسة . . وأريد أن أسجل أولا أن هذه الهيئة — هيئة كبار العلماء — ليس لها صفة قانونية تخول لها محاكمتى بمقتضى قانون الأزهر . إننى لم أحضر اليوم اعترافاً لهذه الهيئة بصفة قانونية . . وإنما حضرت أمامها باعتبار أنها هيئة فيها أساتذتى ومشايخى وكثير من علماء الأزهر الذين أعتقد أن لهم على أدبياً أن أجيب دعوتهم وأناقشهم فيما يريدون .

الشيخ محمد بخيت : هذا دفع يجب الفصل فيه .

الشيخ محمد شاكر : يجب ضم الفصل فى هذا الدفع إلى الموضوع .

همهمة . مشاورات . رءوس تتقارب . رئيس الاجتماع يصيح : طيب . . اخرج بره . . حننده لك .

* * *

— المتهم على عبد الرازق . ادخل .

دخل المتهم . القرار : إن الهيئة ترى أنها مختصة بنظر المسألة . . وترفض الدفع الفرعى .

الشيخ على عبد الرازق : إنى أحترم هذا القرار . ومع احترامى فإننى مصمم على ما قلته .

— طيب . . اقرأ ردك على الاتهامات السبعة .

— أولا ، أحب أن أقرر أننى عندما ما ألفت هذا الكتاب . . كنت أقوم ببعض ما يجب على كل عالم من البحث والتماس الحقائق . إن شهادة العالمية — التى حصلت عليها من الأزهر — ليست إلا صفة توجب على صاحبها البحث والتماس الحقائق . إننى أعتقد أن الوسيلة الوحيدة

التي يمكن الاعتراض بها على أى بحث علمى إنما هى المناقشة فيه والمجادلة بالحسنى . إن سماحة الدين الإسلامى وعدالة القوانين لايتيحان لأحد أكثر من هذا الحق .

بعد ذلك أتناول النقط السبع .

النقطة الأولى : اتهامى بأننى جعلت الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة . غير صحيح . بل إن الكتاب كله لاتوجد فيه كلمة « روحية » مطلقاً فى سياق الكلام عن الشريعة الإسلامية . النقطة الثانية : اتهامى بأننى كتبت أن الدين لايمنع من أن جهاد النبى كان فى سبيل الملك . غير صحيح . الكتاب يقول عكس ذلك تماماً . اقرأ صفحة ٧٠ . النقطة الثالثة : اتهامى بأننى قلت إن نظام الحكم فى عهد النبى كان موضوع غموض وإبهام . غير صحيح . ليس فى الكتاب كله مثل هذا الرأى ، ولا مثل هذه الجملة .

النقطة الرابعة ، والخامسة ، السادسة . . السابعة . . »

هكذا قرأ الشيخ على عبد الرازق رده المكتوب على اتهامات هيئة كبار العلماء . رد مفحم . الآن . . رفعت الجلسة للتشاور .

* * *

نفس اليوم .

الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً . فتحت الجلسة . الحكم : « حكمنا نحن شيخ الجامع الأزهر بإجماع أربعة وعشرين عالماً معنا من هيئة كبار العلماء بإخراج الشيخ على عبد الرازق أحد علماء الجامع الأزهر والقاضى الشرعى بمحكمة المنصورة الابتدائية الشرعية ومؤلف كتاب (الإسلام وأصول الحكم) من زمرة العلماء . تعلن الأسباب بعد إعدادها . فيما بعد » !!

* * *

إن الأسباب لم تكن مهمة فى نظر الذين أصدروا هذا الحكم فى

جلسة واحدة . الحكم فقط هو المهم . الحكم فقط هو الذى ينتظره الملك . إن على عبد الرازق احتاج إلى خمس عشرة سنة من الدراسة المتواصلة لكى يحصل من الأزهر على شهادة العالمية . ولكنه هنا قد تجرد منها فى جلسة واحدة استمرت ساعتين . منتهى الاحترام للعلم ، للحرية ، للبحث ، للرأى ، للعقيدة ، للدين .

ولم تكن شهادة العالمية هى الشيء الوحيد الذى تجرد منه الشيخ على عبد الرازق أيضاً بمقتضى هذا الحكم . إن الحكم يقضى أيضاً « . . بمحو اسم المحكوم عليه من سجلات الجامع الأزهر والمعاهد الأخرى ، وطرده من كل وظيفة وقطع مرتباته فى أى جهة كانت وعدم أهليته للقيام بأية وظيفة عمومية . . دينية كانت أو غير دينية » .

أهذا دين . . أم سياسة ؟ عقوبة . . أم انتقام ؟ فصل . . أم تشريد ؟ علم . . أم كراهية للعلم ؟ حرية . . أم مصادرة للحرية ؟ إسلام . . أم استغلال للإسلام ؟

كانت هناك هذه الأسئلة — الإجابات معروفة — وكانت هناك أسئلة أخرى . جريدة البورص إجيبسيان « أرسلت مندوبها إلى الشيخ على عبد الرازق عقب الحكم لسؤاله . حديث صحفى . أول حديث صحفى للشيخ الكافر المطرود .

سؤال : ما هو سبب الحكم عليك . . فى رأيك ؟

— الكتاب .

— ما هى الفكرة الرئيسية فى الكتاب ؟

— الفكرة التى حكم على من أجلها هى أن الإسلام لم يقرر نظاماً معيناً للحكومة ، ولم يفرض على المسلمين نظاماً خاصاً يجب أن يحكموا بمقتضاه . بل ترك لنا مطلق الحرية فى أن ننظم الدولة طبقاً للأحوال الفكرية والاجتماعية والاقتصادية التى توجد فيها مع مراعاة تطورنا الاجتماعى ومقتضيات الزمن .

– ما هو رأيك فى الخلافة ؟

– إنها ليست نظاماً دينياً . والقرآن كما فى كتابى لم يأمر بها ولم يشر . وقد قلت أيضاً إن الدين الإسلامى برىء من نظام الخلافة برىء بالأخص من الأدواء التى عصفت به وعملت كثيراً على تأخير المسلمين فى سيرهم نحو التقدم . لقد شلت الخلافة كل تطور فى شكل الحكومة عند المسلمين نحو النظم الحرة . . خصوصاً بسبب العسف الذى أنزله بعض الخلفاء بتقدم العلوم السياسية والاجتماعية ، فإنهم قد صاغوها فى خير قالب يتفق مع مصالحهم .

سؤال : إذن فالإسلام يترك المسلمين أحراراً فى إنشاء الحكومة التى يرونها وأن يبحثوا من الوجهة العلمية عن أحسن شكل للحكومة يسد حاجتهم ؟

– نعم بلا ريب . . وإنى أتحدى أى عالم يقول بعكس ذلك ويؤيد رأيه بأى نص من القرآن أو بحديث واحد . وليس الخليفة خليفة النبى . وهذا مع الأسف – خطأ شائع جداً : لقد أثبت فى كتابى أن النبى لم يكن قط ملكاً وأنه لم يحاول قط أن ينشئ حكومة أو دولة ، فقد كان رسولا بعثه الله ، ولم يكن زعيماً سياسياً .

سؤال : هل أصدرت هذا الكتاب بسبب دوافع سياسية ؟

– لقد زعم خصومى أنى أردت بكتابى أن أخدم مصالح حزب سياسى معين ، وهذا اختلاق محض . أنا لست عضواً فى أى حزب . . وقد لبثت دائماً بعيداً عن المعارك الداخلية وعن كل نشاط سياسى . إنى رجل دين ورجل شريعة . ولم يحملنى على وضع كتابى إلا غاية علمية . وقد كتبت بعيداً عن كل أهواء السياسة . . يكفى أن تقرأ الكتاب لتجزم بأن حزباً سياسياً لا يمكن أن يستخرج منه أية فائدة . . ولكن أشخاصاً

من ذوى الغايات والنيات السيئة هم الذين شوهوا آرائى — ومسخوا النصوص ليقولوا بعكس ذلك .

سؤال : ما رأيك فى الحكم الذى أصدرته عليك هيئة كبار العلماء؟

— إنه حكم باطل مخالف للدستور ، لأن الدستور قد كفل حرية الرأى لكل مصرى ، وهذا الحكم ليست له سابقة واحدة .

— هل يمكن أن نعتبرك زعيماً لمدرسة ؟

— لست أعرف ماذا تعنى بزعيم مدرسة . فإن كنت تريد بهذا أن لى أنصاراً فيسرنى أن أصرح لك بأن الكثيرين يرون رأيى — لا فى مصر وحدها — بل فى العالم الإسلامى بأسره .

— أما زلت مصمماً على آرائك ؟

— نعم .

— هل تستمر فى نشر آرائك ؟

— لا ريب. فإنى — برغم الحكم — لا أزال مستمراً فى آرائى وفى نشرها لأن الحكم لا يعدل طريقة تفكيرى .

* * *

فى اليوم التالى قرأ على عبد الرازق آراء كثيرة تؤيد الحكم ضده . . ولكنه قرأ أيضاً رأياً آخر يعارض الحكم . رأيا كتبه طه حسين — بلا توقيع — ونشره فى جريدة « السياسة » .

كتب طه حسين يقول مخاطباً على عبد الرازق : « . . إيه أيها الطريد من الأزهر تعال إلىّ نتحدث ضاحكين عن هذه القصة المضحكة . قصة كتابك .والحكم عليه وعليك وطردك من الأزهر . . ما بال رجال الأزهر لم يقضوا على كتابك بالتمزيق . . فقد كان يلذنا أن نرى نسخة فى صحن الأزهر أمام (باب المزينين) أو فى ناحية من هذه الانحاء

التي لايأتيها ولا يصل إليها المفكر ولا يسعى إليها إلا الأخيار والأبرار : ثم تضرم فيها النار !

« دعنا نتحدث فى حرية ولاتكن أزهرياً ، فقد أخرجت من الأزهر . .

« ثم تعال نجد ، فقد آن لنا أن نجد هذه الهيئة التي أخرجتك من الأزهر ؟ ما سلطتها الدينية ؟ على أى آية من كتاب الله تستند ؟ أركن هى من أركان الإسلام كالإمامة ؟ كلا ، إنما هى بدعة لايعرفها القرآن الكريم ولاتعرفها السنة المطهرة ولا النظم الإسلامية . . هي بدعة فليس لحكمها صفة دينية ، ومن قال غيرَ ذلك فهو آثم . نعم آثم لأن هذا النظام يشبه أن يكون من نظم النصارى لامن نظم المسلمين . للنصارى مجلس للأساقفة ومجلس الكرادلة ولهم البابا ، أما نحن فليس لنا من هذا كله شيء . فسلام عليك أيها الطريد . . وإلى اللقاء » !

* * *

هذا ما كتبه طه حسين : سلام على الشيخ على عبد الرازق .

وفى الوقت نفسه نشرت جريدة « السياسة » كلمة للشيخ على عبد الرازق يقول فيها : « لاجرم أننا تقبلنا مسرورين إخراجنا من زمرة العلماء ، وقلنا كما يقول القوم إذا خلصوا من الأذى قالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الأذى وعافانا » .

كانت كلمة على عبد الرازق خليطاً من التهكم والسخرية والهدوء .

ولكن هذا الهدوء لن يأتى أبداً . إن الحكم بإخراج الشيخ على عبد الرازق وطرده وحرمانه من جميع الوظائف المدنية والدينية ، لم يكن نهاية المطاف ولا كان نقطة النهاية .

فى الواقع أنه من هذه النقطة – بالضبط – سوف تبدأ الأزمة الكبرى !

٧

الجميع.. ضد الملك!

كان وزير العدل جالساً على كنبة وثيرة فى مكتبه مع أصدقاء له .. عندما دخل عليه سكرتيره ليعرض عليه مجموعة قرارات وزارية لتوقيعها .

لحظتها سأل الوزير سكرتيره : هل وقع المستشار الإنجليزى هذه القرارات الوزارية ؟

وأجاب السكرتير : نعم .

فأشار الوزير المصرى إلى ختمه الموضوع على المكتب وقال لسكرتيره: « الوزير عندك على المكتب . . اختم به » ! !

كان الوزير هو إبراهيم باشا فؤاد وزير الحقانية (العدل) فى وزارة مصطفى باشا فهمى . . الذى ظل رئيساً اوزراء مصر ١٣ سنة قبل الحرب العالمية الأولى .

إن هذه الواقعة تصور بالضبط مكانة الوزير ، ومكانة الحكومة المصرية كلها فى أثناء وجود الاحتلال البريطانى لمصر : مندوب سام لبريطانيا ومستشارون إنجليز فى يدهم السلطة الفعلية . . ثم وزارة تقف على المسرح تصدر القرارات وتتخذ الإجراءات . فى حين أن أعضاءها هم فى الواقع مجرد « أختام » فى أيدى سلطة الاحتلال .

إن شيئاً من هذا تكرر حدوثه فى أثناء الأزمة التى تسبب فيها كتاب الشيخ على عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) . لقد أصدرت هيئة كبار العلماء حكمها بإخراج الشيخ على من زمرة العلماء . حكم لا يقبل الطعن ولا الاستئناف أمام أى جهة أخرى . حكم نهائى . حكم يقضى

أيضاً بمحو اسم على عبد الرازق من كل وظيفة يشغلها . . وقطع مرتباته فى أى جهة كانت . . وعدم أهليته للقيام بأية وظيفة عامة . . دينية كانت أو غير دينية .

وهنا بدأت الأزمة الحقيقية تتفجر . . !

إن هيئة كبار العلماء هى هيئة دينية . إنها هيئة لا يحق لها أن تعاقب الشيخ على عبد الرازق على رأى نشره فى كتاب . لكن . . لنفرض جدلا أن من حقها أن تعاقبه . .فهل من حقها أن تفصله من وظيفته المدنية؟ إن على عبد الرازق يعمل قاضياً شرعياً لمحكمة المنصورة الابتدائية . إنه — بناء على ذلك — موظف مدنى تابع لوزارة الحقانية (العدل) . . وليس تابعاً للأزهر . . فهل تقوم الوزارة بفصله من وظيفته المدنية تنفيذاً لقرار هيئة كبار العلماء ؟

هذه هى المشكلة التى بدأت تفرض نفسها على مجلس الوزراء . . مشكلة خلقت أول أزمة سياسية كبرى فى مصر بسبب كتاب .

إن الوزارة التى تحكم كانت برئاسة أحمد زيور باشا . . ولكن رئيس الوزراء هذا كان يستجم فى أوربا عند ما نشبت الأزمة السياسية . وكان القائم بعمله هو يحيى باشا إبراهيم رئيس الوزراء بالنيابة . .

ولأن الجميع يعرفون أن الملك فؤاد شخصياً . . ومن خلفه سلطة الاحتلال يقفون وراء الحكم الذى صدر ضد الشيخ على عبد الرازق.. فقد تم إبلاغ الحكم فوراً . . لرئيس الوزراء بالنيابة لتنفيذه .

وعلى الفور اجتمع مجلس الوزراء لبحث المشكلة الخطيرة .

فى المجلس قال إسماعيل صدقى وزير الداخلية : إن هيئة كبار العلماء ليس من سلطتها القانونية أن تصدر هذا الحكم أصلا ضد الشيخ على عبد الرازق . إن كل ما يسمح به قانون الأزهر هو معاقبة عالم الأزهر على التصرفات الشخصية التى تشينه . ولكن قانون الأزهر — الذى كان إسماعيل صدقى عضواً فى اللجنة التى وضعته منذ سنوات — لا يسمح

بمحاكمة عالم أزهرى بسبب رأى علمي قاله .

وعندما أعلن و زراء آخرون فى المجلس اقتناعهم أيضاً بعدم اختصاص هيئة كبار العلماء . . قرر يحيي باشا إبراهيم رئيس الوزراء بالنيابة إغلاق باب المناقشة قائلا : علينا أن ننتظر إلى حين إبلاغنا رسمياً بالحكم وأسبابه ..

وكان مفهوماً أنه عند وصول الحكم وأسبابه فإن رئيس الوزراء بالنيابة سيقوم بجمع مجلس الوزراء من جديد لاستئناف بحث المشكلة . . ولكنه لم يفعل . إنه يعلم أن الملك فؤاد شخصياً يريد تنفيذ كل العقوبات ضد على عبد الرازق بأقصى سرعة . . وبغير مناقشة . النتيجة : قام رئيس الوزراء بالنيابة بإرسال الحكم إلى وزير الحقانية عبد العزيز باشا فهمى . مع تأشيرة منه بتنفيذ الحكم فوراً . معنى ذلك : فصل الشيخ على عبد الرازق من عمله كقاض وحرمانه من أية حقوق له وعدم تشغيله بأية وظيفة حكومية أخرى .

وأسقط فى يد عبد العزيز فهمى !

إنه وزير للحقانية فى الحكومة التى تحكم مصر بلا دستور . . ولكنه فى الوقت نفسه رئيس لحزب الأحرار الدستوريين الذى يدعو للدستور ! تناقض . .

إنه يعلم أن الحكم ضد على عبد الرازق يجب تنفيذه ، لأن وراءه الملك فؤاد شخصياً . . ولكنه يعلم أيضاً أن الحكم يجب عدم تنفيذه لأنه مصادرة لحرية الرأى . تناقض ثان . .

إنه لو نفذ الحكم فسوف يضحى بأسرة عبد الرازق التى تساند حزب الأحرار الدستوريين . . ولو لم ينفذ الحكم فسوف يغضب الملك والمندوب السامى البريطانى . تناقض ثالث . .

إنه إذا عارض الحكم كوزير فلن يسكت الملك . . وإذا لم يعارضه كمثقف فلن يستريح ضميره . تناقض رابع .

إذا امتنع عن تنفيذ الحكم فعليه أن يضحى بالوزارة . . وإذا وافق

على تنفيذه فعليه أن يضحى بمبدأ . مشكلة . أزمة . صراع . أخذ ورد . شد وجذب . .

والحل . . ؟

إن الحل الذى يرضى الملك فؤاداً هو رأس على عبد الرازق . ليس أقل من رأسه . . وإذا لم يكن رأسه فعلى الأقل كرامته . . هذا أضعف الإيمان !

والحل الذى يرضى على عبد الرازق هو استرداد كرامته . . وإذا لم يستطع كمصرى أن يحتفظ بكرامته فى بلده . . فعلى الأقل يحتفظ برأيه . هذا أبسط الحقوق ! .

هكذا كان على عبد العزيز فهمى أن يختار . إن اختياره لابد أن يكون واضحاً : قانون أم اعتداء على القانون ؟ وظيفة . . أم مبدأ ؟ حرية أم مصادرة للحرية ؟

إن البحر هائج . . والموقف مضطرب . . وأطراف الصراع ثائرة . . ولكن الاختيار صعب !

لهذا كله اختار وزير الحقانية أن يكسب الوقت . لقد قرر أن يعرض الأمر على لجنة قانونية فى قلم قضايا الحكومة . حل وسط . لقد أرسل الوزير حكم هيئة كبار العلماء إلى اللجنة طالباً الإجابة عن ثلاثة أسئلة :

أولا : هل تختص هيئة كبار العلماء بمحاكمة عالم أزهرى بسبب رأى علمى له ؟

ثانياً : إذا كانت تختص . . فهل يتعارض هذا الاختصاص مع نص الدستور بضمان حرية الرأى ؟

ثالثاً : إذا لم يتعارض الدستور مع اختصاص الهيئة .. فهل يتعارض مع تنفيذ العقوبة التبعية بإخراج العالم من وظيفته وقطع مرتباته وحرمانه من الدخول فى أية خدمة حكومية ؟

* * *

أسئلة محددة طلب وزير الحقانية الإجابة عنها من قلم قضايا الحكومة. إنها محددة . ولكنها فى النهاية حل وسط . إنه وسط . . لأن الكلمة الحاسمة لم يقلها أحد بعد .

ولكن . . لم يمر وقت طويل قبل أن تقال هذه الكلمة بأعلى صوت .

ففى اجتماع عاجل لمجلس الوزراء وجه يحيى باشا إبراهيم رئيس الوزراء بالنيابة سؤاله إلى وزير الحقانية . .

قال رئيس الوزراء : ماذا تم فى الحكم ياعبد العزيز باشا . . ؟

وزير الحقانية : لقد أحلته إلى لجنة قانونية لإبداء الرأى .

رئيس الوزراء : إبداء الرأى . . فى إيه ياباشا ؟

وزير الحقانية : فى مدى اختصاص هيئة كبار العلماء . .

رئيس الوزراء : الحكم ده مش عاوز رأى ياباشا . . عاوز تنفيذ . .

وزير الحقانية : ولكننى لا أستطيع تنفيذ حكم يحتمل أن يثبت بطلانه . .

رئيس الوزراء : ياعبد العزيز باشا . . الحكم ده لابد من تنفيذه مهما كانت الأحوال . . وفوراً . . !

وزير الحقانية : لا أستطيع يايحيى باشا .. قبل وصول رأى اللجنة .

عند هذا الحد ثار يحيى باشا إبراهيم رئيس الوزراء بالنيابة ودق منضدة الاجتماع بيده ، ثم نهض واقفاً ليصيح فى عبد العزيز فهمى وسط الجلسة : ده مش اسمه شغل يا عبد العزيز باشا . . ! احنا مش عارفين نشتغل مع بعض ! أنا رايح على المندوب السامى . . !

* * *

هكذا أعلن رئيس الوزراء بالنيابة صيحته القاضية وسط اجتماع مجلس الوزراء . . وخرج ثائراً من الاجتماع . هذا غير معقول . . هذا

مستحيل . . هذا كلام فارغ . . إنه وزير الحقانية يكلمه عن القانون . . ولكن الملك فؤاداً وسلطات الاحتلال لا يعرفان القانون . الملك فوق القانون . الملك يريد فصل على عبد الرازق . إرادة الملك هى القانون . فوق القانون . أقوى من القانون . إنها أقوى هذه المرة لأن سلطات الاحتلال وراءها . لهذا خرج يحيى باشا إبراهيم من اجتماع مجلس الوزراء لكى يتجه إلى أعلى سلطة فى مصر : المندوب السامى البريطانى . بعد المندوب السامى يتجه إلى الملك فؤاد . السلطة الفعلية أولا . . الدمية ثانياً . إن المندوب السامى البريطانى فى مصر فى ذلك الوقت هو جورج اويد . . ولكن اويد فى لندن الآن ، ونائبه هو نيفل هندرسون . إذن . . ليذهب رئيس الوزراء بالنيابة إلى المستر هندرسون المندوب السامى بالنيابة . . ثم إلى جلالة المستر فؤاد . . ملك مصر بالنيابة عن بريطانيا .

إن مجلس الوزراء مازال مجتمعاً . . إنه فى حالة انتظار ومناقشة . . انتظار لعودة رئيس الوزراء بالنيابة . . ومناقشة للأزمة السياسية الكبرى التى بدأت الآن .

ولم تكن مناقشة الوزراء مجدية . لقد خرج الموضوع الآن من أيديهم منذ احتلت بريطانيا مصر والموضوع ليس فى أيديهم . الأختام فقط . . هى التى فى أيديهم . إنهم ليسوا سوى أختام فى يد المستعمر البريطانى . رئيسهم نفسه ليس سوى ختم فى يد المندوب السامى البريطانى الذى يجتمع معه الآن . الوزارة كلها لم تكن لها مهمة سوى أن تكون ختماً فى يد الملك فؤاد والمندوب السامى . .

فمنذ أن وقع حادث اغتيال السردار الإنجليزى فى ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، انطلقت سلطات الاحتلال البريطانى فى عملية تأديب واسعة للشعب المصرى . إن الحليف الطبيعى فى مثل هذه العملية هو الملك فؤاد . لهذا انطلق الاثنان معاً ضد الشعب . لقد خرج سعد زغلول — زعيم الأغلبية — من الحكومة ، وتشكلت وزارة جديدة برياسة أحمد

زيور باشا . لقد جاء زيور « لإنقاذ ما يمكن إنقاذه » على حد تعبيره . . تعبير مهذب بديل عن « تسليم ما يمكن تسليمه » . . إن المطلوب هو التسليم للإنجليز والملك . . والرجل جاء إلى رياسة الوزارة لكي ينفذ هذا الطلب بأمانة . . فلم يكن أحمد زيور زعيماً ولا سياسياً ولا رئيساً لحزب ولا صاحباً لرأى . كان مجرد موظف تأمره السلطة فيطيع . إنه لم يكن أكثر من رجل واحد من كثيرين يدخرهم المجتمع المصرى لمثل هذه المناسبات . إن المطلوب منه الآن أن يضرب الشعب . . ويضرب حزب الوفد — حزب الأغلبية — ويدعم نفوذ الاحتلال ونفوذ الملك . ولكى يكون لنفوذ الملك صوت واضح على المسرح أوعز فى يناير سنة ١٩٢٥ بإنشاء حزب جديد باسم « حزب الاتحاد » حزب لم تكن له قاعدة ولا سلطة ولا صوت إلا بقدر تعبيره عن رغبات الملك فؤاد .

لكن الملك فؤاد فوجئ عند إجراء الانتخابات أن الشعب يتمسك بزعامته . لقد استخدمت الحكومة كل وسائل الرشوة والإغراء والتهديد والفصل والتعيين لتجلب الأصوات لحزب الاتحاد وإبعادها عن حزب الوفد . ولكن النتيجة جاءت بعكس ما يتوقع الجميع . فلقد فاز حزب الوفد بأغلبية الأصوات ، ثم . . عندما اجتمع البرلمان فى يومه الأول انتخب سعد زغلول رئيساً له . عند هذا الحد تحرك الملك . . فأصدر مرسوماً بحل البرلمان . بهذا كان أقصر برلمان فى العالم . . إذ أن عمره لم يزد عن تسع ساعات !

الآن لا يوجد برلمان ، لايوجد دستور . يوجد فقط : احتلال ، وملك ، ووزارة ائتلافية من حزب الاتحاد وحزب الأحرار الدستوريين . إن الحزب الأول قام لمحاربة الدستور ، والثانى يدعو لاحترام الدستور . إنه تحالف غريب بين حزبين متناقضين . ولكن السياسة ليست فيها غرابة . فيها فقط . . مصلحة . وقد كان التحالف القائم بين الحزبين هو مجرد تحالف مصلحة . لقد أراد الملك أن يستعين بحزب الأحرار

الدستوريين على ضرب حزب الوفد . . فأشركه فى الوزارة وأراد حزب الأحرار الدستوريين أن يرث حزب الوفد فقبل الاشتراك فى الوزارة . وها هى ذى الوزارة تضم الآن قطبى الحزبين اللذين سيتركز الصدام بينهما بمناسبة كتاب الشيخ على عبد الرازق . الطرف الأول : عبد العزيز فهمى رئيس حزب الأحرار الدستوريين ووزير الحقانية فى الحكومة . الطرف الثانى : يحيى إبراهيم رئيس حزب الاتحاد ورئيس الوزراء بالنيابة .

وبالنسبة لعبد العزيز فهمى . . فلقد كان يعلم أن المعركة أمامه قاسية . إن السلطان — وتنابلة السلطان — اتحدوا جميعاً ضد الشيخ على عبد الرازق . إن الجريدة الوحيدة التى تدافع عن كتاب الشيخ على هى جريدة « السياسة » التى يرأس تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل ويكتب فيها طه حسين . ومقابل ذلك فإن كل الصحف الأخرى تهاجم على عبد الرازق . إن صحيفة « المقطم » الموالية للإنجليز تقول : « لا يصح أن يتهم قاض شرعى يبنى أحكامه على قواعد الدين الإسلامى بخروجه على هذا الدين ثم يستمر فى منصبه » .

إن جريدة « الأخبار » لسان حال الحزب الوطنى تتزعم الهجوم قائلة إن كتاب على عبد الرازق يمثل « . . طلشاً فى الرأى وإلحاداً فى العقيدة » . إنها فى مرة أخرى ترى فى الكتاب خروجاً على دين المسلمين . ومرة ثالثة تحرض الحكومة والملك ضد الشيخ قائلة بأعلى صوت : « هل الحكومة عاملة واجبها إزاء هذا الاعتداء الذى يواصله الملاحدة علانية على دين الدولة . . دين العرش ، دين الراية ، دين المليك ، دين أهل البلد ؟ إن المسلمين فى مصر متضرمة قلوبهم غيظاً من هذه الحال ، وإنهم لفى فرط التعجب بعد صمت الحكومة الذى طال واستطال » . وفى مرة رابعة تطلب الجريدة نفسها « إضرام النار فى موقدى الفتنة » .

هكذا بصراحة مطلقة — وصل الأمر إلى حد المطالبة بإحراق الشيخ

على عبد الرازق ومؤيديه . إن المرء ليعجب من أمر هؤلاء الناس . إن كلمة « النار » لاتعني بالنسبة لهم أكثر من كلمة . مجرد كلمة . إن أى شخص عاقل لايستطيع التحدث عن « النار » و « إضرام النار » بمثل هذا الاستخفاف . إننى لم أشاهد فى حياتى عملية إحراق شخص . ولكنى أستطيع أن أتصور ماذا يعنيه إحراق شخص . إنه يعنى : الرعب . . الكراهية . . البكاء . . الضحايا . . الأسرة . . الأقرباء . . الجروح . . الدماء . . الموت . إن الإحراق عندى عمل همجى . . بربرى . . متوحش . إنه هكذا بالنسبة لأى شخص عادى . ولكنه بالنسبة لجريدة الحزب الوطنى كان إجراء ضرورياً يتم بمقتضاه « إضرام النار فى موقدى الفتنة » . إجراء فيه تعذيب واستئصال وانتقام وتصفية وهمجية . ولكنه الآن أصبح إجراء عادياً تتم الدعوة إليه علناً . . لمجرد أن الخصم يقول رأياً مختلفاً !

هكذا إذن كان عنف الخصام . هكذا كان عبد العزيز فهمى وزير الحقانية يعلم مقدماً أنه فى وسط المعركة لن يجد أحداً واقفاً معه سوى حزبه وجريدة حزبه . أما الذين يقفون ضده فهم الإنجليز خلف الستار ، والملك فؤاد أمام الستار ، وحزب الاتحاد داخل السلطة ، وباقى الأحزاب خارج السلطة .

أما بالنسبة ليحيى إبراهيم رئيس الوزراء بالنيابة ورئيس حزب الاتحاد فإن الموقف يختلف . إنه — للحقيقة — ليس سوى صوت لسيده . إنه مجرد واجهة . مجرد أداة . إن الشعب يتندر عليه بقوله إن يحيى باشا هو رجل « . . شالوه انشال ، وحطوه فانحط » ! لقد أمروه بأن يكون رئيسا لحزب الاتحاد . . فأصبح رئيساً لحزب الاتحاد . وأمروه بأن يصبح رئيساً للوزارة بالنيابة . . فأصبح رئيساً للوزارة بالنيابة . إنه لا يدرى لماذا حطوه .. ولن يدرى فيما بعد لماذا «شالوه» . ولكنه الآن يدرى فقط أن عليه أن يتصرف فى مسألة على عبد الرازق حسب الأوامر التى

يتلقاها من المندوب السامى البريطانى ، ثم من الملك فؤاد .

وعندما عاد رئيس الوزراء بالنيابة من المقابلتين وجد زملاءه الوزراء مازالوا مجتمعين فى انتظاره . إن الترقب يغطى وجوههم ، والإحساس بالأزمة يسيطر على اجتماعهم ، ولكنه هو – يحيى باشا إبراهيم – يسبقه إلى الاجتماع إحساس بالنصر . إن الكلمات سوف تخرج من فمه الآن منتشية . . قوية . . حادة . . مشحونة بالتحدى .

وبلهجة التحدى هذه سأل رئيس الوزراء بالنيابة وزير الحقانية :

قلت إيه يا عبد العزيز باشا فى مسألة على عبد الرازق ؟

عبد العزيز فهمى : قلت إننا يجب أولا أن نعرف الرأى القانونى فى مدى اختصاص هيئة كبار العلماء لمحاكمة عالم فى الأزهر .

رئيس الوزراء : إذن . . يا عبد العزيز باشا . . لم يعد ممكناً أن نستمر فى العمل معاً . .

وتساءل وزير الحقانية مندهشاً : ماذا تقصد ؟

– أقصد أنك تستقيل . .

– وأنا لن أستقيل .

– إذن أقيلك أنا . .

وبهت وزير الحقانية من الرد . . ولكنه تمالك وهو يرد معلناً قبول التحدى : أقل كما تريد ! . . السلام عليكم .

* * *

هكذا نهض عبد العزيز فهمى وزير الحقانية واقفاً ، وغادر اجتماع مجلس الوزراء مفكراً فيما يمكن أن يفعله رئيس الوزراء بالنيابة . إن رئيس الوزراء قال له « . . إذن أقيلك أنا » . إن كلمة « أنا » هذه لا يمكن أن تعبر عن رئيس الوزراء . إنها – من لهجتها التى قيلت بها – تدل على سلطة عليا تقف وراءها . هل يمكن أن يحدث هذا ؟ هل يمكن أن

يصدر الملك قراراً بإقالة وزير الحقانية وحده ؟ هل يقرر الملك ذلك ؟ هل يقرر . أولا يقرر ؟ يقرر . . أو لا يقرر ؟

و . . قرر الملك !

إن وزير الحقانية علم بقرار الملك من الصحف — كأى قارئ آخر ليس طرفاً فى الأمر ! إنه — على وجه الدقة — علم بقرار الملك من ملحق خاص أصدرته جريدة « الاتحاد » الناطقة بلسان حزب الاتحاد .

فبعد ساعات قليلة من الجلسة العاصفة التى عقدها مجلس الوزراء أصدرت جريدة « الاتحاد » ملحقاً نشرت فيه هذا المرسوم الملكى :

« مادة أولى : كلف على ماهر باشا وزير المعارف العمومية القيام بأعباء وزارة الحقانية إلى أن يعين لها وزير بدلا من عبدالعزيز فهمى باشا».

مادة ثانية : على رئيس مجلس الوزراء بالنيابة تنفيذ هذا المرسوم .

صدر بسراى المنتزه — ٥ سبتمبر ١٩٢٥ »

* * *

ومن اليوم التالى مباشرة بدأ كل فريق يأخذ موقفاً مع — أو ضد — كل طرف من طرفى الأزمة .

كانت جريدة « الاتحاد » هى التى تتزعم الدفاع عن تصرف القصر ورئيس الوزراء بالنيابة . . فخرجت إلى الناس تزف بشرى إقالة عبد العزيز فهمى وزير الحقانية قائلة إنه إجراء ضرورى لحماية الدين الإسلامى من الاعتداء عليه ، وإن « . . دين الله لن يصاب بسوء فى بلد ينص الدستور فيه على أن الإسلام دين الدولة » .

أما الصحف الأخرى . . فلم يكن يهمها مساندة القصر أو رئيس الوزراء بقدر ما كان يهمها التعبير عن شماتتها فى حزب الأحرار الدستوريين — كخصم سياسى — والذى تعرض رئيسه عبد العزيز فهمى لهذه الإهانة .

قالت جريدة « الأخبار » الناطقة بلسان الحزب الوطنى :

« المهزلة الأخيرة هى رفت وزير الحقانية أو طرده إذا شئت ، وطرده أصبح

لأن ما وقع قد جاء مزرياً بكل كرامة . . وما كان يجوز أن يقع حتى من مأمور لخفير . . أو من عمدة إلى خادمه » .

وقالت جريدة « البلاغ » الوفدية إن إقالة وزير الحقانية هي النهاية الطبيعية للتحالف الذى تم بين حزب الأحرار الدستوريين وحزب الاتحاد على حساب حزب الوفد . وقالت الصحيفة إن هذا التحالف « . . لم يكن إلا اتفاقاً جنائيًّا » .

أما جريدة « كوكب الشرق » الوفدية أيضاً . فقد تساءلت عن موقف الوزيرين الدستوريين الآخرين المشتركين فى الوزارة . وتساءلت : « . . هل يستقيلان تضامناً مع زميلهما الذى أقيل . . أم يبقيان حرصاً على مركزيهما فى الوزارة ؟ »

وكانت جريدة « السياسة » هى التى تقف وحدها فى البداية مع رئيس حزبها ، وضد القصر ورئيس الوزراء بالنيابة . لقد خرجت السياسة بمقال نارىّ قالت فيه : « الإسلام والحمد لله بخير . . وليس فى مصر ولا فى غير مصر مسلم يحاول الاعتداء عليه . شعائره يقيمها المؤمنون بلاحاجة إلى حكومة تدفعهم إلى إقامتها . . بل يقيمونها بالرغم من قيام حكومات تبيح ما حرم الله وترخص به : تحل الربا وتحمى بيوت الدعارة وملاهى الفجور وأماكن الخمر والميسر . . إن الناس يعلمون إذن أن مثار المسألة أبعد ما يكون عن الدين . . نحن نقول من جانبنا إن الطريقة التى اتبعت فى إقالة عبد العزيز باشا طريقة شاذة لم تعرف الحياة الدستورية فى الأمم المتمدينة لها مثالا ، كما أنها لا تتفق مع نصوص الدستور بوجه من الوجوه » .

* * *

هكذا وقفت جريدة « السياسة » وحدها ضد الجميع ، فى حين أن المسألة بالنسبة للآخرين لم تكن أكثر من فرصة للشماتة فى الأحرار الدستوريين كخصم سياسى وحسب .

ولكن الشعور بالشماتة سرعان ما بدأ يختفى ليحل محله شعور آخر مضاد . شعور بالخطر . شعور بأن المسألة قد تتعلق بالأحرار الدستوريين . . ولكنها تتعلق فى المكان الأول بسابقة خطيرة يرتكبها الملك . شعور عبرت عنه جريدة « كوكب الشرق » الوفدية بقولها :

« كنا نستطيع أن نستغل هذا الحادث كسغديين مخالفين لهم (للأحرار الدستوريين) . . هذا عدا ما فى ذلك الاستغلال من الضرب على وتر الدين الحساس وتنفير الأزهر وعلماء الأزهر من الأحرار الدستوريين . كنا نستطيع أن نستغل ذلك حزبياً . ولكن ضمائرنا أبت هذا الاستغلال ونفوسنا استنكرته ، ووطنيتنا تسامت عن مثل هذه الاعتبارات الحزبية . ومن أجل هذا رجونا الأدباء والمفكرين أن يتخذوا من هذا الحادث موعظة يتعلمون منها أن الأحرار من كل الأحزاب فى حاجة إلى التآزر أمام الأفكار الرجعية مما يمس الدستور وما كفل من الحريات العامة » .

وسرعان ما بدأت جريدة « السياسة » توجه نيرانها إلى المحرك الحقيقى فى الأزمة كلها : الملك فؤاد . قالت جريدة « السياسة » فى مقال كتبه الدكتور محمد حسين هيكل : « ليس أتعس من أن تعيش الأمم عيش نفاق وتضليل . وليس أتعس من أن تنشر على الناس راية الحرية — لا ليكونوا أحراراً — ولكن لتحجب هذه الراية عن أبصارهم ما وراءها من هوة سحيقة هى هوة الاستبداد البشع الذى يعمل ليقتل كل قلب يعقل ، وكل نفس تحس ، وكل روح تؤمن بالله ، وبما وهب الله الناس من حرية وحياة . نريد أن نعرف ، ونريد أن يعرف العالم : هل لمصر نظام هو الدستور تحكم على موجبه . . أم لها غير الدستور نظاماً خفياً تتحرك خلال ظلماته أيد تفتك بما قرر الدستور من حقوق ثم يكون لهذا الفتك مقامه واحترامه ؟ نريد أن نعرف . . فقد سئمنا المواربة ونريد أن نخرج من عيش النفاق ، فكل منافق شيطان وكل شيطان فى النار . . »

* * *

كانت جريدة « السياسة » تريد أن تعرف ، وحزب الأحرار الدستوريين يريد أن يعرف : أيهما يحكم مصر . . الدستور أم الملك فؤاد ؟ سؤال أساسي . سؤال حاسم لتحديد طبيعة المعركة كلها . .

ولكن . . كانت جريدة « السياسة » تعرف !

كانت « السياسة » تعرف ، وحزب الأحرار الدستوريين يعرف ، والناس كلها تعرف : أن الذى يحكم مصر هو أولا المحتل الإنجليزى ، ثم ثانياً الملك فؤاد .

الجميع يعرفون . . والجميع يتصرفون كما لو كانوا لا يعرفون ! هذه هى المأساة الحقيقية فى الأزمة كلها .

الجميع يعرف أنه فى السياسة . . إذا كان هناك من حصل على أكثر من حقه من السلطة . . فلأن هناك من رضى بأقل من نصيبه . .

الجميع يعرف . . أنه إذا كانت سلطة الملك فؤاد قد زادت اليوم فلأن هناك من تنازل عن جزء من سلطته أمس . إن كتاب جريدة « السياسة » وزعماء حزب الأحرار الدستوريين ، يستنجدون اليوم بالدستور ، لكبح جماح الملك . . ولكنهم هم أنفسهم يعلمون أن الدستور معطل . وهم أنفسهم قبلوا الاشتراك فى وزارة غير دستورية منذ ستة أشهر . هذا هو التناقض . هذا هو اللامعقول .

ولكن . . هناك منطق فى اللامعقول ، مثلما هناك دائماً منطق فى أسوأ الأشياء . إن منطق الأحرار الدستوريين فى قبول الاشتراك بالوزارة كان بسيطاً : محاربة حزب الوفد . لقد رأوا الإنجليز والملك يشنان حملة ضارية ضد حزب الوفد كجزء من تأديب الشعب . فأراد حزب الأحرار الدستوريين أن يستفيد من هذه المعركة لمصلحته . لقد تصوروا أنه بالاشتراك فى محاربة الوفد — إنما يضعف من سيطرته . لهذا اشتركوا مع الملك فؤاد فى المعركة ضد الوفد . ولكن الملك فؤاد كان يريد إضعاف الوفد لحسابه الخاص . . وليس لحساب الأحرار الدستوريين . لهذا وجد

الأحرار الدستوريون نتيجة عملهم أمامهم الآن : إنهم لم يرثوا حزب الوفد . . لأنه فى السياسة لاأحد يرث أحداً . إن حزب الوفد – صحيح – قد أصبح أقل قوة ، ولكن الملك فؤاداً قد أصبح أكثر قوة ، الملك فؤاد . . وليس حزب الأحرار الدستوريين . لقد أفاق الأحرار الدستوريون – بعد ستة أشهر من اشتراكهم بالوزارة على هذه الحقيقة المرة . حقيقة أن تضحياتهم قد ذهبت بلا مقابل . . ثم تحولت الآن ضدهم . لقد قبلوا من البداية تعطيل الدستور . . وقبلوا الاشتراك فى وزارة تحكم بلا دستور . ثم اكتشفوا الآن فقط أن هذا العمل تحول إلى سلاح ضدهم . . مثلما هو سلاح ضد حزب الوفد . .

نعم ، هذه واحدة من مآسى السياسة المصرية والأحزاب المصرية والثقافة المصرية فى تلك الفترة .

إن المثقفين كانوا ينادون بالدستور كشعار دائم ، ولكنهم كانوا أيضاً ينسون هذا كله – ويتصرفون بعكس هذا كله – عند أول مكسب عاجل . ولأنهم كانوا يبحثون عن المكاسب العاجلة . . فقد كانوا يفقدون دائماً المكاسب الآجلة . إن معظمهم لم يكن يرى أبعد من أنفه. إنهم مع الدستور . . مادام الدستور شعاراً . . إنهم يريدون الحرية والدستور والقانون . أمرطيب . ولكنهم كانوا يريدون هذا كله لأنفسهم فقط . . وضد معارضيهم . يريدون الحرية لأنفسهم حينما يكونون فى المعارضة . . ويمنعونها عن معارضيهم حينما يصبحون فى السلطة ، يريدون الدستور لمساندتهم حينما يكونون ضعافاً . . ويمنعون الدستور عن غيرهم حينما يصبحون أقوياء . يريدون القانون لمساندتهم حينما يواجهون السيف . . ويمنعون القانون عن غيرهم حينما يحملون السيف .

هذه هى المأساة .

إن الذين لا يساندون القانون فى الساعة الثامنة . . لن يساندهم القانون فى الثامنة وخمس دقائق . الذين يوافقون على انتهاك الدستور فى الصباح ،

يجب ألا يستنجدوا بالدستور فى المساء . الذين أيدوا مصادرة الحرية لأنها ميزة لهم منذ ستة أشهر . . يجب ألا يحتجوا ضد مصادرة الحرية لأنها أصبحت سلاحاً ضدهم بعد ستة أشهر .

إن عمى الألوان يصور لبعض المثقفين أحياناً أن الحرية الأكاديمية يمكن الاحتفاظ بها فى غياب الحرية السياسية . . مستحيل . إن من الصحيح أن الأولى أقدم من الثانية . . ولكن الصحيح أيضاً أن غياب الثانية يقتل الأولى . إن أحمد بهاء الدين عبر عن هذه المشكلة بكلمات أخرى عند ما كتب يقول : « إن هناك فرقاً بين الحرية كعقيدة اجتماعية تؤدى إلى نظم وحقوق وواجبات ، وبين الحرية كنهج فكرى يقوم على أسس فلسفية » . إن الخطأ الذى وقع فيه كتاب جريدة « السياسة » أنهم كانوا يؤمنون بالحرية كنهج فكرى ولكنهم لم يكونوا يتحمسون الحماس نفسه لحرية الشعب كعقيدة اجتماعية . .

ليكن . .

المهم أن جريدة « السياسة » كانت تواصل احتجاجها ضد تصرف الملك فؤاد يوماً بعد يوم . . احتجاج ضد الملك . . ضد انتهاك الدستور ، ضد مصادرة حرية الرأى . ووسط المعركة التى كان حزب الأحرار الدستوريين يخوضها فى مواجهة الملك بسبب إقالة رئيسه . . كان على الحزب أن يخوض معركة أخرى فى مواجهة نفسه .

إن السؤال هو : كيف يرد الحزب على قرار الملك فؤاد بطرد عبد العزيز فهمى من الوزارة ؟ إن للحزب وزيرين آخرين فى الحكومة (محمد على علوبة وتوفيق دوس) . . أيستقيلان تضامناً مع زميلهما . . أم يبقيان فى السلطة بالرغم من طرد زميلهما ؟ مشكلة قرر الحزب عقد اجتماع استثنائى عاجل لبحثها .

إن الدكتور محمد حسين هيكل . . رئيس تحرير جريدة « السياسة » وعضو مجلس إدارة حزب الأحرار الدستوريين يروى ما حدث قائلا :

اجتمع مجلس الإدارة مساء فى دار الحزب . . وكان اجتماعاً تاريخياً حقاً بما دار فيه وبالنتائج المترتبة عليه . لقد بدأ توفيق دوس باشا يعرض ما حدث ، ويذكر ما دار بينه وبين رجال القصر ، وما دار بخاصة بينه وبين مستر نيفل هندرسون المندوب السامى البريطانى بالنيابة ، من أحاديث يراد بها تخطى هذا الموقف الدقيق . . وتكلم بعده علوبة باشا كلاماً موجزاً فى الاتجاه نفسه . فلما فرغ الوزيران من عرض ما كان بالإسكندرية تكلم الأستاذ محمد عبد الجليل أبو سمرة فطلب إلى الهيئة أن تتخذ القرارات التى كنا قد اتفقنا عليها . وتلا هذه القرارات وفى مقدمتها استقالة الوزيرين الدستوريين ، وتخلى الحزب عن الاشتراك فى الوزارة . ثم قال إنه يعجب كيف بقى الوزيران فى منصبهما بعد إقالة رئيس الحزب ، وبعد هذه اللطمة التى أصابت الحزب ، فى صميم كرامته . وقاطعه توفيق دوس باشا قائلا : « إننا نعرف واجبنا ، ونحن لم نحضر إلى هنا ليشتمنا عبد الجليل بك » .

هكذا سار الاجتماع العاصف . هكذا انتهى إلى قرار باستقالة الوزيرين الدستوريين وتخلى الحزب عن الاشتراك فى الوزارة. هكذا استقال الوزيران فعلا فى اليوم التالى .

ولم يكن كل هذا غريباً . فهو أقل ما يمكن للرد على لطمة الملك فؤاد . ولكن الغريب هو تردد الوزيرين الدستوريين فى الاستقالة . إن توفيق دوس باشا لم يقبل السكوت لحظة على استغراب زميله فى الحزب بعد بقائه فى الوزارة ، ولكنه قبل السكوت أربعة أيام على طرد رئيس حزبه من الوزارة . هذا إغراء السلطة . هذا هو الصراع بين السلطة والمبدأ . بين المناداة بشعار لا يكلف شيئاً . ثم تطبيق هذا الشعار عندما يكلف منصباً . .

وقبل أن يمضى يوم آخر كان إسماعيل صدقى ، وزير الداخلية الذى يستشفى فى أوربا — قد أرسل باستقالته من الوزارة تلغرافياً تضامناً مع

موقف الأحرار الدستوريين . .

بهذه الاستقالة يكون كتاب علي عبد الرازق — سبب الأزمة كلها — قد أدى إلى إقالة وزير واستقالة ثلاثة وزراء ، وانهيار ائتلاف وزارى ، وقيام أزمة سياسية ضخمة . . كما لم يحدث مع أى كتاب آخر فى تاريخ مصر السياسى .

وقبل أن نعود إلى صاحب الأزمة كلها . . على عبد الرازق . . لابد أن نسأل أنفسنا مرة . هل وعى حزب الأحرار الدستوريين الدرس ؟

إن عبد العزيز فهمى رئيس الحزب ، والوزير الذى أقاله الملك فؤاد . . سرعان ما وقف يخطب . . فى أول اجتماع بأعلى صوت . « إن من الواجب علينا أن نحافظ على الدستور فى كل مقام بقطع النظر عن أى اعتبار » كلام فيه عقل ومنطق . ولكن فيه عيباً خطيراً : إن عبد العزيز باشا يتمسك الآن بالدستور بعد أن أصبح فى كرسى المعارضة . . إنه الآن لم يعد يملك شيئاً يحميه فى مواجهة الملك . . لا سلطة ، ولا وزارة ، ولا برلمان ، ولا دستور . .

مرة أخرى يحلو الكلام عن الدستور من كراسى المعارضة . هل يحلو أيضاً عندما يعود حزب الأحرار الدستوريين إلى السلطة ؟ سؤال معلق فى تاريخ مصر السياسى .

إن السؤال معلق . ولكن هناك رجلا آخر معلقاً : على عبد الرازق .

إن الكاتب الشاب على عبد الرازق دافع عن رأيه بشجاعة ، وتلقى عقوبته فى صمت ، وانزوى إلى النسيان فى مرارة . نعم . النسيان . فالرجل الذى تسبب كتابه فى أضخم أزمة سياسية عاد إلى حياته فى هدوء . . بلا وظيفة ولا مرتب . . ولا تقدير . . ولا — حتى — رد اعتبار . إن الصداقة معه أصبحت تهمة ، والتضامن معه أصبح جريمة ، والكتابة عنه أصبحت خطيئة . إنه لو لم يكن ينتمى لأسرة غنية لمات جوعاً وفقراً وحرماناً . ولكن الحرمان من الرأى هو أحياناً أسوأ ألف مرة من

الحرمان من الطعام ، فأن يكون الإنسان صاحب رأى . . ثم لا يملك الحق فى إعلان رأيه . . هو حكم دائم عليه بالحياة مع القطيع ، مع البقرة والجاموسة والثور والحصان والأرنب والحمار ، وكل حيوان لا عقل له . إن الرأى موجود فى عقل على عبد الرازق . ولكن صاحبه لا يجرؤ بعد الآن على الدفاع عنه .

و . . .

عندما بدأ بعض الأشخاص يفكرون فى إعادة طبع الكتاب تقديراً لمؤلفه ورداً لاعتباره . . فإن الفكرة لم تراودهم إلا بعد مرور ٤١ سنة على صدور الكتاب . . لقد كان لابد من الانتظار . . انتظار سقوط الملك فؤاد ، ثم سقوط الملك فاروق ، ثم قيام الثورة ، ثم طرد الإنجليز . نعم . لابد من هذا كله . . حتى لايعاقب المؤلف على كتابه مرتين . .

وقبل أن يتوفى الشيخ المؤلف على عبد الرازق . . فى صمت ومرارة سنة ١٩٦٦ — ذهب إليه أحد الكتاب يطلب موافقته على طبع الكتاب من جديد . وفى منزل على عبد الرازق دار الحوار التالى بين الناشر والمؤلف :

— هل تسمح لنا بإعادة طبع كتابك العظيم (الإسلام وأصول الحكم)؟

— لا . . لا . . ياسيدى .

— لماذا . . ؟ هل أنت تتخلى عن كتابك ورأيك ؟

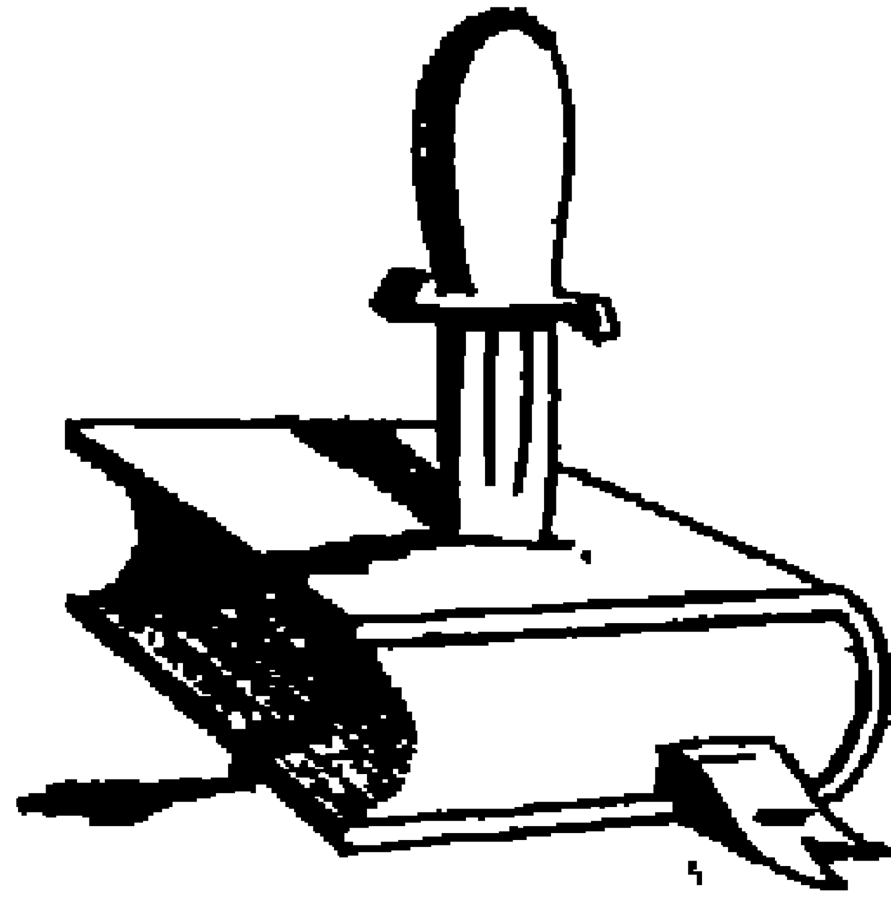
— لا . . لست أتخلى عنه أبداً . . ولكننى لست مستعداً لأن ألاقى بسببه أى أذى جديد . إننى ماعدت أستطيع ذلك . كفانى مالقيته . . هل تعرف أنهم كادوا يطلقوننى من زوجتى ؟

— لهذا الحد ؟

— نعم . . على أننى لحسن الحظ لم أكن متزوجاً حينذاك . . فضاعت عليهم الفرصة .

— لقد انتهى ذلك العهد البغيض . . ولن تلقى اليوم (١٩٦٦) ولن يلقى كتابك غير التكريم والتقدير والإشادة . من المفكرين ومن الدولة على السواء . .

— من يدريني؟ من يدريني؟ أريد تأكيداً من الدولة .. أريد ضماناً.
— إن واقعنا الفكري والاجتماعي الجديد هو خير ضمان.
وهز الشيخ على عبد الرازق رأسه قائلا فى مرارة : لم أعد أحتمل أى مغامرة جديدة . . من يدرى ؟ اطبعوا الكتاب على مسئوليتكم ، ولا تطلبوا منى إذناً بغير ضمان أكيد أطمئن إليه» .
كلمات قالها على عبد الرازق فى سنة ١٩٦٦ ، ثم . . مات ! مات بلا ضمان !



طه حسين



٨

طه حسين .. ضد الحكومة !

فى يوم الأربعاء ٢٠ مارس سنة ١٩٣٢ عقد مجلس وزراء الحكومة المصرية جلسة خاصة لحسم موضوع ناقشه البرلمان وناقشته الصحف من قبل . موضوع خطير .

فى هذه الجلسة لم يتحدث أحد من الوزراء سوى وزير المعارف . وحينما انتهى مجلس الوزراء من سماع تقرير وزير المعارف العمومية خرج إسماعيل صدقى رئيس الوزراء إلى مندوبى الصحف وأذاع عليهم البيان القصير التالى :

« . . قرر مجلس الوزراء فصل الأستاذ طه حسين أفندى . الموظف بوزارة المعارف العمومية . من خدمة الحكومة » .

بهذا القرار القصير — ١٥ كلمة — اعتبر رئيس الوزراء أن الأزمة التى استمرت قائمة ست سنوات كاملة . . قد انتهت . انتهت بحل ترضاه جميع أطراف الأزمة : الملك فؤاد ، السفير البريطانى ، مجلس الشيوخ ، مجلس النواب ، الأزهر ، حل يرضاه الجميع . . ما عدا شخصاً واحداً يهمه الأمر : طه حسين .

فى هذا اليوم خرج طه حسين مطروداً من العمل بالحكومة ، خرج ذاهباً إلى منزله ؟ وفى المنزل كان الجميع فى انتظار طه حسين زوجته . . . وأولاده . ولكن ضيفاً آخر كان قد وصل إلى المنزل منذ دقائق . ضيف ثقيل الظل : خطاب من بنك مصر .

إن الخطاب يضم إخطاراً قصيراً من البنك بأنه قد أصبح مديناً للبنك بثمانية جنيهات . . يجب عليه دفعها فوراً . . و بحث طه حسين فى جيبه فلم يجد قرشاً واحداً . لم يجد شيئاً مطلقاً .

ولكن النقود لم تكن هى الشىء الوحيد الذى هرب من طه حسين ؛ لقد هرب منه الجميع قبل ذلك بوقت طويل : هرب منه الزملاء والأصدقاء والأقرباء . ضاعت منه الوظيفة والنقود .. والسمعة .

وفى غياب كل هؤلاء يصبح لدينا متسع من الوقت لكى نتابع الأزمة التى أدت إلى كل هذه النتائج . أزمة بدأت قبل ذلك اليوم بست سنوات كاملة . بدأت بقرار أصدرته النيابة العامة بالتحقيق مع طه حسين . قرار يحسن أن نقرأه من أول سطر فيه .

« . . نحن محمد نور رئيس نيابة مصر :

من حيث إنه بتاريخ ٣٠ مايو سنة ١٩٢٦ تقدم بلاغ من الشيخ خليل حسنين الطالب بالقسم العالى بالأزهر لسعادة النائب العمومى يتهم فيه الدكتور طه حسين الأستاذ بالجامعة المصرية بأنه ألف كتاباً أسماه (فى الشعر الجاهلى) ونشره على الجمهور ، وفى هذا الكتاب طعن صريح فى القرآن العظيم . . حيث نسب الخرافة والكذب لهذا الكتاب السماوى الكريم . . إلى آخر ما ذكره فى بلاغه .

« وبتاريخ ٥ يونيو سنة ١٩٢٦ أرسل فضيلة شيخ الجامع الأزهر لسعادة النائب العمومى خطاباً يبلغ له به تقريراً رفعه علماء الجامع الأزهر عن كتاب ألفه طه حسين المدرس بالجامعة المصرية أسماه (فى الشعر الجاهلى) كذب فيه القرآن صراحة وطعن فيه على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى نسبه الشريف ، وأهاج بذلك ثائرة المتدينين وأتى بما يخل بالنظم العامة ويدعو الناس للفوضى ، وطلب اتخاذ الوسائل القانونية الفعالة الناجعة ضد هذا الطعن على دين الدولة الرسمى وتقديمه للمحاكمة .

« وبتاريخ ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٦ تقدم إلينا بلاغ آخر من حضرة عبد الحميد البنان أفندى عضو مجلس النواب ذكر فيه أن الأستاذ طه حسين المدرس بالجامعة المصرية نشر ووزع وعرض للبيع فى المحافل والمحلات العمومية كتاباً أسماه (فى الشعر الجاهلى) طعن

وتعدى فيه على الدين الإسلامى وهو دين الدولة بعبارات صريحة واردة فى كتابه سيبينه فى التحقيقات .

وحيث إنه نظراً لتغيب الدكتور طه حسين خارج القطر المصرى . . قد أرجأنا التحقيق إلى ما بعد عودته . . . »

* * *

هذه هى البداية الطبيعية للموضوع . بلاغات متلاحقة للنيابة العامة ضد طه حسين — وكان وقتها أستاذاً بالجامعة . بلاغات من جهات راسخة وأفراد عديدين . بلاغات تتكرر فيها اتهامات خطرة مثل : الطعن فى القرآن ، الإخلال بالنظام العام ، دعوة الناس للفوضى . بلاغات تطالب بإجراءات — كالاتهامات — خطرة مثل : تقديمه للمحاكمة ومعاقبته .

إن الكتاب الذى أثار كل هذه الضجة هو الذى تكرر اسمه فى كل بلاغ قدم للنيابة . كتاب (فى الشعر الجاهلى) . كتاب أصدره الدكتور طه حسين فى سنة ١٩٢٦. سنة بلغ فيها طه حسين السابعة والثلاثين .

إن طه حسين لم يتصور — حينما ألف الكتاب — أن شيئاً من هذا يمكن أن يحدث كرد فعل لأقواله فى الكتاب . إن ما ذكره طه حسين فى كتابه بسيط . هذا هو :

« . . إن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية فى شىء ، وإنما هى منحولة بعد ظهور الإسلام . فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين . ولا أكاد أشك فى أن ما بقى من الأدب الجاهلى الصحيح قليل جداً لا يمثل شيئاً ولا يدل على شىء ولا ينبغى الاعتماد عليه فى استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلى » . .

هذا كل ما قاله طه حسين فى كتابه . هذا جوهر نظريته الجديدة التى خرج بها . إن طه حسين يقدر « . . . النتائج الخطيرة لهذه النظرية ،

ولكن مع ذلك لا أتردد فى إثباتها وإذاعتها » .

هذه إذن نظرية أولاً تهم المشتغلين بالأدب ، قبل أن تهم المشتغلين بالسياسة . فإذا كانت النظرية خطيرة كما كتب طه حسين ، فيجب أن ينزعج الأدباء – لا السياسيون – لخطورتها .

ولكن . . لم يكن هذا ما حدث .

لقد أزعجت هذه النظرية كل شخص . كل شخص ما عدا المشتغلين بالأدب ! ! أزعجت الأزهر والبرلمان والملك والنيابة العامة ومجلس الوزراء . . ولم تزعج المشتغلين بالأدب ولا المهتمين به .

لماذا ؟ . لماذا حدث كل ذلك .

إن السبب كان بسيطاً . إن هذه النظرية كانت خطيرة بالنسبة لهؤلاء جميعاً – ليس بسبب الكلمات التى تقولها – ولكن بسبب أسلوب التفكير الذى تعبر عنه . أسلوب يظهر واضحاً من كلمات طه حسين فى الكتاب بقوله : « . . ربما كان من الحق أنى أحب أن أفكر ، وأحب أن أبحث ، وأحب أن أعلن إلى الناس ما أنتهى إليه بعد البحث والتفكير ، ولا أكره أن آخذ نصيبى من رضا الناس عنى أو سخطهم على حين أعلن إليهم ما يحبون أو ما يكرهون .. »

هذا إذن هو الجزء الخطير فى الموضوع . هذا هو الجزء المزعج حقًّا . إن طه حسين يريد أن يفكر ، وأن يخرج بنتائج تفكيره على الناس حتى ولو صدمت أفكارهم الراسخة منذ وقت طويل مضى .

إن طه حسين يؤكد هذا الانطباع مرة بعد مرة خلال صفحات الكتاب . إنه يقول مثلا :

« نحن بين اثنتين : إما أن نقبل فى الأدب وتاريخه ما قال القدماء ؛ لا نتناول ذلك من النقد إلا بهذا المقدار اليسير الذى لا يخلو من كل بحث . . . وإما أن نضع علم المتقدمين كله موضع البحث . لقد نسيت . فلست أريد أن أقول البحث : وإنما أريد أن أقول الشك . أريد ألا

أقبل شيئاً مما قاله القدماء فى الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وتثبت . . إن لم ينتهيا إلى اليقين فقد ينتهيان إلى الرجحان .

« والفرق بين هذين المذهبين فى البحث عظيم . فهو الفرق بين الإيمان الذى يبعث على الاطمئنان والرضا . . والشك الذى يبعث على القلق والاضطراب وينتهى فى كثير من الأحيان إلى الإنكار والجحود . المذهب الأول يدع كل شيء حيث تركه القدماء لايناله تغيير ولا تبديل ، ولا يمسه فى جملته وتفصيله إلا مساً رقيقاً. أما المذهب الثانى فيقلب العلم القديم رأساً على عقب ، وأخشى إن لم يمح أكثره أن يمحو منه شيئاً كثيراً » .

آه . . هذا ما يريده طه حسين منا أخيراً . ألا نأخذ القديم على علاته لمجرد أنه قديم . ألا نصدق آباءنا فى التاريخ الذى رووه لمجرد أنهم آباؤنا . لا . طه حسين لايريد ذلك . يريد لنا عقلا واعياً . . يبحث ويقارن ويشك ويفحص ويراجع . . ثم فى النهاية . . يؤمن .

بهذا الأسلوب فى التفكير . ذهب طه حسين إلى الماضى يفحصه . ذهب ينقب فيما ورثناه من الأدب الجاهلى والشعر الجاهلى . إنه يريد لنا أن « . . نستقبل هذا الأدب وتاريخه وقد برأنا أنفسنا من كل ما قيل فيهما من قبل ، وخلصنا من كل هذه الأغلال الكثيرة الثقيلة التى تأخذ أيدينا وأرجلنا ورءوسنا فتحول بيننا وبين الحركة الجسمية الحرة ، وتحول بيننا وبين الحركة العقلية الحرة أيضاً » .

لهذا السبب ذهب طه حسين إلى الماضى يفحص بغير قيود على يده وعقله . ذهب يفحص الأدب الجاهلى ويرفض منه مالا يوجد دليل على صحته . إنه يرى أن القدماء « . . أغلقوا على أنفسهم فى الأدب باب الاجتهاد كما أغلقه الفقهاء فى الفقه والمتكلمون فى الكلام » . إن طه حسين يريد إذن أن يفتح باب الاجتهاد فى الأدب . هذه إذن هى خطورته . هذه هى فكرته . فكرة تعارضها الأغلبية فى مصر :

وطه حسين نفسه يعلم ذلك . يعلم أن باب الاجتهاد قد أغلق فى الأدب بعد أن أغلق فى الفقه . ويعلم أن هذا هو « . . مذهب أنصار القديم ، وهو المذهب الذائع فى مصر ، وهو المذهب الرسمى أيضاً ، سارت عليه مدارس الحكومة وكتبها ومناهجها على مابينها من تفاوت واختلاف » .

إن طه حسين إذن يعارض المذهب الرسمى المعترف به فى التفكير الأدبى . ولكنه « . . مطمئن إلى أن هذا البحث وإن أسخط قوماً وشق على آخرين ، سيرضى هذه الطائفة القليلة من المستنيرين الذين هم فى حقيقة الأمر عدة المستقبل وقوام النهضة وذخر الأدب الجديد » .

لهذا الهدف — بهذا الأسلوب وهذه النظرة — ذهب طه حسين يفحص الأدب الجاهلى والشعر الجاهلى . إنه يستمد أدلته من القرآن لأنه يرى أن « . . القرآن أصدق مرآة للجاهلية . . . فليس من اليسير أن نفهم أن الناس قد أعجبوا بالقرآن حين تليت آياته إلا أن تكون بينهم وبينه صلة » . نظرية يظل طه حسين يقيم الدليل عليها طوال صفحات الكتاب . بقلب مسلم وعقل يشك . . أخرج طه حسين كتابه إلى الناس فى تلك الأيام من سنة ١٩٢٦ . أخرج الكتاب ثم سافر إلى فرنسا ليقضى بها إجازة الصيف . وحينما رست الباخرة بطه حسين على ذلك الجزء من الشاطئ الفرنسى ، هبط طه حسين على سلم الباخرة ، دون أن يعلم ماذا تخبئه له الأيام . . هنا . . فى مصر .

فوجئ طه حسين — وهو فى إيطاليا ببرقية عاجلة جاءت إليه من القاهرة . البرقية — ككل البرقيات — مختصرة ، مركزة . . ولكنها — أيضاً — خطيرة . هذه هى :

« عرض على البرلمان كتابك الأخير . ناقش البرلمان طردك من الجامعة . هدد رئيس الوزراء بالاستقالة . تدخل سعد زغلول ، أحيل الموضوع إلى النيابة العامة . النيابة تطلبك للتحقيق معك أرجو حضورك حالا »   إمضاء محمد المرصفى .

تلقى طه حسين هذه البرقية من صديقه القديم محمد المرصفى . . دون أن يعلم بالضبط حقيقة ما جرى . فى الواقع أن المرصفى لم يذكر لطه حسين فى برقيته أسوأ ما جرى .

لم يذكر له مثلا أن المعارضين للكتاب دفعوا طلبة الجامع الأزهر على القيام بمظاهرة تتوجه إلى بيت سعد زغلول . مظاهرة ضخمة . لقد استقبلهم سعد فى بيته – بيت الأمة – حيث ذهبوا إليه يطالبونه كرئيس لحزب الأغلبية فى البرلمان بمطالبة الحكومة باتخاذ إجراءات رادعة مع طه حسين . إجراءات مثل طرده ومحاكمته ومعاقبته . إجراءات مثل إعلان كفره وإلحاده رسميًّا . مرة أخرى تتلاحق الاتهامات المحفوظة من قبل ضد كل من يقدم للمجتمع فكرة جديدة : ملحد . . فاسق . . زنديق . . كافر . . خارج على القانون والدين والأدب . . قليل الأدب طه حسين ! لابد من رأسه ! ليس أقل من رأسه !

وقبل متابعة تطورات الأزمة يثور السؤال من جديد : لماذا كل هذا ؟ لماذا كل هذه الضجة ؟ لماذا قدم النائب الوفدى عبد الحميد البنان استجوابه فى البرلمان لوزير المعارف ؟ لماذا ذهبت المظاهرات إلى بيت سعد زغلول تطالب برأس طه حسين ؟

مرة أخرى كان السبب بسيطاً . إن المجتمع لديه أفكاره الخاصة عن الأدب والسياسة والدين والتعليم . . إلخ . أفكار جاهزة سلفاً وموجودة مقدماً . أفكار يجب على كل عضو فى المجتمع أن يقبلها بغير مناقشة ، أو فحص ، أو مراجعة . أفكار ورثها المجتمع عن آبائه وأجداده . لقد استقرت هذه الأفكار ، ليس لأنها صحيحة ولكن لأنها قديمة . إنها قديمة ومن ثم مقدسة ، ومن ثم لا تقبل المناقشة . فإذا جاء واحد من أفراد المجتمع – طه حسين فى حالتنا هذه – ليناقش أفكار المجتمع فى الأدب ويفحصها ويرفض منها ما يرفضه ويقبل ما يقبله . . فيجب أن يتعرض هذا الفرد للعقاب العام . عقاب صارم .

إن من عادة المحكمة أن تدين المجرمين كتحذير لغير المجرمين . إنها لا تدينهم لأنهم أخطأوا .. فلقد وقعت الجريمة ولا يمكن تصحيحها . ولكن المحكمة تدين المجرم حتى لا يكرر جريمته مرة أخرى ، وحتى — وهذا أهم — لا يسير الآخرون فى طريقه . إن المحكمة إذن لا تستفيد شيئاً من الحكم على مجرم بالإعدام .. هذا هو الدرس . هذه هى الحكمة . إنها نفس الحكمة التى تدفع المجتمع إلى المطالبة برأس طه حسين . إن المجتمع يريد أن يعاقب طه حسين على جريمته . إن جريمته هى أنه أراد التفكير بحرية . أراد أن يشك . . ويناقش . . ويتساءل علناً . لهذا لابد أن يقدم المجتمع تحذيراً للآخرين .. من خلال طه حسين . إذا مر طه حسين بغير عقاب فسوف يتبعه آخرون . إذا مر بعد قطع رأسه . . فلن يجرؤ أحد على السير فى طريقه .

هذه إذن هى ظروف المعركة . مجتمع داخل الكهف — بأفكاره — منذ ألف سنة . وحينما خرج المجتمع المصرى من الكهف وجد النور — نور العلم والحضارة — أقوى من عينيه . النتيجة : قدم المجتمع استقالته من القرن العشرين . عاد إلى الكهف من جديد . فى داخل الكهف يلتمس المجتمع التعزية . إن عظمة آبائه وأجداده ، لم تكن بالنسبة له دافعاً إلى العظمة مثلهم ، ولكنها كانت بديلا وتعويضاً . العظمة تريد مجهوداً ، تريد عقولا تفحص وتناقش وتراجع وتتعلم . ولكن المجتمع لم يكن يريد ذلك فى تلك الفترة المبكرة من القرن العشرين .. كان يريد فقط أن يظل على أفكاره التى ورثها منذ ألف سنة . فى داخل الكهف يحصل المجتمع على الدفء والراحة — راحة البال وراحة العقل .. ثم يحصل أيضاً . . على الظلام . إن هذا الكهف الفكرى هو ملجأ للمجتمع ضد المستقبل ، ضد الزمن . لهذا يسد المجتمع بسرعة كل ثقب يدخل منه النور إليه فى داخل كهف ..

إن كل ما كان المجتمع يريده هو الاستقرار . كيف عاش آباؤنا .

لنعيش مثلهم ؟ كيف فكر أجدادنا . . لنفكر مثلهم ؟ هذا هو السؤال . أما أن يكون لنا أسلوبنا الخاص فى التفكير . . طريقتنا الخاصة فى الحياة . . فهذا مالا يريده المجتمع . إنه لا يريد التجديد ، ولكن يريد الاستقرار . الاستقرار يعنى الثبات . الثبات يعنى الركود . يعنى أن كل شىء يجب أن يبقى على ماهو عليه . . لا . . آسف . . الركود يعنى أن كل شىء يجب أن يبقى على ما كان عليه . « كان » هنا مهمة جداً . . فالأكذوبة يجب تصديقها . . ليس لأنها صحيحة ... فهى أكذوبة — ولكن لأنها جاءت إلينا من الماضى . الماضى مقدس . شىء ننظر إليه ولا نستفيد منه . نعبده ولا نقترب منه ، تماماً كأبقار الهند . الماضى شىء اكتمل وانتهى وأغلق باب الاجتهاد فيه أو الإضافة إليه . الماضى تسلمناه من أجدادنا هكذا ويجب أن يبقى هكذا . إياك أن تقترب . ممنوع اللمس أو الاقتراب أو النظر . ممنوع التفكير . إن الماضى لا يحتاج إلى التفكير فيه . أجدادنا قاموا عنا بهذه المهمة . الماضى لا يحتاج إلى عقل للمناقشة . أجدادنا كانوا أكثر منا عقلا وحكمة . لقد قاموا بالتأمين على تفكيرنا ضد الحريق والعواصف والمراجعة والفحص . تأمين ضد المستقبل . وقتها كانت حضارتنا فى قمتها . كانت عظمتنا فى أوجها . بعدها لم يعد أحد يستطيع أن يكون عظيماً . لقد أحرز أجدادنا كل البطولة والعظمة وأصبح الباب مغلقاً بعدهم . ابتداء من القرن السابع علينا أن نتحسر على هذا الماضى ونعبده . علينا أن نسير إلى الأمام ... فى القرن العشرين — وعيننا إلى الخلف — فى القرن السابع . وإذا وقع المجتمع فى أى حفرة — كل حفرة . فإنه يقع لأنه لا يرى ما أمامه . لا يعمل لمستقبله . يعمل فقط لماضيه . يضيف إليه الأسطورة بعد الأسطورة حتى يبدو أعظم وأعظم . . فيعوضنا عما صرنا إليه . لقد ذهب أجدادنا إلى قبورهم . ولكنهم تركوا لنا أشباحاً تطاردنا . تطارد كل من ينظر إلى الماضى بعينين مفتوحتين . تطارد كل من يفكر بحرية ، ويرفض

الأفكار الجاهزة مقدماً . أشباح تقول نعم أو تقول لا . . لكل من يريد أن يبحث ويقارن ويقتنع .

ولقد كانت المشكلة مع طه حسين أنه أراد إعادة النظر فى واحدة من الأفكار الجاهزة مقدماً فى مصر . أراد إعادة النظر فى الأدب . لقد فعل ذلك بعد أن شرب القدر الذى أراده له المجتمع من أفكاره . تعلم فى الكتاب والمدرسة والأزهر والجامعة . ولكنه سافر بعد ذلك إلى أوربا . ترك الماضى فى مصر وسافر إلى أوربا . هنالك رأى حضارة أخرى وتفكيراً آخر . هناك أيضاً استطاع أن يفكر لماذا لا تكون لنا نفس الحضارة ونفس التفكير . كان ماضينا عظيماً . . فلماذا لا يكون حاضرنا أعظم ؟ !

من هنا رأى طه حسين الصورة بوضوح . رآها لأن كل من يسافر بعيداً عن بلده يتعود أن ينظر إلى الأشياء من بعيد ، من مسافة . فمن بعيد . . تبدو تفاصيل الصورة تافهة . . وتبقى فقط الخطوط الأساسية . من بعيد تختفى الشجرة الواحدة . . وتظهر الغابة كلها . من بعيد يبدو الفارق أوضح ، والرغبة فى تعويضه والتفوق عليه . . أقوى . لهذا عاد طه حسين إلى بلده مدرساً فى الجامعة . مدرساً يريد من طلبته أن يفكروا بحرية . . حتى تنهض بلدهم بعظمة . عاد يؤلف هذا الكتاب الذى أثار الضجة . وحينما انتهى منه وذهب يصطاف فى إيطاليا جاءته برقية صديقه تخبره بجزء من السخط العام الذى قوبل به كتابه . لهذا قرر طه حسين أن يستقل أول سفينة .. قادماً إلى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة .

فى القاهرة كانت الأحداث تتخذ لنفسها مجرى آخر . إن الملك فؤاد بنفسه يريد للمناقشات أن تنتهى بعقوبة رادعة ضد طه حسين . والمناقشات نفسها مستمرة . .

إن مجلس الجامعة عقد اجتماعاً خاصاً . المناسبة : عريضة قدمها

حضرات علماء الأزهر الشريف يطلبون فيها مصادرة كتاب (فى الشعر الجاهلى) وإبعاد الدكتور طه حسين من الجامعة وإحالته على المحكمة. الاجتماع : استمر أربع ساعات . المناقشات : حامية جداً . السبب : هذه سابقة خطيرة . لا قيمة للجامعة إذا لم تستقر فيها حرية البحث العلمى. القرار : « أن مجلس الجامعة المصرية يكل لسعادة المدير تسوية مسألة الدكتور طه حسين مع السلطات المختصة ، على أن يراعى فى ذلك المبادئ الأساسية للتعليم الجامعى والشرف العلمى لهيئة موظفى التدريس بالجامعة » .

بدأ أحمد لطفى السيد — مدير الجامعة — يجرى اتصالاته مع السلطات المختصة. سلطات عديدة . هناك الملك . وهناك رئيس الوزراء . وهناك البرلمان .

فى البرلمان تعلو الأصوات — صوتاً بعد صوت — مطالبة بمعاقبة طه حسين ، ومعاقبة الجامعة كلها من خلال طه حسين . حينما تشتد المعارضة وتقوى ، لا يجد وزير المعارف — على الشمسى باشا — رداً يقوله سوى « إننا نطمع فى أن تكون الجامعة معهداً طلقاً للبحث العلمى الصحيح » . كلمات تضيع فى الهواء . . فالآلهة تريد الانتقام . . لا الحرية . الآلهة عطشى للدماء : . لا للعلم .

هكذا بدأت الأزمة تتسع وتتسع . لقد تدخل الجميع فى مناقشة الكتاب . تدخلت المعارضة ، تدخل البرلمان — مجلس النواب أولا ثم مجلس الشيوخ — تدخلت الجامعة ، تدخل وزير المعارف ، تدخل رئيس الوزراء ، تدخل الملك .

ولكن . . مازالت هناك سلطة أعلى وراء الستار لم تتدخل بعد : السفير البريطانى .

إن السفير البريطانى — باعتباره ممثلا لقوة الاحتلال فى مصر — يحتفظ لنفسه بالكلمة الأخيرة فى أى موضوع . وحتى الآن ما زال

السفير البريطانى يحتفظ بكلمته لنفسه .

ولكن السفير لم يستمر على ذلك طويلا .

لقد فوجئ رئيس الوزراء – عبد الخالق ثروت باشا – بالسفير البريطانى ذات يوم يدخل عليه فى مكتبه . وعلى الفور نسى رئيس الوزراء أن السفير البريطانى جاء بلا موعد . . بلا اتفاق . الاحتلال البريطانى نفسه ، جاء لمصر بلا اتفاق . لهذا لم يشعر السفير البريطانى بالحرج وهو يدخل مكتب رئيس الوزراء بغير موعد . إن السلطات العليا لا تستأذن من أحد . خصوصاً إذا كان رئيس وزراء !

لقد نسى رئيس الوزراء كل شىء عندما بدأ السفير البريطانى يتكلم .

قال السفير : إيه حكاية طه حسين دى ؟ السنة اللى فاتت كانت حكاية على عبد الرازق . . والسنة دى حكاية ثانية لطه حسين . . لازم تشوفوا لكم حل !

ما هو الحل ؟ بدأ رئيس الوزراء على الفور يناقش المسألة مع سعادة السفير . فى النهاية توصلا إلى اتفاق يمنع تحويل طه حسين أمام الناس إلى بطل فى النهاية . عند هذه النقطة خرج السفير البريطانى من مكتب رئيس الوزراء . ولأول مرة منذ نصف ساعة بدأ رئيس الوزراء يتنفس الصعداء . لقد استطاع أن ينقذ الوزارة من السقوط !

ذهب رئيس الوزراء إلى مجلس النواب بغرض تهدئة الأزمة . ولكنه اكتشف أن المعارضة قد أصبحت أكثر قوة .. وشراسة . فقد وحدت المعارضة جهودها فى اقتراح يطلب من الحكومة اتخاذ الإجراءات التالية :

أولا : مصادرة وإعدام كتاب طه حسين المسمى (فى الشعر الجاهلى) .

ثانياً : تكليف النيابة العمومية برفع الدعوى على طه حسين مؤلف هذا الكتاب .

ثالثاً : إلغاء وظيفته من الجامعة ، وذلك بتقرير عدم الموافقة على الاعتماد المخصص لها .

وعندما وقف على الشمسي – وزير المعارف – يعلن أن الوزارة لا تمانع فى إعدام الكتاب ،لم تهدأ المعارضة . ليس أقل من فصل طه حسين !

فى هذه اللحظة وقف رئيس الوزراء ليعلن أن المعارضة إذا أصرت على هذا الطلب فإن الوزارة تعرض الثقة بها . هكذا هدد رئيس الوزراء بالاستقالة إذا أصيب طه حسين بأى ضرر غير قانونى . يكفى – لكى تموت الأزمة – أن يحول الاتهام الموجه ضده إلى النيابة .

عند هذا الحد تدخل سعد زغلول . إن سعداً هو زعيم حزب الأغلبية فى البرلمان . حزب الوفد . إن سعداً يريد أن يستخدم نفوذه وشعبيته لإنهاء الأزمة . دون أن يخلق لدى المعارضين إحساساً بأنه لا يوافقهم . سياسى . لهذا قال لهم سعد إنه ليس من المصلحة سقوط الوزارة ، لأنها وزارة ائتلافية تضم حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين . وطلب سعد من الأعضاء الوفديين فى الوزارة أن يرفضوا طرح الثقة بالوزارة . وكانت الوزارة التى فى الحكم الآن ائتلافية برياسة عدلى يكن باشا .

النتيجة : شكلت لجنة لوضع تقرير عن الكتاب ، وأحيل الموضوع إلى النيابة العامة . ولكن .. حتى هذه الحلول لم تكن كافية بعد لتهدئة المعارضين لطه حسين ، فى كل يوم تزداد عوامل الأزمة تعقيداً ، وتتشابك عواملها ، وتتعدد أطرافها . إن أطراف الأزمة كثيرون ، ولكن دوافعهم هى التى تختلف .

فبالنسبة للسفير البريطانى فى مصر ، كانت المسألة هى التظاهر بأنه يمنع عن مواطن مصرى ظلماً يتعرض له من مواطنين مصريين آخرين . انتهازية .

وبالنسبة للملك فؤاد ، كانت المسألة هى أن السماح بالحرية فى الأدب اليوم معناه السماح بالحرية فى السياسية غداً . مصيبة .

وبالنسبة لسعد زغلول ، كان الصراع داخل رأسه بين موهبتين متعارضتين فيه : موهبته كسياسى يريد التصفيق ، وموهبته كمثقف يريد

حرية الرأى . مشكلة .

وبالنسبة لرئيس الوزراء ، فإنه لا يؤمن – كالمهاجمين – بالحرية . ولكنه أيضاً لا يريد تلقى هذا الدرس من المعارضة . أزمة .

وبالنسبة للبرلمان ، أصبحت المسألة سباقاً على من الذى يفخر بأنه أهدر دماء طه حسين أولا . فرصة .

أما بالنسبة لطه حسين ؛ فقد كان الموضوع كله بالنسبة له شيئاً أشبه بقصة بوليسية أحكمت خيوطها حول رقبته . تجربة لن ينساها طه حسين .

وكانت وجهة نظر كل طرف – فيما عدا طه حسين – تجد طريقها قويًا تحت قبة البرلمان . لهذا لم يكن غريباً أن يشهد مجلس النواب فى إحدى جلساته مشادة عنيفة بين النواب المعارضين فى المجلس ، وبين عدلى يكن كرئيس للوزراة الجديدة ، التى ورثت المشكلة عن وزارة ثروت.

فى جلسة ١٣ سبتمبر سنة ١٩٢٦ حمل النواب حملة شديدة على الوزارة بسبب « . . سكوتها على ما ينفثه هذ الرجل – طه حسين – من تعاليم الكفر والإلحاد فى رءوس الشبان » وطالبوا بإجراءات أكثر حسماً ضد طه حسين . قال النائب عبد الخالق عطية مثلا فى تلك الجلسة : إن تصرف هذا الشخص « طه حسين» كان أيضاً مخالفاً للذوق ، إنه مدرس بالجامعة المصرية ، وهى معهد أميرى يعيش من أموال الحكومة الممثلة للأمة ، فهو يتقاضى مرتبه من هذه الهيئة التى دينها الإسلام . . فلم يكن من المفهوم ولا من المعقول ولا من حسن الذوق أن يقوم هذا الشخص فيبصق فى وجه الحكومة التى يتقاضى مرتبه من أموالها .

وبعد أن رد وزير المعارف وقف عدلى يكن رئيس الوزراء ليقول : أريد أن أقول كلمة فى هذا الموضوع . فقد ذكر معالى وزير المعارف العمومية أن هذا الكتاب قد طبع ونشر فى عهد الوزارة السابقة . . . . . وأرى أن موافقتى على ما قرره وزير المعارف عمل حكومى صدر من

رئيس وزراء مسئول عنه . وإنى أفهم أن يظهر المجلس استياءه من الكتاب أو يترك لوزير المعارف الحرية فى اتخاذ إجراءات فوق ما اتخذته الوزارة من قبل . أما أن يقرر المجلس قراراً يخالف ما اتخذته الوزارة من قبل ، أو يلزمها بالقيام بعمل معنى زيادة عما عملية ، وعما وعد به وزير المعارف فهذا مالا أوافق عليه .

ولم تكن المناقشات الحامية مقصورة على أعضاء البرلمان . لقد امتدت إلى الشارع ، بعد أن بدأت من الشارع . هل طه حسين برىء ؟ إن الناس بدأت تفكر . لادخان بغير نار . بالتأكيد هناك شىء ما ضد طه حسين . . بالرغم من أن أحداً لا يعرف بالضبط ما هو . كان الناس يسألون بعضهم بعضاً : هل صحيح ما يشيعونه عن طه حسين ؟

ـ ماذا يشيعون ؟

ـ يقولون إنه رجل يكره الإسلام والمسلمين . وإنه لهذا السبب سمى ابنه « كلود » وابنته « مرجريت » . وكتبوا عنه فى الصحف إن له طفلة توفيت فقام بدفنها فى مقابر الفرنسيين ، وإنه عمد ولديه . . ومع ذلك يصرح بأنه مسلم ؟

هكذا بدأ خصوم طه حسين يلجأون إلى تجريح سمعته الشخصية كوسيلة لكسب الرأى العام ضده . ومع كل يوم يمر تتعقد الأزمة وتتعدد أطرافها وتختلف أسلحتهم . أطراف تتحرك من خلف الستار . من بين الذين يتحركون خلف الستار أحمد لطفى السيد مدير الجامعة . إنه ـ بحكم ثقافته ، وبحكم صداقته لطه حسين ـ يريد أن ينهى الموضوع بأقل أضرار ممكنة تصيب طه حسين . وهو ـ بحكم أنه مدير للجامعة ـ يريد أن يحفظ للجامعة كرامتها وحرية البحث فيها . ولكنه ـ بحكم أنه فى النهاية موظف عام ـ يريد التوفيق بين الضغوط التى يتعرض لها من السياسيين ، وبين الآراء التى يتفق فيها مع طه حسين .

هكذا بدأ أحمد لطفى السيد اتصالاته ، مع سعد زغلول من ناحية ،

والملك فؤاد من ناحية أخرى ، وعدلى يكن رئيس الوزراء من ناحية ثالثة .

وكان الحل الأول هو إقناع الناس بعدم صحة الإشاعات التى انطلقت تشكك فى إسلام طه حسين . يريد الناس ضماناً على إسلام طه حسين . يريدون على الأقل وثيقة يكتبها طه حسين ويذيعها باسمه . شهادة يعلن فيها طه حسين أنه مسلم وموحد بالله . شهادة مكتوبة ؟ طبعاً ! لماذا صنع الإنسان الورق إذا لم يكن لإثبات إسلامه ؟ !

هكذا أرسل طه حسين فى اليوم التالى كتاباً إلى مدير الجامعة ليذاع فى الصحف ، يقول فيه :

« كثر اللغط حول الكتاب الذى أصدرته منذ حين باسم (فى الشعر الجاهلى) . وقيل إنى تعمدت فيه إهانة الدين والخروج عليه ، وإنى أعلم الإلحاد فى الجامعة . وأنا أؤكد لعزتكم أنى لم أرد إهانة الدين ولم أخرج عليه . وما كان لى أن أفعل ذلك وأنا مسلم أومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . . . وأنا أرجو أن تتفضلوا فتبلغوا هذا البيان لمن تشاءون وتنشروه ، وأن تقبلوا تحياتى الخالصة وإجلالى العظيم » .

إن طه حسين — قبل صدور كتابه — كان له جسم وعقل . الآن — بعد الكتاب — أصبح يحتاج إلى جسم وعقل و . . . إعلان عام يشهر إسلامه .

ولم تكن إذاعة هذا الإعلان فى الصحف إلا حلا واحداً . حل ثان : الجامعة تشترى جميع نسخ الكتاب من المؤلف حتى تمنعه من التداول فى السوق . مصادرة مهذبة . لهذا اشترت الجامعة ٧٨٧ نسخة من الكتاب بمبلغ مائة جنيه . كما اشترت من مكتبة أخرى ٣٤ نسخة بمبلغ ٥٧٨ قرشاً . فتكون مجموع النسخ المشتراة ٨٢١ نسخة صرف منها أربع نسخ للنيابة العمومية ، ونسخة لمدير الجامعة ، والباقى حفظ بمخازن الجامعة.

ولأن طه حسين يريد هو الآخر أن يستريح ، فقد حذف من الكتاب فصلا ، وأضاف فصولا ، ثم طبعه من جديد بعنوان مختلف ، الآن أصبح

عنوان الكتاب هو « فى الأدب الجاهلى » بعد أن كان « فى الشعر الجاهلى ».

ولكن هذه الحلول لم تفلح بإنهاء الأزمة . إن المهاجمين للكتاب أصبحوا كالبحر العاصف . بعد كل موجة هناك انحسار تبدو فيه قوى الهجوم وكأنها قد هدأت . ولكن الانحسار تبعه هجوم آخر أكثر شراسة وعنفاً . إن هؤلاء الذين يقفون وسط البحر العاصف لا يستطيعون مطلقاً معرفة ما إذا كانت الموجة الأخيرة هى الأقوى أم لا .

و . . .

لم تزل هناك موجة أقوى فى انتظار طه حسين وكتابه .

فقد أثيرت المسألة من جديد فى مجلس الشيوخ سنة ١٩٢٧ . وشكلت وزارة المعارف لجنة جديدة « للمرة الثانية » لكتابة تقرير جديد عنه بعد أن تغير عنوانه . إن النسخة التى فحصتها اللجنة هى الموجودة فى السوق الآن . . ومع ذلك فإن اللجنة كتبت فى وقتها تقريراً عن الكتاب المعدل تقرر فيه أنه يمس الدين . . وسردت اثنى عشر وجهاً أضاعها الكتاب على قرائه من أمر دينهم وهى :

١ – أضاع عليهم الوحدة القومية والعاطفية وكل ما يتصل بهما .

٢ – وأضاع عليهم الإيمان بتواتر القرآن وقراءته وأنها وحى من الله.

٣ – وأضاع عليهم كرامة السلف من أئمة الدين واللغة وعرفان فضلهم .

٤ – وأضاع عليهم الثقة بسيرة النبى صلى الله عليه وسلم فى كل ما كتب فيها.

٥ – وأضاع عليهم اعتقاد وصدق القرآن وتنزهه عن الكذب .

٦ – وأضاع عليهم الوحدة الإسلامية التى أوجدها الدين والقرآن والنبى بين الأنصار والمهاجرين .

٧ – وأضاع عليهم ما وجب من حرمة الصحابة والتابعين .

٨ – وأضاع عليهم تنزيه القرآن عن التهكم والازدراء بما كتب فى سورة الجن وفى صحف إبراهيم وملة إبراهيم .

٩ – وأضاع عليهم تنزيه النبى وأسرته عن مواطن التهكم والاستخفاف .

١٠ – وأضاع عليهم صدق القرآن والنبى فيما أخبرا به عن ملة إبراهيم وصحف إبراهيم .
١١ – وأضاع عليهم براءة القرآن مما رماه به المستشرقون من أعدائه .
١٢– وأضاع عليهم الأدب العام مع الله ورسله وكرام خلقه .
ما هذا ؟

هذا إعلان حرب وليس تقرير لجنة . إن كتابا يفعل كل هذا بقرائه لابد أن يكون معجزة خارقة وليس كتاباً . ولكن . . لم يكن الكتاب معجزة ، ولا كان العصر عصر المعجزات .

كان الخلل كله هو هذه الطريقة التشنجية التى تصرف بها معارضو الكتاب . الخلل هو هذه الحالة المرضية التى يفكر بها المجتمع. مجتمع يخشى الصدمات أو الاهتزازات . أقل هزة تقلب السفينة . أقل صدمة تحطم رأسه . أقل كلمة تضيع على الناس دينهم . أقل مناقشة تشكك فى إيمانهم . أى إيمان هذا الذى يضيع بجرة قلم ؟ أى مجتمع هذا الذى يصيبه التشنج بسبب كتاب ؟ إن المجتمع – أى مجتمع – هو كالإنسان . حينما يكون الإنسان طفلا – حينما يكون ضعيفاً لا يستطيع الاعتماد على نفسه ، فإنه يكون حساساً لأقل نقد . وحينما يصبح الطفل رجلا . . لا يصبح النقد قادراً على إصابته بعقدة . . لأنه رجل . لأنه ناضج . لأنه يثق فى نفسه . والمجتمع فى تلك الأيام لم يكن يثق فى نفسه . أقل اكتشاف للخطأ يسبب له الانهيار . أقل هفوة تصيبه بالهستيريا . إنه مجتمع لا يتصرف بطريقة طبيعية . إنه – مثلا – لم يلجأ إلى مناقشة كتاب طه حسين بطريقة علمية . إذا كان طه حسين قد اجتهد وأخطأ ، إذن فليجتهد غيره . . ولا يخطئ . ولكن المشكلة لم تكن هى أن طه حسين أخطأ أو لم يخطئ . المشكلة هى أنه اجتهد برأيه . هذه هى الجريمة . عندما يشير أصبع إلى القمر . . ينظر المجنون إلى الأصبع . إنه لا ينظر إلى القمر . ينظر إلى الأصبع . هذا مثل

صينى . ولكنه يصدق تماماً على هذا النوع من المعارك الفكرية . إن طه حسين ناقش قضية . لم ينتبه المجتمع إلى القضية . . انتبه إلى طه حسين نفسه ، يشكك فيه ، يشوه سمعته ، يرميه بالكفر والإلحاد والزندقة . إن النقد لا يثير انتباه المجتمع . يثير غضبه . لا يدفع فيه حب التفكير . يدفع الرغبة فى الانتقام . لهذا كان طبيعياً جداً أن يتلقى طه حسين تهديداً بالقتل . نعم والله تهديد بالقتل . تهديد يقول فيه صاحبه ، الذى أرسل تهديده فى خطاب بالبريد : إنه يقسم بالله أن يقتل طه حسين إن لم يتوقف عن الهجوم على الدين . إن طه حسين لم يهاجم الدين ، ولكن هذه نقطة أخرى . من يقتل لا يفكر . إنه يقتل فقط .

وفعلا . . اضطر البوليس أن يفرض الحراسة الدائمة على منزل طه حسين لمدة شهرين كاملين . . حماية له من التهديد المتوقع بالقتل .

وكان معنى هذا التهديد بالقتل الذى تلقاه طه حسين .. خطيراً .

إن معناه أن حالة الهستيريا العامة التى أصابت من يعنيهم الأمر فى المجتمع المصرى قد جعلت استخدام القتل ضد طه حسين أمراً يحتمل التفكير . إن خطاب التهديد القصير الذى تلقاه طه حسين معناه أن صاحبه المجهول لم يعد يرفض رأى طه حسين فقط ، تفكيره فقط ، كتابه فقط . . إنه يرفض وجوده أصلا . يرفض طه حسين شخصياً . إن بعض أفراد المجتمع لا يريدون قتل الرأى فقط ، ولكن يريدون أيضا قتل صاحب الرأى . إنهم يريدون توقيع هذه العقوبة الأخيرة عليه . . لأنه لا يطيع . لا يفكر كواحد من القطيع . لأنه ليس واحداً من الذين يذهبون إلى أطلال الماضى يتحسرون ويذرفون الدموع ويلطمون الخدود . عشرة قرون ونحن نلطم الخدود . فى خلال تلك المدة مات فينا العقل ، التفكير ، والاجتهاد . مات العالم والأديب والفيلسوف . مات المفكر .

إن المفكر ليست مهمته أن يلطم الخدود . أن يجلس القرفصاء

ويتحسر على الماضى ويندب حظه . إن المفكر مهمته أن . . يفكر . مهمته أن يبحث ويقارن ويفحص ويراجع . المفكر مهمته أن يطارد الأكاذيب بعقله ، لا أن تطارد الأكاذيب عقله . المفكر ليس شخصاً يأكل وينام ويستريح البال . إنه شخص يحمل الهموم . شخص ينزعج ويقلق ويسخط ويختلف ويناقش ويشك ويتساءل. إنه ليس طفلا يريد العودة إلى رحم أمه حيث الدفء والراحة والإعفاء من المسئولية مستحيل . من خرج من رحم أمه لا يعود إليه. من خرج إلى الحياة لابد أن يعيشها معتمداً على نفسه عاجلا أو آجلا، لا بديل لذلك إلا الانسحاب من الحياة . . إلا الموت . إن المفكر إنسان يعلم هذه الحقيقة . يعلم أن على المجتمع أن يصنع حياته وأفكاره لنفسه لا أن يستورد هذه الحياة والأفكار من آبائه — من ماضيه — جاهزة مقدماً ومصنوعة سلفاً لا ينقصها إلا الاستهلاك . . بغير فحص أو تأكد أو اختبار.

إن طه حسين فى كتابه « الشعر الجاهلى » لم يفعل أكثر من هذا . لم يفعل أكثر من مراجعة الماضى وفحصه . مراجعة تنحصر فى مجال واحد هو الشعر الجاهلى والأدب الجاهلى . إن طه حسين أستاذ للأدب العربى فى الجامعة . هكذا كانت وظيفته منذ سنة ١٩٢٥ . إنه كأستاذ جامعى — مسئول عن تدريس الأدب العربى . وهو — كأستاذ أيضاً — مسئول عن طلبته — مسئول عن عقول . عن مستقبل . كيف يقدم أستاذ الجامعة مادته إلى الطلبة ؟ لقد تلفت طه حسين حوله فوجد أسلوباً سائداً لتدريس أدب اللغة العربية فى المدارس الحكومية . أسلوباً يعمد إلى « . . الكتاب والشعراء والخطباء والفلاسفة فيترجم لهم أو يختلس لهم ترجمة من كتب الطبقات على اختلافها ، ثم يتبع كل ترجمة بشىء من شعر الشاعر أو نثر الكاتب أو بيان الخطيب ، ثم يلم فى كل عصر بطائفة من المعانى يلفق بعضها إلى بعض فى غير فقه ولا فهم ولا احتياط ولا دقة ،

ويسمى هذا الخليط كله (أدب اللغة العربية) حيناً ، و (تاريخ أدب اللغة العربية) حيناً آخر ».

وطه حسين يرى أيضاً أن الطلبة يأخذون هذه الكتب المقررة عليهم فسيتظهرونها « . . استظهاراً يستعينون به على أداء الامتحان . حتى إذا فرغوا من هذا الامتحان انصرفوا عما حفظوا أو انصرف عنهم ماحفظوا : لم ينتفعوا منه بقليل ولا كثير . ولم يتعلموا منه نقداً ولا بحثاً . ولم يفيدوا منه ذوقا ولا شيئاً يشبه الذوق » .

لهذا رأى طه حسين النتيجة واضحة . النتيجة هى أن هذه المدارس قد أغلقت أبوابها ونوافذها « . . إغلاقاً محكماً . فحيل بينها وبين الهواء الطلق ، وحيل بينها وبين الضوء الذى يبعث القوة والحركة والحياة . وظلت كما هى تعيد ما تبدأ وتبدأ ما تعيد . وتكرر فى كل سنة ما كانت تكرر فى السنة الماضية » .

إذن . . ما هو الحل ؟

إن الحل — كما سجل طه حسين فى كتابه هو أن « تلجأ وزارة المعارف إلى طائفة من الفنيين الذين يدرسون الأدب العربى فى ذوق ، ويقرءون اللغة العربية فى فهم وفقه ، ويتخذون منهما ومن العناية بهما لذة ومتعة . لا وسيلة إلى العيش وقبض الراتب آخر الشهر » .

ولكن إعداد المدرسين هو جانب واحد من المشكلة . الجانب الآخر — الأكثر أهمية — هو أساليب تدريس الأدب العربى . إن طه حسين يريد أن يطبق طلبته فى الجامعة المقياس العلمى فى دراستهم لتاريخ الأدب العربى . إنه يرى أن تاريخ الأدب العربى قد لعبت به دوافع سياسية واجتماعية ودينية كثيرة . دوافع نسبت إلى هذا الأدب ما لم يكن فيه . وإن هذا التاريخ قد أصبح مقدساً لا يخضع للبحث الصحيح . كيف يدرس علمياً فى حين أن « . . البحث العلمى الصحيح قد يستلزم النقد والتكذيب والإنكار ، والشك على أقل تقدير » . ؟

هذا إذن هو الإساس الذى أخرج به طه حسين كتابه إلى النور . كتاب يفحص الشعر الجاهلى ويعيد النظر فيه . . رافضاً مالا يوجد دليل عليه ، مكذباً ما يرى أنه منحول ومختلق . لقد رأى طه حسين أن هذه النظرة الجديدة للشعر الجاهلى والأدب الجاهلى يجب أن تقترن أيضاً بشرط آخر يريده من طلبته فى كلية الآداب . شرط يلتزمه فى تعليمه لهم . فخلال تقديم طه حسين لمحاضرات طلبته فى الجامعة كان يصر على أنه يريد أن يعلم الطالب كيف يبحث ويشك ، ثم فى النهاية يؤمن ، بالتاريخ الصحيح للشعر الجاهلى والأدب الجاهلى .

وكان الحق مع طه حسين فى هذا الأسلوب الذى أراد أن يستخدمه كأستاذ جامعى . فالجامعة ليست مهمتها أن تعطى الطالب تعليماً . إنها تعطيه مفاتيح التعليم . مفاتيح الثقافة . الجامعة ليست مهمتها أن تصب الطالب فى قوالب فكرية معدة مقدماً . إن مهمتها أن تجعل الطالب يفكر بنفسه . مهمتها أن تحرك فى داخله قوى تجعله يفكر ذاتياً . يفكر . . ويقارن . . ويستنبط . . ويتساءل . . ويشك .

إن الشك عملية مؤلمة وشاقة ، لهذا يرفضها الشخص ، ويرفضها المجتمع ، حينما تنعدم ثقته بنفسه وبتاريخه وبقوته . إن هذا الذى يسكن بيتاً من زجاج يخشى عليه من أصغر حجر يقذفه أول عابر فى الطريق . أما الذين يسكنون مجتمعاً متيناً متماسكاً ، فإنهم لا يخشون النقد والمعارضة و . . الشك . إنهم يفعلون ذلك لأنهم يعلمون أن من يؤمن بعد الشك والمناقشة هو المؤمن حقاً . إنه مؤمن بعد تفكير وموازنة .

ولم يكن المجتمع قد وصل بعد إلى تلك الدرجة من الثقة بالنفس. لهذا تحول كتاب طه حسين من قضية أدبية فى الأساس إلى قضية سياسية فى النهاية. قضية محورها الأساسى هو : هل يجوز للمفكر أن يفحص أفكار المجتمع المستقرة .. الثابتة ؟ هل يجوز له أن يشك فيها ؟ هل يجوز له أن ينقدها ؟ باختصار — هل يجوز للمفكر أن . . يفكر بحرية ؟

هذه هى القضية ، كتاب طه حسين يدعو إلى حرية البحث العلمى . والمجتمع لا يريد حرية البحث العلمى . . ليس هذا فقط . بل إن المجتمع – فى الواقع – لم يكن يريد أساساً حرية الرأى ، فى حين أن طه حسين يصر فى كتابه على أن « الحرية . . شرط أساسى لنشأة التاريخ الأدبى فى لغتنا العربية ، فأنا أريد أن أدرس تاريخ الآداب فى حرية وشرف » .

لقد أصبحت القضية إذن : حرية . . أم لا حرية ؟ حرية رأى . . أم قتل الرأى ؟ ! هذا هو السؤال ! هذا هوسبب القذائف التى وجهت إلى طه حسين.

إن طه حسين له الحرية – كل الحرية – إذا أراد أن يوافق المجتمع وينافقه . طبعاً . ولكن ليست له الحرية – أقل حرية – إذا أراد أن ينبه المجتمع وينقده . جريمة . قد يتسامح المجتمع مع من يكذب أو يخدع ، أو يرتشى ، أو – حتى – يسرق ويقتل . . ولكنه لن يتسامح مطلقاً مع من يدعو إلى حرية الرأى إن المجتمع متفق على رأى . الرأى هو : إعدام حرية الرأى!

ولكن الذين يهاجمون الحرية لا يهاجمونها مباشرة أبداً. معقول أنهم يفرضون عليها الحصار . إنهم يبدءون بوضع تحفظات تؤدى فى النهاية إلى القضاء على الحرية بالقطاعى ، بالتقسيط . تحفظات تحول الحرية إلى مجرد كلمات ينص عليها القانون العام. قانون مع وقف التنفيذ .

إن القانون كان يكفل للجامعة كل الحرية . ومع ذلك اعترض الملك ، والبرلمان ، واعترضت الحكومة . . على كتاب طه حسين الذى يدرسه الطلبة داخل الجامعة . إذن . . لماذا الجامعة ؟! لماذا لم يكتف المجتمع بالتعليم الثانوى ، أو الابتدائى ، أو – حتى – بالكتاتيب ؟

إن السبب واضح . يريد المجتمع من الحضارة عناوين فقط . يريد واجهات براقة قد تقنعه بأنه قد أصبح عصرياً . يريد برلماناً

ودستوراً وقوانين وداراً للأوبرا وقصراً للملك وعيداً بجلوس الملك و — من باب الوجاهة — يريد أيضا . . جامعة ! جامعة تضم كلية للآداب فى مكان فخم هو قصر الزعفران .

أما إذا بدأت العقول تفكر وتناقش داخل الجامعة — إذا بدأ المجتمع يدفع ثمن عصريته — فإنه يتراجع فوراً . يفتح الله . الكتاتيب أحسن . إن الجامعة تصبح فى هذه الحالة « . . عدمها خير من وجودها » بتعبير نائب فى البرلمان سنسمع عنه فيما بعد .

نائب آخر فى البرلمان يخطب قائلا : « . . إننا لا نشكو من هذا الرجل حرية الرأى ، ولا ما تؤدى إليه من بحوث علمية وأدبية بريئة ، ولكننا . . . »

آه . . الآن يبدأ وضع التحفظات على حرية الرأى !

يقول النائب البرلمانى : « . . ولكننا نشكو منه غلاً ران على قلبه نحو الإسلام والمسلمين ، نشكو منه أن يتخذ من الجامعة حصناً يقذف من خلف أسواره غازاته السامة الخانقة ، فتصيب من الأخلاق والآداب مقتلا ، ثم ينفث سمومه فى نفوس الطلبة وهم غير مسلحين بالدين وغير مدرعين بتلك التعاليم التى تمكنهم — أو كانوا تعلموها — أن يهدوا الجبال هدًّا » .

سبحان الله ! . .

لقد أصبح كتاب طه حسين هو العقبة الوحيدة التى تمنع الطلبة من « . . هد الجبال هدًّا » !

هكذا قال النائب البرلمانى المحترم . ولكنه لم يقل لنا لماذا لم يقم هو شخصياً بـ « . . هد الجبل هدًّا » . لماذا لم يفعل هو ذلك ، ولم يفعل البرلمان ، ولا الملك ، ولا المجتمع كله أيامها . لماذا لم يستطع كل هؤلاء أن « . . يهدوا الجبال هدًّا » لم يقل لنا النائب شيئاً من ذلك . قال فقط إنه يوافق على حرية الرأى . . بشروط . الشروط هى ألا

تمس حرية الرأى شيئاً من الأخلاق ، ولا تقترب من الآداب ، ولا تناقش التقاليد . مثل هذه الكلمات المطاطة – الأخلاق . والآداب والتقاليد – يمكن أن تتحمل تحتها كل رأى . . ويمكن أن يصادر باسمها أى رأى!

بهذا الأسلوب فى المناقشة كان يتحدث المعارضون لكتاب طه حسين . أسلوب آخر استخدموه فى تأليف الكتب ضده . فبمجرد ظهور كتاب طه حسين . . بدأت تظهر الكتب العديدة لمعارضته . معارضة لا تتم بين حجة وحجة –ياريت– ولكنها تتم بين حجة . . وعصا غليظة يمسك بها المعارضون .

خذ مثلا هذا الكتاب الذى خرج بعنوان (نقض كتاب الشعر الجاهلى) . كتاب من تأليف الشيخ محمد الخضر حسين المدرس بكلية الشريعة بالأزهر و « . . أحد علماء الأزهر ، وجامع الزيتونة ، وأستاذ آداب اللغة العربية بالمدرسة السلطانية بدمشق » ، وصفات رنانة أخرى .

إن الكتاب يبدأ بتصدير كتبه « . . حضرة صاحب الفضيلة العلامة النحرير والقدوة الشهير، مولانا الأستاذ المحقق الشيخ عبد الرحمن قراعة مفتى الديار المصرية » .

يقول الأستاذ المحقق فى تصديره : « . . إن الباطل ما برح يحارب الحقيقة الإسلامية المغلولة بسيوفه وشبهاته الضئيلة ، ثم يرجع خائباً بغير جدوى . وقد عاد اليوم إلى جولة يدفعه إليها نفر من المتأثرين بكتب الداعين إلى معاداة دين سيد المرسلين ، سقطوا على ما فيها من تضليل فالتقطوا منه ما راق لهم ، وظلوا يفرضونه على أنظار قرائنا وأسماع الطلاب من أبنائنا ، زاعمين أنه بضاعة جديدة هى تراث قرائحهم ونتائج أفكارهم ، محاولين بذلك تقويض بناء قامت فضائله الشامخة على أساس متين من الحقائق الراسخة . . فاستاء من عملهم هذا أهل العلم الصحيح

والأدب الصريح . ومن هذه الكتب رسالة عنوانها (فى الشعر الجاهلى) ، عرف صاحبها التعصب لكل ما فيه كيد للإسلام وحط من جلاله وفضائل عظمائه وآله » .

هل قرأ أحد كلاماً موضوعياً فى السطور السابقة ؟ . أبداً . لم تضم السطور غير كلمات رنانة ضخمة ، ثم اتهامات خطرة ضد المؤلف وليس ضد الكتاب . اتهامات أن المؤلف ناقل سارق مقتبس لأفكاره من أفكار المعادين للإسلام . هذا كل شيء !

إن نفس التحليل ينطبق بعد ذلك على الكتاب كله الذى حمل عنوان (نقض كتاب فى الشعر الجاهلى) .

إن المؤلف — محمد الخضر حسين — يقول فى سطوره الأولى من الكتاب : « وقع تحت نظرى هذا الكتاب — يقصد كتاب طه حسين — وكنت على خبرة من حذق مؤلفه فى فن التهكم ولو بالقمر إذا اتسق ، والتشكيك ولو فى مطلع الشمس الضاربة بأشعتها فى كل واد . . فأخذت أقرؤه بنظر يزيح القشر عن لبابه ، وينفذ من صريح اللفظ إلى لحن خطابه ، وما نفضت يدى من مطالعة فصوله ، حتى رأيتها شديدة الحاجة إلى قلم ينبه على علاتها ، ويرد كل بضاعة على مستحقها . وما هو إلا أن ندبت القلم لقضاء هذا المأرب وسداد هذا العوز . . فلم يتعاص على » . .

ولكن يد المؤلف لم تكن تحمل قلماً . فى الواقع أنها كانت تحمل عصا يطارد بها المؤلف طه حسين . عصا يتوقع القارئ أن يراها فى أى لحظة تبرز بعد كل سطر من سطور الكتاب . عصا طويلة مدببة تهوى على رأس طه حسين وأفكار طه حسين .

فمن كلمات المؤلف نفسها نكتشف أن له رأيه الخاص الى فى طه حسين قبل أن يقرأ كتابه . إنه على خبرة سابقة من مهارة طه حسين فى « . . فن التهكم ولو بالقمر إذا اتسق » . لهذا فإنه بدأ يقرأ كتاب طه حسين

وهو لا ينوى النقد الموضوعى ولكن يريد أن « يزيح القشر عن لبابه ، وينفذ من صريح اللفظ إلى لحن خطابه » هكذا يسجل المؤلف أنه من البداية لا ينوى أن يأخذ ألفاظ طه حسين بمعناها الصريح الواضح ، ولكن بمعناها الدفين المستتر بين السطور . هذا رجل بوليس يطارد مجرماً . . وليس منطق مؤلف يناقش مؤلفاً آخر . إنه منطق يذكرنا ببعض المحاكمات الرومانية القديمة . محاكمات شكلية . محاكمات يبدؤها القاضى بقوله : احضروا لنا حبلا نشنق به هذا المجرم . . بعد أن نحاكمه محاكمة عادلة طبعاً !

إن المجتمع كان يفعل الشىء نفسه مع طه حسين بسبب كتابه . بل إن المجتمع كان يناقض نفسه فى تصرفاته مع كتاب طه حسين ، وأحكامه التى أصدرها على هذا الكتاب . فبعد أن قام المؤلف بتعديل الكتاب شكلت لجنة أخرى لبحثه . وبدأت اللجنة تقريرها بالإشارة إلى هجوم طه حسين فى الكتاب على نظام تدريس أدب اللغة العربية فى المدارس الحكومية . قال التقرير : « . . يهاجم المؤلف هذه الطائفة — يقصد مدرسى اللغة العربية — ويعلل ذلك أن مدارسها مغلقة الأبواب قد حيل بينها وبين الضوء والهواء . وما أشد إيهام هذا التعليل ! وما أخفى وجه الفائدة منه ! وماذا كان عليه لو قرر الحقيقة فى هدوء واطمئنان ليكون لقوله نصيبه من الإرساء والقبول ؟ »

إن اللجنة تسلم إذن مع طه حسين بأنه يملك الحق فى هجومه . ولكن اعتراضها كله أنه لم يقرر « . . الحقيقة فى هدوء واطمئنان » ! غلطة فاحشة !!

وبعد صفحات قليلة يقول تقرير اللجنة من جديد عن نفس النقطة : « . . إن عملا مثل هذا أقل ما يوصم به أنه تشهير بوزارة المعارف وتنكيل بنظمها وطعن جارح فى تصرفاتها ، وهى القابضة على شئون التهذيب ، وهو العائش فى كنفها لا يراعى لها كرامة : ولا يجزيها

بعض حقوقها عليه ، وليس شيء وراء هذا من العقوق » حاشا لله !!

لقد جرؤ طه حسين على توجيه اللوم إلى الكعبة التى تسمى وزارة المعارف . وزارة فوق النقد والمناقشة . غلطة فاحشة أخرى تدل على مدى العقوق الذى تصرف به طه حسين .

بمثل هذا المنطق كانت تجرى مناقشة آراء طه حسين فى الكتاب . منطق مريض . وبمثل هذا الأسلوب كانت قائمة الاتهام ضده . قائمة تختتمها اللجنة بعبارات خطابية تحرض فيها الحكومة على معاقبة هذا الفاجر الفاسق طه حسين . عبارات تقول بعد عرض آراء طه حسين : « . . وهذا ما تبرأ منه النظم العامة ، والأديان ، والأخلاق ، وهذا ما يجب على حكومتنا الساهرة على حياطة الأمن العام أن تقاوم وتحاسب مثيريه » !

إن كتاب طه حسين إذن أصبح شيئاً خطراً على الأمن العام ومن قبل اعتبر الكتاب خطراً على الأخلاق والآداب والتقاليد والدين والإيمان والتاريخ !

مرة أخرى لم تنته الأزمة عند هذا الحد .

لم تنته ، لأنه عندما تفوح الروائح الكريهة داخل مجتمع ، فإنها لا تتوقف . لم يعد يكفى أن النيابة حققت مع طه حسين ، ولا أن ثلاث لجان مختلفة عهد إليها بفحص الكتاب قبل وبعد مصادرته . إن الطلب الأصلى — المعلق — للمعارضة هو أن يفصل طه حسين من الجامعة . مادام لم يفصل بعد . فإن العقوبة الرادعة لغيره لم توقع بعد . لقد جدد المعارضون طلبهم داخل البرلمان فى ٢٩ يوليو سنة ١٩٢٧ ، ثم فى ٥ مايو سنة ١٩٣٠ ، ثم فتح الموضوع من جديد فى البرلمان سنة ١٩٣٢ . إن العقوبة لم تكن مهمة ضد طه حسين قدر أهميتها الآن . فخلال السنوات الماضية أصبح الرجل عميداً لكلية الآداب . ولكن الرجعية الفكرية وجدت مخلباً لها أخيراً على كرسى رياسة الوزارة ،

هو إسماعيل صدقى . هذا هو رئيس الوزراء الذى اختاره الملك فؤاد أخيراً ليحكم بيد من حديد . ولكى يحكم بيد من حديد . . فلا بد أن يفعل أشياء كثيرة . . من بينها بالطبع كبت أى اتجاه لنشر الحرية الفكرية . لهذا كان وجوده فى الحكم فرصة يتجدد فيها الطلب القائم من قبل . . بفصل طه حسين من الجامعة . إن وزارة إسماعيل صدقى قررت فى ٣ مارس سنة ١٩٣٢ نقل طه حسين من الجامعة إلى وزارة المعارف . ولكن هذا أيضاً لا يكفى .

لقد قدم المعارضون استجواباً فى مجلس النواب لوزير المعارف . بدأ الاستجواب بشكر وزير المعارف على « . . موقفه فى رعاية العلم والدين وتقاليد البلاد . وقد بدأ ذلك فعلا فأغلق معهد التمثيل والرقص التوقيعى الذى كان لوجوده مساس بآدابنا العامة وتقاليد الدين » .

بعد هذا الشكر حدد الاستجواب الاتهامين اللذين ينسبهما للدكتور طه حسين وهما :

أولا : « . . . اطلعنا على صورة نشرت بجريدة الأهرام تمثل طلبة كلية الآداب بالجامعة المصرية حول عميدهم الدكتور طه حسين وقد جلست كل شابة إلى جانب شاب . كيف وقع هذا ؟ وكيف تستمر وزارة المعارف على عدم احترام الشعور الدينى والآداب القومية ؟ »

ثانيا : « . . ما يزال كتاب (فى الشعر الجاهلى) يدرس فى الجامعة بعنوان (فى الأدب الجاهلى) . إن تغيير العنوان لم يغير شيئاً من روحه اللادينية . فإن السموم التى أراد الدكتور أن ينفثها فى كتابه ما تزال ماثلة فى كثير من فصوله ومباحثه . . . . . فكيف سكتت وزارة المعارف عن ذلك كله ولم تحرك ساكناً ؟ وكيف تسمح أن يكون ذلك الرجل عميداً لكلية الآداب بالجامعة المصرية ؟ »

أما الاتهام الأول فقد رد عليه الوزير . أما الاتهام الثانى فهو

جوهر المشكلة القديمة . لهذا طالت فيه المناقشة . هكذا تكلم أصحاب الاستجواب عن الكتاب :

* النائب عبد الحميد سعيد : . . . يا حضرات النواب المحترمين . هذه مسألة من أكبر المسائل التى يجب أن نصفيها لتعلم الأمة المصرية أنها كانت مخدوعة فى هذا الرجل وأن من يقيمون الضجة الآن حول هذه المسألة يؤيدونه فى الفسق والفجور والخروج على الآداب القومية والتقاليد الإسلامية . (تصفيق) .

* وحينما يجرؤ نائب واحد – اسمه السعيد حبيب – على مقاطعة الهجوم ضد طه حسين يقف عبد الحميد سعيد من جديد ليقول : « أليس من المدهش أن يوجد فى هذا المجلس من يدافع عن طه حسين ؟ » مدهش . حقاً !

* مرة أخرى يقول أحد النواب : . . يجب أن يكون فى الجلسة فصل الخطاب فى هذا الموضوع . (تصفيق حاد) .

* نائب آخر يقول فى نفس الجلسة : . . إن الجامعات أنشئت لتكون منبعاً للفضائل وموردا عذباً للعلوم وسياجاً للأخلاق وحصن وقاية من الرذيلة . فإذا كان استقلال الجامعات حائلا دون هذا كان عدمها خيراً من وجودها . . . ياحضرات الزملاء – لايكفينا مطلقاً أن ينقل طه حسين من الجامعة إلى وزارة المعارف لأن مركزه بالوزارة يمكنه من الإشراف على فروع التعليم العربى فى أنحاء القطر . وفى هذا من الخطر مالا يخفى على حضراتكم . وإن مثل هذا النقل كمثل نقل جيش الاحتلال من العاصمة إلى منطقة القناة . (ضحك). يا حضرات الزملاء ، إن المعركة ناشبة الآن بين الدين واللادينية ، بين الفضيلة والرذيلة ، بين الحق والباطل ، فلأى فريق أنتم منتصرون لا شك أنكم ستنصرون الحق وتؤيدون الفضيلة وتدافعون عن الدين والأخلاق . . . (تصفيق حاد . . متواصل) .

لماذا كان هذا التصفيق .. الحاد .. المتواصل؟ هل كان حقاً تصفيقاً للفضيلة ؟ للحق ؟ للدين؟ للأخلاق ؟ أم كان لدوافع أخرى أبعد ما تكون عن الفضيلة والحق والدين والأخلاق ؟ هل كان بسبب كتاب الشعر الجاهلى حقاً ؟ لقد سحب الكتاب من السوق وعدل . هل كان بسبب محاضرات طه حسين فى الجامعة ؟ لقد نقل طه حسين من الجامعة. إذن . . لماذا ؟ لماذا هذا الإصرار على أن تتم المطاردة حتى النهاية .. لماذا الإصرار على أن توقع العقوبة كاملة ؟ كل هذا حتى لا يفكر شخص آخر بحرية ؟ كل هذا لتحذير الآخرين من فحص أفكار المجتمع ومراجعتها ؟

نعم . هذا هو الوقود المتجدد فى الأزمة . السبب القائم دائماً . العقوبة المطلوبة دائماً . المطاردة التى لا تتوقف أبداً .

إن المطاردة لم تنحصر داخل البرلمان، ولا داخل مجلس الوزراء ، ولا داخل صفحات الكتب . إنها مطاردة استخدمت كل وسيلة . وجربت كل سلاح.

لم تهدأ المطاردة إلا حينما تقررت العقوبة الأصلية أخيراً . عقوبة الفصل والطرد . لم تهدأ المطاردة إلا حينما اجتمع مجلس الوزراء برياسة إسماعيل صدقى فى ٢٠ مارس سنة ١٩٣٢ وأعلن أنه « قرر مجلس الوزراء فصل الأستاذ طه حسين أفندى ، الموظف بوزارة المعارف العمومية ، من خدمة الحكومة » .

لقد تقررت العقوبة أخيراً . عقوبة ضد العقل والتفكير والمنطق والحرية . لا يهم . كل هذا لا يهم . أكثر من هذا لا يهم أيضاً .

فلا يهم مثلا أن أحمد لطفى السيد مدير الجامعة قدم استقالته احتجاجاً على هذا القرار الظالم بفصل طه حسين . لقد ذكر مدير الجامعة فى خطاب استقالته الذى أرسله إلى رئيس الوزراء إن فصل طه حسين هو أمر يمس كرامة البحث العلمى وكرامة الجامعة. يمس حرية التفكير

وحرية الرأى . يمس أبسط الحقوق التى يعترف بها أى مجتمع لأفراده .

ولكن استقالة مدير الجامعة لا تهم أيضاً . إن ما يهم الحكومة والبرلمان والملك ورئيس الوزراء هو أن توقع عقوبة حاسمة ضد طه حسين كإنذار لغيره وعبرة لمن تحدثه نفسه بالخروج على رأى المجتمع .

الآن فقط يمكن أن تهدأ المطاردة التى بدأت منذ ست سنوات . الآن فقط يمكن لكل القوى الكريهة فى المجتمع أن تعلن ابتهاجها وانشراحها للنتيجة التى توصلت إليها أخيراً . ابتهاج تم التعبير عنه . حتى بالشعر .

لقد نشر أحدهم قصيدة شعرية بعنوان «إلى طريد الدين والعلم» يقول فيها مخاطباً طه حسين :

بغضت بالإلحاد ذكر الجامعة
للناس لا فاتت يديك الجامعة
غادرتها للهزل داراً بعد أن
كانت ترجى للحياة النافعة
تملى بها التشكيك ليس العلم يا
أعمى التشكك فى الأمور الواقعة

شاعر آخر ، وقف يمدح رئيس الوزراء إسماعيل صدقى ، على قراره بفصل طه حسين ، فقال :

يكفيك أن أنقذت دين محمد
من شر طغيان اللئيم المفسد
لو أن شرع الله يجرى حكمه
لقضى بإعدام الشقى الملحد

نعم . لم يكف أن يفصل طه حسين . كان يجب إعدامه . معلهش . نعوضها فى المرة القادمة !

طه حسين يتكلم :

عندما طلب الملك فصلى !

اشتعل الحريق . . لم ينطفئ . .

لم تصل القصة – بعد – إلى نهايتها . . لم تصل – حتى – إلى ذروتها . . مازال الترمومتر يرتفع ويرتفع ، مسجلاً السخونة المتزايدة فى أحداث هذه المعركة . أحداث رأيت أن أسمعها من طه حسين نفسه . . فى منزله بشارع الهرم بالقاهرة . .

إن طه حسين – حينما تراه – لا تتذكر سوى كلمة واحدة : مصرى ! إن وجهه يبدو « مصرياً » . . ولا شىء آخر ! لا شىء خارق فى ملامحه ، غير نظارته السوداء ورأسه المتجه دائماً إلى الأمام إلى المجهول .

وتستطيع أن تتخيل طه حسين – هذا الرجل المتوسط طولا والنحيف جسماً . . بشعره الأبيض وعظامه البارزة – تستطيع أن تتخيله مدرساً فى الابتدائى ، أو موظفاً فى الحكومة ، أو إماما فى مسجد . إنه ليس أكثر من مصرى . نموذج جسمانى مركز للشخصية المصرية التى تقابلها فى الطريق . إذا قابلته فى الطريق فإنه قد يمر أمامك دون أن يتوقف نظرك عليه . إنك لن تفعل ذلك إلا حينما تجلس أمامه وتسمعه يتحدث . هنا فقط يبدأ طه حسين فى التميز والتأثير .

إن طه حسين لديه أسلوبه الخاص فى البساطة . بساطة الحديث وبساطة المناقشة . إن عقله معك : هادئ ومناقش ومستمع . وجهه أمامك : تتغير تعبيراته تبعاً للوقائع المتتالية التى ترد إلى خاطره . صوته فى أذنك : تتغير طبقاته أيضاً بحسب لهجته . لهجة يتخللها كثير من

الاستنكار وقليل من الضحك . وحينما يضحك طه حسين فإن ضحكته ليست كاملة أبداً . بالكثير شروع فى ضحك !

كنت أريده أن يتابع معى تطورات أزمته فى كتاب (فى الشعر الجاهلى) . وعلى الفور بدأ طه حسين يتذكر كل وقائع الأزمة. وقائع لا ينساها أبداً .

لقد بدأ حديثه بصوت هادئ متسامح .. لا يرتفع . تكلم بطبيعته وبساطته . . كأم تروى أسطورة لطفلها . أسطورة حدثت فعلا . . وفيها عفاريت . وشياطين وأشباح فعلا . وكلما تحدث طه حسين تعود هذه الأشباح والعفاريت إلى الحركة من جديد . كلما تكلم تحركت الشياطين بشراسة أكبر . وفيما بين الشبح والشبح — الشيطان والشيطان — يتوقف طه حسين عن الحديث لحظات قليلة . لحظات يتحول فيها إلى غطاس يغوص فى أعماق هذه الأزمة ليخرج لك عينات من تلك الأرض الفكرية التى تختفى تحت سطح حياتنا العامة . عينات قذرة تحتاج بعد الإمساك بها إلى غسيل يدك وعقلك . إن الماء العادى لا يزيل أثر هذه القاذورات الفكرية ، لابد من مطهر يزيل من رأسنا كل التهم التى ألقيت على طه حسين بسبب كتابه « الشعر الجاهلى » . اتهامات عبر بها أصحابها عن أسلوبهم فى معالجة الأزمة . إنهم — خلال الأزمة — لم يكونوا يعبرون عن مشاعرهم نحو الكتاب ، ولا مؤلف الكتاب كانوا يبصقون ولا يعبرون . يبصقون مشاعرهم وآراءهم ، كمريض السل الذى يبصق دمه . . كاشفاً عن المرض الداخلى الخطير الذى يعانى منه .

هكذا كنت أحس كلما ناقشت واقعة جديدة من وقائع الأزمة مع طه حسين.

قلت لطه حسين : لقد صدر ضدك قرار من مجلس الوزراء بفصلك من العمل فى الحكومة ، عقاباً لك على الكتاب . هكذا كان القرار ثأراً لدين قديم — وآراء جديدة — ناديت بها منذ سنوات . ولكن السؤال

هو : ما هى المناسبة ؟ لماذا لم يصدر قرار الفصل إلا فى تلك السنة — سنة ١٩٣٢ ؟

أجاب طه حسين : لأنه فى هذه السنة ظهرت أسباب جديدة — إلى جانب السبب القديم القائم . ومن هذه الأسباب موقف لى مع وزير المعارف العمومية حينذاك : حلمى عيسى . لقد طلب منى حلمى عيسى وزير المعارف أن أزوره فى مكتبه . ذهبت إليه ومعى عبد الوهاب عزام — رحمه الله — وفى أثناء الزيارة قال لى وزير المعارف : « يا طه حسين . . باعتبارك عميداً لكلية الآداب ، نريد منك أن تقدم اقتراحاً للجامعة بمنح الدكتوراه الفخرية لعدد من كبار الأعيان . . يحيى إبراهيم وعلى ماهر وعبد الحميد بدوى وعبد العزيز فهمى وآخرين » .

ولكنى على الفور قلت لوزير المعارف : « ياباشا . . عميد كلية الآداب ليس عمدة . . تصدر إليه الأوامر من الوزير . أنا لا أوافق على إعطاء الدكتوراه الفخرية لأحد ، لمجرد أنه من الأعيان . لا أوافق . . ولا أستطيع حتى أن أعرض هذا الأمر على مجلس كلية الآداب . . لأن المجلس لن يوافق » .

فى هذه اللحظة — يقول طه حسين — بدأ التجهم والغضب كاملين فى صوت وزير المعارف. لقد رد الوزير « طيب. . أنت لا تسمع الكلام؟ حانشوف مين ينفذ كلامه» ! ! وفعلا . . عرض الأمر على مجلس كلية الآداب . ورفض المجلس منح الدكتوراه الفخرية للأعيان المذكورين .

الآن إذن ظهرت المناسبة للتحرك ضد طه حسين . سبب جديد آخر يضاف إلى الإسباب المخزونة من قبل.

ثم جاءت مناسبة أخرى.

يقول طه حسين : جاء الملك فؤاد بعدها بقليل لكى يزور الجامعة وكلياتها . وقبل وصوله سألنى زملائى — باعتبارى عميداً للكلية —

« هل نلقى محاضرات خاصة بمناسبة زيارة الملك ؟ » قلت لا . كل محاضرة كما هي ، وكل أستاذ فى محاضرته المعتادة . وحينما وصل الملك ودخل أول قاعة للمحاضرات فوجئ بالطلبة يستمعون إلى محاضرة عن النظام الدستورى . غضب الملك . ثم غضب مرة ثانية حينما دخل عدلى باشا — رئيس مجلس الشيوخ حينئذ — فصفق له الطلبة أشد مما صفقوا للملك ، فى الواقع أنهم لم يصفقوا للملك أصلا . هنا قال الملك فؤاد : « كيف يصفق الطلبة لعدلى ولا يصفقون لى ؟ هذا عمل من تدبير الملعون طه حسين » !

* * *

الآن — الآن فقط — أصبح الجو ملائماً للتحرك ضد طه حسين . لقد تعرض لغضب أكبر سلطة فى البلد . سلطة لا ترحم . ومن قبل تعرض لمعارضة وزير المعارف . وزير لا ينسى . ومن قبل الاثنين تعرض لسخط البرلمان . سخط مستمر . الآن فقط أصبح لابد من إجراء حاسم ضد طه حسين . لقد أوعزت الحكومة إلى أحد نوابها فى البرلمان بإعادة فتح موضوع كتاب (فى الشعر الجاهلى) من جديد . بعدها صدر القرار الذى تقرر من قبل : أولا بنقل طه حسين من كلية الآداب إلى وزارة المعارف ، وثانياً فصله من وزارة المعارف .

هكذا جاءت العقوبة الرسمية أخيراً . بعد ست سنوات من الهجوم والتشهير والتهديد . . تحركت السلطة ضد أستاذ الجامعة . تحركت الحكومة ، تحرك البرلمان ، تحرك الملك .

الآن أصبح طه حسين فى الشارع . ليس فى جيبه جنيه واحد . ليس فى بيته رغيف خبز . لقد بدأ أخوه ينفق عليه . يعطيه معونة يشترى بها الخبز لنفسه ولأسرته . هذا من بقى له أخيراً : أخوه . لا الزملاء ولا الأصدقاء ولا الأقرباء ظلوا معه . حينما تتحرك السلطة ضد أحد يختفى كل هؤلاء .

فجأة أصبح كل هذا سراباً : الوفاء ، النزاهة ، الحرية ، العدالة الحقوق . من الذى يستطيع الآن أن يعيد لطه حسين حقه الضائع فى مواجهة الحكومة ؟ من الذى يستطيع أن يرفع عنه ظلم السلطة ؟ من . . من . . من ؟ آه . . هناك ملجأ أخير : القضاء ! هكذا ذهب طه حسين إلى ساحة العدالة يطلب الثأر لحقه الضائع . ذهب يطلب إنصافه . . ضد الحكومة. الآن أصبحنا أمام قضية . قضية حقيقية تنظرها المحكمة . المدعى : طه حسين ، عميد سابق لكلية الآداب . المدعى عليه : الحكومة المصرية . محامى المدعى : علوبة باشا . الحكم : يؤجل للجلسة القادمة !

حينما رفع طه حسين هذه القضية ضد الحكومة . بدأ كل شىء على ما يرام حينما تأجلت القضية للنطق بالحكم . المحامى أدى واجبه . كان ممتازاً . الظلم واضح . القاضى مقتنع . لكن نسى طه حسين ومحاميه أن هناك مفاجأة حملها الحكم . مفاجأة لم يشرح طه حسين أسبابها . مفاجأة سمعها طه حسين فى الجلسة التالية . الحكم : ترفض الدعوى .

* * *

عند هذه النقطة توقف طه حسين عن الحديث . توقفت ذكرياته لحظات قليلة . لحظات لم يعد يسمعنى فيها طه حسين . لم يعد يتذكر أننى أجلس إلى جانبه . أجلس شاباً ، صامتاً ، قلبى فى حلقومى ، دمائى فى رأسى . لقد نسينى طه حسين تماماً . أنا الآن غير موجود بالنسبة له . الموجود فى ذهنه هذه القضية التى خسرها ببساطة . الماضى فقط . الكتاب فقط . . الأزمة فقط . . الطرد من الوظيفة فقط . هذا كل ما يحتل رأس طه حسين الآن .

هكذا انقضى ربع ساعة ، نصف ساعة ، لا أتذكر بالضبط . إن لحظات الأزمة — كلحظات تذكرها — هى شىء خارج الزمن . . خارج العقل . إن وقائع الأزمة تعيد ذكريات طه حسين إلى نصف

قرن مضى . ولكن أسلوبها يعيده قروناً طويلة إلى الخلف . قروناً كان المفكر يعامل فيها كشخص خارج على القانون — أسوأ من خارج على القانون — خارج على الطاعة . طاعة الحكومة والسلطة والسياسة .

عدت أسأل طه حسين : أكانت السياسة هي السبب الرئيسي في الأزمة التي أثارها كتاب (في الشعر الجاهلي) . . أم أنها كانت سبباً إضافياً . . أرجو أن تعود بذاكرتك إلى السنة التي صدر فيها الكتاب . . سنة ١٩٢٦ . .

أجاب طه حسين : كانت السياسية طبعاً واحداً من الأسباب الرئيسية . الملك فؤاد كان يكرهني لأنه ضد الديمقراطية السياسية التي أدعو إليها . وسعد زغلول كان زعيما لحزب الوفد . حزب كنت أهاجمه في جريدة « السياسة » التي كان يصدرها حزب الأحرار الدستوريين . لهذا تحرك الأزهر ضدي وتحرك نواب الوفد في البرلمان ضدي . .

قلت : بالنسبة للأزهر . . هل استمر هذا موقفه منك بعد الكتاب ؟

رد طه حسين : لم يتغير موقف الأزهر مني إلا بعد سنوات طويلة تالية . لقد وصل التغيير فيما بعد إلى درجة أنهم عرضوا على أن يمنحوني شهادة العالمية تكريماً لي . ولكني اعتذرت عن عدم قبولها . قلت لهم لا أريد أن أصبح في النهاية مثل على عبد الرازق ، أحصل على العالمية ثم يسحبها الأزهر مني ! ! حدث ذلك أيام كان الشيخ عبد المجيد سليم إماماً للقصر .

— وبالنسبة لسعد زغلول . . ماذا كان موقفه الحقيقي من كتابك ؟

— عندما قاد الأزهريون مظاهرتهم إلى بيت الأمة — بيت سعد — خطب فيهم خطبته المشهورة التي انتهت بقوله « . . وماذا علينا إذا لم تفهم البقر » هذا رأى سعد زغلول الذى أعلنه في .

ولكن سعداً نفسه قال لأحمد لطفي السيد بعد ذلك : « يا أخي . . يعني طه حسين بتاعك ده . . مش كان لازم يفتكر أن البلد ما زال

لا يتحمل بعد مثل هذا الكتاب » ؟ ! أى أن سعد هاجمنى أمام الجمهور مرة . اعتبرنى بقراً . ثم هاجم من هاجمونى أمام أحمد لطفى السيد مرة .

ـ فى أى من الرأيين . . تعتقد أن سعداً كان صادقاً ؟ !

ـ ربما فى الاثنين ؟ !

ـ ولكنى لا أتصور أن سعد زغلول كان معادياً للكتاب . . أو معادياً لك . .

ـ بالعكس . سعد دافع عنى أكثر من مرة . . قبل صدور الكتاب وبعده .

قلت لطه حسين : إذن . . كيف تفسر موقف سعد المتعارض فيما بعد : يشتمك أمام الجمهور . . ويدافع عنك أمام أحمد لطفى السيد ؟

ـ أفسره بأن سعداً أراد تهدئة الجمهور . .

ـ أى أن سعداً كان سياسياً أمام الجمهور . . وأنه تظاهر بأنه معهم لكى يهدئهم . .

ـ نعم . وحتى حينما تجدد عرض موضوع الكتاب على البرلمان بعد ذلك رفض سعد السماح بمناقشة الموضوع مرة أخرى وقال للنواب : هذا الموضوع انتهى ولا نريد أن نعود إليه من جديد . (توفى سعد فى سنة ١٩٢٧) .

قلت : حينما أعلنت إسلامك فى خطابك إلى مدير الجامعة . هل كان هذا اعتذاراً منك . . أو يحمل معنى الاعتذار ؟

أجاب طه حسين : مطلقاً . لم يكن اعتذاراً قط . كان حلاً وسطاً رآه رئيس الوزراء . .

ـ إذن لماذا اخترت ألفاظاً قاطعة تؤكد بها إسلامك . . ألفاظاً مثل « أنا مسلم أومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر » ؟ !

ـ لأن القرآن يقول هذا . يقول : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه

والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » . الآية قبل الأخيرة من سورة البقرة .

قلت لطه حسين : الآن مضت سنوات طويلة على تلك الأزمة . وأريد أن أسألك الآن بصراحة : هل جاء فى نيتك – فى أثناء تأليف الكتاب – أن تشكك فى الإسلام أو تمسه ؟

– لم يرد فى ذهنى شىء من هذا مطلقاً . ولقد أثبت للنيابة حينما حققت معى أننى لم أقصد قط المساس بالدين .

– إذن . . لماذا حذفت فصلا من الكتاب عندما أعدت طبعه بعد الأزمة ؟

– لأننى لا أريد تجدد الأزمة .

– قبل أن تصدر الكتاب . . هل كنت تتنبأ أنه سيؤدى إلى كل هذه الإزمة ؟

– لا .

– ولو افترضنا أنك كنت تستطيع التنبؤ مقدماً بالأزمة . . هل كنت تستمر فى تأليف الكتاب ؟

– طبعاً . لأن الكتاب هو رأى آمنت به واقتنعت . ولأنى آمنت أيضاً بشىء آخر : أن الحرية ضرورية لأى أمة تريد أن تنهض وتعوض مافاتها . إن الحرية شرط أساسى للفكر ، مثلما هى شرط ضرورى للأدب والعلم والفلسفة والفن .

قلت : فى صفحة ٥٨ من الكتاب ناقشت أنت هذه النقطة . نقطة أن الأديب والمؤرخ وكل مفكر . يحتاج إلى الحرية التى تسمح له بأن يقول ما يؤمن به . . سواء أعجب الناس أو لم يعجبهم . .

– نعم . لأن الحرية شرط أساسى للأدب ، مثلما هى شرط ضرورى للأدب والعلم والفلسفة والفن .

– هل تؤمن بذلك اليوم ؟

ـ أنا اليوم أشد تصميماً على ما آمنت به من قبل .
ـ هل تعتقد الآن بأن الحرية مفيدة للأدب أو مضرة ؟
ـ مفيدة طبعاً . . كيف تكون الحرية مضرة ؟!
ـ ألم تحس بالخوف وأنت تتابع تطورات الأزمة التى أثارها كتابك ؟
ـ لا .
ـ لماذا إذن لم تعد الفصل المحذوف إلى الكتاب ؟
ـ لأنى أريد أن أريح نفسى وأريح الناس.
ـ هل لديك الآن نسخة من الكتاب الأصلى ؟
ـ أبداً .
ـ لماذا ؟

ـ لقد طلبت من الجامعة بعد سنوات طويلة . أن تعطينى نسخة من مئات النسخ التى اشترتها من الكتاب إبان الأزمة . ولكننى وجدت أن كل النسخ التى كانت بمخازن الجامعة قد اختفت . أخذها الناس من المخازن .

ـ هل كان موقف الملك فؤاد منك متناقضاً هو الآخر ؟

ـ نعم . كان متناقضاً جداً . إن الملك فؤاد حينما عدت من بعثتى بأوروبا ـ قبل صدور الكتاب بسنوات ـ استقبلنى بترحاب شديد جداً وقال لى : أرجو أن تعتبرنى أخاك الأكبر .

وحينما ذهب إليه أحمد لطفى السيد بعد ذلك يعرض عليه أسماء الأعضاء الذين اختارهم للمجمع اللغوى قال الملك فؤاد : كيف تضع كل هذه الأسماء . . وتنسى أحسن واحد عندنا . . تنسى طه حسين ؟ ! هذا كلام فارغ . ضع اسم طه حسين. أقول لك ذلك برغم أننى أكرهه. إننى أكره طه حسين . . ولكننى أحترمه .

ـ لماذا إذن لم يستمر هذا الموقف من الملك فؤاد فيما بعد ؟

ـ لأنه بدأ يدرك أنى مؤمن بالحرية السياسية والحياة الدستورية . . وأدعو لهما . قبل ذلك كان الملك لا يحبنى ولكنه يحترمنى . بعد ذلك

أصبح الملك لا يحبنى . . ولا يحترمنى أيضاً !

– لماذا لم يؤيدك أصدقاؤك علناً فى أثناء الأزمة . . أحمد لطفى السيد مثلا ؟

– لم يتنكر لى لطفى السيد. ولكنه أيضاً لم يؤيدنى علناً حتى لا يتحول الهجوم إليه .

– هل أدى هذا الإرهاب الفكرى الذى تعرضت له . . إلى التأثير على مواقفك فيما بعد . . التأثير على أساوب محاضراتك فى الجامعة مثلا ؟

– لا . لم يحدث . بل إنه حدث بعد ذلك أن أحمد لطفى السيد أبلغنى باعتباره مديراً للجامعة أن رئيس الوزراء – محمد محمود باشا رحمه الله– قال له: « نحن الآن فى بداية السنة الدراسية الجديدة . . فقل لطه حسين بتاعك ده . . ألا يتعرض فى دروسه لسيرة القرآن من قريب أو من بعيد » .

وقتها قلت للطفى السيد : حاضر . .

وفى أول درس التقيت فيه بالطلبة قلت لهم : «نبدأ هذا العام الدراسى الجديد بتفسير القرآن » . وبدأت فعلا أفسر للطلبة الجزء الأول من سورة البقرة . ثم طلبت أحمد لطفى السيد وقلت له : أنا الآن أفسر القرآن للطلبة . . وتستطيع أن تبلغ هذا لرئيس الوزراء . . على لسانى .

قلت لطه حسين : لقد تعرضت للقذف والسب والإهانة والتشهير والتهديد بسبب الكتاب . تعرضت للسخط والهجوم والتشنيع . تعرضت للفصل والجوع والطرد من الخدمة ، ألم يراودك – الآن أو فيما قبل – شعور بالندم على إخراجك هذا الكتاب ؟ !

رد طه حسين ، بثقة وتأكد : أبداً . مطلقاً .

– لو عدت إلى الوراء من جديد . . فهل كنت تؤلف نفس الكتاب ؟

– نعم .

— برغم كل ما جرى . . ؟
— نعم ، برغم كل ما جرى .

* * *

فى هذه الكلمات الثلاث حسم طه حسين موقفه . . نعم . برغم ما جرى . . وما يمكن أن يجرى . . لابد للمفكر أن يقول ما يؤمن به . لابد من ذلك . . وإلا أصبح المفكر كالمرأة التى تبيع نفسها لكل من يدفع الثمن . تبيع أكثر لمن يدفع أكثر . الفكر هو رأى قبل كل شىء . إنه رأى ، موقف ، وجهة نظر من الحياة والناس والأفكار .

هكذا اختار طه حسين لنفسه موقفاً من البداية . اختاره « . . برغم كل ما جرى » . لقد احترقت الشمعة فى يده من طرفيها . أراد أن ينير . . فاحترق . أراد أن يبنى للناس بيتاً جديداً . . تفكيراً جديداً . . فتعرض للقذف بالطوب . . والحجارة . . والوحل . لقد صنع لنفسه أصدقاء وأعداء . لقد جرؤ على أن يكتب الحقيقة . أن يشك بصوت عال . أن يتساءل فى قيمة أفكار ظل المجتمع يؤمن بها قروناً طويلة . . لقد فعل ذلك . . ثم تحمل المطاردة حتى النهاية . إننى أسأله اليوم « أما زالت تؤمن الآن بما قلته فى سنة ١٩٢٦ ؟ » . نعم . هكذا يرد طه حسين . لقد صودر الكتاب ، وحذف منه فصل وأضيف فصل . ولكن المؤلف ما زال يؤمن بما كتبه . هذه هى النقطة . هذه هى المسألة . لا الحذف ، ولا المصادرة ، ولا الطرد ، ولا الجوع غير له رأيا واحداً اقتنع به . لقد ظلت آراؤه معه . . يوماً بيوم . . سنة بسنة .

* *

إن الذين يعنيهم الأمر فى المجتمع المصرى وقفوا — صفاً واحداً — ضد طه حسين . لقد اعترضوه ، هاجموه ، شهروا به ، وأخيراً — عاقبوه .

ولكن هذا الأسلوب كشف عن الخطأ فى تفكيرهم بأكثر مما كشف عن الخطأ فى تفكير طه حسين .

وكلما كان المعارضون يصبحون أكثر شراسة ، كان هو يصبح أكثر تمسكاً برأيه . عمل يستحق فى حد ذاته أن نقف عنده . إن معظمنا — أياً كانت الأحوال — يسير مع القطيع . إننا نفعل ذلك لأن الخروج عن القطيع هو فى الواقع أمر يتطلب شجاعة بالغة ، ثم يتطلب شجاعة أكبر عندما تكون العقوبة التهديد بالقتل مثلا ، كما حدث مع طه حسين .

ومع أن أصحاب السلطة فى هذا القطيع كان لهم الانتصار الأخير ، فإنه لم تكن لهم الكلمة الأخيرة . فلقد كان انتصارهم مؤقتا بقدر ما كانت سلطتهم مؤقتة . فحتى قبل أن يتمكنوا من فصل طه حسين ، استطاع عدد من الأصوات أن يسجل اعتراضه على هذا الأسلوب فى معاملة الرأى المختلف مع المجتمع . إن أحمد أمين ومحمد عوض محمد وأحمد لطفى السيد والسنهورى مثلا كانوا بعض هذه الأصوات القليلة التى وقفت مع طه حسين تؤيده بشدة . إن اعتراضهم على المجتمع لم يكن دفاعاً عن طه حسين فقط . ولكنه كان أيضاً دفاعاً عن النفس . لقد أدركوا أن الحبل إذا التف حول عنق طه حسين اليوم ، فسوف يلتف حول أعناقهم — كمثقفين — غداً . لأن حرية الرأى عندما تنتشر يستفيد منها الجميع ، وعندما تختفى يموت بسببها الجميع . هكذا إذن كانوا أبعد نظراً . . فكانوا فى النهاية أعلى صوتاً . . فى الدفاع عن طه حسين .

ومن ناحية أخرى فإن ما أعطى هذه المعركة كل تلك الأهمية ، هو أنها كانت فى جوهرها قضية مبدأ : هل نريد مواطنا يصفق . . أو مواطناً يفكر ؟ أنريد عقلا يوافق . . أم عقلا يشك ؟ أنريد تاريخاً نقدسه . . أم نريد حقائق نفحصها ؟ أنبحث عن ماض يحيرنا أمره . . أم عن مستقبل يحيره أمرنا ؟ !

إن هذا المبدأ هو الذى أضاف ظروفاً مشددة جعلت كل طرف يصر على رأيه : طرف نقل نتائج ثورة ١٩١٩ من السياسة إلى الفكر . .

وطرف يخشى أن تنقل نتائج ثورة سنه ١٩١٩ من الفكر إلى السياسة .
طرف يريد رفع الوصاية عن عقول مواطنيه ، حتى يتم رفعها عن أرضهم . . وطرف آخر لا يريد .

إنه لا يريد – ليس لأنه لا يرغب فى الحرية فقط – ولكن لأنه يخاف من الحرية أيضاً . الحرية مخيفة ؟ نعم . أحياناً تكون الحرية مخيفة ! إنها مخيفة . . لأن الحرية هى أيضاً . . مسئولية . أن تكون حراً معناه فى الوقت نفسه أن تكون مسئولا . إن السجين لا يبحث فى داخل السجن عن الطعام، لأن غيره سيأتى له به . ولكنه إذا أراد الخروج من السجن فلابد أن يصبح مسئولا عن طعامه . . عن نفسه . . عن حريته .

وفى المجتمع المصرى أيامها كانت هناك قوى كثيرة تخاف من الحرية. إنها تخاف من الحرية على سلطتها . . وتفكيرها . . ووجودها . إنها تخشى من أن تصبح حرية الرأى قيداً عليها ومانعاً لتصرفاتها. لهذا كانت شرسة . وكانت خائفة .

والذين يخافون من الحرية على سلطتهم يطلبون راحة وليس نقداً . راحة البال . وراحة العقل . وراحة التفكير . راحة من المسئولية . من الحساب .

إن راحة البال والتطور هما غالباً عدوان أكثر مما هما صديقان . ومادام التطور – فى المدى البعيد – أكثر أهمية من راحة البال بالنسبة لمجتمع . . فإن على المجتمع أن يضحى براحة البال كلما تعارضت مع ضرورات التطور .

إن التطور كان يفرض على المجتمع المصرى أن يحيط وليده الجديد –الجامعة – برعاية تتفق مع دورها الجديد الذى أصبحت مرشحة للقيام به . من المسجد إلى الجامعة . فطوال قرون طويلة سابقة قامت الكنيسة فى أوربا ، وقام المسجد فى الشرق ، بمهمة تشكيل أفكار الناس فى حياتهم اليومية . إن التطور الجديد الذى أتت به الحضارة الحديثة بدأ

يرغم المجتمع المصرى على قرار حاسم عانى طويلا بسبب تأجيله . قرار : نقل مهمة تشكيل عقول وشخصيات وأفكار الأجيال الجديدة إلى الجامعة . جامعة ما زالت فى دور الطفولة . جامعة تحتاج أول ما تحتاج إلى الحرية . حرية البحث والتفكير والجدل والمناقشة . حرية فحص الأفكار الجاهزة والنظريات الموروثة . حريتك فى أن تفكر ، وأن تعبر عن أفكارك بصوت مسموع . هذا هو جوهر عملية شاقة وطويلة اسمها : البحث عن الحقيقة . بغير حقيقة ، وبغير حرية فى البحث عن الحقيقة ، فإن الجامعة تصبح مستحيلة . إنها تظل ممكنة فقط كشكل وواجهة ومجموعة مبان ، ولكنها مستحيلة كمضمون .

إن المضمون الذى تمثله الجامعة يعتمد تقليداً على ثلاثة مجالات تتحرك فيها : بحوث نظرية وعملية لتوسيع حدود المعرفة — فحص مستمر للأفكار الجاهزة — ثم مشاركة الأفكار والمعرفة مع باقى الأطراف الأخرى المهتمة فى المجتمع .

إن المهمة التى تقوم بها الجامعة هى المسوغ النهائى لمنحها شخصية متميزة . إننا نرى الجامعة — شكلياً — منفصلة عن المجتمع الكبير الملتف حولها ، بسور ضخم يحيط بها . إن هذا السور هو رمز وعلامة . إنه علامة على أن كل شيء فى داخله معنى من الرقابة ومتمتع بالحرية .

إن الحرية إذن بالنسبة للجامعة ، ليست هدفاً فى حد ذاتها . إنها وسيلة لهدف . إنها وسيلة لتعليم الطالب والمدرس على السواء . وسيلة لتدريب العقول الحرة ، ولخلق العقول الحرة . وسيلة لجعل التعلم حواراً يتبادله جيل مع جيل ، والماضى مع الحاضر . لمصلحة المستقبل . أما حينما يفرض المجتمع حراسة مستمرة على الأفكار داخل الجامعة . فإنه بذلك يعلن إرادته فى أن تكون مصنعاً للعقول المغلقة ، وليست ميداناً للعقول المفتوحة

إن العقل المغلق ، من جانب طالب الجامعة ، سوف يظل عقلا ، وسوف يظل من الممكن تهذيبه ، و — ربما — يمكن أيضاً تدريبه .

ولكن لا يمكن قطعاً تعليمه . والعقل المغلق ، من جانب أستاذ الجامعة ، سوف يستطيع أن يعطى التعليمات ، و — ربما — يمكن أيضاً أن يلقى محاضرات . . ولكنه لن يستطيع قطعاً أن يعلم .

هكذا إذن نرى أن الحرية الفكرية ليست هدفاً فى حد ذاتها . إنها وسيلة ضرورية للهدف نفسه الذى قامت من أجله الجامعة . إنها — الحرية — ليست امتيازاً يمنحه المجتمع لطائفة من أعضائه ويسحبه من غيرهم . إنها ليست ترفيهاً . ليست كماليات . إنها — الحرية — « بوليصة تأمين » من المجتمع على مستقبله . بوليصة تأمين تضمن للمجتمع أن الجيل التالى من المواطنين سوف يكون قادراً على إدارة شئونه وبلده بضمير ، بعقل ، بمسئولية .

ولقد كان العمل الذى ارتكبته السياسة ضد طه حسين خالياً من أى شعور بالمسئولية . فلأنك لست محتاجاً إلى ارتكاب أكثر من جريمة قتل واحدة لإثارة الذعر فى مدينة بأكملها . . فإنك أيضاً لست محتاجاً إلى أكثر من اعتداء واحد على الحرية لكى ينتشر الخوف منها فى مجتمع بأكمله . إن تحرك السياسة ضد طه حسين — بتلك العصبية وتلك الهستيريا — قد سحب من الجامعة . . ولو لفترة محدودة تالية . . أهم أربعة أحاسيس يحتاج إليها أستاذ الجامعة . لقد سحبوا منه الإحساس بالاستقرار : فالخوف موجود من خارج الجامعة على البحث داخل الجامعة . سحبوا منه الإحساس بالأمن ، فالمجتمع يقف خارج السور متربصاً لما يحدث داخل السور . سحبوا منه الإحساس بالاستمرار ، فالأفكار داخل عقله يمكن أن تصيبها فجأة شظايا الحساسية التى يحيط بها المجتمع أفكاره . هكذا أخيراً — بعدم عدم الاستقرار والأمن والاستمرار — سحب المجتمع إحساس الأستاذ بالعدل .

إن الذى أضاع العدل من صدام طه حسين مع السياسة ، هو أن السياسة استطاعت أن تسحب القضية كلها بعيداً عن ميدانها الأصلى ،

وتعطيها عنواناً غير عنوانها الحقيقي . لقد جعلوا القضية : « دين أم لا دين » ؟ « إيمان . . أم إلحاد » ؟ في حين أن القضية أساساً هي : حرية . . أم لا حرية .

لقد غاب عنهم — أو ربما كانوا يدركون — أنه قبل أن تموت حرية التفكير والتعبير داخل الجامعة . . تكون قد ماتت في كل مكان آخر بالمجتمع . حينما يتغير اتجاه « الدفة » في السفينة ، يتغير اتجاه السفينة كلها .

* * *

إن هذه المعاني تعيدني فوراً إلى طه حسين ، وأنا الآن في البيت مع صاحب القضية ، مع طه حسين .

لقد تحركت الحياة . تحركت بكل ما تحمله في أحشائها . لقد مضت الأزمة . مضت بكل من تصرف فيها . . كجبان ، أو كبطل . لم يبق في النهاية سوى شيء واحد : أن ما بدا في لحظة شريراً ، مؤلماً ، قذراً . . أصبح هو في النهاية مصدر التفكير والمراجعة والفحص ، فحص أفكار المجتمع أولا بأول . في النهاية يطل لنا الدرس بكل قوته : لا شيء يجب إعفاؤه من المراجعة . لا شيء . . ولا أحد . . بما في ذلك طه حسين نفسه ، الذي أثار كل هذه الزوبعة .

وقبل أن أخرج من بيت طه حسين كان سؤالي الأخير له بسيطاً هل تغير شيء ؟ !

وتمتم طه حسين ، بأسف كثير وخيبة بالغة : لم يتغير شيء كثير !

و . .

حتى هذه الإجابة ، كانت مجاملة من طه حسين !

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٣٩١٨ / ١٩٧٢
مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢



هذا الكتاب

- يقول المؤلف عن كتابه هذا : « إننى أستطيع أن أعطيك قلبى .. فأصبح عاشقاً . أعطيك طعامى .. فأصبح جائعاً . أعطيك ثروتى .. فأصبح فقيراً . أعطيك عمرى .. فأصبح ذكرى . ولكننى لا أستطيع أن أعطيك حريتى . إن حريتى هى دمائى ، هى عقلى هى خبز حياتى . إننى لو أعطيتك إياها فإننى أصبح قطيعاً . شيئاً له ماض .. ولكن ليس أمامه مستقبل .

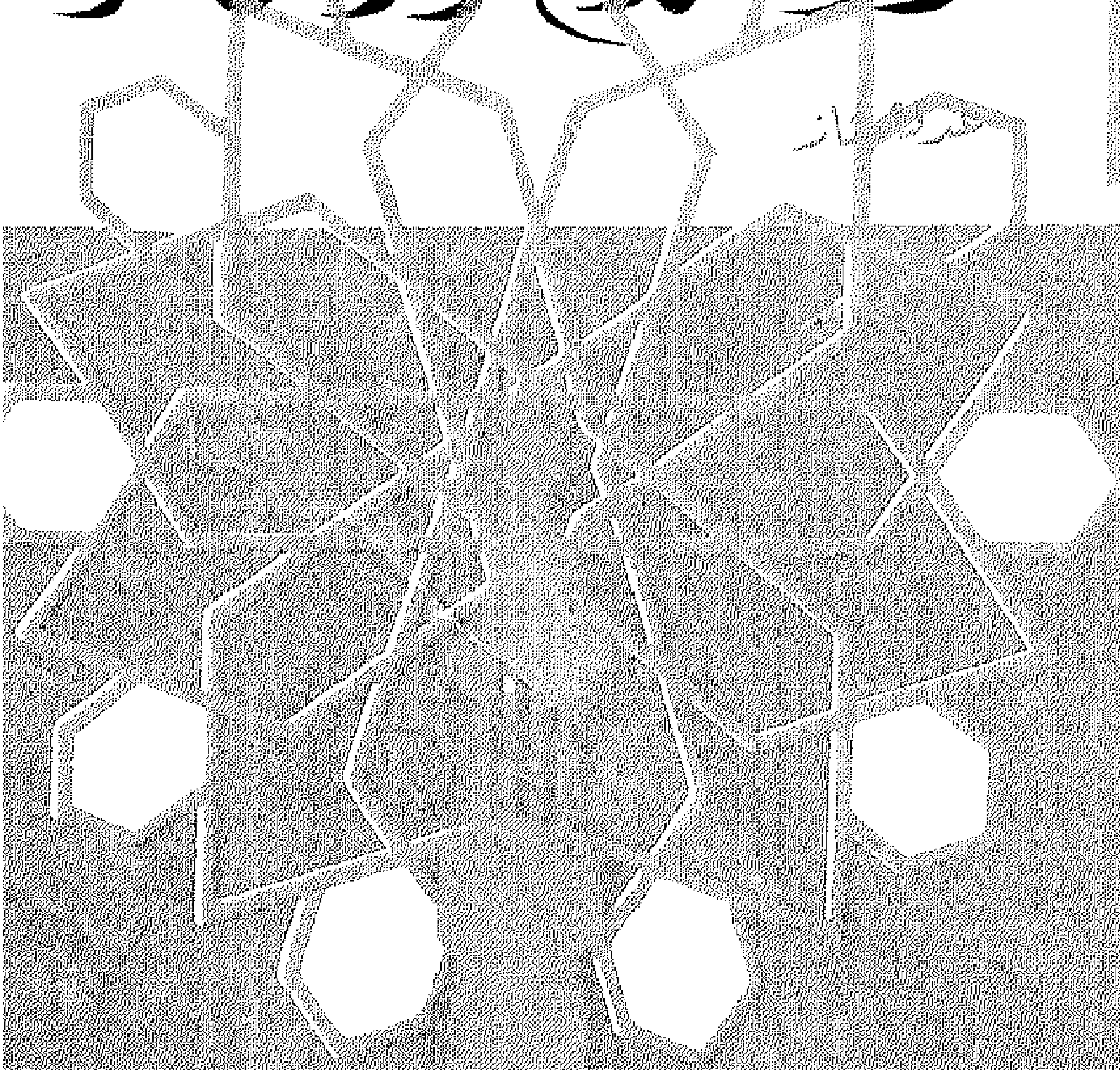
- بهذا المنطق يناقش المؤلف هنا أربع قضايا .. وقف فيها طه حسين وقاسم أمين وعلى عبد الرازق والكواكبى بمفردهم .. ضد مجتمع بأكمله . لقد قال كل منهم كلمته .. ثم وقف بعدها يدافع عنها ويدفع ثمنها لسنوات طويلة من عمره .

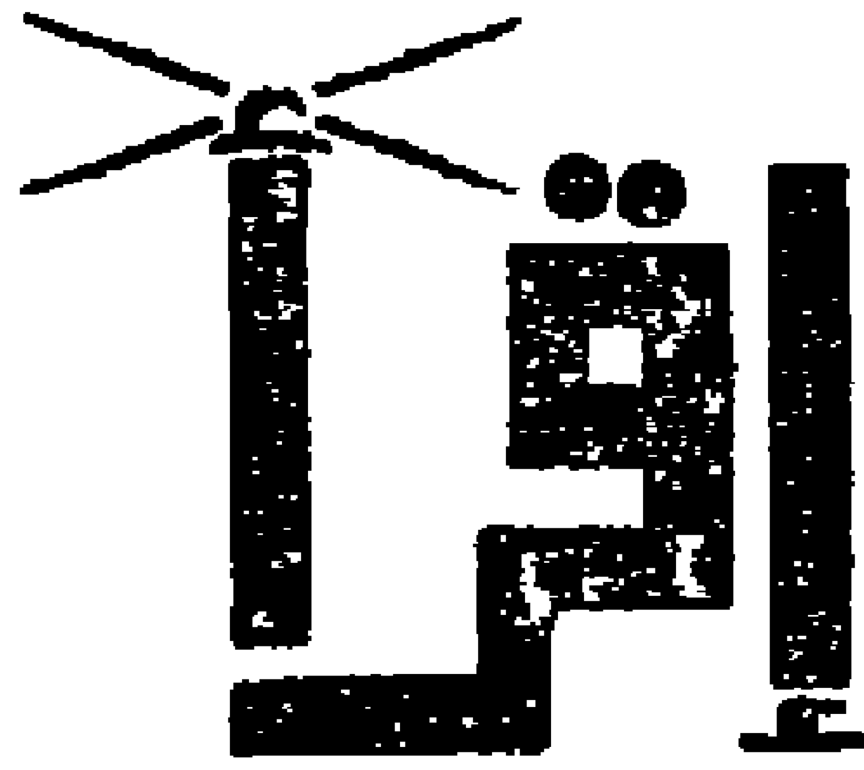
- و ... القضية فى كل مرة هى : حرية الرأى !

اقرأ

دكتور عبد العزيز كامل

الإسلام والعصر





تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر

دكتور عبد العزيز كامل

الإسلام والعصر

اقرأ ٣٥٩

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٥٩ — رمضان — أكتوبر سنة ١٩٧٢

الناشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.م.ع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

مقدمة

• ماذا يستطيع الدين أن يقدم من عطاء للمجتمع ؟

• وكيف يستطيع إثبات ذاته على الصعيد الفكرى والعملى مستخدماً أدوات العصر ؟

هذا هو التحدى الكبير الذى يقابل الدين فى حياتنا المعاصرة ، يقابل الإسلام كما يقابل المسيحية وغيرهما من الأديان الكبرى .

وإن رصد هذه الجهود والاستفادة المتبادلة منها أصبح محل عناية عالمية ودراسة بدون حساسية ، ولعل أقرب الدراسات وأحدثها فى هذا المجال ما قامت به هيئة اليونسكو فى الجزء السادس من كتابها الكبير « تاريخ البشرية » . وهذا الجزء مخصص لدراسة القرن العشرين .

هذه المجموعة من الدراسات التى تمتد زمنيًّا من عام ١٩٦٤ إلى عام ١٩٧٢ محاولات فى هذا السبيل ، أرجو أن يكون من ورائها حوار يفتح الباب لتجارب أكثر منها خصوبة وإثماراً .

٦ من شعبان ١٣٩٢ هـ
١٤ من سبتمبر ١٩٧٢ م

عبد العزيز كامل

الفصل الأول

طريق إلى الإيمان

هذه محاولة للوصول إلى الإيمان عن طريق الفكر ، كتبتها منذ فترة ، لتكون المادة العلمية لفيلم تتعاون فيه الكلمة مع الصورة والنغمة واللحن . .

من أجل هذا جاءت صياغتها وتوازن عباراتها وفقراتها على هذا النهج .

وإذا كانت بعض العقبات الفنية قد حالت — حتى الآن — دون اكتمال التجربة ، فإني لأرجو أن يكون فى قراءتها بعض الفائدة ، على الأقل أن تكون منطلقاً إلى حوار حول أساليبنا فى تقديم العقيدة إلى شبابنا ، أمل المستقبل فى مجتمع العلم والإيمان .

وقد رجعت فى مادتها العلمية إلى كتابات الأساتذة د. أحمد زكي : مع الله فى السماء ، ومجموعة د . عبد الرزاق نوفل ، ونديم الجسر فى قصة الإيمان ؛ ومؤلفات فى علوم الفلك ، والنبات ، والحيوان . . . والحياة الإفريقية ، ومن أهمها مؤلفات دكتور جمال الفندى وبازيل دافيدسن .

١

● هذا القلق الذى يعيش فيه الإنسان :

ـ قلق على مصير الإنسانية من حرب ذرية شاملة .

ـ قلق فى الدول المتقدمة من رعب تعيش فيه ، تحاول أن تغرقه فى الترف أو تغطيه بالبطش أو سباق التسلح .

ـ قلق فى الدول النامية مما تعانيه من حرمان ، وما تتطلع إليه من أمل ، وما تحمله من أعباء .

ـ قلق فى العلاقات الدولية من تناقض يعيش فيه العالم :

ـ بين أطماع المستغلين وحقوق الكادحين .

ـ بين تقدم العلم واستخدامه فى الحرب أو السلام .

ـ بين وفرة الإنتاج وتوزيعه .

ـ بين الثقة والشك .

● هل نحن مقبلون على عالم جديد من الإخاء والسلام أو مقبلون على فناء رهيب تصبح به الدنيا قبراً كبيراً . . ؟

● عالمنا هذا

هل ينقصه العلم ؟

هل ينقصه المال ؟

هل ينقصه الإنتاج ؟

كلها آخذة فى الزيادة وإليها تتجه جهود دائبة .

● فما العنصر المفقود الذى جعل من ثمار العقل الإنسانى وكشوفه المتفتحة — وجعل من خيرات البر والبحر والسماء أسلحة خطرة فى يد تجار الحروب . . ؟

— الذى جعل العلم سلعة وسلاحاً وسوط عذاب فى يد القوى . . ؟

— الذى جعل المال مكدساً عند قوم يتفننون فى إنفاقه ، ويحرمون منه قوماً هم فى أشد الحاجة إليه . . ؟

— الذى جعل الإنتاج أسراراً وحرباً وصراعاً . . ؟

— الذى جعل الطعام ترفاً لحيوانات مدللة ، وحرم منه أطفالا يتضورون جوعاً . . ؟

● عالم من العلم والجهل . . والمال والفقر . . والترف والكدح . . والوفرة والحرمان . .

● ما العنصر المفقود الذى يجعل العلم والمال والإنتاج خيرات للإنسانية تسعد بها كما تسعد بشعاع الشمس وضياء القمر وجريان الماء وجمال الزهور . . ؟

إنه الإيمان

إيمان بالله ورسله وما أرسل من بيّنات .
إيمان بالأخوة الإنسانية والكرامة الإنسانية .
إيمان بالحرية والعدل والسلام .
إيمان دعا إليه كُلُّ نبي ورسول . .
يتردّد من فوق المآذن . . وتدقّ به أجراس الكنائس . .

ــ تردّد من البيت الحرام . . وترنّم به الرعاة على جبل الجليل . . وتجلّى في سيناء . . عاش به الملايين في رحاب الأرض وأعماق الزمن . .

ــ صلوات تتردّد . .

في المساجد . . في الكنائس . . في المدينة . . في الريف . . في البر . في البحر . . في الصحراء . . في الجبل . . في المصنع . . في الحقل . . مستجيبين لأمر الله .

● ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

● هذا الإيمان عريق في الإنسانية . . هو روحها الذى بدأت معه نشأتها الأولى .

ــ إيمان يردّها إلى الأب الأول ــ آدم عليه السلام ــ فتحسّ الدنيا كلّها أنها قد جاءت من ذرية نبيّ . .

ــ أنت وأنا وكل إنسان أبناء نبي كريم ، أبدعته يد الله ، ونفخ الله فيه من روحه ، وسوّاه بشراً سويّاً . . واستخلفه وذريته في الأرض لينظر كيف يعملون . .

● وأنت مع هذه المكانة تذكر حدودها في حوار دار بين إبراهيم

عليه السلام وربه، وسجله ربنا فى كتابه :

(وَإِذِ ٱبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ

قَالَ : إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً .

قَال : وَمِنْ ذُرِّيَّتِى ؟ . . .

قَالَ : لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ) . . .

عهد بلا ظلم .

(وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) .

● هذا هو القبس الإلهى . . والنور الحىّ بين جوانحك . . النور الذى يدعوك دائماً إلى حب الإنسان ، وتكريم الإنسان . .

لا عصبية لون . . لا عصبية جنس . .

لا استعلاء . . لا استخذاء . .

فكلنا إخوة لأب واحد وأم واحدة . . لنا ربّ واحد . . منه النشأة الأولى وإليه المآب . .

— قبس إلهى يلتقى عنده الدين والعلم . وإليه انتهى الرأى العام العالمى من أجل الإنسان وكرامة الإنسان . .

كرامة نسمعها فى قول الله تعالى :

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) .

نسمعها من خاتم المرسلين فى حجة الوداع :

● « أيها الناس ، إن ربكم واحد . وإن أباكم واحد . كلكم لآدم ،

وآدم من تراب . . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . . ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى » .

نسمعها من المسيح يخاطب بها الجموع .

« أنتم جميعاً إخوة . . أكبركم يكون خادماً لكم . . من يرفع نفسه يتضع ، ومن يضع نفسه يرتفع » . .

نقرؤها فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الذى أقرّته الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٨ :

« يولد الناس أحراراً متساوين فى الكرامة والحقوق . وكلهم قد وهب الرشد والضمير . وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح من الإخاء .. لكل إنسان الحق فى الحياة والحرية والأمن الشخصى » . .

● وما دمت تحسّ كرامة الإنسان نشأة ووجوداً ، فأنت تحسّ كرامته حياة تتطلع دائماً إلى الخير وحبًّا له . . حبًّا سرى عصارة حية فى تاريخ الإنسانية . . تراه فى أعماقها وآمادها . .

— نراه فى خلق العربىّ القديم عندما كان يوقد النيران على رؤوس الجبال ليهتدى بها الضيوف ليلا . .

وعندما كان يضيف إلى النار المشتعلة أخشاباً عطرية يحمل الهواء أريجها إلى بعيد ليهتدى بريحها المعطر من كان محروماً نعمة البصر . .

— بوحى منها دعا إليه المسيح الحزانى ليمسح عن عيونهم دموعاً ، والخاطئين ليأخذ بأيديهم إلى طريق التوبة والمغفرة .

— بوحى منها دعا خاتم الأنبياء لقومه بعد أن آذوه : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » .

— بوحى منها دعا كل نبىّ ورسول إلى التكافل الاجتماعى . . وعلى هديهم تفجرت طاقات الخير فى النفس الإنسانية . .

— بوحى منها كان أبو بكر وعمر يتفقدان المحتاجين ، ويسعيان إلى الضعيف والأرملة والمريض .

— بوحى منها خرج عثمان بن عفان عن تجارة يحماها ألف بعير جاءت المدينة فى عام المجاعة . . فجعلها كلها صدقة على فقراء المدينة .

— بوحى منها يُعَلِّم على بن أبى طالب أصحابه نبل القول حتى مع خصومهم . ويلتمس النور فى النفس وإن تراكمت عليها الظلمة فيقول ناصحاً أصحابه محدداً علاقتهم بخصومهم :

« إنى أكره أن تكونوا سبابين ، ولكنكم لو قلتم مكان سبكم إياهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدهم عن ضلالهم ، حتى يعرف الحق من جهله ، ويرعوى عن الغى والعدوان من لهج به » .

— عفة فى القول والعمل . . وعدل فى الغضب والرضا . . وتكريم للإنسان فلا يشقى جوعاً ، ولا يضل ترفاً ، ولا يعتدى تجبراً ، ولا يذل هواناً . . لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمون .

● هذا هو النور المؤمن الذى سار مع الإنسان من فجر حياته . . يراه فيهتدى ويسعد ، (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) . . .

فلنحاول أن نتلمّسه خارج دائرة النبوءات المعروفة . . وفى إطار من الإنسانية فى شمولها . . ذاكرين قول الله عن أنبيائه . (مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ) .

— هناك بعيداً فى قلب الغابة العذراء تحسّ أقباسه وضياءه . .

— عند القبائل التى ظنها كثير من الناس بعيدة عن الحضارة عاشت قيم أخلاقية لا تملك إلا أن تردها إلى الإيمان بالله وكرامة الإنسان .

— بعض هذه القبائل كالزاندى الذين يعيشون فى قلب إفريقية[١]

---

(١) وطن الزاندى فى منطقة الحدود بين جمهوريات السودان والكونغو زائيرى وإفريقية الوسطى : فهو موزع حالياً بين هذه الأقطار وإن كان جغرافياً تنظمه وحدة طبيعية وبشرية .

عندهم آداب – حتى فى الحروب – ما أحوج عالمنا المعاصر إلى الاقتداء بها :

غاية القتال عندهم أن ينسحب عدوك بأقل خسارة فى الأرواح والعتاد ، وعليك أن تتجنب تطويقه تطويقاً كاملا لئلا ييأس من النجاة فيلقى بنفسه – عند اليأس فى الميدان مهاجماً حاقداً ، أو منتقماً ضارياً .

هكذا يقاتلون ويتركون فجوة فى مؤخرة الجيش كى يفلت منها الخصم إن أحس بالهزيمة .

ومن قوانين الحرب عندهم ألا يبدءوها إلا عند الأصيل ، وبعد ساعات يحل الظلام . ويستطيع المهزوم – فى ستر الليل – أن ينسحب بأقل خسارة ممكنة .

هكذا نجد أعراف الحرب عندهم أقرب إلى العقل . . إن كان للحرب عقل . . من كثير من الحروب المدمرة التى تموج بها دنيانا .

● وفى الهند قبل احتكاكها بأوربا – لم يكونوا يحاربون ليلا . . يمضى الجنود نهارهم محاربين . . فإذا غربت الشمس وضعوا أسلحتهم . . ثم يأخذون فى الراحة والسمر ويتبادلون الطعام والشراب وينامون – بعد حرب النهار – متجاورين ، آمنين على أنفسهم وأسلحتهم من الغدر والخيانة . . الحراسة كانت حراسة الإيمان والضمير . هكذا حتى تطلع الشمس . .وعندئذ يبدءون يتناولون طعامهم، وينظمون صفوفهم،فإذا ما استعدوا نفخوا بوق الحرب . أحرب هى أم رياضة ؟ أم محاولة لتقليل الدم المسفوك . . ؟

– وأنت تحس قبساً من الإيمان فى كل ذلك . . قبساً من احترام الإنسان : دمه وماله .

ويتلفت عقلك وقلبك إلى مصدر هذا السمو الأخلاقى ، إلى خالق

الإنسان والإيمان ، وتتساءل عن مصير الإيمان . . عن الذين حملوا النور إلى أعماق الغابة أو إلى الأرض القصية ، وتعود لتذكر قول ربك عن أنبيائه : (مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ) . . .

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) .

٢

● والآن ياصديقى . . .

أتحب أن نقوم معاً برحلة نتأمل فيها أنفسنا وما حولنا . . ؟

ترى من أين نبدأ لنجمع معاً زهوراً من الحديقة الإلهية ؟

— أنت الآن تسمع ما أقول .. وأمامك مشاهد من بديع صنع الله .. فكيف تسمع وترى . . ؟

● فى أذنك الداخلية أو التيه أقبية لولبية ونصف مستديرة . وفى القسم اللولبى وحده أربعة آلاف قوس صغيرة متصلة بعصب السمع فى الرأس !

وفى الأذن مائة ألف خلية سمعية ، وتنتهى الأعصاب بأهداب غاية فى الدقة إلى درجة مذهلة .

— وعينك تحتوى على نحو مائة وثلاثين مليوناً من أعصاب الإبصار ، تستقبل الضوء ، ويحميها الجفنان ذوا الأهداب والحركة غير الإرادية التى تحفظها من الأتربة والأجسام الغريبة ، وتكسر بظلالها على العين من حدة الضوء وتمنع جفاف العين .

وشبكيّة عينك التى تتلقى صورة الشيء المرئى مكونة من تسع طبقات منفصلة — هى فى مجموعها أقل سمكاً من ورقة رقيقة . والطبقة الداخلية القصوى منها تتكون من أعواد ومخروطات . . وعدد الأعواد نحو ثلاثين مليوناً ، وعدد المخروطات نحو ثلاثة ملايين !

وهذه الملايين من الأعواد والمخروطات والأعصاب . . وهذه الطبقات المتتابعة — كل أولئك ينتظمه تناسب محكم فيما بينها .

وهى تتلقى الصورة مقلوبة ، إلا أنها تعيدها إلى صورتها الأولى عن طريق ملايين من خيوط الأعصاب الموصلة إلى المخ .

كل هذه التنظيمات لابد أنها حدثت فى وقت واحد ، لأنها متكاملة وبدون تكاملها يستحيل الإبصار .

وكيف استطاع كل عصب وكل خلية أن يعرف احتياجات غيره ويوائم بينها وبين نفسه ؟

ألا يدل ذلك على العليم الخبير . . ؟

فلنسمع الآن معاً إلى هذا النغم . . بأذن مؤمنة . .

ولْنَرَ معاً هذه المشاهد بعين مؤمنة . .

(هٰذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، بَلِ الظَّالِمُونَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ) .

٣

● هذا بعض القول عن السمع والبصر وحدهما . .

وقد يقال إنها مصادفة . . أو قوة ذاتية فى الأشياء . فلنعرض هذا القول على العلم . بهذا أمرنا ربنا .

أمرنا عندما علّم خاتم أنبيائه هذا الدعاء : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً) .

ولو كان هناك شيء أكرم وأشرف من العلم لأمر الله نبيه أن يطلبه منه .

والمسيح كان ينادَى بهذا اللقب الشريف (يامعلم) . .

والعلم باب خشية الله ، (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) .

فليكن دعاؤنا مع خاتم المرسلين (رَبِّ زِدْنِي عِلْماً) .

● والآن ياصديقى . .

أترى هؤلاء الأطفال . .

إنهم يلعبون وبين أيديهم صندوق به عشر قطع مرقمة من واحد إلى عشرة . .

إنهم يبذلون الجهد فى محاولة إخراج القطع مرتبة .

رقم واحد أولا . . ويليه رقم اثنين . .

وهم مصممون على النجاح ومستمرون فى المحاولة .

إنهم إذا نظروا إلى القطع استطاعوا ترتيبها فوراً . . ولكن كم من الوقت يحتاجون إليه إذا اعتمدوا على المصادفة ؟ . . إنهم ينظرون إلينا ويسألون . . فما إجابتنا ؟

● ليس بين أيدينا أيها الأبناء إلا العلم . . ونظرية الاحتمالات . .

ـ احتمال خروج القطعة رقم واحد أولًا هو بنسبة ١ : ١٠ .

ـ واحتمال خروج القطعة رقم واحد وتليها القطعة رقم ٢ هو بنسبة ١ : ١٠٠ .

ـ واحتمال خروج القطعة من واحد إلى ثلاثة مرتبة هو بنسبة ١ : ١٠٠٠ .

ـ وهكذا نجد أن احتمال خروج القطع العشرة مرتبة هو بنسبة واحد إلى عشرة بلايين : (١ : ١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) .

حيث البليون أو المليار ألف مليون .

بعبارة أخرى :

لو حسبنا أن المحاولة الواحدة يمكن أن تتم فى عشر ثوان لاحتاج الأطفال لكى يتموا العشرة بلايين تجربة إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة . ولو واتاهم الحظ لأتموها قبل ذلك .

ولكن لو نظروا لأتموها فى عشر ثوان !

إن الفرق بين الرؤية والمصادفة هنا هو الفرق بين النور والظلام . . بين الهدى والهوى .

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) ؟

هذا فى ترتيب عشر قطع خشبية مرقمة يعبث بها أطفال . .

هل أحدثك بعد هذا عن القلب وحجراته ووظيفته ومهمته وكفايته ؟

أتحب أن تقارن بين القلب الذى أبدعته يد الله والقلب الصناعى .. حجمه . . عدد العاملين فيه . . نفقاته . . صيانته . . كفايته ؟

هذه نافذة . . مجرد نافذة تطل بها على نفسك . (وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ؟

٤

والآن : أتحب أن نطوف معاً فى هذه الحديقة الجميلة . . ؟

أترى النحل . . ؟ أنت تعلم دقتها ونظامها فى مملكتها . .

إن البحث العلمي أثبت للنحل لغة تتفاهم بها .. لغة قادرة على إيصال المعلومات ، فيها إرسال واستقبال .

ونحن نستطيع أن ندرس النحل بطريقتين :

الأولى : باستخدام خلايا المراقبة ، وبها نوافذ زجاجية نستطيع أن نلاحظ منها النحل بدون إزعاجها .

الثانية : باستخدام حروف أو أرقام أو ألوان معينة نميز بها النحل التي نود ملاحظتها في التجربة .

ولنذكر هنا بعض تجارب أجراها الباحث فون فريتش في هذا المجال :

— أمامنا طبق به محلول مركز من مادة سكرية موضوع على مسافة خمسين متراً إلى الشمال من مستعمرة للنحل تعيش داخل خلايا المراقبة .

هاهي ذي نحلة تكتشف الطبق فتندفع إليه وترتشف منه حتى تمتلئ حويصلتها وتطير . . ولكنها تحوم حول المكان .

إنها تتعرف على ما به من مرئيات ، حتى لا تضل إليه الطريق من بعد .

هذا هو طيران التعرّف .

فلنميّز هذه النحلة بطلاء من لون معين ، ولنتابع ملاحظتها بعد أن تعود إلى الخلية . . إنها ترقص بين زميلاتها الشغالة . . إنها تتوقف قليلا لتعطيها قليلا من الشراب ، ثم تعود إلى الرقص . . الشغالة تراقب الرقص باهتمام شديد . . بعض الشغالة غادرت الخلية وذهبت مباشرة إلى الطبق في الشمال لتحصل منه على نصيب .

ليس أمامنا إلا أن نفترض أن النحلة الأولى قد استطاعت عن طريق الرقص أن تنقل إلى صاحباتها معلومات تتعلق بأمرين :

الأول : وجود شراب سكرى خارج الخلية . .

الثانى : وجود هذا الشراب السكرى إلى الشمال من الخلية .

وتعود النحل إلى الخلية حيث ترقص وتنقل الأخبار من جديد . .

ولم يكتف الباحث بهذه النتيجة .. فلننتظر ما صنع مع النحل . . . وما صنعت النحل معه .

لقد أضاف ثلاثة أطباق أخرى من الشراب السكرى نفسه ، ووضعها على البعد نفسه إلى شرق الخلية وغربها وجنوبها . وجمع عدداً من النحل التى عرفت طريقها إلى الشراب الأول ، وميّزها بعلامات من الطلاء الملون ، ثم أطلقها من الخلية . . فوجد أنها ذهبت إلى الأطباق الأربعة بدون تمييز ، وإن استرعى انتباهه أن عدد ما ذهب إلى كل منها كان متقارباً .

فكأن المعلومات التى تلقتها النحل أن الشراب السكرى موجود فى الأطباق الأربعة .

ويزيد الباحث التجربة تعقيداً . . فيضيف إلى شراب الطبق الأول قليلا من العطر . .

وتكتشف النحل التى ذهبت إليه هذه الحقيقة ، فتخبر بها صاحباتها . . وإذا جميع النحل التى شاهدت الرقص تتجه إلى الطبق الأول المعطر من دون الأطباق الثلاثة الأخرى غير المعطرة . .

فكأن نقل المعلومات هنا تضمن :

أولا : وجود الشراب .

ثانياً : وجود العطر .

ثالثاً : مكان الشراب المعطر .

هذه لغة الرقص والعطر !

— ولكن . . كيف تحدد النحل الاتجاه والمسافة . . ؟

لقد كشف الباحث أن للنحل نوعين من الرقص . .

الأول : الرقصة الدائرية . وفيها تتخذ الرقصة صورة دوائر صغيرة متتالية فى اتجاه عقرب الساعة ، ثم تعكس اتجاهها .. وهذه تستخدمها النحل للدلالة على المسافات التى تقل عن مائة متر .

الثانى : رقصة الذنب . وهذه على شكل 8 ، وهى لما زاد من المسافات على مائة متر .

— فإذا كانت الأزهار تبعد عن الخلية نحو ثلثمائة متر . . فإن النحلة تدور ثمانى وعشرين دورة كاملة فى الدقيقة كالحرف 8 . أما إذا كانت تبعد نحو ثلاثة كيلومترات فإنها لا تدور سوى تسع دورات فقط . وتبطىء الدورات وتقل حتى تنعدم إذا كان بُعد الأزهار عن الخلية خارج دائرة نصف قطرها خمسة كيلو مترات .

— ولاحظ الباحث أن النحلة تستطيع أن تستعين باتجاه رأسها على تحديد مكان الهدف بالنسبة إلى الخلية . .

فإذا كان الرأس إلى أعلى كان الطعام فى اتجاه الشمس . .

وإذا كان الرأس إلى أسفل كان الطعام عكس اتجاه الشمس . .

— ولاحظ الباحث أكثر من ذلك . .

فالنحلة لا تواجه الشمس دائماً بحركة رأسها فى رفعه وتنكيسه ، وإنما تنحرف أحياناً عن هذه المواجهة يميناً أو يساراً بزوايا انحراف متباينة . . وزاوية الانحراف هذه ثبت أن ضلعيها :

— الخط الوهمى الممتد بين الخلية واتجاه الشمس ، وهو الخط الأساسى عند النحلة . .

— الخط الوهمى الممتد بين الخلية ومكان الطعام أو الزهور . .

فالنحل بهذا تستخدم الشمس فى تحديد مكانها وتحديد زاوية انحرافها عنها .

هذه هى بوصلة الشمس التى تستخدمها النحل فى صفو السماء وغيمها ، وتحدد بها سبيلها .

ولنقرأ مع هذا قول الله تعالى :

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا

وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً) . .

أرأيت إلى بعض الأعماق فى قوله تعالى : (فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً)

ـ واستمرت هذه الدراسات سنوات ولا تزال . .

عرف بها الإنسان جانباً من منطق الطير . .

وفتحت أمامنا عالماً مجهولا . . وكم من عوالم أمامنا لا تزال مجهولة . . وقربتنا كثيراً من تفهم قول الله تعالى فى قصة سليمان والنمل :

(حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِى النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا . وَقَالَ : رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) .

٥

● ولندع الآن النحل برياضاته وأبعاده وزواياه ورقصه وعطره إلى عالم آخر من الرعى والزراعة والادخار والصيانة والدقة الصارمة فى تقسيم الأعمال والدفاع عن الديار .

إنه عالم النمل

وقد درس ديكنسون مدينة النمل نحو عشرين عاماً فى بقاع مختلفة من العالم فوجد فيها ذلك كله :

— وجد أن النمل يمارس الرعى ..

فنى مطلع الربيع يرسل النمل رسله ليجمعوا له بيض حشرة « المن » ويحفظ البيض فى مستعمرته ، ويعنى به حتى يفقس وتخرج صغاره ، ثم يحمله إلى الخارج ويضعه على النباتات التى تفرز الندوة العسلية . وعند الليل يعود به النمل إلى بيته ، كما يعود الفلاح بأبقاره من المرعى كى يحلبها . وحينما تمسح النملة ظهر حشرة المَنّ بقرونها تدرّ ذلك السائل الحلو. وتنتج هذه الحشرة نحو ثمان وأربعين قطرة من الرحيق الحلو فى اليوم . ويعادل هذا نحو مائة ضعف لما تنتجه البقرة من اللبن بالنسبة إلى حجمها !

بل لقد أثبتت الملاحظة أن النمل يبنى حجرات خاصة لما يحتفظ به من حشرات المن .. تماماً كما يبنى الفلاح حظيرة أبقاره .. هذا هو النمل الراعى .

● ويمارس النمل الزراعة أيضاً ...

ويذكر الباحث أن النمل زرع مساحة من الأرض قدرها خمسة عشر متراً على أدق أصول الزراعة :

— مجموعة متخصصة بأن تضع البذور ..

— مجموعة مختصة بتطهير الأرض من الأعشاب الضارة ..

— مجموعة للحراسة ..

ويستوى النبات على سوقه وتمتلئ السنابل بالحب بعد طول العناء .

ويبدأ موسم الحصاد :

صفوف من الشغالة تعمل بدون انقطاع ..

ها هى ذى تتجه إلى العيدان فتتسلقها إلى السنابل ، وتنزع كل

نملة حبة وتنزل بها سريعاً إلى مخزن تحت الأرض .

وقد طلى الباحث أفراد النمل بألوان مميزة ، فوجد أن الفريق الواحد من النمل يذهب دائماً إلى العود الواحد حتى يفرغ ما عليه من الأرز فينتقل إلى غيره .

وتم الحصاد ..

ولكن المطر سقط أياماً .. وعاد الباحث بعد انقطاع المطر ليرقب مستعمرة النمل فإذا به يجد البيوت تحت الأرض مزدحمة بالعمل ..

كل نملة تخرج من مسكنها حاملة حبة أرز تذهب بها إلى منحدر من الأرض يواجه الشمس وتضع عليه الحبوب حتى تجف ..

وعند الأصيل كان الأرز قد جف ، وعاد النمل ليحمل غذاءه إلى مساكنه تحت الأرض .

فمن ألهم النمل هذا الإعجاز الذى يقوم به ؟

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ . مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) .

٦

● تعال معى إلى رحلة فى عالم الماء .. بعد رحلتنا فى أرض حدائق النحل ، ومزارع النمل ومراعيه .

وعالم البحر مليء بالإعجاز ..

ولنأخذ مثالا من رحلات منتظمة لها مركز واحد وفروع متشعبة .. كأنها خطوط سفن بحرية أو شركة طيران عالمية ..

رحلات بلغت درجة رائعة من الدقة والتنظيم ..

ــ إنها رحلة ثعابين الماء ..

وأنت تراها فى أنهارها خضراء اللون ، لا تكاد تتميز عن النباتات النامية على الضفاف ، يوفر لها لونها الأخضر قدراً من الحماية فى موطن تغلب فيه الخضرة .

وعندما يكتمل نموها بين السابعة والعاشرة من سنوات عمرها تنشط فجأة وتهبط مجرى النهر ، تاركة مياهه العذبة بهدوئها وكدرتها وضفافها الخضراء ، وتتجه إلى البحر .

ــ إن جلدها الأخضر الذى كانت تستتر به فى حياتها النهرية أصبح غير ملائم لرحلة البحر .. البحر بلمعانه وزرقته؛ فلتدع هذا الجلد الأخضر إلى جلد فضى يخفيها عن أعدائها وسط زرقة الماء ولمعانه ..

وتسبح الثعابين من مختلف الأنهار فى رحلات طويلة تبلغ آلاف الأميال قاصدة كلها مكاناً واحداً .. هو الأعماق السحيقة فى جزر الهند الغربية إلى الجنوب والجنوب الشرقى من برمودة ..

هناك تلتقى الثعابين التى خرجت من أوربا وإفريقية بالثعابين التى خرجت من أمريكا ..

وفى بقعة الإنسال هذه تهبط الثعابين إلى عمق يقرب من ألف متر حيث تضع الإناث بيضها فى الماء ، ويتم إخصابها خارجياً فى ماء المحيط ..

وكما يرسل الله الرياح لواقح تحمل فيها تحمل حبوب اللقاح فتخصب النبات .. يجعل الماء وسيلة اللقاح فى هذه الكائنات البحرية ..

تبارك الله !

ماء هو الحياة لكائنات .. وهو الموت لكائنات ..

وهواء هو الحياة لكائنات .. وهو الموت لكائنات أخرى ..

وتنتهى مهمة هذا الجيل من الثعابين وتودع حياتها فى المحيط .. كما بدأتها فى المحيط ..

وبعد مدة تخرج الصغار من البيض ..

مخلوقات صلبة شفافة كأنها خيوط صغيرة لها عيون بارزة .. ملايين وملايين من هذه اليرقات الصغيرة ..

وتسبح اليرقات جميعاً متجهة إلى الشمال حتى تصل إلى جزائر برمودة ، ومن هناك يبدأ الافتراق ، وتتخذ كل مجموعة طريقها إلى موطن آبائها : يرقات إفريقية وأوربا تتجه شرقاً .. ويرقات أمريكا تعود إلى أنهارها ..

رحلة طويلة تقوم بها اليرقات الصغيرة قد تستمر إلى الأنهار البعيدة أكثر من ثلاثة أعوام ، تقاوم فيها التيارات المائية العنيفة ، والأمواج المتدافعة ، والعواصف والرعود ، متجهة إلى موطن الآباء ..

فإذا ما وصلت إلى شاطئ القارة أخذت تتحسس طريقها إلى النهر الذى جاءت منه .

وتعيش بعض اليرقات قرب المصب ، وهذه عندما تكبر تصبح ذكوراً .. ويصعد البعض إلى أعالى النهر ، وهذه عندما تكبر تكون إناثاً .. ويعيش الجنسان مفترقين طالما كانا فى النهر .

فإذا ما اكتمل نموهما اتجهت الإناث إلى مصب النهر وبدأت مع الذكور رحلة العمر إلى المحيط .. إلى الأعماق ليبدأ هناك من حياتها جيل جديد ..

ولم يحدث أن صيد ثعبان أمريكى فى المياه الإفريقية أو الأوربية .. أو صيد ثعبان من الشرق فى المياه الأمريكية ..

فمن الذى أعطى هذه المخلوقات الدقيقة قدرتها على معرفة مواطنها التى لم ترها من قبل ، ووجهها خلال الرحلة الطويلة بين الأعماق التى ولدت فيها ، وموطن الآباء الذى تسعى إليه .. ؟

إنه الله « الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » .

٧

● وهذه الطيور المهاجرة بتشكيلاتها الفنية الهادفة كأنما تمارس نوعاً من الفن للحياة . وفى ذلك تبصرة وذكرى ..

— جماعات البط فى صورة رأس السهم ....

إنه تنظيم يساعد كل طائر منها على رؤية القائد وهو يتجنب فى الوقت نفسه تيار الهواء الذى يحدثه الطائر الذى أمامه ..

ولكن عندما يشتد عصف الرياح فإن الصفين ينضمان ، وتصبح المجموعة مؤلفة من خط واحد لكى تتجنب — إلى أدنى حد ممكن — تأثير الرياح العاصفة على السرب .

— وهذه الرحلات تقوم بها مئات الأنواع من الطيور نحو الجنوب فى الخريف ، ونحو الشمال فى الربيع ..

ويلتزم كل نوع نظاماً للرحيل ، حتى إن طلائع النوع تصل إلى هدفها فى موعد لا يتغير من عام إلى عام .. ولا يتباعد أكثر من بضعة أيام .

آلاف السنين مرّت على هذه الأنظمة الدقيقة .. تهاجر من أجل طعامها وهى تبحث عن الطعام الذى يلائمها على مدار السنة .. ودرجة الحرارة التى تستطيع أن تتحملها .. الجوّ والطعام .

ومن أشهر الطيور المهاجرة « الزقزاق الذهبى » وهو طائر رشيق طويل الجناحين صغير الحجم يتوالد فى المنطقة القطبية الشمالية .. وفى أواخر الصيف وأوائل الخريف يهاجر الكبار منه والصغار فوق المحيط الأطلسى . فإذا صادفها جو جميل فإنها لا تتوقف إلى أن تصل إلى الساحل الشمالى لأمريكا الجنوبية فى طريقها إلى مشتاها فى الأرجنتين وجنوبى البرازيل .

ويستطيع الزقزاق الذهبى على صغر حجمه أن يقطع بدون توقف

ألفي ميل من رحلته فوق المحيط .. وهي رحلة تعدّ عملا خارقاً من أعمال الصبر والتحمل ..

ومن المحتمل أن تكون أطول رحلات الهجرة تلك التي يقوم بها خطاف البحر القطبي ، وهو طائر يقضي صيفه في المنطقة القطبية الشمالية ، وشتاءه في القارة القطبية الجنوبية ، وبهذا يصل مدى رحلته السنوية بين الموطنين إلى خمسة وثلاثين ألف ميل ..

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ) .

٨

وهذه النجوم التي تراها فوقك والتي أقسم الله بمواقعها فقال :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) .

هذه النجوم بعددها الضخم تدخل في بناء المجرات ... وتتعدد المجرات في السماء ، ولنقصر حديثنا الآن على مجرتنا كوحدة من وحدات الكون ..

إنها تبدو للناظر بالعين المجردة كأن بها نحواً من ألفي نجم . ويرتفع هذا العدد بالمناظير الكبيرة إلى ما يزيد على مائة مليون نجم ، موزعة كأنها القرص المفرطح الرقيق نسبيًّا عند أطرافه والذى يبلغ قطره نحو مائة ألف سنة ضوئية .

ولكن ما السنة الضوئية ؟

إن سرعة الضوء فى الثانية الواحدة هى ٣٠٠ ألف كيلو متر ..

وبهذا تعادل السنة الضوئية نحو عشرة ملايين ملايين كيلو متر .

وقطر المجرة نحو ستين ألف سنة ضوئية .. أى أنك لو ركبت شعاعاً من الضوء سرعته ٣٠٠ ألف كيلو متر فى الثانية لما استطعت عبور المجرة — بدون توقف — إلا بعد رحلة تستمر مائة ألف سنة .. أعطاك الله العمر الطويل .. هذا فى مجرة واحدة ..

والنجوم غير موزعة بالتساوى داخل المجرة .. فهى تزدحم فى بعض أجزائها ، وتشبه السحاب العالى الذى يضىء ضوءاً خافتاً ، والذى أطلق عليه القدماء أكثر من اسم ..

فهو نهر المجرة .. كأنه النهر الجارى .

وهو طريق التبّانة أو سكة التبانة .. كأن التبن قد انتثر على أرض من التبانة الذين يحملونه على دوابهم ..

وهو طريق اللبن عند الإفريقيين كأنه اللبن المسكوب .

والمسافات بين النجوم تبلغ حد الخيال ..

وأقرب مجموعات النجوم التى تكون طريق التبانة يصل ضوؤها إلينا فى عدة سنين ..

وكثير من النجوم تبعد عنا بمسافات يقطعها الضوء فى نحو ألف سنة ..

أى أنها تبعد عنا ألف سنة ضوئية ..

هل نذكر معاً أن سرعة الضوء فى الثانية ٣٠٠ ألف كيلو متر ..؟

هذا القرص يدور حول نفسه فى الفراغ . ولعظم حجمه لم يتم أكثر من عشرين دورة حول نفسه منذ ظهور أقدم النجوم فيه ..

أى منذ أربعة آلاف مليون سنة برغم السرعة الهائلة التى تتحرك بها حافة القرص والتى تبلغ نحواً من مليون ميل فى الساعة الواحدة ..

أرأيت إلى جانب من مواقع النجوم وبعض الحكمة فى قول الله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) .

وتتعدد المجرات فى الفضاء الفسيح وتتكرر كلما خرجنا إلى أعماقه .

تعبير سهل « خرجنا » فلنترجمه إلى أرقام ..

أقرب المجرات إلينا هى الأندروميدا أو المرآة المسلسلة ، ويبعد هذا السديم أو هذه المجرة عنا بنحو من سبعمائة وخمسين ألف سنة ضوئية ..

أتحب أن تقوم بالرحلة ...

مرة أخرى إذا اتخذت الضوء مركباً وتحركت بسرعة ثلثمائة ألف كيلو متر فى الثانية بدون توقف لما استطعت الوصول إلى الأندروميدا إلا بعد طيران — بسرعة الشعاع لمدة سبعمائة وخمسين ألف سنة.

وهذه أقرب المجرات إلينا ...

ومن المجرات ما بعده الملايين من السنين الضوئية ومئات الملايين .. واستطاع العلماء تقدير هذه الأبعاد بما لاحظوه فى النجوم من لمعان وخفوت على فترات من الزمن لا يختلف طولها ..

والآن أتدرى يا صديقى ما عدد هذه المجرات .. ؟

إنها مائة مليون أو تزيد فى فضاء هذا الكون الواسع . ونعود إلى قول الله تعالى :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

(وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) .

٩

● من هذه العوالم الجبارة نودّ أنْ نختم رحلتنا بأصغر هذه العوالم وأخطرها .. إلى الذرة .

لقد كنا نقيس المسافات فى الكون الفسيح بالسنوات الضوئية وعشراتها ومئاتها وملايينها .

فكيف نقيس المسافات فى الذرة .. هذا العالم الصغير الذى اقتحمه الإنسان ، فإذا به عالم مهول جبّار ؟ !

إن هذا العالم لا يقاس بالمليمتر ولا بجزء من الألف منه ، وإنما يقاس بجزء من عشرة ملايين من المليمتر .. وتسمى وحدة القياس هذه باسم مبتدعها العالم السويدى « أنجشتروم » .

وذرة الإيدروجين ، وهى أصغر الذرات ، قطرها ١,٠٦ أنجشتروم .

— والوزن .. كيف نزن الذرة ..؟

إنه ليس الجرام ولا جزءاً من مليون من الجرام . ولكنه جزء من مليون مليون مليون جزء من الجرام . وذرة الإيدروجين أخف الذرات وزنها ١,٦٧ من هذه الوحدة !

— مرة أخرى عدنا إلى ملايين الملايين .. المتناهية فى الضآلة بعد أن كنا فى حساب الملايين المتناهية فى الضخامة والجبروت ..

● ولو قمنا برحلة فى الذرة فماذا نجد ؟

— سنمر أولا بالطبقة الخارجية وهى التى تحتوى على وحدات من الكهربا تسمى بالإلكترونات .

وإذا ما ضاق مدار عن أن يستوعب الإلكترونات تكوّن مدار آخر .. فإذا ضاق تكونّ مدار ثالث . . أو أفق ثالث أو سماء ثالثة فى الذرة .

ونحن نتابع رحلتنا فى جوف الذرة .. فى فراغ . . حتى نصل إلى النواة وهى قلبها الذى يتركز فيه وزنها .

نعم ؛ فراغ لأن النسبة بين قطر النواة وقطر الذرة هى بنسبة ١ : ١٠,٠٠٠ ، وانتشار الإلكترونات حول النواة يشبه فى صورته العامة انتشار الكواكب فى المجموعة الشمسية حول الشمس .

– إن الفراغ أكبر كثيراً من المادة .

– إن المادة فى صميمها لا تكاد تحتل من هذا الوجود شيئاً .

● ولا تحتوى النواة على الإلكترونات .. وإنما بها بروتونات موجبة الشحنة متجاورة بدون أن تباعد قوى التنافر بينها ..

وعدد البروتونات فى النواة يساوى عدد الإلكترونات .

– الإيدروجين مثلا له غلاف واحد يدور فيه ألكترون واحد ، وفى نواته بروتون واحد .

– واليورانيوم أثقل العناصر فى الطبيعة – بنواته اثنان وتسعون بروتوناً وبمداراته اثنان وتسعون إلكتروناً .

وهذه هى الأعداد الذرية للعناصر ..

● ولكن البحث أثبت أن كتل هذه الذرات تزيد من مجموع كتل ما بها من بروتونات وإلكترونات .

– لابد إذن من وجود أجسام أخرى فى الذرة لا تخل بتعادلها الكهربى .

– وتتكشف هذه الأجسام الثالثة فإذا هى « النيوترون » واللفظ يدل على التعادل أو الحياد .

– وما زالت الكشوف تتوالى من هذا الكون الصغير من الذرة ..

● من هذه النواة تنبع مصادر الطاقة الذرية التى يسخرها الإنسان فى الحرب والسلم على السواء ، منها تنبعث الإشعاعات الذرية التى عمت استخداماتها ميادين العلم والطب والزراعة والصناعة ومنها تنبعث النيوترونات التى تسلط على ذرات للعناصر الخاملة المستقرة فتحولها إلى عناصر مشعة من النوع نفسه – هذه هى النظائر المشعة .

ولو قذفت ذرات العناصر الثقيلة كاليورانيوم والبلوتونيوم بفيض من النيوترونات فإن ذراتها تنشطر انشطاراً نووياً منتجة طاقة كبرى تستخدم فى السلم فى المفاعلات الذرية وفى الحرب فى القنابل الذرية .

● وبقذف بعض ذرات العناصر بالنيوترونات تتحول إلى عناصر أخرى أى تتحول المعادن بعضها إلى بعض ..

١٠

أرأيت إلى هذا الكون الكبير ؟
كل مادته من البرتون والإلكترون والنيوترون .
ما أبسط الكون وما أعظمه !
بل ما أبسط الإيمان وما أعظمه !

● على أساس من الوزن الذرى رتب العلماء العناصر المعروفة .. رتبوها فى مجموعات كل مجموعة منها فى ثمانية عناصر متدرجة كأنها السلم الموسيقى .. علم وفن ..

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

وامتلأت خانات ، وبقيت خانات فارغة ..
ويمضى الزمن ويزيد الجدول امتلاء ..
وتظهر عناصر جديدة لكل منها الخواص نفسها التى تتطلبها هذه الخانة أو تلك .

● وكانت نبوءة عجيبة من أعجب نبوءات العلم .. تحققت بأروع ما تتحقق به النبوءات وبينت جانباً من نظام الكون ودقته ..

كان الإيدروجين أخف العناصر وله الخانة الأولى ..
واليورانيوم أثقل العناصر وله الخانة الثانية والتسعون .
وفتح العلماء الخانة الثالثة والتسعين .. البيلوتونيوم ..

وزادوا . . ما داموا قد كشفوا القاعدة حتى تعدوا المائة . .

ـــ تركيب العناصر . .

ـــ ترتيب العناصر . .

ـــ تحويل العناصر بعضها إلى بعض .

ـــ تحويل العنصر إلى طاقة . . عندما مس الإنسان قلب الذرة وخرج منها المارد الجبار . .

تحولت المادة إلى طاقة . . إلى إشعاع . .

وكل إشعاع فى الدنيا صور متعددة لقوة واحدة . . تلك القوة المغناطيسية الكهربية . .

● ويأتى أينشتين ليكافئ بين المادة والقوة . .

وتصدق التجارب قوله عندما انفجرت الذرة فى قنبلة اليورانيوم . .

ـــ المادة والقوة شىء واحد

فماذا بقى . . ؟

ـــ بقيت الجاذبية . . ذلك الرباط الذى يربط الكون كله . .

بقى الزمان والمكان . .

ويربط أينشتين بينهما فيجعلهما شيئاً متواصلا فى أعماق الحقيقة . .

١١

وإذا الحقائق التى كانت تبدو أمامنا متعددة متباينة تجتمع جميعاً لتصب فى هذا المجرى الواحد الذى ينتظم الوجود كله . .

ومازال الإنسان ومعه العقل ـــ أنضج هدايا الله إليه ـــ يكشف فى ضوء مصباحه كل يوم جديداً من أسرار الكون . .

ـــ ويتأمل أينشتين هذا الكون ويقول :

« إن الذى لا تجيش نفسه لهذا ، ولا تتحرك عاطفته ، حى كميت ،

إنه خفاء لا نستطيع أن نشق حجبه .. ومع هذا نحن ندرك أن وراءه شيئاً هو الحكمة .. أحكم ما تكون ..ونحس وراءه شيئاً هو الجمال .. أجمل ما يكون ..

وهو حكمة وهو جمال لا تستطيع أن تدركهما عقولنا القاصرة إلا في صور بدائية أولية ..

وهذا الإدراك للحكمة .. وهذا الإحساس بالجمال – في روعته هو جوهر العبادة عند الناس .

إن الشعور الديني الذى يستشعره الباحث في الكون هو أقوى حافز على البحث العلمى وأنبل حافز ..

إن ديني هو إعجابي – فى تواضع – بتلك للروح السامية التى لا حدّ لها .. تلك التى تتراءى فى التفاصيل الصغيرة القليلة التى تستطيع أن تدركها عقولنا الضعيفة العاجزة .. وهو إيمانى العاطفى العميق بوجود قدرة عاقلة مهيمنة تتراءى حيثما نظرنا فى هذا الكون المعجز للأفهام .. ومن هنا ينبع إيمانى بالله » .

١٢

والآن يا صديقى ويا أخى ..

هذه رحلتنا السريعة حاولنا فيها معاً أن نتلمس على أساس علمى جوهر الإيمان بالله ..

العنصر الأساسى الذى تفتقده الإنسانية والذى يستطيع أن يحيل شقاءها سعادة وخوفها أمناً ..

إذا ما عاد الإيمان إلى القلب ،

وعادت الثقة بين الناس ،

وأخذت الشعوب حقوقها بدون عدوان أو اغتصاب ..

استطاعت أن تحيل طاقاتها إلى البناء دون الهدم ، وأن توجه الملايين التى تنفقها على السلاح إلى معالجة مشكلات الإنسانية الكبرى ..

مشكلات الانفجار السكانى

الفقر

توفير الغذاء والسكن

القلق الذى تعانيه الإنسانية

– الصحارى يمكن تحويلها إلى حقول خضراء إذا أمكن تحويل مياه البحر المالحة إلى عذبة بنفقات عملية ..

– البحار نفسها يمكن فلاحتها خارج المياه الإقليمية لتكون مورداً للطعام للجنس البشرى كله ..

ويومئذ يتحقق أمل الإنسانية

طعام لكل فم

مسكن لكل أسرة

بسمة لكل شفة

علم لكل عقل

إيمان لكل قلب

ويومئذ تصبح أرضنا أرض السلام

أرض الإيمان .

الفصل الثانى

الطريق إلى مكّة

هذا تعليق على فلم تسجيلى قامت به وزارة الأنباء والإرشاد بدولة الكويت وساهم فيه الزملاء والفنانون :

قراءة	:	أحمد فراج
تصوير	:	محمود حسن
الموسيقى التصويرية	:	فؤاد الظاهرى
إخراج	:	محمود فريد
مونتاج	:	عاطف صبرى

استجابة وإحرام :

إلى خير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ..

إلى البلد الأمين الذى قال فيه محمد عليه الصلاة والسلام :

إن هذا البلد حرام، حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام حرمه الله إلى يوم القيامة ..

إلى المسجد الحرام الذى تتجه إليه ملايين القلوب المؤمنة ، كل يوم خمس مرات ..

يتوجه الحجيج كل عام ..

ومن جوار البيت العتيق منذ آلاف السنين ، ارتفع صوت إبراهيم عليه السلام مناجيًا ربه :

(رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) .

وكانت الاستجابة عبر الأزمان .

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) .

البيت الذى رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل ودعوا عنده ربهما:

(رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) .

فكانت هذه الأمة المسلمة استجابة لدعوة خليل الرحمن ، تحن قلوبها إلى بيت الله . وتعمره بالطائفين والعاكفين والركع السجود .

الطواف :

وحين تطوف محرماً تتجرد مما يتفاخر به الأفراد ويتكاثرون ..

فثياب الإحرام صورة من صور الإخاء الإنسانى ، والمساواة التى ترتفع فوق الجنس واللون والمكانة الاجتماعية .

وتطوف سبعة أشواط . بادئاً من الحجر الأسود ، تقبله بدون مزاحمة ؛ أو تستلمه أو تشير إليه . مسرعاً فى الأشواط الثلاثة الأول إن استطعت . داعياً بما شئت . وأفضل الدعاء ما أثر عن النبى عليه الصلاة والسلام :

(رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) .

هذه الحركة الدائرية حول الكعبة لها نظائرها فى الكون كله بكواكبه وذراته ، بقوانينها التى تطوف بها وتدور ، وكذلك الطواف حول الكعبة منسك يقوم به الحاج امتثالا لأمر ربه .

ويطوف المحبون حول بيت ربهم ، الذى يحبهم ويحبونه فى مطاف واحد لا يتميز فيه حاكم عن محكوم .

مقام إبراهيم وزمزم :

فإذا فرغت من طوافك ، توجهت إلى مقام إبراهيم : « واتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » ، وصليت ركعتين سنة الطواف ، ثم شربت من ماء زمزم ، البئر التي ارتبط تاريخها بقصة هاجر وولدها إسماعيل عليهما السلام .

السعي :

وتذهب بعد هذا إلى جبل الصفا ، وترقى درجاته ، وتنظر إلى البيت العتيق تالياً قوله تعالى : (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ) ، ثم تسعى بينه وبين المروة مسرعاً فى بطن الوادى إن استطعت ، ولغير القادر أن يسير ، أو يحمل إذا عجز عن السير .

وفى السعى ترتفع الدعوات والابتهالات إلى الله :

لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ترتفع بها الأصوات فوق الصفا والمروة ، وبين ذلك يدعون بما شاءوا ..

وفى السعى تعمق فى نفسك المعانى التى اكتسبتها من الطواف .. فحولك إخوة من كل أقطار الأرض ، ومن كل الأعمار .. أطفال صغار تحملهم أمهاتهم وآباؤهم . شباب ممتلئ بالقوة والحيوية ، كهول يتحركون فى أناة .. شيوخ يسعون محمولين ، وملء القلوب إيمان ورضا . .

أجناس متعددة ، وجوهر إنسانى واحد ، وبين هذين الجبلين

وردت الآثار بسعى هاجر بحثاً عن الماء لصغيرها إسماعيل ، واستجاب الله دعاءها فنبع الماء من زمزم .

وبقوة الإيمان ، أتت قلوب مؤمنة من أقصى الأرض ، وجاء الوادى الجديب ، وسعى بين الصفا والمروة ، ملايين يذكرون الأم المسلمة ، العزلاء إلا من إيمانها وإلى جوارها الصبى الصغير .

بعد السعى :

فإذا فرغت من السعى ، انتهت بذلك المناسك فى مكة قبل التوجه إلى منى وعرفات .

وبعد السعى تتباين أعمال الحاج ، حسب نية إحرامه ، من كان محرماً بالحج وحده ، أو قارناً بين الحج والعمرة ؛ استمر على إحرامه حتى يتم مناسك الحج جميعاً .

ومن كان محرماً بالعمرة وحدها ، تحلل من الإحرام وعليه أن يقدم هدياً ، وعلى غير القادر الصوم .

يوم التروية :

فإذا كان يوم التروية ، أحرم بالحج ، من موضعه الذى ينزل فيه ، وتوجه إلى منى ، مكثراً من الدعاء والتلبية .

ويسمى اليوم السابق للوقوف بعرفات يوم التروية ، لأن الحجيج كانوا يروون أنفسهم ويتروون من الماء ، فتلك الأماكن لم يكن فيها إذ ذاك آبار ولا عيون ، أما الآن فقد كثر فيها الماء واستغنى الجميع عن حمله .

والسنّة أن يتوجه الحجيج إلى منى يوم التروية .

عرفات :

وفى صبيحة اليوم التالى – وهو التاسع من ذى الحجة – يتوجهون إلى عرفات .

وللموقف فى عرفات عبرته الكبيرة ..

فقريش فى الجاهلية كانت تقف فى المشعر الحرام عند المزدلفة بين منى وعرفات ، ذلك لأن المشعر الحرام من الحرم ، أما عرفات فخارج حدوده . وبهذا كان للناس فى الجاهلية موقفان : الناس جميعاً عدا قريشاً فى عرفات ، وقريش ومن كان على دينها يقفون فى المشعر الحرام ويقولون : نحن أهل بيت الله فلا نخرج من الحرم ..

وظنت قريش أن الرسول فى حجه سيقف عند المشعر الحرام ، كما كانت تفعل هى فى الجاهلية ، ولكن الرسول تابع سيره إلى عرفات فصارت الموقف ، يتساوى فيه المسلمون جميعاً إلى يوم الدين .. وعلى هذه الأرض المباركة ، وفى هذا اليوم المشهود ، يوم الحج الأكبر يجتمع من المسلمين أكثر من مليون فى صعيد واحد ..

أليس فى هذا تلخيص لقصة الحياة ، إقامة موقوتة ثم رحيل ..

– فى هذا اليوم استمعت الدنيا إلى صوت النبى :

« إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا هل بلغت ، اللهم اشهد ،

« فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها .

« ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع . ودماء الجاهلية موضوعة .

« وربا الجاهلية موضوع .

« اتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله .

« تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله .

« أيها الناس . إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب .

« أكرمكم عند الله أتقاكم . وليس لعربي فضل على عجمى إلا بالتقوى .

« وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون ؟

« قالوا : نشهد أنك قد بلّغت وأدّيت ونصحت .

فأشار بأصبعه إلى السماء وإلى الناس قائلا : اللهم اشهد .. اللهم اشهد .. اللهم اشهد ..

— ثم أذن مؤذن فصلى الظهر والعصر . ولم يصل بينهما شيئاً ..

وركب ناقته حتى أتى الموقف عند الصخرات .. واستقبل القبلة واقفاً .. حتى غربت الشمس فتوجه إلى المزدلفة ..

— وفى هذا الموقف عند الصخرات ترى عرفات وقد برز فوقه جبل الرحمة وقد اختفت الصخور والسفح تحت غطاء بشرى .. ترتفع منه أيد ضارعة داعية .. كأنها أغصان مؤمنة .. حفيفها دعوات تصاعد إلى الله بكل لسان ..

وأنت تدعو فى عرفات مؤمناً بقبول الله دعاءك فى هذا الجمع الطاهر الذى ضمته جوانب الجبل ، من مشارق الأرض ومغاربها ..

نفوس فرغت إلى دعاء ربها ..

ودموع التوبة تغسل ذنوبها ..

والحج المبرور ، يطهّر الإنسان من ذنوبه كيوم ولدته أمه .. هو ولادة جديدة للإنسان ، تشابه ولادته الأولى فى الطهر ، وتختلف عنها فى عمق التجربة ووضوح الرؤية .

والشمس تميل إلى الغروب ، ويرتفع معها الدعاء والابتهال فى اللحظات الأخيرة من يوم عرفات ..

المزدلفة :

وفى الإفاضة من عرفات تتدفق هذه الجموع الهائلة فى اتجاه واحد إلى المزدلفة ، وفيها يقضى الحجيج ليلهم . . ويصلون المغرب والعشاء .. فإذا ما جاء الفجر ، صلّوه ، ثم توجهوا إلى منى بعد جمع الحصيات لرمى الجمار ..

وتتناثر على جانبى الطريق هنا وهناك ، جماعات مؤمنة من الركع السجود . هم صورة حية لقول الله تعالى :

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ، يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

منى وأيامها :

— وفى منى يرمى الحاج جمرة العقبة يوم النحر (العاشر من ذى الحجة) ثم يذبح هَدْيَه ويحلق شعره أو يقصره ويلبس ثيابه ..

وهذا هو التحلل الأصغر..

فإذا طاف طواف الإفاضة . حل له كل شىء : وهذا هو التحلل الأخير ..

وللحاج أن يبقى فى منى بعد يوم النحر يومين أو ثلاثة ، يرمى كل يوم الجمرات الثلاث ، مبتدئاً بالجمرة القصوى ثم التى تليها ثم جمرة العقبة . كل جمرة بسبع حصيات .. يكبر مع كل حصاة ، ويقف داعياً ذاكراً ..

ورمى الجمرات كأى منسك من مناسك الحج ، لابد أن يحدده مكان وزمان وعدد مبين ..

ونذكر حين كنا فى الكعبة ، كيف طفنا حولها داعين ، واستلمنا الركنين اليمانيين ، وقبلنا الحجر الأسود ، وهنا نرجم حجراً ، رافعين صوتنا بالتلبية والتكبير ، وما الإيمان ؟ إنه الحب والبغض ، أن تحب مادعاك الله إلى حبه ، وأن تبغض ما دعاك الله إلى بغضه ..

وهنا فى الرجم التعبير العملى عن الإيمان الذى لا يحركه إلا أمر الله . وأنت حين تقذف هذه الحجارة الصغيرة ملبياً ربك ، تقوم بمنسك يشترك فيه القلب واليد واللسان .. أنت بهذا ترجم الخطيئة والإثم ..

فى الرجم روح الحج : عبادة تستغرقك جميعاً .. قلبك ويدك ولسانك .. عبادة فيها الجهد المحسوس تعبير وتصديق للإيمان الكامن ..

وهو ما نقوم به فى صلاتنا : عبادة يشترك فيها القلب والجوارح واللسان ..

وفى منى تجتمع الوفود الإسلامية ، ولايزال من الممكن الاستفادة من هذه الأيام ، فى توثيق الروابط والنظر فى القضايا المشتركة ، ويبدو فى منى تعاون الحكومات والشعوب الإسلامية فى رعاية الحجيج وتوفير الخدمات لهم بروح سمحة ، وتبادل الزيارات بين الوفود فى جو أخوى كريم ..

وأنت حينما تنحر ما قدمته من من هَدْى تذكر قول الله تعالى: (لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ) . وفى هذا تعظم شعائر ربك : (ذٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) .

وأيام منى ليس فيها من المناسك إلا رمى الجمرات والنحر وطواف الإفاضة إن نزلت مكة ..

ومنى واد بين جبلين ، شهد صبر الرسول الأعظم يتنقل وحيداً بين القبائل يدعو إلى الله ، وشهد بيعة العقبة مع الأنصار ، ومن بعد ، حجة الوداع .

– وفى الحج تغطى منى خيام الحجيج .. تتنقل بينها قلوب مؤمنة تقطع الليل تسبيحاً وقرآناً ..

وكأن الوادى والجبال الجرداء حولك قد نبت عليها نبات بشرى لا يضرب جذوره فى الأرض وإنما يستمد حياته من السماء ..

إن كل شيء من حولك قريب حبيب .. ومن فوقك سماء تلمع فى ليلها النجوم ، وأصوات الدعاء تتردد بين المضارب والدور فى فرحة العيد الأكبر .

حياة يتدفق بها واد كان منذ أيام قاعاً صفصفاً ، ثم إذا تركه الحجيج عاد إلى سكونه حتى العام الذى يليه ..

إلى مكة :

وتستعد للرحيل من منى إلى مكة .. وتذكر تحركات هذه الجموع الكبيرة إلى عرفات ..

– أكثر من مليون من البشر يتحركون فى توقيت دقيق على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وقدراتهم ..

– وتستطيع أن تسائل نفسك عن الجهد والعناء الذى يلقاه قائد – أى قائد – يريد أن يحرك هذه الجموع الضخمة مع كل ما بينها من فروق القدرة واللسان والوطن .

– ليست هناك قوة تستطيع أن تفعل هذا إلا قوة الإيمان ..

— قوة تنشئ مدينة كاملة فى عرفات تعمرها نهاراً . . ثم تقضى ليلها فى المشعر الحرام . فإذا طلع الصباح كانوا فى منى ..

— وأوامر ينفذها الفرد مستجيباً لها فى أى وقت من ليل أو نهار ، ليس عليه من رقيب إلا الإيمان ..

— هذه الطاقة المؤمنة تستطيع أن تفعل للإنسانية الكثير لو وجدت مسالكها السليمة إلى التعبير ، وتوحدت من أجل الحق والخير .

طواف الإفاضة وطواف الوداع :

— ويبارح الحجيج منى ، ويؤمّون المسجد الحرام طائفين طواف الإفاضة سبعة أشواط . وذلك لمن كان محرماً بالحج أو قارناً ، أما المتمتع فعليه طواف وسعى .

فإذا عزموا الرحيل . عادوا إلى البيت يطوفون به طواف الوداع ، داعين الله أن يجعل حجهم مبروراً ، وذنبهم مغفوراً ، وأن يكتب لهم العودة إلى بيته المحرم .

— ويتحرك بنا الركب إلى يثرب « مدينة الرسول » ذاكرين قول النبى عليه الصلاة والسلام : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » .

إلى المدينة :

— ويقودنا الطريق من مكة إلى جدة .. ثم نتجه شمالا مجاورين البحر حتى ندرك أرض بدر حيث دارت المعركة الأولى بين الحق والباطل. ونصر الله جنده مع قلة عَدَدهم وعُدَدهم على الباطل المتجبر .. وثوى فى أرض بدر شهداء الجهاد الذين بذلوا أرواحهم من أجل إعلاء كلمة الله ...

فى المدينة :

— ويقترب بنا الطريق من المدينة وتلوح مآذن المسجد النبوى ، القبة الخضراء ، فوق قبر النبي عليه الصلاة والسلام .

— وتتزاحم فى الذهن ذكريات الماضى والشوق إلى المصطفى عليه الصلاة والسلام .. تذكر النبى فى طريق الهجرة . حين كان آوياً إلى الغار ليس معه إلا ربه وصاحبه وصوت القرآن يردد :

(إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ ، إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ . إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا) .

تذكر كيف جاء المدينة وكان أهلها مختلفين فآخى بينهم .. وكان يخاطبهم ويقول : « لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار » .

وكيف آخى بين المهاجرين والأنصار ، وسجل الله ذلك الحب المقيم بينهم فى كتابه فقال :

(وَالَّذِين تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

— تذكر كيف بدل المدينة من تفرقها وحدة . . ومن تنازعها تماسكاً وتعاوناً على البر والتقوى ..

— تذكر كيف وقفت المدينة تدافع عن الإسلام .. ترد كيد

المعتدين .. تودع شهداءها بالإيمان والتسليم .. وتستقبل وحى السماء باليقين والتنفيذ .. فخرج من مسجد المدينة جيل من المؤمنين نشروا أعلام الحق .. وتتابعت منها الموجات النورانية يدفعها الإيمان .. فكانوا رحمة من الله مهداة ..

– وتسير فى طرقات المدينة وما حولها ، فتحس أمجاد الماضى وأعباء الحاضر وواجبات المستقبل .. مسجد قباء .. المسجد الذى أسس على التقوى .. جبل أحد أرض المعركة .. قبر حمزة .. سيد الشهداء .. هذه الأرض الطيبة التى احتضنت الرسالة والإيمان .

سارت أجيال وأجيال ، والتقى الماضى بالحاضر فوقها ..

سار النبى وصحابته المباركة .. وارتفع صوته بالقرآن ، وانتظمت من خلفه صفوف الصلاة تضم الصفوة التى اختارها الله لصحبته ..

هنا تنزل الوحى والقرآن .. وصعد الكلم الطيب والعمل الصالح ..

فى هذه الأرض الطيبة جمع الله قلوب البشر على الحب والخير فى باقة إنسانية علمت الدنيا كيف ترتفع فوق فروق الجنس واللون ، وكيف تعد المال وسيلة للرقى بالحياة بدون أن يستذل الإنسان ويطغيه ويفرق بين الأخ وأخيه ..

هنا عاش الخلفاء الراشدون .. أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ..

هنا عاش الإسلام تاريخاً نابضاً بالحياة ..

استهدف الإسلام الوحدة الإنسانية المؤمنة التى نجدها فى قول الله تعالى ، وانتشر برسوله نور الحق بعد ليل الظلام .. وارتفع به صوت الإيمان ..

(يٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيرًا . وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيرًا) .

صلى الله عليك يا رسول الله ، أنت الرحمة المهداة ..
عنك نأخذ مناسكنا كما علمتنا ..

(رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، ربنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَاد) .

الفصل الثالث

الإسلام والعلم

منهج الدراسة :

١ ـ لعل من الأفضل أن نبدأ أولا بتحديد مفهوم الإسلام ومدى شموله ، مستندين فى هذا إلى نصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية ، ونتنقل بعد هذا إلى مفهوم العلم فى الإسلام ومدى شموله ومجالات بحثه . وعلى أساس من هاتين النقطتين نستطيع أن نتابع البحث إلى مكانة العلم فى الواقع الإسلامى وعلاقة العلم بالمجتمع ، ثم ننتهى إلى دراسة القوانين العلمية ومكانتها من الفكر الإسلامى مع نماذج تطبيقية على ذلك .

وفى عرض وتحليل هذه النقاط سنذكر أهم مراجعها ليستطيع ـ من شاء ـ متابعة البحث والتعمق فيه .

أولا ـ تكامل الإسلام

٢ ـ هناك أركان ثلاثة تشترك فيها الأديان وهى : الإيمان بالله، وبالجزاء فى الآخرة، والعمل الصالح فى الدنيا[١] . وهذه الأركان الثلاثة تجمعها الآية الكريمة :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[٢] .

---

(١) فى أصول الأديان يراجع : السيد محمد رشيد رضا : الوحى المحمدى ٤٤ ـ ٤٥ . والكتاب من أفضل ما كتب عن أهداف الإسلام .
والصابئون فى الآية معناها من خرجوا من دين إلى دين .

(٢) سورة البقرة : ٦٢ .

٣ — ومع وجود تباين فى تفاصيل العمل الصالح — بنوع خاص — ومدى العناية بالجزاء الأخروى ، وتصور أهل الأديان للإيمان بالله وصفاته، فإن هذه الأصول الثلاثة تتكامل معاً ويقوم عليها صرح الدين . ويمثل الإيمان بالآخرة ما يمكن أن نسميه بالامتداد الزمانى فى الفكر الدينى الذى يعرض لقصة البشرية من نشأتها إلى غايتها فى إجمال وإيجاز .

٤ — ويتكامل معه فى الإسلام شمول موضوعى يغطى مجالات الحياة جميعاً . ونحن إذا قرأنا القرآن وجدناه فى السورة الواحدة يذكر أموراً تتعلق بخلق الإنسان وأموراً تتعلق بالجزاء ، وأموراً تتعلق بالحياة اليومية فى مناشطها المتنوعة : اجتماعية واقتصادية وسياسية . وينتقل من موضوع إلى موضوع ، كما تتتابع هذه الموضوعات فى حياة الفرد اليومية . من أجل ذلك لا تنقسم سور القرآن على أساس موضوعى ، وإنما تتجمع الموضوعات وتتفرق ، كما يحدث فى حياتنا اليومية : ننتقل من مشكلة سياسية إلى اقتصادية إلى بحث علمى إلى شىء من طعام وشراب. فالوحدة هنا « وحدة حيوية » إذا جاز لنا أن نستخدم هذا التعبير فى هذا المقام . ويبدو هذا التفاعل الحيوى بين الفرد والقرآن إذا ذكرنا أننا نقرأ القرآن فى الصلاة — وهى عماد الدين — فننتقل فى قراءتنا — ونحن بين يدى الله — بين قضايا اجتماعية وسياسية واقتصادية وأحداث تاريخية وعقائد تتعلق بالله والآخرة ... فالمزج بين الدنيا والآخرة يتكامل هنا مع المزج بين قضايا الحياة على تنوعها واختلافها .

٥ — وثمة تكامل ثالث يضم الأديان جميعاً ؛ والمسلم بنص القرآن مطالب بتصديق الأنبياء جميعاً : (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ

مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)(١).

٦ – وهناك تكامل رابع يتمثل فى شمول الدعوة الإسلامية ، وأنها لا تقتصر على جنس دون جنس ، أو عنصر دون عنصر . وأنها تنظر إلى الإنسان فى جوهره الواحد . وترد التفاضل إلى التقوى . وفى هذا يقول الله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ . إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)(٢).

وإلى هذا الأصل العريض من المساواة الإنسانية أشار الرسول عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع فقال : « أيها الناس . إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت . اللهم اشهد . قالوا : نعم . قال : فليبلغ الشاهد الغائب(٣) » . وعبر الرسول عن هذا الشمول الإنسانى تعبيراً عملياً حين وصف بعض صحابته فقال : « أنا سابق العرب . وصهيب سابق الروم ، وسلمان سابق الفرس . وبلال سابق الحبش(٤) » . وقوله : « أنا رسول من أدركت حياً ومن يولد بعدى(٥) » .

---

(١) سورة البقرة : ١٣٦ .

(٢) سورة الحجرات ١٣ .

(٣) أحمد زكي صفوت : جمهرة خطب العرب ١ : ٥٩ .

(٤) السيوطى : الجامع الصغير أ : ١٠٧ وميزة هذا المرجع أنه يرتب أوائل الأحاديث الشريفة بحسب حروف المعجم .

(٥) المرجع السابق نفسه .

ثانياً — تكامل العلم فى الإسلام

٧ — ومن الطبيعى أن نجد فى نظرة الإسلام إلى العلم التكامل نفسه الذى رأيناه فى النظرة الكلية للإسلام . . . فالإيمان بالله فى الإسلام « علم » ، والإيمان بالآخرة « علم » ، والذين يعرفون أمر العمل الصالح فى الدنيا هم أهل « علم » . ويشرح الأصفهانى العلم فيقول : « العلم إدراك شىء بحقيقته » . ثم يقسمه إلى نوعين : « أحدهما إدراك ذات الشىء ، والثانى الحكم على الشىء بوجود شىء هو موجود له أو نفى شىء هو منفى عنه ». والمقصود من تقسيم الأصفهانى[1] أن الأول يقصد به معرفة ذات الشىء ، والثانى معرفة دليل يحكم به على الشىء سواء أكان دليل نفى أم إثبات . ثم يقسم العلم مرة أخرى إلى قسمين : عقلى وسمعى أو عقلى ونقلى . وفى الموضوع تفصيل كثير[2] كل ما يهمنا منه الآن فى هذه المرحلة من الدراسة أن العلم فى الإسلام شامل لأمر الدنيا والآخرة ، وأنه يشمل العقيدة كما يشمل الشريعة . . وبهذا المفهوم الواسع نستطيع أن ندرك المقصود من العلم فى القرآن والسنة . ولنذكر بعض نماذج على ذلك :

(١) (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[3].

---

(١) الراغب الأصفهانى : المفردات فى غريب القرآن ص ٤٨ ؛ وهذا الكتاب معجم لمفردات القرآن مرتب أبجدياً مع شرح لمعانيها فى آيات القرآن .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) سورة آل عمران : ١٨ .

وتعد هذه الآية أجل شهادات القرآن على الإطلاق ، فإنها صدرت من الله وملائكته وأنبيائه وأهل « العلم » على القضية الكبرى فى الإسلام وهى توحيد الله وقيامه بالقسط ، ويتضمن ذلك الشهادة على جميع أحكام الشرع وأحكام الجزاء .
يقول القرطبى فى تفسيره (٢ : ٤١) تمجيداً للعلم : لو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأله المزيد منه كما أمره أن يستزيد من العلم (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً) ؛ وقول النبى : « العلماء ورثة الأنبياء » و « العلماء أمناء الله على خلقه » .

(ب) (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)(١) .

فأول أمر جاء الرسول : اقرأ ، وأول آلة وأداة ذكرها الله وأقسم بها : القلم فى ثانى سور القرآن نزولا وهى سورة « ن » ، وفى هذا أعظم تمجيد للكلمة المنطوقة والمكتوبة .

(حـ) (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)(٢) .

(د) (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)(٣) .

---

(١) سورة العلق : ١ — ٥ .
(٢) سورة فاطر : ٢٨ .
(٣) سورة النساء : ١١٣ .

ومن هذه الآيات يبدو الترابط القوى بين جوانب المعرفة الإنسانية مادية وروحية . بحيث نستطيع القول بأن الإسلام ينادى « بوحدة المعرفة » وتكاملها فى الوقت نفسه .

٨ — ولقد فطن علماء الإسلام إلى اختلاف مصادر المعرفة الإنسانية ومستوياتها .. فميز بعضهم بين ثلاثة مستويات علمية (١) .

(ا) المستوى الأعلى أو العلم الأعلى ، وهو علم الدين الذى لا يجوز لأحد الكلام فيه بغير ما أنزله الله فى كتبه وعلى ألسنة أنبيائه صلوات الله عليهم نصاً .

(ب) العلم الأوسط . وهو معرفة علوم الدنيا التى تكون معرفة الشىء منها بمعرفة نظيره ، ويستدل عليه بجنسه ونوعه كالطب والهندسة .

(حـ) العلم الأدنى ، وهو الأعمال القائمة على تدريب الجوارح .

وبعبارة أخرى : ميزوا بين علوم مصدرها الوحيد هو الوحى ، ويعين عليه الاستدلال العقلى ، وعلوم تعتمد أكثر ما تعتمد على الجهد العقلى ، ولنشاط الإنسان فيها مجال كبير ؛ وعلوم تعتمد أكثر ما تعتمد على الجهد البدنى والتدريب اليدوى .

والواقع أن الأقسام متداخلة .. فالطب وبخاصة الجراحة مثلا تعتمد اعتماداً كبيراً على الفكر والمهارة اليدوية معاً . ومع تقدم المجتمع تصبح العلوم التدريبية محتاجة إلى مهارات أكثر . وهذه لابد لها من أساس عقلى وإعداد دراسى . والفكر واليد يتعاونان معاً فى تنفيذ أمر الله بعمارة الكون والرقى بالحياة .

---

(١) ابن عبد البر القرطبى الأندلسى . جامع بيان العلم وفضله ٢ : ٢٨ ، والكتاب من خير ما كتب فى منزلة العلم فى الإسلام والصفات التى ينبغى توافرها فى العالم فى التحصيل والعلاقة بالمجتمع .

وللعلماء تقسيمات غير هذه .. وإنما الذى يعنينا من هذا التقسيم الذى أورده ابن عبد البر القرطبي أنه يجمع بين علوم الدين والدنيا ، وأنه مع تعدد التقسيمات يضم باستمرار — فيما أعلم — هذه الأقسام جميعاً .

٩ — ومن هنا نجد التفاعل قوياً بين العقيدة والشريعة فى الإسلام . وبين الإيمان والعلم . وإذا عدنا إلى الآية الكريمة : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) وطالعنا ما قبلها رأينا هذه الوحدة الفكرية بين الايمان والعلم فى قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . . . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)[١] . فى الآية إشارات إلى الظاهرات الجوية والنبات والصخور والناس والحيوان ، وهى رءوس موضوعات أصبح كل منها علماً كاملا ، بل مجموعة علوم مادية بحتة ، وتضمها الآية الكريمة . وتربط بينها وبين خشية الله ، وتؤكد حقيقة كبيرة هى أن العلم طريق إلى معرفة الله وخشيته . وأن مطالعة آياته تزيد الإنسان إحساساً بعظمة الله وقدرته .

١٠ — وانعكس هذا — كما سنرى — على تاريخ الإسلام فكانت الروابط قوية بين الدين والعلم . فالدين يدعو إلى العلم ، والعلم يؤكد

---

(١) سورة فاطر : ٢٧ ، ٢٨ .

الدين . ولم نشهد فى تاريخ الإسلام بعامة خصومات عنيفة كالتى شهدتها أوربا بين العلم والدين ، إلا فى حالات معروفة أكثرها يتعلق بالعقيدة ، وعرضها يخرج بنا عن خط البحث الذى نحن بسبيله .

ثالثاً — العلم فى المجتمع الإسلامى

١١ — أول ما يسترعى الانتباه تمجيد القرآن العلم ، وضخامة هذه المادة فى القرآن . بحيث إنها وردت هى واشتقاقاتها نحو ٨٨٠ مرة[١]. هذا الرقم الذى يقرب من الألف يعطينا وحده فكرة عن مكانة هذه المادة فى الإسلام ، والوثبة الجبارة التى وثبها بالفكر الإنسانى حاملا معه التراث القديم من الصين والهند وفارس واليونان والرومان : فى الوقت الذى تنكرت فيه أوربا لهذا التراث ، وحفظه للأجيال التالية فى أمانة وسعة أفق .

١٢ — وإذا كان الوحى مصدر القسم الأول أو الأعلى من العلم فإنه — أى الوحى — تعرض أيضاً لجوانب من القسمين الأوسط والأدنى : أعنى العلوم المعتمدة على العقل ، والمعتمدة على التدريب فى طابعها العام . أما عن مدى الإجمال والتفصيل فى هذين القسمين فموضوعهما بحث مقبل عن الإسلام والتطور ، ويكفى أن نشير الآن إلى أن العلم بمعناه الشامل كان أمراً قائماً فى فجر الإسلام وازدهاره . ولم يكن من الغريب أن يبدأ العالم بالعلوم النقلية (علوم الشريعة) ويتابع سيره فيها ، أو يتخصص بعد هذا بالعلوم العقلية أو جانب منها .. وهو فى متابعته علوم الشريعة أو فى

---

(١) فى حصر ألفاظ القرآن وإحصائها وترتيبها أبجدياً وأماكن ورودها فى الآيات يرجع إلى : محمد فؤاد عبد الباقى : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. وفى مادة « علم » يرجع إلى الصفحات ٤٦٩ — ٤٨١ .

تخصصه بعلم عقلى . . بل يجمعه بين هذا ومهنة أخرى يحترفها ، لم يكن فى شىء من هذا يشعر أنه يخرج عن الخط الفكرى العام فى المجتمع الإسلامى .

١٣ — وشهد الفكر الإسلامى شخصيات موسوعية أخذت بأطراف علوم كثيرة عقلية ونقلية . وتركت فى المكتبة الإسلامية تراثاً ضخماً ، وشخصيات غلب عليها التخصص بعلوم محدودة . وسادتها جميعاً نظرة تجمع بين الدين والعالم المادى — فى وحدة متسقة[1] .

١٤ — وقد يبدو من التناقض أن يجمع العالم بين التصديق المتمثل فى الوحى والبحث العلمى الموضوعى كما يبدو فى العلوم العقلية . ولكن النظرة الإسلامية تعدّ « الوحى » أشرف مصادر المعرفة وأعلاها ... وتعدّ الخبر الذى يأتى من الله أولى بالتصديق من الخبر الذى يأتى من إنسان . ومن هنا نجد أن « الغيب » الذى نصّ عليه القرآن ، هو فى العقيدة الإسلامية « علم » بالمفهوم الإسلامى . وبهذا نستطيع أن نفهم قوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) (٢) . فهذه إذا كانت فى ذاتها

---

(١) هناك مراجع كثيرة عن الحضارة الإسلامية منها مجموعة أحمد أمين : فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام . وعباس محمود العقاد : أثر العرب فى الحضارة الأوربية ، وآدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة . وقد نشرت هيئة اليونسكو (الشعبية القومية بالجمهورية العربية المتحدة) كتاباً ممتازاً فى هذا المجال هو : الدليل الببليوجرافى للقيم الثقافية العربية : مراجع للدراسات العربية — نوفمبر ١٩٦٥ . .

(٢) سورة لقمان : ٣٤ .

« علماً » فإن معرفة الإنسان ببعضها — فى التوقيت والمدى — راجع إلى إرادة الله . وإلى هذا تذهب الآيات الأولى من سورة البقرة التى تصف المؤمنين : (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) . وتتابع الآيات لتبين أن فضيلة الإنسان الكبرى هى العلم كما تمثله الآية الكريمة (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) ، ثم تجعل الوجود كله هدى « للعالمين » و « لقوم يتفكرون » و « لقوم يسمعون » و « لقوم يعقلون » . فالحواس هنا غير منفصلة عن التصديق القلبى ، بل هما طريقان للمعرفة والعلم كما تبين هذا الآية الكريمة : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا . . .)[1] .

١٥ — والاتجاه العلمى الذى يدعو إليه القرآن هو التعرف على الإنسان والكون بحسبانهما مجالات البحث التى تبدو فيها آيات الله وتوضحها الآية الكريمة : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)[2] . وإذا شئنا تفسيراً لهما كان : الطبيعة والنفس ، وبعبارة أخرى : الكون المادى والمجتمع البشرى .. وينقلنا هذا إلى دراسة قوانين هذين المجالين وما جاء بشأنهما فى القرآن الكريم والسنة النبوية وبعض جهود علمائنا فى هذا المجال .

---

(١) سورة الإسراء : ٣٦ . (٢) سورة فصلت : ٥٣ .

رابعاً ــ القوانين العلمية

دراسة مقارنة :

١٦ ــ يلفتنا القرآن الكريم إلى التأمل فى الوجود ودراسته دراسة لا تقتصر على البيئة المحلية التى يعيش فيها الفرد ، وإنما تشمل ما استطاع من بيئات أخرى . وفى هذا يقول الله تعالى :

(ا) ﴿قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾[1] . ويتكرر هذا التوجيه الربانى فيكون من الأسباب الرئيسية وراء الرحلات التى بلغت ذروتها برحلة ابن بطوطة الطنجى ، وسجلت رقماً قياسيًّا لم يسبقه فيه رحالة آخر قبل عهد البخار (٧٥،٠٠٠ ميل) .

(ب) ويلفتنا إلى مظاهر الكون وما فيها من دقة ونظام فيقول : ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ . وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ

---

(١) سورة الروم : ٤٢ .

الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (١) . واضح كنموذج — من قول الله تعالى : « وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ » ما يجب على الفرد من محاولة معرفة هذه المنازل ، وكيف اهتدى بها الإنسان إلى معرفة « عدد السنين والحساب » (٢) .

فالقوانين الطبيعية المتعلقة بالمادة فى هذا الكون جاء بها القرآن الكريم فى وضوح .

١٧ — وقد يكون من الأفضل فى هذه المرحلة من البحث ، ونحن بصدد القوانين العلمية ودراستها على أساس مقارن ، أن نذكر مفهوم العلم الحديث ونرى أين يلتقى وأين يختلف مع المفهوم الإسلامى .

فى الاستخدام العادى المعاصر تطلق كلمة « علم » على مجموعة متنوعة من الأنظمة أو المناشط العقلية لها مميزات خاصة تجمع بينها . وهذا التعريف — فى شموله — لم يبدأ بتحديد شكلى . وهذه الأنظمة — التى نطلق عليها الآن علوماً — بدأت مستقلة بعضها عن بعض . تستجيب كل منها لحاجة معينة . ثم بينت الملاحظة أن بعضاً من هذه الأنظمة له ملامح خاصة مشتركة تكفى لأن نضمها كعالم واحد . وفى استخدام هذه الأنظمة لا نجد اتفاقاً بين الباحثين على عد بعضها علوماً وإنما عليها خلاف سنعرض له بعد قليل . ومن أمثلة ذلك علوم الاجتماع والتاريخ .

---

(١) سورة يس : ٣٧ .

(٢) سورة الإسراء : ١٢ .

ومن أهم ما يمتاز به العلم إمكان الوصول فيه إلى نتائج محددة يمكن أن تخضع لنوع من الاختبار والبرهنة . ويقتضى هذا أن المواقف أو التجارب التى ندرسها فى العلوم يمكن أن نعيدها مرة أخرى لنخضعها للاختبار . وإن كان هذا الشرط لا ينطبق على كل الأحوال . فهناك علوم تقوم على الملاحظة كالفلك والجيولوجيا حيث لا يمكن إعادة الحالة أو الموقف الذى ندرسه مرة أخرى . وحيث يقتصر التحديد الدقيق على دقة الوصف .

وإذا كان من الممكن تقسيم العلوم إلى وصفية ومضبوطة descriptive and exact فإن الفارق الرئيسى بينهما هو دقة القياس . فالقسم الأول يضم الفيزيقا (الطبيعة) والكيمياء ويتمثل — وإن كان بدرجة أقل — فى النبات والحيوان . وهذا القياس يقوم — أساساً على الأرقام والوصف . وكلما كان اعتمادنا على الأرقام أكثر ، كانت درجة الدقة فى الدراسة أعلى ، ولو أمكننا — بالتالى — إعادة الموقف الذى ندرسه أو التجربة لخرجنا بالأرقام والنتائج نفسها . والأنظمة العلمية التى يمكن إخضاعها للقياس الدقيق يمكن أيضاً أن تخضع للتحليل الرياضى . وهذه الإمكانية من أهم مميزات العلوم المضبوطة . أما العلوم الوصفية فأهم ما تقوم به أن تكون لنفسها منهجاً للوصف أو التصنيف يقود إلى مزيد من الدقة فى وصف وتحديد مدة الدراسة .

والعلوم بعامة لا تكتفى بالمصطلحات التى نستخدمها فى الحياة اليومية ، وإنما تتخذ لنفسها اصطلاحات خاصة لها حدودها التى تحمل مضموناً محدداً . فإذا ما كان العلم دقيقاً فى مفاهيمه ، دقيقاً فى وصفه دقيقاً فى قياسه ، أمكنه متابعة التقدم نحو كشف قوانين جديدة ، وأستطاع أن ينتقل من التقرير إلى التقدير ، من الماضى إلى المستقبل ، مستعيناً بالمناهج العلمية كالتصنيف والإعادة — أو التكرار — والإحصاء والتجربة

والقياس والسبب والنتيجة[١] .

١٨ — يبدو من هذا أن ما يطلق عليه الآن « علوم » يدخل فى المستوى الأوسط من التقسيم الثلاثى الذى مر بنا فى الفقرة (٨) من هذا البحث ، وأن العلوم الطبيعية أو المتصلة بالكون لا خلاف فى عدّها علوماً .. أما القسم الثالث فهو أدخل ما يكون فى النواحى التطبيقية . ويبقى بعد هذا قسمان أو على الأصح قسم وجزء من قسم : الأول هو المستوى الأعلى المتعلق بالوحى ، والجزء البشرى أو الإنسانى من المستوى الأوسط وهو المتعلق بالعلوم البشرية والقوانين التى تحكم التطور البشرى . ولكل من هذين الموضوعين مشكلاته الخاصة .

١٩ — فيما يتعلق بالمستوى الأعلى كان لعلماء الإسلام أكثر من منهج فى تأكيد الوحى : أولهما منهج الفطرة ، والثانى منهج الاستدلال العقلى . والمنهجان يرجعان معاً إلى القرآن :

(١) فالقرآن يعدّ الإيمان فطرة : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[٢]

(ب) ويصف الدين بأنه صبغة الله فى قوله تعالى :

---

(١) Mac Graw Hill Encyclopedia of Science & Technology Vol. 12: 72 — 74, 1960.

(٢) سورة الروم : ٣٠ .

﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ (١) .

فهنا نجد تأكيداً للفطرة . ولهذا لا يُعَدّ الدين من وجهة النظر الإسلامية ظاهرة اجتماعية أوجدها الإنسان ، وإنما هو « طبيعة » فيه . ومن هنا تأتى أصالتها وعمقها وامتدادها وبقاؤها :

أصالة ترجع إلى طبيعته الأولى .

وعمق يرجع إلى أقدم عصور حضاراته .

وامتداد يسير معه فى مراحل تاريخه .

وبقاء ما بقى هو فى الوجود .

(حـ) ويستند القرآن أيضاً إلى الدليل العقلى ؛ والعقل مناط التكليف فى الإسلام ؛ والثلاثة الذين لا يجازيهم الله بأعمالهم هم : المجنون حتى يفيق ، والنائم حتى يستيقظ ، والصغير حتى يكبر . فخطاب الدين موجه إلى العقل أولا . وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِى الْأَلْبَابِ﴾(٢) .

ويستخدم القرآن الدليل المنطقى فى قوله : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾(٣) ، وقوله : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى

---

(١) سورة البقرة : ١٣٨ . (٢) سورة آل عمران : ١٩٠ .

(٣) سورة الأنبياء : ٢٢ .

ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً . سُبْحَانَهُ وَتَعالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا)[١] . ونعَى على قوم قولهم : (وَقَالُوا إِنْ هِىَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ)[٢] .

ومع استخدام القرآن كلا من المنهجين : الفطرة والاستدلال العقلى ، كان التطرف فى أى منهما مدعاة إلى الانحراف فى الفكر الإسلامى كما حدث مثلا بين المتصوفة والمعتزلة . وبين المتصوفة والفقهاء . عندما اعتمد بعض المتصوفة أساساً على الحس القلبى (علم الحقائق) وفرقوا بينه وبين العلم (بمعنى العلوم المألوفة للناس) ، فى حين عمد المعتزلة إلى علم الكلام واستخدام الأدلة العقلية فى إثبات الله وصفاته[٣] . وبدون أن ندخل فى تفاصيل الصراع الفكرى بين هؤلاء وهؤلاء نود أن نؤكد حقيقة كبيرة هى وجود بذور الفطرة والاستدلال العقلى معاً فى القرآن ، وأن الانحراف جاء من الاعتماد على أحدهما دون الآخر ، وتحول الحوار الفكرى إلى صراع مذهبى .. ومع اختلاف المناهج فى إثبات حقائق الدين لم يكن هناك خلاف على أنها « حقائق » . كان الخلاف حول كيفية الإثبات لا الحقائق نفسها . كانوا جميعاً مؤمنين بالله وبالبعث والجزاء مع تعدد طرق الإيمان .. أى أن إطار الإيمان كان يجمعهم جميعاً وإن تعددت فيه مدارسهم .

٢٠ ـ نأتى بعد هذا إلى العلوم الكونية . ونودّ هنا أن نؤكد ظاهرة رئيسية فى الفكر الإسلامى ونظرته إلى الكون ومادته من طبيعية وبشرية . فالإسلام يعد الكون كله مخلوقاً من أجل الإنسان ومجالا لنشاطه:

---

(١) سورة الإسراء : ٤٢ . (٢) سورة الجاثية : ٢٤ .
(٣) آدم متز (المرجع السابق) ١ : ٣٣٤ - ٣٣٥ .

(هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)(١) .

وقوله تعالى : (اللّٰهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ . وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللّٰهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)(٢) .

فمادة الكون كلها خلقها الله تعالى للإنسان . ويسر له أسباب تسخيرها واستخدامها لصالحه ، فإذا مافعل هذا رادًّا فضل ذلك إلى الله ، كان من عباد الرحمن ، وإلا فهو ظلوم كفار . وقد انعكست هذه النظرة على الفكر الإسلامى انعكاساً واضحًا .. مظهره عناية بظاهرات الطبيعة وحب لها . الكون عندهم ليس عدوًّا يحارب ، ولكنه مجال عمل وميدان نشاط يبذل فيه الإنسان طاقات الفكر والجسم ليعمره .. والناس عندهم عباد الله ، كلهم لآدم وآدم من تراب ، يتفاضلون بالتقوى .. ومن هنا لم تكن فى تاريخ الإسلام مشكلات لونية عنيفة كالتى نشاهدها الآن مثلا فى جنوب إفريقية أو الولايات المتحدة أو المستعمرات البرتغالية .. لم يكن فيه استنزاف ثروات الأرض كما يحدث فى الاستعمار

---

(١) سورة الملك : ١٥ .
(٢) سورة إبراهيم : ٣٢ – ٣٤ .

الجديد والقديم . من أمثلة ذلك وضع الأندلس فى ظل الإسلام وما حدث بعد هذا فى تلك الأرض .. هذه الناحية من الفكر الإسلامى لاتزال فى حاجة إلى بحث عميق ، وأكتفى فيها بأن الإسلام حيث طبق تطبيقاً سليماً استخدم مناهج العلم ، وأفاد من العلم فى ترقية المجتمع ورفع مستوى الحياة ، وإذا كانت هذه هى القاعدة العامة فلا يخلو الأمر من انحرافات ،ولكنها لا تصل فى درجتها ولا فى دوافعها إلى ما سجله الغرب فى آسيا وإفريقية وأمريكا وأستراليا من حروب إبادة واستغلال هدمى للثروات .

وإذا كانت هذه هى فلسفة المسلمين فى نظرتهم إلى العلوم الكونية فإن مناهج البحث فيها كانت بالدقة التى تتيحها لهم إمكانياتهم العلمية المتطورة .

ولقد ذهب الفكر الإسلامى بعامة إلى أن الملاحظة والتجربة هما أساس العلم وأصله ، لا التفكير النظرى المجرد وحده . ودرس المرحوم محمد إقبال هذه النقطة [١] وبين بالأدلة التاريخية أن الزعم بأن أوربا هى التى استحدثت المنهج التجريبى زعم خاطئ ، وكيف أن روجر بيكون استقى علومه من جامعات الأندلس ، وأن القسم الخامس من كتابه (Opus Magus) الذى خصصه بالبحث فى البصريات هو فى حقيقة الأمر نسخة من كتاب المناظر لابن الهيثم ، وهو من أعلام العرب فى الرياضة والطبيعات (ولد حوالى ٣٥٤ هـ = ٩٦٥م ، وتوفى بالقاهرة حوالى عام ٤٣٠ هـ = ١٠٣٩ م) وذكر له ابن أبى أصيبعة فى كتابه عيون الأنباء (٢ : ٩٠ – ٩٨) ما يقرب من مائتى كتاب ورسالة فى الرياضة والفلك والطبيعيات والفلسفة والطب [٢] . وشهد العلماء الغربيون لابن الهيثم بفضله عليهم ، فقالوا إن كبلر أفاد من كتبه فى الضوء وانكساره .

---

(١) محمد إقبال : تجديد التفكير الدينى فى الإسلام . ترجمة عباس محمود ١٤٢ – ١٦٧

(٢) المرجع نفسه . هامش ص ١٤٩ .

وهو أول من شرح تركيب العين وبين أجزاءها بالرسوم وسماها بأسماء تطلق عليها حتى الآن كالشبكية والقرنية والسائل الزجاجي والسائل المائي (١).

ونستطيع أن نرى نماذج متعددة للمنهج العلمي قائمة على نقد المعلومات السابقة على أساس من إعادة التجارب وتحقيق النصوص والنظر إلى المعرفة الإنسانية ككيان تام متطور تضيف إليه الأجيال اللاحقة جديداً ، ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .. هذا الاتجاه التطورى يعبر عنه أبو بكر الرازى - وإن كان حديثه منصباً على الفلسفة فيقول : « اعلم أن كل متأخر من الفلاسفة إذا صرف همته إلى النظر فى الفلسفة ، وواظب على ذلك ، واجتهد فيه ، وبحث عن الذى اختلفوا فيه لدقته وصعوبته ، علم علم من تقدمه منهم وحفظه ، واستدرك بفطنته وكثرة بحثه ونظره أشياء أخرى .. إذ كان البحث والاجتهاد يوجب الزيادة والفضل »(٢) .

وهذه الناحية ليست محل جدل كبير بين العلماء ، فالإضافات التى قدمها المسلمون إلى التراث الإنسانى تزداد العناية بها يوماً بعد يوم ، ويزداد - تبعاً لذلك - بروز الجهد الإسلامى فى التراث العالمى .

٢١ - إلا أن الجانب الذى يحتاج إلى وقفة أطول هو القوانين البشرية أو قوانين المجتمع .. ولم يحدث عليها حتى الآن اتفاق بين العلماء (تراجع فقرة ١٧) . وترتب على هذا أن اختلفوا فى وضع التاريخ والاجتماع بين « العلوم » المضبوطة أو على الأقل الوصفية. ولعله آن الأوان لإعادة النظر فى هذا الموضوع .

موضوع قوانين المجتمع يمكن أن ينظر إليه من زاويتين :

(ا) هل هناك « أولا » قوانين لتطور المجتمع ؟

(ب) ما هى هذه القوانين وكيف نصل إليها ؟

---

(١) مادة : ابن الهيثم : الموسوعة الميسرة ص ٢٩ .

(٢) روزنتال : مناهج العلماء المسلمين (مترجم) ص ١٨٥ - ١٨٦ .

ولعل مشكلة الزاوية الثانية أشد من مشكلة الزاوية الأولى .. فمع الاتجاه التجريبي فى العلوم أخذت الجهود تبذل فى معرفة العوامل المؤثرة فى تطور المجتمع . ولم تعد دراسة التاريخ والمجتمعات البشرية مقتصرة على مجرد سرد الحوادث .. التاريخ لم يعد مجرد حقائق متتابعة كأنها شريط سينمائى ليست فيه حبكة ولا هدف. وكان لابد للتاريخ أن يتطور من مرحلة جمع المعلومات إلى ربطها وتحليلها ثم تفسيرها ..

وفى التفسير تعددت المدارس وأعطت التاريخ أكثر من تفسير . هناك التفسير الدينى والجغرافى والجنسى (العنصرى) والاقتصادى والنفسانى والتاريخ المركب[1] .. ولكل من هذه التفسيرات دعاتها والمؤلفات التى وضعت فيها .. وفى نطاق التفسير الواحد تتعدد أيضاً اتجاهات الكتاب : ففى التفسير الجغرافى – على سبيل المثال – نجد الحتمية الكلاسيكية والإمكانية أو الاحتمالية والحتمية الجديدة ، وإن كان الاتجاه الأكبر الآن نحو الإمكانية التى تعطى جهد الإنسان ونشاطه مجالا واسعاً ، وتجعل له الصدارة على مؤثرات البيئة الطبيعية ..

ومن الطبيعي أن يحاول دعاة كل تفسير من هذه التفسيرات إثبات وجهة نظرهم وعرض أحداث التاريخ بما يؤكد هذه الوجهة . وإذا ما كانت الدراسة على بيئة محدودة المدى فإن القدرة على التفسير تصبح أيسر نسبياً – وهذه القاعدة العامة إذا كان من الممكن تطبيقها بسهولة فيما مضى ، فإن العالم المترابط الآن يجعل التفسير الموضعى المجرد بعيداً عن الصواب. فالعالم الآن أصبح كالصندوق الرنان تتردد فى جوانبه كلها أية طرقة عليه .. ويلقى هذا عبئاً كبيراً على دراسة قوانين التاريخ . .

٢٢ – وأبادر فأقول إن دراسة قوانين التاريخ أو قوانين المجتمع ينبغى أن يراعى فيها جانبان :

---

(١) ول ديورانت : مناهج الفلسفة (مترجم) ٢ : ٥٠–٥٧. وانظر أيضاً : حسن عثمان : منهج البحث التاريخى – دار المعارف بمصر.

(ا) الجهد البشرى المبذول فى تطوير المجتمع .

(ب) النتائج المترتبة على هذا الجهد وارتباطها به ارتباطاً «حتمياً» .

أى أن حتمية هذه القوانين لا تأتى من سلبية الفرد ولكن من إيجابيته التى هى جزء أساسى فعال فى الوصول بالتجربة البشرية إلى نتيجتها .. ذلك لأننا لو سلمنا بحتمية القوانين وسلبية الإنسان . لكننا من حيث لا ندرى — أو ندرى — قد رجعنا إلى القول بسلبية الإيمان بالقضاء والقدر . لا بإيجابيته . إن القدرية السلبية فى الفكر الإسلامى يقابلها القول بحتمية القوانين مع سلبية الإنسان فى الفكر المعاصر .. فلا فرق هنا علمياً بين « القدرية السلبية » و « الحتمية » على إطلاقها . وإنما الذى يؤكده الإسلام مع الإيمان بالقضاء والقدر هو إيجابية الإنسان وارتباط هذا بالنتيجة فى الدنيا والجزاء فى الآخرة ، وصدق الله :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)(١) .

هناك إذن ارتباط قوى — بل أقول تكامل — بين وجود القوانين التى يسير بها المجتمع وبين إيجابية الفرد والجماعة . ارتباط بين حتمية القوانين والجهد الإيجابى المبذول .. بحيث لو تخلف الفرد أو الجماعة عن بذل الجهد الصحيح فى مداه ونوعيته ، لما استطاع المجتمع الوصول إلى النتائج التى يستهدفها .

٢٣ — بهذا الضوء نستطيع أن نعود إلى القرآن الكريم ، لنحاول أن ندرس فيه هذه الزاوية . وسنتخذ نموذجاً لهذه الدراسة من سورة إبراهيم . وسبب اختيار هذه السورة بالذات أنها من السور التى تدرس مظاهر التفاعل بين الرسل والشعوب بدون أن تحدد فى سياق القصة اسم نبى أو شعب .. ويأتى هذا بعد أن تذكر السورة الكريمة عدة أنبياء

---

(١) سورة الرعد : ١٢ .

وتلخص قصصهم معاً ، وتبين مظاهر التفاعل ثم تنتهى بعد هذا بنتيجة ..

وبعبارة أخرى نرى قصة متكررة فى تاريخ الإنسانية قد تختلف فى تفاصيلها من شعب إلى شعب ، ولكن هناك سمات عامة أو « قوانين » تحكم هذا الصراع الذى يحدث بين الدعوة الجديدة والقوى التقليدية الموجودة فى المجتمع . ولنعرض معاً هذه المراحل :

(ا) (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)(١) .

فالصورة أمامنا متكررة فى أقوام نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله .. والمشهد الأول فيها مجىء الرسل إلى أقوامهم ، فلا يجدون منهم أول الأمر إلا التكذيب والشك . ولا ييأس الرسل من هذا وإنما يتابعون دعوة قومهم إلى الحق مستندين فى هذا إلى أكثر من دليل ، فلا يجدون من قومهم مرة أخرى إلا التكذيب ومحاولة التشكيك فى هذه الأدلة وصرف أنظار الناس عنها . وفى هذا يقول الله تعالى :

(ب) (قَالَتْ رُسُلُهُمْ : أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ

---

(١) سورة إبراهيم ٩ .

وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، قَالُوا : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ : إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) .

(ح) واضح من هذا أن الصراع حدث . وأن هناك إيذاء .. الرسل يدعون قومهم ، والذين يسيطرون على مقدرات القوم متمسكون بما هم فيه لا يريدون تغييراً ، وأنهم مدوا أيديهم بالإيذاء إلى الرسل . ويصل هذا الإيذاء إلى الإخراج من الوطن أو التهديد به كما توضحه الآيات التالية :

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ . وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) .

(د) تتتابع بعد هذا مشاهد القصة ، وبقيتها فى الآخرة مرتبطة بما حدث فى الدنيا ، مؤكدة ضرورة حرية الإرادة فى الفرد ، وثورته على الظلم الواقع عليه . وفى هذا يقول الله تعالى :

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؟ قَالُوا : لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَالَنَا مِنْ مَحِيصٍ) .

ثم تبلغ القصة ذروتها حين لا يتبرأ بعضهم من بعض فقط ، ولكن حينما يتبرأ منهم الشيطان نفسه قائلا : (وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ) .

ولو أردنا أن نلخص القصة كلها ونحاول أن نخرج منها بقوانين ، لوجدنا أولا : مايلقاه أصحاب الحق من مقاومة وعنف .. هذا القانون الذى عبر عنه القرآن الكريم فى أكثر من آية مثل قوله تعالى : (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ)[1] هو القانون الذى حمل فى التاريخ أكثر من اسم، مثل قانون الثورة والثورة المضادة .. عبر عنه ورقة ابن نوفل عندما ذهبت إليه خديجة تصحب النبى عليه الصلاة والسلام تخبره عن الوحى الذى أنزل عليه فقال ورقة : « والذى نفسى بيده إنك لنبى

(١) سورة البقرة : ٨٧ .

هذه الأمة . ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى . ولتكذبنَّه ولتؤذينَّه ولتخرجنّه ولتقاتلنّه . ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه[1] » .

٢٤ – قانون آخر يمكن أن نخرج به من آيات متعددة من كتاب الله هو ارتباط الترف بالإفساد . وهؤلاء المترفون من أشد من يقاوم الحق والتغيير فى المجتمع .. ويقول الله تعالى هذا فى قاعدة شاملة فى القرآن :

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)[2] .

ولقد ذكر الله الترف فى ثمانية مواضع من كتابه الكريم ليس فيها واحد فى مجال المدح أو الإقرار وإنما ترتبط بالظلم والفسق فى الدنيا والعذاب فى الآخرة[3] .

٢٥ – إن معظم من يقبل على الحق هم الشباب والفقراء . على حين يحاول المترفون أن يربطوا بين الحق والغنى المادى ..

(ا) ويصف الله أصحاب موسى بقوله : (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ)[4] .

---

(١) سيرة ابن هشام : ١ : ٢٥٤ ، والهاء الواردة فى أواخر الأفعال فى هذه العبارة للسكت .
(٢) سورة سبأ : ٣٤ .
(٣) راجع مادة « ترف » فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .
(٤) سورة يونس : ٨٣ .

(ب) وقال عن قوم نوح : (قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ)(١) .

وقال عنهم فى سورة هود (آية٢٧) : (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْىِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) .

(ح) وعن مشركى مكة : (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)(٢). وليس معنى هذا أن الفقراء هم « وحدهم » أتباع الرسل . فالإسلام يفرق بين الغنى والترف ، وإذا كنا فى مجتمعنا نعمل من أجل « الكفاية » فنحن نحارب « الترف» فى الوقت نفسه .

وهكذا يمكن أن نخرج فى بساطة بقوانين اجتماعية تسير عليها المجتمعات إلى جانب القوانين الطبيعية التى رأيناها من قبل فى الكون .

٢٦ — وهذه القوانين التى نستطيع أن نخرج بها من دراسة قصص القرآن يمكن أن نضمها إلى توجيه القرآن لنا بالسير فى الأرض (فقرة ١٦) ودراسة تاريخ الأمم وأحوالها لنرى عواقبها .. وإلى دعوته لنا بدراسة ما نحن فيه ، ويستطيع الباحث بهذا أن يكشف المزيد من قوانين الطبيعة والمجتمع . وما يصل إليه الباحث لا يخرج عن كونه « نتائج» يمكن أن يطرأ

---

(١) سورة الشعراء : ١١١ . (٢) سورة الزخرف : ٣١ .

علينا تعديل مع تطور أحداث الحياة ... والنموذج القريب فى الفكر الإسلامى لمحاولة كبيرة فى هذا المجال هو ما قام به العلامة ابن خلدون (١٣٣٢ — ١٤٠٦م) وسجله فى مقدمته المعروفة .. ويذهب ابن خلدون[١] إلى أن تكون التجربة أساس علمنا بالعالم ؛ وليس المقصود هو التجربة الفردية ، ولكن تجارب الإنسانية كلها مجموعة بعضها إلى بعض . وقد وضع ابن خلدون فلسفة التاريخ على أساس من تتبع الحوادث إلى عالمها وكشف قوانينها ، وعنده أن معرفة الحاضر معرفة صحيحة هى وسيلتنا المأمونة إلى معرفة الماضى وإلى معرفة المستقبل .. والتاريخ يبين أعمال الناس وطرائق معاشهم ومنازعاتهم وحكوماتهم وصناعاتهم وعلومهم ؛ ثم يبين كيف تزدهر المدنية قليلا قليلا بادئة من مبادئ بسيطة ، ثم تأخذ فى الزوال ، وتتقلب الجماعة فى صور مختلفة هى : حالة البداوة ، ثم القبيلة . ثم الدولة فى مدينة .. وأن أسباب تدهور المجتمع ما قد تسببه الحضارة من رغد وانغماس فى الشهوات ومن فقدان الناس لبأسهم الحربى والتمسك بدينهم . وعندئذ تظهر قبيلة قوية تأتى من الصحراء أو شعب غير مترف يتمتع بعصبية قوية ويقضى على المجتمع المترف لينشئ دولة جديدة . فشأن الدول والجماعات الكبرى هو هكذا : الجيل الأول يبنى ويؤسس ، والثانى يحافظ على ما بناه الأول ، والأخير يهدم ؛ وتلك حال المدنيات كلها ، إذ أن للمدنية والعمران البشرى قوانين ثابتة .

هذه خلاصة موجزة لقضية القوانين الاجتماعية عند ابن خلدون ؛ ولا نود أن نقف طويلا عند دراستها — فى هذا البحث فمنها ما أثبته العلم ومنها ما نفاه ومنها ما طوره — وإنما الذى يعنينا منها الآن هو أنها

---

(١) تراجع مقدمة ابن خلدون . وطبعاتها متعددة . ودراسة لمنهجه كتبها « على عبد الواحد وافى » صدرت فى سلسلة أعلام العرب بعنوان « عبد الرحمن ابن خلدون » — أبريل ١٩٦٢ .

كانت دراسة رائدة لمحاولة كشف القوانين العلمية التي يتطور بها المجتمع ، وجاءت من بعدها محاولات أخرى كثيرة شأن الحياة فى تدفقها .

والخلاصة

١ ــ أن الإسلام ينظر إلى الوجود كله نظرة تكاملية .

٢ ــ وأن العلم فى المفهوم الإسلامى شامل يضم ما جاء به الوحى وما يصل إليه الإنسان بجهده على المستويات العقلية والتدريبية .

٣ ــ وأن الدعوة إلى البحث العلمى دعوة أصيلة فى الفكر الإسلامى .

٤ ــ وأن القرآن الكريم يلفتنا إلى التأمل فى الكون والنفس والتاريخ الإنسانى ويذكر لنا نماذج من ظاهرات الكون والمجتمع نستطيع أن نستهدف بها محاولة كشف القوانين العلمية التى يسير بها الكون ويتطور بها المجتمع على أساس من الدراسة العلمية القائمة على الملاحظة والتجربة .

٥ ــ وأن الفكر الإسلامى سبقت له محاولات رائدة فى هذا المجال أبرزها محاولة ابن خلدون فى مقدمته أن يكشف قوانين تطور المجتمع .

الفصل الرابع

الإســـــلام والإدارة

محاضرة ألقيت فى الموسم الثقافى لمعهد الدراسات والبحوث الإحصائية - جامعة القاهرة ، فى أول ذى الحجة ١٣٩١ هـ الموافق ١٧ من يناير سنة ١٩٧٢

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على خاتم رسل الله ، وعلى إخوانه من الأنبياء المرسلين ، ومن سار على هديهم إلى يوم الدين .

إخوتى : السادة المدير ، والأمين ، والعميد ، وزملائى ، وأبنائى :

هذه مناسبة كريمة ألقاكم فيها ، لنتحدث معاً عن موضوع الإسلام والإدارة على أساس من عرض بعض النماذج الإدارية وتحليلها . وأذكر فى مستهل هذا الحديث كلمة للإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه حينما ذكر عنه بعض أصحابه جانباً من الخير والمديح ، كما فعل معى أخى الأستاذ الدكتور عميد المعهد، فكان من قوله اللهم اغفر لى ما لا يعلمون واجعلنى خيراً مما يظنون .

أما فيما يتعلق بالتعاون مع هذا المعهد الكريم ، فإننى أعده حجرة من بيتنا الكبير : جامعة القاهرة ، التى نشأنا فى رحابها ، وعشنا فيها طلاباً وعاملين فى هيئة التدريس . ولم تنقطع صلتنا بها ؛ إذا كنا فيها لم نتقطع عن المجتمع الكبير ، وإذا كنا فى المجتمع الكبير ظل الحنين إليها حيّاً بين جوانحنا .

١ ــ شمول الإسلام :

وأما عن موضوع الإدارة ، من حيث علاقته بالإسلام ، فأود أن نبدأ أولا بعرض لمفهوم الإسلام فى شموله ، ونحن حينما نتحدث عن الإسلام فى شموله ، إنما نؤمن به ديناً آمن بكل نبى ورسول ، وعدّ الإيمان بالأنبياء من لدن آدم عليه السلام ، حتى عيسى عليه السلام ، جزءاً

من الإسلام . وفى هذا تقرأ قول الله عز وجل : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)(١).

والنبي عليه الصلاة والسلام ، أكد هذا المعنى فى حياته بأكثر من طريقة ، يقول على سبيل المثال : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كرجل بنى بيته فجمّله وحسنه ، إلا موضع لبنة فى زاوية من زواياه ، فكان الناس يطوفون بالبيت ، ويعجبون ، ويقولون : ما أجمله ! ما أحسنه ! هلا وضعت هذه اللبنة ؟ ! فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »(٢) .

ويقول : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »(٣) . وأنت لا تتمم إلا على أساس شيء قائم بين يديك . وما كان يتحدث عن نبى إلا بقوله : أخى . والله تبارك وتعالى يدعوه إلى أن يهتدى بهديهم ويسير على طريقتهم :

(وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِى هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)(٤).

---

(١) سورة البقرة : ٢٨٥ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة فى كتاب المناقب ، باب خاتم النبيين ٥ : ٤٠٧ – ٤٠٨ .

(٣) رواه مالك فى الموطأ وأحمد عن أبى هريرة . انظر مشكاة المصابيح للتبريزى ٢ : ٦٣٢ رقم ٥٠٩٦ ، ٥٠٩٧ . ط . المكتب الإسلامى بدمشق بتحقيق محمد ناصر الدين الألبانى . ١٣٨٠ هـ – ١٩٦١ م .

(٤) سورة هود : ١٢٠ .

فهذه مدرسة ربانية ، النماذج التي فيها هي سير الأنبياء والمرسلين بدون تفرقة بين نبي ونبي أو رسول ورسول. هذا هو تصوّر الإسلام فى شموله التاريخى أو الموضوعى .

وأنت إذا نظرت ، حتى من الناحية الحسابية البحتة : إلى تقسيم آيات القرآن الكريم من حيث علاقتها بالموضوعات، تجد أن ما لا يقل عن سبعة أثمان القرآن الكريم يختص بقصص الأنبياء السابقين: والثمن الباقى يختص بالمجتمع النبوى وأحكامه . معنى ذلك أن التاريخ البشرى — فى منظور القرآن الكريم ، وبالتالى فى المنظور الإسلامى — وحدة إنسانية شاملة رائعة . وضح الله تبارك وتعالى لنا هذا الشمول فى ليلة الإسراء والمعراج حينما جمع الأنبياء فى صلاة واحدة مع النبي عليه الصلاة والسلام ، على تتابع وتباعد الديار . لماذا ؟ لكى نتعلم — نحن الناس — ذلك الإخاء الإنسانى الرحب الكبير الذى أوضحه القرآن الكريم فى قول الله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ).(١) وقول النبي عليه الصلاة والسلام فى حديثه الصحيح ، الذى كان يدعو به ربه فى أعقاب صلاته : « اللهم ربنا ورب كل شىء . أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة »(٢) .

هذا المعنى لم يكن مقتصراً على النبي عليه الصلاة والسلام وإنما نجده حتى فى أخبار الخلفاء الراشدين . يقول على بن أبى طالب للأشتر النخعى حينما ولاه مصر متحدثاً عن الرعية : « وأشعر قلبك الرحمة بهم ، والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم ، فإنهم

---

(١) سورة الحجرات : ١٠ .
(٢) من حديث رواه أبو داود عن زيد بن أرقم . انظر فى جامع الأصول لابن الأثير الجزرى ٥ : ٥٢ رقم ٢٢٠٢ ط . السنة المحمدية بالقاهرة ١٣٧٠هـ — ١٩٥٠ م .

صنفان : إما أخ لك فى الدين ، أو نظير لك فى الخلق ، يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل »[1] ، ثم يجعل لهم جميعاً الحق فى المال فيقول : « والناس عيال على الخراج وأهله . وفى الله لكل سعة ، ولكل على الوالى حق بقدر ما يصلحه »[2] . والوالى هنا مسئول مسئولية شاملة ، عن كل المجتمع الذى يعيش فيه ، ومن هذا المنطق والشمول الكبير ، والأخوة الإنسانية يمكن أن ننظر إلى الإسلام .

٢ ـ الحركة فى الإسلام

ونتقل بعد هذا إلى عنصر ثان ، وهو ما يمكن أن نسميه بعنصر الحركة فى الإسلام[3] .

وأنت حينما تقرأ القرآن الكريم ، تجد أنه يدعوك إلى أن تتأمل فى هذا الكون ، وإنه ليعدّ هذا الكون كله مسلماً لله تبارك وتعالى . وحينما خاطب الله السموات والأرض لتأتيا طوعاً أو كرهاً قالتا : (أَتَيْنَا طَائِعِينَ)[4] ويعدّ هذا الكون كله فى سجود لله ، وفى تسبيح لله : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ

(١) نهج البلاغة وهو مجموع ما اختاره الشريف الرضى من كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب ٣ : ٩٣ – ٩٤ شرح الشيخ محمد عبده ط التجارية بمصر .

(٢) نهج البلاغة : ٣ : ١٠١ .

(٣) محمد إقبال : تجديد الفكر الدينى فى الإسلام . الترجمة العربية لعباس محمود ص ٤٣ – ٧٤ عند دراسته البرهان الفلسفى على ظهور التجربة الدينية ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ١٩٥٥ . وانظر أيضاً فى دراسة مبدأ الحركة فى الإسلام : حسن صعب : تحديث العقل العربى . الفصل الثالث عن التحديث القيمى ص ٨٣ – ١١٥ . دار العلم للملايين – بيروت ١٩٦٩ .

(٤) سورة فصلت : ١١ .

إلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)[١]، ويعدّ الكون كله فى حركة مستمرة . انظر إلى ما خلق الله فى السموات والأرض ، وكيف يوجهك الله إليه :

(وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)[٢].

ولقد درسنا الذرة ، وعرفنا أنها قائمة على الحركة ، بل عرفنا أنها كون صغير ، لا يفترق من ناحية الأسس العلمية التى يتحرك فيها عن هذا الكون الكبير . فكأن الكون ذرة واحدة كبيرة ، وكأن الذرة كون صغير ، وأنت تعرف أن المسافات فيما بين مكونات هذه الذرة ، منسوبة إلى حجمها ، لا تختلف عن المسافات بين أجزاء هذا الكون منسوبة إلى حجمها . هذه الحركة الكونية تنقلنا إلى حركة الحياة والتاريخ :

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)[٣]. وأنت مأمور بالحركة : (قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ)[٤] ، وقد تكور الأمر بالسير فى الأعرض ، فى أكثر من آية قرآنية : (هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ

---

(١) سورة الإسراء : ٤٤ . (٢) سورة يس : ٣٨ – ٤٠ .
(٣) سورة آل عمران : ١٤٠ . (٤) سورة الأنعام : ١١ .

وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)[١] ، والمجتمعات فى حركة : (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)[٢].

حتى الماء إذا سكن ، أسن ، وأصبح مستنقعاً ، وإذا تحرك ولدت منه الكهربا .

هناك حركة فى التاريخ ، وحركة فى النفس ، وحركة فى الكون . ومن منطلق الحركة لا يمكن أبداً أن نقيم الحياة على جمود ، وعلى سكون ، وعلى ما يمكن أن نسميه الروتين . إنه ينبغى أن يتحرك ، والإدارة تتحرك ، والجامعة تتحرك . وكل شىء يتحرك. وليس من منطق العقل أن هذه الشمس الجبارة لا تقضى يومين فى مكان واحد من يوم أن خلقها الله: (وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) ، وهذا ما أثبته العلم الحديث. ثم بعد هذا نأتى إلى قوانين من القرن التاسع عشر والثامن عشر ، واللوائح القديمة والنص يقول كذا ، والقانون يقول كذا ، ثم نتحجر على ذلك . وحينما نقول : نتحجر ، فإننا نظلم الحجر لأن ذراته متحركة . فى هذا الضوء يمكن أن ندرك جانباً من العمق العميق فى قول الله تبارك وتعالى:

(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)[٣].

التسبيح حركة ، فهذه الحركة من كائن إنما هى تسبيح ، تسبيح معهد الدراسات والبحوث الإحصائية أن ينتج وأن يعمل ، وتسبيح

---

(١) سورة الملك : ١٥ . (٢) سورة البقرة : ٢٥١ .

(٣) سورة الإسراء : ٤٤ .

الجامعة أن تتطور ، وتسبيح القوات المسلحة أن تستعد بالعلم والسلاح والإيمان والتنظيم ، وأن تكون وسيلتنا لاسترداد حق وصيانة مجتمع .

ومن هنا فليطالب كل إنسان منا نفسه بتسبيح الله ، بل ينبغى عليه أولا أن يعرف نوع التسبيح المطلوب منه ؛ هذا هو العنصر الثانى وهو عنصر الحركة .

وهناك ملاحظة يمكن أن نربطها بهذا العنصر ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يقسم فى القرآن بشىء وهو فى حالة سكون قط :

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ) . لأنها تتحرك ، (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى) ، (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ) ، و (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) ، حتى القلم حينما أقسم الله به أقسم به فى حركته فقال : (ن . وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) .

وأمامنا فى بحثنا هذا ثلاثة مجالات متحركة :

العلم . الدين . المجتمع

ونحن محتاجون إلى إيجاد تناسق بين هذه المجالات جميعاً .

ولنسائل أنفسنا : هل معنى الحركة تغيير كل شىء ؟

انظر إلى نفسك : إن الله سبحانه وتعالى خلقك وأوجدك . تبدأ رحلة الحياة من نطفة لا تكاد ترى بالعين ، حتى تستوى بشراً سوياً . وأنت فى سن العشرين ، تحمل الاسم نفسه الذى تحمله فى سن الأربعين ، وتحمله طول حياتك ، وذكراك — ولكل منا بعد الحياة ذكرى — تحمل الاسم نفسه . اسمك من عناصر الثبات والتعريف بك ، وليس معنى التغيير والتبديل — ولنضرب لذلك مثالا — أن نجتهد ونجعل لكل طالب

اسماً كل سنة ! ! ولو فعلنا ، فما الفائدة ؟ ومع ثبات اسمك فى المعهد تزداد معلوماتك كل سنة بل كل محاضرة أيام الدراسة .

فيك إذن نموّ مستمرّ، والنموّ تغيّر . وفيك عناصر ثبات . فأنت فى أية لحظة تجمع بين الثبات والتغير . والذى يتغيّر ينبغى أن تكون فيه بعض صفات الثبات . على الأقل لكى نستطيع أن نقيس التغير . وإلا فكيف أقيس طول شىء وطول المسطرة نفسها متغيّر؟ كيف أستطيع أن أزن والموزين عندى متخالفة ؟ كيف أطمئن إلى جهاز حاسب . وأساس حسابه متغير ؟ إذن : مع التغير ينبغى أن تكون هناك عناصر ثبات .

٣ ــ التغير والأصالة :

أذكر فى لقائنا الماضى فى شهر رمضان عرضت للعقيدة [١] . ونحن فى منطقة الشرق الأوسط نؤمن بالتوحيد بطريقة أو بأخرى . وأقولها واضحة ، يستوى فى هذا الإسلام مع المسيحية مع اليهودية ، حتى الإيمان بالأقانيم الثلاثة فى الفكر المسيحى يختم « بإله واحد » . هذه منطقة توحيد، الصور تختلف ، تفسيرها الفلسفى يختلف . حتى فى مصر القديمة مع التعدد الظاهرى : كان للآلهة كبير هو أوزير ــ ومن دونه آلهة أصغر من رجال ونساء وأطفال . ولها تنظيماتها من الثالوث والتاسوع ومحكمة الآلهة التى تضم اثنين وأربعين إلهاً [٢] .

---

(١) عبد العزيز كامل : التخطيط العلمى فى القرآن الكريم . من محاضرات الموسم الثقافى ٦٨ ــ ١٩٦٩ بمعهد الدراسات والبحوث الإحصائية ص ١ ــ ٢٠ . ط جامعة القاهرة .

(٢) أرمان : ديانة مصر القديمة ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكرى ص ١٠٢ ــ ١١٣ وما بعدها . وهذه الأسس لها أكثر من تطبيق فى فصول الكتاب . ط . مصطفى الحلبى بمصر (بدون تاريخ) .

رياضيًا أساس الإحصاء هو الواحد الصحيح : ما دونه كسور ، وما فوقه تعدد. هو الرقم الوسط .كل كسر نضعه أقل منه ، إذا عكسته أعطاك عدداً مضاعفاً فوقه . الرقم الواحد هو القائم بذاته . هل تقرأ مع هذا قول الله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ .

إن الجزء الذى تؤكده هو الذى يبرز شخصيتك التى تعيش بها . والجزء الذى تغيره هو الذى يجدد هذه الشخصية فى الحياة . فهناك تأكيد للشخصية وأصالة وهناك تغيير وإثراء .

انتقلنا من الشمول إلى الحركة . إلى الأصالة والتجديد . ولنأخذ الدين على سبيل المثال . ما هى عناصر الاستقرار فيه ؟

أولا — العقيدة : وفى كل دين تعدّ العقيدة أساساً : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١) .

ثانياً — العبادات : ولكل دين شعائره التى تدعو أتباعه إلى القيام بها ، ولها فى الإسلام أثرها فى تحديد ملامح المجتمع ، ولها آثارها الاجتماعية فى الوقت نفسه ، ومرونة التطبيق مع ظروف المجتمع المتغيرة .

ثالثاً — الأخلاقيات : التى تقوم بها الحياة ، ولو نظرت إلى حياتنا اليومية وتجاهلت الأساس الأخلاقى ، فلن يستطيع المجتمع أن يتحرك دقيقة واحدة . فعندما أذهب إلى الصيدلية ، وأطلب دواء فإنما آخذه ولا أحلله بنفسى ، لثقتى فى الصيدلية ، وقد رضيت به قبل هذا بناء على ثقتى فى الطبيب ، ثم بعد ذلك أتناوله . وعندما أفتح الصنبور لأخذ

---

(١) سورة البقرة : ٦٢ .

كمية من الماء – لتناول الدواء – هل أجرى تحليلا لكمية الماء هذه ؟ قبل ركوبي السيارة هل أكشف على بصر السائق وعلى قوة السيارة ؟ وعندما أركب طائرة هل أكشف على الأجهزة ؟ إذن : الحياة تقوم أساساً على الثقة أكثر مما تقوم على الشك .

رابعاً – هذه الأخلاقيات يعبر عنها إطار عام من المعاملات لا يمكن فصله عن الأساس الأخلاقي . والدين يعطينا هذا الإطار العام . ويترك لنا حرية واسعة من التطبيقات . وصفوة القول أن الدين يقوم على إيمان بالله وعمل صالح في الدنيا وجزاء وحساب على ذلك في الآخرة . وفيما وراء ما حدده الدين ، ترك لك مرونة واسعة جداً في التطبيق في كافة مجالات الحياة .

٤ – نموذج تطبيقي

ولنأخذ نموذجاً تطبيقياً من الشورى في الإسلام. وهي أساس عريض تقوم عليه حياة أي مجتمع . إن الإسلام يؤكد فيها جانبين :

الأول : أنها جزء من تكوين المجتمع (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)[1] .

الثاني : على الحاكم أن يستشير أصحاب الرأي والحق : (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)[2] .

ولنفرض أن نكسة حدثت في المجتمع ، أو هزيمة سياسية ، أو عسكرية ، أو اضطراب رأي يحتاج إلى إعادة نظر ، فلا يمكن بالمقاييس الإسلامية أن يتخذ ذلك ذريعة لإهدار حق القاعدة أو أصحاب الرأي في إبداء آرائهم فيما يعود عليهم بالنفع . وما اصطلحنا – في مجتمعاتنا

---

(١) سورة الشورى : ٣٨ . (٢) سورة آل عمران : ١٥٩ .

المعاصرة – على تسميته بالحوار فى كافة مرافق حياتنا ، إنما هو أساس عريض وأصيل فى الحياة الإسلامية .

ولنذكر لذلك مثالا مما حدث بعد هزيمة المسلمين فى غزوة أحد (١) . فلقد خالف الرماة عن أمر النبي عليه الصلاة والسلام ، بعد أن اتفقوا على خطة المعركة . وعدلوا عن الخطة الأولى التى تكتفى بالدفاع عن المدينة دون لقاء العدو خارجها .

وكان من أثر مخالفة الرماة أن انكشف ظهر الجيش واضطربت صفوف المسلمين واستشهد منهم سبعون وجرح سبعون . وبرغم الآلام والجراح لم يستطع كفار قريش أن يقتحموا المدينة أو يقتلوا الرسول القائد (ص) .

التخطيط الدقيق كان من الرسول . والخطأ كان منهم مرتين ، ولكن هذا لم يكن مدعاة إلى إهدار حق القاعدة فى إبداء رأيها ؛ ولا إلى إسقاط مبدأ الشورى من حياة المجتمع . فنحن نتعلم من التجربة والخطأ . وعلينا أن نتابع الحوار بعقل وقلب مفتوحين ونؤصل مبدأ الشورى أو الديمقراطية إذا شئنا اصطلاحاً شائعاً .

بعد الهزيمة يوجه الله رسوله إلى أخلاقيات القيادة . القدرة على جمع الصف بالكلمة الطيبة والقلب الكبير ولين الجانب ، برغم الجراح والآلام. فيقول له: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ . . .)(٢). والعفو باللسان ، والاستغفار بالقلب .

---

(١) عبد العزيز كامل : دروس من غزوة أحد ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٧١ .

(٢) سورة آل عمران : ١٥٩ .

فإذا ما هدأت النفوس انفتح المجال أمام الشورى وإبداء الرأى ، فى جوّ صحىّ لا تختنق فيه الفكرة ، ولا تهتز ثقة الفرد فى نفسه ومجتمعه وقيادته ... من أجل ذلك نقرأ بقية الآية : (وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ) .

فإذا جمع الرسول ما عندهم من رأى وتبلور هذا كله فى خطة واضحة ، فلتأت مرحلة ثالثة بعد إشاعة جو الثقة والمحبة وبعد جمع الآراء ، وفيها نقرأ قول الله تعالى : (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) .

ومادام هذان الأساسان متوافرين : أن تكون الشورى أسلوب حياة بين العاملين ، وأن على القائد جمع الآراء . . فإن ما يوصلك إلى هذين الهدفين متروك لك . .

للمجتمع أن يكوّن اللجان العلمية المتخصصة فى الجامعات ، ويعقد الندوات ، ويناقش القضايا فى مجلس الشعب أو فى الصحافة . وأن تكون حركة الفكر فى المجتمع صاعدة هابطة : صاعدة من القاعدة إلى القيادة فى جميع مجالاتها . هابطة من مستويات القيادة إلى أركان المجتمع ، متممة بذلك دورتها الحية بكل ما تحمل من ربط بين القضايا المركزية واللامركزية ، الكلية والجزئية ، الاستقرائية والاستنباطية ، النظرية والعملية .

ويعطينا هذا مثالا واضحاً للجمع بين الثبات والتغير فى المجتمع : ثبات مبدأ الشورى وتغير أساليبه .

٥ ــ التنسيق بين حركة العلم والدين والمجتمع

فى قضايا الفكر نحن محتاجون إلى التفرقة بين الأصيل والوافد ، الإنسانى العالمى ، والمحلى عندنا أو عند غيرنا . والفكر أحياناً قد يعامل

دولياً معاملة السلع التجارية ، ويخضع لعوامل من الترويج أو مؤامرات الصمت . وقد يحدث « إغراق » للأسواق العالمية بأنواع من الفكر تجد من ينفق عليها ويسعى إلى نشرها بحسبانها امتداداً لوجوده .

وقد نستورد دراسات عن أنواع الصراع ليست قائمة فى مجتمعاتنا أو على الأقل لم تصل إلى درجة الحدة التى كانت بها فى أقطار جاءتنا منها هذه الدراسات . ومن أقرب الأمثلة على ذلك قصة الصراع بين العلم والدين . فنحن فى مجتمعاتنا ما زلنا نطلق اسم العالم على رجل الدين .. وسمينا نقابة الأطباء « دار الحكمة » وما زلنا نؤمن بالمعرفة فى شمولها . ولم نشاهد عنف هذا النزاع الدموى بين العلم والدين الذى عاشته أوربا ، ووصلت به الكنيسة إلى مستوى من الإرهاب العلمى أرهقت الشعوب من أمرها عسراً حتى طالبت بتنحية الدين عن واقع الحياة . ومرت هذه المرحلة ، وأخذ الدين الآن — وبخاصة فى العالم الثالث — يقابل تحدياً جديداً هو مدى ما يستطيع أن يقدم من عطاء للمجتمع (١) .

هذه الذبذبات الحادة فى الصراع بين الدين والعلم لها فى المجتمع الأوربى — بخاصة — رواسب تاريخية لم تتوافر ظروفها الموضوعية عندنا . من أجل ذلك علينا ابتداء أن ندرك طبيعة الحياة الدينية فى ديارنا — بعامة — ومدى تشجيع الإسلام للبحث العلمى — بخاصة — والربط بين ذلك كله وتطوير المجتمع ، وعدّ هذا التطوير قربة إلى الله وواجباً على كل قادر .

ونستطيع أن نجمل مصادر المعرفة فى الإسلام فيما يلى(٢) :

---

(١) راجع فصلا إضافيا عن الدين فى القرن العشرين فى المرجع الآتى :
اللجنة الدولية بإشراف منظمة اليونسكو «تاريخ البشرية» المجلد السادس ، القرن العشرون ، الجزء الثانى (١) تطور المجتمعات الفصل السادس ص ٢٨٣ — ٣٥٠ ط . الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر — القاهرة ١٩٧١ .

(٢) محمد إقبال (١٩٥٥) فى دراسته روح الثقافة الإسلامية ص١٤٢— ١٦٧ . وفيها يناقش فى تفصيل وتحليل الوحى والكون والنفس والتاريخ .

أولا : الوحي ، وهو أسمى المصادر فى الإسلام ، وأول أمر إلهى فيه هو قول الله تعالى : « اقرأ » . وأول آلة أقسم بها الله فى القرآن هى « القلم » فقال : (نٓ . وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) ، فالوحى فى الإسلام يدعو أول ما يدعو إلى العلم وسير الحياة .

ثانياً ـ التاريخ الإنسانى ، ويعده الإسلام ذخيرة وتراثاً ينبغى أن يكون بين أيدينا ، نستفيد من دروسه ونعرف سنن الله فيه . أو إذا شئت اصطلاحاً حديثاً « قوانين حركته » .

ثالثاً : النفس الإنسانية ، وكل ما يرتبط بالإنسان فى تكامله .

رابعاً : الآفاق أو الكون ، وفيها وفى النفس الإنسانية نقرأ قول الله تعالى : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)(١) .

وكأن دائرة المعرفة الإنسانية ودائرة العلم تصل بالإنسان إلى أوسع الآفاق والآماد : من أعماق ذاته إلى أبعاد الكون ، ومن جوف الأرض إلى الفضاء الخارجى . وإذا شئنا كلمة تجمع هذا كله وتطبيقاته وممارسته كانت « الحضارة » ، بكل محافظتها على الذات والشخصية ، وانفتاحها على آفاق المعرفة ، وربطها بين الإنسان وربه ومجتمعه ، وماضيه ومستقبله والعالم من حوله . وفى إطار هذه الحضارة ، وفى تناسق معها ، تعمل أجهزتها الإدارية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية . . كحركة الجسم الواحد . .

ولننتقل بعد هذا إلى دراسة جوانب من العلاقة بين الإسلام والإدارة .

---

(١) سورة فصلت : ٥٣ .

٦ — الإدارة وظيفة اجتماعية

وبين يدى وأنا أعدّ هذه الدراسة « كتاب التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التى كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية فى المدينة المنورة العلية »، وهو من تأليف السيد محمد الحسنى الإدريسى الكتانى الفاسى [١] .

وأرجو أن أقف وقفة قصيرة عند كتاب يحتاج منا إلى دراسة مستفيضة . فالمكتبة الإسلامية غنية بتراثها الإدارى [٢] . كتاب التراتيب الإدارية يحوى شرحاً وإضافات لكتاب « تخريج الدلالات السمعية » للخزاعى [٣] وهو عن النظم الإدارية الإسلامية . ويرجع الكتانى إلى نحو

---

(١) عبد الحى الكتانى : كتاب التراتيب الإدارية ، والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التى كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية ، فى المدينة المنورة العلية . ط . المطبعة الأهلية بالرباط سنة ١٣٤٦ هـ فى جزأين.

(٢) تراجع مقدمة التراتيب الإدارية لعبد الحى الكتانى وبها قائمة ممتازة للمراجع الإدارية . وراجع أيضاً مقدمة عبد العزيز عبد الحق للترجمة العربية لكتاب الإدارة العربية تأليف : س . ا . ق .. حسينى . ترجمة إبراهيم أحمد. ط الألف كتاب ٨٩ علوم إنسانية ص (هـ — و) .

وقائمة المراجع الملحقة بالكتاب مع إضافات وتعليقات للمراجع ص ٤٤٣ — ٤٦٢ .

(٣) على بن محمد الخزاعى : تخريج الدلالات السمعية على ما كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية .

وهناك دراسة قيمة عن كتاب الخزاعى فى مقدمة كتاب عبد الحى الكتانى (١٣٤٦هـ) عرض فيها تاريخ حياة المؤلف ومكانته ومشيخته ، ثم درس : كتاب تخريج الدلالات السمعية ومقصد المؤلف من تدوينه وتاريخ اشتغاله بذلك ومنهجه والأصول التى استمد منها ونقل عنها ، وبرنامجه فيه بالتفصيل. انظر مقدمة كتاب الكتانى من ص ٢٦ — ٧٤ .

مائة وخمسين مرجعاً إسلامياً ، أضاف منها إضافات أساسية إلى كتاب الخزاعى ، وأعطانا فى تسعمائة وخمسين صحيفة من القطع المتوسط صورة كاملة عن الحياة الإدارية فى مجتمع المدينة ونظم الحياة فيها حتى أصبح من أهم وثائقنا فى هذا الموضوع . وأرجو أن تتاح فرصة عرض ومناقشة هذا الكتاب فى لقاء مقبل إن شاء الله . . والذى أود تسجيله الآن أن الإدارة قديمة وأصيلة فى الإسلام .

وفى الاصطلاح الحديث نعرف أن الإدارة لها جانبان :

ـ الجانب المادى أو الآلى ، وهذا متعلق بالأنظمة والأجهزة .

ـ الجانب الأخلاقى .

وعملياً لا نستطيع أن نقيم مجتمعنا إلا إذا كان التطوير الإدارى فيه مادياً وآلياً على أحدث الوسائل ، وأخلاقياً على أرفع المستويات التى نريدها .

والإسلام يعدّ الإدارة والقيادة وظيفة عامة . ولنضرب لذلك مثالا من حياة الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه :

عندما ولى الخلافة قال : « أيها الناس ، قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى . . »[1] ، من كلمته هذه يمكن أن نخرج بالقواعد الآتية :

١ ـ أن الإدارة والقيادة وظيفة وخدمة .

٢ ـ أنها من حق الأمة وهى التى تختار .

٣ ـ أن عمل الحاكم أو المسئول الإدارى خاضع للرقابة الشعبية .

ويصل أبو بكر إلى أبعد من هذا عندما يخاطبهم قائلا : لقد كنت أعمل لعيالى . وأنا الآن أعمل لكم ، فاجعلوا لى من بيت مالكم شيئاً . .

---

(١) أبو جعفر أحمد المحب الطبرى : الرياض النضرة فى مناقب العشرة . ١ : ١٧٧ ط . الخانجى (١٣٢٧هـ) مصر .

ففرضوا له كل عام مائتين وخمسين ديناراً، وكل يوم شطر شاة ، وما كسوه فى الرأس والبطن . . ولما وجد أن هذا لا يكفى عياله ، أصبح غادياً إلى السوق ، وعلى رقبته أثواب يتجر بها . فلقيه عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب فقالا له : أين تريد يا خليفة رسول الله ؟ قال : السوق . قالا : تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين؟ قال : فمن أين أطعم عيالى ؟

لقد أنفق أبو بكر أمواله فى خدمة الإسلام . ولم يرض أن ينفرد بتحديد نفقته الخاصة من بيت مال المسلمين وهو خليفة رسول الله . وإنما آمن أن هذا حق الأمة . فلما عجز القدر الضئيل الذى حددوه له عن أن يفى بحاجته قال لهما : لا حاجة لى فى إمارتكم. رزقتمونى ما لا يكفينى ولا عيالى !!

ولما عرضا عليه الزيادة كان رده : أنتما رجلان من المهاجرين لا أدرى أيرضى بها بقية المهاجرين أم لا .

وذهبوا جميعاً إلى المسجد . وارتقى أبو بكر المنبر وعرض الأمر كله على المهاجرين ووافقوا عليه . فقال أعرابى من جانب المسجد :

ـــ لا والله ما رضينا . فأين حق أهل البادية ؟

فقال أبو بكر : إذا رضى المهاجرون شيئاً ، فإنما أنتم تبع [1] .

وفى هذا يقرر أبو بكر عدة مبادئ أخرى :

١ ـــ أن عرض أى موضوع على الاستفتاء له حدود وأبعاد . .

٢ ـــ أن الرأى المرجح هو لأهل الاختصاص وأدرى الناس بالموضوع المعروض .

وسنرى فى نموذج مقبل كيف كانت دائرة الشورى أوسع . وأن هذا يرجع إلى طبيعة الموضوع المعروض .

---

(١) الرياض النضرة ١ : ١٧٧ – ١٧٨ .

٧ — العلاقة بين الوظائف القيادية

ويمكن من حياة أبى بكر فى خلافته وعلاقته بعمر بن الخطاب أن نعرض النموذج الآتى :

جاء رجلان من المؤلفة قلوبهم — وهم من سراة القوم الذين كان يتألف الرسول عليه الصلاة والسلام قلوبهم بشىء من الإكرام ليكفوا عن الإسلام أذى ، أو يجلبوا له نفعاً : والرجلان هما الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن الفزارى ، وقالا لأبى بكر :

— ياخليفة رسول الله ، إن عندنا أرضاً سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة فإن رأيت أن تقطعنا لعلنا نحرثها أو نزرعها ، لعل الله أن ينفع بها بعد اليوم ؟ فقال أبو بكر لمن حوله : ما تقولون فيما قالا ، إن كانت أرضاً سبخة لا ينتفع بها ؟ قالوا : نرى أن تقطعهما إياها لعل الله ينفع بها بعد اليوم . فأقطعهما إياها وكتب لهما كتاباً بذلك . قال : وأشهدا عمر ، وليس فى القوم . فانطلقا إلى عمر فوجداه قائماً يهنأ (يطلى) بعيراً له . فقالا : إن أبا بكر قال : اشهد بما فى هذا الكتاب ، فنقرأ عليك أو تقرأ ؟ فقال : أنا على الحال التى تريانى فإن شئتما فاقرآ وإن شئتما فانتظرا حتى أفرغ عليكما . قالا : بل نقرأ . فقرآ . فلما سمع ما فى الكتاب تناوله من أيديهما ومحا ما فيه . فتذمرا وقالا مقالة شينة . فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتألفكما والإسلام يومئذ ذليل (أى ضعيف) ، وإن الله قد أعز الإسلام ، فاذهبا واجهدا جهدكما لا رعى الله عليكما إن رعيتما . قال فأقبلا إلى أبى بكر يتذمران فقالا : والله ما ندرى أنت الخليفة أم عمر ؟ فقال : لا ، بل هو لو كان شاء . قال فجاء عمر . وهو مغضب على أبى بكر فقال : أخبرنى عن هذه الأرض التى أقطعتها هذين . أرض هى لك أم للمسلمين عامة ؟ فقال : بل للمسلمين عامة . فقال : ما حملك على أن تخص بها هذين دون جماعة المسلمين ؟ قال :

استشرت هؤلاء الذين حولى فأشاروا على بذلك . قال : فإذا استشرت هؤلاء الذين حولك فكل المسلمين أوسعتهم مشورة ورضاً ؟ فقال أبو بكر رضى الله عنه : قد كنت قلت لك إنك أقوى على هذا منى ولكن غلبتنى (١).

ومن هذا النموذج يمكن أن نخرج بالقواعد الآتية :

١ ـ أن دائرة الشورى وأخذ الرأى تضيق وتتسع بحسب طبيعة الموضوع المعروض . وأنها ـ فى بعض الموضوعات الحيوية ـ تصل إلى مستوى الاستفتاء العام .

٢ ـ أن التصرف فى أية قضية مطروحة مرتبط بالظروف المتغيرة التى تصاحب هذا التصرف . بمعنى أننا لانستطيع أن نفصل التصرف ـ إدارياً أو غير إدارى ـ عن ملابساته المكانية والزمانية والموضوعية المتغيرة .

٣ ـ أن المصلحة العامة لا تخضع خضوعاً أعمى لشكليات الإدارة من عدد الأصوات والأغلبية . وإنما ـ فى مثل هذه القضية المطروحة ـ يمكن إعادة النظر فى القرار الإدارى إذا ما كانت الإعادة من أجل مصلحة عامة . ومع أن أبا بكر علق إنفاذ القرار على موافقة عمر ، فإن شكليات الإدارة ـ فى بعض المفاهيم الحديثة ـ قد تقضى بصحة القرار فى غياب عمر بن الخطاب على أساس من قرار الأغلبية وحده .

٤ ـ أن العلاقات الإنسانية بين مستويات القيادة العليا كانت على درجة من المتانة والأصالة ، لا تستطيع معها أقوال السوء ونزعات الشر والتفرقة ، أن تحطم الجسور بين القائد المسئول ومن حوله من كبار المستشارين .

٥ ـ أن رد أبى بكر على المؤلفة قلوبهم كان فى جانب عمر بن الخطاب حتى قبل أن يسمع منه وجهة نظره . ولكن هذا لم يحل دون

---

(١) جمال الدين أبو الفرج بن الجوزى : تاريخ عمر بن الخطاب ص ٣٢-٣٣ تصحيح حسن الهادى حسين ط . صبيح القاهرة (بدون تاريخ) .

طرح القضية للبحث الحر من جديد أمام المسلمين جميعاً ، والانتهاء إلى الأخذ برأى عمر بن الخطاب ، وسنرى بعد هذا مدى الإجلال العميق الذى كان يكنه عمر فى قلبه للخليفة الأول ، وأن الخلاف فى وجهات النظر والحوار ، إنما كان يستهدف المصلحة العامة وحدها .

٨ ــ بين القيادة والقاعدة

ولننظر إلى علاقة المسئول الأول بالقاعدة وإنسانياتها :

قبل الخلافة كان أبو بكر يغدو فى الصباح من بيته إلى السوق ويبتاع ، وكانت له قطعة غنم تروح عليه . وربما خرج هو نفسه فيها . وربما كفيها فرعيت له . وكان يحلب للحى أغنامهم .

فلما بويع بالخلافة قالت جارية من الحى : الآن لا تحلب لنا منائح دارنا .

فسمعها أبو بكر فقال : بل لعمرى لأحلبنها لكم . وإنى لأرجو ألا يغيرنى ما دخلت فيه ، عن خلق كنت عليه .

فكان يحلب لهم . فربما قال للجارية من الحى : ياجارية . أتحبين أن أرغى لك أو أصرح (أى لا يكون للحليب رغوة) فربما قالت : ارغ . وربما قالت : صرح . فأى ذلك قالت فعل (١) .

وما نخرج به من هذا النموذج :

١ ــ الأصالة الأخلاقية التى كان عليها المسئول الإدارى الأول .

٢ ــ أن علاقاته الإنسانية ــ حتى بجوارى الحى والعاملين فيه ــ لم يطرأ عليها أى تغيير . وإنما كانت الخلافة عنده « خدمة عامة » تتسع فيها دائرة المسئولية لتكون على مستوى المجتمع كله ، وتكون مدعاة

---

(١) طبقات ابن سعد ٣ : ١٨٦ ط . بيروت ١٣٧٧ هـ ــ ١٩٥٧ .

إلى قوة الروابط لا انقطاعها أو انعزال المسئول عن قاعدته التى يعمل من أجلها .

٩ ــ التخطيط الشامل والتنفيذ

وإذا كنا نعدّ من أهم سمات القائد الإدارى الناجح القدرة على التصور الشامل والقدرة على التنفيذ والإبداع . . فإن هاتين السمتين تنبعان من أصل واحد ، هو النظرة الشاملة التى تستطيع أن ترى مستقبل المجتمع وتسعى على بصيرة نحو هذا المستقبل .

وأشد صعوبة من هذين أن يحتفظ بهما المسئول الإدارى مع المستوى الأخلاقى الكريم الذى يرعى الحقوق الإنسانية فى الاتصالات اليومية فى الوقت نفسه . وكان أبو بكر يجمع بين هذه القدرات .

كانت عنده اللمسات الإنسانية التى رأيناها فى عطفه على جوارى الحى ، وحرصه على علاقاته الإنسانية مع زملائه ، كما رأينا فى قصته مع عمر . . ولكن يبقى أروع نموذج لقدرة أبى بكر على التصور والتنفيذ ــ ما كان من أمره فى حروب الردة[1] .

ولنبدأ أولا بتقدير الموقف معتمدين فى هذا على أقوال كبار الصحابة :

١ ــ تقول السيدة عائشة رضى الله عنها : « لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نجم النفاق ، وارتدت العرب ، واشرأبت اليهودية

---

(١) خورشيد أحمد فارق : تاريخ الردة . ص ١ من منشورات معهد الدراسات الإسلامية فى دلهى الجديدة : الهند ١٩٧٠ . والكتاب مقتبس ومهذب من كتاب الاكتفاء بما تضمنه من مغازى المصطفى ومغازى الخلفاء لأبى الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعى البلنسى أحد علماء القرنين السادس والسابع الهجريين فى الأندلس .

والنصرانية ، وصار المسلمون كالغنم المطيرة فى الليلة الشاتية لفقد نبيهم ، حتى جمعهم الله على أبى بكر . فلقد نزل بأبى بكر ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها . . . . » [1] .

٢ – ويجادل عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبى حذيفة ، أبا بكر ، ويقدرون الموقف قائلين عن العرب « فهم بين مرتد ومانع صدقة فهو مثل المرتد ، وبين واقف ينظر ما تصنع أنت وعدوك ، قد قدم رجلا وأخر أخرى » .

٣ – ويقدم على أبى بكر عيينة بن حصن الفزارى والأقرع بن حابس – من أشراف العرب – يساومونه على بعض المال ليكفوه من وراءهم من العرب ! ! ويعرض أبو بكر هذا الرأى فيقبله بعض من عنده قائلين : إنا اليوم قليل فى كثير ، ولا طاقة لنا بقتال العرب .

ولا ينفرد أبو بكر فى هذا الموقف التاريخى بقرار ، ولا يحمل من معه على تنفيذ أمر لا يؤمنون بجدواه ، وإنما يتابع معهم الحوار والمشورة :

– إنكم علمتم أنه كان من عهد رسول الله (ص) إليكم المشورة فيما لم يمض به أمر من نبيكم ولا نزل به الكتاب عليكم . وإن الله لن يجمعكم على ضلالة . وإنى أشير عليكم . فإنما أنا رجل منكم تنظرون فيما أشير به عليكم ، وفيما أشرتم به ، فتجمعون على أرشد ذلك ، فإن الله يوفقكم . وأما أنا فأرى أن ننبذ إلى عدونا فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . وألا نرشو على الإسلام أحداً . وأن نتأسى برسول الله (ص) فنجاهد عدوه كما جاهدهم . والله لو منعونى عقالا لرأيت أن أجاهدهم عليه حتى آخذه . فائتمروا يرشدكم الله ، فهذا رأيى . وأما قدوم عيينة وأصحابه إليكم ، فهذا أمر لم يغب عن عيينة : هو راضه ثم جاله (أى فكر فيه ودبره) ، ولو رأوا ذباب السيف لعادوا إلى ما خرجوا منه أو أفناهم السيف . فإلى النار قتلاهم على حق منعوه وكفر » .

---

(١) تاريخ الردة ص ٤ .

واستبان وجه الحق أمام الناس ، وقالوا لأبى بكر : أنت أفضلنا رأياً ، ورأينا لرأيك تبع[1] .

وأرى أن أقف عند هذا الاقتباس الذى أورده سليمان الكلاعى البلنسى فى تاريخ الردة – لنرى القواعد التى أقرها أبو بكر فى هذا الموقف ، والمنهج الذى اتبعه فى الحوار والمشورة . . مرحلة الدراسة قبل اتخاذ القرار النهائى :

١ – لقد أعطى الفرص الواسعة لمن حوله لكى يقولوا رأيهم .

٢ – بل إنه استمع إلى أقوام من أشراف العرب ليس رأيهم عنده غير متهم .

٣ – وهو يعرض هذه الآراء « الانهازية » على أصحابه عرضاً موضوعياً .

وبذلك ألقى الأضواء القوية على الموقف من جميع نواحيه قبل أن يتخذ قراره .

٤ – وهو عند عرض وجهة نظره يؤكد أن الأمر فى هذا الموقف شورى ، ويحدد موقفه فى أثناء الحوار : « إنما أنا رجل منكم » ، ويؤكد فى نفوسهم معنى الثقة فيما ينتهون إليه من قرار : « إن الله لن يجمعكم على ضلالة » ، وإن الآراء بعضها أرشد من بعض ، ولكل وجهة نظر مسوغاتها . وهو يدعوهم إلى أن « يجمعوا على أرشد ذلك فإن الله يوفقكم » .

٥ – وهو حينما يبدى رأيه يحدد مواقف الانهازيين وأسلوب معاملتهم ، وحتمية الموقف الصلب الذى يستطيعون به الخروج من هذه الفتنة باتباع دقيق لما أمر به الله من أخذ الزكاة وتوزيعها على المستحقين بدون تهاون ، وقتال من كفر أو ارتد .

كانت حرباً خاضتها « الدولة والمجتمع » من أجل حق الفقير فى

---

(١) تاريخ الردة ص ٥ .

مال الغنى ، ومن أجل وحدة الكيان الإسلامى . ولنذكر أن أبا بكر كان وقتئذ فى الواحدة والستين من عمره . وأنه أنفذ فى حروب الردة أحد عشر جيشاً انطلقت من قاعدة الإسلام فى المدينة . والذى يعنينا منها إداريا هذه الحقائق :

١ ــ أنها كانت مقسمة تقسيماً علمياً دقيقاً بحيث تغطى الجزيرة العربية على النحو الآتى :

(ا) ثلاثة جيوش فى جبهة نجد .

(ب) ثلاثة جيوش فى جبهة الخليج العربى .

(حـ) جيشان فى الجبهة الشمالية .

(د) جيشان فى الجبهة الجنوبية فى اليمن .

(هـ) جيش واحد فى الجبهة الجنوبية الشرقية فى ديار بنى سليم .

هذا مع تعاون بين هذه الجيوش ، ونقل القوات من جبهة إلى جبهة حسب ضغوط العدو واحتياجات المعركة .

٢ ــ أن قادة الجيوش جميعاً كانوا من المهاجرين ، وبقى هو فى المدينة بعد أن حارب بنفسه معركتين فى ليلة واحدة : اضطر إلى التراجع فى الأولى ، ولكنه عاد مرة أخرى فى الليلة نفسها لينتصر انتصاره الحاسم فى معركة ذى القصة . وآثر الصحابة بعد هذا أن يبقى فى مركز القيادة فى المدينة . وبقى معه نفر من الأنصار لحماية القاعدة ، وهى مدينتهم فى الوقت نفسه . ولا شك أنهم أخبر بها ، وأقدر على الدفاع عنها[1] .

٣ ــ ولكى نتصور ضخامة هذا العمل ، يكفى أن نذكر أن الجيش الثانى بقيادة عكرمه بدأ عمله فى اليمامة ، وتابع مسيرته إلى الخليج العربى ، ومنها إلى اليمن ، ثم عاد إلى المدينة . هذه المسيرة ــ طولا ــ مثل المسافة

---

(١) محمودة الدرة : تاريخ العرب العسكرى فى مجلد واحد . الجزء الثانى عن حروب الردة ص ٢٤٧ ــ ٢٨٨ والخريطة المرفقة أمام ص ٤٠٢ . وخريطة حسينى فى كتاب الإدارة العربية أمام ص ٤٣٨ .

بين المدينة وتونس مروراً بمصر وليبيا . أما عن عنف بعض المعارك وضراوتها فقد كانت غير مسبوقة فى المغازى الإسلامية . وكانت اختباراً قاسياً لمدى صمود قاعدة الإسلام فى المدينة ، وقدرتها على إعادة ربط الدولة الإسلامية التى تمزقت وحدتها بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام . فإذا أضفنا إلى ذلك الدعم الذى كانت تلقاه القبائل العربية المرتدة من الدول الكبرى المجاورة لها فى فارس والروم استطعنا أن نتصور الجهد الكبير المنظم الذى استطاع به أبو بكر ومن حوله من كبار الصحابة والمؤمنين أن يقودوا سفينة الإسلام ، فى موج كالجبال ، حتى تنتهى إلى المرفأ الآمن .

وإذا كانت « الشئون الإدارية » ودقتها أساساً فى نجاح أية معركة حربية فإن النموذج الذى بين أيدينا يتكامل مع نماذج سابقة ، لترينا دقة التنظيم الإدارى فى الحرب والسلام معاً .

١٠ — المجتمع العصرى

ونحن نقرأ فى القرآن الكريم قسم الله تعالى بالعصر . . بالزمن فى مسيرته وتدفقه كما يقسم بالفجر والليل والنجم . . وقد عرضنا علاقة هذا بمبدأ « الحركة » فى الإسلام ، وأن الإسلام يدعو كلاً منا على مستوى الفرد والمجتمع والدولة . . أن يعيش عصره وأن يحيط بمنجزاته ، حتى يستطيع أن يساهم فى الإضافة إليها .

ونرى فى حياتنا أن التنظيم الإدارى فى تكامل جوانبه المادية وأخلاقياته ، وقدرته على اكتساب الخبرة وتطبيقها ، وتطوير ذاته ، نرى فى هذا كله مؤشرات توضح مستوى العمل الإدارى .

ولنذكر نماذج لانفتاح المجتمع النبوى على العالم من حوله ، واستفادته من خبراته :

١ — ومن أبرز هذه النماذج مدى عناية المجتمع بتعلم اللغات الأجنبية ،

وقد عقد محمد الحسينى الكتانى باباً بعنوان : « الترجمان الذى كان يترجم لرسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ، ثم قسم هذا الباب على أساس اللغات المعروفة فى المجتمع النبوى . وأعطى نموذجاً من زيد بن ثابت الأنصارى النجارى وكيف كان ترجمان الرسول (ص) بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية ؛ تعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسنة .

٢ ــ ثم ذكر بعد هذا كيف أمره الرسول (ص) بتعلم السريانية والعبرية ، عندما دعت الحاجة إلى ذلك فى مجتمع المدينة .

٣ ــ ويستدل الكتانى على مكانة تعلم اللغات الأجنبية فى المجتمع بأن الإمام البخارى أدخل الترجمة فى باب الجهاد فى صحيحه ، لأن ذلك مما يحتاج إليه المسلمون مع رسل العجم وأمرائهم .

٤ ــ ولم تقتصر الخبرات العلمية على تعلم اللغات ، وإنما امتدت إلى البعثات العلمية يقوم بها أبناء المجتمع لاكتساب جديد يحتاجون إليه . وقد درس الكتانى الآلات الحربية وبخاصة آلات الحصار . ونقل عن ابن سعد فى طبقاته لدى الكلام عن وفد ثقيف : ولم يحضر عروة بن مسعود ولا غيلان بن مسلمة حصار الطائف . كانا بجرش يتعلمان صنعة العرادات والمنجنيق والدبابات . فقدما وقد انصرف رسول الله عن الطائف نصبا المنجنيق والعرادات والدبات (٢) .

المجتمع إذن لم يكن مغلقاً ولا منطوياً . . ولكنه كان مجتمعاً مفتوحاً على العالم من حوله يستفيد من كل خبراته ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

٥ ــ ويصل تمجيد الخبرة التى يحتاج إليها المجتمع عند فقهائنا إلى درجة يعدونها فيه من فروض الكفاية ، التى إذا قام بها بعض القادرين عليها سقطت عن الباقين . وإذا قصر فيها هؤلاء آخذ الله على ذلك جميع القادرين على تحصيل هذه الخبرة . ولنضرب مثالا لذلك :

---

(١) عبد الحى الكتانى (١٣٤٦هـ) ١ : ٢٠٢ – ٢١٠ .
(٢) عبد الحى الكتانى (١٣٤٦هـ) ١ : ٣٧٤ – ٣٧٥ .

نفرض أن مجتمعنا يحتاج إلى نوعية معينة من المتخصصين فى التنظيم الإدارى ، وهذا التنظيم بدوره يحتاج إلى متخصصين فى الإحصاء الآلى واستخدام أجهزته الحديثة ، وأن إدارياتنا فى الجبهة الداخلية وقواتنا المحاربة وتطويرها تتوقف على توفير ذلك حتى نستطيع أن نقابل مسئولية بناء المجتمع وخوض المعركة ، فالإسلام فى هذه الحالة يعدّ هذه الدراسات « فرض كفاية » أى يجب أن يقوم به العدد الكافى من المتخصصين الذين يستطيعون القيام به . وإذا ما حدث تقصير فى ذلك ، آخذ الله جميع القادرين على التحصيل عن هذا الوضع الذى تركوا فيه مجتمعهم وهم قادرون على تطويره . . يقول ابن عبد البر الأندلسى :

« وقد أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعين على كل امرئ فى خاصته بنفسه ، ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه عن أهل ذلك الموضع . . والذى يلزم الجميع فرضه من ذلك ما لا يسع الإنسان جهله من جملة الفرائض المفترض عليه » . ثم درس بعد هذا فرض الكفاية وقال : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى دينهم ودنياهم فهو فرض على الكفاية يلزم الجميع فرضه ، فإذا قام به قائم سقط فرضه عن الباقين لا خلاف بين العلماء فى ذلك . وحجتهم فيه قول الله تعالى :

(وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)(١) .

فألزم النفير فى ذلك البعض دون الكل ، ثم ينصرفون فيعلمون غيرهم .

---

(١) سورة التوبة : ١٢٢ .

والطائفة في لسان العرب : الواحد فما فوقه .. وكذا الجهاد .. فإذا أظل العدو بلدة لزم الفرض حينئذ جميع أهلها وكل من قرب منها ، إن علم ضعفها عنه وأمكن نصرتها لزمه فرض ذلك أيضاً » (١) .

ويرتبط بإنقاذ الوطن هنا كل ما يرتبط بالمعركة ، فتكون الأمة في حشد كامل يبذل فيه كل قادر ما يستطيع من جهد في مجال تخصصه ، مع تنسيق وتكامل بين هذه الجهود جميعاً وكفاية تستطيع أن تصعد بها إلى مستوى المسئولية الملقاة على عاتقها. إن الإسلام يرى هذا فرضاً دينياً ، كما أنه فرض وطني .

فالعلم هنا للمجتمع ، والإدارة للمجتمع ، والدراسات ليست نوعاً من الترف العقلي ، وإنما ينبغي أن ينتظمها تخطيط شامل ، يراعي احتياجات المجتمع ويحددها بدراسات علمية موضوعية ، ثم يضع لها أولوياتها ، ويتولى تنفيذها ومتابعة هذا التنفيذ .

١١ — الحصاد

وفي نهاية هذه الدراسة أود أن أعرض وصية الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه . لقد رأينا كيف استقبل الخلافة ، وكيف عاش فيها ، وعلاقاته مع أصحابه وجمهور المسلمين ، ومواقفه الصلبة من أجل حماية المجتمع . فعندما حضرته الوفاة دعا ابنته — أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها — وقال لها :

---

(١) أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي الأندلسي : جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغي في روايته وحمله ١ : ١٠ — ١١ ط . المنيرية بالقاهرة (بدون تاريخ) وفي هذا الكتاب دراسة مستفيضة عن مكانة العلم في المجتمع . وانظر أيضا القسم العاشر من كتاب التراتيب الإدارية للكتاني (٢ : ١٦٨ — ٤٤٦) . في تشخيص الحالة العلمية على العهد النبوي .

« يا عائشة : لقد ولينا أمر المسلمين ، فما استبقينا لأنفسنا من مالهم شيئاً . لقد أكلنا من جريش طعامهم فى بطوننا . ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا ، وما بقى عندى من مال المسلمين إلا هذا البعير الناضح ، وهذا الخادم، وهذه القطيفة الجرداء . فإذا مت فابعثى بها إلى عمر فإنى لا أحب أن ألقى الله بشيء من مال المسلمين » . ومات أبو بكر وجاء من بيته ما أمر به . فأمر عمر بن الخطاب بضمها إلى بيت المال . واعترض على هذا عبد الرحمن بن عوف وكان حاضراً . فكان رد عمر : والله ما خالفت أبا بكر حياً لأخالفه ميتاً . للموت أقرب إلى نفسى من مخالفته حياً وميتاً .

ثم يبكى وهو يقول : رحم الله أبا بكر لقد أتعب من جاءوا بعده[1] .

صنع أبو بكر هذا وقد رأى كيف فارق رسول الله (ص) دنياها : فعن عمرو بن الحرث قال : ما ترك رسول الله (ص) عند موته ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً ، إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها وسلاحه ، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة[2] .

يصنع الرسول (ص) هذا فى حين أنه ينصح سعد بن أبى وقاص — وينصح المجتمع معه: « إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها »[3].

---

(١) أبو الفرج بن الجوزى : تاريخ عمر بن الخطاب ص ٣٨ — ٣٩ .

(٢) رواه البخارى عن عمرو بن الحرث . انظر مشكاة المصابيح للتبريزى ٣ : ٢٠٩ رقم ٥٩٦٥ .

(٣) متفق عليه . انظر مشكاة المصابيح للتبريزى ٢ : ١٥٥ رقم ٣٠٧١ .

خاتمة

بعد هذه الرحلة فى العلاقة بين الإسلام والإدارة أود أن أعرض النتائج الآتية :

١ ـ أن العمل الإدارى ـ بطبيعته ـ يرتكز على قيم سلوكية. والدين فى مجتمعنا أقوى ركيزة أخلاقية . بهذا عشنا ، وعلى هذا نص دستورنا عندما تحدث عن الإسلام ديناً رسمياً للدولة ، ومصدراً أساسياً للتشريع ، وقواماً لحياة الأسرة .

٢ ـ فى ديننا ثروة غنية من الأصول التى نستطيع أن نرفع بها حياتنا إلى أفق أعلى وأرحب . فالإسلام جاء مصدقاً لكل نبى ورسول ، متمماً مكارم الإخلاق ، منادياً بالإحسان والإتقان فى كل شىء .

٣ ـ نظرة الإسلام إلى الحياة نظرة شاملة تضم الدنيا والآخرة ، المسجد والمجتمع ، ويعد العلم وطلبه ـ فى كل آفاقه التى يحتاج إليها المجتمع ـ عبادة وواجباً .

٤ ـ العملية الإدارية فى الإسلام جزء من كل متناسق ، يقوم على الكفاية الآلية والمستوى الأخلاقى والتنظيم .

٥ ـ العمل الإدارى فى الإسلام خدمة عامة وتكليف : بدءاً من الخلافة عن رسول الله (ص) كما رأينا فى دراستنا لأبى بكر رضى الله عنه ، حتى أبسط وأصغر الواجبات فى المجتمع .

٦ ـ العمل الإدارى خاضع لمراقبة الشعب ومتابعته وتقييمه على قواعد علمية أخلاقية .

٧ ـ الشورى والحوار أساس فى التنمية الإدارية ، ولها مسارها الأفقى بين النظراء ومسارها الرأسى بين مستويات المسئولية والتنفيذ على الصعيدين المركزى والمحلى .

٨ ــ فتح المجال أمام الكفايات والاستفادة من الخبرة العلمية أساس في المجتمع الإسلامي .

٩ ــ الصلة بين الأجيال المتتابعة من المسئولية الإدارية قائمة على عرفان الجميل لا الهدم وتشويه الجهد المبذول .

١٠ ــ وبهذا تصبح التنمية الإدارية تعاوناً بين مستويات إدارة وأجيال وقيادات متتابعة ، وإثراء بكل خبرة جديدة ، وتشجيعاً لكل موهبة ، في إطار من أخلاقيات دعانا إليها الإسلام لنبني مجتمع العلم والإيمان .

الفصل الخامس

القيمُ الروحيّة والمبادئ الأخلاقية في تربيَة الشَباب العَربي

بحث مقدم إلى مؤتمر الشباب العربي الذى عقدته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية.
المؤتمر الثقافى العربى التاسع بالقاهرة من ١٢ - ٢١ / ١٢ / ١٩٧٠ وثيقة رقم ١٣ .

١ ـ ما المقصود بالقيم الروحية ؟

أودّ بين يدى هذا الحديث أن نتفق أولا على مفهوم القيم الروحية . فكثيراً ما يتطرق إلى الذهن أنها مقابلة للأوضاع المادية فى الحياة . ولعلّ شيئاً من ذلك جاء إلينا من حضارات وفدت إلى بلادنا ؛ وحملت إلينا صوراً من الصراع بين الروح والمادة ، وبين الدين والحياة ، وبين رجال الدين ورجال العلم ، فلم يجد العلم أمامه فى زحفه المستمر ــ فى بعض الأقطار ــ إلاّ أن يُنَحِّى جانباً الدين ورجاله ، تنحية كاملة أو جزئية : وأن يحاول إقامة الأساس الأخلاقى أو التعامل فى المجتمع على غير أساس من الدين وما جاء به من قيم ومبادئ .

وإذا كان حديثنا عن القيم الروحية والمبادئ الأخلاقية محصوراً فى دائرة تربية الشباب العربى ، فإن هذا الحديث لا يمكن عمليًّا ولا موضوعيًّا فصله عن تيارات الفكر العالمى ، ونحن نعيش فى منطقة تمثل قارة وسطى بين قارات العالم القديم ، وملتقى حضارات من طبيعتها الأخذ والعطاء من قديم . فكيف ونحن نعيش فى عالم أصبح كالصندوق الرنان تتردد على سطحه أية طرقة تصيب جزءاً منه ، والأخبار فيه عند أطراف الأصابع ، تحرك موجات المذياع أو قنوات التليفزيون ، وتصل إلى قلب الصحراء وأعماق الغابات ، وأعالى البحار ، بل أصبح الاتصال الآن مع الفضاء الخارجى ، تتحرك فيه الأقمار الصناعية على كوكب الزهرة من محطات على كوكبنا الأرضى . .

وأنت وسط هذه التيارات الفكرية التى تموج بها الحياة وتموج بالحياة ، وسط هذا التدافع المستمر والفيضان الذى يحمل الاتجاهات من أرجاء الأرض كافة ليجرى بها فى نهر الحياة المندفع إلى الغد . .

أنت وسط هذا كله تحاول أن ترصد الشباب العربى ودور القيم الروحية والمبادئ الأخلاقية فى تربيته .

ولن أحاول فى هذا الحديث أن أرتقى منبر الوعظ ، ولا أن أردد وصايا ، ولا أن أضع نصائح تعودنا فى طفولتنا أن نجدها على ظهر كراسات الدرس داعية إلى الإيمان والصدق والنظافة . . وإنما سأحاول أن نسير معاً فى هذا الحديث صديقين يدخلان المكتبة أحياناً ويفتحان القاموس أحياناً ، ويلجان دروب التاريخ ، ويطالعان بعض صفحات النفس الإنسانية العربية بما فيها من جوانب قوة وضعف ، ويحاولان معاً — بدلا من أن يلعنا الظلام — أن يوقدا فيه شمعة ، وأن يضيفا ولو حجراً واحداً إلى البناء ، ولو كلمة واحدة طيبة ، إلى سفر التربية العربية .

وأعود معك إلى المقصود بالقيم الروحية . ونرى كيف جاءت مادة « روح » فى كتاب الله الكريم « كتاب العربية الأكبر » .

١ — جاءت الروح فى القرآن الكريم بمعنى القوة أو السر الذى به الحياة (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلا)[1]. وهذه القوة أو السر أمر مشترك بين الناس جميعاً . . بل بين الإنسان وكل حى . ولا يمكن أن يكون هذا المعنى هو المقصود بالقيم الروحية .

٢ — وجاءت بمعنى الملائكة أو صنف منهم وذلك فى قوله تعالى : (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ . سَلَامٌ هِىَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ)[2]. وقد قصد بها جبريل

---

(١) سورة الإسراء : ٨٥ . (٢) سورة القدر : ٤ ، ٥ .

عليه السلام . وذلك في قوله تعالى عن القرآن الكريم : (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ)(١). وواضح أن حديثنا في القيم الروحية ليس عن الملائكة : أحدهم أو صنف منهم .

٣ — وقد يقصد به سيدنا عيسى عليه السلام . وذلك قول الله تعالى : (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)(٢) ، وحديثنا ليس عن نبي واحد وإنما عن قيم روحية .

٤ — نأتي بعد هذا إلى معنى رابع يبينه قول الله تبارك وتعالى : (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)(٣).

ويذكر الإمام القرطبي (٤) في تفسير هذه الكلمة أنها « النبوة

---

(١) سورة الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤ .
(٢) سورة النساء : ١٧١ .
(٣) سورة الشورى : ٥٢ ، ٥٣ .
(٤) تفسير القرطبي١٦ : ٥٤ — ٥٥ .

والكتاب والقرآن .. لأن فيه حياة من موت الجهل .. وكان مالك بن دينار يقول : يأهل القرآن : ماذا زرع القرآن فى قلوبكم ؟ فإن القرآن ربيع القلوب : كما أن الغيث ربيع الأرض » .

(رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا) . . . هى الأوامر والنواهى الإلهية .

وهى نور الطريق : (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، والَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ)(١) .

والقيم الروحية بهذا ليست أمراً مقابلا للمادة ، ولا بعيدة عن واقع الحياة اليومية. وأنت لا تستطيع أن تتصور الصدق إلا فى إنسان صادق ، والوفاء إلا من إنسان وفىّ .. الصدق ليس قيمة تنشأ فى فراغ .. إنها معاناة فى الحياة وصبر على اختباراتها ومواقفها ، ويوضح هذه المعاناة وإيجابياتها فى الحياة قول الرسول عليه الصلاة والسلام : عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة . وإن الرجل ليصدق ، ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . وإن الكذب يهدى إلى الفجور . وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »(٢) .

بل إن هذه القيم — بعد المعاناة — تستقر فى النفس حتى تصبح لها طابعاً ، وإلى هذا المعنى نستطيع أن نرى توجيه الرسول (ص) لنا :

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٧ .

(٢) أخرجه الستة إلا النسائى : انظر تيسير الوصول للشيبانى — ٢ : ٣٢٠ ط . الحلبى .

« دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة »[١] . لابد إذن أن ترتبط هذه القيم بواقع الحياة اليومية ، وأن يكون من الفرد والجماعة المعاناة والمصابرة حتى تصبح قوالب سلوكية .

٢ ـ كيف ترتبط القيم الروحية بالحياة ؟

وإذا كان هناك هذا الارتباط بين القيم الروحية والحياة ، فلنحاول معاً أن نرى جوانب هذا الترابط :

١ ـ أنها تحدد المستوى الأخلاقي في العمل ، مهما تكن طبيعة العمل الذي يقوم به الإنسان في خدمة مجتمعه :

من ناحية السلطة مثلا يتعامل الفرد منا مع رؤساء وزملاء ومرءوسين وبين يديه مصالح أناس ، منهم من يستطيع مراجعته ، ومنهم من يصعب عليه أن يتخذ إلى المراجعة سبيلا . وأفضل أخلاق الإنسان ما يظهر مع من لا يستطيع مراجعته . . وفي هذا الضوء نستطيع أن ندرك أبعاد قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت »[٢] . فالهرة لن تستطيع الدفاع عن نفسها . وفي هذا الموقف تتجلى أخلاق الإنسان على حقيقتها .

٢ ـ أنها تدفع الإنسان إلى أن يعمل : ذلك لأن هذه القيم ـ في حياتها ـ مواقف في الحياة . والارتباط قوي فيها بين الكلمة والفعل . ويذكر الإمام ابن كثير الدمشقي في مقدمة تفسيره عن ابن مسعود قال :

---

(١) جزء من حديث رواه أبو الجوزاء عن الحسن بن علي عن رسول الله (ص) . أخرجه الترمذي وصححه والنسائي . انظر تيسير الوصول ٢ : ٣٢٠ .

(٢) الحاكم عن أبي هريرة : انظر الجامع الصغير للسيوطي ١ : ١٥ ، ورواه البخاري عن ابن عمر .

كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن . وقال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبى عليه الصلاة والسلام . وكانوا إذا تعلّموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً[١] .

وهذا الربط بين الكلمة والفعل هو الذى يجعل الكلمة خلاقة ولوداً يجعلها أمًّا لأعمال كثيرة . ولعل من أشد ما نعانى منه : عقم الكلمات وعقم القرارات . عقمها عن أن تلد أعمالا عظيمة .

وهذا الانفصال بين الكلمة والقول والعقل حذرنا منه ربنا فى قوله :
(يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ . إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)[٢] .

بل إن ربنا ينهانا عن التراخى فى أداء العمل ، ويعدّه من صفات المنافقين فى قوله : (وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)[٣] .
ويعرض القرآن بعد هذا وصفاً للانفصال فى المنافقين بين القول

---

(١) تفسير ابن كثير : ١ : ١ — ٢ ط . مصطفى محمد ، القاهرة .
(٢) سورة الصف : ١ — ٤ . (٣) سورة التوبة : ٥٤ .

والفعل فيقول : (وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ ، وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ . لَوْ يَجِدُونَ مَلْجأً أَوْ مَغَارات أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وهُمْ يَجْمَحُونَ)(١) .

ويصل الترابط بين الكلمة والعمل متمثلا فى موقف نبيل ، إلى أفق رفيع نراه فى كلمة للإمام على كرم الله وجهه :

قيل له فى بعض الحروب : « إذا جالت الخيل أين نطلبك ؟ قال : حيث تركتمونى »(٢) .

٣ ــ أنها تحول بين الإنسان والانحراف : ونماذجها كثيرة فى قصص الأنبياء :

(ا) بدءاً من قصة ابنى آدم : (إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِن الْآخَرِ قَال : لَأَقْتُلَنَّكَ . قَالَ : إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ، إِنِّي أَخَافُ

---

(١) سورة التوبة : ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) أى أنه ثابت فى مكانه الذى اختاره فى الموقعة لا يتركه مهما اشتد به البأس .

انظر : على الجندى وآخرين : سجع الحمام فى حكم الإمام ، ص ١٧٥ ط . الأنجلو ، عن ابن أبى الحديد ، وفى الألف المختار .

اللّٰهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِى وإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذٰلِكَ جزَاءُ الظَّالِمِينَ)(١) .

(ب) مروراً بقصة النبى الشاب الطاهر يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز : (قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ ربِّى أَحْسَنَ مَثْوَاى إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُون)(٢). وقوله تعالى على لسان يوسف : (رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)(٣) .

(ح) وهى قيم تعلو فوق إغراء الحياة تطلعاً إلى ثواب الآخرة فى قوله تعالى عن امرأة فرعون : (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا ، امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ : رَبِّ ابْنِ لِى عِنْدَكَ بَيْتاً فِى الْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)(٤).

---

(١) سورة المائدة : ٢٧ — ٢٩ . (٢) سورة يوسف : ٢٣ .
(٣) سورة يوسف : ٣٣ ، ٣٤ . (٤) سورة التحريم : ١١ .

(د) وتطبيقاتها كثيرة عبر التاريخ فى قصص الأنبياء والمصلحين فى مستوى القيادات والقواعد ، كما سنرى فى ثنايا هذا البحث .

فالقيم الروحية بهذا هى :

١ ــ الحافظ للمستوى الأخلاقى

٢ ــ والدافع إلى العمل

٣ ــ والمانع دون الانحراف

٣ ــ ولكن : لماذا قام الصراع بين القيم الروحية والجوانب المادية والعلم ؟

فى تراثنا العربى لقاء دائم بين الروح والمادة .. وهما جانبان من جوانب « الحياة » ؛ وفى الرجوع إلى نصوص القرآن الكريم ما يوضح أن « الحياة » هى ما يعنى به الدين . جاء القرآن لينذر من كان حياً . والدين حياة الإنسان : (أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[١] .

بل إن الروح بنص القرآن الكريم : (مِنْ أَمْرِ رَبِّى . وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلا)[٢] .

---

(١) سورة الأنعام : ١٢٢ .

(٢) سورة الإسراء : ٥٨ .

والدين كما يصوره القرآن « علم » . وأولو العلم هم أولى الناس بالايمان . وإلى هذا يذهب قول الله تعالى : (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

ومكانة العلم فى القرآن والدعوة إليه وتقدير أهله وجعله سبيلا إلى الإيمان أوضح من أن نعيد القول فيها[١] .

وطلب العلم والرحلة من أجله وآداب العلم والتعليم .. كلها موضوعات لها فى تراثنا مكانة كبيرة [٢].

صحيح أن بعض علمائنا لاقوا عنتاً من أجل آراء قالوا بها : كما فى محنة الإمام الجليل أحمد بن حنبل ومن قبله الإمام مالك رضى الله عنهما .

ولكن الصورة العامة فى العلاقة بين الدين والحياة ، وبين العلم والدين ، وبين القيم الروحية والواقع ، تظل فى عهود الازدهار فى أرضنا صورة مشرفة بجمال القواعد والنماذج التطبيقية معاً .

ونحن لا نريد أن نعطى تاريخنا ذلك اللون الوردى الذى يبعد بنا عن أرض الواقع ، ولا أن نصور البشر فيه جيلا من الناس يخلو من التناقضات الفردية والاجتماعية . ولكن على أساس من الدراسة المقارنة

---

(١) سورة آل عمران : ١٨ .

(٢) يراجع للكاتب أبحاث : الإسلام والعلم ، والإسلام والتطور فى كتاب « الدين والحياة » الجزء الأول من ص ٧ إلى ص ٤٨ . من مطبوعات الاتحاد الاشتراكى العربى . القاهرة ١٩٦٧ .

(٣) يراجع على سبيل المثال : ابن عبد البر القرطبى : جامع بيان العلم وفضله . وهذا الكتاب من خير ما كتب فى منزلة العلم فى الإسلام والصفات التى ينبغى توافرها فى العالم فى التحصيل والعلاقة بالمجتمع .

نستطيع أن نجد فى حضارتنا جوانب لم تسعد بها حضارات فى أقاليم أخرى ، فى حرية التعبير والرأى ، وقلة المصادمات بين القيم الروحية التى يعيش بها المجتمع والآفاق الجديدة من التطور التى تتفتح أمامه .

وفى عهود ازدهار حضارتنا كان الفارّون من عسف حكامهم يلجئون إلى أرضنا : لجأ النساطرة فراراً من عسف الرومان إلى بلاد فارس ، فاستقروا فى الرها . ومارسوا عبادتهم ، وعكفوا على علومهم ، ووفر لهم المجتمع الإسلامى بعد هذا أسباب الحياة المطمئنة . بل إن اليهود عندما اشتد بهم البطش الأوربى لجئوا إلى المشرق والمغرب العربى ، ووجدوا فى أرض العروبة والإسلام ما يسعهم رحمة وبرًّا ، ووجدوا طريقهم إلى الوظائف العامة . ومع أن الصهيونية العالمية ضربت على يد الخير العربية الإسلامية التى آست جراح اليهود ، وزرعت فى قلب الوطن العربى خنجراً مسموماً تمثله إسرائيل ، وأشاعت الخراب والدمار فى أرض بارك الله فيها ، وامتدت بالنيران إلى المسجد الأقصى وبالعدوان على الأرض .. فإن حقيقة كبيرة فى تاريخنا تبرز فوق الجراح والآلام هى عظمة القيم الروحية التى عاشت بها أرضنا عبر التاريخ : تتمثل فى السلم والحرب ، وتعدل فى الغضب والرضا : (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا . اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)[١] .

ولم يحاول رجال الدين عندنا أن يتناولوا النصوص الدينية ويفسروها

---

(١) سورة المائدة : ٨ .

تفسيراً حرفيًّا متحدين فى هذا الحقائق العلمية : وهذا هو الطريق الوعر الذى سار فيه بعض رجال الدين فى أوربا ، فحفروا أخدوداً عميقاً بين العلم والدين . أخدوداً ألقوا فيه بزهرة من رجال العلم ، وأعطوا الدين طابعاً ليس من جوهره ، وأدوا بهذا إلى تمزق نفسى عانت منه أجيال وشعوب ، وأورثت اختلافاً وفرقة .

ولقد أثر هذا الخط الفكرى فى مجرى التاريخ الأوربى زهاء خمسة عشر قرناً[1] ووفدت آثار من هذه العداوة أو على الأقل الجفوة بين الدين والعلم إلى ديارنا ، عندما قوى احتكاكنا بأوربا فى القرن التاسع عشر الميلادى .

ولقد حدث هذا فى فترة من فترات الضعف والانحسار الإسلامى .. فى حين كان المد الأوربى عالياً متقدماً .. ونسينا — أو نسى بعضنا — ما بين يديه عندما جذبت عينيه الأضواء الجديدة فى أرض الغرب .

نسينا أو تناسينا مكانة العالم فى الحياة ، ومكانة القيم فى حياة العالم والمجتمع معاً . نسينا أن هذه الأرض هى التى اختارها الله — والله أعلم حيث يجعل رسالته — لتكون الرباط مع السماء ، وأهلها الأمة الوسط . ومن أبنائها من نزل عليه وحى الله . ومن صعد إلى السماوات العلا .. وأن هذه الأرض وهذه الأمة بمقوماتها كانت المنطلق لدعوات الأنبياء بدون عصبية لونية أو إقليمية أو طبقية : الناس لآدم ، وآدم من تراب ، وليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى .

ليست هناك فى تاريخنا دماء بين الروح والمادة ، ولا بين العلم والدين .. إلا نقطاً متناثرة كأنها علامات التحذير من الوقوع فى الخطأ نفسه .. رجل العلم فى تاريخنا على دين .. ورجل الدين يخدم العلم ..

---

(١) جلال مظهر : الحضارة الإسلامية من ص ٣٦ إلى ص ٦٥ ط . مركز كتب الشرق الأوسط . القاهرة .

وقيم الروح ومبادئ الأخلاق أساس مشترك للحياة بدون فيصل بين الأخلاق العامة والخاصة ، ولا بين الكلمة والعمل .

٤ ــ مصادر القيم الروحية :

ولقد وسع تراثنا كل الأرض ليجعل منها مصادر للقيم الروحية ومبادئ للأخلاق الفاضلة ..

وأنت إذا رجعت إلى القرآن الكريم وجدته كتاباً إنسانيًّا شاملا لا يقتصر على حياة جيل من الناس أو قطر من الأرض .

١ ــ كتاب له امتداده الزمني الذى يعود بك إلى النشأة الأولى .. بل يعود إلى خلق السموات والأرض ، ويتابع معك الرحلة عبر الحياة إلى الجزاء الأخروى : (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ . وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) (١) .

٢ ــ وله امتداده المكانى : وإذا كان الله تبارك وتعالى قد أنزله بلسان عربى مبين ، فإنه لا يقتصر على أخبار العرب ، وإن أعطى أنبياءهم جانباً من عنايته : إسماعيل وهود وصالح ، ومحمد ــ عليهم جميعاً من الله صلاة وسلام ــ وعبر بعنايته حدود العالم العربى ، فقص علينا أخباراً نسمع فيها قول الله عن ذى القرنين : (حتى إذا بلغ مطلع الشمس) ، و(حتى إذا بلغ بين السَّدَّيْن) .. هذا الاتساع المكانى يوحى إلينا بالتماس العبرة حيث نجدها : من مطلع الشمس ومغربها .

---

(١) سورة إبراهيم : ٤٨ .

٣ — وهو يقص علينا قصصاً فى موضوعات متنوعة المناشط : اقتصاديًّا وتخطيطيًّا كقصة يوسف ، وإنشائيًّا كما فى قصة ذى القرنين ، ودفاعاً عن العقيدة وتأصيلا لها كما فى قصص نوح وإبراهيم ومن جاء بعدهما من الأنبياء ، ودفاعاً عن حق الفقير ومحاربة الاستغلال كما فى قصة شعيب ، وتنظيماً للسلم وبناء المجتمع ، وللحرب ودفاعاً عن الحق ، كما فى قصة النبى عليه الصلاة والسلام ، وصبراً على الأذى ممن جاءهم الحق كما فى قصة موسى مع بنى إسرائيل ، ودعوة إلى الحق وتصديقاً به كما فى قصة عيسى عليه الصلاة والسلام .

هذه جوانب ثلاثة من التكامل الزمنى والمكانى والموضوعى نراها فى القرآن الكريم خاتم الكتب السماوية التى نزلت فى أرضنا . وفيه يخاطب الله رسوله موجهاً هذه الأمة :

(قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وما أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)(١) .

وهذا الانفتاح الزمانى والمكانى والموضوعى فى مصادر القيم الروحية ومبادئ الأخلاق يزداد ثراء وخصوبة بأن تراثنا الدينى لا يقتصر على طبقة واحدة أو طائفة من الناس فيجعلها القدوة والأسوة .

---

(١) سورة البقرة : ١٢٦ .

٥ ـ أبطال مجهولون :

والقرآن يعطينا مجموعة من القصص عن أبطال مجهولين لا نعرف أسماءهم ولا نعرف ديار بعضهم يقيناً ، ولم يعن القرآن الكريم بتركيز الأضواء على عامل الزمان والمكان فى هذه القصص ولا على ذكر أسماء الأبطال .

وهذه نقطة فى مصادر القيم الروحية تحتاج منا إلى وقفة طويلة ، قد لا تتسع لها هذه الدراسة . ولكن أود أن أؤكد حقيقة كبيرة : هى أن القرآن الكريم ليس مجرد تاريخ نبوات ورسالات بالمعنى الضيق لهذا المفهوم . ولكنه يعرض لنا قصصًا عن أبطال مجهولين ظهروا مناصرين للرسل والرسالات والحق حيث كان .. أبطال من القاعدة ، من عرض الناس يقفون الموقف النبيل دفاعاً عن الحق .. منهم من يلاقى الموت ، ومنهم من ينجو ليؤكد أن هذا البطل المجهول كان يستهدف الحق وحده مهما تكن نتيجة موقفه :

١ ـ هناك نموذج انفرد به القرآن عن مؤمن آل فرعون . وقد جاء هذا الموقف مفصلا فى سورة غافر ابتداء من قوله تعالى :

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ)(١) إلى قوله تعالى : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) .

---

(١) سورة غافر : ٢٨ – ٥١ .

وفى القصة حوار خصب بين هذا المؤمن المجهول والذين قاوموا الحق ووقفوا فى صف الطغيان . ولكن ما اسم هذا البطل المجهول ؟ لا ندرى . والذى نحسه فى هذه القصة من القرآن الكريم تأكيد بطولة مجهولة تكون نوراً لكل بطل مجهول . وما أحوجنا إلى هذه الأنوار تضىء الطريق لكثيرين يعملون من أجل العروبة والحق لا تطّلع على أعمالهم إلا عين الله التى لا تغفل ولا تنام .

٢ — وهناك نموذج آخر نقرؤه فى سورة يس عن ذلك البطل المجهول الذى جاء من أقصى المدينة يسعى لينصر رسولين عززهما الله بثالث ، وتوعدهم القوم بالرجم والإيذاء ويبرز هذا البطل مقبلا من أقصى المدينة ، حيث يستطيع أن يكون بمفازة من الإيذاء والموقف الصعب .. جاء يسعى مسرعاً إلى مناصرة الحق بدون تباطؤ .. ويحاور القوم مؤكداً الحق الذى يحمله .. وإذا كان الله قد وقى مؤمن آل فرعون سيئات ما مكروا ، وإذا كان مؤمن سورة يس قد استشهد وأرانا الله جزاءه فى قوله تعالى:

(قِيلَ ٱدْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ)(١) .

فإن الحقيقة الكبيرة هى : أن البطل الذى وقاه الله السوء والبطل الذى لقى الله شهيداً كانا ينطلقان من قاعدة الإيمان ، وأن مردهما — طال العمر أو قصر — إلى رب لا تضيع عنده الودائع : (يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ٱرْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً . فَٱدْخُلِى فِى عِبَادِى . وَٱدْخُلِى جَنَّتِى)(٢) .

---

(١) سورة يس : ٢٦ ، ٢٧ .
(٢) سورة الفجر : ٢٧ — ٣٠ .

وثمة نماذج أخرى يمثلها أصحاب الكهف وهم فتية — أى شباب — آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وما جاء فى سورة الكهف فى قصص العبد الصالح الذى لقى موسى ، والمثال الذى ضربه الله فى قوله تعالى :

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا) (١)

وما جاء فى قصة ذى القرنين .. ثم قصة امرأة فرعون بإيمانها العميق .

كل هذه النماذج ترينا أن القرآن ليس مجرد تاريخ أنبياء ورسل ، وإنما هو تاريخ الإنسانية : برجالها ونسائها ، بقادتها المعروفين وأبطالها المجهولين . بشيوخها وشبابها . بقطاعات الحياة المتعددة : اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً . وفى كل ذلك ثروة ضخمة من القيم الروحية والمبادئ الأخلاقية تقابل النفس الإنسانية فى كثير من حالاتها ومواقفها وتكون لها زاداً يعين على السير فى آفاق الحياة .

٦ — الشباب والدين :

وأول قضية تقابلنا فى هذا الموضوع هى فترة الشك التى تقابل الشباب حين يتفتحون على الحياة .. فإذا فى النفوس ذلك القلق الباحث عما حوله ، والمتطلع إلى الآفاق ليرى مكانه فى هذا الوجود .. إنها تجربة جديدة تحاولها أجنحة الفكر التى نبتت مع الشباب . وهى تجربة طبيعية يخوضها الشباب فى حواره مع نفسه . أو فى محاولته التغلب عليه

---

(١) سورة الكهف : ٣٢ .

مستعيناً بغيره ، ولقد عرضت أحاديث الرسول (ص) لذلك[1]

١ — « إن الله تجاوز عن أمتى ما وسوست به صدورها ، ما لم تعمل به أو تتكلم » . عن أبى هريرة ، متفق عليه .

٢ — « جاء ناس من أصحاب الرسول (ص) إلى النبى (ص) فسألوه : إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به . قال : أوقد وجدتموه ؟ قالوا : نعم . قال : ذاك صريح الإيمان » . عن أبى هريرة رواه مسلم .

٣ — « لايزال الناس يتساءلون حتى يقال : هكذا خلق الله الخلق ، فمن خلق الله ؟ فمن وجد فى ذلك شيئاً ، فليقل آمنت بالله وبرسله » . عن أبى هريرة متفق عليه .

(١) وأول ما نخرج به من هذه الأحاديث أن ما جاء فى كتب الحديث تحت عنوان الوسوسة ، وما يمكن أن نطلق عليه الحوار .. داخلياً كان أو خارجياً إنما هو أمر قديم فى النفس الإنسانية . وأن تراثنا عرض له . فالظاهرة فى ذاتها طبيعية ، يمكن أن نقابلها كما نقابل أية قضية من قضايا الحياة بعامة ، والشباب بخاصة ، بالدراسة الموضوعية المستأنية .

(٢) وأن الرسول عليه الصلاة والسلام عدّ هذا الحوار النفسى صريح الإيمان ... وأنه المخاض الذى يأتى من بعده ميلاد الإيمان على أساس راسخ : أن يخوض الشباب التجربة وأن يخرج منها كما تخرج السفينة سليمة من العاصفة . وأنت لا تستطيع أن تحكم على شىء إلا بعد التجربة . بل لا تستطيع أن تعتمد على شىء بدون تجربة : الطائرة

---

(١) انظر باب الوسوسة . الفصل الأول فى مشكاة المصابيح للتبريزى ١ : ٢٦ و ٢٧ الأحاديث من ٦٣ إلى ٧٢ تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى . المكتب الإسلامى . دمشق .

قبل طيرانها . الاختراع الجديد قبل شيوع استعماله . الجندى قبل أن يخوض المعركة . لا حرج إذن فى أن يمر الشاب فى هذه التجربة وأن يتمرس بهذا الحوار الداخلى والخارجى معاً .

(٣) ولننظر إلى القرآن الكريم فى تأكيده الإيمان ، وفى الحوار الخصب الذى يديره مع غير المؤمنين والأدلة التى يسوقها على التوحيد . بل أنت واجد فى القرآن نموذجاً للحوار الفكرى : وهو إذا كان يسجل فيما يسجل قضايا العصر عند نزول القرآن : فإن الاتجاه فى ذاته يعطينا الأسلوب الفكرى الذى نستطيع أن نقابل به قضايا الحياة المتطورة(١).

(٤) ولعل من الأفضل فى دراسة قضايا الشباب ألا نبدأ بتصور هذه القضايا كما نحس بها نحن . وإنما البدء الطبيعى هو الاستبانة فى هذه القضايا كافة . أن نضع أيدينا على نبض الشباب ، وأن نسأله عن احتياجاته ، وأن يأتى البرنامج بعد هذا نتيجة أمرين :

ما يقوله الشباب ، وما نود نحن أن نقوله للشباب . وقد تكون ظاهرة القلق والشك طبيعية ، ولكن مجالاتها تتباين من جيل إلى جيل مع تطور الحياة : هناك فى عالمنا المعاصر هذا الصراع بين الدول المتقدمة والدول النامية . بين الذين يعرفون والذين لا يعرفون . بين الذين يملكون والذين لا يملكون . هناك القلق على مستقبل الحياة الإنسانية من حرب شاملة . هناك توجيه ثروات العالم إلى سباق التسلح ، فى حين أن العرى والجوع لا يحظيان إلا بالقليل من العناية . هناك الإخفاق المستمر لمشروعات

---

(١) يمكن أن يرجع فى هذا الموضوع إلى المراجع الآتية :

* حسن صعب : ١ — الإسلام تجاه تحديات الحياة العصرية . ط . بيروت .
٢ — تحديث العقل العربى . ط — بيروت .

* وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ط — بيروت . أحمد موسى سالم — الإسلام والقضايا المعاصرة . ط . القاهرة .

عبد العزيز كامل : مواقف إسلامية — سلسلة اقرأ — دار المعارف. القاهرة.

التنمية العالمية والمشروعات الإنسانية الكبيرة ، كعقد التنمية للأمم المتحدة . هناك الصراع العنصرى والطبقى والقتل الجماعى فى فيتنام وفلسطين والأرض العربية السليبة .. وينظر الشباب بعد هذا باحثاً عن العدل ، وعن التأييد الإلهى لقوى الخير فى هذا العالم ، وعن بصيص من النور وسط هذه الغيوم المتكاثفة ..

كل هذه الجوانب تلقى ظلاً كثيفاً على قضية الإيمان، وعلى التصديق بجدوى القيم الروحية ومبادئ الأخلاق .. وقد يشتد التمزق بالشباب ، كما حدث فى كثير من أقطار العالم الغربى ، فأغرق نفر من الشباب تمزقه فى ضباب التخدير وفى غيوم الضياع ، تاركاً لشهواته العنان فى صعلكة فكرية ومادية وروحية ، كأنها الرفض أو الاحتجاج على أزمة الحياة التى يعيشها كوكبنا الحائر .

قضية الشك إذن مطروحة ولكننا فى الوقت نفسه لا نعيش فى « بيزنطة » وأمامنا فى الوقت نفسه قضايا مصيرية ، نقابلها ويقابلها شبابنا : عندنا قضية مقدساتنا السليبة وأرضنا المغتصبة . عندنا العدوان على حاضرنا وعلى تاريخنا . فالحرب بيننا وبين أعدائنا لا تمتد فقط على الجبهات المحاربة ، وإنما تمتد فى العمق الآهل بالسكان ، وعلى جبهة تاريخية طولها ثلاثون قرناً وفى أعماقها تراثنا الغالى من الإنجازات والقيم ..

ونحن نخوضها ونعلم أن أعز ما تملكه الإنسانية من قيم الخير وشريعة الإنصاف والعدل مهدد بالزوال ..

وددت بذلك أن أضع القضية فى أبعادها الحقيقية ما وسعنى ذلك ، ولكيلا أجعل من هذه القضية مسلكاً جانبياً تتسرب فيه حيوية شبابنا بعيداً عن أرض الواقع الملتهب الذى نعيشه ، والغد المأمول الذى نعمل من أجله .

ذلك لأننا – فى الوقت الذى نحتاج فيه إلى دراسة قضايا الشباب العربى – محتاجون إلى أن نضع قواه – ما وسعنا ذلك – من أجل الحفاظ على الأرض والتراث والمستقبل ، ومحتاجون إلى ما يمكن أن نسميه « اقتصاديات الجهد » ، فنوجه قوانا إلى أفضل أهدافها : فلا تأكل الأبحاث النظرية حيوية الشباب ، ولا يتجه الشباب إلى العمل بدون إطار فكرى واضح .

وهذه الاستبانات التى نقوم بها ، نحن فى حاجة إلى مراجعتها مراجعة دورية وإقليمية حتى نعرف الجوانب المشتركة والمستمرة والإقليمية فى هذه القضايا . ولكن مع هذا كله : أود أن أربط موضوعياً بين مرحلة الشك وبين نقطتين جاءتا فى دليل المناقشة وهما :

١ – النماذج البشرية من التاريخ العربى التى تعد قدوة للشباب .

٢ – تصفية الفكر الدينى والمأثورات الأخلاقية العربية من الشوائب الدخيلة .

٧ – نظرتنا إلى التاريخ وأثرها على تكوين الشباب العربى :

وكثيراً ما نلجأ فى عرض التاريخ العربى بعامة والإسلامى بخاصة إلى طريق « المناقب » وأن نركز حين نعرض هذا التاريخ على أفضل ما فيه من قمم شامخات من الأفراد والأفعال . ولا شك فى أن الأثر العميق الذى يتركه هذا العرض فى نفوس الشباب هو الإعجاب والتقدير . ويأتى بعد هذا أثر آخر :

– كيف أستطيع الصعود إلى هذا المستوى ؟

– وإذا كان الصعود ممكناً ، فهل ينجح فى هذا الصعود كثيرون ؟

وينتهى الشباب إلى إجابتين لكل منهما أثرها فى نفسه :

الأولى : أن ذلك ممكن ، ويجب عليه أن يلزم نفسه به كفرد ، وأن تتخذ الدولة – على مستوى المجتمع – جميع الوسائل التى تمكنه من الصعود إلى هذا المستوى .

الثانية : أن ذلك غير ممكن . وأن هذه حياة أنبياء ورسل ، وأنها قمم شامخات من الحواريين والصحابة الذين اتبعوهم بإحسان . فليس أمامنا إلا الإعجاب . . أما الصعود ، أو مجرد محاولة الصعود ، فهذا أمر يخرج عمليًّا عن طاقة البشر فى ظروفنا التى نعيشها .

وأنت واجد فى الحياة هذين النموذجين من الشباب . وقبل أن نتابع دراسة الاتجاهين يحسن أن نقف وقفة أطول عند مصادر العرض المثالى أو عرض المناقب فى مجتمعنا :

بين المدرسة والمسجد :

ذلك لأننا فى اختيارنا لموضوعات التربية لأبنائنا – يستوى فى هذا ما يتلقاه الطالب فى المدرسة وما يسمعه من خطيب المسجد – نعمد كثيراً إلى اختيار هذه الروائع والتركيز عليها . ولا نعطى صورة متكاملة لأحداث العصر . وإنما نلجأ إلى طريقة القصص المختار نجمعها فى « عقد فريد » أو « مستطرف » أو فى « عيون الأخبار » أو « الأمالى ».

وهذا الاختيار يتحرّى دائماً إبراز أروع ما فى الواقع الدينى . ونحن بهذا نزيد من تعميق هذين التيارين فى ذهن الشاب أو على الأصح تكوين نوعين من الشباب :

١ – النوع المثالى المؤمن بهذه الروائع وإمكانية تطبيقها وشدة نقده مجتمعه على أساسها .

٢ – النوع السلبى الذى يرى فى هذه الروائع أموراً لها – إذا أحسن الظن بها – قيمتها التاريخية بدون أن يحاول الصعود إليها .

فالمدرسة والمسجد يتعاونان بدون تخطيط سابق على تكوين قطاعات من الشباب تحس فى نفوسها : إما المتناقضات العميقة بين مصادر القيم الروحية والواقع الذى نعيش فيه . وإما نوعاً من اللامبالاة أو السلبية : ينظر إلى الدين وإلى مصادر القيم الروحية كما يقرأ كتاب تاريخ . ليس فيه إلا قصص الأولين .

فما موقف القرآن الكريم من هذه القضية ؟

٨ ــ خريطة اجتماعية :

لو رجعنا ــ على سبيل المثال لا الحصر ــ إلى سورة التوبة لوجدنا فيها خريطة لمجتمع المدينة فى السنة التاسعة للهجرة قبيل وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ــ وهى بهذا حصيلة جهاد طويل استمر ثلاثة وعشرين عاماً .

هل كان تصوير القرآن الكريم لهذا المجتمع كأن كل من فيه كانوا على الإيمان والخير والإقبال على العمل الصالح ؟

هل أعطانا القرآن الكريم صورة مثالية؟ أو أعطانا صورة من صور الكفاح من أجل الخير ، صورة مجتمع تتصارع فيه القوى المؤمنة والقوى المنافقة ، وتحيط به العداوات ، ويتعاون فيه المنافقون مع الكفار فى مكة وأرض الروم ، ويدبرون المؤامرة بعد المؤامرة ؟

هل استطاع هذا المجتمع أن يقضى على المتناقضات كلها فيه ؟

وهل من طبيعة أى مجتمع أن يستطيع القضاء على كل ما فيه من متناقضات ؟

لقد صور لنا ربنا تبارك وتعالى فى هذه السورة النفس الإنسانية فى إقبالها على الله ، وفى اضطرابها بين نوازع القوة والضعف ، فى إيثارها الجهاد تارة ، وفى إيثارها الدعة تارة أخرى . صوّرها وهى مؤمنة مقبلة على الله ، وصوّرها وهى مدبرة متآمرة على الإسلام . وكل هذا فى إطار

مكانى هو المدينة المنورة ، وفى مدى زمنى هو حياة الرسول الأعظم ، وفى ذروة بلغتها قوة الإسلام فى غزوة تبوك عندما كان جيش المسلمين ثلاثين ألفاً ، والفرسان منهم عشرة آلاف ؟

وما موقف الرسول من هذا كله ؟ وما موقف الصحابة ؟

إننى أعتقد أن الدراسة العميقة لسورة التوبة — على سبيل المثال — ترينا أن الحياة تقوم أساساً على التدافع المستمر بين قوى الخير والبناء ، وقوى الشر والهدم .

وأن صورة المجتمع الإنسانى الذى خلا من كل العيوب ، وفرغ من كل التناقضات ، وتطهرت نفوس أفراده من كل الأدران، صورة لا نستطيع أن نجد لها أساساً فى كتاب الله .

ترى : هل نحن الذين نضع صورة وردية لمجتمعات فاضلة نجعل أبناءنا يؤمنون بها وهى غير واقعية ولا ممكنة التحقيق ، ثم نوقعهم فى حرج حين يجدون الفارق الكبير بين الصورة والواقع ؟

ترى : هل نحن الذين نحتاج إلى مراجعة أنفسنا فى عرض المجتمعات الإنسانية عرضاً موضوعياً قرآنياً ؟ (١) .

إن هذا العرض هو الذى يدعو الشباب إلى التمسك بالحق وإلى الكفاح ويزيده استمساكاً بالقيم الروحية والأخلاق الفاضلة ، على أساس الواقع ، مؤمناً أن عليه أن يسجل الخطوة بعد الخطوة ويحقق الأمل بعد الأمل ، وهو إن تعثر فى الطريق يعلم أن يد الله تأخذ بيده ونور الحق يضىء له الطريق .

إننى أحس أننا أحياناً — أو كثيراً — ما نعطى شبابنا صوراً غير متوازنة وغير موضوعية عن المجتمعات الإنسانية ، فإذا ما تمزقت نفوسهم

---

(١) انظر للكاتب على سبيل المثال دراسة منهجية وتطبيقية لهذا الموضوع فى كتاب دروس من غزوة أحد . ط . دار المعارف ، القاهرة — وكانت كتابته بعد النكسة يونيو (حزيران) ١٩٦٧ .

بين الصورة والحقيقة ، وفقدوا الاتزان الذى يعينهم على السير ، ويحول بينهم وبين الانحراف أو الاندفاع ، عدنا إليهم نحاسبهم ، ونحن المسئولون أولا عن منهج التوجيه . هذا الانحراف قد يكون تعجلا لمراحل التطبيق وقد يزداد التعجل فيصبح انعزالا عن المجتمع أو ضيقاً به أو سلبية فيه ..

من أجل ذلك أود أن نعرض النماذج الإنسانية والاجتماعية للشباب عرضاً موضوعياً إنسانياً ما وسعنا ذلك .

ولا نستطيع أن نتصور صبر الرسل إلا بمكايد المنافقين والكافرين . ولا يضير المسيح عليه السلام أن خانه يهوذا وهو الذى عاش معه . ولا يضير موسى أن لقى هذا العنت من بنى إسرائيل . ولا يضير رسولنا عليه الصلاة والسلام أن لقى من صنوف الإيذاء من المشركين والمنافقين ما سجله القرآن الكريم وكتب الأحاديث والتاريخ حتى زادت أساليب إيذائهم على الثلاثين .

بل إن إيمان المؤمنين ليتجلى إذا ما احتك بهذا الكفر والنفاق والشرك والانحراف ... وهذه القوى كلها كانت تعمل متفاعلة فى مجتمعات الأنبياء . فكيف بمن جاءوا بعدهم أو بينهم ؟

يقودنا هذا إلى منهجنا فى عرض النماذج البشرية التى تمثلت فيها القيم الروحية ومبادئ الأخلاق .

وقد لا يتسع مجال القول فى هذا البحث لتفصيل ذلك ، ولكننى أود أن أركز على نقطة رئيسية هى عرض النماذج فى إطارها الاجتماعى وفى بيئتها الحضارية ومصادر تكوينها ، ونموها وتفاعلها مع الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإضافات التى استطاعت القيام بها والكفاح النفسى والاجتماعى الذى قامت به حتى استطاعت أن تحقق هذه الإضافات .

هذا العرض المتكامل سيقودنا إلى تكوين نظرية متوازنة عند الشباب

بين الفرد والجماعة . بين جوانب الحياة الفكرية والتطبيقية . بين الدين والحياة . وسيشعر الشاب العربى حينئذ بهذه القيم صديقاً يسكن إليه . ونوراً يهديه فى طريق الحياة . وزيتاً يوقد منه مصباحه ، ومثابة يعود إليها إذا ما تجاذبته تيارات الحياة . ويستطيع أن يحس ويعلم صدق مدى ما تستطيع حضارته أن تساهم به فى الحاضر بعد أن ساهمت فى الماضى فى التراث العالمى . ودورها فى حل قضاياه الكبرى [1].

٩ ــ خاتمة :

وأرجو أن نتعاون معاً على أن تكون هذه البحوث أساساً لمادة فكرية تقدم إلى الشباب العربى فى مرحلته المصيرية التى يمر بها تعين على تناول قضاياه جميعاً ، فى عرض مبسط سهل التناول والتداول بحيث تتكون عندنا « مكتبة الشباب العربى » تربط الشباب بماضيه ، وتزيده قدرة على التفاعل مع حاضره والعالم من حوله ، من أجل مستقبل أفضل لوطنه وللإنسانية .

---

(١) على سبيل المثال للمؤلف : الإسلام والتفرقة العنصرية . ط ــ اليونسكو (١٩٧٠) باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية . وأعمال مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ، الدورة الخامسة (ذو الحجة ١٣٨٩ هـ ــ فبراير ١٩٧٠) وعنايتها بقضايا الشباب : ١٩٧٠

الفصل السادس

الإسلام والتطور

منهج البحث :

١ ـ يمكن ابتداء أن نطرح سؤالين :

(ا) إذا كان كل شيء فى المجتمع ثابتاً ، فكيف يستطيع أن يقابل الظروف المتغيرة التى يفرضها تطور الحياة ؟

(ب) وإذا كان كل شيء فى المجتمع متغيراً ، فكيف يستطيع المحافظة على شخصيته وملامحه الرئيسية ؟

إن المجتمع إذا تيبس على أوضاع يعيش فيها ، ورفض باسم المحافظة أن يتقبل كل جديد ، حكم على نفسه بالانزواء ثم الفناء . لا يختلف فى هذا عن كائنات عاشت فى عصور جيولوجية ـ كالزواحف العظيمة ـ لم تستطع أن تتأقلم مع الظروف المتطورة فبادت ولم يبق منها إلا آثارها بين طبقات الجليد ، أو هياكلها فى الكهوف وبين الصخور . .

ومن ناحية أخرى : إذا كان كل شيء فى المجتمع عرضة للتغير . . العقائد، القيم ، الأخلاق ، الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ـ إذا كان كل شيء متغيراً ، ما استطاع مجتمع أن يحافظ على ذاتيته وكيانه . .

والنتيجة المنطقية التى نستطيع أن نخرج بها من هذا : أن المجتمع ينبغى أن يجمع بين المحافظة على مقوماته والاستجابة لحاجات الحياة المتطورة . . وبعبارة أخرى هناك نواح ينبغى أن يحافظ عليها المجتمع ، ونواح أخرى ينبغى أن يطورها المجتمع ، بحيث يستطيع أن يحافظ على شخصيته ويتطور فى الوقت نفسه .

وعلى هذا نستطيع أن نخرج من السؤالين اللذين طرحناهما فى صدر هذه الفقرة بسؤال جديد :

ـ ماهى نواحى الثبات ونواحى التطور فى المجتمع من وجهة النظر الإسلامية ؟

فالبحث إذن سيقسم إلى قسمين : يعرض أولهما للجوانب التى يؤكدها الإسلام كخطوط مستمرة فى المجتمع ، ويعرض القسم الثانى للجوانب التى يفرض الإسلام على المجتمع تطويرها حتى يستطيع أن يستجيب لحاجات الحياة ويرتقى بها دائماً . .

والانحراف هنا يكون بأحد طريقين :

الأول : تغيير الجوانب الأصيلة .

الثانى : تجميد الجوانب المتطورة .

وفى كل من هذين القسمين سندرس المجتمع الإسلامى الأول ثم نقارن ذلك بتجربتنا الاشتراكية بحيث تبدو جوانب التأصيل والتطوير فى كل منهما . وفى المجتمع الإسلامى الأول سنستند إلى نصوص القرآن والسنة ومراجع فى التاريخ الإسلامى وفى تجربتنا الاشتراكية .

القسم الأول ـ جوانب الثبات فى الإسلام

الإيمان :

٢ ـ هناك أولا الإيمان بالله وإسلام النفس إليه . والله تعالى يبين أن هذا هو المحور الرئيسى الذى تدور حوله الحياة والذى أمر الله به رسله والناس جميعاً . وفى أوائل سورة البقرة تطالعنا الآية الكريمة

(يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ

قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(١). وبين أن هذا الإيمان كان دعوة الأنبياء ووصيتهم إلى أبنائهم قولهم وهم يودعون الحياة ، والعقيدة التى يتوارثونها . وفى هذا يقول الله تعالى عن آل إبراهيم : (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ : رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ؟ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : أَسْلِمْ قَالَ : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ

---

(١) سورة البقرة: ٢١ .

قَالَ لِبَنِيهِ : مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى ؟ قَالُوا : نَعْبُدُ إِلٰـهَكَ وَإِلٰـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ إِلٰـهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَـهُ مُسْلِمُونَ)(١) .

وبين الله تعالى أن الإيمان هو « مدار » النفس الانسانية بحيث يضطرب سير الفرد والمجتمع إذا خرج عن هذا المدار . صورة لهذا فى قوله تعالى : (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ)(٢) .

وأجمع آيات الوصايا فى القرآن قول الله تعالى : (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّـذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ)(٣)

وهذا الإيمان يشمل النبوات جميعاً ، ويبين هذا قوله تعالى (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَـيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ،لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُـوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)(٤)

---

(١) سورة البقرة : ١٢٧ — ١٣٢ .

(٢) سورة الحج : ٣١ .

(٣) سورة النساء : ١٣١ .

(٤) سورة البقرة : ٢٨٥

ادات :

٣ ـ الجانب الثانى الذى يثبته الإسلام هو العبادات . فهى محددة يملك أحد تغييراً لها ولا تبديلا .

(١) فإقامة الصلوات الخمس فى أوقاتها ، وتحديد هذه الأوقات فية أدائها محددة . وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم واضح : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » . وإذا كانت صلاة المقيم الصحيح سم تسير على نظامها المعتاد ، فإن الله خفف عن المسافر وعن ب ، ويسر لهم فى عدد الركعات وفى جمع الصلوات المشتركة الوقت ى إن المريض ليستطيع الصلاة بالإيماء وحركة الجفن . . كل هذه وانب جاءت بتفصيل دقيق لا يدع إلا مجالا محدوداً جداً للرأى بعض التفاصيل .

(ب) مثل هذا يقال عن الصوم . فهو محدد بشهر رمضان :

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾(١) .

(حـ) تأتى بعد هذا الزكاة ، ولها نصاب شرعى . وجانب من أمر لمال حدده القرآن ، وجانب بينته السنة المطهرة ، وجانب ثالث ترك

---

(١) سورة البقرة : ١٨٥ .

لاجتهاد المسلمين ، وهذا الجانب سنعرض له فى القسم الثانى من هذا البحث .

والقرآن الكريم لم يفرق بين الصلاة والزكاة : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ)(١).

والله أمر نبيه بأخذ الزكاة ممن تستحق عليهم وصرفها فى مصارفها فقال: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً [وهى هنا الزكاة] تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)(٢).

وبين مصارفها فى قوله : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)(٣).

وكانت أول حرب فى الإسلام بين المسلمين والمرتدين على الزكاة ووجوب أدائها لبيت المال ليتولى إنفاقها فى أبوابها . وواضح من الآية

---

(١) سورة المؤمنون : ١ — ٤ .
(٢) سورة التوبة : ١٠٣ .
(٣) سورة التوبة : ٦٠

الكريمة حق الفقير والمسكين والغارم (المدين) وابن السبيل (المنقطع عن أهله) فى هذا المال فضلا عن المصارف الأخرى كالدفاع عن الوطن. وقد تكلم الصحابة مع أبى بكر فى أن يترك قتال مانعى الزكاة ليتألفهم حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم، ثم هم بعد ذلك يزكون؛ فامتنع أبو بكر عن ذلك وأباه. وخاطبه عمر بن الخطاب قائلا: علام تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها؟ فقال أبو بكر: والله لو منعونى عناقاً (وفى رواية عقالا) كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها. إن الزكاة حق المال، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة. قال عمر: فما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق [1] فكانت أول حرب فى الإسلام دفاعاً عن حق الفقير.

(د) فإذا جئنا إلى الحج بعد هذا وجدناه محدد الموسم والمناسك أيضاً. والنبى يعلمنا فيقول: «خذوا عنى مناسككم»، ونحن لا نستطيع أن نغير من نظام الطواف أو السعى أو الدفع إلى عرفات والإفاضة منها إلى المشعر الحرام وذكر الله فى أيام معدودات فى منى ثم العودة إلى مكة.. هذا مع تيسير وتخفيف عن المريض والضعيف. والمفروض أولا فى الحج القدرة وهى الزاد والراحلة.. أى توافر المال

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٦: ٣١١ إلى ص ٣٣٢ فى بقية حروب الردة. ومعنى عناق: الأنثى من ولد الماعز والغنم من حين الولادة إلى تمام الحول. ومعنى عقال: حبل يربط به البعير ليبقى باركا.. والمقصود من قول أبى بكر لو منعونى حتى أقل الأشياء قيمة لقاتلتهم عليه.

وسيلة المواصلات . وهذا — بداهة — بعد توافر القدرة البدنية الت
تعينه على أداء الفريضة . والله يقول : (ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ)(١) .

وفى دراسة العبادات جانبان ، أولهما : الاتباع . فليس كل شي فى العبادة يمكن أن يفسر على أساس عقلى بحت تبدو به كل نواح الحكمة فيه : لماذا فى الصلاة ركعة وسجدتان ؟ ما الحكمة فى التيم وهو يحل محل الوضوء إذا تعذر الماء أو احتاج إليه الفرد فى أمر حيوى لماذا الطواف والسعى سبعة أشواط ؟ لماذا الصوم فى رمضان بالذات هذا الجانب التعبدى فى الإسلام . وموقف المسلم فيه هو الاتباع تصديقاً بأن هذا ما جاء به الدين .

وهناك جانب ثان تبدو به الحكم فى هذه العبادات . وبعضها جا فى القرآن والأحاديث والبعض من جهود العلماء . ومن نماذج ما جاء في القرآن الكريم :

- (إِنَّ ٱلصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ)(٢) .
- (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا)(٣) .

---

(١) سورة البقرة : ١٩٧ .
(٢) سورة العنكبوت : ٤٥ .
(٣) سورة التوبة : ١٠٣ .

• (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(١).

• (وأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ)(٢).

فهنا نجد الآيات الكريمة تربط بين العبادة ونتائجها فى الفرد والمجتمع ، بدون الاكتفاء بالأصل التعبدى وحده .

الأخلاق :

٤ — والرسول صلى الله عليه وسلم يبين لنا هدفاً رئيسيًّا من أهداف الدعوة الإسلامية فى قوله : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، ويصفه ربه فيقول : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)(٣)، ويؤكد الإسلام وجوب تمسك الفرد والجماعة بالخلق الكريم فى مجالات الحياة على تنوعها ، ولنذكر نماذج من ذلك :

(١) هناك أولا معاملة الفرد لنفسه . . فما عنده من قوى ومواهب

---

(١) سورة البقرة : ١٨٣ .

(٢) سورة الحج : ٢٦ — ٢٨ .

(٣) سورة ن : ٤

وحواس هي في أساسها ملك لله تعالى . والله سائله عما فعل بها . ويمدح الرسول هذا الخلق في قوله: « طوبى لمن زكت وحسنت خليقته وطابت سريرته وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن أنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله » (١) .

(ب) فهذا الخلق الفاضل ليس أمراً انطوائياً في حياة الفرد ، وإنما يمتد ليشمل دوائر متابعة الاتساع في حياته ، وأقربها إليه دائرة الأسرة بادئة بالأم فالأب والإخوة . وسئل الرسول في هذا فقال : « أمك وأباك وأختك وأخاك ومولاك الذي يلي ذاك حقاً واجباً ورحماً موصولة » أخرجه أبو داود . وفي حديث عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » (٢) . أخرجه الترمذي .

(ح) وتتسع الدائرة لتشمل اليتيم . وأخرج البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى ، وفرج بينهما » (٣) .

(د) وتتسع الدائرة بعد هذا لتشمل أية خدمة عامة أو خاصة ، وفي هذا يقول الرسول ناصحاً بعض الصحابة عندما سأله عن شيء ينفعه : « اعزل الأذى عن طريق المسلمين » (٤) وقوله : « الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله ، أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل » (٥) .

(هـ) ولا يقتصر البر على الإنفاق المالي فقط ، وإنما يشمل الكلمة

---

(١) أحمد زكي صفوت : جمهرة خطب العرب ١ : ٥٢ — ٥٣ .

(٢) ابن الديبع الشيباني : تيسير الوصول ١ : ٤٩ — ٥٠ — ويجمع هذا المرجع الأحاديث على أساس موضوعي ، والموضوعات مرتبة على حروف المعجم . ويجمع أحاديث الأصول الستة المشهورة (صحيحي البخاري ومسلم وموطأ الإمام مالك ومسند أبي داود وجامع الترمذي ومسند النسائي) رحمهم الله .

(٣) إلى (٥) المرجع السابق .

الطيبة والبسمة والمجاملة ، ويجمع هذ قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » (١)

(و) بل إن هذا البر ليمتد للحيوان الأعجم ، وفى هذا يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : « إن لكم فى كل ذات كبد رطبة أجراً » .

(ز) وهذا الخلق غير مقيد بأرض الإسلام ، ولكننا نراه حتى فى الحرب ولقاء العدو . ويروى أبو داود عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلا صغيراً ، ولا امرأة ولا تغلّوا (الغلول حجز جزء من الغنيمة) وضموا غنائمكم (أى اجمعوها) وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » ، وفى حديث آخر : « لا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع »(٢) .

والمطلوب فى المجتمع الإسلامى التمسك بكل من القانونين الأخلاقى والعلمى ، والمقصود بالقانون العلمى هنا اتخاذ الوسائل الموضوعية السليمة المؤدية إلى رقى المجتمع فى مجالات السياسة والاقتصاد والعلم جميعاً . . وبالقانون الأخلاقى أن يكون التعامل فى المجتمع على أساس من الأخلاق التى حدد الإسلام معالمها الرئيسية وأتم بها مكارم الأخلاق التى جاءت فى الأديان السابقة وأعطانا نماذج من تطبيقاتها العملية . وأى قانون وحده منهما لا يكفى . .

لا يكفى أن يتوافر فى الأفراد والمجتمع حسن الأخلاق ، مع مستوى علمى منخفض أو فى قاعدة اقتصادية هزيلة ، أو استعمار . . ولا يكفى من ناحية أخرى أن يأخذ المجتمع بأسباب التقدم العلمى والاقتصادى والسياسى ولا يبالى بعد هذا بمستواه الأخلاقى . ولا شك

---

(١) المرجع السابق .
(٢) الشوكانى : نيل الأوطار ٧ : ٢٤٦ — ٢٤٨ .

فى أن هناك تفاعلا بين الجانبين ، ولكن الأساس فى الإسلام أن يكون القانونان : العلمى والأخلاقى الجناحين اللذين يحلق بهما المجتمع فى آفاق التقدم .

الأحكام :

٥ ـ يحتوى القرآن من آيات الأحكام على خمسمائة أو تزيد قليلا ، على حسب الاختلاف عند من يجعل بعض آياته آيتين ، بدون خلاف فى الآية نفسها ، بعضها يتعلق بالعبادة ، وأكثرها يتعلق بالمعاملات المالية وسواها من قضاء وسياسة ونظام للحياة المدنية ، وفيها من الاختصار البلاغى ومن الشمول نعمتان من نعم الله .. فيهما اتسعت آيات التشريع لكل زمان ومكان تعيشه الإنسانية (١) ، وسنعود إلى هذا بشىء من التفصيل فى الجزء المتطور . وإنما الذى نؤكده هنا أن آيات الحدود والمواريث ، والمبادئ العامة فى الحكم والاقتصاد والسياسة الدولية والحرب هى من الآيات الموضحة للجوانب الثابتة فى المجتمع الإسلامى . ولا يملك مسلم رفض نص صريح فيها . وقول الله واضح فى هذا :

(فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ . وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)(٢) .

---

(١) عبد الحليم الجندى : توحيد الأمة العربية ص ٤٣ .
(٢) سورة الشورى : ١٥

وقوله تعالى : ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾(١).

ثانياً — جوانب التطور فى الإسلام

كلمة عن مصادر التشريع :

٦ — وقبل أن نبدأ فى دراسة التطور يحسن أن نذكر كلمة موجزة عن مصادر التشريع الإسلامى وعلاقة المسلمين بها فى واقعهم التاريخى(٢):

فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته مرجع المسلمين فى تدبير شئونهم العامة : من تشريع وقضاء وتنفيذ . وكان قانونه فى هذا التدبير ما ينزل عليه من ربه ، وما يهديه إليه اجتهاده ونظره فى المصالح ، وما يشير به أولو الرأى من صحابته فيما ليس فيه تنزيل . وكان التدبير بهذه المصادر يتسع لحاجات الأمة ويكفل تحقيق مصالحها .

وقد ترك الرسول صلى الله عليه وسلم فى أمته هاديين لا يضل من اهتدى بهما فى تدبير شئونها وهما : كتاب الله وسنة رسوله . وأقام مناراً ثالثاً يستضاء به — فيما ليس فيه نص من كتاب أو سنة — وهو الاجتهاد الذى مهد طريقه ، ودعا إليه بقوله وعمله وإقراره . ذلك لأنه

---

(١) سورة المائدة : ٤٩ .

(٢) الفقرات من ٦ إلى ٩ تعتمد اعتماداً رئيسياً على الفصل التمهيدى الذى كتبه المرحوم الأستاذ عبد الوهاب خلاف فى كتابه « السياسة الشرعية أو نظام الدولة الإسلامية فى الشئون الدستورية والخارجية والمالية » ص ٦ — ١٣ .

صلى الله عليه وسلم كثيراً ما كان يبلغ الأحكام مقرونة بعللها والمصالح التى تقتضيها ، وفى هذا إيذان بارتباط الأحكام بالمصالح ، ولفت إلى أن الغاية إنما هى : جلب المنافع ودرء المفاسد . وقد أقر الرسول صلى الله عليه وسلم اجتهاد من اجتهد فى حضرته من صحابته وقال للمجتهد : إن أصبت فلك أجران وإن أخطأت فلك أجر . وكان ينهى عن الشىء لمصلحة تقضى بتحريمه ثم يبيحه إذا تبدلت الحال وصارت المصلحة فى إباحته . ولما خرج صحابيان فى سفر وحضرتهما الصلاة وليس معهما ماء وصليا ، ثم وجدا الماء فى الوقت ، وأعاد أحدهما ولم يعد الآخر صوبهما النبى صلى الله عليه وسلم وقال للذى لم يعد : « أصبت السنة وأجزأتك صلاتك » وقال للآخر : « لك الأجر مرتين » . هذا كله وكثير مثله بث فى نفوس المسلمين أن غاية الشرع إنما هى المصلحة ، وحيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله . وأنار لهم أن السبيل إلى تحقيق المصالح حيث لا نص إنما هو اجتهاد الرأى .

فى عهد الخلفاء الراشدين :

٧ — وظهرت هذه الروح فيما سلكه الخلفاء الراشدون بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فى تدبير الشئون العامة للدولة ، فكانوا يهتدون فى نظمهم وسائر تصرفاتهم بما شرع الله فى كتابه ، وعلى لسان رسوله . وإن حدث لهم ما ليس له حكم فى كتاب ولا سنة اجتهدوا رأيهم ، واتبعوا ما أدى إليه اجتهادهم مما رأوا فيه مصلحة الأمة ولا يخالف روح الدين . وكثيراً ما كان اجتهاد أحدهم يخالف اجتهاد صاحبه ، بل قد يخالف ما يفهم من ظاهر النص . وما اتهم مجتهد منهم أنه على غير الحق ، مادامت الغاية : المصلحة وعدل الله ، والوسيلة : اجتهاد الرأى وإنعام النظر .

وقد اجتهد أبو بكر فاستخلف على المسلمين عمر ، واجتهد عمر فلم يستخلف واحداً ، وترك الأمر شورى بين ستة . فاجتهاد أحدهما غير

اجتهاد صاحبه . واجتهادهما معاً غير ما فعل الرسول لأنه لم يستخلف واحداً كما فعل أبو بكر ، ولم يترك الأمر شورى لستة كما فعل عمر . وما رمى واحد منهما بأنه خالف شرع الله لأنه توخى المصلحة واجتهد ما استطاع .

واجتهد عثمان وجمع الناس على قراءة القرآن بحرف واحد هو ما دوّن فى المصحف الإمام ، ولم يكن ليخفى أن القرآن أنزل على سبعة أحرف . ولكنه خشى فتنة الخلف بعد اتساع أرض الإسلام وتفرق الحفاظ فى الأمصار واستشهادهم فى الجهاد فمنع ما كان مباحاً .

واجتهد علىّ فعاقب الرافضة بالتحريق عندما رأى المصلحة فى الزجر عن الجرم الشنيع بالعقاب الشنيع .

وكذلك كان الشأن فى القضاء وطرق الحكم . . وكانوا ينظرون فى التنفيذ إلى ما تقضى به المصلحة وحال الناس . فقد عطل عمر تنفيذ حد السارق فى عام المجاعة ، وأسقط سهم المؤلفة قلوبهم لما أعز الله الإسلام . وهذه السبيل التى سلكها المسلمون أول أمرهم فى التشريع والقضاء والتنفيذ ، كانت السبيل القويمة فى تدبير شئون المجتمع ، وكانت لا تضيق بحادثة أو حاجة ، ولا تقصر عن تحقيق أية مصلحة ، ولا عن مسايرة الزمن فى تطوره ، وبسلوكها ما شعر واحد بقصور الإسلام عن مصالح الناس ، وكانت الأحكام جميعاً مصدرها القرآن والسنة وما اهتدى إليه أولو الرأى متحرين المصلحة ، والله ما شرع الشرائع إلا لمصلحة عباده .

وضع قواعد الاجتهاد :

٨ — وجاء بعد هذا عصر التزم فيه مجتهدو الفقهاء طرقاً خاصة فى الاجتهاد . وسواء أكان الباعث لهم على هذا زيادة حرصهم على ألا

يتعدوا شرع الله أم اتهامهم عقولهم بالقصور عن السابقين أم غير ذلك ، فإن هذا الالتزام قيد من حرية المجتهد وضيق دائرة الاجتهاد وقضى بإغفال كثير من المصالح المرسلة : وهى التى لم يرد فى الشرع دليل بشأنها ، ولم يشهد الشارع باعتبارها ولا بإلغائها . وبعد أن كان مجتهدو الصحابة يعملون لمطلق المصلحة لا لقيام شاهد بالاعتبار ، وهاديهم فى هذا فطرة سليمة ونظر صحيح ، صار الاعتبار لمصالح خاصة والمرجع إلى قواعد موضوعة . وبهذا بدأت تضيق دائرة التشريع وتلتزم طرقاً خاصة للوصول إلى الحق ، وتغل اليد عن تنفيذ ما قد يكون فيه بعض الإصلاح .

٩ — وكان هؤلاء المجتهدون يشعرون فى بعض الأحوال بحرج هذه القيود ، فكانوا يخرجون من هذا الضيق بما يدعونه الاستحسان ، وهو بقية من روح الاجتهاد الفطرى الذى كان سبيل السلف الأول .

تخلف التشريع :

١٠ — وبإغفال المصالح المرسلة فى التشريع وإلغاء اعتبار القرائن والأمارات فى القضاء ، والتزام طرائق خاصة للوصول إلى الحق وتنفيذه ، ظهر الفقه الإسلامى بمظهر القاصر عن التشريع ، الذى لا يتسع لمصالح الناس ، ولا يساير الزمن وتطوراته ، وأخذ الولاة ينظرون إلى مصالح الناس المطلقة ويدبرونها غير ملتزمين بما التزمه هؤلاء المجتهدون . وبدأت المجتمعات الإسلامية ترى نوعين من النظم والأحكام : أحدهما ما استنبطه الفقهاء المجتهدون على وفق أصولهم وقيودهم ، وثانيهما ما لجأ إليه الساسة الولاة لتحقيق المصالح المطلقة . وكان هذا النوع الثانى يتبع حال واضعيه : فتارة يكون معتدلا غير متجاوز حدود الدين وأصوله العامة ، وتارة يكون مراعى فيه الأغراض والمصالح الجزئية . .

ثم زاد قصور الفقه الإسلامى عن مصالح الناس بإغلاق باب

الاجتهاد واقتصار الفقهاء على حمل الناس أن يتبعوا ما استنبطه أئمتهم فى عصورهم السالفة بدون نظر إلى ما بين الأزمان والأحوال من تفاوت . فاتسعت دائرة الخلف بين الفقه ومصالح الناس فى كثير من الشئون . واتجه ولاة الأمر فى المجتمعات الإسلامية إلى مراعاة المصالح أو البعد عنها وفق ما تمليه عليهم مواقفهم من عدل أو جور . . بدون تقيد بأقوال الفقهاء المتبوعين . .

بين الاجتهاد والسياسة :

١١ ــ اعتمدنا فى الفقرات (من٦ إلى ٩) اعتماداً رئيسياً على التمهيد الذى قدم به المرحوم الأستاذ عبد الوهاب خلاف كتابه (السياسة الشرعية) . وهناك نقطة لها خطورتها أشار إليها المرحوم السيد محمد رشيد رضا فى كتابه « يسر الإسلام » عند دراسته قاعدة « دفع المفاسد وحفظ المصالح » وكيف أن جماعة الفقهاء يصرحون دائماً بإرجاع جميع الأحكام إليها . .

يقول السيد رشيد رضا : « إنما فر أكثر علماء الأمة من تقرير هذا الأصل تقريراً صريحاً مع اعتبارهم كلهم له ــ كما قال الإمام القرافى ــ خوفاً من اتخاذ أئمة الجور إياه حجة لاتباع أهوائهم وإرضاء استبدادهم فى أموال الناس ودمائهم ؛ فرأوا أن يتقوا ذلك بإرجاع جميع الأحكام إلى النصوص ولو بضرب من الأقيسية الخفية . فجعلوا مسألة المصالح المرسلة من أدق مسالك العلة فى القياس ولم ينوطوها باجتهاد الأمراء والحكام، وهذا الخوف فى محله ، ولكن لم يق الأمة من أهواء الحكام كما ينبغى، إذ كان يوجد فى عهد كل ظالم من علماء السوء من يمهد له الطريق ولو لبعض ما يريد من اتباع الهوى »[1]

---

(١) السيد محمد رشيد رضا : يسر الإسلام وأصول التشريع العام ص ٧٤ — ٧٥ .

وواضح من كلام السيد رشيد رضا أن شدة تمسك كثير من الفقهاء فى عهود الظلم بالنصوص وتضييق المجال أمام الاجتهاد — لم يكن مرجعه ضعفاً فقهيًّا فيهم ، ولا عجزاً عن الاجتهاد ، ولكن وجودهم فى ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية يسيطر فيها حكام ظالمون . . فلو فتح الفقهاء باب الاجتهاد والتوسع فى قاعدة « دفع المفاسد وحفظ المصالح » لاتخذها الظالمون طريقاً إلى إلباس مظالمهم لباساً شرعيًّا . .

١٢ — ويعقب السيد رشيد على دراسته لأصل « دفع المفاسد وحفظ المصالح » بعرض ما يراه الطريقة المثلى للتعاون بين الحكم والدين فيقول: « والطريقة المثلى لحفظ الحق وإقامة ميزان العدل ، هى رفع قواعد الحكم على الأساس الذى شرعه الله تعالى للمسلمين بقوله: (وأمرهم شورى بينهم). وقوله : (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا) . لا بإنكار أصل المصالح ولا بالتضييق فى تفريع الأحكام عليها . فإن نيط ذلك بأولى الأمر (أى أهل الحل والعقد) الذين ينصبون الإمام (الخليفة) ويكونون أهل الشورى له ، ويكون هو مقيداً بما يقرونه — فحينئذ لا يخشى من جعل مراعاة المصالح ذريعة للمفاسد، ما يخشى منه فى حال إقرار كل متغلب على الحكم ، مع التضييق فى مسالك استنباط الأحكام الذى جرى عليه جماهير الفقهاء . وإنما مثار المفاسد كلها أن يوسد الأمر إلى غير أهله ، وأن يقر على الملك كل متغلب ، ويرضى بتقليده كل جائر جاهل ، فهذا هو الذى أضاع على المسلمين دينهم ودنياهم »[1]

---

(١) المرجع السابق نفسه : ص ٧٥ .

الإجماع ونسخه بإجماع ثان :

١٣ ــ وقد درس المرحوم الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت(١) جوانب الإجماع ، وبين أنه من المتعذر عملياً اتفاق جميع مجتهدى الأمة فى عصر على رأى واحد « نظراً لأن المسألة أو المسائل التى تعرض عليهم هى من ذات البحث والنظر ، والسنة البشرية تقضى فى مثلها باختلاف الرأى ، لمكانة التفاوت بين الناظرين فى قوى الإدراك ووسائل البحث التى منها اختلاف ظروف الأقاليم التى تحيط بكل باحث . ويمكن حينئذ قبول الإجماع على أنه « عدم العلم بالمخالف » أو « اتفاق الكثرة » وكلاهما يصلح أن يكون أساساً للتشريع العام الملزم فى المسائل ذات النظر والبحث : إذ هو غاية ما فى الوسع ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . ولكن يشترط فى اعتباره على وجه عام : أن تكون حرية رأى الباحثين مكفولة وألا يتصل بها مظهر من مظاهر الضغط التى قد يكبل به السلطان حرية الرأى » .

ويعقب على هذا بقوله : « وإذا كان من أسس الإجماع اتفاق النظر فى تقدير المصلحة ــ وهى مما يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال ــ فإنه يجوز للمجتهدين أنفسهم أو لمن يأتى بعدهم إذا تلك تغيرت ظروف الإجماع الأول ، أن يعيدوا النظر فى المسألة على ضوء الظروف الجديدة ، وأن يقرروا ما يحقق المصلحة التى تقتضيها الظروف ، ويكون الاتفاق الثانى إجماعاً منهياً لأثر الإجماع الأول ، ويصير هو الحجة التى يجب اتباعها ، وإذا وجدت المصلحة فثم شرع الله » .

« هذا هو الاجتهاد الجماعى ، أما الاجتهاد الفردى فإنه لا يكون حجة ملزمة إلا لصاحبه » .

---

(١) محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ص ٥٦٦ ــ ٥٦٧ .

اتجاهات جديدة لأوضاع جديدة :

١٤ ـ وإذا ما انتقلنا من النظرية إلى التطبيق وجدنا أن مجتمعاتنا الإسلامية فى حاجة إلى مراجعة شاملة لما بقى فيها من العلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى ورثناها من عهود الاستعمار . ولا بد من ثورة تشريعية تصاحب الثورة الاقتصادية والاجتماعية ونظم الحكم الجديدة . . وثورة علمية فى مجالات العلم جميعاً حتى تستطيع أن تساير وتقود التطور . .

ومن هنا جاءت عناية مجتمعنا بالدراسات الإسلامية وتطويرها ، وفتح المجال أمام علماء العالم الإسلامى للقاءات يتدارسون فيها المشكلات التى تقابل الشعوب الإسلامية فى زحفها إلى حياة أفضل .

وشاهدنا تطوير الأزهر وربطه بواقع الحياة ، وفتح المجال أمام أبنائه ليتخصصوا فى أكثر من علم : طب ، هندسة ، اقتصاد، سياسة إلخ . . هذا إلى جانب الدراسات الأصيلة فى الأزهر كاللغة العربية وأصول الدين والشريعة . وقد بينت المذكرة الإيضاحية لمشروع قانون تنظيم الأزهر (١) دوره فى تاريخ العلم والإسلام وتأثيره فى إفريقيا وآسيا بخاصة ، « والتزام الأزهر قروناً طويلة الوقوف فى وجه كل محاولات العدوان مما ألزمه نوعاً من المحافظة ، لعلها كانت بعض الموقف الدفاعى الذى التزمه خلال تلك القرون ، فلما نشطت الحياة حواليه وزالت الأسباب التى كانت تضطره إلى المحافظة والتزمت ، لم يجد الوسيلة الملائمة التى تعينه على الحركة المتجددة التى تلائم بينه وبين عصره ، مع احتفاظه بخصائصه وقيامه بواجبه لحياطة الدين والمحافظة على تراث الإسلام » .

---

(١) وزارة الأوقاف وشئون الأزهر : الأزهر تاريخه وتطوره ص ٤٠٥-٤١٤ .

« وكانت الثقافة الاستعمارية تحاول طوال السنين التى يسيطر فيها الاستعمار على العالم الإسلامى أن تلون أفكار أهله وعقائدهم ، وأن تضع فى نفوسهم موازين جديدة وقيماً جديدة يمكن أن تباعد بينهم وبين الإسلام . ولولا طبيعة المقاومة فى نفوس المسلمين لسحقتهم المحاولات المتوالية وأخرجتهم عن دينهم ، ولعلها بلغت من ذلك مبلغاً ما حين أوقعت فى أذهان كثير منهم أن الإسلام عبادة وأن العمل للحياة شىء آخر يختلف عن الدين أو يتعارض مع الدين » .

وبينت المذكرة إجماع أهل الغيرة كلهم من البلاد الإسلامية كلها على رأى واحد هو أن يعرف عالم الدين علوماً أخرى يعيش بها ويشارك بها فى النهضة ليرتفع مقام الدين عن أن يكون سبباً للتعطل والضياع فى المجتمع ، وسبيل ذلك أن تتطور معاهد الدراسات الإسلامية العالمية بحيث تقابل احتياجات النهضة ، فلا تقتصر على الدراسات الدينية وحدها ، بل يجب أن تجمع إليها علوماً أخرى تتحقق بها لكل خريج الخبرة والمعرفة وسلامة العقيدة ، ليعود هؤلاء الخريجون (الوافدون بخاصة من الأقطار الإسلامية) إلى مراكز القيادة فى كل مجالات النشاط فى العالم الإسلامى المتحرر . .

ذلك لأن كثيراً من الأقطار الإسلامية لاحظت فى بعثاتها أن المبعوثين يعودون وهم أحد رجلين : إما متخصص فى علوم حديثة لا يعرف شيئاً من أمر الدين ، وإما متخصص فى الدين لا يعرف شيئاً من أمر العلوم الحديثة غير قادر على المشاركة فى ألوان النهضة .

ومن أجل ذلك جميعه كان لابد من تجديد الأزهر وتطويره والاعتراف بمكانته وأثره ، مع الاحتفاظ له بطابعه وخصائصه وصفته التى استحق بها أن يبقى مسيطراً على تاريخنا وعلى العلاقات الوثيقة بيننا وبين إخوان لنا فى شرق الأرض وغربها أكثر من ألف سنة .

مجمع البحوث الإسلامية :

١٥ ــ وجاء نظام مجمع البحوث الإسلامية بحيث يكون « هو الهيئة العليا للبحوث الإسلامية . ويقوم بالدراسة فى كل ما يتصل بهذه البحوث ، ويعمل على تجديد الثقافة الإسلامية وتجريدها من الفضول والشوائب وتجليتها فى جوهرها الأصيل الخالد ، وتوسيع نطاق العلم بها لكل مستوى وفى كل بيئة ، وبيان الرأى فيما يجد من مشكلات مذهبية أو اجتماعية تتصل بالعقيدة ، وحمل تبعة الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجعل من مهمة المجمع كذلك أن يتتبع ما ينشر عن الإسلام والتراث الإسلامى من بحوث الأجانب ودراساتهم للانتفاع بما فيها من رأى صحيح أو مواجهتها بالتصحيح والرأى . . »

وقد عقد المجلس مؤتمره الأول فى مارس ١٩٦٤ (١) وحضره ممثلو أربعين دولة . وكان للبحوث الاقتصادية فيه أوفر نصيب : بحثت فيه الملكية الفردية وتحديدها وملكية الأرض والموارد المالية وحق الفقراء فى أموال الأغنياء ونظام الحسبة . إلى جانب دراسات عن الاجتهاد ماضيه وحاضره والتلفيق (الجمع) بين أقوال المذاهب . . وفلسفة الحرية فى الإسلام وعوامل انتشار الإسلام . . .

وإذا رجعنا إلى قراراته وجدنا من بينها ما يتعلق بالمشكلات الاقتصادية منها « ويقرر المؤتمر بعد الدراسة المستفيضة لموضوع الملكية أن حق التملك والملكية الخاصة من الحقوق التى قررتها الشريعة وكفلت حمايتها ، كما قررت ما يجب فى الأموال الخاصة من الحقوق المختلفة . وأن من حق أولياء الأمر فى كل بلد أن يحدوا من حرية

---

(١) الأزهر — مجمع البحوث الإسلامية : المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية . شوال ١٣٨٣ هـ — مارس ١٩٦٤ م .

التملك بالقدر الذى يكفل درء المفاسد البينة وتحقيق المصالح الراجحة . وأن أموال الظلم وسائر الأموال الخبيثة والأموال التى تمكنت فيها الشبهة – على من هى فى أيديهم أن يردوها إلى أهلها أو يدفعوها إلى الدولة ، فإن لم يفعلوا صادرها أولياء الأمر ليجعلوها فى مواضعها . وأن لأولياء الأمر أن يفرضوا من الضرائب على الأموال الخاصة ما يفى بتحقيق المصالح العامة . وأن المال الطيب الذى أدى ما عليه من الحقوق المشروعة . إذا احتاجت المصلحة العامة إلى شىء منه أخذ من صاحبه نظير قيمته يوم أخذه ، وأن تقرير المصلحة وما تقتضيه هو من حق أولياء الأمر . وعلى المسلمين أن يسدوا لهم النصيحة إن رأوا فى تقديرهم غير ما يرون »(١) .

كما أشارت قرارات المؤتمر إلى الاستعمار والصهيونية ، وبينت أن الاستعمار وأعوانه هما الخطر الأول الذى يجب على المسلمين أفراداً وجماعات ودولا أن يجاهدوا بالمقاومة الجادة المستمرة حتى يتم تحرر المسلم قلباً وضميراً ووطناً ومعرفة . وأن كل تقصير فى مقاومة ذلك العدو هو عصيان لله تعالى وإثم كبير ، لأنه يقوى يد العدو على إنزال الأذى بالملايين من المسلمين . وأن الصهيونية التى يحاول الاستعمار بعد أن تحطمت أسبابه الظاهرة أن يغلف بها أهدافه تحت ستار جديد هى داء استعمارى خبيث ، ومجاهدتها فرض على كل مسلم ، والتخلف عن ذلك عصيان لله تعالى وإثم كبير .

وفيما يتعلق بالتطور قرر المؤتمر « أن الكتاب الكريم والسنة النبوية هما المصدران الأساسيان للأحكام الشرعية . وأن الاجتهاد لاستنباط الأحكام منهما حق لكل من استكمل شروط الاجتهاد المقررة وكان اجتهاده فى محل الاجتهاد » .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٩٤ – ٣٩٥ .

« وأن السبيل لمراعاة المصالح ومواجهة الحوادث المتجددة هى أن يتخذ من أحكام المذاهب الفقهية ما يفى بذلك ، فإن لم يكن فى أحكامها ما يفى فبالاجتهاد الجماعى المذهبى ، فإن لم يف كان الاجتهاد الجماعى المطلق . وينظم المؤتمر وسائل الوصول إلى الاجتهاد الجماعى بنوعيه (أى المذهبى والمطلق) ليؤخذ به عند الحاجة »

وتوالت لقاءات المجمع مستجيبة لحاجاتنا المتجددة :

استعادة أرضنا السليبة ومسجدنا الأقصى الأسير وحقوق شعب فلسطين . رعاية شبابنا . بناء مجتمعنا على العلم والإيمان .

وتواكبت هذه الجهود مع جهود على الصعيد الإسلامى نرجو أن تكون — بتعاونها — أقدر على الوفاء بالمأمول منها .

والخلاصة

١ — أن المسائل الدينية المحضة وهى العقائد والعبادات والحظر والإباحة تؤخذ من نصوص القرآن وبيان السنة لها بالقول أو العمل أو التقرير . ولا يجوز إحداث عبادة جديدة أو الإتيان بعبادة مأثورة على غير الوجه الذى كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وجمهور أصحابه لأن الله أكمل للدين أصوله وفروعه بكتابه وببيان رسوله .

٢ — أما الأمور الدنيوية من حلال وحرام وسياسة واقتصاد وآداب :

(ا) فما كان فيه نص محكم قطعى فالواجب أن يعمل به ولا مجال للاجتهاد فيه ، ما لم يعارضه ما هو أرجح منه من النصوص الخاصة بموضوعه أو العامة : كنفى الحرج ونفى الضر والضرار وكون الضرورات تبيح المحظورات بنص قوله تعالى : (إلا ما اضطررتم إليه) . ويلحق

بهذا القسم ما يدل عليه نص صحيح وأجمع عليه الصدر الأول أو عمل به جمهورهم .

(ب) ما ورد فيه نص غير قاطع الدلالة . ففيه مجال للاجتهاد ، ومثله يستنبطه بعض العلماء من الكتاب والسنة فى كل زمان . وما يتعلق بالأمور العامة كالأحكام القضائية ونظام الحكم والاقتصاد فرده إلى أولى الأمر يتشاورون فيه وينفذونه بعد المشورة .

(ح) ما ورد فيه نص غير تكليفى كالأحاديث المتعلقة بالعادات والطعام والشراب والطب ونحو ذلك . . فهذا يسميه العلماء إرشاداً لا تشريعاً وكذلك الفتاوى الشخصية ، فالأفضل العمل به ما لم يمنع من ذلك مانع من شرع أو مصلحة عامة أو خاصة .

(د) ما سكت عنه الشارع فلم يرد فيه فعل أو ترك فهو الذى عفا الله عنه رحمة وتخفيفاً(١) ، فإن كان من أمر الدين المحض فهو بين العبد وربه ، وإن كان من أمر المجتمع (اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وثقافياً . .) فرده إلى أولى الأمر وفق الشروط التى سبق عرضها فى الاجتهاد .

---

(١) هناك تلخيص لقضية التطور تستطيع الرجوع إليه فى خاتمة كتاب يسر الإسلام لرشيد رضا ص ٥ — ٧٩ . وفى مصادر الشريعة يمكن الرجوع إلى محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة من ص ٤٨٩ — ٥٧١ . وفى أعمال مجمع البحوث الإسلامية مادة علمية قيمة لا يستغنى عنها فى دراسة مشكلات تطور المجتمع من وجهة النظر الإسلامية ، وبخاصة فى قضايا التطور الاقتصادى ، وبها عنيت الدورة الثانية سنة ١٩٦٥ والثالثة عام ١٩٦٦ ، وتتابعت دوراته حتى السابعة عند كتابة هذه السطور فى شعبان ١٣٩٢ (سبتمبر ١٩٧٢)

٣ ـ أن تطورنا الاجتماعى فتح أمام الدراسات والبحوث الإسلامية أبواباً جديدة وأقام المعابر بين الدراسات الإسلامية والمجتمع بحيث يمكن بالجهود المشتركة أن تزول الجفوة المفتعلة التى حاول الاستعمار أن يوجدها بين الدين والحياة .

الفصل السابع

المسّجد... فن مؤمن

لقاء بين الدين والحياة :

كثيراً ما يقترن فى ذهنى مشهدان :

الأول : مشهد الحجيج فى عرفات وقد امتدت أيديهم إلى الله بالدعاء .

والثانى : مشهد القاهرة وقد امتدت مآذنها ليتردد من فوقها نداء الوحدة والتوحيد .

وإذا ما سرت فى طرقات القاهرة فأنت تسير فى رحلة مع التاريخ والإيمان ، وأنت واجد فى أطرافها وقلبها سجلاً مفتوحاً أمامك :

أهرامات من مصر القديمة شادها العلم والإيمان . مقابر منحوتة فى الصخر عليها مشاهد الحساب والجزاء والدار الآخرة . كنائس أوى إليها الإيمان وارتفع منها نداء السلام . مآذن سامقة تؤلف مع هذا كله نشيداً كبيراً عنوانه « مصر المؤمنة » .

فى زيارتك لمتاحفها التاريخية الكبرى : مصرية قديمة وقبطية وإسلامية، ترى صوراً من التلاقى بين الدنيا والآخرة، بين العلم والإيمان، بين المجتمع والدين . هذا اللقاء الذى نبع من الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، فأصبحنا فى منطق الإيمان لا نفصل بين عمل الدنيا والآخرة ، فالصلاة لها مضمونها الاجتماعى ، وللعمل الاجتماعى مستواه الدينى من الإخلاص وصدق التوجه إلى الله .

محاربون عابدون :

وإذا كان هذا اللقاء بين الدين والحياة خطاً مستمراً فى الوجود المصرى المتدفق منذ فجر تاريخه ، استمرار النيل نفسه ، فإن هذا الخط يزداد

وضوحاً وقوة وترتفع نبرته إذا ما كان الوجود المصرى مهدداً بخطر :

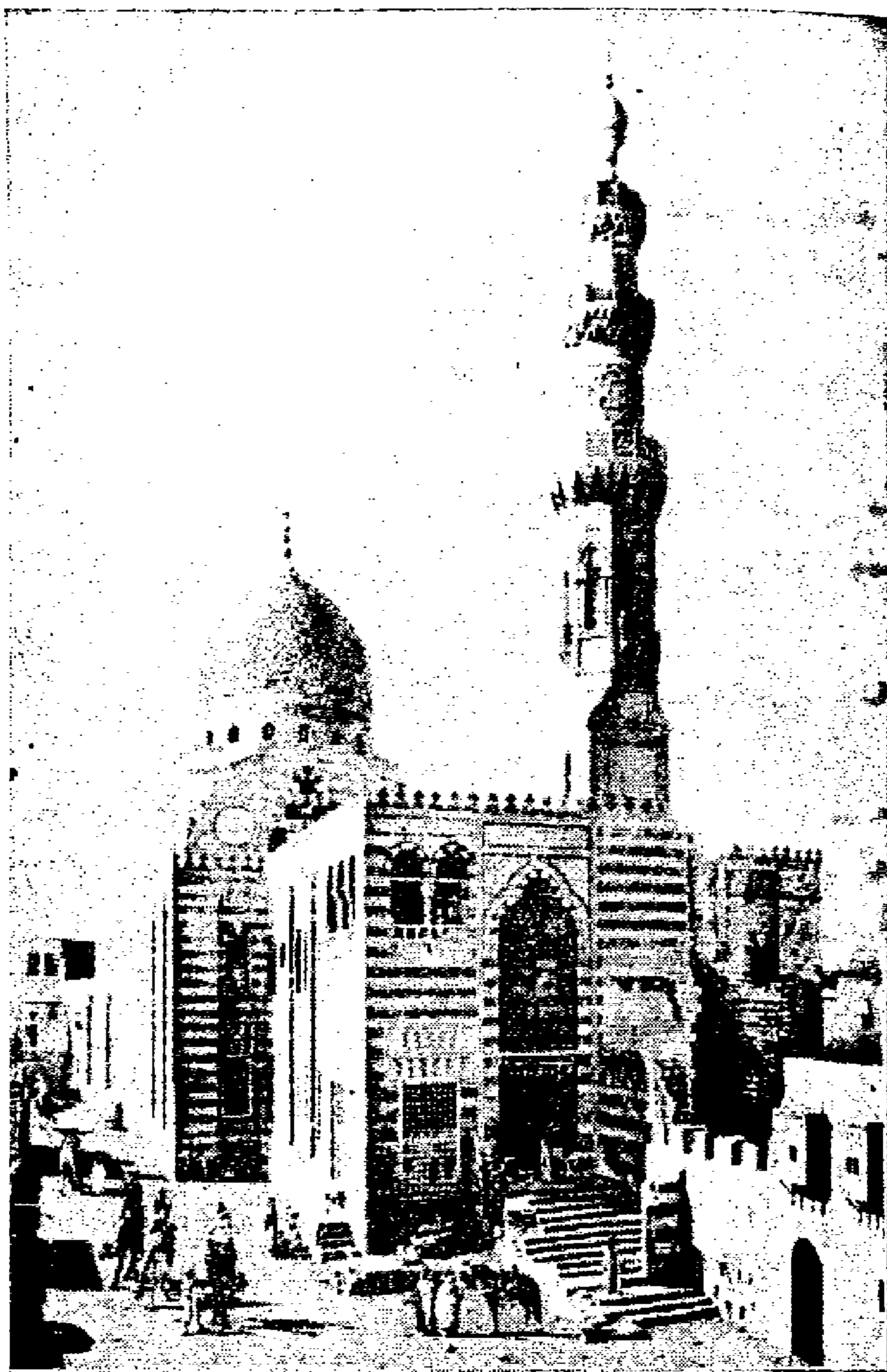
هنا يحس المصرى حاجته العميقة إلى العلم والإيمان ، يعبر عنهما بجيش يحمى أرض الوطن ومنجزاته ، وإلى عقيدة عميقة تحمى روحه .

وإذا عدنا إلى تاريخنا وجدنا هذا الترابط بين إنشاء المعابد الكبرى وخوض المعارك الكبرى دفاعاً عن الحياة وكرامة الحياة :

فى مصر القديمة عندما غزا الهكسوس مصر وتراجعت العاصمة إلى ثنية قنا عبر المصرى عن عقيدته بمعابد ضخمة تصور مشاهد الحياة الدنيا والآخرة فى نسق متصل . وتستطيع أن تراها — أوضح ما تراها — فى معابد الكرنك ووادى الملوك وما وراء ذلك جنوباً حتى أبو سمبل ، والآثار متصلة بعد هذا إلى قلب إفريقية وإن بعد بنا تتبعها عن مسار الحديث الذى نحن بسبيله ، وقد نعود إليه فى حديث لاحق .

وعندما دخلت المسيحية مصر ، تبلور الدفاع عن الوجود المصرى فى الدفاع عن العقيدة المسيحية ، وشدد الرومان النكير على من يقولون بالعقيدة المونوفيزية وتوحد اللاهوت والناسوت . ورفض المصريون التدخل الرومانى فى عقيدتهم ، وبرز هذا الرفض صبراً واستشهاداً وأديرة تحتمى بها العقيدة وتنطلق منها مقاومة الاضطهاد .

وعندما جاء الإسلام مصر ليحررها من الطغيان الرومانى فتح الباب رحباً أمام السماحة الدينية والإخاء الشامل . ونستطيع أن نربط تاريخياً بين الضغوط التى تعرضت لها بلادنا فى غارات الصليبيين والتتار ، وبين مجموعة المساجد الكبرى التى تركها لنا العهد الأيوبى ، والعهد المملوكى : مساجد ارتبطت بمعركة المصير وقتئذ . وكانت بما فيها من فن وشموخ تعبيراً صامداً عن شعب صامد يحارب بيد ويبنى بيد .



مسجد قايتباى

فى مجتمعنا المعاصر :

وأنت واجد هذه الظاهرة فى مجتمعنا المعاصر .

فبعد هزيمة يونية (حزيران) ١٩٦٧ اتجهت عنايتنا إلى إعادة بناء قواتنا المسلحة ودعم القاعدة الشعبية الاقتصادية التى تستطيع أن تمد الجبهة بالرجال والسلاح .

وفى الوقت نفسه ترى تسابقاً إلى بناء المساجد بالحلول الذاتية فى سرعة وفاعلية تفوق الجهود الحكومية نفسها .

وإذا كان عدد المساجد فى جمهوريتنا الآن يقرب من عشرين ألفاً ، فإن أقل من أربعة آلاف منها تتبع وزارة الأوقاف تبعية مباشرة . والنسبة بهذا ١ : ٤ .

والتمييز بين مساجد الوزارة والمساجد الأهلية باعتبارها حلولا ذاتية ، لا مجال له ، لأن وزارة الأوقاف لاتزيد عن كونها « حلا ذاتياً » :

فى النظام الحكومى لأية دولة ، لا بد من قيام وزارة للداخلية والخارجية والخزانة . . ولكن لا يمكن أن تقوم وزارة للأوقاف إلا إذا أوقف أهل الخير من أموالهم ــ جيلا بعد جيل ــ ما تجد الدولة نفسها أمام مسئولية تنظيمه وإيجاد كيان إدارى مسئول عنه .

لماذا المساجد ؟

وكنت أسمع من بعض الأصدقاء تعليقات :

ــ لماذا لا تنفق هذه الأموال على أمر غير بناء المساجد ؟ والدين يسر ، ويمكن أن يصلى الإنسان فى أى مكان ؟

وعندما عدت إلى تاريخنا أسائله فى عصوره الفرعونية والمسيحية والإسلامية وجدت هذا الترابط بين بناء القوات المسلحة وبناء دور العبادة

ترابطاً أشرت إلى بعض مشاهده فى صدر هذا الحديث .

والمسجد من حيث وظيفته « جامع » . .

ولم يعرف الإسلام المسجد الوحيد الوظيفة إلا فى عهد ضعفه . . فى حين أنه فى عهود ازدهار الإسلام كان المسجد « جامعاً » لعدة وظائف :

كانت فيه وإلى جواره المدارس ومساكن طلاب العلم والأساتذة والمستشفيات والرعاية الاجتماعية وسبل المياه ومكاتب حفظ القرآن الكريم .

ولعل من أبرز النماذج بين أيدينا الجامع الأزهر ومجموعة قلاوون ومسجد السلطان حسن وبرقوق .

تأملات فى المسجد :

وكنت وما زلت أحب الاعتكاف وحيداً فى بيوت الله بعض الوقت ، أو أدير حواراً فيه مع صديق ، اقرأ معه المسجد كأنه كتاب مفتوح . وزاد هذا الإحساس فى نفسى بعد هزيمة يونية ١٩٦٧ .

وكنت أحاول أن أتلمس مظاهر هذا الترابط بين المسجد كهندسة معمارية ، والإقبال على بنائه، والعمل من أجل معركة المصير بما تحتاج إليه من قيم وأخلاقيات .

وأنت إذا تأملت المسجد وجدته جهداً اشترك فيه عدد ضخم من الفنانين الذين يعملون بمواد متعددة : الحجر ، الرخام ، الحديد ، النحاس ، الخشب ، الجص ، ويستخدمون مجموعة كبيرة من الألوان ، ويعالجون ذلك كله بآلات متعددة ، ليكون المسجد بعد هذا وحدة فنية متكاملة تعبر بصور متعددة عن العقيدة الواحدة . ولنأخذ نماذج من ذلك:

المئذنة :

إذا ما نظرت إلى المئذنة . . ولتكن مئذنة مسجد قايتباى ، فستقف فيها عند عدة ملاحظات :

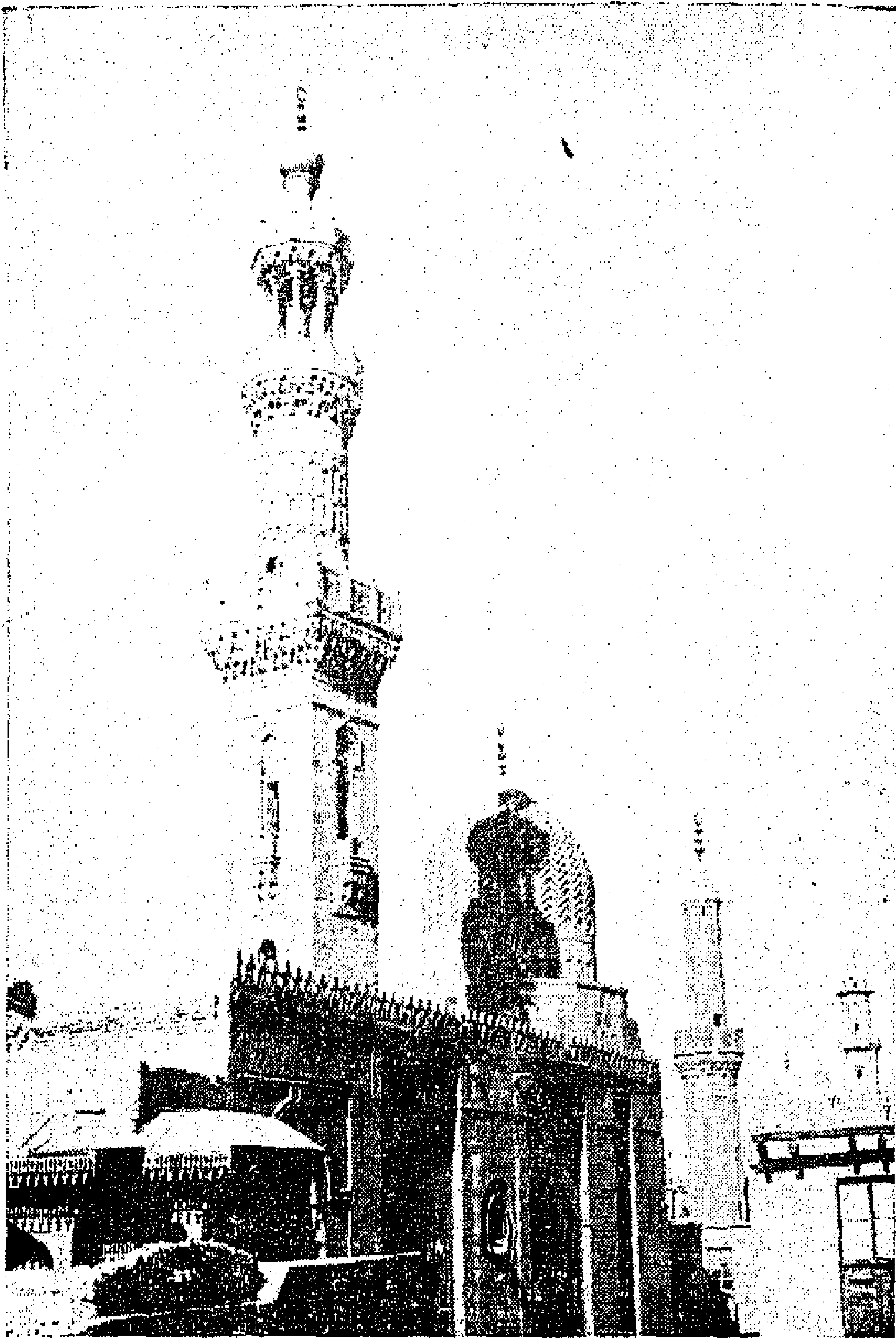
١ ــ أنها أولا نابعة من بناء المسجد نبعاً عضوياً كأنها ذراع ممتدة داعية ، أو شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

٢ ــ وهى تبدأ بقاعدة مربعة ، تربيع المسجد نفسه ، وتتحول القاعدة فى تدرج إلى مثمن فإلى دائرة . وفوق هذا تتحول الدائرة إلى أعمدة . . أعمدة رشيقة يخالط البناء فيها الفضاء . وفوقها خوذة المئذنة كأنها كرة طائرة مرفوعة على عمد . وينتهى هذا بهلال صغير هو رمز السماء كأنه معلق فيها .

٣ ــ هذا الانتقال من حجم المسجد الراسخ ، إلى تدرج المئذنة ، يسحب نظرك فى رفق من الأرض إلى السماء . من المادة إلى الروح . من كثافة الأرض إلى رقة السماء وشفافيتها . ويرتبط به تقسيم المئذنة نفسها . إنه تقسيم متدرج تأخذ الأطوال فيه فى الصغر كلما اقتربت من قمة المئذنة . ولو كان تقسيم الأجزاء متساوياً لكانت حركة العين صاعدة هابطة فيه . ولكن التقسيم المتدرج يسحب النظر من أطول الأجزاء إلى أقصرها . . من الأرض إلى السماء .

٤ ــ ويرتبط هذا أيضاً بحجوم الأجزاء وأبعادها . المربع الأدنى للمئذنة هو أكبر الأجزاء قطراً . ويليه المثمن ثم الدائرة ثم الأعمدة ثم الخوذة والهلال . كل هذا التناغم يستهدف أمراً أساسياً : أن يحرك عينيك من الأرض إلى السماء فى رفق . وكأن الأعمدة فى أعلى المئذنة أصابع يد داعية متجهة إلى الله تبارك وتعالى .

هل هذه المئذنة هى صورة رمزية لليد الداعية ؟



مئذنة وقبة مدرسة الأشرفية

وهل ارتباطها بالمسجد هو ارتباط اليد بالجسم ؟

وهل تقسيمها هو « المفاصل » التى تربط اليد ، بأصابعها ، بالجسم فى حركة الدعاء ؟

الشرفات :

ويتكامل هذا التناغم المعمارى مع شرفات المسجد ، هذه الوحدات الصغيرة التى تزين الأجزاء العليا من جدرانه .

ماذا تحس به وأنت تنظر إليها ؟

أنت تحس أن الفنان الإسلامى لم يختم بناء المسجد بخط صارم يفصل بين الأرض والسماء .

فخط السماء — كما نسميه فنيًّا — خط مزخرف كأنه حديقة ، ولكنه يمتاز عن الحديقة بأن الفراغ بين الشرفات فراغ زخرفى .

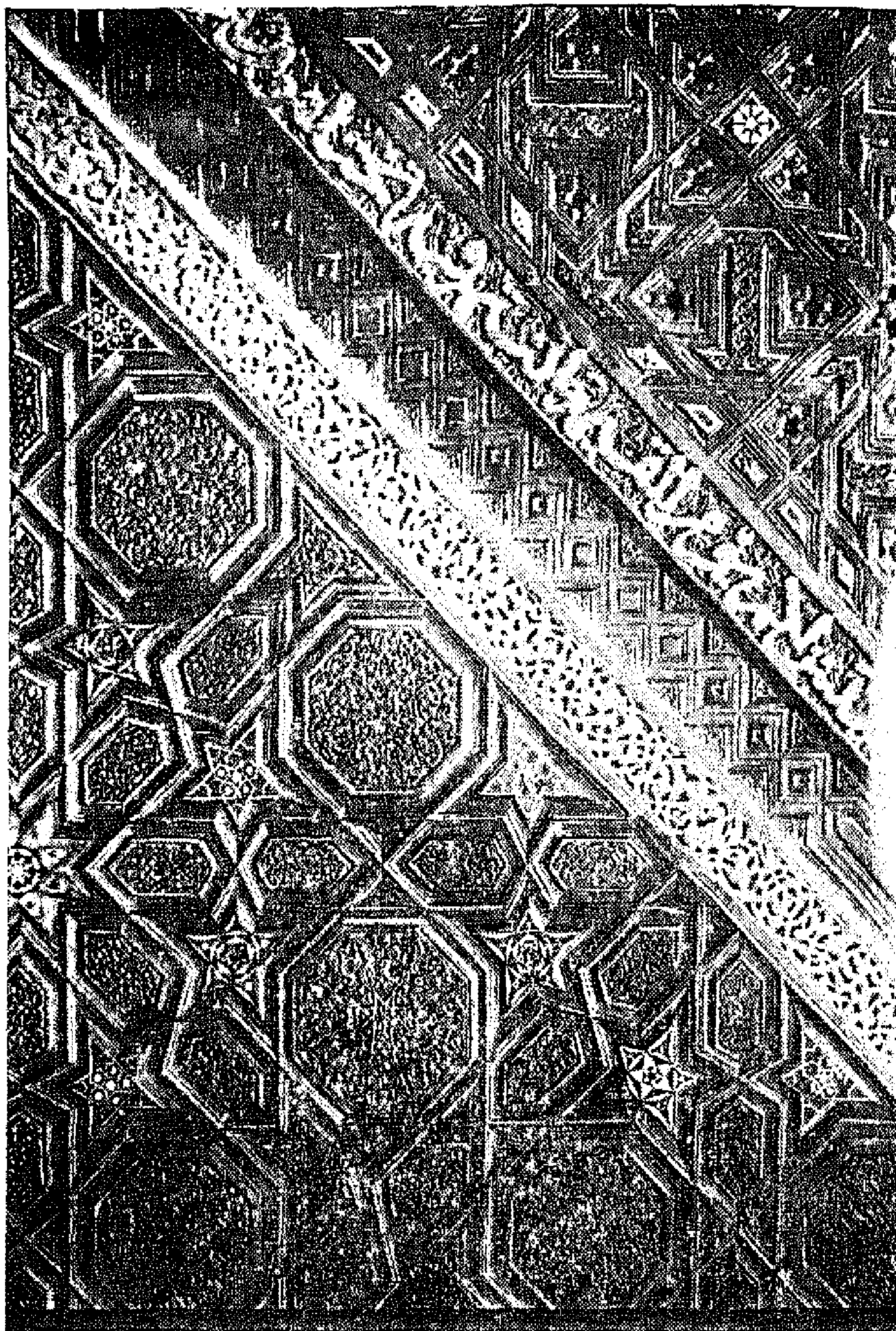
الفنان المسلم يتحرّى فى الفضاء نفسه أن يكون زخرفيًّا . فحركة عينيك إذا صعدت من الأرض إلى السماء ، ستنتهى بزخرف تختلط فيه السماء بالفضاء ثم ينطلق بعد هذا إلى السماء . وفى حركة عينيك أيضاً من الفضاء ستنتهى إلى فضاء محدود زخرفى بين الشرفات — أو عرائس السماء كما تسمى أحياناً — ثم ينساب نظرك بعد هذا إلى المسجد .

ولك أن تقول إن الشرفات والمئذنة تتعاون جميعاً فى الربط بين الأرض والسماء ، والتوافق بينهما فى حركة رقيقة متدرجة .

القانون والجمال والتماسك :

ولننتقل الآن إلى مراحل المسجد نتأمل بعض ما فيه .

سنقف عند المنبر . وهذه الأطباق النجمية على جوانبه . سنرى هذه



تفاصيل من منبر المسجد الأقصى

الزخارف الهندسية الدقيقة بقوانينها الصارمة : مثلثات . مربعات . مخمسات . مسدسات . . أشكال تتعدد أضلاعها . وتخرج من شكل لتدخل فى شكل آخر . والخط مع تكسره وزواياه الحادة والقائمة والمنفرجة تحس به ممتداً جميلا .

– ما هذه القوانين الهندسية الدقيقة التى تحكم العمل ؟

– وما هذا الجمال الذى يبدو به العمل بعد تمامه ؟ جمال تبدو به قواعده الهندسية كأنها ذابت فى التعبير المؤمن الذى أراده الفنان .

ولنسائل أنفسنا : ماذا نريد فى الحياة أروع من هذا :

١ – دقة فى القانون . .

٢ – جمال فى الأداء . .

٣ – تماسك بين الأجزاء . .

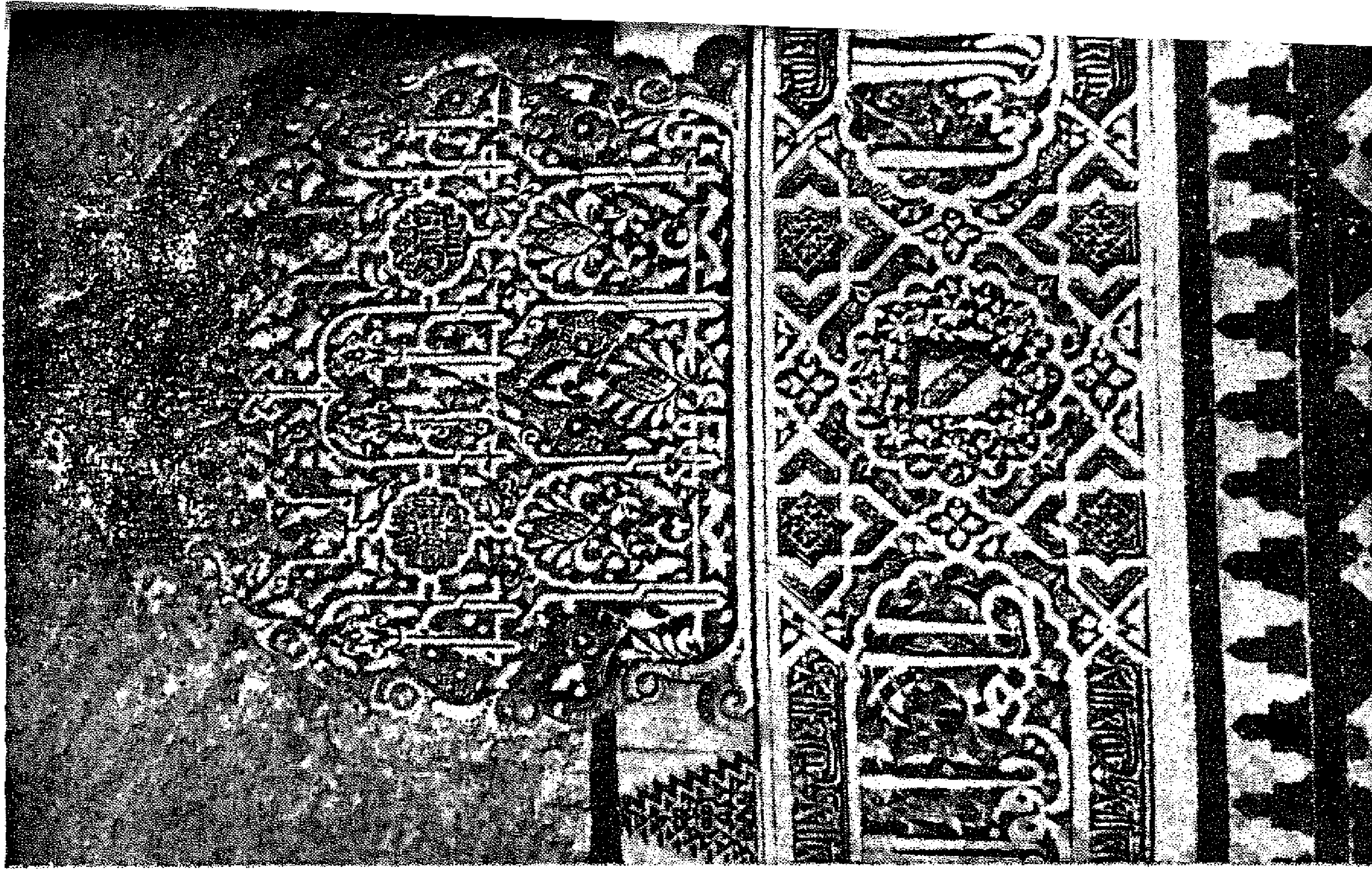
وهل اكتفى الفنان الإسلامى بأن يجعل من المنبر مكاناً يلقى من فوقه الخطيب عظاته . . أو صوّر بفنه على جوانب المنبر عظته الدائمة ؟ وإذا بأذنك تسمع عظة الخطيب ، وبعينيك ترى عظة الفنان على جوانب المنبر . وهل هناك من فارق فى المضمون بين العظة الناطقة والفن المبدع وصفوف الصلاة فى دقتها وجمالها وتماسكها ؟

الجزء والكل :

ولننظر بعد هذا إلى الزخارف الرخامية التى تزين أرض المسجد ، وإلى طبيعة الزخرفة الإسلامية فى التكرار .

سترى الجزء الصغير ، إذا نظرت إليه وحده ، جميلا .. وهو يتكامل مع الأجزاء الأخرى . وسترى الكل جميلا ، وله وحدة وتكامل فى الوقت نفسه .

وتنتقل عيناك من الجزء إلى الكل . ومن النظرة الشاملة إلى النظرة



كتابة كوفية ذات خلفية من الزخارف النباتية من غرناطة
« لا غالب إلا الله »

المستأنية المتأملة فى الأجزاء الصغيرة مرة أخرى ، وفى ترابط هذا كله .

سترى وضوح شخصية الجزء الصغير . ووضوح الشخصية المتكاملة.. وتماسك الجزء فى الكل .

وأنت هنا ــ فنياً ــ أمام المجتمع الإسلامى الذى يرعى الصغير والكبير ، ويحتفظ بموقف متزن بين شخصية الفرد وشخصية المجتمع . .

وتستطيع أن تتابع دراستنا لمعانى المحدود والمطلق ، والرخيص الذى يتحول إلى نفيس ، حين تمتد إليه اليد المفكرة الصناع . . فتجعل من قطع الخشب الصغيرة وحطام الرخام تحفاً فنية رائعة . .

كثيرة هى الدروس التى تسمعها من المسجد فى صمته ، وتقرؤها على حوائطه وفى محرابه وأرضه .

وكثيرة هى الوظائف التى تستطيع أن تؤديها المساجد للمجتمع . وتشتد إليها الحاجة إذا ما كان المجتمع على معبر وعر بين واقعه وآمال غده . . .

هنا نجد التلاقى بين المحراب والميدان . . بين المنبر وأبراج المراقبة والمرابطة على الحدود . بين صوت المؤذن وصوت المعركة . بين كلمة السلام تشيع فى جو المسجد، ونداء السلام القائم على العدل، وهو هدف كبير نسعى إليه .

بهذا يصبح المجتمع مسجداً كبيراً ، والمسجد « جامعاً » لوظائف كثيرة :

وبعد ؛ ففى القرآن الكريم كثيراً ما يقرن ربنا تبارك وتعالى بين نزول الوحى من السماء ونزول المطر : هذا يحيى الأرض بعد موتها ، وهذا تحيا به القلوب . .

ومن بيت الله يشرق نور الإيمان، وعلينا أن نترجمه عملياً إلى واجبات فى حياتنا اليومية تزكو بها الحياة كما يزكو النبات بماء السماء .

فليكن إيماننا عملا ، وعملنا مؤمناً ، لنقيم « مجتمع العلم والإيمان » على هدى وبصيرة .

داعياً الله أن يبارك جهودنا حتى نحرر أرضنا المغتصبة وأوطاننا السليبة ، ونعيد السلام إلى أرض السلام .

الفصل الثامن

أمام لجنة الدستور المصرى
١٩٧١

ألقيت هذه الكلمة أمام لجنة الاستماع المشكلة برياسة السيد رئيس مجلس الشعب فى ١٩٧١/٦/١٢ فى قاعة مجلس الشيوخ . القاهرة

السيد رئيس مجلس الشعب

أيها الإخوة الأعضاء

أشكر لكم أن أتحتم لى هذه الفرصة لأتحدث إليكم حديثاً يتصل أساساً بالمقومات الأساسية للمجتمع مع تركيز على جانب الإيمان والأخلاقيات التى دعا إليها السيد الرئيس محمد أنور السادات .

وحينما كنت أعدّ ذهنى لهذا الموضوع رجعت إلى الموسوعة العربية للدساتير العالمية ، التى تفضل مجلس الشعب بتوزيعها . رجعت بصفة خاصة إلى دستورى سنة ١٩٥٦ و ١٩٦٤ فوجدت فيهما النص على أن الإسلام دين الدولة ، واللغة العربية لغتها الرسمية ، وأن السيادة للشعب ، كما وجدت النص على حرمة البيوت وحرية الاعتقاد والرأى والبحث العلمى ، وأن المصريين لدى القانون سواء ، وأن وحدتنا الوطنية التى يصنعها تحالف قوى الشعب العامل هى التى تقيم الاتحاد الاشتراكى العربى ، ليكون السلطة الممثلة للشعب ، الدافعة لإمكانيات الثورة ، والحارسة على قيم الديمقراطية السليمة ، ووجدت تأكيداً لنظامنا الاشتراكى بدعامتيه من الكفاية والعدل .

وتذكرت ما كان من قيام مراكز القوى ، قيامها بعد قوانين يولية الاشتراكية سنة ١٩٦١ ، وقيامها بعد هزيمة يونية سنة ١٩٦٧ ، واندفاعها المحموم بعد رحيل القائد المعلم جمال عبد الناصر ، تحاول أن تصوغ من أحزاننا ، ثم من صبرنا ووفائنا وصمودنا ، أسلحة لا توجهها إلى عدونا ، وإنما إلى صدورنا ، وأجهزة استماع تقتحم علينا

سرائرنا وبيوتنا ، مما تذكرت به مع فارق فى الهدف والوسيلة قول الشريف الرضى (١) :

فلتدخلنّ عليه قبّتــه ولّاجةٌ تخفى على الرَّصَدِ
وهواجمٌ يَدْفَعْن كُلَّ يَدِ ونَوَافذٌ يهزَأن بالزَّرَدِ

نعم . . دخلت علينا بيوتنا أجهزة استماع ولاّجة تخفى على الرصد ، وهواجم تحت ستار الثقة والأمن تدفع كل يد ، ونوافذ تهزأ بالزرد والحَرَس الشديد ، وتقتحم الأسوار والأسرار والمخادع .

كل هذا ، ونصوص الدستور بين أيدينا ، وآيات الله تتلى بيننا :

(يَـٰأَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا . أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ، فَكَرِهْتُمُوهُ ، وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)(٢) . . .

وقوله تعالى : (يَـٰأَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)(٣) .

بل إن القرآن الكريم ليسجل قول الله تعالى فى الأعماق التاريخية

---

(١) ديوان الشريف الرضى (١ : ٣٩٧) ط . بيروت ، ١٩٦١ .
(٢) سورة الحجرات : ١٢ .
(٣) سورة الأنفال : ٢٧ .

لأخلاقنا وعقائدنا فيقول : (إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ)(١) .

العبرة إذن ليست فى صياغة المواد ، ووضع النصوص ، إنما العبرة فى التطبيق ودعم الصلة — ما استطعنا — بين مواد الدستور والقوانين والممارسة اليومية .

ومن أجل ذلك فإنى أقترح أن ينص فى الدستور على هذا الترابط العضوى الوثيق — بل المتكامل — بين الدستور والقوانين والممارسة اليومية على المستوى الشعبى والسياسى والحكومى ، بحيث لا تأتى الممارسة — مهما كان مصدرها — على النصوص تنقصها من أطرافها ، فلا تبقى منها عملياً إلا لوحة جميلة للحرية تختفى وراءها أجهزة استماع إلكترونية .

ولعل فيما حدث أن يكون ختاماً لمرحلة يتحتم معها القضاء على مراكز القوى ، وإيذاناً بميلاد فجر جديد ، تنسج أمتنا بالعلم والإيمان صفحته المشرقة وتعيش ، كما قال السيد الرئيس محمد أنور السادات ، أسرة واحدة .

قد يكون الاتجاه الغالب أن تصاغ نصوص الدستور جامعة مانعة ، تتماسك موادها حتى تصبح كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، ويحول بين أمتنا المؤمنة وتكوين مراكز القوى ، فإذا ما جاءوا دستورنا ما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً .

ولكنى أومن أن حياطة الشعب لدستوره باعتباره تجسيداً لصورة حياتنا ، فى أعماقنا الوطنية ، وحاضرنا المناضل ، ومستقبلنا الذى نحلق نحوه بجناحين من العلم والإيمان — أومن أن هذه الحياطة أقوى من المواد نفسها ومن نصوص الدستور .

---

(١) سورة الأعلى : ١٨ ، ١٩ .

وقد رأى مجتمعنا المؤمن نفسه فى مرآة ذاته يومى ٩ و ١٠ يونية سنة ١٩٦٧ ثم يومى ١٤ و ١٥ مايو سنة ١٩٧١ ، رأى نفسه شامخاً فوق الهزيمة العسكرية مرة ، والتآمر الداخلى مرة ، مقابلا عداوات فرضها عليه الاستعمار العالمى والصهيونية والعدوان الإسرائيلى ، وعداوات فرضتها المطامع وشهوات السيطرة ومراكز القوى . . .

ولقد أجرى شعبنا جراحته لنفسه ، وما أقسى أن يجرى الإنسان لنفسه جراحة مرة بعد مرة ، أجراها وهو فى ميدان القتال ، ولكن سرعان ما نبتت مكان الأجزاء المبتورة أجزاء جديدة خضراء نضرة نقية فى طهارة الندى واستقامة الشعاع .

وبدا شعبنا المؤمن المتجدد دائماً ، الصامد دائماً ، برغم المكايد والجراح والآلام ، كأنه كلمة الحق ، كلمة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

وأسائل نفسى : ما العاصم الأكبر الذى عصم أمتنا ؟ أكان نصوصاً مكتوبة أم روحاً دافعة دافقة ؟

إن كل مواطن فى أمتنا هو الإجابة الحية المستمرة عن هذا السؤال . .

المواطن الذى يحمل ميراثاً حضارياً ، أصيلا ، مستمراً ، متجدداً ، والذى تعود الصعود فوق نكساته إلى آفاق آماله ، محدداً رؤيته وموقفه ، متخذاً إلى غده سبيلا .

وإلى هذه الروح المبصرة المؤمنة ينبغى أن تتجه عنايتنا حماية ورعاية ، وتأصيلا وازدهاراً على مستوى تكوين الفرد والأسرة والمجتمع ، فى المدرسة والحقل ، والمصنع والجامعة ، ومنتديات الشباب ، وميادين القتال .

السيد/ رئيس مجلس الشعب

حضرات الإخوة

فى هذا الصدد أقترح تعديلات وإضافات فى بعض المواد المتصلة بالمبادئ العامة بمقومات المجتمع والأخلاقيات التى أوصى بها الرئيس محمد أنور السادات كنماذج لخطنا الفكرى بعد تصحيح ١٤ و ١٥ مايو ، هذا بالإضافة إلى ما جاء بدستور سنة ١٩٦٤ .

١ ــ العلم والإيمان والتضامن الاجتماعى أساس المجتمع المصرى .

٢ ــ الرعاية الأخلاقية حق للمصريين جميعاً تكفلها الدولة بالتربية والأسوة الحسنة .

٣ ــ القرآن الكريم ، وقد جاء مصدقاً لكل الأنبياء والمرسلين ، هو المصدر الأساسى للأخلاق فى مجتمعنا المصرى ، وحياة الأنبياء فيه هى المثل العليا للحياة الإنسانية .

٤ ــ ترعى الدولة التراث المصرى والعربى والإسلامى ، وتساهم فى صيانة التراث الإنسانى فى أبعاده الزمانية والمكانية .

٥ ــ الشريعة الإسلامية هى المصدر الأساسى للتشريع .

٦ ــ الأخلاق أساس فى تقييم العاملين مصداقاً لقول الله تعالى :

(إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)(١) .

٧ ــ الوحدة الوطنية مصدر أساسى لحركة مجتمعنا على أساس من الوحدة والسماحة .

٨ ــ المجتمع المصرى أسرة كبيرة تعيش فى ظلها الأسر الصغيرة فى حب ومرحمة .

٩ ــ رعاية الوالدين والإحسان إليهما واجب إنسانى وقومى ودينى .

---

(١) سورة القصص : ٢٦ .

١٠ - الكفاية العلمية والأخلاقية أساس فى التقويم لتولى المسئوليات القيادية .

ولقد كرم الله العلم والإيمان فى كتابه عندما تحدث عن خاتم الأنبياء والمرسلين قائلا : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً)(١) .

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)(٢) .

السيد الرئيس

حضرات الإخوة

ما طبيعة الإيمان والأخلاق التى نريدها ؟

هذا الخلق له من حيث الطبيعة ثلاثة أبعاد رئيسية :

(ا) أن يحدد المستوى الذى يتم به فى أى عمل . .

(ب) أن يدفع الفرد والمجتمع إلى أهدافه . .

(جـ) أن يحول دون الانحراف .

ومن ناحية مصادره له أيضاً ثلاثة أبعاد هى :

١ - مصدر له عمق زمنى يشمل الجهد الصالح فى تاريخ الإنسانية كلها ، وفى مقدمتها جهود الأنبياء والمرسلين (وكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِى هَٰذِهِ الْحَقُّ ومَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)(٣) .

---

(١) سورة طه : ١١٤ .

(٢) سورة القلم : ٤ .

(٣) سورة هود : ١٢٠ .

٢ — مصدر له بُعْدٌ مكانى لا يقتصر على أمة واحدة ، بل يشمل آفاق الأرض جميعها . وفى القرآن نجد النماذج الكثيرة القائمة فوق أرضنا وغير أرضنا ، ونماذج تسعى إلى مطلع الشمس ومغربها ، بل إن هذه النماذج تتطلب أن تتلمذ الإنسانية عليها ولو أمضت حياتها فى سبيل البحث عنها كما رأينا فى قصة موسى والعبد الصالح .

٣ — مصدر ثالث نستطيع أن نسميه البعد الموضوعى أو التكامل الموضوعى ، ذلك لأن هذه الأخلاق لا تقتصر على ناحية واحدة بل تشمل جوانب حياتنا المختلفة : وعلى سبيل المثال

نراه فى قصة شعيب اقتصاداً وعدلا . . .

ونراه فى قصة يوسف عفة وتخطيطاً علمياً . .

ونراه فى قصة عيسى دعوة إلى المحبة والمودة . .

ونراه صراعاً فى قصة موسى ، صراعاً مع عداوات داخلية فى بنى إسرائيل . .

ونراه فى قصة نوح مسيرة بالإنسان تفصل بين عهد وعهد . .

ونراه فى قصة إبراهيم حواراً عقلياً حول مصدر الإيمان وعملا متصلا فى أكثر من جهة : فى العراق والشام ومصر والحجاز . .

ونراه عند داود ترتيلا وتسبيحاً . .

ونراه عند أيوب صبراً . .

ونراه عند محمد صلى الله عليه وسلم بناء متكاملا لمجتمع جديد يبنى والوحى ينزل . بناء يضم مرافق الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . كافة .

هذا مع جمع الإنسانية كلها إيماناً بكل نبى ورسول ، وإخاء يتمثل فى دعاء الرسول عقب صلواته : « اللهم إنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت وأن العباد كلهم إخوة » .

إن مهمة الرسول الأعظم يحددها قول الله سبحانه وتعالى :

(يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) (١) .

السيد الرئيس

حضرات الإخوة

ما هي حياتنا الجديدة التي يحددها الدستور ؟

إنها رغيف خبزنا ، وكساء أجسادنا ، والدفء في شتائنا ، والعمل في مصانعنا وحقولنا ، والعلم في معاهدنا وفكرنا ، والسلاح القادر لجيشنا ، والكفاية والعدل ثماراً لاشتراكيتنا .

إنها الايمان العميق في قلوبنا ، والصلاة والقرآن في مساجدنا ، والسماحة والأخوة في ديننا ، والوحدة الوطنية في مجتمعنا ، والكلمة الشريفة على شفاهنا ، والأخلاق الكريمة في حياتنا ، والأمن والأمان في بيوتنا .

إنها البسمة على فم الشيخ حين يطرق باب الشيخوخة هادئاً مبتسماً كأنما يدخل حديقة الوفاء ، والنظرة الآمنة في عين الطفل والأم بدون فزع من طارق الليل ينتزع الأب عدواناً وظلماً .

إنها روح الأسرة التي نادى بها الرئيس محمد أنور السادات تجمع الأمة حاكماً ومحكوماً ، فتصبح كما تعلمنا من رسول الإنسانية عليه الصلاة والسلام كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

إنها الحركة الواعية نحو مستقبل نستعيد فيه أرضنا ومقدساتنا وحقوق شعب فلسطين ، ننطلق من قاعدة شعبية صلبة ووحدة وطنية ، ننطلق

---

(١) سورة الأعراف : ١٥٧ .

علماء فى عصر العلم ، مؤمنين كما عشنا دائماً ، باسطين اليد بالأخوة والسلام لكل محب للتقدم والسلام ، مدافعين بالسلاح عن حق لا نصل إليه إلا بالسلاح .

السيد رئيس مجلس الشعب

أيها الإخوة

رعى الله أمتنا فى مواقع البناء والنضال ، وأعاننا على إقامة دستورنا وحياتنا على العلم والإيمان .

(رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا)[1] .

---

(١) سورة الكهف : ١٠

الفصل التاسع

مناسَبات إسلاميّة

نصف شعبان فى الدين والحياة *

يرتبط النصف من شعبان فى حياتنا الإسلامية بتحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام فى السنة الثانية للهجرة ، قبل غزوة بدر الكبرى . وكان هذا التحويل هزة فكرية عميقة فى مجتمع المدينة ، ترددت أصداؤها بين كل قوى المجتمع : المسلمين والمشركين واليهود والمنافقين .

ولكى تتضح الصورة أمامنا ينبغى أن نضعها فى سياقها التاريخى :

مكانة البيت الحرام فى نفوس المسلمين عميقة أصيلة . هو أول بيت وضع للناس . رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل . واستجابا لأمر الله « أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » .

يقول عليه الصلاة والسلام وهو فى طريق هجرته مناجياً مكة : « إنى لأعلم أنك أحب البلاد إلى ، وأنك أحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن المشركين أخرجونى منك ما خرجت » (معجم البلدان لياقوت ٥ : ١٨٣) .

كانوا يذكرون مكة فى أسمارهم ، ويذكرونها إذا ما اشتد بهم المرض حتى تسيل الدموع حنيناً إلى البيت العتيق .

ويأتى الأمر الإلهى بالتوجه إلى بيت المقدس فى الصلاة .

الكعبة الحبيبة فى قلوبهم . . ولكنهم لا يستقبلونها فى الصلاة .

وبيت المقدس قبلتهم فى حين يقاسون المؤامرات المتوالية ممن يتجهون إليه فى صلاتهم ، وهم يهود المدينة . أما النصارى فيتجهون إلى المشرق .

وتتضح صورة هذا التوتر النفسى إذا ما رجعنا إلى صدر سورة البقرة وهى أولى سور القرآن نزولا فى المدينة :

فهى تبدأ بعرض صنوف الناس أمام الإسلام : المؤمنين والكافرين

* الأهرام ١٨ من شعبان ١٣٩١ هـ = ٨/١٠/١٩٧١م .

والمنافقين . وتنتقل إلى عرض موجز لبدء الخليقة . ثم للمجتمع اليهودى فى تفصيل عميق ، وتقلبه بين الإيمان والكفر ، وإطاعة الأنبياء وقتلهم ، وفضل الله عليهم وعقوقهم ، وأساليبهم فى الحرب والسلم .

كل هذه المعلومات من الوحى ومن الحياة اليومية ، كانت أمام المسلمين وفى قلوبهم وفكرهم . .

ومع هذا كله يتجهون إلى بيت المقدس فى الصلاة . هذا والاستعداد العسكرى مستمر ، وسرايا الرسول عليه الصلاة والسلام وغزواته تجوب مسرح العمليات المنتظر : من ساحل البحر الأحمر إلى ما وراء مكة جنوباً بشرق طريق الطائف .

فمع التعبئة الفكرية والتنظيم السياسى لأوضاع المدينة الداخلية وما فيها من أحلاف ، ودعم الجبهة الداخلية وصيانتها من مكايد المنافقين واليهود — مع هذا كله كان فى القلب حنين إلى البيت الحرام واتجاه فى الصلاة إلى بيت المقدس .

واتخذ اليهود من هذا الموقف المتناقض — من وجهة نظرهم — مادة حديث .

لقد بدأ المسلمون أولا بالاتجاه نحو الكعبة . ثم اتجهوا إلى البيت المقدس (تفسير الطبرى ٣ : ١٣٩ ط . دار المعارف) .

وقال اليهود عن الرسول (عليه السلام) : يتبع قبلتنا ويخالفنا فى ديننا (تفسير الطبرى ٣ : ١٧٣) .

والمنافقون والمشركون ينفخون معهم فى كير الفتنة .

تحويل القبلة :

وتتصاعد أحداث المدينة سياسيًا وعسكريًا وفكريًا فى الشهور الستة عشرة أو السبعة عشرة الأولى بعد الهجرة . ويقلب الرسول نظره فى السماء . وموضوع القبلة له حساسيته ومكانته .

ويأتى أمر الله بتحويل القبلة . .

ويدلنا السياق القرآنى على أن القضية كانت ساخنة عنيفة فى المدينة . .

فبعد أن ذكر الله تعالى آيات عن وحدة الإيمان بين الأنبياء جميعاً ، انتقلت الآيات الكريمة إلى الرد على الذين أثاروا الفتنة . وذلك قبل أن تذكر الآيات الأمر بتحويل القبلة . .

ونحن نقرأ قوله تعالى : « سيقول السفهاء من الناس ، ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ قل لله المشرق والمغرب . يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » (البقرة ، ١٤٢) .

ونعود إلى كتب التفسير لنرى صورة من هذا الحوار الفكرى، أو إن شئت اصطلاحاً حديثاً « الحرب النفسية » ، فى مجتمع المدينة حول قضية تحويل القبلة :

حوار ومحنة :

يقول الطبرى فى تفسيره (٣:١٥٦) : « إن محنة الله أصحاب رسوله فى القبلة ، إنما كانت — فيما تظاهرت به الأخبار — عند التحويل من بيت المقدس إلى الكعبة ، حتى ارتد فيما ذكر — رجال ممن كان قد أسلم واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأظهر كثير من المنافقين — من أجل ذلك — نفاقهم : وقالوا : ما بال محمد يحولنا مرة إلى ههنا ومرة إلى ههنا ؟

وقال المسلمون ، فيمن مضى من إخوانهم المسلمين ، وهم يصلون إلى صخرة بيت المقدس : بطلت أعمالنا وأعمالهم وضاعت .

وقال المشركون : تحير محمد فى دينه . فكان ذلك فتنة للناس . وتمحيصاً للمؤمنين » .

كان هذا التحويل على المشهور فى منتصف شعبان ، وإن ذهبت بعض الأخبار إلى أنه كان فى رجب ولها أسانيدها .

وذهب الصحابة إلى الرسول يسألونه عما سلف من صلاتهم إلى بيت المقدس فنزل قول الله : « وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم » (البقرة : ١٤٣) .

أما التحويل فأجاب عنه القرآن فى حسم ووضوح : « لله المشرق والمغرب » :

بيت المقدس لله . والمشرق لله . والبيت الحرام لله .

وإنما هى للمومنين تجربة « إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » (البقرة : ١٤٣) .

وانتهزها اليهود فرصة فقالوا : اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه .

وسرى الأمر إلى مشركى العرب فقالوا : رجع محمد إلى قبلتنا ؛ وسيرجع إلى ديننا (الطبرى ٣ : ٢٠٢) .

ويرد عليهم الحق مثبتاً المؤمنين « فلا تخشوا الناس واخشونى ، ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون » (البقرة : ١٥٠) .

إنه إذن الأمر الإلهى الذى أتى مصدقاً لما يحب الرسول ويرضى « فلنولينك قبله ترضاها » (البقرة : ١٤٤) .

إسلام :

ألسنا نرى فى هذا صورة فيها بعض أوجه الشبه من قصة إبراهيم وإسماعيل « يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك » (الصافات : ١٠٢) .

وأسلم الولد والوالد أمرهما لله طواعية . فلما تحقق إسلام النفس كان فى هذا نجاة الوالد والولد ؟ . .

هذه الكعبة ملء قلوب العرب، والله يأمرهم أن يتحولوا عنها إلى بيت المقدس برغم كل دسائس اليهود ومكايدهم . وقد بدأت قبل الهجرة عندما استعانت بهم قريش فى الحرب الفكرية بينهم وبين المسلمين .

ويمتثل المسلمون لأمر الله . . فلله المشرق والمغرب . . ويتحملون ضغوط الحرب النفسية ضدهم هذه الشهور صابرين مؤمنين . . فإذا ما تحقق فى النفس صدق التوجه إلى الله ، وكمال الإسلام إليه ، استجاب الله لرسوله والمؤمنين « فلنولينك قبلة ترضاها » .

ولقد كان من وراء ذلك هذا الحوار الساخن حول « اضطراب » الفكر الإسلامى ما بين الكعبة وبيت المقدس . . وظهور الدين الجديد بأنه يحول القبلة ههنا مرة وههنا مرة . .

ولكن مع كمال الامتثال كانت الحجة القوية التى — وإن قيدت الإسلام بالاتجاه نحو البيت الحرام — قد أكدت بصورة عملية أن الملك كله لله . . « ولله المشرق والمغرب » .

لقد كان فيها نوع من « الفطام » عن الاتجاه إلى البيت الحرام بعض الوقت امتثالا لأمر الله ، والاتجاه إلى قبلة لم يكونوا يتجهون إليها . . ثم عودة إلى هذه القبلة مرة أخرى . ثم كتب الله لهم مع الفتح أن تعود قبلتهم إليهم وطهروها من الأصنام .

مكانة المسجد الأقصى :

ولكن : هل مس هذا مكانة المسجد الأقصى فى نفوس المسلمين ؟

لقد كرم الله هذا المسجد فى كتابه فقال :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير » .

وإن الله يذكر فى القرآن لفظ « عبد » تمجيداً لرسوله فى أكرم مواقفه : جاء ذكره فى الإسراء والمعراج ، وللدفاع عن صدق النبوة

وعن كتاب الله ، وتمجيداً لرسوله فى الدعوة إليه .

وإن الرسول (ص) ليذكر فى حديثه :

« لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى » .

هو المكان الذى بلغ من قداسته عند المسلمين : أنه فى العام الخامس عشر للهجرة عندما استطاع المسلمون تحرير بيت المقدس ، طلب أهلها أن يكون أول الداخلين إليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وجاء الخليفة من المدينة مستجيباً لهذه الرغبة الكريمة . .

ولنسائل أنفسنا : من الذى يملى الشروط ؟ القائد المنتصر أم أهل المدينة ؟

ولكن مكانة بيت المقدس كانت أكبر فى نفوسهم من أن يبدى أهلها رغبة ثم تضيع وسط أفراح النصر .

وفى يوم التحرير ارتفع صوت بلال لأول مرة مؤذناً بالصلاة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . . ذلك الصوت الإفريقى المؤمن هو الذى أكرمه الله بأن يكون المؤذن الأول فى مسجد المدينة وفوق المسجد الحرام عام الفتح ، وفى القدس الشريف عند تحريره . . فما رئى المسلمون باكين بعد وفاة الرسول كما كانوا فى ذلك اليوم . .

هذه كرامة بيت المقدس عليهم : دخول فى خشوع مع بكاء وحنين إلى أيام النبوة العطرة .

ولم يرض عمر أن يصلى فى كنيسة القيامة لئلا يتخذها المسلمون من بعده مسجداً . . وهو يعلم أن الرسول أذن لنصارى نجران بالصلاة فى مسجد المدينة عندما زاروه فصلوا إلى المشرق (ابن هشام ٢ : ٢٢٤) .

الاستعداد للمعركة :

ومع الاحتفاظ فى القلب بمكانة بيت المقدس ، وإن انصرفت القبلة منه ، والاتجاه إلى البيت الحرام ، وإن كانت الأصنام لم تزل فيه ، والحوار الدائر حول هذا كله فى لقاءات المؤمنين والمنافقين والمشركين واليهود ، فإن العمل السياسى والعسكرى كان يتصاعد باستمرار .

لقد فرض الله الصيام فى رمضان وشرع زكاة الفطر . . وبعد شهر من تحويل القبلة حدث اللقاء المباشر بين المسلمين وقريش فى غزوة بدر فى اليوم السابع عشر من رمضان وانتصر المسلمون (٣١٥) على قوة تزيد على ثلاثة أضعافهم . ولم يكن معهم من الخيل إلا اثنان أمام مائة فى معسكر الأعداء ومن الإبل سبعون مقابل سبعمائة .

وبعد الغزوة بنحو أسبوعين جمعت المؤمنين صلاة العيد : لهم قبلتهم وصلاتهم الجامعة وتضامنهم الاجتماعى بالزكاة وانتصارهم العسكرى فى بدر وأحزانهم النبيلة على من سبق إلى الله من الشهداء . . وتحددت نواح كثيرة من طبيعة المجتمع الإسلامى الجديد .

وانعكس هذا ضيقاً فى نفوسهم بهذه الصورة الجديدة .

– ماذا يفعلون بالربا وهذه الزكاة صورة من الإخاء ؟

– وماذا يفعلون بالفرقة والدس وهذه صفوف الصلاة تضم المسلمين .

– وكيف يستطيلون على المسلمين بالحصون وقد سجلوا هذه الانتصارات ؟ .

وأخذوا فى تحدى النبى (ص) والذين معه وحدث الصراع العسكرى الأول بينهم فى غزوة بنى قينقاع التى طهرت قلب المدينة من مكايدهم وقضت على سيطرتهم على التجارة الداخلية وعلى بعض الحرف الأساسية بما يرتبط بها من علاقات خارجية .

هذه هى ذكرى النصف من شعبان فى إطارها التاريخى ، وموقعها على خريطة الأحداث فى المدينة .

طبيعة الإيمان فى مجتمعنا المعاصر*

فى هذا الحديث لا أود أن أتناول الإيمان من الناحية النظرية فهذه متوافرة بين أيدينا ، يتلقاها الطالب على مقاعد الدرس والمواطن فى المسجد وأجهزة الإعلام . . .

ولكنى أود أن أطرح سؤالا عن الوجه الذى نود أن يبرز به الإيمان فى حياتنا .

ولنعد إلى عصر النبوة لنرى طبيعة الإيمان فيه وصلته بالحياة . .

كان الإيمان « بعثاً » كاملا متوازناً للحياة فى كافة مرافقها ، كان تحطيماً لكل قيد يحول دون انطلاق الحياة نحو غد أفضل . ولنقرأ فى هذا قول الله تعالى مبيناً مهمة الرسول (ص) « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » . . (الأعراف : ١٥٧) .

من أجل ذلك كان اللقاء حتميًّا بين أحدث ما فى الحياة من علم وأعمق ما فيها من إيمان . لقاء كان إخصاباً للحياة نفسها بمزيد من العلم وآفاق جديدة يمكن أن يبرز فيها الإيمان ومن تفاعلها برزت ملامح الحضارة الإسلامية حافظة للتراث الإنسانى ، مثرية له ، وقائدة رائدة فى هذه الانطلاقة الكبرى .

الإيمان والماء :

وأستطيع أن أشبه الإيمان من هذه الزاوية بالماء : هو واحد . . ولكنه يوفر الحياة لكل حى ، « وجعلنا من الماء كل شىء حى » .

ومن الممكن أن تتحول الاستفادة من الماء إلى شىء من العبث أو اللهو كفقاقيع الصابون يمرح بها الأطفال .

---

* المساء : ٢٦ من رمضان ١٣٩١ هـ = ١٤ نوفبر ١٩٧١ م

ومن الممكن أن يتحول إلى مستنقعات – إذا ما ركد – تنمو فيها الأوبئة .

ومن الممكن أن يتحول إلى شلالات تضيء الحياة بالكهربا وتدير المصانع . .

ولك أن تقارن بين موقفين لك : أحدهما أمام بركة آسنة من الماء ، ومحطة توليد الكهربا فى السد العالى . . الماء واحد . والموقع مختلف . . هنا ركود وهناك حركة وحياة .

الإيمان حركة :

لا نستطيع بهذا أن نتصور الإيمان مجرداً معزولا . هو فى أمره تفاعل . ويبدأ فى قلبك وفكرك ومنهما ينطلق إلى الحياة .

لذلك ربط الإسلام دائماً بين الكلمة والعقل . بين العقيدة ومجالات الحياة .

« إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » . .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات » . .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » . .

بل أنت تجد ذكر الله فى القرآن وارداً فى المسجد كما يرد فى ميدان القتال . وفى هذا نقرأ قول الله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله . . » ، « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله . . » .

وأنت بعد دخولك بيت الله للعبادة وأداء ما فرض الله عليك تقرأ قوله : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله. واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » .

ـ دخول المسجد لذكر الله .
ـ والخروج منه ابتغاء لفضل الله .
ـ وأنت فى ميدان القتال تذكر الله .

والكون كله حركة . .

هذه الحركة المؤمنة تراها فى كل شيء حولك .

كل ما حولك حركة . .

الذرة الصغيرة . الكون الكبير . « الشمس تجرى لمستقر لها ... القمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » .

الجمود إذن ليس من طبيعة الحياة ولا طبيعة الإيمان .

الإيمان والعلم :

وأهم مجال يتحرك فيه الإيمان الآن هو مجال العلم . . العلم بمفهومه الشامل الذى وضحه القرآن الكريم . .

فالإيمان بالله فى القرآن علم . واقرأ فى هذا قول الله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » . .

والصناعة فى الإسلام علم : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون » . .

وآفاق هذا الكون آيات للعالمين ولأولى الألباب ، ولقوم يفقهون ، ولقوم يتفكرون ،

طبيعة الإيمان :

بهذا المفهوم الشامل تبدو طبيعة الإيمان فى مجتمعنا :

- إنه القوة الدافعة إلى العمل فى كل مرافق الحياة .
- وهو الحافظ لها من الانحراف .
- وهو الذى يحدد لها مستواها الأخلاقى فى الأداء والتعامل .

الإيمان يظهر فى المصنع صناعة جيدة متقدمة . وفى الحقل عناية بالإنتاج وتطويراً له . وفى الجيش كفاية سلاح وجندى وتنظيم . وفى القيادة فكراً شاملا عميقاً له جذوره العميقة التى تربط بأرض الواقع ، وأجنحته التى يحلق بها فى المستقبل ، وقوة البصيرة التى يسلك بها الطريق وسط العقبات والعواصف .

إنه يبرز على مستوى الأسرة تراحماً وتماسكاً ، وعلى مستوى المجتمع كفاية وعدلا .

كل عامل فى أى موقع من مواقع إنتاجنا وخدماتنا وجهادنا المقدس إنما يعبر عن إيمانه حين يعمل . .

وهو فى الوقت نفسه يعمل بمستوى علمى عليه أن يزيد كل يوم كفاية وفاعلية ، وبهذا يتلاقى العلم والإيمان .

وإذا كان العلم هو «صورة العمل» فإن الإيمان هو «روح العمل»، والصورة والروح فى لقاء هو «حياتنا الجديدة» .

ويتجلى هذا الإيمان أكثر ما يتجلى فى كل جهد فى القاعدة والجبهة نبذله اقتراباً من هدفنا الكبير : استعادة لأرضنا السليبة وبناء لمجتمعنا الجديد مجتمع العلم والإيمان .

دراسة الأعداء تربية وعبادة *

نحن الآن فى العشر الأواخر من رمضان ، فيها ليلة خير من ألف شهر ، أنزل فيها القرآن .

وفى العودة إلى القرآن تلاوة وتدبراً نور متجدد ما أحرانا أن نقف عند توجيهاته . . نستلهم منها الهدى فى اتخاذ موقف يكون يومه — وندعو ربنا — خيراً من ألف شهر .

والقرآن الكريم يعلمنا بهذا : أن الزمن ليس أمراً حسابياً فحسب ، وإنما هو أيضاً أمر نسبى : ترتفع فيه مكانة اليوم أحياناً إلى فوق مقام السنين . .

وما يوم الخامس من يونية ١٩٦٧ ببعيد .

مدخل إنسانى :

وعدت فى رمضان إلى القرآن الكريم ، ووقفت عند فاتحة الكتاب بادئاً « بسم الله الرحمن الرحيم » تالياً سورة هى عهد بين العبد وربه : عبادة واستعانة . سيراً على طريق الحق بدون انحراف فى جو من الحمد والرحمة عسى أن نكون مع الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم .

هذا مدخل إنسانى إلى الكتاب المبين ، أنت تتوجه فيه إلى خالقك .

وانتقلت بعدها إلى سورة البقرة فإذا مدخل إنسانى آخر يحتاج منا إلى وقفة وتدبر .

السورة تبدأ ببيان مواقف ثلاثة هم :

---

* الأهرام : فى ٢٤ من رمضان ١٣٩١ هـ الموافق ١٢ نوفمبر ١٩٧١م .

ــ المؤمنون . الكافرون . المنافقون .

وأنت تجد عرضاً فيه شيء من الإيجاز لأمر المؤمنين والكافرين وتفصيلا أكثر لشأن المنافقين .

والمواقف الثلاثة واضحة : إيماناً وكفراً وتظاهراً بالإيمان مع إبطان الكفر . وفي موقف النفاق ترى أساليب متعددة ترمى إلى حرب الجبهة المؤمنة وتكوين جبهة مضادة بالتعاون مع الذين كفروا . . ترى أمامك حركة النفاق ومحاولة ضربه أو احتوائه منطقة الإيمان والعاملين فيها .

وتنتقل السورة بعد هذا معك إلى عرض موجز لبدء الحياة ، والسياق هنا محوره الإنسان أيضاً مع دعوة شاملة للناس جميعاً أن يؤمنوا بربهم الذى خلقهم والذين من قبلهم . وتنتهى قصة آدم هنا بتوبة الله عليه ، وتوضيح طريقى الإيمان والكفر والتكذيب وجزاء كل منهما .

دراسة العدو :

ولك أن تقف طويلا عند هذه القصة . فهى هنا تستغرق الجزء الأول من القرآن أو زهاءه . ثم أنت تراها بعد هذا فى مجموعات من الآيات فى السورة نفسها :

ــ لماذا هذه العناية ببنى إسرائيل ؟
ــ وكيف يعرض القرآن الكريم هذه القضية ؟
ــ ولماذا ــ ولله حكمته التى دعانا إلى التماسها ــ كانت فى هذا الموقع القرآنى والمصحف ترتيبه وحى من عند الله تعالى ؟ . .

ولنعد إلى وضعها التاريخى فى نزول القرآن . .

فالسورة مدنية بلا خلاف . وهى من أوائل ما نزل بها إلا آيات معدودة هى من آخر ما نزل .

كان نزولها فى المدينة لأوائل عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بها .

ولكن ما القوى الاجتماعية التى كانت وقتئذ بالمدينة ؟

وكان هناك المؤمنون من المهاجرين والأنصار وتتكون منهم الجبهة الداخلية التى عليها أن تقوم بأمانة الإسلام وتأمينه فى نفوس أصحابه وفى أرضه .

كان الإسلام فى هجرته يبحث عن الأرض المؤمنة . عن القاعدة الصلبة التى ينطلق منها لتحقيق أهدافه .

أما القوى المضادة فتمثلت على المستوى المحلى فى قبائل اليهود من بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ومن قوة المنافقين من أهل المدينة ومن حولهم . .

وعلى المستوى الخارجى هناك قريش فى الجنوب ومن يدور فى فلكها من القبائل العربية فى حين قواعد يهودية قوية فى الشمال فى فدك ووادى القرى وخيبر وتيماء . ومن وراء ذلك قوة الفرس فى الشمال الشرقى وفى أقصى الجنوب فى اليمن ، وقوة الروم فى الشمال والشمال الغربى .

وعلى الصعيد المحلى كانت قوة القبائل اليهودية تمثل الخطر الأكبر على الإسلام ، لهم سيطرتهم على قطاع كبير من التجارة الداخلية والصناعة والزراعة والمواقع الحاكمة وموارد المياه فى الجنوب الشرقى المرتفع حيث عوالى المدينة وحصون اليهود القوية .

وكان لا بد من دراسة هذا العدو . .

المسلمون يؤمنون بجميع الأنبياء والمرسلين ، ويصدقون بما أنزل من التوراة والإنجيل ، ويقرن الله بين الكتب الثلاثة التى أنزلها فى أكثر من موقع .

ولكن الإسلام يدعو إلى مجتمع جديد لا يقوم على الاستغلال ، وقد رأى الرسول (صلى الله عليه وسلم) جوانب من هذا المجتمع فى رحلة الإسراء والمعراج . وأدان القرآن الكريم أى انحراف عن طريق الحق فى المجتمعات الإنسانية السابقة . والقرآن المكى حافل بكل ذلك . .

أيظل المسلمون يدعون إلى هذه الأخوة الإنسانية غير القائمة على الاستغلال ويقف يهود المدينة منهم موقفاً سلبياً .

حقاً : لقد آمن جانب من أهل الكتاب .

ولكن هذا الترابط الوثيق بين أوضاع يهود المدينة فى مجالات الاقتصاد المحلى والخارجى وقيام حياتهم على الاستغلال والربا وتفتيت قبائل المدينة . . هذا الترابط أعطى حياة المدينة صبغة لا يستطيع الإسلام ولا يملك إلا أن يصطدم بها : حكماً مقدوراً عليه ، مهما حاول أن يرفع ألوية السلام . . وقد فعل . . لأنه أراد سلاماً قائماً على العدل خاض من أجله ما خاض من معارك .

ويبدو جانب من تربية القرآن فى هذا المجال :

لقد درست سورة البقرة المجتمع الإسرائيلى دراسة موضوعية تحتاج منا إلى وقفات طوال ، أرجو أن يوفق الله إلى العودة إليها .

درس هذا الشعب فى قوته وضعفه . فى إقباله على الله ، وإدباره عنه . درس كيف التوت النفوس فيه التواء وصل إلى قتل الأنبياء ، « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون » (البقرة : ٨٧) . درس تفضيلهم المال على الإيمان بحيث أصبح المال والدنيا عقيدة ، ودعاهم الله إلى الإيمان مسجلا هذا الطابع الذى صاغوا عليه حياتهم « وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا وإياى فاتقون » (البقرة : ٤١) .

فسورة البقرة بهذا الوضع وثيقة اجتماعية تمثل عرضاً تاريخياً وتشريحاً لهذا المجتمع الإسرائيلى بتطوراته وأعماقه وأبعاده . . وهو مجتمع ، كان على قاعدة الإسلام فى المدينة أن تدير معه الحوار بالكلمة أولا ، ثم بالسلاح إذا رفض الكلمة . . وهذا ما حدث .

وهذه الدراسة جعلت قاعدة الإسلام على علم بهذا العدو الخطر :

علم مسجل فى كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

علم يتلوه المسلم فى صلاته فى جوف الليل وحيداً : أو فى المسجد مع إخوانه فى الصلاة .

وبهذا تستطيع أن تقول إن دراسة العدو فى الإسلام عبادة . وأنت لاتستطيع أن تقابل خصمك إلا إذا كنت على معرفة به . معرفة حقيقية ليس فيها مبالغة ولا تهوين .

واجبنا :

وإن المعركة بيننا وبين العدو الإسرائيلى لها — فيما أحس — مجالات أربعة رئيسية : سلاح أمام سلاح . وعقيدة أمام عقيدة . وفكر أمام فكر . وجبهة داخلية أمام جبهة داخلية .

والاستراتيجية الكبرى التى تستطيع أن تتحرك بها ومن خلالها تقوم فيما تقوم على هذه القواعد الأربع . ومستوى التصرف العلمى والفاعلية ينبغى أن يتمثل فيها جميعاً .

وما أحرانا ونحن نربى أنفسنا وأبناءنا لكفاح طويل شاق فى مجتمع العلم والإيمان . . أن تكون رؤيانا واضحة فى هذا كله ، واستعدادنا له يتكافأ موضوعياً مع متطلبات المعركة .

وعلى هذا المنهج سار مؤرخو الإسلام ، فى دراسة العدو . ويكفى أن ترجع إلى ما كتب ابن هشام فى سيرته عند دراسة المغازى ، وعرضه الموضوعى لنواحى القوة والضعف فى معسكر الإيمان ومعسكر العدوان .

فهل لنا أن نعيد النظر فى برنامج التربية والتثقيف فى هذا الضوء القرآنى ، حتى نرى العدو فى حجمه الطبيعى بلا مبالغة ولا تهوين ونرى أنفسنا كذلك ونحدد بهذا واجباتنا ومسئولياتنا . .

أعتقد أن هذا سيكون له دفع قوى . وسندرك أبعاد التحدى الذى نخوض مراحله نحو نصر نستعيد به أرضنا ونبنى مجتمعنا ، ونعيش العصر علماً وإيماناً.

ثلاثة أصدقاء فى العيد*

أما الأصدقاء الثلاثة فهم عالم ومجاهد وشهيد ، أروى قصصهم من واقع حياتنا، وإليهم وإلى إخوانهم نبعث تحية العيد .

لقد تعودنا أن يصحب بعضنا بعضاً فى زيارات العيد ، فهل يأذن لى القارئ الكريم بأن أصحب فى هذا المقال أصدقائى الثلاثة .

١ ــ عالم :

جاءتنى مذكرة من إدارة التوجيه المعنوى بقواتنا المسلحة أن عالماً من علماء الدين قد أصيب فى الجبهة حينما كان يؤدى واجبه المقدس بين إخوانه من الجنود والضباط وأن الإصابة أدت إلى بتر الساق .

وذهبت إليه فى مستشفى الحلمية العسكرى ، وبعد أن صافحته بادأنى بقوله :

ــ لى كلمة أود أن أقولها قبل أن تبدأ حديثك معى :

قلت : تفضل .

قال : أود أن أستحلفك بالله ألا تجعل لما ترى من مصابى سبيلا إلى نفسك يدعوك إلى تقليل عدد الأئمة والوعاظ الذين تبعث بهم وزارة الأوقاف والأزهر إلى الجبهة .

وتابع حديثه :

لقد كنت أدعو إخوانى إلى الإيمان وإلى الثبات وأقول لهم إن طريقنا هو النصر أو الشهادة . ورأيت من حولى إخوة لى سبقونى إلى الله كانوا معى بالأمس القريب ثم اختارهم الله وهو سبحانه يتخذ منا شهداء . .

---

* الأهرام فى غرة شوال ١٣٩١ هـ – ١٨ نوفمبر ١٩٧١ م .

وأراد ربى أن يختبرنى فى بعض جسمى . . وتركت ساقى دفينة فى أرض المعركة . . وأدعو الله أن يجعلنى من الصابرين .

ووقفت صامتاً أمام هذا الإيمان . الأعين متلاقية . وعلى وجهه سكينة ، وإلى جواره صديق مصاب بجراح .

كل ما فى الحجرة أبيض . السرير. الأغطية . . حتى الكلمات كانت بيضاء ناصعة برغم الجراح .

وجلست إلى جواره أسأله عن ظروف الإصابة . وأخبرنى كيف سقطت قنبلة إسرائيلية غادرة على موقع كان يعمل فيه مع إخوانه من الجنود والضباط . بعضهم كان استشهاده كاملا . والبعض كان استشهاده جزئياً .. فى بعض جسمه، ومنهم من ينتظر. وما بدّلوا تبديلا .. وانتقل الصديق بعد هذا إلى مركز تأهيل المحاربين بالدقى فكنت ألقاه هناك أجلس إليه أو أهدى إليه كتاباً جديداً . ونتعاون معاً فى أمره .

وحدثنى قائلا :

ــ إن إخوانى هنا يستمعون إلى خيراً من قبل . إنهم يعدوننى واحداً منهم . مصاباً مثلهم . وأنا أقضى وقتى أتنقل بين الحجرات أحدث المصابين عن الإيمان والصبر وأستمع إلى حديثهم . . فكثيراً ما يحتاج المصاب إلى من يستمع إليه لا إلى من يستمع منه . وكل أملى أن أبقى بين المصابين . هنا فى الدقى أو فى أى مستشفى عسكرى آخر أدعو إلى الله وأقوم بواجبى الدينى نحو إخوانى . .

وكنت أطيل النظر إليه ، أحاول أن أرى ما وراء الكلمات ، فكنت لا أحس منه إلا الإيمان الذى يشع من نفسه إلى نفسى ونفوس من حوله من المحاربين .

تحية له . . للأستاذ الشيخ عبد الحى يحيى شعبان كنموذج للإخوة العاملين من رجال الدين من الأوقاف والأزهر على خطوط المواجهة . . تحية لهم وتقديراً ، عبر عنه قائد مسيرتنا الرئيس أنور السادات بما منحهم

من أوسمة وما حملهم من أمانة عندما لقوه بعد تصحيح ١٥ مايو ١٩٧١ . وما قاله عنهم السيد الدكتور محمود فوزى رئيس الوزراء وقتئذ فى خطابه إلى مجلس الأمة عند توليه مسئولية منصبه .

٢ ــ مجاهد :

كان برنامج زياتنا للجبهة أن نلتقى أبناءنا من سلاح الطيران .

وضمنا لقاء فى مطار حربى . . وكان حديثهم عن مصر المستقبل . تخطيط القاهرة . إعادة بناء منطقة القناة . التوسع الصناعى . التقدم العلمى . الأسلحة الحديثة . الريف المضاء بالكهربا . . مشروعات تنمية نهر النيل .

لم يسألوا عن المعركة . . فقد كانوا هم المعركة . وذهبنا معهم فى جولة لمشاهدت طيارات الميج المقاتلة . وذكرت فى حماسهم ودقة شرحهم وإقبالهم على السلاح الحديث ، ما لقيته فى يوم سابق على خط المواجهة من نماذج رائعة فى وحدة الصواريخ ، وكيف استوعب أبناؤنا ما فيها من تكنولوجيا حديثة وأعدوا أنفسهم ليوم المصير .

وفى جلسة حول فنجان شاى كان حولنا عدد من شباب الطيارين . . معظمهم فى مطالع العشرينات من أعمارهم أجسام ضامرة من الحياة الرياضية والنظام الدقيق . قامت منتصبة كالرماح . وفى الوجوه بسمة الزهر . وفى العين نظرة الصقر إذا ما تحول الحديث إلى المعركة .

وتطرق الحديث إلى الدين والعقيدة وطالبوا بإرسال مزيد من الكتب الدينية إلى مكتبة المطار .

وقال أحد زملائى لضابط طيار فى أثناء الحوار :

ــ هل تصلى ؟

وكان السؤال مفاجئاً وظهر شىء من الاحمرار على وجه الضابط

ثم تمالك نفسه فى سرعة . . كأنه يوجه نفسه كما يوجه طائرته وقال للضيف
— عفواً . هل تأذن لى فى استفسار قبل أن أجيب ؟
وأذن له الضيف فقال الضابط الطيار :
— هل رأيت فى ملامحى ما يدل على أنى لا أصلى ؟
وأشرق وجهه بابتسامة مؤمنة وقال :
— وكيف لا أصلى وأنا أطير فى طائرتى وحدى بين السماء والأرض ليس معى إلا ربى . إننى أركب طائرتى على وضوء . وإذا لم أستطع صلاة ركعتين قبل الطيران ، أصلى بعد العودة من المهمة . .
فقال صديقى : يا بنى ؛ إنما أحببت أن أطمئن . رعاكم الله ووفقكم .

٣ — شهيد :

بين المسجد والمدرسة والبيت كانت طفولته .
أب مؤمن يرعاه . . وأم مؤمنة أرضعته أخلاقها .
وكان يستطيع لو أراد أن يكون بعيداً عن المعركة فى تخصصه العلمى ولكن إسرائيل فوق جزء غال من أرضه . . ولهذا الجزء ، نداء يسمعه فى صحوه ، ويرافقه فى أحلامه . ويلتحق بالقوات المسلحة ويتخرج من الكلية . ويأتى توزيعه فى الإسكندرية . ومرة أخرى كان يستطيع لو أراد أن يكون بعيداً عن خط المواجهة الساخن .

كان محبوباً من زملائه وجنوده . . ومحل تقدير من رؤسائه . صارماً فى الحق ، هادئاً كالنسيم فى صحبته .

ويكتب إلى قيادته طالباً أن ينقل إلى ميدان المواجهة . . وتستجيب القيادة لهذا الإيمان . ويودعه إخوانه ويحتفظون بالكثير من صوره فى محافظهم وعلى مكاتبهم صورة المقاتل المؤمن فى معركة المصير .
وتغير طائرات إسرائيلية على موقع مدفعيته فيظل يقاتل ويقاتل . .

وتتساقط القذائف حوله فى حقد محموم . ويشتد التركيز . ويأتيه قدر الله فيلقى ربه شهيداً بعد أن أدى ما عليه من واجب.

قصة طولها الزمنى ثلاثة وعشرون عاماً .

وبطلها الشهيد محمد جودة الذى أنبتته أرض « تلا » الطيبة .

ويصل الخبر إلى الأب المؤمن والأم المؤمنة .

وتتحول كل مدخرات الأسرة المرتبطة بالشهيد وما له من تعويض إلى هدف واحد « بيت الله » .

جاءنى الأب المؤمن لأكون معه فى افتتاح المسجد فى شهر رجب الماضى (١٣٩١) ويحدثنى عن ولده وإيمانه .

وما أعمق الأثر الذى يتركه فى النفس لقاء أب الشهيد . .

وأشد منه عمقاً حين تلقى أم الشهيد .

وكأن الأب كان يقرأ ما فى نفسى فأخبرنى أن الأم الجليلة المؤمنة كانت تغرس فى نفس ولدها وحبيبها معانى الجهاد والتضحية ، وأنها أوصته بالثبات والتوجه إلى الله فى آخر زيارة له قبل الرحيل . . .

ولقيت الأم الجليلة بعد افتتاح المسجد والمشاركة فى الحفل بما يسر الله من كلمات وإحساس ، وكأنى أراها « مصر » .

مصر الأم .

مصر البطولة التى تقدم أبناءها إلى أشرف المواقع .

وكأنى أسمع منها قول عروة بن الزبير حفيد أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد نعى إليه ولده : « أما الغلام فوديعة الله عندى متعنى الله به عشرين عاماً ثم قبضه إليه . له الشكر حين أعطى ، وله الحمد حين استرد الوديعة » .

وديعة تأتى يوم القيامة مع النبيين والدنيا كلها وراءهم تبع . . ولتقرأ فى هذا قول الله تعالى : « ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى

بينهم بالحق وهم لا يظلمون ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون » (الزمر ٧٠) .

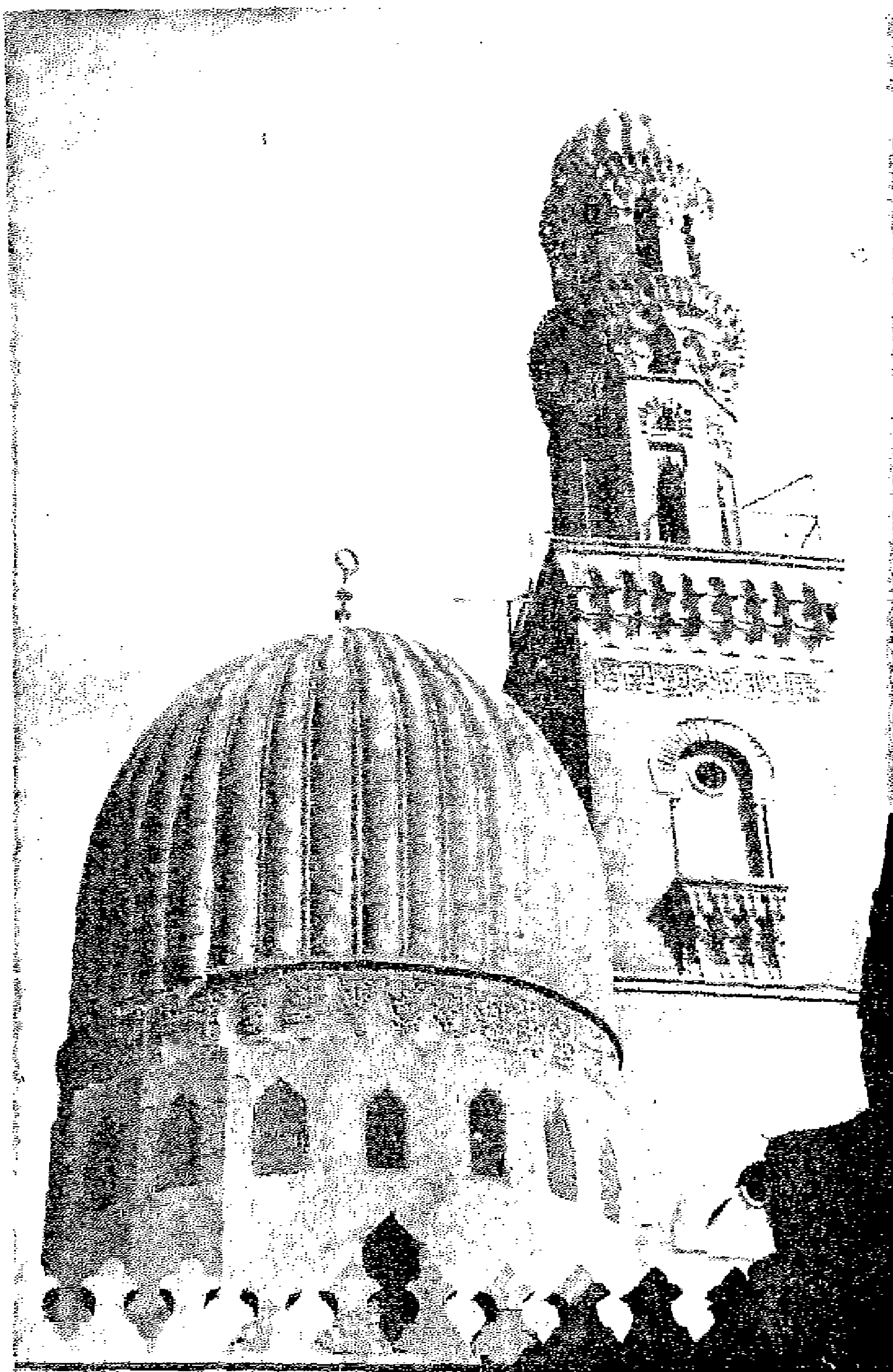
إنهم الأحياء الفرحون المرزوقون المستبشرون . وفى هذا نقرأ قول الله تعالى :

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » .

تحية :

وفى يوم العيد نبعثها تحية إلى قواتنا المسلحة الرابضة على خطوط المواجهة . .

. . تحية إلى كل مجاهد، وإلى كل مصاب ، وإلى كل شهيد، وقادة العروبة والإسلام وكل محب للسلام عامل له . داعين الله — جلت قدرته أن يبارك فى كل نبضة قلب ، وحركة فكر ، وجهد يد ، وانطلاقة سلاح ، وقطرة دم ، لنكون جميعاً روافد النصر فى معركة المصير .



سلسلة (اقرأ)

الكتب التى نشرت فيها منذ صدورها فى يناير ١٩٤٣ حتى الآن

القصة

١ أحلام شهر زاد (د. طه حسين)
٦ شاعر ملك (على الجارم)
١٢ سنوحى (د. محمد عوض محمد)
١٤ من يوميات فتاة عصرية (حسين شوقى)
١٨ قنديل أم هاشم (يحيى حقى)
١٩ سيدة القصور (على الجارم)
٢٢ جحا فى جانبولاد (محمد فريد أبو حديد)
٣٠ قطر الندى (محمد سعيد العريان)
٣٢ الشيخ قرير العين (كرم ملحم كرم)
٣٤ فارس بنى حمدان: أبو فراس الحمدانى (على الجارم)
٤٣ عنترة بن شداد (محمد فريد أبو حديد)
٥١ الشاعر الطموح: المتنبى (على الجارم)
٥٨ خاتمة المطاف (على الجارم)
٦٠ شجرة الدر (محمد سعيد العريان)
٦٢ مرح الوليد (على الجارم)
٦٣ رفيق الأرض (نظمى لوقا)
٦٧ أمير قصر الذهب (طاهر الطناحى)
٨٧ غادة رشيد (على الجارم)
٩٢ الجامحة (أمينة السعيد)
١٠٥ الحب الضائع (د. طه حسين)
١٠٦ سجل التوبة (أمين الريحانى)
١٠٨ سارة (عباس مود العقاد)
١١٦ اللحن الشرود (كرم ملحم كرم)
١٢١ عذراء الأندلس (أحمد الصاوى محمد)
١٢٢ أشطر من إبليس (محمود تيمو)
١٢٩ زامر الحى (محمود تيمور)
١٣٠ فى بطون الليالى (رشاد دارغوث)
١٣٥ ليلى العفيفة (عادل الغضبان)
١٣٦ أبو على الفنان (محمود تيمور)

١٤١ بنت قسطنطين (سعيد العريان)
١٤٥ عيون معصوبة (محمود كامل)
١٥٢ قلوب معذبة (قدرى قلعجى)
١٥٣ دماء وطين (يحيى حقى)
١٥٥ بنت يزيد (سامى الكيالى)
١٥٩ أجواء (حسن محمود)
١٦٥ مصرع طاغية (حسن رشاد)
١٦٧ أنات الساقية (عبد الله القرشي)
١٧٦ عودة المفقود (حسن رشاد)
١٨٣ الثريا (كمال بسيونى)
١٨٥ عاشقة نفسها (حسن رشاد)
١٩٦ محكمة الضمير (حسن رشاد)
١٩٩ عرس ومأتم (البدوى الملثم)
٢٠٠ مواطن أمام القضاء (فاضل السباعى)
٢٠٩ حال الدنيا (حسن رشاد)
٢١٩ ثمن الكرامة (سلامة خاطر)
٢٣٤ حبة البرتقال (أحمد العنانى)
٢٣٨ قلب عذراء (إبراهيم المصرى)
٢٤٠ نفوس تتكلم (وداد سكاكينى)
٢٧٣ مذكرات طبيبة (نوال السعداوى)
٢٧٦ صنيعة الشيطان (حسن رشاد)
٢٧٨ يوسف الصديق (محمد طلبه رزق)
٢٨١ خالدون فى الوطن (إبراهيم المصرى)
٢٨٣ دماء فى الفجر (فاروق حلمى)
٢٨٤ عروسة على الرف (صوفى عبد الله)
٢٨٧ قصص من جوته (عبد الغفار مكاوى)
٢٨٨ قصص الحب العربية (عبد الحميد إبراهيم محمد)
٢٨٩ البارونة أم أحمد (محمود تيمور)
٢٩٢ شيء من الخوف (ثروت أباظة)
٢٩٧ ابن السلطان (عبد الغفار مكاوى)
٣٠٢ نشيد الكروان (طاهر الطناحى)
٣١٣ عفراء : قصة الحب الخالد (فايد العمروسى)
٣١٥ أعترف إليك (أحمد فؤاد تيمور)
٣٣٩ مومس تؤلف كتابًا . وقصص أخرى (فتحى رضوان)
٣٤٣ إنى صاعدة (حلمى سلام)
٣٤٤ الوادى السعيد (لويس عوض)
٣٤٧ بنك القلق (توفيق الحكيم)
٣٥٠ دموع فى عيون ضاحكة (يوسف جوهر)
٣٥١ من أخطاء القضاء (حسن صالح الجداوى)
٣٥٢ عندما تحب المرأه (حلمى مراد)

الأدب

٢ شاعر الغزل : عمر بن أبى ربيعة (عباس محمود العقاد)
٤ عود على بدء (إبراهيم عبد القادر المازنى)
٨ مذكرات دجاجة (د. إسحق موسى الحسينى)
١٣ جميل بثينة (عباس محمود العقاد)
٢١ أبو نواس (عبد الحليم عباس)
٢٣ صوت أبى العلاء (د. طه حسين)
٢٦ العشاق الثلاثة : كثير وجميل وابن الأحنف (د. زكى مبارك)
٣٣ فى بيتى (عباس محمود العقاد)
٤٧ أبو زيد الهلالى (محمد فهمى عبد اللطيف)
٤٩ بين البحر والصحراء (شفيق جبرى)
٥٩ الجوارى (د. جبور عبد النور)
٧٤ قصر الرشيد (د. طه الحاجرى)
٧٦ ثم غربت الشمس (د. سهير القلماوى)
٨٣ من النافذة (إبراهيم عبد القادر المازنى)
٩٦ شيخ التكية (محمد عبده عزام)
١٠٢ من نافذة العقل (د. نقولا فياض)
١٠٩ نديم الخلفاء : الحسين بن الضحاك (عبد الستار أحمد فرج)
١١٨ المعذبون فى الأرض (د. طه حسين)
١٢٠ شاعر الشعب : حافظ إبراهيم (د. محمد سامى الدهان)
١٢٦ من ذكريات الفن والقضاء (توفيق الحكيم)
١٢٨ الجدة الصغيرة (حسن محمود)
١٣١ أمين الريحانى (فاروق عبود)
١٤٧ مارس يحرق معداته (عيسى الناعورى)
١٥٧ غرام الأدباء : طه والحكيم والعقاد وتيمور والزيات وأبو حديد والعريان والشناوى (عباس خضر)
١٨٢ لمحات من الأدب الروسى (ماهر نسيم)
١٩٣ دون جوان (لطفى عبد البديع)

السير والتراجم

٢٥ ابن حمديس الصقلى
(على مصطفى المصراتى)
٢٥ من أعلام الحرية فى العالم العربى الحديث (أنور الجندى)
٢٥٠ عشرة من الخالدين
(إبراهيم المصرى)
٢٦٠ قلوب الخالدين (إبراهيم المصرى)
٢٧١ عبد المطلب جد الرسول
(د . على حسنى الخربوطلى)

٣٠١ مع طه حسين : الجزء الثانى
(سامى الكيالى)
٣٠٦ سندباد فى رحلة الحياة
(د . حسين فوزى)
٣٢٤ هوشى منه (جورج عزيز)
٣٣٦م. أيام خالدة فى حياة عبد الناصر
(د . جمال الدين العطيفى)
٣٤٠ محمد عبد الوهاب (محمود عوض)
٣٤٩ هؤلاء علمونى (سلامة موسى)

سياسة وعلوم سياسية

٩ المذاهب السياسية المعاصرة
٧ (على أدهم)
٥ قضية فلسطين (محمد رفعت)
١٠٧ تحرير وادى النيل
(محمود كامل المحامى)
١٤٥ أخى المواطن (فتحى رضوان)
١٧ هذا الشرق العربى
(فتحى رضوان)
٢١٢ العرب ورسالتهم الإنسانية
(د . على حسنى الخربوطلى)
٢١٦ وحدة العرب
(إبراهيم الدسوقى البساطى)

٢٦١ عروبتنا (محمود كامل)
٢٧٤ المزاعم الصهيونية فى فلسطين
(فتحى فوزى عبد المعطى)
٢٧٥ الوحدة الإفريقية
(محمد أبو الفتوح الخياط)
٢٩٥ فلسطين قلب العروبة
(محمد فيصل عبد المنعم)
٢٩٦ البترول العربى فى المعركة
(د. محمود أمين)
٣١٠ حوار مع برتراند راسل وسارتر
(لطفى الخولى)

٣١١ حرب الأفيون
(محمد للعزب موسى)
٣١٦ سجين ثورة ١٩١٩
(د. محمد مظهر سعيد)
٣١٩ فى مواجهة إسرائيل
(د. إسماعيل صبرى عبد الله)

علم النفس

١٠ شفاء النفس (د. يوسف مراد)
٨٠ الحب والكراهية
(د. أحمد فؤاد الأهوانى)
٩٨ الخوف (د. أحمد فؤاد الأهوانى)
١٣٣ النسيان (د. أحمد فؤاد الأهوانى)
١٣٧ سيكولوجية الجنس
(د. يوسف مراد)
١٥٦ النوم والأرق
(د. أحمد فؤاد الأهوانى)
١٥٨ الغيرة (إبراهيم المصرى)
١٦٦ الأحلام والرؤى
(عبد العزيز جادو)
١٧٠ القلق (د. أبو مدين الشافعى)
٢٠٢ الإرهاق العصبى (نظمى خليل)
٢١٧ لكى تكون سعيداً
(عبد العزيز جادو)
٢٢٩ الطريق إلى النجاح
(عبد العزيز جادو)
٢٣٦ عالج نفسك (د. كمال دسوقى)
٢٥٧ أمراض نفسية (د. كمال دسوقى)
٢٦٦ النقائص والنجاح
(ضياء الدين أبو الحب)
٢٩٠ شخصيتك فى الميزان
(د. عبد الكريم دهينة)
٣٠٧ قالت له
(محمد زكى عبد القادر)

علوم

١١ الكون العجيب
(قدرى حافظ طوقان)
٢٩ النار والنور (أمين إبراهيم كحيل)
٣٦ مع الحيات
(د. حسين فرج زين الدين)

جغرافيا ورحلات



وصلت فى قفزتها الأولى إلى ٥٠,٠٠٠ نسخة

وستصل فى هذه القفزة إلى ٧٠,٠٠٠ نسخة

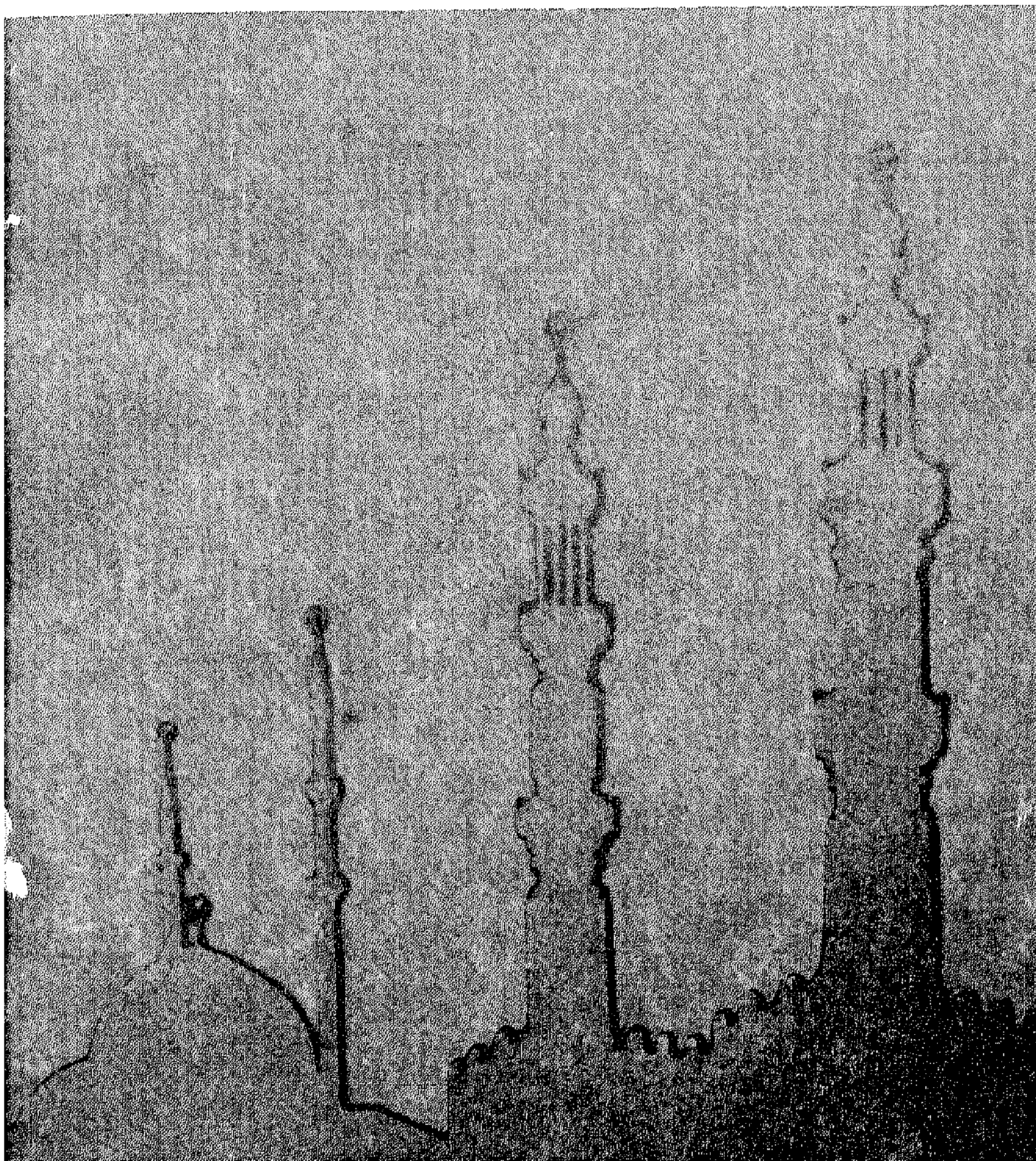
صدر منها فى الأشهر الأخيرة :

يناير	١٩٧٢	:	هؤلاء علمونى للأستاذ سلامه موسى
فبراير	١٩٧٢	:	دموع فى عيون ضاحكة للأستاذ يوسف جوهر
مارس	١٩٧٢	:	من أخطاء القضاء للأستاذ حسن الجداوى
أبريل	١٩٧٢	:	عندما تحب المرأة للأستاذ حلمى مراد
مايو	١٩٧٢	:	خدعوك فقالوا للدكتور سعيد عبده
يونية	١٩٧٢	:	رحلة الشرق والغرب للدكتور لويس عوض
يوليو	١٩٧٢	:	بلابل من الشرق للأستاذ صالح جودت
أغسطس	١٩٧٢	:	القصر المسحور للدكتور طه حسين والأستاذ توفيق الحكيم
سبتمبر	١٩٧٢	:	أغلال القلب للأستاذ إبراهيم المصرى
أكتوبر	١٩٧٢	:	أفكار ضد الرصاص للأستاذ محمود عوض
رمضان	١٣٩٢	:	الإسلام والعصر للدكتور عبد العزيز كامل

الفهرس

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم ٥٢٦٣ / ١٩٧٢

مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢



اقرأ

توفيق الحكيم

الرباط المقدس

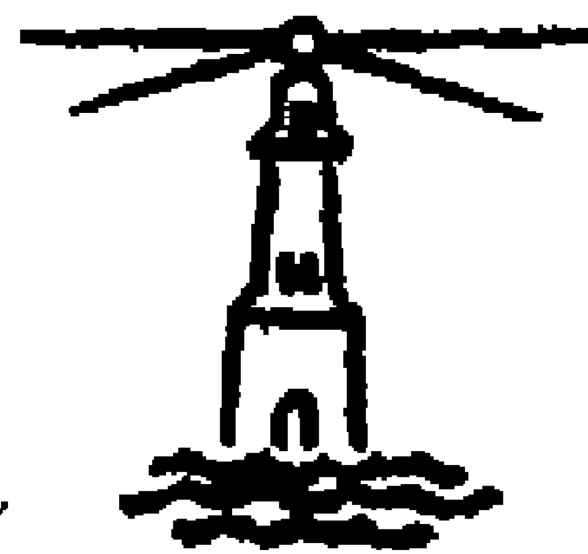
عدد ممتاز





تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر



توفيق الحكيم

الرباط المقدس

اقرأ ٣٦٠

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٦٠ – نوفبر سنة ١٩٧٢

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

راهب الفكر

كان — فى عباءته وقلنسوته — يشبه حقاً الراهب . . . هكذا كان يرتدى دائماً وهو فى بيته ، ولعل هذا المظهر كان يتفق مع لون حياته ؛ تلك الحياة الهادئة بين الكتب والورق ، الراكدة كمداد المحبرة !... ما كان لديه قط شىء يجرى ؛ حتى ولا أيامه ؛ فهى لتشابهها تبدو كأنها واقفة لاتسير ، أو أنها تجمعت كلها واندمجت فصارت يوماً واحداً لايزول ! . . . ومع ذلك ؛ فقد كان هنالك سيل متدفق يجرى عنه بغير انقطاع : ذلك هو فكره . . . إنه لم يلق كثيراً بشخصه فى غمرة الناس ، ولكنه كان يلقى إليهم دائماً بفكره يسعى بينهم ويؤثر فى نفوسهم . . . كان شأنه شأن ذلك الجالس على الشط ، يلقى الفتات إلى السمك ، وينظر إليها تجتمع عليه وتتفرق . . ولقد كان لكتاباته وقع ، ولآرائه صدى . . .

وقد أحس تبعة تأثيره فى الناس فأخذ عمله مأخذ الجد ، ولم يشأ أن يخادع الناس فيقول لهم ما لا يعمل ، إنه كان يؤمن بأن واجب رجل الفكر والقلم أن يدخل على البشر الإيمان بأن فى إمكانهم أن يسموا على أنفسهم ، وأن هذا الواجب يفرض عليه أن يعيش هو حياة سامية لامطعن فيها ولا غبار عليها . . .

لقد كان دائماً يزدرى أولئك الذين ينشرون على الناس أدباً رفيعاً وجمالا بديعا ، ثم يعيشون حياة كلها ضعة وخسة وقبح . . .

الكاتب الحق فى نظره هو مثل يحتذى فى باطنه وظاهره ، وإن لم يكن كذلك فهو إذن مهرج ، يلبس للناس على الورق ثياب الملوك ، فإذا خلا بنفسه خلعها ، فبدا فى حقارته كأنه شحاذ . . . كان هذا هو السبب فى التجائه إلى تلك الحياة الصارمة . . . لم يكن فى بيته أحد معه غير خادم قديم يقوم على خدمته ؛ ويدبر له معاشه ، ويقضى له حاجاته ، ولم تكن له حوائج كثيرة ، فقد كان أقصى ما يطلبه بعد المطالعة والتأمل ، مجرد الجلوس إلى خزانة كتبه ، لا يصنع شيئاً غير تنظيم صفوفها ، وترتيب فروعها ، ترتيباً لاتخطئه اليد فى الظلام ! . . .

لقد كان دائماً يقرأ فى فراشه قبل النوم ، وكان يعن له أحياناً أن يحضر من خزائنه كتاباً فى علم من العلوم أو فن من الفنون ؛ فما كان يفعل أكثر من أن يمد يده ، فيستخرجه من موضعه دون حاجة إلى إضاءة المصباح . . . لقد تدربت أصابع يده على التمييز بين الكتب ، فأمست وكأنها تقرأ عنوانها باللمس ، وكانت أقدامه تدور به فى الحجرة كلما أراد التفكير ، فلا تستقر به فى مقعد إلا إذا استقر به الفكر على أمر . . . أما عيناه وأذناه فهى بالضرورة عماده الأول فى مهمته . . . لكأنه جند حواسه كلها ، وحشدها لخدمة فكره .

لقد كان يلذ له أن ينفق لحظاته الضائعة فى النظر إلى كعوب الكتب المصفوفة ، يقرأ أسماء مؤلفيها الخالدين واحداً واحداً ؛ كأنهم جنود أبطال يستعرضهم بعد النزال ، فكان لايملك نفسه من الصياح فى القاعة الساكنة : « هؤلاء حركوا العالم ، وساروا بالإنسانية . . . إنى أشعر بينهم وأنا فى هذه العزلة والركود أن كل شىء من حولى حركة دائمة . . كل شىء ساكن ، خلا الفكر . . . ما الفكر إلا الحركة الكبرى ! . . » .

أقرب القول فى هذا الرجل أنه كان يذكر بصورة « رجل الأدب

كما وصفه « كارليل »: « نور الدنيا وكاهنها الذى يتعهدها ، كأنه عمود النار المقدس ، فى جوها المظلم خلال هباء الزمن ، وقضاء الأحقاب» . . .

ذلك كان الرجل ، وتلك كانت حياته . . بسيطة متجردة . . .
إنه لم يكن ينظر إلى ملذات الدنيا إلا على أنها جرعات متقطعة ، يطفئ بها ظمأه ، وينشط بها قواه فى صحرائه الجرداء ، ولكنها لم تكن غذاءه اليومى ولا شرابه الدائم . . لقد كان يشتاق أحياناً إلى الأكلة الدسمة الفاخرة ، ولكن طعامه المعتاد كان شيئاً لايكاد يقيم الأود ، ولقد كان يسير فيه على نظام شبه صحى ، لاينحرف عنه إلا إذا دعته الظروف ، أو قهرته نفسه التواقة إلى الطيب الطريف من طعام أو شراب ؛ فيتناول الأكلة الشهية تناول الملتذ الذواقة ، ثم يجيء اليوم التالى ، فإذا هو يعود إلى نظامه القديم الصارم وأكله البسيط ومائه القراح .

كذلك كان فى السهر وما اقترن به من متع! . . . فهو يحرص على النوم فى موعده ، والاعتكاف فى حجرته ، ولكن هذا لايمنعه من أن يشذ عن نظامه ليلة ، فيسهر كما يسهر الناس ، ويصنع مثل ما يصنعون ، ويعرف من ألوان المتع ما يعرفون . . ثم يصحو فى الغد ، فتحدث أعجوبته : وهى نسيانه ما حدث ، واعتباره كل ما نعم به البارحة قطرات لابد منها بين حين وحين ؛ لمواصلة سيره الحثيث وأداء واجبه المفروض ، فهو لم يكن من أولئك الذين يتهالكون على اللذات ، ويندفعون فيها ، ولا يملكون فى نفوسهم تلك الأداة التى توقف اندفاعهم حيث ينبغى الوقوف ! ... لعل أكبر قوة عند هذا الرجل هى قوة المقاومة : مقاومته لنفسه إذا شرب أحياناً من كأس الحياة ، فإنه كان يعرف بالضبط متى وأين يقف ، ويستطيع بكل عزم أن يقول لنفسه : كفى ؛ لذلك لم يشتهر عنه حب الحياة ، ولم يعرف عنه الانغماس فى ضرب من ضروب اللهو ؛ بل لم يسمع أحد عن اتصاله بامرأة من النساء بالذات ، وكان هو حريصاً على أن يجهل الناس تلك النواحى منه ،

وأن يعرفوا زهده فى ذلك ، وقلة احتفاله بهذه الأشياء . . على أن هنالك فائدة كبرى جناها من هذه المزية : مزية « مقاومة النفس » كما كان يسميها ! . . إن نظام البساطة الذى أخذ به نفسه فى شئون الدنيا قد حال بينه وبين الترهل والهرم الباكر ! . . . . ما من أحد يراه إلا قدر له سناً أقل من سنه الحقيقية .. لقد كان فى وجهه نضارة شاب فى الثلاثين ، ولو لا وخط الشيب برأسه لما عرفت الأيام كيف تنال منه ! .. كان شأنه فى ذلك شأن كهنة المصريين القدماء الذين وصفهم « بلو تاركس » بقوله : « إنهم كانوا يراعون نظاماً دقيقاً فى مأكلهم ومشربهم ؛ لأن القداسة والصحة يسيران فى نظرهم جنباً إلى جنب ، فكانوا لايسرفون فى أكل اللحم ولابعض الخضر ، ولا حتى فى شرب ماء النيل ؛ لزعمهم أن الإكثار من مائه يسمن الجسم ؛ كما يدسم الأرض ! . . » .

إن البدانة كانت عندهم من عيوب الكهانة ؛ فهم كانوا حريصين على أن يغلفوا نفوسهم بأجسام نشيطة خفيفة ، حتى لايختنق ما فى أرواحهم من جوهر إلهى تحت ثقل المادة الفانية ! . . .

ما من كاهن مصرى كان بديناً ، وما من كاهن مصرى عرف الناس حقيقة عمره ؛ فهم دائماً نحاف الأجسام يبدو عليهم الشباب دائماً ؛ كأن الآلهة قد منحتهم قوة مقاومة الزمن . . والحقيقة أنهم ما أعطوا قوة مقاومة الزمن . . . بل أعطوا قوة مقاومة أنفسهم . . ومن ظفر بالأخيرة فقد ظفر بالأولى ، وهذا ما فهمه « راهب الفكر » ؛ وعمل به .

هكذا كان يعيش ذلك الرجل . . حياة رحبة فى نظره ؛ مضيئة زاخرة بشتى الألوان ! . . ضوءها لاينبعث من ثريات المراقص والملاهى والحانات ؛ فقد كانت حياة الليل عنده هى حياة النفس فى اتصالها النبيل بما يقرأ فى ساعات السكون ، وفى إصغائها الطويل إلى الخواطر والأفكار التى تغمر عالمه الصامت . . .

أما حياة النهار عنده ؛ فكانت فى الصباح ، مطالعة الصحف

والبريد الوافد عليه من داخل مصر وخارجها ، ثم الخروج للسير على الأقدام ساعة فى الطرقات ، ينظر فى واجهات المكتبات ، ويعود بعدئذ فيجلس إلى مكتبه ، وهو يوصى خادمه بإغلاق النوافذ ، حتى لاتزعجه زقزقة عصفور من عصافير الكنارى التى فى قفص لدى الجيران . . . ثم يكتب الساعات الطوال إلى أن يناديه خادمه للمائدة ، مرة ومرتين ، وهو مستغرق فى عمله لاينتبه ؛ حتى يثقل عليه الخادم بالإلحاح ويخرجه قسراً مما هو فيه ، فيلقى بالقلم متبرماً وينهض متذمراً ؛ كأنه مسوق إلى حيث يجلد ، لا إلى حيث يطعم . .

* * *

فى ذلك اليوم الذى بدأت فيه هذه القصة ، جلس « راهب الفكر » — كعادته فى الصباح — إلى بريده ، يفض الرسائل الآتية إليه من قرائه ، وكانت تلك اللحظة من أمتع اللحظات عنده ؛ فقد كان يلذ له هذا النحو من الاتصال الفكرى بأولئك الذين يكتب لهم ، ويكد من أجلهم دون أن يراهم . . على أنه قلما كان يعنى بالرد على رسالة من تلك الرسائل ، لا عن ترفع أو تصنع ، بل لأنه كان يعتقد أنه قد قال كل شىء لقارئه فى كتبه التى تطبع وتنشر ، وأن رسائل القراء ليست إلا ردهم على ما سبق أن وجهه إليهم من صفحات ، وضع لهم فيها أثمن ما ادخره من عصارة الذهن على مدى الأيام ! . .

على أنه فى ذلك الصباح وقعت فى يده رسالة ، استوقفت نظره ، واسترعت التفاته ، هى رسالة من فتاة تقول : إنها فى الثانية والعشرين ، وإنها تريد الاشتغال بالأدب ، وتسأله بإصرار أن يأذن لها فى مقابلته ؛ كى تبسط له أمرها وتتلقى رأيه فيه . . ولم تذكر اسمها ولا عنوانها . . ولكنها قالت : إنها ستخاطبه بالتليفون ؛ لتعلم منه الموعد الذى قد يضرب للقاء ! . . .

عجب لهذا الخطاب ؛ لأنه لم يكن على غرار الخطابات النسوية التي اعتاد أن يتلقاها ؛ فقد كانت فيه نبرة جد ، وكان أسلوبه موجزاً ، ولم يجد تلك الثرثرة التي يلجأ إليها عادة بعض العابثات من النساء والفتيات ، وما أكثر رسائلهن إليه . وما أكثر طلبهن له بالتليفون ، ذلك الطلب الذي كان يتحاشاه ، مكلفاً خادمه بالرد عنه ، والمبادرة إلى إنهاء كل محادثة لا غرض منها ولا طائل . . ولكن هذا الخطاب الجدي شيء آخر .

إن هذه الفتاة سارت إلى غايتها قدماً ، وأفصحت عن بغيتها النبيلة في سطرين ، فكيف يردها عن هذا الغرض ، أو يصدها عن هذه الغاية ؟ . . . إن واجبه يحتم عليه لقاءها . . .

وغرق في مقعده ، وجعل يرسم لهذه الفتاة صوراً في رأسه : كيف هي ؟ . . وماذا يمكن أن تكون ؟ . . إنه يعرف المرأة التي تعطي الفكر حياتها ... هي ولا شك المرأة التي لم تجد رجلاً تمنحه هذه الحياة ! .. ولكنها في الثانية والعشرين كما قالت ، أي في ريعان الصبا ونضارة الشباب ؛ إذن لعلها تشعر أن الطبيعة قد جردتها من ذلك السحر الذي تسيطر به على قلب الرجل . . . والمرأة إذا جردت من هذا الرداء الساحر ، فليس أمامها إلا أن ترتدي مسوح الراهبات ! . . ولعل في تلك المسوح قوة خفية أو روعة أخرى ، قد تستخدمها المرأة في طرق باب الأمل من جديد ! . . . على أي حال لا بأس من مقابلة الفتاة . . . وانقضى أكثر النهار ، وجاء العصر ، فدق جرس « التليفون » ، فهرع إليه الخادم ، ثم أعلن سيده بخبر الفتاة وسؤالها عن الموعد ، فأمره أن يضرب لها موعداً للزيارة في صباح اليوم التالي . . .

* * *

جاء الغد . . . وجلس « راهب الفكر » إلى مكتبه وانحنى على ورقه وعمله ، وإذا الباب يطرق ، ثم ظهر خادمه بعد قليل ينبئه بقدوم الفتاة . . . فأذن له في إدخالها عليه ، دون أن يبدي حراكاً ،

أو يبدو عليه اهتمام ؛ فقد لبث غارقاً فى شأنه . . . إلى أن فطن إلى حفيف ثوب على مقربة منه . . رفع رأسه ونظر . . . وإذا الدهش يعقد لسانه . . . ذلك أن بصره لم يكد يقع على الفتاة التى أمامه حتى انقلب كل شىء فى رأسه ، وفسدت الصور التى نسجتها مخيلته فى سرعة البرق ؛ فالفتاة التى أمامه جميلة رشيقة أنيقة ! . . . إنها من ذلك الطراز الذى يخطر فى حلبات السباق فى أحدث الأزياء ، ناثراً فى الهواء أحدث العطور تاركاً خلفه فى كل خطوة آلاف النظرات والحسرات والتنهدات! . . . إنها من ذلك الطراز الذى يرى فى المقاصير الأولى من المسارح ، لليالى الافتتاح ، فيلقى الهمس والافتتان فى صدور الجماهير ! . . .

اضطرب أمره ، وقال فى نفسه : « ليس هاهنا مكان هذه الفتاة » ! . . . ورأت هى ما به فبادرت بالتحية ؛ وقالت فى ابتسامة ، وهى تجلس حيث أشار إليها بالجلوس :

— أريد منك يا أستاذ ، أن تصارحنى فى كل شىء ! . . .

فقال لها كالمخاطب لنفسه وعينه ما تزال تفحصها :

— بل أنا الذى يرجو أن تصارحينى بكل شىء ! . . .

فأطرقت قليلا ، وقد أرخت أهداباً ألقت على خدها ظلالا :

— إنى يا سيدى . . . أحب الأدب! . . .

فقال على الفور بسخرية بريئة من الاستهزاء :

— إن الأدب يا سيدتى يتشرف بهذا الحب . . .

وبدا على وجهه الارتياب، فقال :

— لكن ؟ . . .

— لكن ؟ . . .

ماذا تقصدين بالضبط أيتها الآنسة ؟ . . . أرجو منك أن تفصحى قليلا . . . فإنى لم أفهم بعد كما ينبغى ! . . .

فأطرقت مرة أخرى ، وكأنها لاتعرف كيف تبدأ الحديث . . . ثم رفعت عينيها ، وأخذت تتأمل المكان الذى يعيش فيه ذلك الأديب ، فلم تجد شيئاً باسماً : فلا زهرة مفتحة ، ولا أثاث أنيق ، ولاحيطان زاهية اللون ، ولاضوء كثير باهر . . .

فرأى كأن صدرها قد ضاق ، وأنها تريد التنفس ، وأن شفتيها القرمزيتين تهتزان ، وأنها تكاد تصيح على الرغم منها :

ـ أهذا جو الأدب ! . . .

ولحظها تنظر إلى النافذة وهى عارية ، ليس عليها أستار ، وأمامها بناء عال يحجب عنها الشمس . . . فخيل إليه أنها تقول له :

ـ أيكفيك هذا النور ؟ . . .

فأجابها بهدوء :

ـ يكفينا دائماً النور المضىء فى نفوسنا ! . . .

فلم يبد على الفتاة أنها فهمت عنه ؛ فإن سطور وجهها ما زالت تنم عن خيبة الأمل ! . . .

على أن الذى أدهشه هو بقاؤها بعد ذلك ! . .

ما الذى دفعها إلى المجىء ؟ . . وما الذى يربطها إلى هذا المقعد الساعة ؟ . . ونظر إليها ملياً ، ثم قال :

ـ إذا صدقت فراستى أيتها الآنسة فأنت لم تخلقى للأدب ! . .

فقالت فى غير تحمس ، وهى تبحث بعينيها عبثاً عن مرآة فى الحجرة

ـ لم لا ؟ . .

فلم يحر جواباً ! . . ولم يستطع طبعاً أن يذكر لها السبب ، إنها جميلة . . . إن الآدمى قد يعطى الأدب « حياته » ، لكنه لايعطى الأدب « جماله » ، وأراد أن يستخرج سرها فقال لها :

ـ أى أنواع الأدب تحبين؟ . . .

فظهر عليها الارتباك ، لكنها أسرعت تخفيه بحركة من يدها ،

فتحت بها حقيبتها الصغيرة ، وأخرجت منها مرآتها وأصبع أحمرها ، وجعلت تتزين وهى تقول :

ـ لست أفضل نوعاً على نوع . . .

فحدد إليها النظر ، ثم سألها فجأة :

ـ لماذا شرفتنى بالزيارة ؟ . . .

فأجابت ، وهى تنظر فى مرآتها الصغيرة :

لأنى سمعت عنك كثيراً . . .

ـ أقرأت لى شيئاً ؟ . . .

بالطبع . . .

ـ ماذا قرأتِ لى ؟. . .

ـ آه . . .

وتظاهرت بالنسيان ومحاولة التذكر ، فلم يرد المضى فى إحراجها ، ولزم الصمت ، وجعلت أصابعه تعبث لحظة برسالتها ، وأدرك أن هذه الفتاة تسخر منه ؛ فما أكثر الفتيات المغرورات اللاتى يلذ لهن مداعبة الرجال المعتزلين ، والهزء بالنساك المترهبين ! . . . فقال لها فى شىء من الجفاء :

ـ أيتها الآنسة ! . . لماذا كتبت إلى تقولين إنك تريدين الاشتغال بالأدب؟ . . .

قالت وهى تعيد مرآتها وإصبع أحمرها إلى حقيبتها :

ـ لأنى أريد ذلك . . . أهو شىء عسير : الاشتغال بالأدب ؟ . .

فلم يعرف كيف يجيبها ، وشعر فى نفسه بما يشعر به رجل الدين ؛ إذ يرى شخصاً يقذف محرابه بحصاة . . ولعلها رأت منه ذلك ؛ فهى لاتخلو من ذكاء يلمع فى عينيها الجميلتين ، فبادرت تقول له :

ـ أأعترف لك بالحقيقة ؟ . . .

وصمتت قليلا . . وتأمل نفسه فى جلسته وعباءته وقلنسوته ،

وتأمل عبارتها الأخيرة ، فخيل إليه أنه « راهب تاييس » يحادث الغانية ، ورفعت الفتاة رأسها ، وأقبلت عليه تقول :

— الحقيقة أنى لا أحب الأدب . . . ولم أقرأ كتاباً قط منذ تركى المدرسة . ولاشىء يثقل على نفسى مثل الكتابة والقراءة . . . إنى لا أكتب رسالة إلى إحدى صديقاتى . . حتى أتناول بعدها قرصاً من « الأسبيرين » ! إنى أحب « السينما » وسباق الخيل ، والرقص والموسيقى ! . .

فقاطعها قائلا :

— « الجاز » طبعاً ! . . .

فقالت فى نبرة المتحدث عن شىء مفهوم بالبداهة :

— طبعاً ! ! . . .

فتنهد ، وقال كالمخاطب لنفسه :

— ألم أقل إن فراستى قد صدقت ؟ . . .

ولم تترك له الفتاة وقتاً للمضى فى الكلام ، فأسرعت تقول :

— نعم ! ولكنى مع ذلك أريد . . .

— تريدين ؟ . .

فارتفع صوتها بقوة وعزيمة :

— نعم أريد . . . أريد أن أحب الأدب ! . .

فلبث فمه مفتوحاً من الدهشة ولم يدر ماذا يقول لهذه الفتاة المدللة . . .

أتحسبين أيتها الآنسة أن الأدب فتى جميل من فتيان الرقص ، أو حصان « فاذورى » من خيول السباق ؟ . . .

فتجهم وجه الجميلة ، وأسدلت أهدابها الطويلة . . . ورأى كأن عراكاً عنيفاً يهز أرجاء نفسها . . . وأخيراً انتفضت ، وقالت متوسلة :

— أرجوك ! . . أرجوك . . . لاتردنى خائبة يائسة ! . . .

فأطرق لحظة ، ثم قال مترفقاً :

ـ أنا طوع أمرك يا سيدتى ، لكن ... فلنتكلم فى حدود المعقول ! ..
ـ نعم ، اجعلنى أحب الأدب بأى ثمن ، مهما كلفنى الثمن . . .
هذا يا سيدتى غير معقول ! . . . كيف أجعلك تحبينه ؟ . . .
ـ لماذا لا تستطيع ؟ . . .
ـ لأن الحب لا يُطلب ولا يُشترى ، وأنت أدرى منى بذلك . . . !
فهمست فى ألم :
ـ نعم ، هذا صحيح ! . . . آه ! . . .

وأثر فى نفسه يأسها ، وذكر أنه لم يسألها بعد عما يدفعها إلى هذا الطلب الغريب ، فالتفت إليها يستوضحها الأمر . . . فأسرعت قائلة :

ـ لا تسألنى ! . . . ما الفائدة ما دمت لا تملك لى شيئاً ؟ . . .

ونهضت تريد الانصراف ، فنهض وهو يفكر فى أمرها ، ومدت إليه يدها مودعة وهى تقول :

ـ إنى آسفة لإزعاجك ! . . . إنى فتاة حمقاء . . . كنت أعتقد أن كل شىء فى الإمكان ! . . .

فقال لها ويدها فى يده :

ـ نعم ، كل شىء فى الإمكان ما دامت الإرادة قوية ، والدافع نبيلا ! . . .

فجذبت يدها بلطف ، وقالت على عجل :

ـ وإذا ضمنت لك قوة الإرادة ، ونبل الدافع ، أفتعلنى بالمساعدة ؟

ورأى فى عينيها بريقاً ينم عن أمل متجدد ، فشق عليه أن يطفئه بكلمة ، غير أنه خشى أن يقطع على نفسه عهداً لا يستطيع الوفاء به ، وهو يجهل بعد كل شىء فى الموقف ، فهو فى ضباب ، الكلام يجرى فى أمور ، يختلف معناها باختلاف المتكلم ، وكلمة « الأدب » لها عنده مدلول غير ما عند الفتاة ، ولم يحسن بعد إدراك مرادها ، ولا يأسها ، ولا رجاءها ، فقال :

ـ أيتها الآنسة ! . . . لن أعد بشيء حتى أفهم . . . أليس لى الحق أن أفهم على الأقل أصل الموضوع ؟ . . .

ففكرت قليلا ، ثم التفتت إليه قائلة :

ـ أرجو منك ألا تطلب إلىّ أسماء . . . لن أقول لك اسمى ولا اسم أسرتى . . . كل ما أستطيع الإفضاء به إليك هو : أن لى خطيباً أحبه ويحبنى ، وهو مثلى الأعلى الذى كنت أحلم به دائماً ! . . ليس فيه عيب غير أمر واحد : أنه يحب القراءة فى كتب الأدب ! ... إنه يذهب بى إلى « السينما » وإلى سباق الخيل . . . ويحادثنى فى كل ما أحب ، ولا أستطيع أنا أن أحادثه فيما يحب ! . . . إنه يسمينى « الفتاة الطائشة » ، ويغتفر لى كل شىء إلا ذلك الصمت الطويل الذى يدب بيننا ؛ إذ يفرغ الحديث فيما يسميه « تفاهاتى وحماقاتى » . . . إنه يقول لى دائماً : إن الهوة السحيقة فى حياتنا الزوجية هى أنه لن يستطيع أن يحادثنى فى شئون الفكر ! . . .

إنى لن أنسى كلمة قالها لى يوماً : لن يحدث الزواج بيننا ذلك الاتصال التام الذى طالما تمنيته فى زوجتى ، فإن نصف الحياة ، وهى حياة الفكر . . . دائما خارج نطاق الزوجية . . . فأنت يا « ... لن يكون لك منى غير نصفى ! . . .

ولقد حاول المسكين أن يضع بين يدى كتباً فكنت أطرحها فى ضجر . . . إنى أمقت الكتب ، ولكنى أريد أن يكون لى النصف الآخر من زوجى ! . . . أريد أن يكون كله لى : جسمه وفكره . . .

إنه يحب أيضاً لعب « التنيس » . . . وكنت أنا لا أميل إلى « التنيس » ولا ألعبه ، ولكنى بإرادتى استطعت أن أتعلمه وأتذوقه وأحبه ، فى مدى بضعة أشهر ! . . . لقد نجحت إرادتى فى كل شىء إلا فى الكتب . . . لذلك جئت أطلب معونتك ! . . .

إن خطيبى يحب كتبك ، وقد قال لى إنها بسيطة الأسلوب

وتصلح لى ، ولكنى — للأسف — أعترف لك أنها ثقيلة على نفسى ؛ كغيرها من الكتب . . . إن الدواء عندك ولا شك يا سيدى . . . إنى أعتقد أن خالق الداء قد خلق له الدواء . . . إن كل سعادتى الزوجية هى الآن بين يديك ! . . . أرشدنى ! . . . كيف تستطيع فتاة طائشة مثلى أن تصلح أمرها ليرتفع شأنها فى عين زوجها ؟ . . . أهنالك أمل فى أن يصبح فكرى فى مستوى فكره ؟ . . . تكلم يا سيدى ! . . . أليس لمثلى أمل فى اجتياز أعتاب تلك المنطقة ، السامية المقدسة ، التى تسمونها منطقة « الفكر » ؟ . . . وهل كتب علىّ إلى الأبد أن أبقى خارجها أتطلع إليها ؟ . . . .

وسكتت الفتاة . . . وتركت « راهب الفكر » واقفاً فى شبه ذهول ، تدوى فى أذنه عباراتها الأخيرة الباكية . . . ولأول مرة فى حياته أدرك أن رجل الأدب ، له رسالة تماثل رسالة رجل الدين! . . . لطالما كتب يصف هذا التماثل ، ولكنه لم يوقن أن الأمر حقيقة واقعة إلا اليوم ، ومرة أخرى طافت برأسه صورة « راهب تاييس » ! . . .

إن تلك الغانية اللعوب ، جاءت الراهب تجر وراءها كل ماضيها الغارق فى الضلالة والزيغ ، وطرقت باب صومعته . . . تلتمس أن يكشف لها عن نور الحق ! . . . أتراه قد أبى عليها وردها يائسة؟ . . لا . . ليس من حق راهب أن يصد إنساناً عن نور الله . . . هو أيضاً ذلك الخادم من خدام الفكر ، والراهب المنقطع لنشر نوره . . . بأى حق يزرع اليأس فى قلب من يريد وجهه ؟ . . .

وهنا أيضاً ، أدرك أن عليه واجباً آخر ، غير واجب الخلق والتأليف . . .

نعم . . . عليه أن يمد يده — على قدر الإمكان — لتلك النفوس المسكينة العمياء ! . . . فيفتح نوافذها رويداً رويداً لنور الفكر الدافق . . .

ورفع رأسه ، والتفت إلى الفتاة قائلا :

— اعتمدى علىّ ! . . .

تاييس فى التيه

مضت سبع ليال ، وهو يفكر فى أمر تلك الفتاة ، لقد وعدها بالمعونة وتركها تعتمد عليه ، ولقد ذهبت على أن تعود إليه ، ولقد تم بينهما الاتفاق على أن تزوره مرة كل أسبوع ، ولكنه حتى الآن لم يعرف السبيل إلى هداية هذه الفتاة إلى دين « الفكر » . لقد بدأ يداخله الشك فى نجاح مهمته . . . إن الراهب الدينى يستطيع أن يهدى الغانية الضالة إلى حظيرة السماء بغير عناء ؛ لأن جمال الفضيلة ظاهر للعيان ، وفكرة الخير والشر فى ذاتها لا تحتاج إلى برهان ، ومبادئ العقائد الإلهية فى مقدورها — بغير إعداد طويل ، أو تدليل وتعليل — أن تنفذ وشيكا إلى القلوب . . . أما شئون الفكر والأدب فهى شىء لايغرس فى كل الأحيان غرساً . . . إنها نزعة من نزعات الطبع ، قد تولد فى الإنسان أو لا تولد ، فكيف يلقى بذوراً فى أرض لم يهيئها ربها للإنبات والإزهار.. ولكن ... مهلا ... فى اعتقاده أن كل نفس إنسانية قد هيأها ربها لالتقاط طيب البذور ،وأعدها لاستقبال نور الجمال ، إنما العبرة بالباذر ، والأمر مرهون بقدرة الكاشف عن أسرار الحسن العلوى . . . لاينبغى أن يرتاب مرة أخرى فى رسالة راهب الفكر ، ولايجب أن يضيع بعد اليوم وقتاً فى مذاكرة هذه المسألة ، إنما عليه أن يوجه همه إلى التفكير فى الطريقة التى سيتبعها فى معونة الفتاة . . .

وضاق صدره من طول البحث عبثاً كل تلك الليالى ، وخطر له

أن يسترشد بما افعله « راهب تاييس » ، فمد يده إلى كتاب « أناتول فرانس » . . . إنه لم يفتحه منذ نحو عشرين سنة ، ولقد نسى ما فيه ، فغرق بين صفحاته ليلتين . . . عجباً ! . . . لكأنه يقرؤه للمرة الأولى . . . إنه لم يفرغ منه بعد ، لقد قرأ أكثر من نصفه ، فاتضحت لعينه أشياء ، فصاح يقول لنفسه : « ماأشقى الآدميين ! . . . لقد كتب عليهم العمى ، وهم يحسبون أن لهم عيوناً مبصرة ، إنا لانبصر حقيقة الأشياء إلا بعيوننا الداخلية ، ولاندرك حقيقة الأمور إلا باتصالها ، واصطدامها بجوهر مشاعرنا . . . إنى مهما بلغت من سمو العقل وذروة الفكر ، ما كنت أنفذ إلى أعماق الراهب « بافنوس » إلا اليوم . . . نعم اليوم ؛ لأنى أشعر بما كان يشعر به ، وأحس أن الظروف تضعنى فى الموقف الذى وضعته فيه . . . هنالك مع ذلك فرق بيننا :

إنه هو الذى ترك صومعته فى بطن الصحراء ، ومشى الليالى الطويلة حافى الأقدام ، يطأ الحشرات ، ويأكل عشب الأرض ؛ ليذهب إلى الغانية الجميلة « تاييس » ، فى مدينة « الإسكندرية » ؛ كى يهديها إلى نور السماء . . . إنه تجشم من أجلها الأخطار والأهوال . . . ما الذى حمله على ذلك ؟ . . . إن تلك الفكرة لم تنشأ فى رأسه إلافجأة ذات مساء ، إذ خطر له طيفها الجميل ، وذكر رؤيته إياها أول مرة فى مدينة البحر ، قبل أن يهب الدين حياته ، وذكر تحرقه شوقاً إليها فى ذلك الوقت ، مثل غيره من بقية المغرمين ، ولكن حب العقيدة طوى حب المرأة ، فاعتصم بالوحدة فى قلب الصحراء ، حتى بدا له اليوم ذلك الخاطر العجيب : أن يقوم بتلك المعجزة ، ويربح هذه الغانية للدين ؛ وطفق يلتهم الصفحات شوقاً للوصول إلى ذلك الموقف من الكتاب ، حيث يقف « بافنوس » أمام «تاييس» ؛ ليعرف وسائله ، ويفقه كلماته ، التى استطاعت أن تهز تلك النفس الزائغة ، وتبهر تلك الأعين الناعسة ، وتفتح ذلك القلب الفاجر العابث ، لجمال نبيل ،

لم يكن له به من قبل عهد ! . . .

كانت تلك الكلمات التى انطلق بها لسان الراهب « بافنوس » إذ وقف وجهاً لوجه ، أمام الجميلة هى هذه :

« إنى أحبك يا « تاييس » أحبك أكثر من حياتى ؛ وأكثر من ذاتى . . . من أجلك غادرت صحرائى ! . . . . من أجلك لفظت شفتاى — المكتوب عليهما الصمت — ما لا ينبغى أن يسمع . . . . من أجلك اضطربت نفسى ، وتفتح قلبى ، وانبعثت منه أفكار ؛ كأنها ينابيع دافقة يرددها الطير والحمام ، ومن أجلك مشيت الليل والنهار ، خائضاً غمار رمال تسكنها العفاريت . . . من أجلك سرت بقدمى العارية فوق العقارب والثعابين ! . . . نعم ! . . .

أحبك ، لا على مثال هؤلاء الرجال الذين يجيئونك محترقين فى مطالب الجسد ؛ كأنهم الذئاب الضارية ، أو الثيران الثائرة . . . إنك محبوبة لدى هؤلاء ، ولكنه حب السبع للغزال ! . . . إن غرامهم المفترس يفتك بك حتى قرارة نفسك ، أما أنا أيتها المرأة ، فإنى أحبك حب الروح ، حب الحقيقة ! . . . أحبك فى الله ، ولدهور الدهور! إن ما أحمله لك فى صدرى هو حرارة الحق . . . هو الإحسان الإلهى! . . وإنى لأعدك بما هو خير من النشوة الفانية ، والحلم الزائل ! . . . أعدك بأفراح السماء ! . . إن النعيم الذى آتيك به لاينتهى أبداً ! . . . إنه لعجب من العجب ! . . . إنه لإعجاز يفوق كل إعجاز ! . . ولو قدر لسعداء هذه الدنيا أن يلمحوا مجرد ظله لخروا فى الحال أمواتاً من الدهشة ! . . .

أيتها السماء ! . . . اشهدى ! . . . إنى لن أترك هذه المرأة حتى أضع فى جسدها روحاً مماثلا لروحى ، فألهمينى كلاماً ملتهباً يذيبها ؛ كما تذوب الشمعة تحت أنفاسى . . .

« أيتها المرأة ، ألا فلتكن أصابعى قادرة على أن تصنعك من جديد ، وتطبعك بطابع جمال جديد لتصبحى بعدئذ ، وأنت تذرفين

العبرات من الفرح » :

« اليوم فقط قد ولدت ، اليوم فقط رأيت النور ! . . . »

لم يقرأ أكثر من ذلك ، لقد أدرك النتيجة ! . . . إن الرجل الذى يستطيع أن يلقى فى أذن امرأة مثل هذه الكلمات لا بد بالغ منها ما يريد ! . . إن المرأة ، هذه الزهرة الأرضية السماوية فى آن ، لتتفتح أكمامها لمجرد تساقط لفظ « الحب » الندىّ مهما يكن الثوب الذى يتخذه « الحب » ومهما تكن غاياته ومراميه ! . . . إن إيمان المرأة هو الحب . . . ها هنا السبيل الهين السهل ، الذى يوصل المرأة إلى الإيمان ، إلى كل إيمان ، وعندئذ اختلج قلبه . . . إن موقفه من الفتاة يختلف وينبغى أن يختلف عن موقف الراهب من الغانية ، لا لأن قلبه لايستطيع أن يمتلئ حباً بهذه الفتاة ، بل لأنه لاينبغى له أن يفعل ، ومع ذلك فإن الحب أيضاً هو الذى قاد الفتاة إلى مكان عزلته ، مجتازة صحراءه الفكرية على قدميها الصغيرتين ، وحذاؤها ذى الكعب العالى الذى لم يطأ غير البساط الوثير ، والرخام اللامع ، والزهر المتساقط على عشب الحدائق ! . . . نعم ، حبها خطيبها المثقف هو الذى أتى بها من عالمها إلى عالم هذا المفكر . . .

ولبث ينتظرها هذا الصباح فى ساعة الموعد ، فلم تأت ، فقال لنفسه وهو يتنفس الصعداء :

لقد استردها عالمها المضيء وجذبتها دنياها البراقة ، وكفيت أنا مئونة النفخ فى دمية من طين وتراب ! . . .

على أنه لم يستطع أن يخفى ما قام فى أعماق نفسه من اضطراب ، ليس يدرى له سبباً ، ولايفهم له تعليلا : إنما هو نوع من الشعور بالأسف العميق على ماذا ؟ . . ولماذا ؟ . . . لايستطيع أن يجيب ، فالأمر يخرج عن نطاق ذهنه الواعى ! . . .

وطرق الباب بغتة ، وظهر رجل نوبى فى ثياب نظيفة أعلمه

أنه سائق سيارتها ، وقدم إليه رسالة منها وانصرف ، إنها تعتذر عن تخلفها عن الميعاد ، وتقول إنها الآن فى لباس « التنيس » . وإنها خجلت من القدوم إليه والمثول فى حضرة « كاهن الفكر » بهذه الثياب ، وإنها لا تجد بعد من نفسها الشجاعة على تضحية مثل هذا الصباح الرطب الجميل فى سبيل شىء وإن كان هذا الشىء هو الأدب والفكر . وإنها الساعة تستنشق الهواء بملء رئتيها ، وتعرض شعرها المرسل وذراعيها العاريتين لشمس هذا الشتاء البديع ، وإنها تتأمل النيل يلمع فى مجراه الأخضر ؛ كأنه سيف ملقى فوق أعشاب حديقة ، أو كأنه شريط من الفضة فوق قبعة خضراء . . . وهنا تسأله الصفح عن إيراد هذا التشبيه ؛ فهى لم تنس بعد أنها امرأة ، وأن طراز القبعات الحديث ما زال يشغل من التفاتها أكثر مكان ، وختمت كلامها بتكرير التماس المغفرة ، راجية منه أن يستبعد ما قد يخالجه من سوء ظن بها ، وأن يثق بثباتها على العهد ، وتمسكها برغبتها ، وإيمانها بقوة عزيمتها ، ونجاحها آخر الأمر فيما وطنت النفس عليه ، من السمو بروحها وفكرها إلى المستوى اللائق بخطيبها الحبيب إلى قلبها! . . .

إنها كتبت بالطبع هذه الرسالة بخط سريع ردىء ، وعبارات لاتخلو من أخطاء فى الهجاء ، وأسلوب فطرى أقرب إلى أسلوبها فى الحديث من أسلوب الكاتب فى الأداء ، ولكن ... أى نفحة عاطرة تنبعث من هذا الكلام ؟ . . وأى نفس حية ذكية تكاد تثب من بين هذه السطور ؟ . . إذا صدق ظنه فإن هذه الفتاة نبع صاف لاينقصه غير الكشف عن أعماقه ، حتى يتدفق ماؤه العذب ، يروى النفوس وينعش الأذهان . . . إن جوهر الروح الأدبى عند هذه الفتاة وهى لاتدرى ! . . فالأدب روح قبل كل شىء ، أما الأسلوب فأداة تكتسب فيما بعد بالمران الكثير ، والصبر الطويل ، وليس المنشود لهذه الفتاة فيما يعتقد حذق الأسلوب الأدبى ، من حيث

هو خلق وإنشاء بل من حيث هو روح يضيء داخل نفسها البلورية ، فينطق لسانها بالحديث الرفيع ، ويطلق من صدرها المشاهد العالية والأفكار السامية ! . . .

آه ! إن سبيله الآن قد أشرق بالنهار المبين ، وعمله قد تحددت خطوطه وأركانه ! . . . إنه يريد هو أيضاً أن يخلق هذه الفتاة خلقاً جديداً ، وأن يجعل منها عروساً تمرح بشعرها المرسل وروحها المضيء ، فى مروج الفكر الرحبة المزهرة ، يريد أن يجعلها ملكة من ملكات المجالس ، ممن جاءت أخبارهن فى التواريخ ، تعرف كيف تمس بصولجان روحها نفوس الرجال ؛ كما يمس المرود العين ، فإذا تلك النفوس قد تفتحت لترى ما لم ترَ ، وإذا النشاط قد دب بها فتثمر القرائح وتنهض الهمم وإذا الخير قد فاض ، والحياة قد نبضت فى الأشياء والكائنات .

آه ! . . . إن المرأة هى كنز الكنوز ، ولكنه مدفون فى سابع طبقات الأرض ، فمن ذا يستخرجه غير ساحر من حذاق الكهان . . بل هى معجزة المعجزات ، مطوية فى سابع طبقات السماء ، فمن ذا يستنزلها غير راهب شديد الإخلاص ، قوى الإيمان . . .



الجميلة تقرأ

مضى أسبوع آخر ، وجلس ذلك الصباح ينتظر . . . إنه اليوم المحدد لمجيئها ، وخطر له خاطر فقام إلى النافذة يبحث عن الشمس .. إنها مختفية خلف الغمام ، والنهار قاتم ، والجو بارد . . . لاشيء يحول إذن بينها وبين الحضور . . . ولم يخب ظنه ، فما إن وافت الساعة حتى طُرق بابه ، ودخلت الفتاة فى معطف من الفراء الثمين ؛ وحيته بابتسامة مرحة ، وأخذت تخلع قفازها ، وتقول :

ـ هأنذى أجىء بلا تأخير ! . . .

فنظر إلى النافذة ، وقال بنبرة تهكم غير ملحوظ :

ـ « التنيس » هذا الصباح غير مرغوب فيه ؟ ! . . .

فقالت بصوت الجاد :

ـ نعم ، الطبيعة كئيبة والشمس غائبة ! . . .

فقال من الفور :

ـ فعلى الأدب إذن أن يبسم لك ، ويشرق ! . . .

فسرها هذا الجواب ، وجلست أمامه كالطفل « العاقل » الذى ينتظر تفاحة بهيجة تقدم له بعد قليل ، ومرت لحظة دون أن يقول شيئاً ، ولم يعرف فى الحقيقة ما يقول ولاما يصنع ! . . . وجعلت عينه تفحص فراءها ووجهها وشعرها ، الذى يلمح فيه يد الحلاق البارع ومكواه! . . . وذكر عندئذ ـ ليس يدرى لماذا ـ تلك الكلمات الملتهبة

التي قالها الراهب بافنوس ، مخاطباً « تاييس » ، فاختلج قلبه ، لكنه ملك نفسه سريعاً ، وضحك للمقارنة ، ضحكة خفيفة مفتعلة فهمتها الفتاة بالطبع على غير وجهها ، فأسرعت تقول :

— أتُراني لست جديرة ؟ . . .

لفظتها أيضاً كالطفل الذي يخشى أن يُحرم الهبة الموعودة ، فقال لها وهو يفكر مطرقاً وكأنه يناجي نفسه :

— إنك جديرة أن أجنبك مرارة الدواء . . . إنك تكرهين الكتب ؛ ولست أدري كيف أقدم لك الأدب بغير الكتب ، ويشق على نفسي أن أرغمك على ما تكرهين ! . . .

وسكت ، وجعل يتأمل ما قال ، فخيل إليه أنه مخطئ ، لاشيء يكتسب على هذه الأرض بغير جهد ، وبغير إرغام النفس على الكد ، وكلما سما الغرض كبرت المشقة ! . . . إنه أمام هذه الفتاة كأب أمام طفله ، فلا ينبغي أن يحجم عن أخذها بالشدة ، إذا اقتضى الأمر ذلك . ينبغي أن تحب الكتب إذا أرادت لفكرها سمواً ، ولاشيء غير ذلك ، فليكن حاسماً قاطعاً في القول ، فإما أن تذعن وتروض نفسها على حب المطالعة ، وتصغي إلى نصحه ، وتصدع بأمره ، وتبدي على الأقل حسن استعدادها لمعاونته في الخطة التي ينتهجها لها ، وإما أن تنصرف منذ الآن غير آملة في شيء ؛ فإنه لايصنع المستحيل . وتغير وجهه واتخذت ملامحه لوناً آخر كله صرامة ، وفتح فمه ليعلنها بكل هذا ، ولكن شيئاً أغلق فمه وسكّن ثائره ! . . .

إنه خوف غامض يسبح في أعماق نفسه ! . . . نعم ، إنه يخاف أن ينفر هذا العصفور الجميل ، فينطلق هارباً زاهداً في تعلم التغريد على يده ، قانعاً بما كان فيه من زقزقة جوفاء فوق الغصون ، ونظر إليها متردداً حائراً :

— أيتها الآنسة ! . . .

وأدركت بذكائها شيئاً كثيراً مما يجول بخاطره ، فبادرت تقول له :
ـ لاتخف ! . . . إنى سأقوم بما تأمرنى به . . . لقد قلت لك إنى قوية الإرادة ! . . .
فتشجع وقال لها :
ـ أتقرئين؟! . . .
فقالت فى الحال :
ـ كل ما تأمرنى بقراءته ! . . .
فاندفع قائلا :
ـ وتكتبين ؟ ! . . . .
فقالت بغير توقف :
ـ كل ما تأمرنى بكتابته ! . . . .
فصاح فرحاً :
ـ المسألة إذن قد حلت ! . . .
فقالت مع شىء من التفكير :
ـ نعم ، إنى أستطيع أن أجد دائماً وقتاً كافياً قبل النوم للقراءة والكتابة ، وأنا فى فراشى تحت مصباحى الوردى ، لكن هنا لك صعوبة واحدة . . .
فقال قلقاً :
ـ ما هى ؟ ! . . .
فقالت كالمخاطبة لنفسها :
ـ إنك بالطبع ستمتحننى فيما أقرأ . . . وأقول لك مقدماً إنى ساقطة فى الامتحان ! . . .
فضحك :
ـ إنك تسيئين الظن بقيمتك ! . . .
فابتسمت :

ــ لا ، إن عيبي الأكبر هو أنى لا أطيق مطلقاً أن أقف موقف من يؤدى امتحاناً . . إن كل ما قرأت يطير من رأسى عند ذاك كالدخان ، ولن أستطيع أن أثبت لك أنى قرأت بالفعل ...

فبدا على وجهه الارتياب :

ــ أيتها الآنسة ! ... أتتخابثين على ، وتدبرين من الآن خطة الهروب ؟ . . .

فضحكت عن ثغرها البديع :

ــ ثق أن فكرة الهرب بعيدة عن رأسى ، ولكنى أبين لك مواضع ضعفى حتى تكون على حذر ! . . .

فتفكر فى قولها لحظة ، ثم صاح كمن وجد الفرج :

ــ اسمعى أيتها الآنسة ! . . لقد اهتديت إلى وسيلة ترضيك . . .

ــ ما هى ؟ . . .

ــ ما قولك فى أنى أنا الذى يقف بين يديك موقف من يؤدى الامتحان ؟ . . .

فضحكت ، حتى كادت تدمع عيناها ، وهى تقول :

ــ أنت ؟ . . أنا أمتحنك أنت ؟ . . .

ــ ولم لا ؟ . . .

وتناول كتاباً قريباً من يده ، وقال لها :

ــ ستقرئين هذا الكتاب ، وعند زيارتك المعتادة فى الأسبوع المقبل ، توجهين إلىّ ما شئت من أسئلة ، ولن أوجه أنا إليك سؤالا واحداً . . .

فنظرت إليه نظرة من يقول : « ياالك من ماكر ! » ولم يسعها إلا الإذعان ، ثم تناولت من يده الكتاب ، ووزنته فى كفها ، وقالت :

ــ أقرأ كل هذا فى أسبوع ؟ . .

فأجابها :

– اقرئى بعضه ، اقرئى عشر صفحات ، أو خمساً . . . لست أطلب إليك قراءة كتاب بأكمله . . . أنا نفسى ، قلما أقرأ كتاباً بأكمله .

فنظرت إليه دهشة :

– عجباً . . . وكيف تلم بموضوع الكتاب إذن ؟ . . .

فقال لها باسماً :

– ليس يعنينى فى كل الأحوال الإلمام بموضوع الكتاب ! . . . إن مثلى مثل الطاهى الذى يدخل مطابخ الآخرين . . . إنه ليس محتاجاً فى كل مرة أن يتناول أكلة كاملة ؛ ليحكم على جودة الصناعة ، بل يكفيه أن يأخذ « لعقة » من كل إناء ، فيدرك فى الحال كيف صنع اللون ، وما استعمل فى إعداده ، وماذا أدخل فى تركيبه .

فقالت :

– ولكنى أنا . . .

ففهم مرادها :

– نعم أنت أيضاً أكتفى منك بهذا القدر . . . إن الأسئلة التى ستوجهينها إلىّ عن الصفحات التى قرأتها ، ستدلنى على مبلغ نفوذك فى عالم المعانى ، فكمية الصفحات التى تقرئينها لادخل لها فى الأمر إلا من حيث تذوقك ، وعدم تذوقك لما تقرئين . . . .

فصمتت قليلا ، وأرخت أهدابها ، وفتحت الكتاب ، وجعلت تقلب صفحاته وهى تفكر ، ثم قالت فى براءة وسذاجة ، وهى تقرأ عنوان الكتاب :

– « تاييس » . . . من « تاييس » ؟ . . .

فأجاب ، وقد ابتسم ابتسامة غامضة :

– ستعرفين ، إذا قرأت ! . . .

* * *

نعم . كان الكتاب الذى وضعه بين يدى الفتاة ، هو كتاب « أناتول فرانس » . . لماذا فعل ذلك على وجه التحقيق ؟ . . . ألأنه كان قريباً من متناول يده تلك اللحظة ، أم أنه تدبير مقصود ؟ ... فى الواقع إنهما معاً ! . .

إن هذا الكتاب قد فرغ من قراءته البارحة ، ولم يقرأه حديثاً إلا من أجلها هى ، ويود لو تقرؤه هى أيضاً ؛ ففيه مواقف يجب أن يعرف مدى فهمها إياها . . ومن يدرى ؟ . . لعل اختيار هذا الكتاب لها من أول الأمر توفيق منه ، فقد تدرك منه بعقلها أو بشعورها قداسة ذلك الجمال العلوى ، الذى نبذت فى سبيله « تاييس » كل عرض الدنيا وثراءها وبهجتها ، وهذا بعض ما يريد لهذه الفتاة ، أن يعمر قلبها نور جديد ، مبعثه السماء لا الأرض ، وأن تؤمن إيماناً صادقاً بالجمال المعنوى ، الذى لا تعرف اليوم معناه ولامداه . كل هذا قد تستشفه من قراءة « تاييس » ، ولكن . . . إنه يخشى أن تستشف شيئاً آخر أيضاً ، يخشى أن يستطيع ذكاؤها إماطة اللثام عن شخصية الراهب « بافنوس » وأن تنفذ عيناها إلى أعماق عواطفه ، فترى ما لا يريد لها الآن أن تراه . . . لماذا ؟ . . . وهنا اختلجت نفسه مرة أخرى . . . لا ، إن المقارنة بعيدة ، وينبغى دائماً أن تكون بعيدة ، إذا فطنت الفتاة إلى أى شبه بينه وبين « بافنوس » ، فقد انتهى كل شىء بينهما . . . إنه لن يتردد يومئذ عن رجائها فى عدم المجىء ! . .

* * *

ونهضت بالكتاب . ووضعت قفازها فى أصابعها ، ومدت يدها مودعة :

— أرجو ألا يشغلنى شىء عن قراءة هذا الكتاب حتى أعود إليك الأسبوع القادم ، رافعة الرأس ! . . .

وابتسمت ، ولكن الهواجس كانت ما تزال تساوره ، فمد يده

إليها ، لا للتحية ، بل لاسترداد الكتاب :

ـ أخشى أن أكون قد أسأت الاختيار ، ردى هذا الكتاب ، وخذى كتاباً آخر . . .

وظهر القلق والاضطراب جلياً فى صوته ؛ وتفرست الفتاة بعينيها البراقتين فى وجهه ، وقالت بعزيمة :

ـ لا . . . إنى أريد أن أعرف من هى « تاييس » ! . . . .



هل قرأت ؟

عادت الفتاة بعد أسبوع وطرحت أمامه الكتاب ، وتنفست الصعداء ؛ كأنها تلقى حملا ثقيلا . فبادر يسألها ، وهو يحد البصر إليها قلقاً :

— أقرأته ؟ . .

فتجنبت النظر إليه . . وقالت :

— بضع صفحات وضاق صدرى . . .

فتنفس الصعداء هو الآخر اطمئناناً . . إنها إذن لم تعرف شيئا مما احتواه ، غير أن شعور الراحة هذا لم يطل كثيراً ، فسرعان ما انقلب الأمر ، وأحس الأسف والغيظ وخيبة الرجاء لما حدث ، فالتفت إليها قائلا فى صوت الحانق :

— إذن فشلت التجربة ! . . .

فقالت وهى تصبغ شفتيها بأصبع الأحمر :

— ليس الذنب ذنبى ! . .

فلم يعجبه هذا الجواب ، ولم يرض كثيراً عن مسلكها ، وهمّ أن ينتهرها طالباً إليها أن تكف عن هذا التزين والتصنع فى حضرته ، وأن تحرص قليلا على احترام الفكر ، ولكنه ذكر أن ليس له عليها هذا الحق ، وأن الذنب حقيقة ذنبه ؛ إذ أسرف فى حسن الظن بمثلها ووضع بين يديها كتاباً لاتستطيع أن تقدر قيمته . . .

وفرغت من أمر برجها ، فالتفتت إليه وقرأت على وجهه كل تلك المشاعر ، ثم ابتسمت وقالت :

— أغضبت ؟ . . ألم تقل لى إنك تكتفى منى بقراءة بضع صفحات ؟ . . . هأنذى قد فعلت ! . . .

نعم ! . . . لقد قال لها ذلك حقاً ، فما الذى أغضبه ؟ . . . لا شك أن فى نفسه منبعاً مجهولا تنبعث منه كل هذه المشاعر المتناقضة . . . .

فنظر إليها وقد عاد إليه الهدوء :

— نعم ! . .

ثم تفكر قليلا ، وقال وهو يعبث بصفحات الكتاب :

— وما الذى منعك عن المضى فى قراءته ؟ . . .

فقالت وهى مطرقة :

— الملل ! . . . .

— إنه ليس كتاباً مملا . . . شهد الله لقد استيقظت فى جوف الليل لأقرأ فيه ، ولم يستطع النوم أن يقهرنى وهو معى ! ! . . .

فقالت له بابتسامة غامضة :

— لا أعجب . . إنك تحب سير الرهبان والمعتزلين ، أما أنا فما الذى يحملنى على متابعة القراءة فى صفحات كلها وصف لنُسَّاك الصحراء الذين يعيشون فى بطون الرمال مع العقارب والثعابين ، وينفقون شبابهم وأعمارهم مع أطياف الملائكة وأشباح العفاريت ؟! . . .

ونظرت الفتاة حولها على الرغم منها ، وجال بصرها فى المكان ، وانتقلت عيناها سريعاً من أكداس الكتب القديمة المرصوصة ؛ كأنها المقابر تحوى أفكاراً بغير جماجم ، وأرواحاً بغير أجساد ، إلى النافذة المغلقة التى تحجب الشمس والهواء ؛ كأنها فوهة جب أو كوة دير ، إلى ذلك المصباح الأخضر الذى يشرف على حياته المظلمة بأجنحته النورانية ؛ كأنه ملاك لطيف ، ويفترس فى ذات الوقت أعمار لياليه



الجميلة ليلة ليلة ، كأنه غول أو عفريت مخيف ! . . .

وعاد بصرها من هذه الرحلة فى أنحاء المكان ، ووقع عليه ، وأحس شعاع عينيها ينفذ فى روحه فأطرق . . .

وساد صمت ، قطعته الفتاة بقولها :

— إنى بدأت أرتاب . . . .

لفظتها فى صوت منخفض ، وكأنها تخاطب نفسها . . .

فرفع رأسه وقد سرت فى جسمه رعدة ، وأراد أن يستفسرها مرمى عبارتها ، ولكنها سبقت فى الكلام . . .

— أتذكر يوم جئتك أول مرة ورأيت نور الشمس لايدخل هذا المكان ؟ . . .

فقال كمن لايفهم المقصود :

— نعم أذكر ! . . .

فمضت تقول :

— أتذكر بماذا أجبتنى عند ذاك ؟ . .

— لا . . . . لست أذكر ! . . .

فقالت للفور :

— لقد كان جوابك : إنا نكتفى دائماً بالنور المضىء فى نفوسنا ! . .

فقال كمن يؤمن على قول بديهى ، أو نص سماوى :

— هذا صحيح ! . . .

فبادرت تقول :

— لا . . . هذا ليس بصحيح ! . . .

فحملق فيها دهشاً ، ورأت اتساع حدقتيه ، فقالت باسمة :

— أيدهشك هذا القول ؟ . . . أظنك ستدهش أيضاً إذا قلت لك شيئاً آخر ! . . .

— ماذا ستقولين ؟ . . .

ـ شيئاً لا يخطر لك على بال! . .

ـ إذن قولى وأسرعى . .

فقالت بتؤدة :

ـ أريد أن أرجو منك ، أن تشرفنى بالحضور ، لمشاهدتى فى لعب « التنيس » صباح الغد ! . .

فنظر إليها ملياً ليرى مبلغ جدها من هزلها ، ونظرت إليه خائفة لترى مبلغ حلمه من غضبه . . . وفكر هو فى الأمر : ماذا يقول لهذه الفتاة ؟! . . . لكن . . . قبل كل شىء لا ينبغى أن يثور ، وليأخذ الأمور باللين والرفق :

ـ أيتها الآنسة ، ماذا تقصدين ؟. . .

فنظرت إليه بعينين متسعتين :

ـ أكلامى مغلق مظلم يحتاج إلى نور كثير ؟ . . .

ـ من غير شك ! . . .

فحدجته بنظرة غريبة :

ـ تقول هذا ، أنت الذى اعتدت الحياة فيما هو مغلق مظلم ! . . .

فصدمته هذه الجملة . . . ولكنها أسرعت تشير بيدها إلى المكان :

ـ لست أقصد طبعاً غير هذا ! . .

فلم يحر جوابا ، ولبث بلا حراك ينظر إليها ويسأل نفسه : أتراها ترسل الكلام بسيطاً بريئاً ، أم أنها تنطق بكلام مبطن بمعان أخرى غير المدلول الظاهر ؟ . . إذا كان هذا الأمر الأخير فهو عجب من العجب ! . . وله أن يبحث عما ترمى إليه أولا ، وعمن علمها لغة الرموز ثانياً . . .

على أنه يحسن به أن يحتاط ، فلا شىء منها ينم بعد عن اتجاه بعينه . وينبغى دائماً أن يسىء الظن بهواجسه ، فليست هذه أول مرة تختلط فيها الأشياء برأسه . . . إن خياله الذى اعتاد طويلا خلق

الأشباح من الحقائق ، وذهنه الذى تعمره مخلوقات بعضها يعيش فى الحياة ، وبعضها يعيش فى الكتب ، ونفسه التى تسبح فى أعماقها عوالم، وتقوم بين طياتها دول، وتدول دول، وتشرق شموس وتغيب شموس، وروحه المنعزلة التى تدور فى فلك لها بسدمها بعيدة عن مدار الأرض. كل هذا يقصيه أحياناً عن حقائق هذه الحياة ، ويضعه فى موضع من يرى الدنيا من خلال كرة بلورية ، تحملها يد ساحر ساخر فوق دخان البخور وغمام الأوهام ! . . . .

على أن هذا الساحر فى حالته إنما هو هو نفسه ! . . نعم هو الذى صنع بيده كرة البلور ، هو الذى خلق من مادة ذهنه دنيا أخرى مماثلة للأولى ، هو الذى يضع كلا العالمين فى كف ، وإذا هو يلعب بالكرتين لعب الحواة حتى التبس عليه الأمر ، وما عاد يميز عالم الوهم من عالم الحقيقة! . . . نعم . . . تلك كارثته الكبرى ، وتلك هى النقمة التى تصب على كل ساحر ! . . .

* * *

واسترسل فى تأملاته حتى كاد ينسى وجود الفتاة ، وإذا صوتها الرقيق ينبهه ويخرجه إلى منطقة الوعى :

– لم أتلق جوابك بعد . . . أتأتى لمشاهدتى غداً ؟ . . .

– لمشاهدتك غداً ؟ . . .

– فى لعب « التنيس » ؛ كما قلت لك ! . .

– ما شاء الله ! . . ما شاء الله ! . . .

فقالت باسمة :

– ليس هذا جواباً ! . .

فقال حانقاً :

– أهنئك وأهنئ نفسى لهذا النجاح الباهر ! . . . لم يكفنا العجز عن إدخالك عالم الفكر ، حتى تعملى أنت على إخراجى إلى

عالم اللعب ! ! . . . .

فراعه منها أنها ضحكت. . . نعم ، ضحكت بفمها الجميل ضحك المسرور المرح ، ومضت فى ذلك وأكثرت ، حتى كادت تضحكه ، وخشى على جلال موقفه ، وعلى طبيعته الجادة ، وعلى سمو العلاقة التى بينهما ، ونبل الغاية التى يرمى إليها ، فملك نفسه فى الحال ، وقال بشىء من الصرامة :

ــ أخبرينى ، كيف خطرت لك هذه الفكرة ؟ . . وما الذى دفعك اليوم إلى مثل هذا الطلب ؟ . . وكيف تهيأ لك أن تحادثينى فى مثل هذه الأشياء ؟ . . ولماذا ؟ . .

فقاطعته قائلة :

ــ السبب بسيط . . .

وسكتت كالمفكرة ، فاستعجلها :

ــ ما هو هذا السبب البسيط ؟ . . .

فرفعت رأسها :

ــ تلك الصفحات التى قرأتها من كتاب « تاييس » أفهمتنى أن الراهب « بافنوس » هو الذى ذهب إلى الغانية فى ملعبها لينتشلها . . . أنت أيضاً ينبغى أن تفعل ذلك . . يجب أن تهبط إلى ملعبى لترتفع بى . . . هكذا يفعل الرسل والأنبياء دائماً ! . . يهبطون إلى الناس ، حتى يستطيعوا بعد ذلك أن يصعدوا بهم إلى السماء ، ولم يحدث قط غير ذلك ، ولا تنتظر أن أصعد أنا إليك توًّا بغير أن تهبط أنت إلىّ وتأخذ بيدى ! . . .

سمع منها هذا الكلام وهو لايكاد يصدق أذنه . . . ولقد اشتبه عليه الأمر ، وخيل إليه أنها سريرته التى تدوى بهذا الكلام وتصبه فى أذنه. . . ولكن فم الفتاة يتحرك ، وصوتها ينطلق جليًّا صافياً كأنه يتدفق من ينبوع ! . . .

لقد أدهشه قول الفتاة حقيقة، وعجب أن شفتيها اللتين لاتعرفان غير مس إصبع الأحمر، يمكن أن يخرج من بينهما هذا الكلام العميق... نعم إن الرسل والأنبياء ينبغي أن يتركوا سماءهم، ويهبطوا إلى الأرض كي يصعدوا بالبشر!...

هنا قوة الأنبياء والرسل، وهنا التجربة القاسية والامتحان الصارم الذى كتب عليهم أن يجوزوه، فعلى الرسول أن ينزل بين الناس ويمر بأدرانهم كما يمر شعاع الشمس بدود الأرض وحشرات التراب، ويخرج من بينها وضاءً نقياً لم يعلق به من القذر شيء! ... ثم هو فوق ذلك يخترق بطون الأشياء وصدور الكائنات، فيملؤها صحة وقوة، ويرتفع طاهراً كما نزل طاهراً، بعد أن غمر الوجود بالطهر والنور! ...

ذلك هو النبي الحق، لطيف كالضوء، خفيف كالهواء، إنه من مادة السماء، فهو دائم الاتصال بها مهما تركها، أما من هبط فرسب ولم يستطع العودة إلى الأعالى، فهو الرسول الكاذب، وإن الأرض لخداعة، وإن جمالها لبراق، وإن ابتسامتها لمغرية... وإنها لتنتقم أحياناً من أولئك الهابطين لاستنقاذ البشر من بين أحضانها. ويلذ لها أن توقعهم فى حبالها، وتمرغهم فى أوحالها، وتضحك من أجنحتهم البيضاء وقد عفرها التراب، ومن أرديتهم المقدسة وقد لطخها الطين! .. وتذكر الراهب «بافنوس» مرة أخرى، وتخيل كارثته ومأساته، وسقوطه فى نهاية أمره إلى عشق «تاييس» ذلك العشق الآثم، بينما ارتفعت هى إلى طهارة الروح، وبلغت مراتب القديسات:

لقد كان «بافنوس» مؤمناً زائغاً ...

وترك الفتاة تمضى ذلك اليوم، دون أن يصغى إلى طلبها؛ فقد قال لها إنه لن يغادر مكانه ولا كتبه من أجل شيء، ومهما يكن من أمر حجتها القوية، فإنه لايستطيع على كل حال أن يخرج مع فتاة، أو أن يذهب لمشاهدتها وهى تلعب «التنيس»، وإن كل صلته بها لاتعدو — ولاينبغى أن تعدو — الغرض النبيل الذى جاءت له، وهو التحدث فى شئون الفكر! ..

الزوج

مر يومان على زيارة الفتاة ، وإذا الباب يطرق على « راهب الفكر » ! . . . إنه ليس موعدها ، فمن الطارق ؟ . . وأذن فى الدخول ، وإذا هو أمام رجل ناضج السن حسن السمت ، أنيق الثياب ، مشرق الوجه ، لطيف الإشارة ، كل شيء فيه يدعو إلى احترامه ومحبته والائتناس به ، فحياه وقدم له مقعداً ، فجلس وقال :

ـــ إنك لاتعرفنى ، ولكنى أعرفك من كتبك ، منذ زمن طويل ؛ فلست أدرى ما الذى أقعدنى حتى الآن عن الحضور إليك! . . . من الأمانة أن أبادر فأقول : إن الفضل فى حثى على القدوم يُرجع إلى شخص آخر . . .

فنظر صاحب الدار إليه نظرة السؤال ؛ فمضى الضيف يقول :

ـــ إلى زوجتى ! . .

فأدرك رجل الأدب من الفور . . . غير أنه رأى أن يتريث ، فقال :

ـــ ألى الشرف أن تكون هى أيضاً من بين قرائى؟ . .

فقال :

ـــ أشد قرائك تحمساً ! . .

فأبدى المفكر دهشته :

ـــ كيف ذلك ؟ . . .

فقال الزوج مبتسماً :

— إن لهذه المسألة قصة طويلة ؛ ولكنى أكتفى الآن بالقول : إن زوجتى التى كانت تكره الكتب ، قد بدأت منذ أسابيع تقبل على القراءة على نحو أدهشنى ! . . لقد قرأت كتاب « تاييس » فى ثلاث ليال ! . . .

فملك الأديب نفسه حتى لايبدو على وجهه العجب . . . إن الفتاة قد كذبت عليه إذن يوم ردت إليه الكتاب قائلة : إنها لم تطالع منه سوى بضع صفحات ! . . كما كذبت عليه إذ زعمت أنها ليست بعد سوى خطيبة . . لماذا فعلت ذلك ؟ . . ولم يسترسل فى التفكير ، فقد مضى الرجل يقول :

— وإنها تقرأ الآن كتبك كلها ، وتكاد تفرغ منها ، وإنها تناقشنى فيها مناقشة تحرجنى أحياناً ، وتسألنى عنك أسئلة لا أستطيع عنها جواباً ، وأمس حينما أخبرتها أنى لم أرك قط ، سخرت منى ، ثم غضبت ، ولم تبسم حتى وعدتها أن أراك وأزورك وتنشأ بيننا صلة ! . . .

فقال للزوج :

— إنى سعيد بمعرفتك ، وأود لو ألقى عليك سؤالا .

— أسبق للسيدة زوجتك أن رأتنى ؟ . . .

فأجاب من فوره :

— لست أظن ! . . .

فازداد عجبه ! . . . إنها لم تخبر زوجها إذن بزياراتها له . . إن مسلكها غريب ! . . وكتم ما فى نفسه ، والتفت إلى الرجل ، وقال :

— وما السر فى إقبال زوجتك على القراءة أخيراً بعد طول الإعراض ؟ . . .

فقال الزوج :

— لست أدرى ، وهذا ما يوقعنى فى الحيرة ! . . .

فقال الأديب كالمخاطب لنفسه ، وهو مطرق يفكر :

– نعم ، هذا ما يحيرنى أنا أيضاً ! . .

ونظر الرجل إليه مستفهماً :

– أنت أيضاً ؟ . .

– نعم ، إن الإنسان لايحب الكتب بين يوم وليلة ! . . .

– إن زوجتى على جانب هائل من الذكاء وقوة العزيمة ! . . .

– هذا لا يكفى لتعليل الأمر . . .

ومر برأسه عندئذ خاطر ، فبادر يسأل الزوج :

– أرأيتها قرأت شيئاً آخر غير « تاييس » وغير كتبى ؟ . . .

فأجاب على الفور :

– لا ، لم تقرأ غير ذلك ، ولم تحادثنى فى غير ذلك ! . . .

وهنا أدرك – أو خيل إليه أنه أدرك – السبب الحقيقى . . . إنها تقرأ لا للقراءة ولا للثقافة ، ولكن للاستكشاف ! . . إنها تريد أن تنقب عن شىء ، وترفع النقاب عن شىء . . . آه للمرأة! . . . ينبغى أن نستثير فضولها ، وأن نوقظ حب الاستطلاع فيها ، حتى نحملها على فعل العجائب ! . . . لقد فهم الآن كل شىء . . . لقد نجح عفواً – ومن حيث لا يتوقع – نجاحاً باهراً فى وضع يده على مبدإ الطريق ، وفى سرعة لم تخطر له على بال قد ظفر بنتائج رائعة .

كان ينبغى أن يعرف من أول الأمر ، أن الوسيلةُ الأولى للترغيب فى القراءة ، هى استثارة الفضول الشخصى . . فإذا أردنا من طفل أن يجهد فى مطالعة رسالة ، فلنخبره أن فيها كلاماً عن هدايا ولعب ستهدى إليه ، وأخباراً ستدخل عليه السرور . . . أما القراءة المجردة التى يبتغى منها اللذة الفكرية العليا وحدها ، والاستمتاع بالجمال الذهنى لذاته ، فهى التى دونها المصاعب ، وهى التى تحتاج – فى اكتساب ملكتها – إلى زمن ومران . . .

على أن هنالك أمراً ما زال يكتنفه الظلام : ما هو هذا الفضول

الذى دفع الفتاة إلى قراءة « تاييس » كلها فى ليال ثلاث ، وإلى مطالعة كتبه بهذا التحمس والنشاط ؟ . . . أتراها أرادت بعد ذلك النفوذ إلى حقيقة شخصيته هو فى أعماق كتبه ؟ ! . . . إذا كان هذا ما رمت إليه فما هو الدافع ؟ . . . ألحظت شيئاً ؟ . . . كلا . . . إنه يفترض لهذه المرأة من الذكاء ما لا يمكن أن يحوى مثله عقل أنثى ! . . .

* * *

وقطع الزوج عليه تأملاته بقوله :

— كان ينبغى أن أقول ساعة دخولى الآن : إن الغرض من زيارتى أيضاً هو تقديم خالص شكرى ، وإظهار اعترافى بالجميل . . إذ لولا كتبك . . .

فرفع الكاتب رأسه وقال على عجل :

— كتبى لم تصنع شيئاً . . إن زوجتك لها من غير شك نفس رفيعة ، وإحساس دقيق ، وروح نبيل ! . . .

فقال الرجل بنبرة حارة :

— نعم ، ولكن هذه النفس الرفيعة النبيلة لم تظهر لى ، وتشرق لعينى وبصيرتى إلا أخيراً . . . إلا يوم قرأتْك . . . إنها يا سيدى قد انقلبت مخلوقاً آخر فى خلال أسابيع ؛ لطالما تمنيت أن أرى زوجتى فى صورة أخرى أرفع وأسمى من هذه الصورة التافهة للفتاة الطائشة التى لا تعرف غير « الخياطة » و « السينما » و « السباق » و « التنيس » و « السيارة » و « الحلاق » و « التواليت » ! . . .

تلك الفتاة الجاهلة ذات التعلم الزائف ، لا يعدو حديثها بضع عبارات فرنسية تلوكها فى سماجة كلما أحرجتها الظروف ! . . . تلك الفتاة المسكينة المغرورة ، التى تحسب أنها متمدنة ؛ لأنها عرفت كيف تضع بين أناملها إصبع الأحمر . . . تلك الفتاة التى تعرف أن لها فماً يجب أن يملأ ، ولا تعرف أن لها رأساً يجب أن يملأ أيضاً ، إذا أرادت

أن تجعل من نفسها شخصاً جديراً بالاحترام . . . إنى كدت أقنط ياسيدى من المرأة فى بلادنا . . . ولطالما قلت لزوجتى إنها قد تظفر منى بالعطف ، ولكنها لن تظفر قط بالإجلال الواجب لها ، إلا إذا عرف عقلها كيف يخاطب عقلى ، وهى لن تبلغ هذه المرتبة حتى تقرأ ما أقرأ ، وتتذوق من شئون الفكر ما أتذوق، وتستطيع أن تسد فراغ حياتنا الطويلة المستقبلة بحديثها الطلى المفعم بألوان الغذاء الفكرى المهضوم ! . . .

ومضى الزوج فى مثل هذا القول . . . والمفكر يصغى إليه فى ظاهر الأمر ، ولكنه فى الحقيقة كان يفكر فى مشكلة بدت له الساعة : إن هذا الرجل لايعرف أن زوجته قد زارت هذه القاعة مراراً قبل اليوم . . . إنها لم تخبره — وهذا شأنها — ولكنه هو . . . راهب الفكر ! . . . هل يجوز له أن يمضى فى صمته ولا يفضى إلى الزوج بما حدث ؟ . . . هل يليق بمثله الكتمان ؟ . . . على أنه من جهة أخرى يخشى إذا هو أخبره أن يرتكب حماقة ، ويعرض هذه الزوجة لغضب زوجها ، ويضعها موضع الحرج لإخفائها الأمر ! . . . ماذا يصنع ؟ . . . أينتظر حتى يبحث الموقف معها ؟ . .

لكن . . . هبها سبقت فبسطت لبعلها اليوم ما كان من شأنها معه ويعلم الزوج أنه لم يفاتحه والظرف مناسب والفرصة مواتية ؛ فماذا يكون موقفه ؟ ! . . . .

صاح فى أعماق نفسه :

— « آه ! . . . لماذا فعلت تلك المرأة ذلك ؟ . . . تبًّا للنساء ! . . اللهم ألهمنى مخرجا ! . . . »

القطيعة

ذهب الزوج ولم يجرؤ رجل الفكر على إخباره بنبأ زوجته ، ومضت الأيام ، وجاء الميعاد ، وحضرت السيدة فاستقبلها متجهماً ، فأدركت العلة وابتسمت قائلة :

— نعم ! . . . لقد كذبت عليك كثيراً ! . . .

فقال لها بشيء من الجفاء :

— ليس يهمني الآن كذبك عليّ ، إنما المهم هذا الموقف الذي وضعتني فيه . .

فقطبت جبينها :

— أي موقف ؟ . . .

فقال :

— لماذا كذبت على زوجك أيضاً ؟ . . . لماذا أخفيت عنه أمر زياراتك لي ؟ . .

فضحكت ضحك الطفلة المدللة المزهوة بعبثها ، غير الحافلة بذنوبها :

— لست أدري ، لقد نسيت أن أذكر لك أني — إلى جانب شغفي « بالتنيس » و« السينما » و« السباق » — أحب كذلك أحياناً « الكذب » ! . . .

فحملق فيها دهشاً :

— سبحان الله ! . . . أهو أيضاً قد أصبح فرعاً من فروع

ال « سپور » ؟ ! . . .

فابتسمت وقالت :

— نعم . . . إن مهمتك في هدايتي شاقة كما ترى ! . .

فلم يبتسم ، ولم تنفرج أساريره ، ولم يغادر وجهه ظل القلق القائم ، ولم يستطع أن يبرر أمام ضميره هذا الموقف الغامض ، فقال مطرقاً ؛ كالمخاطب لنفسه :

— وبعد ؟ . . . ما العمل ؟ . . .

فقالت ساخرة :

— يالفداحة المصيبة ! . . . إن هذه الأكذوبة من غير شك جريمة لن تغتفر ! . . .

— أتسخرين أيضاً ؟ . . .

— أرجو المعذرة . . إنى أراك مهموماً لغير أمر يستوجب الهم ! . . . كنت أحسبك مثلى ، لا ترى فى الحياة شيئاً يحمل على الاكتئاب ! . . .

فقال لها وهو ينظر إليها طويلا :

— هنيئاً لك هذه النفس التى ترى الحياة خلال مضرب « التنيس » !

فقالت باسمة :

— إنى أراها أكذوبة طريفة ، وألعوبة لطيفة ! . . .

فقال وكأنه يناجى نفسه :

— ليس لى مع الأسف الحق أن أراها كذلك . . إنما هى حقيقة واقعة ، وواجب محتوم ، وعبء ثقيل ؛ كتب على أن أحمله فوق منكبي حتى تخرج أنفاسى ! . . .

فقالت وهى تنظر إلى كتُبه وورقه ومكتبه الغارق فى ظلام المكان :

— نعم . . . إن حياتك حجر ملقى على ظهرك أمرت أن تسير

به إلى آخر المرحلة ! . . . لكن . . . لماذا أنت تراها كذلك ؟ ! . . .

فقال مفكراً :

ــ لست أدرى ، ولقد قلتها أنت : إنى أمرت أن أسير هكذا . . وهل أملك أنا حرية النظر ؟! . . . إنك قد خلقت لتعيشى حياتك ، وأنا قد خلقت لأعيش حياة فكرة ؛ فأنا لست أرى الشمس والهواء ، ولكنى أرى الفكرة التى تحرك وجودى ؛ كما تحرك اليد القفاز ! . .

هكذا أراد لنا القدر . . . ما أنت لديه إلا كرة من كرات « التنيس » ، يقذف بها فى الفضاء . . فأنت حرة حرية هذه الكرة ، أما أنا « فمضرب » فى يده ، مسخر لغايته ، حبيس فى كفه ، لا يطلقنى منها حتى ينتهى اللعب ! . .

فقالت على مهل ؛ كأنها تتأمل عباراته :

ــ هذا صحيح . . . لكن ؟ . .

وعاد إلى نفسه ، وذكر ما كان يشغل باله قبل ذلك فأسرع يقول لها :

ــ لكن أخبرينى أنت : لماذا أخفيت عن زوجك ؟ . . وإلى متى تنوين المضى فى . . .

فعاد إلى شفتيها الابتسام ، وقالت :

ــ ينبغى أن أريح ضميرك المعذب ، وأقول لك إن أمر زياراتى يجب أن يظل بيننا سرًّا خفيًّا ، أنا وأنت وحدنا ! . . .

فقال لها :

ــ أتظنين أنك تريحين ضميرى بهذا الكلام ؟ ! . . .

فنظرت إليه مليًّا :

ــ أترانى حقيقة أرتكب خطيئة من الخطايا ؟ . .

فقال لها على الفور :

ــ بلا شك . . وتريدين أن تشركينى معك فيها ! . . .

ــ أفى احتفاظنا بهذا السر خطيئة ؟ . . .

— ليس لنا أن نخفى عن زوجك سراً . . .

فأطرقت لحظة ، ثم رفعت رأسها ، وقالت كالمخاطبة لنفسها :

— أليس لى أن أحتفظ فى مجاهل نفسى بمنطقة لايرتفع إليها إنسان ؟ . . إنى أشعر بشىء لست أدرى مبلغ فهمك إياه ! . . . إن المرأة وحدها تفهمه . . . لابد للمرأة من أن تخفى شيئاً عن زوجها . . . قد يكون سواراً من الذهب تشتريه خلسة ، وقد تكون ذكرى من ذكريات ماض عزيز . . وقد تكون فكرة نبيلة أو سخيفة تؤمن بها ولاتحب أن تشرك أحداً فيها ! . . إن إحساسى اليوم هو من هذا القبيل . . إن زيارتى لك ، وأحاديثى معك ، وآرائى التى أفضى بها إليك ؛ وسويعاتى التى نتبادل فيها معاً شئون الفكر — كل هذا ينبغى أن يوضع فى صندوق من صناديق الحلى، ليس له غير مفتاحين : أحدهما معى ، والآخر معك . . .

* * *

أطرق الكاتب ملياً ولم يحر جواباً ! . . مهما يكن من أمر فإن هذه المرأة تضعه موضع الحرج ، وقد كان يتحمل هذا الموقف لو لم ير زوجها . . أما وقد رآه وعرفه ، ويتوقع أن يتكرر اللقاء ، وأن تنمو بينهما الصلة — فكيف يستطيع المضى فى كتمان الأمر عنه ؟ . . . على أنه من ناحية أخرى يجب أن يفهم تفكير المرأة وأن يحترم إرادتها ، وأن يبقى لها على هذا الخيال الجميل ، الذى تحب دائماً أن تحيط به الأشياء ، إذن فلا مفر من السكوت ، وليتجاهل الصلة التى بينهما ! ... وما دام الزوجان سيزورانه فى أوقات مختلفة ، فليفترض أنهما بالنسبة إليه صديقان منفصلان . . .

ولكن المرأة التفتت إليه قائلة :

— هنالك مع ذلك أمر يحسن أن أنبهك إليه .

فنظر إليها قلقاً :

ـ ما هو ؟ . . .

ـ سوف يدعوك بالضرورة زوجى إلى زيارتنا ، أو إلى مشاهدة « التنيس » حيث يقدمك إلى ، فحذار أن يبدو عليك . . . فلم يسمع الباقى ، ولم يطق صبراً وصاح فيها صيحة دوت فى المكان :

ـ أيتها السيدة ! . . لن أسمح لهذا العبث أن يمتد إلى أبعد من هذا ! إنك من غير شك تعبثين وتلعبين : وأنا الذى أحسن الظن بتصرفك ، وأسبغ عليه كل ما أستطيع من افتراضات عالية ! . . .

فاحمر وجهها ، وقالت ببراءة الطفل الذى لم يفطن إلى ذنبه :

ـ ما الذى حدث منى ؟ . . ما الذى أغضبك ؟ . . .

فحدد إليها البصر دهشاً :

ـ عجباً ! . . ألا تعرفين ماذا أغضبنى ؟ . . .

فقالت بشىء من الوداعة والدل :

ـ أتتهمنى بالعبث واللعب ؟ . .

فقال وقد ترفق فى الكلام :

ـ وماذا أسمى طلبك إلىّ أن أمثل دوراً روائيًّا ، يوم يقدمنى إليك زوجك ؟ . . أتظنين رجلا جاداً مثلى خليقاً أن يفعل ذلك ؟ . . . إن ما تشاهدينه فى « السينما » لاينبغى أن يؤثر فى فهمك لحقائق الأشياء ، ولا أن يفسد من تقديرك للأمور ! . . إنك أيتها السيدة ما زلت واقعة تحت تأثير عالمك التافه ، وما زال أساتذتك السخفاء : « السينما » و « التنيس » و « السباق » هى التى تقود خطواتك فى الحياة ! . . .

فنظرت إليه نظرة كلها عتاب لاينكر أنها أثرت فى نفسه ، وقالت :

ـ أهذا رأيك فىّ حقًّا ؟ . . .

فتماسك وقال :

ـ نعم ، مع أسفى الشديد ! . . .

ـ كنت أحسبك تعتقد أن زياراتى السابقة قد استطاعت أن ترفعنى إليك درجات . . .

فقال لها ، بدون مداراة :

ـ لا يا سيدتى ! . . بل إنها قد استطاعت أن تنزلنى إليك دركات ! . .

ففتحت فمها دهشة لصراحته وخشونته ، وقد فوجئت بهما لأول مرة ومضى هو يقول :

ـ ألاتصدقين؟ . . . ألاتصدقين أنك تجذبيننى إلى أسفل؟! . .

فقالت بصوت أحس فى باطنه غبطة مستورة وارتياحاً خفياً :

ـ أنا إذن لى عليك تأثير . . .

فأسرع قائلا :

ـ سيئ ! . . لقد حاولت أن تعلمينى « الكذب » ، وأن تهبطى بى إلى ملاعب « التنيس » ، وأن تلجئينى إلى تمثيل دور من أدوار « السينما » ! . . كل هذا فى مدى زمن قصير ! . . أرأيت مقدار نجاحك ؟ . . . .

فضحكت ضحكاً طويلا رقيقاً ، امتزج رنينه الفضى بوميض اللآلئ المنبعث من ثغرها . . ثم قالت :

ـ وأنت ؟ . . ألم تنجح معى فى شىء ؟ . . .

ـ لست ألمح بوادر نجاح مطلقاً ! . .

غير أنه ذكر فجأة قول زوجها له : إنها قرأت « تاييس » فى ثلاث ليال ، وإنها عكفت على مطالعة كتبه كلها ! . . . وإن هذه القراءة مهما يكن الباعث لها ، تعتبر تقدماً على كل حال ، وخطوة فى طريق الوصول بالنفس إلى مرتبة أسمى ، وأراد أن يستوثق من هذا الأمر ، فسألها فى ذلك ، فتغير وجهها قليلا ، ثم ملكت



نفسها وقالت :

ـ من أخبرك أنى قرأت كل هذا ! . . .

ـ زوجك ! . . .

فقالت ، وهى تحد إليه البصر :

ـ أوَ صدقته ؟ . . .

فلم يدر بماذا يجيب ، غير أنه فكر مليًّا فى الأمر ، ثم قال للجميلة بجد قاس ، وعزم قاطع :

ـ اسمعى أيتها السيدة ! . . لقد انجلى لى الأمر الآن : أنت فيما يظهر لى قد بلغت غايتك . إن زوجك يعتقد على أى حال أنك تغيرت وأنك تقرئين ، فإما أنك قد خدعت زوجك ، وتحايلت عليه ، وأدخلت فى روعه كذباً هذا الاعتقاد ؛ فهو نجاح على طريقتك ، وإما أنك حقيقة قد تغيرت وتذوقت الأدب ، فتلك بغيتنا ، ولم تبقَ لك من حاجة إلى زيارتى ، فاسمحى لى إذن أن أحييك ، وأن أشكر لك تشريفك هذا المكان ، وأن أودعك ! . . .

فنظرت المرأة إلى وجهه لحظة ، ورأت الجد فى ملامحه والعزم فى عينه ، ولحظت منه حركة انصراف عنها إلى كتبه وورقه ومشاغله الفكرية ، وشعرت كأن سماءه الباردة قد نادته إليها ، وأن عالمه الصارم قد استرده إليه ، فلفظت من بين شفتيها بصوت كالهمس :

ـ وداعاً ! . . .

ولم تزد على تلك الكلمة شيئاً ، وتناولت قفازها ، وجعلت تضع أصابعها فيه على مهل ، ثم قالت :......

ـ وأشكرك ! . . .

ومضت إلى الباب ، واختفت كما يختفى الشبح ، وذهبت كما يذهب الحلم . . .

الفراق

مرت أيام اعلى ذهاب تلك المرأة الجميلة، و « راهب الفكر » منصرف إلى أعماله المعتادة ، لايفكر فيها كثيراً ، ولايأبه لأمرها ؛ فقد كان يعتقد فى قرارة نفسه أنها لامحالة عائدة إذا انقضى الأسبوع ؛ شأنها فى كل مرة ، ولكن اليوم الموعود جاء ولم تأت ، فخامره شيء من القلق سرعان ما تبدد ؛ فقد تذكر أنها كانت تتخلف أحياناً عن الموعد المضروب . . . ولعلها فى هذه المرة — وقد انصرفت فى شبه استياء — أرادت أن تشعره بغضبها عليه فتباطأت ، وأنها لن تتوانى عن المجيء فى الأسبوع المقبل، ولكن الأسبوع المقبل جاء ولم تحضر . . .

هنا اتخذ تفكيره فى شأنها صورة جديدة لم تبد له من قبل ، فقد توالت الأيام عليه بعدئذ وهو يسلك سلوكاً غريباً ، ولعل خادمه لحظ ذلك منه . . . فما من طرقة على الباب لم يسأله سيده عن طارقها . . . وهو الذى كان لايرفع رأسه من أعماق كتبه وورقه ولو هدم الباب من الطرق ؛ بل إن سيده جعل يصيح بين لحظة وأخرى :

— « اذهب وافتح الباب فقد خيل إلى أنى أسمع طرقاً . . . »

فيذهب الخادم ولا يجد أحداً . . . أما جرس التليفون فقد كان يهرع إليه بنفسه ، وينتزع السماعة انتزاعاً ليطرحها بعد قليل خائب الأمل ، ولم يعد يقرأ بريد الصباح بتلك العناية السابقة ، ولكنه كان

يفرز الخطابات فرزاً سريعاً ، باحثاً بعينه المتلهفة عن خط بعينه ، ويفض الرسائل على عجل ، راجياً أن يعثر على بينها على رسالة بالذات ! . . .

ولبث كذلك أياماً أخرى لايفعل شيئاً إلا انتظارها : لماذا لم تعد ؟ . . . كيف تمضى هذه الأسابيع دون أن تأتى ؟ . . ما الذى منعها من المجىء ؟ . . . كان لاينفك يلقى على نفسه هذه الأسئلة وعينه لاتفارق الباب شوقاً إلى شبحها ، وأذنه تترصد جرس التليفون لهفة على صوتها : أتراه قد نسي أنه هو الذى رجا منها الانصراف إلى غير عودة؟ . . أطلب إليها ذلك حقاً ؟ . . . أكان جاداً فى الطلب ؟ . . ياللعجب ! . . أهو مجنون حتى يريد فراقها ويطلبه ، ويسألها إياه ؟ . . . ولكنه فعل ذلك مع الأسف . . . نعم . . . إنه يتذكر الآن كل شيء . . لقد أفهمها أنه لايجد مبرراً لزياراتها ، وتركها وانصرف إلى شأنه ، وهى واقفة تنتظر منه كلمة لطيفة ، إلى أن يئست فذهبت! . . وكان آخر ما سمعه منها همسة الوداع ، تبعتها كلمة واحدة هى : «أشكرك» ! . . .

كيف يأمل الآن فى عودتها بعد ذلك ؟ . . وهيهات أن يستطيع العثور عليها اليوم . . . فهو لايعرف اسمها ، ولم يحفل قط أن يسألها أين تقطن ؟ . . . وهو لايعلم اسم زوجها ، ولابد أن هذا الزوج قد ذكر له اسمه يوم جاءه زائراً . . . ولكنه كعادته لاتلتقط أذنه الأسماء التى تلفظ ، ولاتحتفظ ذاكرته بها إلا إذا توثقت بينه وبين أصحابها الصلة . . . وهو فى هذه الحالة لم يكن يقدر أنه سيحتاج يوماً إلى الحرص على معرفة هذه السيدة أو زوجها ، إنها ذهبت إذن إلى غير رجعة . . وإنه لفراق لا لقاء بعده ، ولقد أضاعها فى الفضاء كما تضيع الضربة الطائشة كرة « التنيس » ! . . . ألم يقل لها يوماً إنها فى نظر القدر ليست إلا كرة ، وإنه هو ليس إلا « مضرباً » ، فى يده مسخراً لغايته ؟ . . . ترى لماذا أراد القدر القاسى أن يطوح المضرب بالكرة هكذا إلى حيث

لايدرى لها مقرًّا ؟! . . أترى القدر حقًّا هو الذى أراد ، أم هى حماقته؟ . . . إنها كانت شيئا جميلا اعتاد أن يراه . . . إنها كانت عطراً اعتاد أن يتنسم شذاه . . إنها كانت لعبة بديعة اعتاد أن تسرى عنه . . . إنها كانت روحاً لطيفاً يملأ بيته حياة ، ونوراً بهيجاً يبدد ظلام أيامه ! . . إن زيارتها الأسبوعية كانت قد استقرت فى برنامج عمله ، ورسخت سويعاتها فى صميم مشاعره . . . إنه اعتاد انتظارها ، فكيف يعيش الآن بغير هذا الانتظار ؟ . . . وهذه الفكرة وحدها كانت تقطع سويداءه كأنها سكين . . لم يبق له منها حتى حلاوة انتظارها ! . . أستمضى به الشهور هكذا ، وهو لايستطيع حتى أن ينتظرها ؟! . . .

ومرت براهب الفكر ليال مروعة لم ينعم فيها بالنوم الهنىء ؛ فقد كان طيفها يمر برأسه فى الإغفاءة الأولى ، وتبدو له فى ثيابها التى اعتاد أن يراها فى مثلها ، وفى عطرها المحبوب الذى يملأ قلبه سعادة ، ولقد كان يراها فى أحلامه أحياناً ؛ وكأنها عادت تعتذر عن غيبتها الطويلة ، وتخلفها فيما مضى من أسابيع وهى تخلع قفازها على مهل ، وتنظر إليه نظرة الود العميق . . . فيفطن من صدمة هذه الرؤيا ، ويفتح عينيه ، ويعلم أنه حلم . . . فيظل فى فراشه لايستطيع رقاداً بعد ذلك حتى الصباح ! . . . إنه عذاب ما كان يتوقعه ، وما كان فى الحساب ، حتى القراءة التى كان يعتصم بها أحياناً ما أفلحت فى إنقاذه . . .

لقد نهض من نومه مذعوراً ذات ليلة ؛ إذ خيل إليه فى الحلم أنها تطرق الباب ، فلما رأى خيبة أمله ، واستعصى عليه النوم ؛ لجأ كعادته فى ليالى السهاد إلى الكتب ، وتخير كتاباً فى الفلسفة « لأبى بكر الرازى » ، جعل يطالع منه هذه الصفحة من رأيه فى الحب :

« إن مفارقة المحبوب أمر لابد منه اضطراراً بالموت ، وإن سلم من سائر حوادث الدنيا وعوارضها المبددة للشمل ، المفرقة بين الأحبة ،

وإذا كان لابد من إساغة هذه الغصة ، وتجرع هذه المرارة فإن تقديمها والراحة منها أصلح من تأخيرها والانتظار لها ؛ لأن ما لابد من وقوعه متى قدم أزيحت مؤونة الخوف منه مدة تأخيره ،وأيضاً فإن منع النفس من محبوبها قبل أن يستحكم حبه ، ويرسخ فيها ويستولى عليها ؛ أيسر وأسهل . . . وأيضاً فإن العشق متى انضمت إليه « الألفة » عسر النزوع عنه ، والخروج منه ، فإن بلية « الألفة » ليست بدون بلية العشق ، بل لو قال قائل إنه أوكد وأبلغ منه لم يكن مخطئاً ، ومتى قصرت مدة العشق ، وطال فيه لقاء المحبوب كان أحرى ألا تخالطه وتعاونه « الألفة » ! . . والواجب فى حكم العقل من هذا الباب أيضاً المبادرة فى منع النفس ، وزمها عن العشق قبل وقوعها فيه ، وفطمها منه إذا وقعت ، قبل استحكامه فيها . . . وهذه الحجة يقال إن « أفلاطون » الحكيم احتج بها على تلميذ له ، بلى بحب جارية ، فأخل بمركزه من مجلس مدارس « أفلاطون » ،فأمر أن يطلب ويؤتى به ، فلما مثل بين يديه قال له :

— أخبرنى يافلان ! . . هل تشك فى أنه لابد لك من مفارقة « حبيبتك » هذه يوماً ما ! . . .

قال :

— ما أشك فى ذلك ! . . .

فقال له « أفلاطون » :

— فاجعل تلك المرارة المتجرعة فى ذلك اليوم فى يومنا هذا ، وأرح ما بينهما من خوف المنتظر — الباقى بحاله الذى لابد من مجيئه ، وصعوبة معالجة ذلك بعد الاستحكام ، وانضمام الألفة إليه ! . .

فيقال : إن التلميذ قال « لأفلاطون » :

— إن ما تقول أيها السيد الحكيم حق . . . لكني أجد انتظارى له سلوة بمرور الأيام عنى أخف علي . .

فقال له « أفلاطون » :

— وكيف وثقت بسلوة الأيام ولم تخف ألفتها ؟ . . ولم آمنت أن تأتيك الحالة المفرقة قبل السلوة و بعد الاستحكام، فتشتد بك الغصة ، وتتضاعف عليك المرارة ؟ . . .

فيقال إن هذا الرجل سجد فى تلك الساعة « لأفلاطون » ، وشكره ، ودعا له ، وأثنى عليه ، ولم يعاود شيئاً مما كان فيه ، ولم يظهر منه حزن ولا شوق . . إلخ » .

قرأ « راهب الفكر » ذلك ثم طوى الكتاب ، وهو يقول فى نفسه :

آه لهؤلاء الفلاسفة الذين يحسبون أنهم بمثل هذا الكلام الجيد والمنطق السديد يحلون مشاكل العواطف الإنسانية ! . . . ثم تأمل ما قرأ منذ لحظة ؛ وتذكر ما كان من أمره مع تلك الجميلة . . إنه سلك معها المسلك اللائق به وبها ، فلم ينب عن القصد من زياراتها ، ولم يخرج عن الغرض النبيل الذى كان يحملها على المجىء ، ولم يلفظ كلمة ما كان ينبغى أن يلفظها ، ولم يبد عاطفة ما كان يجب أن يظهرها ! . . .

لقد تصرف معها —من البداية إلى النهاية— عين التصرف الذى يمكن أن يصدر عن الفيلسوف الإسلامى « أبى بكر الرازى » ، وعن الفيلسوف اليونانى « أفلاطون » ، لو أنهما كانا فى مكانه ، ولقد خشى الألفة أن تستحكم ، والجد أن ينقلب عبثاً ، فقطع الصلة من الفور ! . . وها هى ذى النتيجة واضحة صارخة ! . . . أتراه لم يكن يدرك حقيقة مشاعره نحوها ، من أول الأمر ؟ ! . . . أم أنه كان يدرك بعض الإدراك ، ولكنه حسب الأمر أقل خطراً من أن يشغل باله أو يقتضيه البت السريع . . . وإذا كانت العاطفة لم تظهر جلية إلا بعد أن أدى واجبه وقطع الصلة وأغلق الباب ، فما ذنبه عندئذ وما جريرته ؟ . . . وما المطلوب منه وقتئذ فى نظر « الرازى » و « أفلاطون » ؟ ! . . .

لم يتلق بالطبع جواباً عن هذه الأسئلة ، ولم يكن فى حاجة إلى جواب ، بل كان فى حاجة إلى ما يخفف عنه ما به ؛ فهو من غير شك قد قام بما أوصى به الفلاسفة ، ولكن الفلاسفة ، رقدوا فى بطون كتبهم ، متدثرين فى صحائف منطقهم البارع ، وتركوه ساهراً يدمى جفنه الأرق ، ويحرق قلبه الشجن ! . . .



السهاد

انصرمت أسابيع أخرى ، لياليها بيض من السهاد ، وأيامها سود من القنوط . . . وهو على حاله ما تغير . . فهو لم يستطع أن ينساها على الرغم مما بذله من جهود وما فرضه على نفسه من إرادة ، وما تشبث به من عناد ، فكل شيء حوله كان يذكره بها ؛ فهذا الباب الذى كانت تدخل منه ، وهذا المقعد الذى كانت تجلس عليه ، وهذه النافذة التى كانت تلتمس منها ضوء الشمس ، وهذه الخزانة التى كانت تتأمل كتبها المرصوصة ، وهذا المكتب الذى كانت تنظر إلى ورقه المبعثر ؛ بل إن الجدران كانت تذكره بصدى ضحكاتها الرقيقة وأحاديثها وأكاذيبها . . وحواره معها — ذلك الحوار الذى لم يكن يأخذه على سبيل الجد . . .

ولم يكن يدرى أنه سيضطر يوماً إلى الحرص على ذكراه ، والاعتزاز بكل كلمة من كلماته والتعلق بكل نبرة من نبراته . . إن حديثه معها الذى كان حيناً تافهاً وأحياناً بارداً ، هو عنده اليوم شيء نفيس لا يقدر بمال . . إنه غذاؤه الذى تعيش عليه الآن روحه . . . إنه يخرجه من ذاكرته فى كل يوم بنصه ليحدث به نفسه من جديد . . . إنه ليجتر اجترار البعير لغذائه القديم ، وهو سائر يتضور فى مجال الصحراء الجرداء . . بل إنه ليفرغه كل مساء من رأسه ليتأمله كلمة كلمة كمن يفرغ اللآلئ من صندوقها ليرى وهجها لؤلؤة لؤلؤة . . .

كل هذا صنعه فى تلك الأسابيع الطويلة بعد أن يئس اليأس كله من لقائها . . . على أنه أحياناً كان يندم الندم المر على ذهاب تلك الأيام ، فى مثل تلك الأحاديث ! . .

آه . . . لو علم لخاطبها بكلام رائع حقًّا ، وأسال بين يديها نفسه كلها ، ولكنه مع ذلك لم يندم على سلوكه معها ذلك السلوك الرفيع ؛ فهى امرأة متزوجة ؛ وما كان ينبغى أن يكون بينهما أكثر مما كان ! . . . . ربما هو يطمح الآن فى قرارة نفسه إلى شىء من المودة. من المودة الحارة العميقة يربط أحدهما بالآخر . . . ولكن من ذا يضمن له أن طموحه كان يقف عند هذا الحد ؟ . . . ما من شك لديه أنه أحسن صنعاً بإسدال الستار على هذه القصة فى الوقت المناسب ، فهو ليس الرجل الذى يحيد عن واجب الشرف ، أو يصرف زوجة عن واجبها المقدس نحو زوجها . . لقد قام بواجبه المحتوم ، وما كان فى وسع مثله أن يفعل غير ذلك . . .

أما الألم الذى عاناه بعدئذ ويعانيه ، فهو شىء خفى لايراه أحد ولا يعلم به إنسان ، ولا ضرر فيه للناس ، ولا مساس فيه بحقوق الغير ! . . وما دام قد سمح له بهذا الألم ، فلماذا لايسمح له أيضاً بالحب ؟ . . بهذا الحب الخفى الذى لايراه أحد ولا يدرى به حى ! . . . واستيقظ « راهب الفكر » ذات مرة فى جوف الليل ، وأضاء مصباحه ، وجلس إلى مكتبه ، وقد وطن العزم على أن يستأنف حديثه مع من أحب . . ويمضى فى تلك الصلة الروحية مع طيفها . . . ذلك الطيف الذى يوقظه فى ليله ، ولا يفارقه فى نهاره ، فليفرد لها صفحات يدون فيها رسائل إليها . . لن تطلع هى ولا ريب أبداً عليها ؛ فربما كان فى ذلك تسرية عنه ، وربما كان فيه أيضاً إكبار للحب بغير إنكار للواجب ! . . .

* * *

ودقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وهو يمسك بالقلم ليسطر إليها هذه الرسالة :

« صديقتى ! . . .

آه . . . لو أتيح لك أن تعلمى ما حدث لى بعد ذهابك ؟ . . . إنك تنامين الساعة ملء جفنيك ، ولن يخطر على بالك أن هنالك رجلا ساهراً من أجلك . . ومن هذا الرجل ؟ . . . هو ذلك الذى تركك تذهبين دون أن يبدو عليه اهتمام بحضورك وغيابك ، إنى ألمح الدهشة فى عينيك لو علمت ذلك ، ولكنك لن تعلمى أبداً ، ولا ينبغى أن تعلمى أبداً ! . . . كل ما أطمع فيه أن أحادثك هنا طويلا ، وليس من الضرورى أن تبادلينى الحديث ؛ فإنى أعرف وقع ما أقول فى نفسك ، وأرى ابتسامك لما يروقك من القول ، وتقطيبك لما يسوءك منه ؛ فأنت حاضرة أمامى متتبعة لكلامى بوجهك ، وأهدابك ، ونظراتك ، وشعرك ، وثغرك ! . . . .

سأحدثك كثيراً عن كل ما يجول بنفسى من أشياء ، دون أن أخشى أن أثقل عليك ، وهنا فضيلة الحديث على هذا الورق الصامت ، فهو يستطيع أن يخدعنى على الأقل ، ويوهمنى أنك لاتضيقين بى ذرعاً ، وأنك تصغين إلىّ ، وبك عطف علىّ . . . .

آه! . . . ما الذى يجعلنى أذكر « العطف » اليوم ؟ . . . تلك كلمة لم ألفظها منذ زمن طويل . . . إن حياتى فى الحق لأقتم مما كنت أتصور . . . نحن أهل الفكر نسير دائماً فى صحراء محرقة ؛ فلا نفطن إلى مشقة الطريق إلا يوم تصادفنا واحة خضراء ، فنجلس فى الظل ساعة وقد تبدت لنا قسوة الحياة علينا ، وتساءلنا كيف احتملنا كل ذلك حتى الآن ؟ . . . ثم لا يلبث أن يدعونا واجبنا إلى المسير ، فننتزع أنفسنا انتزاعاً ؛ لنقذف بها فى ذلك الجحيم من جديد ! . . .

كونى أيتها الصديقة لى عزاء . . . وليكن طيفك لى رفيقاً يمشي إلى جانبي . . . إنى فى حاجة إلى مجرد طيفك ، لأن طريقى موحش حقاً . . إنه ليس الصحراء كما قلت لك الساعة ، فالصحراء فيها على الأقل متعة السكون ! . . وإن النفس لتصفو فى إصغائها إلى السكون ، ولكنى أسير فى عالم يضج بالسفالة والقبح ، وأسبح فى بحر يصطخب بالحقارة والسخف ! . . إنى لأثور على نفسى أحياناً وأقول :

« لماذا لا أترك كل هذا وأعيش كما يعيش الآخرون ؟ . . .

ولكنى لا أستطيع ، لأنى أريد أن أحلم بأشياء جميلة ، ولابد دون ذلك من الثمن ، وهو تحمل سخرية الناس بنا على الأقل . . . ثقى أيتها الصديقة أنى لاأجنى أحياناً غير ذم الناس ؛ كأنى قد ارتكبت جرماً لايغتفر . . . لعلك قد قرأت كثيراً مما يكتب عنى فى الصحف ، ورأيت أى صورة يصنعونها لى من حين إلى حين . . . لقد كان ذلك يؤلمنى فى أول الأمر ، ولكنى لم ألبث أن اعتدت ذلك ، ثم انتهيت إلى الاعتقاد بأن هذا هو ما يجب أن يكون ، فما ينبغى أن يحسن الظن بالناس أكثر مما ينبغى ! . . . إنهم كذلك دائماً ، وكانوا هكذا فى كل زمان ، غير قديرين عن أن يصوروا الأشياء إلا على صورتهم ، وهأنذا اليوم كلما رأيت صورة لى ، أو وصفاً فى صحيفة من الصحف ابتسمت قائلا :

تلك هى الصورة التى لا يستطيعون أن يصنعوا غيرها أو يروا سواها . . . آه . . . إننا لفى حرب دائمة ... لا من أجل فننا وحده ، ولا فى سبيل مثلنا العليا وحدها ، ولكن مع أولئك الذين كرسنا حياتنا لنعطيهم شيئاً جميلا ! . . . .

لا أريد أن أطيل فى هذه الرسالة الأولى ، خشية أن تنفرى ! . . . إنى حريص على خيالك حرصى على حقيقتك ؛ لأنى لا أملك غيره ،

فلأضن به حتى على نفسى ؛ وأتمنى لك نوماً هنيئاً ! . . . »

وطرح القلم من يده ، ونهض ليسلم نفسه لنوم لايدرى أيجىء أم لايجىء ! . . .



رسائل إلى طيفها

توالت بعد ذلك رسائله إليها على مدى الأيام ، سائرة على هذا النحو :

صباح ١٤ فبراير سنة . . .

« صديقتى :

ما أجمل هذا الصباح ! . . . السماء زرقاء زرقة لم أر مثلها من قبل ! . . . لكأن الملائكة فى صفاء الأطفال تلهو فرحة ، وتلون بريشة مرحة صوراً « مائية » زرقتها زاهية وخضرتها ندية لكل ما تقع عليه عينى اليوم من مظاهر الطبيعة ! . . . إن هذا « الأكواريل » العلوى يملأ نفسى أنا أيضاً صفاء سماوياً ! . . . إنى لست فى كل الأحيان أبصر الألوان التى تحيط بى ، أو أسمع الأصوات التى تترنم حولى . . . كل شىء حولى الآن يتكلم ويضىء ويتحرك ! . . .

لم يبق عندى شك فى أن خادمى قد رأى منى عجباً ؛ فصوت الكنارى المحبوس فى قفصه لدى الجيران لم يعد يزعجنى ؛ بل إنى أصغى إليه باسماً . . فنحن الآن صديقان أليفان . . يفهم أحدنا الآخر . . . ولا أرضى أن يغلق خادمى النافذة بينه وبينى ، حتى فى ساعة عملى . . فهذا العصفور — فيما يخيل إلىّ — لديه هو الآخر كلام عنك يريد أن يحدثنى به! . . . »

مساء ٢٥ فبراير . . .

« صديقتى :

أجلس هذا المساء فى شرفتى ؛ لأن البدر الليلة فى التمام . وفى السماء بعض غمام يوهمنا فى سيره أن القمرهو الذى يسير ! . . ما لهذا القرص من النور يركض هكذا فى الفضاء ؟ ! . . . ترينه على موعد مع حبيب ؟ ! . . . إن القاهرة الساعة هادئة نائمة ، أشرف عليها من مكانى القصى ، بيوتها متساندة متعانقة فى حضن « المقطم » ؛ كأنها فراخ الطير فى وكر أمها ؛ بعضها قد أغلق عينيه أو نوافذه . واستسلم للنعاس . . . والبعض ساهر ، قد فتحها تلمع مضيئة فى ظلام الليل ! . . . ترى أين بيتك من بينها ؟ . . . وماذا أنت الساعة تصنعين؟.. لاشك عندى أنك الآن بجوار زوجك السعيد، تحدبين عليه بتلك الرقة التى أعرفها فيك . . . إنى لأراك دائماً فى صورة الزوجة المثلى ، ذلك الطراز من الزوجة ، الذى طالما تمنيت الظفر به ، ولكن الحياة ضنت به علىّ ! . . .

ما من رجل فى التاريخ سعد بزوجة عظيمة إلا تخيلتها على صورتك ، وأعطيتها ملامحك ، وأعرتها سماتك وصفاتك ! . . . كنت أقرأ عن « كارل ماركس » عندما طرد من بلاده ؛ لأن قومه وجدوا فى كتاباته الاشتراكية خطراً على كيان المجتمع ! . . لقد أبت زوجته إلا أن تخرج معه ، وتشرّد كما يشرد . . . وأراد أهلها أن يستبقوها بينهم ، وأن يجنبوها مصير زوجها المبهم وطريقه المدلهم ، فما زادها ذلك إلا تشبثاً به ، وبواجبها الزوجى ، فتبعته إلى أرض فرنسا . . فما كادا يحطان فيها حتى أرغما على الخروج منها . . . فخرجا إلى « إنجلترا » . . . كل هذا التشريد مع شظف العيش ، وحلك الأفق ، ما زعزع إيمان الرجل بفكرته ، ولا إيمان الزوجة بزوجها ! . . . لست أدرى لماذا أرى وجهك أنت ، كلما تذكرت تلك المرأة الفاضلة ؟ . . .

والبارحة أعدت قراءة حياة السياسى « دزرائيلى » لـ « موروا » لالشىء

إلا لأتصفح من جديد صورة زوجته « ماري آن »! . . . ليس الذى يدهشنى الصفحات الأولى لتلك الحياة الزوجية ؛ فالصفحات الأولى دائماً بهيجة فى كل حياة زوجية . ولقد قامت « مارى آن » بواجب الزوجة . التى تعرف كيف تجعل زوجها يعيش فى فردوس من العبادة! . . . كان هذا الرجل فى أشد الحاجة إليه ؛ فلقد كان يحس أنها لاتعيش إلا من أجله . ولقد كان فى لحظات يأسه ، وفتور همته . وشعوره بمرارة الخيبة والهزيمة — وما أكثر هذه اللحظات فى حياة هؤلاء الرجال — محتاجاً أشد الحاجة إلى من يعزيه ويواسيه ! . . . ولقد عزته وواسته وآزرته بما خفف عنه وهوّن عليه ! . . .

ولكن الصفحات الرائعات التى تعجبنى وتهز نفسى هى صفحاتها الأخيرة . . . يوم رقدت هذه الزوجة مريضة . لقد كانت تعلم منذ سنوات أنها مصابة بمرض قتال ؛ هو سرطان المعدة . . . غير أنها جاهدت جهاد الأبطال فى إخفاء ما بها عن زوجها ؛ كيلا تسبب له إزعاجاً . وكانت تتحامل على نفسها ؛ لتظهر إلى جانبه كلما اقتضت واجباتها الاجتماعية ظهورها ، وقد وضعت على صدرها — كما توضع « النياشين » — « أيقونة » كبيرة داخلها صورة زوجها . ولقد تقدم بهما السن والإعياء والمرض ؛ حتى تعذر على أحدهما العناية بالآخر ؛ فكان هذان الزوجان المتهدمان يتبادلان أحياناً الرسائل من حجرة إلى حجرة . . . فكان يكتب إليها قائلا : إنى الآن مستلق على ظهرى . . . فاعذرى الخط والقلم . . . لقد أرسلت لى الساعة أمتع وأفكه خطاب وصلنى فى حياتى . . . إن منزلنا قد غدا فيما أرى مستشفى ! . . . ولكن المستشفى معك خير عندى من قصر مع غيرك . . . »

وكانت هى تقول للأصدقاء :

« حياتى بفضل طيبته لم تكن سوى لحظة سعادة مستمرة . . . »

وكان هو يجيب :

« لقد تزوجنا منذ ثلاثين عاماً . ولم أشعر معها بلحظة ضجر . »

واشتد بها المرض آخر الأمر ، فلم تستطع إخفاءه ولم تنقطع مراسلاتهما اليومية البيتية ، فكان يكتب إليها :

« ليس عندى ما أقوله لك سوى : إنى أحبك . . . »

وكانت هي تكتب إليه :

« يا أعز ما أملك . . . إنى مشوقة إليك إلى حد مخيف . . . يالفداحة ما أدين به إلى طيبتك وإلى حنانك الدائم . . . »

وقطع كل أمل فى شفائها . فقد رفضت معدتها كل غذاء ، ورأى الناس لأول مرة على وجه « دزرائيلى » الرزين انقلاباً مخيفاً ، ينم عن فجيعته ، وماتت تلك الزوجة فى الخامس عشر من ديسمبر ١٨٧٢ م .

ووجدوا فى أوراقها هذه الرسالة :

« زوجى العزيز . . . إذا غادرت هذه الحياة قبلك ، فأمر بأن ندفن نحن الإثنين معاً فى قبر واحد ، والآن فليباركك الله . . أيها الطيب ! . . أيها العزيز ! . . . لقد كنت لى نعم الزوج . . . وداعاً ياعزيزى « ديزى » ! . . ولاتعش بمفردك . . . إنى أرجو من كل قلبى أن تجد من يكرس لك نفسه تكريس المخلصة لك »

« مارى آن »

ولقد تأثر لكارثته الأصدقاء والأعداء على السواء ، حتى « جلادستون » — خصمه السياسى العنيد — نسى سخيمته ، وكتب إليه يقول :

« لقد تزوج كلانا فى نفس العام فيما أذكر . . . ولقد ظفر كلانا فى خلال ثلث قرن بسعادة زوجية لاتقدر بثمن ، وأنا الذى أعفاه القدر من الضربة التى نزلت بك أستطيع أن أفهم . . . »

وأكد له أنه يتألم حقيقة معه ، ومن أجله . . . وقد كان مخلصاً فى ذلك ! . . .

ومرت الأيام على « دزرائيلى » بعد ذلك شاقة عسيرة . ولو كانت « مارى آن » حية ؛ لفخرت بما كانت توفره على زوجها من متاعب يضيق بها رجل ؛ فإنه منذ زواجه وهو ينعم بمنزل وخدم على أتم نظام دون أن يشغل باله بشيء ! . . . لقد كان يقول فى حسرة :

« وما من أمر يستلزم مشقة أو عناء ، لاتستطيع هى أن تواجهه؟ . . وما من صعوبة أو مشكلة ، لاتستطيع هى أن تدبر لها الحلول ! . . . لا أعرف امرأة فى مثل دأبها على ما فيه راحتى وسهرها على ما فيه خيرى » .

وهكذا ماتت « مارى آن » وليس فى مقدورها بعد الآن أن تحمى رجلها العظيم ، وفقد زوجها بموتها بيته . ذلك المكان الدافئ . حيث يجد الروح والجسم والاستجمام ، وحيث النقد ينقلب إطراء ، واللوم ملاطفة وعزاء . . إنه لن يعرف بعد اليوم عذوبة المأوى ! .. لقد كان يقول لسائقه : إلى «البيت» ! . . . فما يلبث أن يذكر أنه لم يعد له بيت ، فتتساقط العبرات من عينيه . . . ولولا بعض الأصدقاء الذين كانوا يسهرون عليه ، ويرحمون ما آل إليه ، لما أصبح أكثر من حطام . ولكن مهما يكن من عناية الأصدقاء : فهل هى تغنى عن حنان المرأة ؟ .. وفى صمت الحجرة وظلام الوحدة ، جلس ذلك الرجل مترصداً للذكرى الهاربة : ذكرى صوتها المرح ! . . .

تلك خلاصة هاتيك الصفحات التى هزت نفسى من ذلك الكتاب ، نقلت إليك أكثرها كى تحبى « مارى آن » كما أحببتها . . . ولعلك ترينها تشبهك ، كما رأيتها أنا شبيهتك . . . »

ليلة ١٩ مارس سنة . . .

صديقتى ! . . .

هنالك امرأة أخرى أحبها كثيراً . . لأنها أيضاً على مثالك وإن كنت لاأرى لها جمالك ؛ فإن تماثيلها أو صورها المنحوتة فى جدران

معابدها لاتنقل إلينا غير جمال فنى ، لايمكن أن نرتب عليه أى صلة بجمالها الطبيعى ! . . . تلك هى « إيزيس » المصرية ! . . . لا أريد أن أتعرض للجانب الدينى أو الإلهى فى أسطورتها . . . فالذى يعنينى فيها هو جانب الزوجة ... إن وفاءها لزوجها « أزوريس » لمعجزة فى نظرى من معجزات القلب الإنسانى ! . . . كان « أزوريس » ملكاً على أرض مصر قبل أن يسطر لمصر تاريخ علمى ، فجعل منها أمة متحضرة فى زمن قليل ، فاختفت منها العادات الوحشية ، وانقرض آكلو لحوم البشر ، واستتب فيها الأمن ، وحلت الديانات وعبادة الآلهة . . .

ثم شرّع « أزوريس » للناس القوانين ، وعلمهم الزراعة ، والحرف ، وتأسيس البيوت ، وتوطيد أركان مجتمع متمدن ، فلما تم له ذلك ، بدا له أن ينشر مثل هذه الحضارة فى أرض أخرى غير أرض مصر ! . . . فجعل يتغيب عن مصر من حين إلى حين ، تاركاً زوجته « إيزيس » تحكم المملكة فى غيبته ، فكان حكمها هى الأخرى أصلح حكم ! . . . وسارت فى كل شىء على غرار زوجها ، حتى أحبهما الناس وأحاطوهما بالتقديس ، ولكن عين الشر لاتنام ! . . .

لقد كان لذلك الملك عدو لدود ، هو أخوه « سيت » : كان يطمع فى أن يتولى هو حكم البلاد فى غيبة أخيه ، فلما خاب أمله ، دفعه الحقد إلى أن يدبر مؤامرة يتخلص بها من أخيه الملك « أزوريس » ، فانتظر حتى عاد إلى مملكته ودعاه إلى وليمة فاخرة ، أعدها احتفالا بعودته . . . وكانت الملكة « إيزيس » تحذر زوجها دائماً من عدوه « سيت » ، ولكن الملك الذى يجهل قلبه الشر ، لايستطيع أن يعرفه فى قلوب الآخرين ! . . .

وذهب « أزوريس » إلى وليمة خصمه ، فلما انتهوا من الطعام والشراب ، أحضر « سيت » صندوقاً بديع التركيب ، يخلب الأنظار ببراعة فنه ! . . كان قد صنعه مطابقاً لجسم أخيه الملك . . فلما

رأى عينيه تلمع إعجاباً بالصندوق . . التفت إليه وإلى المدعوين – وكانوا كلهم من أعوانه المتآمرين – وقال : « من طابق الصندوق جسمه فهو له ! . . . » . فتعاقب المدعوون على الصندوق ، كل بنوبته يرقد فيه . فلا يطابقه . . . إلى أن جاءت نوبة الملك . فنهض باسماً ، لا تخطر له الخيانة على باله . . . ورقد في الصندوق . فهجم الحاضرون عليه وأغلقوه . . وصبوا فوقه مغلى الرصاص . فختموه . وأمر « سيت » بالصندوق ، فألقى في النيل على مقربة من المصب . وهكذا ختمت حياة « أزوريس » وهو في الثامنة والعشرين من عمره ؛ كما قال قوم . . . ومن أعوام حكمه ؛ كما قال قوم آخرون ! . .

إلى هنا لا أجد في الأسطورة ما يهمني ؛ فقد كانت تلك أسطورة أكثر الملوك في العهود الغابرة . حتى في أساطير أوربا الحديثة نجد مثل هذا القصص . . . فرواية « هملت » لـ « شكسبير » إنما تقوم على ملك تآمر عليه أخوه ، واغتاله طمعاً في الملك . ولكن الأخ الخائن في « هملت » استعان بالملكة زوجة أخيه ، فشاركته الجريمة ، كما بادلته الغرام الآثم . . . لكن انظري هنا ماذا فعلت « إيزيس » ؟ . . . إنها ما كادت تعلم بما حدث ، حتى جزت خصلة من شعرها . وارتدت ثياب الحداد ، وغادرت قصرها ، وتركت سلطانها ومجدها وكل ما تملك ، وانطلقت هائمة على وجهها تبحث عن الصندوق الذي يحوي جثمان زوجها ؛ فلقد كانت تعتقد أن الميت لا يظفر بالراحة إلا إذا دفنت جثته وفقاً لطقوس الدين ! . . .

وضربت في أرجاء الأرض أعواماً طوالا . تسأل كل عابر وعابرة عن ذلك الصندوق الجميل الموشى ! فلم تسمع من أحد أنه رآه ، فلم تقنط . واستأنفت السير في بقاع الأرض تبحث وتسأل وتتوسل وتستعطف ، فلم تظفر بطائل ، إلى أن عثرت آخر الأمر ببضعة أطفال يلعبون على شاطئ النيل ، أخبروها أنهم رأوا الصندوق يلقى عند

مصب النهر ، فذهبت إلى ذلك المكان ، تبحث وتتحرى من جديد . . ولكن جهدها كان ضرباً من العبث . . . وساق إليها القدر أخيراً بعض الملاحين ، فذكروا لها أنهم علموا أن البحر حمل الصندوق إلى ساحل « ببلوس » ! . . . فركبت البحر إلى تلك المملكة البعيدة . . . وسألت هناك ، فلم يدلها أحد على بغيتها . . . وأمضها التعب وأرمضها الأسى . . . فجلست متهالكة عند صخرة على الشاطئ فرأت صياداً شيخاً سألها عن أمرها فأخبرته ؛ فقال لها إن أمواج البحر قد قذفت بالصندوق إلى قلب شجيرة حناء ، وإن تلك الشجيرة نمت نمواً هائلا عجيباً ، مخفية الصندوق فى صدر جذعها الضخم ، وإن ملك هذه البلاد مر يوماً بتلك الشجرة فعجب لسموقها وروعتها ، وأمر بها فقطعت ، وجعل من جذعها عموداً يدعم به سقف قصره ، فلما علمت « إيزيس » بذلك ، قامت متحاملة إلى ذلك القصر . ولم تجرؤ على اقتحامه . . . فجلست بجواره عند نافورة ماء ، وجاء العصر فخرجت الأميرات بنات الملك يتنزهن ، فأبصرنها ، واقتربن منها وحادثنها . . . فلاطفتهن ، وبيدها ضفرت شعورهن وبأنفاسها عطرتهن . . . لأن أنفاسها أذكى من عبير الأزهار وأطيب . . .

وعادت الأميرات إلى القصر ، فتعجبت أمهن الملكة من ذلك الشذا المنبعث من ضفائرهن وثيابهن ، فأخبرنها بأمر تلك الغريبة الجميلة الجالسة عند عين الماء ، فأمرت الملكة أن تدعى هذه الغريبة إلى القصر وتكرم ، ثم رجت منها أن تكون مرضعاً للأمير الصغير ؛ وعند ذلك كشفت « إيزيس » عن حقيقتها ، وقصت عليهم قصتها ، وسألتهم أن يمنحوها ذلك العمود ، فرقوا لها وبادروا فشقوا الجذع وأخرجوا من جوفه الصندوق ، فما كادت تراه وتبصر جثة زوجها فيه ، حتى انطلق عويلها من صدرها ؛ كما ينطلق اللهب من جوف البركان ، وحملت الصندوق معها وركبت به البحر عائدة إلى مصر ، وعلى

أرضها فتحت الصندوق مرة أخرى لتبكى البكاء المر على رفات زوجها ملك تلك الأرض، وأخفت الصندوق بما فيه إلى حين إعداد مراسيم الجنازة وطقوس الدفن . . . وإذا عين الشر تتفتح من جديد ، فقد تمكن «سيت» من العثور على الصندوق. . . ونهشه الغيظ وأكله الغضب ، فأخرج الرفات من مكانها ، وقطعها أربع عشرة قطعة ، نثرها فى طول البلاد وعرضها . . .

وعلمت المسكينة « إيزيس » بهذه النكبة الجديدة ، فنهضت من جديد تسعى فى أثر زوجها ، واتخذت قارباً من غاب البردى . طافت به النيل تبحث فى كل مكان عن بقايا الزوج المحبوب ، وظلت تبحث الأعوام لا يمسها ضجر ولا يقعدها كلل ، وكلما عثرت على قطعة من عزيزها أو عضو من أعضاء حبيبها . دفنته حيث وجدته و بنت عليه نصباً . . . ولعل هذا هو السر فى أن ل « أزوريس » بمصر عدة قبور . . . .

هكذا فعلت « إيزيس » الزوجة ! . . . وهكذا كنت تفعلين أنت أيضاً لو أنك فى مكانها ؛ لأنك أيتها الصديقة العزيزة تحملين عين القلب . . . إنى لا أشك فى هذا لحظة . . . عين القلب الذى ينبع منه كل هذا الحب ، وكل هذا الوفاء ! . . .

مساء ١٩ مارس . . .

صديقتى . . .

إنى لا أنتهى من تعنيف نفسى على مسلكى معك . . . كيف عميت فلم أر فى مجرد مجيئك إلىّ مغزى رائعاً ! . . . إن الرغبة فى الدنو من رجل يعيش مع الكتب، هى فى ذاتها فكرة جديرة بامرأة رفيعة ! . . . ليس من السهل دائماً على كل امرأة أن تأنس إلى رجل يعيش كما أعيش ، ومن عجب أنه لم يبد عليك لحظة واحدة أنك ضقت ذرعاً بى ، بل أنا الذى كان خالياً من الرزانة والتؤدة ، فعجل بقطع تلك الصلة

الجميلة التى لم يكن بها خليقاً ، وهأنذا قد حرمت نفسى — كما ترين — ذلك الحسن الوحيد الذى كان له الشجاعة أن ينفذ إلى حجرتى المغبرة بتراب المجلدات . . . هأنذا قد أغلقت بيدى نافذة حياتى عن شعاعك، فلو دريت أى ظلام أحيا فيه الآن ! . . .

تصورى القمر قد انفصل عن الأرض فجأة فى يوم من الأيام ، وسبح فى الفضاء حتى وجد كوكباً آخر جذبه إليه ، وتركنا إلى الأبد بدون نوره ؟ . . . كيف تكون الحياة على سطح أرضنا ! . . . إن استطعنا أن نحيا بعد ذلك ، فثقى أنها ستكون حياة بلا جمال ولا حب ولا شعر ! . . وما قيمتها إذن مثل هذه الحياة ؟ . . . أأدركت الآن ماذا خسرت بفقدك ؟ ! . . .

صباح ٢١ مارس . .

صديقتى :

لم يزل يدهشنى إقدامك على معرفتى ، وعدم تبرمك بحديثى . كلما قلبت الأمر وجدته عجيباً حقاً . . . ندر من النساء من تحملت الحياة مع رجل يعيش مع أفكار . . . لذلك كان هذا الطراز النادر من النساء موضع إكبار ، لقد حدثتك عن بعضهن ! . . ولكنى أحب أن أحدثك عن واحدة تعرفينها ولا شك ، وتحلينها من نفسك محل القداسة ! . . .

تلك هى « خديجة » زوجة النبى العربى ... صورتها تخطر لى دائماً ، ولا تبرح ذهنى كلما فكرت فى الزوجة المثلى ؛ وتلك التى تتخير زوجها وهو غارق فى ميدان كفاحه ، فتقف إلى جانبه فى الهزيمة والفوز واليأس والأمل ! . . تشد أزره وتتلقى معه الضربات ، وتسهد معه الليالى ، وتتلطخ معه بالدماء ، وتضمد له الجروح ، وتبذل له ما تملك من راحة ومال ؛ حتى يصل فى النهاية إلى النصر الأخير ! . .

هكذا فعلت « خديجة » ! ... إنها حملت على عاتقها أشياء كثيرة ،

حتى الحب هى التى حملته فى قلبها أولا . . . وقدمته إلى « محمد » فبادلها إياه وقاسمها حمله . . . فهو قبل أن يعرفها لم يعرف قلبه الحب. . . لقد كانت حياته — حتى الخامسة والعشرين — حياة الشاب الهادئ البعيد عن النساء ، العاكف على عمله ، يرعى الغنم فى الفلاة ؛ ويلجأ إلى التأمل العميق . فلم يكن للهو والمرأة حتى ذلك الوقت مكان من اهتمامه أو تفكيره . . . . . كانت العفة المطلقة هى صفته الغالبة وقتئذ وكان له من الزهد والحلم والصبر والتواضع ما ميزه عن بقية الشبان ، وما جعل قومه يسمونه « الأمين » ! . .

ما الذى كان يشغل رأس الشاب « محمد » فى تلك السن ، ما دام اللهو والمرأة لامحل لهما عنده ؟ . . أتراه كان يحس فى قرارة نفسه بمصيره العظيم ؟ . . لاريب فى ذلك ! . . لقد كان هذا دائماً شأن أغلب أولئك الذين انتظرتهم أقدار عظام . وتملكتهم منذ نشأتهم مثل عليا وأحلام ، عمرت كل أعوام شبابهم ، وحلت فيها محل اللهو والمرح ! . . إن كل شاب يعيش مع شبح امرأة جميلة — إلا الشاب الموعود برسالة عظمى ، فهو يعيش دائماً مع شبح المجد المنتظر ! . . .

لعل هذا يفسر لنا بعض الشىء حياة الفتى « محمد » حتى الوقت الذى لقى فيه أول امرأة أحبها . . . « خديجة » ! . . ومن يدرى لولم تكن « خديجة » هى البادئة بالحب ما الذى كان يحدث ؟. . . كل شىء يدل على أن الزواج لم يخطر له على بال ، والزوجة والمرأة آخر ما كان يفكر فيه وقتئذ ؛ فلقد كان يسير فى طريق تأملاته الداخلية وأحلامه العليا ؛ وكأنه لايمشى على هذه الأرض ، إلى أن لحظته « خديجة » ذات يوم ، ولمست كتفه ، فأفاق قليلا ، ورفع عينيه إليها ! . .

لقد كان ذلك رائعاً حقاً من امرأة مثلها ، ذات شرف وثروة ، أن تبدأ هى الخطوة الأولى نحو رجل فقير يتيم ! . . هى التى تقدم إليها أكرم رجال قريش نسباً ، وأعظمهم شرفاً ، وأكثرهم مالا . . .

طلبوها وبذلوا الأموال فلم تلتفت إليهم ، وأرسلت تابعتها « نفيسة » دسيساً إلى الشاب « محمد » تعرض عليه يدها ، وتزوجته ، ورأت أيام شكه وقلقه وتعسه وشقائه ! . .

رأته وهو يدخل عليها مرتعداً من الروع الشديد قائلا : « دثرونى دثرونى ! . . . » فتدثره حادبة عليه ، قائلة فى قلق : « رحمة بى ! . . . خبرنى بأمرك ! . . » ؛ فيقول لها :

« إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى : يا محمد ! . . . يا محمد! . . . فأنطلق هارباً فى الأرض ! . . لقد خشيت على نفسى . . إنى أرى ضوءاً وأسمع صوتاً ! . . وإنى لأخشى أن أكون كاهناً ! . . . يا « خديجة » ! . . والله ما أبغضت — بغض هذه الأصنام — شيئاً قط ، ولا الكهان ! . . »

فتقول له :

« هوّن عليك ! . . والله ، ما يخزيك الله أبداً . . إن الله لايفعل ذلك بك أبداً . . . إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة ، وإن خلقك لكريم ! . . . »

وبهذا تسرى عنه . . ولاتهزأ به كما هزأ به قومه الذين سبوه وسفهوه وآذوه ، وحثوا على رأسه التراب ! . . بل آمنت به وصدقته ، يوم لم يجد حوله أحداً يحمل كلامه محمل الجد ، ولقد جاءها يوماً يخبرها مرتاعاً أنه رأى « ملكاً » هبط عليه من السماء وكلمه ، وسمع صوته ! . . وليس يدرى أملك هو حقًّا ، أم شيطان ؟ . . . فأرادت أن تقطع شكه بيقين ، فقالت له : « إذا جاءك صاحبك ، هذا الذى يأتيك فأخبرنى به ! . . . » فلما نزل عليه « جبريل » أخبرها . . . فنزعت خمارها الذى تتحسر به ، وقالت له : هل تراه الآن ؟ . . . » فنظر محمد فلم ير « جبريل » . . فقال : « لا » ! . . . فصاحت فرحة : « اثبت وأبشر ! . . فوالله إنه لملك ؛ وما هو بشيطان ؛

إذ لو كان شيطاناً لما استحيا ! . . . »

وهكذا ظلتْ إلى جانبه تبدد شكوكه ، وتؤمن برسالته . . . إلى ساعتها الأخيرة . . . ويوم علم أعداء « محمد » بقرب وفاتها ، تهامسوا فرحين : « خديجة » فى الموت . . . ولم يستطع « أبو لهب » عدو النبى الأكبر أن يكتم اغتباطه ، فجعل يقول لمن معه : « أجل . . . عما قليل تذهب تلك التى كانت تشد أزره وتعز شأنه » ! . . .

ولفظت « خديجة » روحها الذى كان منبع ذلك الحب ! . . . الذى استطاع بقوته وسموه أن يفتح قلب « محمد » ، وأن يملأه كل تلك الأعوام التى عاشتها ، بل إن هذا الحب لم ينطفئْ بموت «خديجة» . ولقد ظل مكانها من قلبه قائماً دائما ؛ لم تستطع قط امرأة أن تزاحمها فيه ، حتى « عائشة » التى كانت أحب امرأة إليه بعد ذلك . . ما استطاعت أن ترتفع إلى مكان « خديجة » من نفسه ، وقد غرها يوماً شدة حب النبى لها ، فقالت له بدلال : « ألستُ خير النساء عندك ! . . » فأجابها للفور : « وخديجة ؟ . . » فقالت له : « ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين هلكت فى الدهر ، قد أبدلك الله خيراً منها ! . . » وكانت زلة . . . لم تدرك مداها إلا بما بدا على وجه « محمد » من غضب شديد . . إنها لم تره قط غضب منها على هذا النحو . . . فقد نهض تاركاً لها المكان ، وهو يقول : « والله ما أبدلنى الله خيراً منها : آمنت بى حين كذبنى الناس ، وواستنى بما لها حين حرمنى الناس » وكظمت « عائشة » غيظها فى صدرها وهى تهمس : لكأنه ليس فى الأرض امرأة إلا خديجة . حقاً . . لقد صدقت . . . نعم . . . ليس فى الأرض غير قليل من النساء مثل « خديجة » . . إن المرأة النادرة هى هبة الله الكبرى !

آه أيتها العزيزة ! . . . لو سألونى عنك لقلت : ليس فى دنياى اليوم إلا أنت ! . . .

مساء ٢٢ أبريل . . .

صديقتى ! . . .

كم من عمرى أدفع ثمناً لصورة من صورك ، أجعلها فى إطار ثمين ، وأضعها هنا فوق مكتبى ، أتأملها فى كل صباح وفى كل مساء ! . . . لكن ، لا . . . حتى لو وجدت الصورة فلن يكون لى الحق فى وضعها هكذا ! . . .

كل ما أملك هو أن أضعك فى قلبى . . . حيث لا يراك أحد ، ولا يوجد سلطان ينزعك من هذا المكان . . . ائذنى لى فى طرح القلم الآن . حتى لا أزعجك بحديث طويل إنى قائم إلى الشرفة أجلس فى هذا الليل الجميل صامتاً أتأملك ! . . .

صباح ٢٣ مايو . . .

صديقتى ! . . .

أهكذا كتب علىّ ألا أسمع عنك خبراً ؟ . . . أما أنت فتعرفين من أمرى على الأقل ما ينشر عنى فى الصحف ! . . . خطر لى هذا الخاطر وأنا أقرأ كل صباح الصحف والمجلات بعين فاحصة! . . . إنى أقف الآن طويلا عند كل خبر يمسنى ، أو كل كلمة تنسب إلى ، وأذكر أنك سوف تطلعين على ذلك فيملؤنى الخجل ! . .

أيتها العزيزة ! . . . سامحينى ! . . . إنى ولاشك غير جدير بك ! أين أنت السيدة الفاضلة ، التى لا يعرف المجتمع عنها إلا الخير ، منى أنا الذى تحصى عليه كل كلمة سخيفة ، وكل حركة حمقاء ! . . .

آه ، لو كان فى مقدورى إقناعك بأن تحسنى بى الظن قليلا ! . . . ثقى أن هنالك فرقاً كبيراً بين حقيقتى الباطنة ، وحقيقتى الظاهرة لعامة الناس ! . . أقسم لك أنى فى الباطن خير بكثير منى فى الظاهر ؛ لأن الباطن هو ملكى ومن صنعى ، ولكن الظاهر هو ملك الناس ، ومن صنع الظروف ! . . . وأنا لست ممثلا ، ولم أحاول يوماً التمثيل ،

فأصنع للناس ظاهراً رائعاً بيدى : بل تركتهم هم يصنعون لى ما شاءوا من أردية ، دون أن أحفل بغير حقيقتى التى أعيش معها داخل نفسى ! . . .

ثق أنى أعيش داخل نفسى فى عالم نقى مرتفع قدسى : فإذا خرجت إلى المجتمع انطفأت تلك الأضواء من حولى . وزال عالم السحر الذى كنت فيه . وبدوت فى ثياب من السخف . لست أدرى كيف ألقيت علىّ ؟! . . .

إنى لأدهش أحياناً لأولئك الذين عطوا المقدرة على خداع الناس : فيظهرون فى المجتمع فى مسوح القديسين . . . وهم فى باطنهم من أفجر الماجنين . . . . بينما أنا أبدو أحياناً للناس هازلا دائم الابتسامة : وفى باطنى الجد ، وفى طبيعتى الصرامة ! . . إنى رجل مخلص مع نفسه وكفى . وليس يعنيه بعد ذلك الباقى ! . . . كل ما يحيا فى أعماق النفس يهمنى ، أما ما يطفو على السطح من زبد . وما يعرض على الأنظار من صدف ، فلا شأن لى به . . حتى حبى لك ؛ من ذا يصدق أنه كائن حى موجود ؟ . . .

آه . لو علم الناس أنى أحب ! . . ما من أحد فى الوجود يرى ذلك الحب المضىء فى قاع نفسى كاللؤلؤة ! . . . حتى ولا أنت ! . . .

* * *

هكذا لبث يكتب إليها على هذا النحو حتى دخل الصيف . . . وذهب إلى شاطئ البحر . . . ثم أقبل الخريف ! . . . وعاد إلى « القاهرة » ، وهو دءوب على رسائله إلى طيفها لاينقطع عنها ولايسهو ؛ وأقبل الشتاء التالى ، ومضى نحو عام على زيارتها الأولى له وهو على حاله ، لايتغير ! . . يكتب إليها ويكدس الرسائل فوق الرسائل ، دون أن يسمع عنها خبراً أو يلقاها فى طريق . . . ولقد طمع فى أن يضعها القدر أمامه يوماً ؛ بل إنه أمل فى أن يراها فى مصيف « الإسكندرية » أو يبصرها مصادفة فى مكان ، ولكن المصادفة ضنت ، والقدر أبى ! . . .

إنه مع ذلك كان يحس فى قرارة نفسه أنه سيلقاها ذات يوم . . . لأن من المستحيل أن يكون كل شيء بينهما قد انتهى على هذه الصورة ! . . ولكن ذلك شعور داخلى لا أكثر ولا أقل ! . . وهو شعور طبيعى يخامر كل قلب يبحث عن حبيب بعيد ، هى همسة الأمل الذى لايموت ، ولايمكن أن يموت فى الإنسان ! . .



أصبع القدر

دخل الشتاء ! . . وشعر « راهب الفكر » بحاجة إلى الدفء وحنين إلى الشمس ! . . . إنه يخشى الشتاء ، لأنه لايطيق برده مع برد الوحدة! . . إن طيفها استطاع أن يؤنسه فى الربيع والصيف والخريف . ولكن ليالى الشتاء الطويلة ! . . آه . . . ليس أقسى من الفراق مع الشتاء ! . . . يالذكراها يوم كانت تأتى ها هنا ، وتخلع معطفها . وتنزع قفازها ! . . ثم تلقى بقبعتها ، وتنثر شعرها الجميل ! . . لا . . . لا . . . ليس فى مقدوره أن يبقى فى ذلك المكان ، فى مثل ذلك الوقت من العام ، حيث كل شىء يقطر كرذاذ المطر بمرارة الذكرى ! . . . عند ذاك خطر له أن يترك مسكنه زمناً ، ويهبط فندقاً يستطيع أن يسرى فيه عن نفسه ، وأن يشغل باله عن « طيفها » وقتاً . . .

واستصوب الفكرة ، فنهض من فوره إلى حقيبته فأعدها ! . . . ثم انطلق إلى « حلوان » ونزل فندق « جراند أوتيل » ، وكان الجو منعشاً ، والهواء جافاً ، والبرد غير قاس ولا قارس ، فلم يغير من عادته شيئاً ، وجعل يخرج فى الصباح إلى أقصى المدينة : مخترقاً طرقاتها الخالية ، ومنازلها الصامتة ! . . إن « حلوان » حقاً هى مدينة السكون !... كل شىء فيها هادئ ، يومئ بالهدوء وكل شىء فيها يكاد يضع سبابته على فمه ؛ كيلا يبدر صوت يزعج قطانها وضيوفها الآتين للراحة والاستجمام ! . . وكانت الصحراء فى خارج المدينة

بغيته : يجلس على حافتها الساعات ؛ كأنه على حافة بحر عجاج ! . . . يشاهد كيف تلعب كرة الشمس مع كثبان الرمال ؛ كأنها حورية الماء تلعب مع الأمواج ! . . فهى تارة ترمى على صدر الرمل شعرها الأشقر ، فيصفر وجهه ويحمر ، وتارة تتوارى عنه خلف الغمام الرمادى ، وتتركه شاحب اللون كالخائف من ذهابها ! . . . وتارة تمزق قليلا غلائل غمامها وتبسم بسمات متقطعة ، فتبدو كثبان الرمل كالرقطاء قد رقشتها قطع السحب بظلها المتناثر ! . . . إلى أن تنتهى الطبيعة من تلك المغازلة ، وتضع حداً لتلك المداعبة بين الضوء والظل ، فينهض راهب الفكر عائداً إلى الفندق ! . . . ويجلس فى شرفته المطلة على الحديقة ، يتناول الشاى ، وهو غارق فى ذلك الكرسى الضخم المريح ، من الخيزران المبطن بالوسائد ! . . . حتى يهبط الظلام ، أو يبرد الجو ، فينهض داخلا بهو الفندق ، أو صاعداً إلى حجرته ! . . . وكان بمفرده دائماً ؛ يسلم على من يحييه من عارفيه بتحية مختصرة ، لاتشجع أحداً على مصاحبته أو إخراجه من وحدته! . . حتى فى قاعة الطعام ؛ اتخذ له مائدة صغيرة فى أحد الأركان لايشاركه فيها أحد ! . .

لبث على هذه الحال يومين . . . وفى اليوم الثالث وقع حدث لم يكن فى الحسبان ! . . . لقد عاد من نزهة الصباح ، فصادف فى بهو الفندق رجلا جالساً يطالع كتاباً ! . . . ما كادت عينه تلمحه حتى اضطرب كالقصبة ، وخفق قلبه خفقة شديدة ، وصعد الدم إلى وجهه ، وخيل إليه أن من فى البهو يسمعون دقات قلبه وضربات نبضه ! . . . وخاف أن يبدو عليه شىء ، فأسرع متعثراً إلى حجرته يخفى فيها ما ألم به ! . . . يا للعجب ! . . . إنها إصبع القدر . . . نعم ! . . . هو الذى ترقب كثيراً وانتظر ... ولم يجد إلى ضالته سبيلا . . . ولم يدر لها مكاناً فى هذا الفضاء الواسع ! . . . هاهى ذى إصبع القدر تشير الآن إلى الطريق فى صورة ذلك الرجل الجالس ! . . . إنه لم يكن قد رأى هذا الرجل غير

مرة واحدة . ولكن صورته كانت قد رسخت في ذهنه . وشخصه كان قد اتخذ له في نفسه مستقراً منذ زمن طويل! . . . وكيف ينسى هذا الرجل وهو . . . زوجها ! . . . نعم . . . إنه زوجها بعينه . . . زوجها الذي جاء إليه في مسكنه منذ نحو عام . يحدثه عنها ذلك الحديث الذي لم ينسه ولن ينساه ! . . .

« زوجها هنا ؟ . . . إنها هي أيضاً هنا إذن ! ! . . . هي هنا ؟ . . . هي هنا ؟ ! . . . » ردد ذلك لنفسه عشرات المرات وهو في حجرته . وقد ذهب عنه الاضطراب قليلا . وحل محله الفرح . أو على الأصح شيء كالفرح ممزوج بالخوف . . . إنه بالطبع يتوق إلى رؤيتها . . ولكن مع ذلك . . . يحس برهبة ! . . . إنه يريد رؤيتها . . . . ويخاف رؤيتها ! . . . نعم ! . . . وليس يدري علة ذلك الخوف ! . . .

أتراه يخشى أن يعجز عن ضبط نفسه أمامها فتقرأ ما في وجهه . . . وتطلع على سره ؛ وتتبين لساعتها أنها أمام رجل غير ذلك الذي ذهبت عنه منذ عام ، وودعته وهو هادئ بارد . مشغول عنها وعن وجودها وذهابها بورقه وكتبه وأفكاره وتأملاته؟! . . . ومن غير شك أنها بغريزتها ستشم رائحة الرجل الجديد ! . . . إن للمرأة لغريزة تدرك بها ما يقع في نفس الرجل منها ، وإن لم يجر بينهما كلام . . . . بل إنها تستطيع — دون أن تنظر إليه — أن ترى بعين خفية إذا كان قد رمقها أو لم يرمقها ، وأي موضع من جسمها وقع عليه بصره ! . . . إنها مثل تلك الزهرة التي تعرف بالغريزة أي نوع من الهوام يفتن بألوانها . . . وتدرك بالطبيعة متى أثر سحرها فيه فتتأهب لاستقباله والانطباق عليه ؛ كما أنها تعرف عجزها عن استهواء بعض الأنواع فتتركه يمر بها . ويذهب عنها ؛ وكأنها عنه مشغولة لاهية ! . . . لم يكن يدير في رأسه مثل هذه الأفكار من قبل ، ولكنه الآن وهو موشك أن يلقاها وجهاً لوجه ؛ أدرك للمرة الأولى خطر تلك الحاسة الخفية في المرأة ؛ فهي التي ستمزق

قناعه وتكشف عن عواطفه ، لا كما صورها هو وسطرها وأقنع بها نفسه ؛ ولكن ! . . .

على أن هنالك خوفاً آخر كان يحسه : إنه يتهيب مجرد لقائها ! . . . إن لها عنده الآن لهيبة ! . . . إن البعد والشوق والأحلام جعلت تنسج لها فى نفسه — رويداً رويداً على مر الأيام — صورة لم تعد من صور البشر ! . . . لقد نسى تفاصيل قسماتها الواقعة ، ودقائق ملامحها الحقيقية ! . . . . ولم يعد يذكر منها إلا جمالا مثاليًّا ، وجلالا خلقيًّا ! . . .

إنها فى نظره اليوم شىء معنوى رفيع ، أكثر مما هو كائن موجود . إنها قصيدة ، ولم تعد حقيقة . . . إنها أسطورة ، وليست حياة . . . إنه سيقابلها الآن ، لا كما كان يقابلها بالأمس . . . بل إنه سيبدو عليه ، ولاريب ، احترام لشخصها ، قد تراع منه وتدهش . . . سيكون شأنه معها شأن من يقابل قديسة من القديسات وقد بعثت حية ، أو ملكة من ملكات الحكايات التى عمرت أدمغة الأطفال ، منذ غابر الأجيال . . .

ثم هنالك أمر آخر . . . كيف يسلم عليها . . . . وعلى أى وجه يدار الكلام معها ؟... أيتكلف لها ويتصنع ، ويجعل أنه قد نسيها قليلا ، وأنها امرأة لايحمل لها إلا ذكرى شاحبة عابرة ! .. هذا هو الوضع المعقول فى نظرها ونظر زوجها .. ولكن كيف السبيل إلى ذلك ! .... وهى التى عاشت معه بطيفها طوال الأيام والليالى . . يبثها خواطره ونوازعه ، حتى زالت بينهما الكلفة ، واستحكمت الألفة ! . . .

طفق يفكر فى كل ذلك حتى حان وقت الغداء ، فتردد وحار : أينتظر فى حجرته ، ويطلب أن يؤتى إليه بالطعام؟ . . أم يتشجع وينزل إلى القاعة ، ويتعرض لمواجهة الأمر ؟.. إن شوقه إلى رؤيتها فى حقيقتها كان قد بلغ أيضاً مبلغاً لاتنفع عنده المقاومة ، ولاتفيد الإرادة.. لماذا



لايراها ؟ .. إنه لحسن الحظ قدأعطى الوقت الكافى لتدبر موقفه وتهدئة روعه؛ ففيم الخوف؟ . . . وكيف كان يصنع إذن لو أنه أخذ على غرة . ورآها فى البهو بغتة وجهاً لوجه؟! . . كل ما ينبغى له الآن أن يضبط نفسه . وقد هيئت وأعدت لملاقاة ما هو حادث ، وأن يكون طبيعياً فى تصرفاته على قدر الإمكان. . . وليترك الأمر للقدر فهو الذى يخلق الظروف التى يتحرك فيها الناس ويسكنون. ويلتقون ويفترقون! . . ونهض وقد صح عزمه على النزول إلى القاعة، والجلوس فى مكانه المعتاد إلى الخوان الصغير ، كأن لم يتغير شيء فى نفسه ولا فى يومه . . . غير أن شيئاً داخلياً ذكره بالمرآة، فوقف أمامها لحظة يصلح — لأول مرة — من هندامه قبل أن يغادر الحجرة ، ولم تعجبه ربطة عنقه ، فحلها وعقدها من جديد ، ونظم شعره ! . . .

وأضاع فى تلك الأشياء وقتاً لم ينفقه فى مثلها طول حياته . ولم يسخر مع ذلك من نفسه ؛ لأنه لم يكن يفكر فى ذلك ؛ بل كان يفكر فيها « هى » وفيما ينبغى للقائها . . . وهبط أخيراً إلى قاعة الطعام . واتخذ مجلسه فيها . وهو يجهد فى التمسك بالهدوء ويحاول أن يتجنب بأنظاره الناس ، ولكن عينه مع ذلك كانت تبحث خفية « عنها » ، وعن زوجها بين المقاعد والموائد . . على أن من الغريب أنه لم يعثر لهما على أثر ، وانتهى الغداء ولم ير أحداً . . . ولم يأكل بالطبع فى ذلك اليوم أكلته المعتادة، فإن قلقه النفسى أخمد شهيته . . . أين هما ؟ . . . أتراهما يتناولان الطعام فى حجرتهما ؟! . . . هذا معقول ! . . إذن فلا أمل له فى أن يراهما إلا فى البهو أو الشرفة أو الحديقة ! . . .

وخرج يمشى وئيداً فى تلك الأمكنة بحثاً عنهما ... عجباً ! . . أهو الآن الذى يطاردهما بعد أن كان يريد الهرب منهما ؟ ! . . . ولكن هكذا الإنسان ! ... الآن وقد اختفى شبحهما امتلأ قلبه شجاعة ، ونفسه رغبة فى أن يراهما ، ولو مرة واحدة أخرى ! . . إن كل تخوفه

الآن هو أن يفلتا منه ويذهبا بلا رجعة . وهو الذى لم يكد يفرح بالعثور عليهما ، ولكن فيم اليأس ؟ . . إنهما الساعة ولا ريب يستريحان بعد الغداء . . . ولن يخرجا من حجرتهما قبل العصر ؛ فليدع كل شيء للمصادفة ، وليسر هو فى طريقه على نظامه السابق ! . . . يقرأ وقت القراءة . ويكتب وقت الكتابة . ويتنزه وقت النزهة . ويتناول الشاى فى الشرفة إذا جاء العصر . وقد فعل . . . وجلس ذلك اليوم فى مقعده الخيزرانى بشرفة الفندق . . . وإذا هو يبصر « زوجها » فى الحديقة يمشى فى بعض مسالكها . مع ضابط فى الجيش برتبة « البكباشى » ؛ على كتفيه شارة النسر والنجمة . ولم ير أحداً آخر معهما ولا قربهما . . . أين « زوجته » إذن ؟ . . . من يدرى ؟ . . ربما تركها فى الحجرة ؛ أو ربما خرجت مع إحدى صديقاتها . فليس من الضرورى أن يمكثا معاً طول الوقت . ولابد أن يراها معه فى فرصة من الفرص . فقد يتفق ألا يلتقى النزلاء من المعارف يومين أو ثلاثة . فى مثل هذا الفندق الكبير . . . ولكن لامناص من تلاقيهم يوماً من الأيام . وكان هو يرى الزوج من مقعده . . . ولكن الزوج لم يكن قد فطن إليه حتى الساعة ، وقد خطر فى باله وقتئذ أن يتحين من الزوج التفاتة فيظهر نفسه له ، لعله يقبل عليه . وتتجدد بينهما المعرفة ، وتتوثق الصلة ، حتى إذا صادفها مع زوجها بعد ذلك . كان موقفه منها أدنى إلى السلامة ، وأقرب إلى المألوف ! . .

وجعل يرقب الزوج من شرفته . فأبصره يحادث صديقه الضابط حديثاً خافتاً ، لايستطيع سماعه بالضرورة! . . ولكن البادى من حركات يده يدل على أن الحديث خطير . وأنه يجهد فى تهدئة صديقه وإقناعه . ولم يكن مظهر الزوج هو الذى يسترعى النظر . إنما هو منظر صاحبه الضابط . . . كل شيء فى ذلك الضابط ينم عن نفس ثائرة . ويكاد ينطق بهياج عصبى مكتوم . . . إنه كان يمشى يهتز

ويترنح وينفخ ويزبد ؛ كأنه مرجل يوشك أن ينفجر ! . . .

هذا كل ما استطاع راهب الفكر أن يعرفه من مظهر الرجلين ، ولقد كانا فى سن واحدة على وجه التقريب ، فكلاهما فى نحو الثامنة والثلاثين أو التاسعة والثلاثين ، وكان من الواضح أن الرابطة بينهما أوثق من رابطة الصداقة العادية . ولبثا فى حديثهما وإشاراتهما وقتاً ، ثم استدارا ليعودا إلى داخل الفندق ، فلم ينتظر « راهب الفكر » حتى يبصراه ... وخشى أن يشغلهما عنه ما هما فيه . . . وأغراه القلق بالعجلة. وحثه الشوق على خلق الفرصة بنفسه . . . فنهض سريعاً وتصنع الخروج من الفندق ساعة دخولهما حتى يقابلهما بالباب ، وقد تم هكذا كما أراد، ولكن الزوج وقد رآه، لم يفعل أكثر من أن حياه تحية سريعة مقتضبة ... ومضى مع صاحبه دون أن يقف أو يبسم أو يبدو عليه انصراف عما يشغل باله ، وبال صاحبه الضابط من شئون . . .

دخلا وتركا رجل الفكر واقفاً ساهما لايدرى ما يصنع ، وأفاق من ذهوله فلم ير لنفسه مخرجاً غير الخروج من الفندق ، كما أوهم أنه انتوى ؛ ومشى فى الطرق على غير هدى ، وهو يقلب فى رأسه ما حدث ! . . . إنه كان ينتظر على الأقل تحية أطول من هذه مع شىء من الاهتمام ... وبضع كلمات يتبادلانها تفسح المجال للقاء آخر ، وتنم عن حرص على صلة يرجى لها النماء ، لقد كان فى تحية الزوج على قصرها معنى الاحترام ، ولكن ليس فيها معنى الرغبة فى إنشاء صداقة أو اتصال ، ألا تراه يبالغ فى مطالبة الناس بما يريد هو ، وبما لم يخطر فى بالهم هم ؟ . . . ما ذنب هذا الزوج المشغول الآن بشئونه المنصرف إلى أحواله ، الخالى الذهن مما يجرى فى رأس هذا الأديب ؟! . . إن الإنسان ليفسر تصرفات الناس أحياناً ، ويضخمها أو يصغرها ؛ تبعاً لعلاقتها بمشاعره وأهوائه . . . أما هى فى ذاتها فليست ضخمة ولا ضئيلة ، ولكنها متناسبة مع منطق الظروف المجردة من كل اعتبار ...

ووجد فى هذه الفكرة تسرية عنه ، فعاد إلى حجرته فى الفندق وهو يوصى نفسه بأن يأخذ الأشياء كما تقع ، وأن يقبل من الناس ما يعطون ، لا ما كان ينتظر منهم ! . . وألا يتعجل الأمور ، ولا يصطنع الفرص ويختلق المناسبات ! . . ونام ليلته هادئاً . وجاء اليوم التالى فلم يحدث جديد . . إلى أن تناول عشاءه فى قاعة الطعام . وفرغ منه . فخرج ماراً ببهو الفندق ! ... فما كاد يضع قدمه فيه حتى أبصر أمامه الزوج جالساً بمفرده ، وفى يده كتاب مفتوح : وكأنه ينظر فيه بعين ، ويرقب بالعين الأخرى شخصاً ينتظر قدومه ! . . .

وضبط « راهب الفكر » نفسه هذه المرة ، وتأهب لتأدية تحية مختصرة لايزيد فيها على حد اللياقة ولاينقص ذرة . . . وإذا هو لدهشته يرى الزوج قد نهض لاستقباله محتفلا به ، راجياً منه أن يتفضل بالجلوس معه لحظة ، وكان فى عينيه ونبراته حرارة الإخلاص والرغبة الصادقة ، لاتكلف المجاملة أو مراعاة الواجب ، فلم يتردد رجل الفكر ! . . ولبى دعوته وهو فرح فى قرارة نفسه وبدأ الزوج الحديث قائلا :

— أخشى أن أكون قد أزعجتك فأنت قد جئت «حلوان» ولاشك للراحة . . . أو لتضع مؤلفاً جديداً فى هذا الهدوء ! . . . إنى أخشى أيضا أن تكون قد نسيتنى ، ولعلك رددت على التحية البارحة وتكرمت بقبول دعوتى الآن ، وأنت لاتذكر من أنا . . . فلقد تقابلنا مرة واحدة منذ عام ! . . .

فبادر الكاتب يقول بابتسامة كلها مودة :

— إنى أذكر كل شىء كأنه كان بالأمس ، لقد كنت أنت المتفضل بزيارتى ! . .

فأطرق الرجل ؛ كأنما يهرب من شبح ذكرى ، وقال بصوت خافت غامض :

— نعم . .

ثم لم يلبث أن تدارك أمره ، فرفع رأسه على عجل قائلا :
– أنزلت هذا الفندق منذ وقت طويل ! . .
فقال رجل الفكر :
– منذ ثلاثة أيام ! . . .
فقال الزوج :
– عجباً . . وكيف لم أدرك إذن إلا البارحة ؟ . . .
فلم يجب الكاتب عن هذا السؤال . . . بل سأله هو أيضاً :
– وأنتم ؟ . . . جئتم « حلوان » ؟ . . .
وكان وضع السؤال بصيغة الجمع مقصوداً ، ولكن الزوج أجاب دون أن يفطن إلى مراد الكاتب :
– لقد جئت منذ أسبوعين ! . .
هنا أطرق « راهب الفكر » حتى لا يرى الزوج تغير وجهه ، فقد أدرك من هذه الإجابة أن الزوجة لم تحضر مع زوجها . .
وشعر في تلك اللحظة بإحساسين متناقضين : أحس شيئاً من القنوط وشيئاً من الراحة في عين الوقت ؛ فهو يتحرك لرؤيتها . ولكنه لا يكره تأجيل لقائها حتى يعد له نفسه الإعداد الكافي . . . إن هيبة لقائها كانت مشقة . . . فليتنفس الآن الصعداء . . وحسبه اليوم أن يعرف أخبارها إلى أن يحين اليوم الموعود ، والتفت إلى الزوج لعله يعرج بالحديث إلى الزوجة ، منتظراً منه أن يكون هو البادئ ، ولكن الزوج كان هو الآخر متردداً . . وكأنه يرجو أن يحرك لذلك أو يدفع إليه ، وهبط عليهما صمت ؛ خاف الزوج أن يطول ؛ فبدده قائلا :
– أتعجبك « حلوان » ؟ . . .
فقال الكاتب للفور :
– نعم . . . وأنت ؟ . .
فتردد الزوج قليلا ، ثم قال :

— إنى فى الحقيقة جئتها لسبب خاص ! . .

وتشجع « راهب الفكر » وسأله :

— أأنت هنا وحدك ؟ . .

— نعم . . . ولكن ابن خالى الضابط الذى رأيته معى البارحة ينزل أيضاً منذ أربعة أيام . . إنه مصاب بالأرق . . . ولم ينم ليلة واحدة منذ مجيئه . . إنه ليكاد يجن ... لقد طلبت له أحد الأطباء فى الليل . . . لا شىء أفظع من الأرق ! . . . إنه لقدير أن يجن رجلا ، أو يدفع به إلى الانتحار . . .

قال ذلك فى نبرة المخاطب لنفسه ، المؤمن بما يقول ، المجرب المعانى لما يصف . وتذكر « راهب الفكر » أرقه السابق هو الآخر . . . فهز رأسه مصادقاً وهو يقول مؤمناً :

— نعم ! . . . نعم ! . . .

واستأنف الزوج الكلام قائلا ، وكأنه يحدث نفسه :

— إنى فى موقف يشق على النفس احتماله ! ! . .

وأراد الأديب أن يجذب الحديث إلى حيث يرى ، فقال :

— لو كانت السيدة زوجتك معك لأعانتك على احتمال كل شىء ! .

فأطرق الرجل ، وقال مغمغماً :

— زوجتى ؟ ! . .

فقال الكاتب بنبرة أراد أن تكون طبيعية :

— إنى لم أزل أذكر حديثك لى عنها . . . وقولك لى إنها أمست تحب الكتب ، وتقبل على القراءة ! . . .

فرفع الزوج رأسه وقال فى شبه صيحة مكتومة :

— إنها الآن تكتب يا سيدى ! . .

— تكتب ؟ ! . .

لفظها الكاتب فى دهشة يمازجها ارضاً ، ولكن الزوج قال بصوت

بعيد عن الرضا ، قريب من الأسف والأسى :

— نعم ! . . . تكتب اعترافات ! . .

— ماذا ؟ !

قالها « راهب الفكر » مستفهمًا مستغرباً ، ولكن الزوج اعتدل فى جلسته . وقد اتخذ وجهه صورة أخرى ، فيها معان مختلفة من العزم والحزن والتوسل والتجلد ، وأنشأ يقول :

— إنى انتظرتك هذا المساء هنا عن قصد وتعمد ؛ فإنى بعد أن رأيتك البارحة ، وعلمت أنك فى هذا الفندق خطر لى أن أعرض عليك ما انتويت عرضه ، ولم يكن من السهل على أن أفاتحك فى الأمر ، ولكن مادام الحديث قد جرنا إلى ما كنت أريد ، فإنى أسمح لنفسى أن أطلعك على أمر خاص بى ، قد يهمك الاطلاع عليه وقد لا يهمك ! . . . ولكنى على كل حال محتاج إلى أن تصدقنى الرأى فيه ! . . . وفيما يجب أن يتبع . . . ثم إذا شئت فإنى أخبرك بما أنتظره منك بعد ذلك ! . .

فلم يبد على « راهب الفكر » أنه فهم شيئاً كثيراً من هذا القول ، وأدرك الزوج ذلك من وجهه ، فقال له :

— ستفهم كل شىء بعد اطلاعك على اعترافاتها ، ومن اللغو أن أقص عليك القصة وهى مسطورة بخطها فى كراسة !... إنى لا أريد أن أثقل عليك ، أو أضيع من وقتك ! . . . حسبك أن تقرأ تلك الصفحات الليلة ، إذا أردت ، قبيل نومك ؛ فتلم بكل شىء . . . حتى نستطيع فى الصباح أن نتناقش فى الأمر مليًّا . . . ألديك ما يمنع من ذلك ؟ . . .

فأشار الكاتب برأسه أن « لا يوجد مانع » ، فنهض الزوج وهو يقول :

— « اسمح لى بدقيقة واحدة كى أحضر لك الكراسة من حجرتى !... »

وانصرف مسرعاً تاركاً « راهب الفكر » فى شبه ذهول . . . أى كراسة !... وأى اعترافات !. . . ترى ماذا كانت تكتب هى أيضاً ، وماذا كانت تقول ؟... عجباً !... أهذا ممكن الحدوث ؟... ولم لا ؟!... لعلها كانت تكتب إليه هو : كما كان يكتب إليها ... لعلها كانت تملأ تلك الكراسة حديثاً مع طيفه : كما كان يملأ رسائله حديثاً مع طيفها . لقد كانا يتراسلان إذن ويتكاتبان . دون أن يعلم أحدهما بما يفعل الآخر !... لقد كان كل منهما يبث الآخر على الورق حبه وحنانه ... ويعترف بدفين عواطفه ويخفيها فى طيات الصفحات ! ... إنه إذن لم يكن يلقى فى الهواء الصيحات . وما كان ينفث سدى فى جوف الليل بالآهات ... كل هذا كان يبلغ قلبها على البعد . وكانت تجيب . . . يالأعجوبة الله التى تربط هكذا بين القلوب ! . . . تدفقت هذه الخواطر وتراقصت فى رأس « راهب الفكر »... وكاد قلبه يثب فرحاً . ونفسه تذوب ابتهاجاً ... ولكنه تذكر موقف الزوج . بل ذكر موقفه هو من الزوج ... وماذا هو قائل له وصانع معه ؟...

إن ذلك الزوج الحزين قد رأى أن يطلعه على كراسة زوجته ... ولاشك أنها وقعت فى يده على غير إرادتها ... ولا جدال فى أنه يريد أن يناقشه الحساب فيما ورد فيها ... ما أحرج هذا الموقف !... إنه لم يخطر له على بال أن يسىء إلى زوج ، أو يعتدى على كرامة زوجة ... وكيف يدرأ عن نفسه تلك التهمة ؟... وكيف يطيق أن يفقد تقدير هذا الزوج له ، واحترامه إياه ؟!.. حقاً إن هذا الزوج المهذب لم يبد إشارة واحدة تنم عن قلة تقدير ، أو نقص احترام « لراهب الفكر » ... ولكن المعول عليه ما يجول فى خاطره وما يجوس داخل نفسه ... وهو ما لم تشأ كياسته أن تظهره ، وما لم يرد تهذيبه أن يبديه !... ما هو الطريق السوى فى هذه الحال ؟... لا شك أنه الصدق ! ... فليصارحه بالحقيقة ... والحقيقة هنا بسيطة نقية ، وتصرفاته كلها لا غبار عليها ولا مأخذ ،

فكل ما بينه وبينها من علاقة لا يعدو العاطفة الطاهرة المكتومة فى صدر الورق ... مهما يكن من أمر فهو لا يعرف بعد مدى حاشيتها فى الكراسة ، ولا ما كاشفته به من مشاعرها . . . ولا كيف وصفت هذه العواطف !... لا ريب عنده فى أنها عواطف نبيلة رفيعة . . . غير أنه لا بد من الاطلاع عليها ، قبل أن يعرف حقيقة موقفه من الزوج! . . . وسرعان ما تقشع ذلك الحرج الذى أحسه منذ قليل ؛ ولم يبق فى نفسه غير السعادة الفياضة ، والشوق الملتهب إلى مطالعة كراستها ! . . . .

وظهر الزوج عائداً يحمل دفتراً متوسط الحجم ، أحمر اللون ، داخل غلاف حكومى قدمه إلى « راهب الفكر » ، وهو يقول له :

— إنى واثق بالطبع من شرفك ... وأعرف أنك ستقدر أن ما بهذه الصفحات سر عائلى لا يجوز إفشاءه ، إذا استطعت أن تقرأ هذه الكراسة الليلة ، لتعيدها إلىّ فى الصباح ، فإنك تحسن صنعاً ، وأكون لك شاكراً . . . على كل حال موعدنا فى الغد . . . وأرجو لك نوماً هنيئاً ! . . .

وتصافح الرجلان . . . وافترقا . . .

وذهب « راهب الفكر » تواً إلى حجرته ، ودخلها حاملا الكراسة كأنه يحمل قلبه ! . . .



الكراسة الحمراء

« . . . أريد أن أكتب ! . . . نعم . لا بد من أكتب كل ما عندى ! . . . إن نفسى غارقة فى أمواج من الانفعالات لا يكفى فى تسكينها أن أفضى ببعضها إلى صديقة . . . لا بد أن أتكلم لأزيح عن نفسى ما يملؤها ، ويكاد يخنقها من ضيق ويأس . وفرح وأمل ! . . . إن إحساسى بضرورة الكتابة شىء لم يسبق لى أن عرفته أو فهمت له معنى . ولكنها اليوم رغبة لا تقاوم ؛ أحسها فى كل كيانى .. أريد أن أعترف بكل ما خالجنى ويخالجنى من أشياء قد تكون غريبة مخيفة . لكن مم أخاف ، ما دمت لن أطلع مخلوقًا على ما أسطر ها هنا ! . . .

أليس لى حتى حق الهمس بما أحس بين طيات الورق ؟ . . . سأقص كل ما حدث بالصراحة والدقة . . . وسأقول ما أعتقد بالحق والصدق ولن أدافع عن نفسى . أو أحاول أن ألتمس لتصرفاتى الأعذار ... فما أنا فى حاجة إلى ذلك فى هذه الصفحات الخاصة ... لست كذلك أريد هنا أن أدون مذكرات . أو يوميات مرتبة مؤرخة ؛ فهذا شىء لا يعنى امرأة مثلى . . . إنما هذه الصفحات ليست أكثر من صيحات !.. نعم ! .. كل ما أريد هنا هو أن أصيح بملء فمى . . . أصيح بدون أن يسمعنى أحد ... فى مثل هذا الجو الذى أعيش فيه ، لا بد أن تعطى لى هذه الحرية على الأقل ! ... آه . . . يا لى من شهيدة ! ...

هذا المساء أيضاً أتحمل مشهداً جديداً من مشاهد الاضطهاد !... إنها عمتي أوفدتها أسرتي اليوم سفيرة إليّ لتلقي على دروساً في الأخلاق ! . . . كلا إن الأمر حقاً أصبح لا يطاق ... وإنه لمن المستحيل عليّ معالجة هذا الموقف الذي يسوء من يوم إلى يوم . . . وإني لأرى الآن جلياً أنه لو تكرر هذا المساء مرتين أو ثلاثاً ، فإني لن أحجم عن ترك كل شيء وأهرب ، أو أقدم على عمل ذي خطر ؛ فكل شيء مباح لامرأة مهانة على النحو الذي وقع لي اليوم ! ... إني أحس أني مقيدة بالسلاسل ؛ كأني كلب ! ... على أن الكلب له على الأقل حق النباح ، أما أنا فلا أستطيع الصياح ... إذ لمن أصيح؟!... هل أصيح للنجوم شاكية لها بأني أختنق في السجن الذهبي ، الذي أحاط فيه بسجانين ، لا يلقون في نفسي غير الرعب والهلع؟ ... إن حياتي الصغيرة لتثور ، إنها لترتعد بكل قواها المكتوفة !...نعم ... إني لأبحث عن مثلي الأعلى في موضع مختلف كل الاختلاف عن ذلك الذي صنعوه لي صنعاً !..

إن حاجتي إلى حياة حرة كانت دائماً حلمي المسيطر على نفسي الناشئة ومع ذلك فقد نشأت في أسرة كبيرة عديدة الأفراد ، كلهم متفق على مضايقتي إلى أقصى ما يستطيع ، وكلهم يحاول أن يبحث في مجرد نظراتي ، وأن ينقب في أعماق أفكاري ؛ ليرى إذا كان يجوز لي أولا يجوز أن أتصرف هذا التصرف أو ذاك!... إنهم لا يكلون ولا يتعبون من مراقبتي وملاحظتي ... لا أريد أن أقول إنهم شريرون ، ولكني أريد فقط أن أقول : إني لا أتفق معهم في الأفكار ، وإن طريقة تفكيري وفهمي للأشياء تختلف عن طريقتهم على الإطلاق ! ... إنه لشقاء لي ولهم ! . . . إنها لمصيبة من تلك المصائب التي تأتي بها الحياة فلا نملك لها دفعاً ، ولا نستطيع لها تعليلا ! ... إني لست عاقلة جداً ! . . . أعرف ذلك ولكنهم هم أيضاً ليسوا إلا خلاصة حقيقية لكل تلك الفضائل السخيفة المصطلح عليها . . . إن ما يسمونه « العائلة » شيء مؤثر حقاً ... وشيء

طيب ، ولكنه شيء « يضايق » ! . . .

اليوم كان النزاع يدور حول « المرضعة » ؛ فقد قيل إنها امرأة ذات سير معوج ، وقد جعلت عمتى بالطبع تسرد على الأدلة والبراهين والحكم والمواعظ ! ... وأنا أصغى إلى نصائحها غير الجذابة فى هدوئى المعتاد ، ولم أحاول حتى أن أغضب أو أتجهم ؛ فلقد كان « قرفى » بلغ حداً زهدنى فى أى رد أو كلام ... ولكنى اكتفيت بأن قلت لها فى ابتسامة مصطنعة : إنى فى الوقت الحاضر لا أرى فى سلوك المرضعة المعوج خطراً على طفلتى التى لم تبلغ العامين ! . . . .

آه ! . . . إنى لأكاد أجن فى عزلتى النفسية . . . لا شيء يخفف من شدتها أو يلطف من وقعها ! . . . آه . . . الحياة . . . الحياة . . . أريد أن أذهب إلى حيث تدفعنى أهوائى وتقودنى رغباتى ! . . . أريد أن أحلق فى فضاء المغامرة ! . . . لا أن أقعد هاهنا كعصفور كسروا جناحه ! . . . نعم . . . إنى عطشى لأن أصغى إلى رجل . . . إلى رجال يقولون لى إنى جميلة ! . . . تواقة إلى أن أرتجف تحت لمسات أيديهم المداعبة ، وأستمع إلى رجائهم المنبعث من قلوب محترقة . . . فأتأبى عليهم وأتمنع ! . . . أو أسلم بجنون ، وأتصرف فى كيانى وقلبى وجسدى ! . . . أمنح نفسى ، أو أسترد ما منحت ! ... وأهب جسمى وأرجع فى الهبة ! . . . أريد أن أعرف لعب الحب ... نعم أنا أيضاً أريد أن أحب ، وأن أكون محبوبة ! . . . أريد أن يداعبنى ويلاعبنى رجل يحبنى حب الجنون ! . . . ولا بأس عندى بعد ذلك من أن يكون مصيرى مصير الزهرة التى تنتزع – وقد ذبلت – من صدر الثوب الأنيق ! . . . الحب ! . . . الحب ! . . .

آه . . . لكم أقاسى فى سجنى هذا من داء لا وصف له ولا دواء ! . . حقاً ، إنى أعلم عن نفسى أنى أصبحت لا أطاق ، بأزمات صمتى وحالات كآبتى ، والواقع أنه ما من شيء حتى ولا أبرع « نكتة »

تستطيع أن تدخل على قلبي السرور ، أو تنتزعني على الأقل من ذلك الحزن العصبي الذي يخيم على نفسي . . . أنا المرأة الشابة التي في الخامسة والعشرين ، الجميلة كما يقولون . التي تعيش إلى جانب زوج ذي مركز واسخ مستقر . . . لا أظن من المفيد توجيه اللوم إلى آرائي . . إني معترفة بأني قد أكون على خطإ . . . ولكن ثقوا أنه من الخير أن أتركك في حالتي هذه . . . فهي أفضل من إرغامي على الخروج منها ؛ لأني إن هوجمت في معقلي الأخير هذا ، فإني أخشى أن أفقد توازني ، أو أن يخرج من يدي رمام الأمر ! . . .

حقاً إنه لجو لا أستطيع التنفس فيه . . . الجو الذي أعيش فيه ، يحف بي ظلم هؤلاء الناس ! . . . من الإنصاف أن أزعم قليلا أني على حق في هربي من هذا المحيط الجاف الجامد ، وأني أحسنت صنعاً بالتجائي إلى مخدعي ، محاولة نسيان تلك المناقشات الحمقاء . . مفضلة الحديث مع نفسي ، في حجرتي ، على الحديث مع عمتي العانس ، في أمثال ما عرضت له هذا المساء ! ! .... نعم إن لي من العمر خمساً وعشرين سنة . . . ولكن هل كتب عليّ أن أضيع حياتي كلها في أشباه تلك اللحظات التعسة ؟ . .

لقد مضى نحو ثلاث سنوات وأنا زوجة رجل كامل الأخلاق ، لا عيب فيه ، مستقيم استقامة جديرة أن تعطى مثلا لشبيبة الجيل الحديث ، وإني بالضرورة لا أستطيع أن أخالط من الأصدقاء غير أولئك الذين يسمح لي زوجي بمخالطتهم ، وكلهم من طرازه وعلى صورته ، على أنه ليس في المقدور أن يتم بيني وبين زوجي حديث دون أن تصدمنا أبسط العبارات ، وترغمنا على السكوت فجأة ، إذ نلحظ في الحال أننا في سبيل أن نضل ، وأن أقدامنا إنما تسعى إلى حيث تختلف طبيعة كل منا ذلك الاختلاف الواضح ! . . .

نعم ! . . . ما من موضوع نستطيع طرقه معاً ، فكل شيء يجب أن

تلاحظ فيه قيود الزوجية وواجبات الوفاء الزوجى ! . . .ما أشق العيش هكذا ! . . . كلا . . . ليس فى بيتنا رحابة الصدر ، وسماحة النفس ! . . . ما من أحد هنا يفهم عاطفة ملتهبة ، أو يغفر زلة ، أو يتغاضى عن جنون ! . . . على النقيض : كل شىء هنا يجب أن يفوح برائحة « الشرف » و « الحياء » و « العفة » . . . إلخ ! . . . أى رائحة البلى والقدم والعوائد العتيقة والحجرات المغلقة ! . . . أنا التى اعتقدتْ أنها ستنجو بنفسها ، وتعتق من كل هذا بالزواج ؟ . . . إنى لأتساءل الآن : أى الحياتين أقبض للنفس وأسخف ؟ ! . . . لعل الفرق بينهما أنه فيما سبق كانت لى فسحة الأمل على الأقل ، ولم يكن علىّ عبء الزوج . . . !

آه . . . إنى وحيدة . . . لكم كان ينبغى أن يكون بين الزوج وزوجته ذلك الحب العنيف الذى لا طعم للحياة بدونه ؛ لا ذلك الحب الفاتر الذى لا فرق بينه وبين الصداقة الهادئة ، لكم كنت أطمح إلى تذوق طعم السعادة فى هذا الاتصال الوثيق ، الذى يسمونه « الزواج » ؛ وأعرف ذلك الشعور الذى تحسه الجارية المعبودة من مولاها ، وأبهر إعجاباً بذلك الرفيق لحياتى ، الذى جعلته المقادير من نصيبى ، فأرى كيانى كله قد أضاء بما انعكس علىّ من أشعة قوته . لطالما حلمت وتمنيت أن أحب حباً جنونياً من كل قلبى ! . . . حباً يفقدنى رشدى وصوابى ! ... دون أن يخطر ببالى البحث عن سبب هذا التفانى العارم ، أو سر ذلك السحر الذى يمكن ذلك الحبيب المجهول من أن يجعل منى تلك العاشقة المفتولة الممنونة ! ...

تلك الأحلام الذهبية المشرقة التى طالما شيدتّها قد انجلت وأسفرت عن ماذا ؟ . . . عن زوج وضعونى تحت وصايته ، زوج جاد أكثر مما ينبغى . . . وهاهو ذا أمرى قد انتهى إلى ما صرت إليه : مومياء حية! . . . لم يزل أكثر الناس لا يفهمون ما هو « الحب » ؟ . . . وإن العواطف

القوية تعتبر لديهم من الأشياء الضارة الخطرة ، وإنه لا يجوز لنا أن نحب إلا ذلك الزوج الذى قيدتنا به الظروف ، حتى وإن اختلفنا معه كل الاختلاف فى الطبع والمزاج ، والميول ! . . . إنهم لا يريدون أن يفهموا أن هنالك أنواعاً عدة من الحب ، وأن الإنسان لا يستطيع أن يحيا بغير أن يحب من أعماق كيانه . . .

آه ! . . . يا لها من حياة . . . حياة البيت ! . . . ما أبهجها حقاً . . فى الصباح ماذا أصنع وقد انتهيت من زينتى ؟ . . . لا شىء غير الخروج إلى الحوانيت مع بعض الصديقات . . . أو إلى حديقتنا أو حديقة بعض المعارف لنلعب « التنيس » مع الصديقات بالطبع ، فإن زوجى لم يعد يجد فراغاً للعب معى أو مع غيرى ؛ فقد أصبح رجلا مشغولا بعمله ككل الأزواج ، بعد العام الأول من عقد القران . . . فإذا لم أخرج فليس عندى غير التسكع الكئيب فى أرجاء المنزل ! . . . أترك حجرة لأدخل أخرى ، إلى أن أستقر آخر الأمر قرب «الراديو » ؛ لأصغى إلى الأغانى وأجد فى آهاتها صدى أحزانى ، فإذا لم أجد فى الأغانى ما يطربنى لجأت إلى القراءة . . . آه . . . لقد أدركت . . . أدركت لماذا كان زوجى يوصينى دائماً بالكتب ، إنه كان يعلم أن السأم ينتظرنى ، ولكن القليل منها ، أجد فيه ما يروى ظمأ نفسى ! . . لقد خاب أملى فى الكتب ومؤلفى الكتب ! . . .

ويأتى زوجى من عمله متعباً فنتغدى فى صمت ، ثم نأوى إلى حجرتنا ، أو أتركه يذهب إليها وحده أحياناً ، وأجلس فى الصالون أطالع بعض المجلات ؛ فإذا جاء العصر ، زارنا بعض أقارب زوجى ومن بينهم ابنة عم له . . . فتاة سخيفة تخفى — تحت مظهرها الساذج — نفساً خبيثة شريرة ! . . . فنجلس نتحدث فى شئون فارغة ، ونقص حكايات تافهة مضجرة ، إلى أن يحين وقت العشاء ، ثم نأخذ فيما كنا فيه من باطل الأحاديث ، أو ننكب على مائدة « الكونكان »

أو « البينا كل » . مع بعض المعارف ، إلى أن تأتى ساعة النوم فنفترق . . . كل إلى فراشه بعد أن نلفظ العبارة المألوفة : « تصبحون على خير . . . » ونأوى إلى مضاجعنا ، فننام ملء جفوننا نوماً طويلا هادئاً ؛ كأنه نوم الأطفال المطيعين البررة ! . . .

إنى لا أغالى فى شىء ، تلك هى حياتى وإنى يوم وطنت عزمى على أن أسطر اعترافاتى قطعت على نفسى العهد ألا أقول غير الصدق ، مهما يكن قاسياً أو شائناً أو مخجلا ! . .

آه ! . . . إنى سئمت ! . . . إنى ضجرة . . . وإنى لأعذب نفسى بمحاولتى تذكر لحظة سعيدة مرت فى تلك السلسلة التى لا تنتهى من أيامى التى سلفت ، ولكنى الآن قد سئمت . . . أريد اليوم أن أتنفس قليلا ! . . وأن أتذوق سحر الحياة . . . لكن كيف ؟ ومتى ؟ . . . .

إنى لا أجرؤ على سؤال الغيب عن مصيرى ! . . . خشية أن يقول لى إن غدى كأمسى ! . . .

أخيراً . . . يبدو لى أن السماء قد سمعت زفرات قلبى . وأنها قد أزمعت أن تقف لحظة إلى جانبى . . . فها هوذا زوجى يعود اليوم من ديوانه يعلن أنه مسافر غداً لأعمال مصلحية تقتضى غيبته بضعة أسابيع ، لقد مضى عليه أكثر من عام لم يتركنى يوماً واحداً ! . . . لقد تنفست وهو يعلن إلى ذلك الخبر . . . ولكنى كتمت ما بى ، كى لا يظهر على وجهى الفرح واتخذت هيئة القلق والكدر ، وقلت له كالوالهة :

— « مسافر ؟ . . . يعنى ضرورى من سفرك يا « محمد » ؟ . . . »

فقال :

— « ضرورى ! . . . مأمورية مستعجلة فى الأقاليم ! . . . »

فعبرت له عن حزنى لمجرد فكرة فراقه ، ولو كان ذلك اليوم واحداً . . . وقد حرصت على أن تبدو على وجهى مظاهر الضيق والألم ! . .

واليوم الثلاثاء ، سأتناول الغداء في منزل والدتي ، حيث يجتمع بعض أفراد العائلة ، على حسب العادة المتبعة كل أسبوع ويالها من اجتماعات ثقيلة ! . . . بل هي سخرة لا بد من تحملها ؛ فأقل مافيها من مشقة وجوب الحيطة والاحتراس في كل كلمة ألفظها ؛ خشية أن تفسر أسوأ تفسير . . . لذلك أفضل الصمت المطلق على أن أتهم بالجنون والخروج ، على قواعد الحشمة والأدب ! . . . على أني أحياناً أوثر أن يتهموني بأى شيء على أن أشترك في تفاهاتهم وأباطيلهم وإشاعاتهم التي يغتابون بها الناس هناك . . وهل أستطيع أن أرد على أقاويل عمتي ، وهي تحكم برجعيتها وضيق أفقها على تصرفات صديقتي « مرفت » زوجة « البكباشي حسني » ابن خال زوجي ، الذي يعزه دون بقية أقاربه ! . . . هذه الصديقة المسكينة كل جريمتها أنها أرادت أن تعيش ؛ وأن تتنفس قليلا ! . . . وأن تحيا كمخلوق حر متمدن . . . ولكنها في نظر عمتي وأمثالها من أفراد أسرتي : امرأة ساقطة ، أفعالها وأحوالها تشبه أفعال وأحوال العاهرات ! . . يالها من ألفاظ شنيعة ، تكاد أذني تثور لسماعها ! . . وغير عمتي واحدة أخرى من قريباتنا لا تنسى أن تضيف : « الحق أن كل شيء في هذه المرأة يدل على الخفة والطيش والاستهتار . . . حتى العطر الذي تتعطر به ! . . . »

ويمضي على هذا النحو كل من حضر ! . . فيتبرع بكلمة ينهش بها تلك المرأة الشقية ، متخذين منها ؛ ومن مثيلاتها مادة للحديث والسمر ! . . لقد كنت أدرك أنه ما من جدوى في الدفاع عن مثل هذه المرأة في مثل هذه الولائم ! . . فهي طبق ضروري من أطباق المائدة ! . . وإن لحمها ألزم للحاضرين من لحم الضأن أو الأوز ، أو الديك الرومي ! . .

لقد كنت أكتم ازدرائي لهؤلاء الناس الذين يشتهون أن يتغذوا بفضائح » الآخرين . . حتى الشابات من فتيات الجيل الحديث

ممن أومن أن آراءهن فى ذلك مخالفة لآراء العجائز المحافظات — يجدن عين اللذة فى هذا « الطبق » ، وهذا اللون من الطعام : طبق « الفضيحة » و « الإشاعة » . . ما من أحد يلتمس العذر لمن يغتابونهم . . . فيذكر ضعفهم الإنسانى الذى قد يكون هو المسئول أولا وأخيراً . . لا . . فالجميع مع إدراكهم لذلك يستمرئون استغلال هذا الضعف الإنسانى لملذاتهم الاجتماعية . . لعلى أنا وحدى التى كانت فى قرارة نفسها تلتمس الأعذار لجمع الغوايات والغلطات على هذه الأرض . . تاركة حق الحكم عليها للديان وحده . . الواقع أن فى أسرتى — كما فى أكثر الأسر — أفراداً يحبون التظاهر بالغيرة الكاذبة على الأخلاق ، ويؤثرون على الآخرين من الضعفاء الذين لا يجرءون على معارضتهم ، حتى وإن كانوا فى حقيقة الأمر لا يشاركونهم عين الرأى ... إنى لعلى ثقة بأنهم فى غيبتى يحكمون علىَّ أنا أيضاً أشنع الأحكام . . . ولكن ماذا يهم ؟ . . فليقولوا ما شاءوا . . فإنى لن آكل معهم هذا اللون من الطعام ؛ لأن معدتى لا تقوى على هضمه ! . . .

فى الساعة الرابعة . . . أختى الصغرى تسألنى بالتليفون عما نصنع اليوم ؟ . . سنذهب الآن عند بنت عمنا . . . لنلعب قليلا من « الكونكان » أو « البوكر » أو « البيناكل » ، وفى المساء نذهب إلى سينما « . . . » ؛ لنشاهد الفيلم الجديد « هناء الغرام » ؛ فقد حجزت لنا أختنا الكبرى « بنوار » ، فلا مفر من الذهاب ؛ لأن إرادتها عندنا أمر لا بد من طاعته ! . . . على أنى فى الحقيقة أحب « السينما » ! . . وتروقنى بعض الأفلام المصرية . . إنها على الأقل خير لى من مجالسنا العائلية ! . . ولكن ما الذى يدعونى إلى إضاعة هذا العصر عند بنت عمى ، أصغى إلى بقية الحلقة التى لا تنتهى من « التشنيعات » ؛ أما يكفى ما سمعت فى الظهر عند والدتى ؟ . . كلا . . إنى أفضل الذهاب مع زوجى ومع زوج أختى الكبرى إلى « ميناهاوس » نتناول الشاى ؛ على

الاستمرار فى تناول الناس بالنميمة فى منزل ابنة عمى ! . .

آه . . . لو كنت أعلم ما يخبئه لى القدر ! . . لو كنت أعلم تأثير ذهابى يومئذ إلى « ميناهاوس » على مجرى حياتى كلها لأحجمت عن الذهاب . . . إنى كلما فكرت فى ذلك لا أتمالك عن البكاء بدموع غزار ! . . لا دموع الندم ؛ بل دموع الأسف أذرفها على ذكريات ، هى – ولا ريب – أجمل وأروع وأغرب ما مر بى فى الحياة ! . . .

فى نحو الخامسة ، كنا فى طريقنا إلى « ميناهاوس » ، وكان الجو لطيفاً ، فاخترنا مائدة فى الحديقة ، وأقبل علينا الخدم ، فسألنى زوجى عما أطلب ، ثم أوصى الخدم بإحضار ما طلبنا ، وأدرنا أعيننا لنجيل النظر فيما حولنا ، وإذا . . . وإذا عينان ترنوان إلىّ من مائدة أمامى على نحو هز نفسى ! . . لقد كان صاحب هاتين العينين شابًّا ، بديع القسمات ، منتظم الملامح ، معتدل القدّ ، تبدو عليه أناقة تنم عن سلامة ذوق وحسن اختيار ! . . فحولت فى الحال عينى إلى جهة أخرى . . . ولكن على الرغم من ذلك فإن نظراتنا تقابلت غير مرة . . . وفى مدى الساعة أو الساعتين لجلوسنا كانت أعين أحدنا تبحث عن أعين الآخر دون علم منا ، ثم تتجنبها ، ثم تعود إليها من جديد ! . . . لطالما حاولت عبثاً أن أقصى نظراتى عن نظراته . . . لقد حدث فى نفسى شىء لا يمكن تفسيره . . شىء عميق غامض ، يجذبنى جذباً إلى ناحيته ، وبغير أن يقوم بيننا تعارف شخصى ، شعرت لفورى أنى واقعة تحت تأثيره . . . وليس هذا بالأمر الشائع الحدوث . . . فإنه ليصادفنا فى حياتنا النسائية رجل عابر يعترض طريقنا ، فتتحاذى الأكتاف ، وتتقابل النظرات . . . ولكنها نظرات عدم الاكتراث . . . ثم يمضى كل منا لشأنه . . . بل إنه ليحدث أحياناً أن نعرف شخصاً بالذات فلا يخطر على بالنا قط أنه سيتخذ فى أنفسنا

محلا ، ولا فى وجودنا مكاناً . . . ولكن القضاء يشاء . . . فإذا الحب قد أوثقنا بسلاسله و إذا نحن نتساءل كيف وقع هذا ؟ . . . ولماذا ؟ . . . فلا نتلقى غير إحساس يصعد من أعماق قلوبنا صائحاً : إن هذا الحب كان دائماً موجوداً . . .

هذا الشاب ليس عندى بغريب . . بل الغريب حقًّا هو هذا الاتفاق أو المصادفة أو القدر الذى وضعنى أمامه اليوم وجهاً لوجه . . . هذا الشاب الأنيق لم يكن غير « . . . » الممثل الأول ، فى فيلم « هناء الغرام » ، الذى سنشاهده هذه الليلة . . . ولطالما شاهدته من قبل فى أفلام أخرى . . . ولطالما سمعت بأخباره من الصديقات ، وقرأت عنه فى المجلات ، أعجبت به ذلك الإعجاب العام الشائع الذى يكنه له كثير من النساء . . . ولكنى . . . ولكنى ، منذ هذا العصر ، أحس أن رباطاً خاصًّا وثيقاً يقيدنى به ! . . .

ذهبنا فى المساء إلى سينما « ... » ورأيت هذا الشاب على الشاشة خيالا نابضاً ، وأصغيت إلى صوته يتدفق حرارة ، خيل إلى أنها تنساب فى مفاصلى . . . وتشيع فى نفسى وتصعد إلى رأسى فتكاد تفقدنى صوابى . . . ترى أهو فى الحياة كما هو فى الرواية ؟ . . . أتراه فى الواقع يحادث من يحب من النساء بمثل هذا الحديث العذب وهذه العاطفة الملتهبة التى يحادث بها هذه الممثلة التى تشاركه التمثيل ؟ . . . أتراه حقًّا يستطيع أن يحب هكذا كما يتطلب دوره فى الفيلم أن يحب ؟ . . . أتراه ينتصر دائماً هكذا فى ميدان الحقيقة ويفوز بأمنع النساء وأصعبهن منالا ، كما يستطيع ذلك فى هذه الروايات ؟ . . . ليس فى عزمى مطلقاً أن أرمى بنفسى فى أحضان هذا السيد المفضال الذى لن أراه ولا شك بعد اليوم أبداً ، إلا من « بنوار سينما » . . . ولكن لا بأس مع ذلك من مجرد التأمل ومحادثة النفس ! . . . لقد قلت فى نفسى : إن رجلا فى هذا الشكل والقد والتأثير ، لو

عنى بأن يغزو قلب امرأة ، لكان من المحتمل أن تخضع هذه المرأة ، وإن كانت من أحرص النساء ! . . . ترى ماذا يحدث لو أن رجلا مثل هذا وقف فى طريقى ، كلمنى بهذا الصوت الساحر ؟! ... لو أنه أمرنى بتلك اللهجة التى يمتزج فيها شبه رقة حالمة ، بشبه بهيمية عارمة ! . . . إذا أمرنى بتلك اللهجة الحلوة الصارمة أن أتبعه فماذا ترانى صانعة ؟ . . . إن الجواب عن هذا ليس بالشىء الهين ولا بالأمر اليسير ! . . .

لقد شعرت تلك الليلة أنى فريسة عواطف شتى حلوة غريبة وما استطعت لحظة أن أصرف ذهنى عن التفكير فى هذا الرجل !... لقد جثم طيفه على مخيلتى ... وجعلت صورته تتبعنى بغير انقطاع ؛ ذلك أن كل شىء فيه يعجبنى : نظرته وصوته وإشارته وإيماءته !...

لقد جعلت أفكر ، وأتصوز ، وأعجب ؛ لمتناقضات الحياة !... كيف يسمح لرجل ثرى بدين مصاب بضغط الدم ، أن يرقد فى سرير ممثلة شابة جميلة ؛ باعتبار أنه خليلها ، مع ما فى هذا المنظر من إيذاء لشعور كل ذى فهم وذوق . ولا يسمح لممثل شاب جميل مثل « ... » أن ينام فى فراش امرأة لطيفة من نساء الأسر ؟! . . آه . . . إنى لأتمنى ذلك مرة ! . . . مرة واحدة : أن أنام بين ذراعى هذا الرجل . . . . يالى من خاطئة !! ... إن مجرد هذا التفكير خطيئة !.... ولكن... أليس الاعتراف بالخطيئة جديراً ببعض الغفران ؟ . . . إن إخراج هذه الخواطر من صدرى ، ورفعها عن كاهلى ، وإلقاءها فى هذه الصفحات ، ليشعرنى بإحساس من تخفف من عبء ثقيل . . . ولكنى مع ذلك لست أعرف ما بى . . لم أستطع الرقاد تلك الليلة ، ولم أكف عن المشى فى الحجرة ، أدور فيها وأقطعها طولا وعرضاً . . . حتى صاح بى زوجى آخر الأمر :

— « عجباً لك . . . ألا ترقدين ؟ . . . مالك تدورين هكذا ؟ . . . »

مالى ؟ . . . هل فى إمكانى أن أصارحه بما بى ! . . . بى يا سيدى الزوج أنى لو وجدت فى فراشى رجلاً مثل « . . . » لكنت قد رقدت منذ زمن طويل !

هنالك شىء لست أفهمه : لطالما شغف الرجال بالممثلات ، يغدقون عليهن الإعجاب ، ويغرقونهن فى البذخ والترف ، فلماذا نحن النساء لا نفعل كما يفعلون ، فنسبغ عطفنا على الممثلين ونحوطهم بعنايتنا وحبنا ؟ . . . يقولون إنها الفضيلة والأخلاق تأبى ذلك علينا! إنى لأعجب لهذه الفضائل والأخلاق التى تحلل لهم ما تحرم علينا ، وتغفر لهم مالا تغفره لنا أبداً نحن النساء الضعيفات ! . . .

استيقظت هذا الصباح مبكرة لأجهز الحقيبة لزوجى المسافر ضحى اليوم ! . . ثم جاء موعد السفر فودع أحدنا الآخر وداعاً روحياً طيباً . . ثم أوصانى ببعض حاجات له أقضيها أثناء غيبته . . وذهب ! . .

وهأنذى أشعر بجو من الحرية يغمرنى . . . فتأهبت على عجل للخروج ، وغادرت المنزل بحجة شراء بعض الحاجات من الدكاكين ، ولكنى بدلا من ذلك رحت أهيم على وجهى فى الشوارع . . . أملأ عينى الفرحتين بألوان المارة وأصناف المعروضات فى واجهات الحوانيت . . . وتعقب خطاى رجل وسيم ، وهو يقول :

— « أما شيك صحيح ! . أنا مستعد أكون تحت تصرفك طول حياتى ».

فأسرعت فى خطواتى وأنا أقول له :

— « وأنا غير مستعدة أن أضيع وقتى مع حضرتك خمس دقائق! . . »

وألهتنى أمثال هذه الحوادث والمحادثات أثناء سيرى فى الطرقات ، إلى أن جاء الظهر ، فقادتنى قدماى — على الرغم منى — قرب سينما « ... » وما استطاعت نفسى أن تقاوم تلك الرغبة الملحة فى دخول السينما . . . لقد دفعنى إلى ذلك دافع أقوى منى ! . . . لقد كان كل أملى هو أن أعرف شيئاً عن هذا الممثل « . . . » الذى شغل فكرى

بهذا المقدار ! . . .

ولكن هاهنا مفاجأة حياتى التى لا يمكن أن تدانيها مفاجأة ! . . . كلا . . . بل ذلك هو العجب الذى لا يرقى إليه خيال الروائى . . . فهما خصبت قريحة الروائيين فإنهم لا يستطيعون الإتيان بمثل مفاجآت الحقيقة ! . . . . إنهم قلما يصورون الحقيقة ؛ لأن الحقيقة أحياناً أروع خيالا مما يتوهمون ، لو أنى قرأت فى إحدى القصص ما أرويه مما اتفق لى ، لهزرت كتفى غير مصدقة ومكترثة ! . . .

هل أنا فى حلم ؟ . . . بل هى الحقيقة . . . . أو قل هى المصادفة ، أو القدر ، أو النصيب ! . . . ما وطئت قدماى عتبة السينما ، حتى أبصرت الممثل « . . . » أمامى واقفاً بجوار شباك التذاكر . . . فألجمتنى عاطفة قوية . . . أهو وجوده المفاجئ الذى سبب لى هذا الاضطراب ؟ . . أعتقد ذلك ؛ فلقد ملكت نفسى حتى لا أشعره بالتفاتى إليه . . . وأخرجت سريعاً من حقيبة يدى نقوداً ، وحجزت محلاً لم أعن باختياره ، ولم أدر أفى حفلة « الماتنيه » هو أم « السواريه » . . . ثم هممت بالانصراف على عجل . . . وإذا المصادفة مرة أخرى ، أو هو القدر ! . . . لست أدرى ماذا أسمى ذلك الذى يصرف أمورنا على نحو مباغت غير متوقع الحدوث . . . لقد سمعت لدهشتى صوت الممثل « . . . » الحلو النبرات ينادينى بأدب قائلا :

— لا مؤاخذة يا هانم . . . وقعت منك حاجة ! . . .

يا لك من منطق بارع أيها الشيطان ! . . . . ما أمهرك فى اختراع الأسباب المعقولة ، والمناسبات المقبولة ! . . . . لقد حدث فعلا وأنا أخرج النقود من حقيبة يدى أن سقطت منها ورقة ، مدون بها الحاجات التى سألنى زوجى قضاءها ، فالتقطها الممثل « . . . » سريعاً وناولنى إياها ، فرفعت عينى نحوه فألفيته يحدجنى بنظرة غريبة من عينين تلمعان ببريق فجائى كله نشوة ! . . . فأحدثت هذه النظرة

هزة فى كل جسمى ، فمددت يدى لآخذ الورقة ، فإذا يده تلامس يدى ، فشعرت بيده ترتجف ؛ كأنها مست سلكاً مشبعاً بالكهرباء ، فأحسست فى تلك اللحظة كأنى ثملة بخمرة مجهولة لذيذة ، لا تستطيع قوة فى الوجود أن تخرجنى عن نطاق سحرها . . . ومع ذلك فقد تجلدت ، بشكرته وتحركت للانصراف : ولكنه بادر قائلا :

— « إنى سعيد يا سيدتى لهذه المصادفة التى سمحت بأن ألقاك اليوم ، فلقد رأيتك أمس أول مرة فى حديقة « مينا هاوس » ، والآن عندما أبصرتك مقبلة تملكنى فرح ، لا يقاس إلى جانبه أى فرح آخر مهما عظم ! . . . » .

كان يقول هذا وكأنما كان يتحدث بلسانى . . . فأنا أيضاً تملكنى لرؤيته مثل هذا الفرح ،ولكنى لا أستطيع مطلقاً أن أخبره بذلك ، لقد كنت أمامه صامتة ، ولكنى أحس سعادة لا قبل لى بوصفها ، وأنا أسمع هذا الاستعطاف من فمه ، وبصوته الحار المترنم . . .

ودار بيننا هذا الحديث :

— إنى امرأة خجلة ، ولست أدرى كيف أجيب . . .

— لا ياسيدتى ! . . . إنى حقيقة لست أدرى من أنت . . . ولا ماذا تصنعين ؟ . . . ولكن الذى أريد أن أعتقده ، هو ألا يكون من المستحيل أن تفكرى فىّ قليلا ! . . . إنى كثير الادعاء ! . . . أليس كذلك ؟ . . .

فأخذت فى الضحك . وقلت له :

— إنه ليتفق لى أن أفكر فى أناس كل فضلهم أنهم يحبسوننى فى سجن من السأم . . . أفلا أستطيع أن أفكر أحياناً فى فنان استطاع بمواهبه أن يؤثر فى نفسى ؟ . . .

— لا أحب يا سيدتى أن يتجه اهتمامك إلى الفنان وحده . . .

إن لدى لشيئاً آخر غير هذا . . . لا تنظرى إلىّ فقط باعتبارى ممثلا ! . . .

– وكيف تريدنى أن أنظر إليك إذن ؟ . . .

– لا تؤاخذينى . ! . . إنى أعرف أنك ستحكمين علىّ حكماً سيئاً . . . فهذا حقاً عمل جنونى . . . وليس من حقى أن أطلب إليك تصديق رجل لا تعرفينه ، ولكنى أرجوك أن تثقى فى إخلاصى ! . . .

البارحة عندما رأيتك فى « مينا هاوس » خيل إلىّ أنى أرى رؤيا إلهية . . . لقد غمرنى إحساس بأنه كان ينبغى أن يعرف أحدنا الآخر منذ زمن طويل ! . . . إنى أعلم أنى لا أستحق منك هذا العطف . فأنت جميلة ياسيدتى ، ولا شك أنك محبوبة . . . ومدللة من أولئك المحيطين بك ، ولكنى مع ذلك أرجو أن تنظرى إلىّ بعين التسامح . . . وألا ترفضى رجائى ! . . .

وهنا رأيت أن الحديث قد وصل إلى مرحلة خطرة . . . فأنا لست مدربة بعد التدريب الكافى على هذا النوع من المغازلات الجريئة ، حتى أستطيع اجتياز مثل هذه الأحاديث برشاقة ولباقة ، دون أن أورط نفسى ، أو أصدم شعور غيرى . . . ثم إنه فضلا عن ذلك فإن « . . . » لا يغازل ، ولا يداعب ، ولا يمزح ! . . . فهو جاد فيما أرى ! . . . أو على الأقل يبدو لى أنه كذلك ؛ فصوته يغمره الشعور الصادق ، وعيناه تنطقان برجاء يائس ذليل ، وشفتاه تبتسمان ضراعة واسترحاماً ، وخياشيمه تضطرب رهبة وأملا ، ونفسه التى يقدمها كأنها قربان ! . . . كل هذا وجد إلى قلبى سبيلا سهلا ممهداً . . . لعل من تقع فى يده هذه الصفحات يوماً يتهمنى بالطيش وعدم الاتزان ، ولكن هل نستطيع دائماً أن نفسر كل شىء بالعقل الرجيح والمنطق السديد ؟ . . .

فليقف عاذلى موقفى ؛ ليرى تلك الكلمات ، ويطلع على

ما اضطرم به قلبي . . . ثم ليرمني بعد بما يشاء . . . إني لواثقة أنه سوف يقف حائراً متردداً ، قبل أن يصدر في أمرى حكما ! . . .

وقلت أخيراً للمثل « . . . » وأنا أهم بالصعود إلى السيارة :

ـ شكراً ! . . . و . . . وداعاً ! . . .

فقال وهو مازال محتفظاً بيدى فى يده :

ـ لا يا سيدتى ! . . . لا تقولى وداعاً . . . بل لقاء هذا المساء . . .

سأنتظر هنا فى حفلة « السواريه » . . . إنها لقسوة منك شديدة إذا أنت لم تحضرى . . . كونى كريمة . . . إنى مع ذلك ـ بغير أن أطالبك الآن بجواب ـ سأنتظرك . . . وسأحل نفسى الليلة من كل موعد أو اتفاق لا . . لا تقولى شيئاً . . . أرجوك . . . دعى لى على الأقل حلاوة الأمل ! . .

فى هذه اللحظة أدركت أن الحب قد أمسى سيدى ومولاى . . . ما من أحد يستطيع أن يدرك قوة تلك الكلمات التى قالها لى ! . . . لقد هزمتنى واكتسحتنى ، وسيطرت على . . . وما إن جاء المساء حتى كنت قد نسيت كل شيء ، حتى تلك الحاجات التى كلفنى زوجى قضاءها ، لم يكن فى رأسى غير فكرة واحدة . . . لقد كنت على استعداد أن أدوس كل ما يعترض سبيلى إلى رغبتى ، ولو كانت الإنسانية جمعاء ! . . . لقد شعرت بأنى أصبحت جارية رقًّا لقوة غريبة مسيطرة . . . كان يجب على أن أتخير واحداً من أمرين : إما أن أنساه ، وإما أن أقع فى ذراعيه ، وقد وطنت عزمى على اختيار الأمر الثانى ! . . . لماذا انتهى بى الأمر إلى هذا الاستسلام ! . . . إلى هذه الحمى ! . . . إلى هذه التضحية بكل كيانى ؟ . . . وكيف رضيت أن أعرض نفسى لأشياء لا أجرؤ على مجرد تصورها ؟ . . . ولكن عبثاً أحاول التماس الأسباب . . . . إنى منذ ساعات قد تسلط على

حب أعمى ، من العبث أن أقاومه أو أكافح فى سبيل الانتصار عليه ! . . . إن مجرد ذكر اسم « . . . » أو مرور طيفه على خاطرى كاف لأن يلقى فى رأسى الجنون ! . . . لقد أمسى بالنسبة إلىّ رمزاً لسحر الحياة الذى طالما تمنيته ، وجريت خلفه ؛ كما نجرى خلف سراب ! . . . ليس من السهل أن أجد تعليلا قوياً لما سيحدث لى ! . . . إنى أتهم نفسى بالمس من الشيطان . . . لقد حاولت أن أخجل من هذا الحب ، وأعمل على ازدرائه . . . ولكن كلما اقتلعت منه شعرة نبتت شعرات . . . إن القلب ليتخذ مائة طريق يصل بها إلى ما يريد ! . . .

لطالما قالوا إن الحياة رواية تمثل . . . هذا صحيح . . . ولعل الأصح أنها فيلم سينمائى ، قد صنعه القدر فى معمله صنعاً . . . وهيأ لكل منا دوره الذى لا يتعداه ؛ ليعرضنا بعد ذلك خيالات تتحرك طبقاً لسابق مشيئته ، على لوحة المكان تحت أشعة الزمان . . .

هكذا اعتقدت أن القدر هيأنى لهذا المصير ، ولهذا لم أستطع مقاومة تلك الرغبة التى كانت تدفعنى إلى لقاء هذا الرجل الخلاب ، ولكن كيف الذهاب للقائه فى دار السينما فى حفلة المساء أمام الناس؟ . . . هنا خالجنى شىء من الرهبة ، ولكن لا ينبغى أن أتفكر ولا أن أتدبر . . . لم يعد الزمام بيدى ، فلأسيرن كما يأمرنى قلبى ، نحو ذلك المجهول بمفاتنه ومخاطره . . .

إن « الحب » إذا تراءى لنا نحن النساء ، فإنه ليهبط علينا متدثراً فى أجمل المشاعر وأروع الإحساسات ، فينبت عندئذ فى صدورنا إيمان ! . . . نعم . . . إيمان بأن لنا رسالة . . . رسالة نسوية لا تدركها إلا الأنثى ! . . . هى أن نعطى السعادة لذلك الذى عرف كيف يعطينا السعادة ! . . . هذا الإيمان الذى يمدنى بالقوة ، ويجعلنى أصيح قائلة :

— « إنى أحب . . . إنى أحب . . . وما من عقل أو حزم

أو منطق يحول بيني بعد الآن وبين الهدف ! . . . لا بد لى من بلوغ مأربى . . . وفى سبيل أن أفوز بـ (. . .) لن أحجم – إذا لزم الأمر – عن ارتكاب جريمة . . . »

آه . . . لو وقع ما أكتب الآن فى أيدى أولئك الغيورين على التقاليد، لثاروا علىّ ، وودوا أن ينشبوا أظفارهم فى عنقى ! . . . ذلك أنهم لن يستطيعوا أبداً فهم عواطفى ! . . . إن عقولهم الهادئة ومنطقهم المطمئن ليقف مشدوهاً بليداً أمام امرأة تعوى وتخور ؛ كحيوان جائع ، صارخة :

– إنى أحب . . . أحب . . أحب . . .

ولكن ماذا أعمل لأخفى غيبتى ؟ ! . . . وأنا التى تتبعها عيون الرقباء من كل جانب ؟ . . حتى خدمى يتجسسون علىّ ، وعندى الدليل . . . ليس من العسير على أن أجد طريقة . . . وأنا التى ترغم دائماً على الالتجاء إلى الكذب فى كل يوم . . .

رأيت أن أتصنع المرض ، وأزعم أن صداعاً شديداً يضطرنى إلى ملازمة حجرتى ، والتبكير فى النوم . . . وعلى هذا أخبرت الخدم بأنى لن أتناول العشاء ، وأن فى مقدورهم إذا شاءوا أن يتصرفوا فى ليلتهم كما يشتهون ، ولقد بادروا بالطبع إلى تنفيذ هذا الأمر المحبوب ! . . .

على أنى فيما بعد لم أشغل بالى إلى هذا الحد ، بأمر إخفاء سهراتى الليلية ! . . .

فى نحو التاسعة والنصف كانت الأنوار كلها قد أطفئت . . . وخيم على المنزل صمت عميق . . .

آه ما أسعد الإنسان بالحرية ! . . هأنذى حرة أخيراً ! . . . من الدقة أن أتحرى فى نفسى ، عما إذا كانت تلك اللحظات الأخيرة قد أيقظت عقلى ، ونبهت ضميرى ؟ . . . لا أظن ذلك ! . . . الأمانة

تقتضيني هنا أن أعترف بصراحة : إني لا أذكر مطلقاً أني راجعت نفسي فى شيء ، أو أني عيرتها بالخجل من تلك الساعات المقبلة التي قد تجر علىّ فى أذيالها العار ! . . .

لم يخطر على بالى هذا . . لقد كان ما يشغلني أهم من ذلك ؛ لقد أردت أن أستجمع كل مواهبي لأجعل نفسي جميلة . . .

لو أن « . . . » استطاع أن يراني فى تلك اللحظة لشاهد منظراً عجيباً رائعاً : ذلك منظرى وأنا أمام مرآتى : كالقطة المتنمرة ، هائجة هادئة فى عين الوقت ، راضية عصبية ، أتهيأ وأتجهز بعناية دقيقة ، ورغبة عنيفة فى أن أخلب لب هذا الرجل ! . . .

واخترت ثوباً من القطيفة السوداء . أعرف أنه « يحبك » جسمى حبكاً يظهر محاسنه ويبدى تفاصيله . وهو مع ذلك غاية فى البساطة . . . ولم أرد التزين بسوار فى معصمى ، ولا بخاتم فى إصبعى ، ولا بقرط فى أذنى ، نبذت كل حلية من الحلى ، ولقد أردت أن أترك لوجهى وحده ولجسمى ! . . . لى أنا وحدى كل الفضل فى سلب فؤاد هذا الرجل ، وتأملت نفسى مرة أخيرة فى المرآة شددت من عزيمتى ، وقوت من ثقتى فى نفسى ، غير أنى لم أنس مع ذلك ، أن أجرع كأساً من الويسكى ، الذى يعنى زوجى بتخير أجوده . . . فأعانتنى هذه الكأس على اكتساب تلك الإرادة الثابتة ؛ وتلك البديهة الحاضرة التى يضفيها الكحول على العقول ؛ كأنه السحر ، ورفعت سماعة التليفون ، حتى لا يدق جرسه فى غيبتى . . . ثم . . . ثم فى غير تردد ولا إحجام ، خرجت ذاهبة إليه . . .

فى الساعة الحادية عشرة إلا ربعاً وقف بى « التاكسى » أمام دار سينما « . . . » فدخلت ، وكان الفيلم الكبير قد بدأ ، فسألت القائم بالباب عن الممثل « . . . » فأخبرنى أنه داخل « الصالة » فقلت :

— إنى أريد مقابلته ! . . .



فسألنى :

— « نقول له مين ؟ . . . »

فشعرت بالدم يصعد فى وجهى ، فهذا سؤال محرج ما كان يحسن أن يلقى على سيدة فى هذا الموقف ، ولم يخطر لى قط أن أحداً سيلقيه علىّ ، ومن الإنصاف والأمانة أن أورد هنا أنى حاولت فى تلك اللحظة فقط أن ألقى على نفسى درساً فى الأخلاق ، وأن أثنى عزمى عن المضى فيما أنا فيه ، والعدول عن هذا اللقاء . .

ولكن ماذا كان فى مقدورى أن أفعل ؟ . . . إنى لم أكن فى وعيى ، لقد كنت أشبه الأشياء بقشة تتقاذفها الأمواج . . . كنت قد ألقيت بنفسى فى أحضان المغامرة وانتهى الأمر ، وما من قوة وقتئذ كانت تستطيع الوقوف فى وجهى ! . . لقد كنت متأهبة للإقدام على كل شىء من أجله ؛ فلتكن الفضيحة ! . . . ولتقع المأساة . . . كل شىء أقبله إلا الرجوع على أعقابى ، والعدول عن غرامى . . . تلك هى التضحية الكبرى التى لن أقبلها من أجل شىء فى الوجود . . . ومع ذلك شعرت بضربات قلبى تشتد وأنا فى موقفى هذا ! ؟ . . .

وكان يجب أن أخرج منه سريعاً ، فقلت على عجل للقائم بالباب ، فى لهجة جمعت بين عنف الأمر ، ولطف الرجاء :

— « قل له واحدة ست طالبة تقابله ! . . . »

ولم يجد ذلك الرجل مناصاً من تنفيذ رغبتى ، فذهب واختفى قليلا ، ثم عاد وفى أذياله الممثل « . . . » يكاد يعدو نحوى . . . إلى أن اقترب منى ، فأمسك فى الحال بيدى وجذبنى برفق إلى « بنوار » خال داخل السينما ! . . . وهو يقول لى بصوته المتدفق بحرارة الفرح :

— « آه ياسيدتى . . . ياله من فرح ؟ . . . أنت أنت . . . هأنتذى أخيراً . . . إنى لسعيد ! . . . » وأجلسنى فى صدر « البنوار » . . . وتناول يدى ، وطبع عليها قبلة ، وكان الظلام لحسن الحظ مخيما ،

والجمهور مشغولا بعرض الفيلم . . . فدار بيننا هذا الحديث فى همس كأنه همس الحلم :

– ألا تدهش قليلا لمجيئى ؟ . . .

– إنى كنت أنتظرك ، وكان يجب أن تأتى ! . . .

ولكنك لن تتصور معنى مجيئى هذا ، ولا ما ينتج عنه ؟ . . .

– أظن أنى أستطيع أن أتصور هذا ، وأن أدرك موقفك ! . . . ولكن ثقى ياسيدتى العزيزة أنه كان مقدراً لنا أن نتلاقى ؛ وأن يعرف أحدنا الآخر . . . وأنه مهما نفعل فلن نتجنب هذا القدر . . . لقد أدركت ذلك ؛ كما قلت لك منذ الساعة التى رأيتك فيها أول مرة فى « ميناهاوس » ولقد انتظرتك ، وكنت واثقاً من أنك آتية . . . انتظرتك على الرغم من أنى لم أتلق منك جواباً صريحاً بالمجىء ،ولكن كنت أشعر بمصيرنا . . . هل تشكين أنت فى أنه كان ينبغى لنا أن يحب أحدنا الآخر ؟ . . .

وهنا كاد يثب قلبى من بين جنبى ! . . . لقد تحدث عن الحب . . . وامتلأ بفرح بلغ مداه حتى كاد ينقلب حزناً خفياً . . . وعندئذ حانت منى التفاتة إلى الشاشة . . . وما كنت منذ دخولى قد أعرتها التفاتاً ، فلقد شاهدت الفيلم بالأمس . وما كان يشغلنى اليوم أقوى وأروع من أن أعنى بسواه . . . ولكنى رأيت فجأة مشهداً مثيراً لحبيبى « . . . » الجالس إلى جوارى فى الظلام ، يسكب فى قلبى الغرام ! . . . رأيته وهو يعانق الممثلة الأولى فى الفيلم ! . . . وقد كانت تتحرك بطيفها على الشاشة بجسمها الممشوق ووجهها الحلو الوضاء فى ثوب بديع يكشف عن ذراعيها المطوقتين عنق « . . . » صاحبى . لست أنكر أن الغيرة بدأت تعض قلبى ! . . . ولقد جعلت أتأمل هذه الممثلة الجميلة ، أصغى إلى حديثها لبطلها الممثل « . . . » وحديثه هو لها . . . وألفاظ الحب التى يناغى بها أحدهما الآخر . . وتساءلت

فى أعماق نفسى : لم لا يكون حديثه لها حقيقيًّا ؟! . . . إنهما كانا معاً بالطبع أثناء صنع الفيلم ، وليس بمستعصى على مثل هذه الممثلة أن تفوز به ، وهن الخبيرات المدربات الإخصائيات بسلب أفئدة الرجال . فهل تستطيع مثلى أن تنافس مثلها فى هذا الميدان ؟ . . . وشعرت عندئذ بطنين فى أذنى وجفاف فى حلقى . . . وخيل إلىّ أنى أصحو وأهبط من حلم ، لأرتطم فجأة بالحقيقة الخداعة . . . هاهوذا الحب يمثل أمامى على الستار الأبيض . . . فمن أدرانى أنه لا يمثل أيضاً إلى جانبى فى هذا الظلام ؟ . . . إن الممثل هو عين الممثل فى الحالين . . . فأين الحقيقة ، وأين الرواية ؟ . . . أو تراه يميز هو بين الاثنتين ؟ . . . أيعرف من كان مثله الفاصل بينهما ؟ . . الحب ؟ . . هل يستطيع « . . . » أن يحبنى ؟ . . . إن عقلى وإدراكى لقاصران عن تلمس الحقيقة فى هذا الظلام ! . . . كل ما أعرف الآن هو أنى أنا أحبه . . . ولكن أى مدى بينى وبينه ؟ . . . وأى فارق بين حياته الصاخبة البراقة ، وبين حياتى الهادئة الحبيسة ؟ . . . بل أى مكان فسيح — إذا جد الأمر — لآلام كبرى لا بد أن أعد لها نفسى . . . إنى منذ الآن أرتعد لمجرد التفكير فى كل هذا . . . أينبغى لى أن أحب رجلا مثل هذا ، مهيأ لإلقاء الفتنة وبذر الاضطراب فى قلوب النساء! . . . . المتعلمة منهن والجاهلة ، والخبيرة والبريئة ؟ ! . . . وهل فى الإمكان الاحتفاظ بمثله وتقييده ؟ . . . آه . . . التقييد والقيود ؟! . . . هأنذى أتحدث الآن عن القيود ، وأنا التى أنفقت وقتها فى لعن قيودها الموضوعة حول عنقها ! . . .

مهما يكن من أمر فما أحلى القيود مع « . . . » وما أسعدنى برباط يشدنى إليه أبد الدهر ! . . . ومررت بيدى على جبينى أفكر فى كل هذه المغامرة ، وخيل إلى لحظة أن من الحكمة أن أهرب بنفسى الآن ، وأن الأجدر بى أن أعود من فورى إلى سجنى وحظيرتى . . .

أأفعل هذا الساعة ، وأخبره أنى أشعر بدوار وأنصرف ؟ . . . أم أنه ينبغى لى أن أمضى فى هذا الطريق . . . هذا الطريق الخطر الذى تكفى فيه زلة قدم صغيرة ؛ لأسقط فى الهاوية ؟! ... إنى على الرغم منى أحس أنى فقدت كل إرادة . . . إنى نائمة أو منوّمة . . . إن شيطان الغواية كان قد لبس نفسى وجسمى ! . . . أو لست امرأة مثل الأخريات ؟ . . . ضعيفة ! . . . طيعة ! . . . قابلة للتأثير ! . . . خاضعة للمؤثرات ؟ ! . . .

لقد قلت فى نفسى :

ماذا يحدث لو عدلت الآن ، ورجعت من منتصف الطريق ؟ . . .

لا شىء سوى عودتى إلى حجرتى الباردة ، أعض بنانى ندماً على إحجامى وفرارى من وجه ذلك المصير المجهول ، والخطر المقنع الذى قد يخفى ابتسامة حلوة مع تقطيبة المخيف ؟ . . . مافائدة المقاومة الآن ؟ . . . لقد أردت هذا الذى حدث ويحدث ، وتمنيته ، ورغبت فيه بكل قواى وكل جوارحى ! . . . إنى الآن على أعتاب اللذة أو الألم . . . أو لم أقل من قبل إنى أفضل العذاب على هذا العدم الذى يكتنف حياتى ؟ . . .

ومع ذلك ، لماذا أفترض حدوث الألم ؟ . . . لماذا أقدر سبقاً خيبة الأمل ؟ . . هاهو ذا « . . . » إلى جانبى ينتظرنى ! . . . تلك هى الحقيقة التى لا مراء فيها . . . تلك هى الحقيقة التى تستحق أن أحياها ، وبددت هذه الفكرة كل ترددى . . . فأشرق قلبى من جديد بضياء الرجاء . . . وكان الفيلم قد قارب النهاية دون أن أتنبه أو أصحو من خواطرى ! . . . فما شعرت إلا ويد « . . . » تمس يدى بلطف ، وصوته يهمس فى أذنى قائلا :

« يحسن بنا أن ننصرف الآن ، إذا شئت ، قبل أن تضاء الأنوار ! . . . »

ولقد ارتحت لاقتراحه ، وأعجبت بلباقته وفطنته ! . . . فمما لا شك فيه أخشى أن يرانى أحد يعرفنى ، إذا أضىء المكان ، فنهضت فى الحال . . . وتناول هو يدى ، فقادنى إلى باب السينما ، وقال :

ــ « إنى تحت تصرفك . . . أين تحبين أن نقضى السهرة ؟ . . . »

فترددت وتمنعت برفق قائلة :

ــ ولكنى فى الحقيقة ! . .

فأسرع يقول :

ــ هدية القدر لى . . . فلن أفرط فيك بهذه السهولة ! . . . لا . . . لن أقبل عذراً ! . . . ولن أصغى إلى اعتذار ! . . . إنك . . . .

ونظر فى معصمه إلى ساعته الأنيقة وقال :

ــ الساعة الآن نصف الليل إلا عشر دقائق ، لا بد أنك تودين أن تأكلى شيئاً . . . فى منزلى طعام خفيف ، أرجو أن يعجبك ! . . .

وقبل أن يسمع منى جواباً أشار إلى أحد الواقفين بالباب ليحضر سيارة « تاكسى » ! . . . وكان « التاكسى » بالمصادفة على مقربة من الباب ، فما لبثت أن تقدمت فأعاننى « . . . » على الصعود إليها ، واتخاذ مكانى بها ، ثم صعد وجلس إلى جانبي ، وأمر السائق بالذهاب إلى « الزمالك » . . . فسارت السيارة فى ذلك الليل الهادئ ! . . . وهمس « . . . » فى أذنى :

ــ « لا أريد أن أتسرع فأسألك عن اسمك . . . ولكنك لا شك تسمحين لى فى أن أناديك بصديقتى ! . . . »

فقلت له :

ــ « بالطبع أنت صديقى ! . . . »

وهنا قال فى عذوبة :

ــ مادمت صديقك فلا أظنك تأبين على أن أقبلك ! . .

وطوقني برقة وحرص ؛ كأنه يطوق شيئاً مقدساً .. وضع شفتيه على شفتي وضعاً لطيفاً خفيفاً ، قبلة شبه طاهرة ؛ كأنها قبلة الخطوبة !...

ووقفت السيارة أخيراً أمام عمارة فخمة في حي « الزمالك » ، فنزل « . . . » وأعانني على النزول ، ووضع في كف سائق « التاكسي » ورقة نقدية ، ثم تأبط ذراعي وصعد بي إلى مسكنه ، وهو « شقة » ظريفة أنيقة فلمحت في ركن الصالون مائدة منصوبة عليها أطباق من اللحم البارد والحلوى والفاكهة وزجاجة من الويسكي ، وساعدني في خلع معطفي . بينما شفتاه تلمسان يدي ، وذراعي ونحري ، لمس النسيم! ..

لقد تجنب في كياسة تشبه الحياء أن يتعجل أي التصاق بين جسمينا ! . . لكأني به ذلك الذواقة ، الذي يريد أن يستمرئ الكأس على مهل ، وقال لي بابتسامة وديعة :

— « أرجوك أن تعتبري البيت بيتك » . . .

وجعل ذراعه حول خصري ، واتخذ رأسي من كتفه شبه وسادة . . . فقادني إلى حجرة نومه وتلقى جسمينا « ديوان » وثير ! . . .

وقال لي في همسة عذبة :

— « ياحبوبتي ! . . »

وطوقني والتصقت شفاهنا ، وتنفسنا والعين في العين ، فخيل إلي أني أشرب أنفاسه شرباً ، وأنها تهبط إلى سويداء قلبي ؛ فأدركت عندئذ أن جسدي كان جوعان حباً ! . . . وأن هذا الرجل يستطيع أن يصنع بي ما يشاء . . . وهنا شعرت بأصابعه اللبقة تفك أزرار ثوبي ، وتجردني منه بغير لهفة ولا عجلة . . . ثم جعل يعجب بي وأنا هكذا . . . ثم أخذ يداعبني بيده وفمه . . . إنها عين القبلة التي عرفتها فيما مضى . . . ولكنها من قبل كانت تطبع على جسد هامد . . . يتمنى في قرارته الخلاص ، ويود لو يدفع عنه تلك المداعبات الثقيلة التي يتكلف احتمالها تكلفاً . . .

أما هذا الحبيب « . . . » فلا شيء منه أكرهه قط ، لقد خيل إليّ أنى أريد بدورى لو أغطى جسده بقبلاتى . . . وأخيراً حملنى ، وأنا فى شبه غيبوبة إلى سريره المعطر ، وتركنى واختفى لحظة ، ثم عاد متدثراً فى « روب دى شامبر » خفيف من الحرير « الساتان » ، لم يخلعه عنه وهو يطرح جسمه إلى جانبى ، وبدأ المداعبة والملاعبة من جديد ! . . .

وجعل يهدهدنى بكلمات الحب :

— « يا حبيبتى . . . يا معبودتى . . . يا حياتى . . . إلخ . . . » ! . . إلى أن صرنا جسماً واحداً . . . لا تفصل بيننا شعرة . .

آه ! . . . اليوم فقط أدركت لماذا تحطم النساء كل قيد يحول بينهن وبين الرجل الذى يكشف لأعينهن العمياء عن ملذات الحب ! . . أين كنت غافلة عن اللذة الكبرى : لذة منح النفس للحبيب والفناء فيه ، والإحساس بأنى شيء ضعيف هش بين يديه ، وانتظار أحلى المشاعر التى يهيجها فيّ ! ... ما أسعدنا نحن النساء بأن نذعن لمثل هذا الرجل، وأن نطوى إرادتنا تحت جناحيه ! . .

إنى لأحس أنى الآن امرأة جديدة إلى حدّ الاعتقاد بأنى لم أكن أكثر من بكر بريئة ، قبل أن يدخل الممثل « . . . » فى حياتى ، وإنه لحق ما أعترف به هنا . . . فهنالك رجال نجد فى الاتصال بهم ألماً وعنفاً يملؤنا سخطاً . . . وإنهم ليمعنون فى أنانيتهم ، بدون أن يلقوا بالا إلى الاشمئزاز الذى يثيره فينا أحياناً منظرهم هذا الدال على الاستهانة الصريحة ، وبدون أن يعنوا فى موقفهم هذا بإخفاء معنى الآلية و « الروتين » . . . أو سترها ولو بقليل من المداعبة اللطيفة ، والمغازلة الرقيقة ! . . . هذا الشعور بالازدراء والاشمئزاز الذى قد يعترى المرأة ، عند لقائها برجل للمرة الأولى ، قلما يتغير . . . إلا إذا استطاع أن يغلف كل شيء فى دمقس من لباقة الحس والإحساس

لا يجرح ولا يخدش ! . . . إنى مع « . . . » لم أر شيئاً صدمنى على الإطلاق ؛ فإن كياسته قد غمرتنى فى جو مشبع باللذة الحالمة ، وحمتنى من مجرد التنبه إلى ملاحظة ما يصنع أو أصنع . . . لقد تم كل شىء فى نشوة من الملاطفات والقبلات ! . . . وبعد ؟ . . . وبعد فما أثر ذلك عنده بعد أن وقع هذا الأمر ؟ . . . لقد بدا عليه شىء من الاعتراف بالجميل ! . . . ولذا كانت ذراعه تسندنى إلى صدره فى حركة المالك القابض على ملكه . . . أما أنا فكنت آوى إلى جسمه وادعة ، وكان مجرد التفكير فى الانفصال عنه يملؤنى حزناً . . . لقد تمنيت لو أبقى بين ذراعيه طول الخلود ! . . .

ولبثنا هكذا حتى مطلع الفجر . . . وما كانت تلك الليلة إلا عناقاً طويلا . . . وعرفت عندئذ أنى امرأة مثل الأخريات ، أستطيع الاستمتاع ! . . . لقد كشف لى هذا الرجل عن المجهول فىّ . . . وعرفنى إلى نفسى ، ولقد سكرت من تلك النشوة الحلوة ومن همسات أغنية الغرام التى كان ينشدها لى طول الليل ، فاسترخت أعضائى ولانت ، ودب النعاس بين أهدابى بطيئاً بطيئاً . . . ورحت فى نوم بين ذراعيه لذيذ . . . كم من الوقت نمت ؟ . . . لست أدرى ! . . . ربما نمت ساعة أو أكثر أو أقل . . كل ما أعلم هو أنى استيقظت فألفيت « . . . » مستنداً إلى مرفقه . . . ورأسه مائل على رأسى ، وهو يرنو إلىّ . . . فابتسمت ! . .

فقال عندئذ بصوت يقطر رقة :

– كنت أتأملك أثناء نعاسك . . . لقد خيل إلىّ أنى ثملت بعطرك الساحر . . . إنك تحسنين اختيار عطورك فيما أرى . . . لقد كنت أمسك أحياناً بأنفاسى خشية إيقاظك . . لقد كنت تبتسمين فى نومك ؛ كأنك فى حلم ، وغدا وجهك عذرياً كأنه وجه طفلة ! . . .

وهنا طلبت إلى « . . . » مرآة لأستوثق من نفسى بنفسى ، وأصلح

من شأنى . . . وكانت نظراته تلتهمنى . . . ولكنى لم أشعر بحياء يدفعنى إلى ستر جسمى العارى . . . بل كنت سعيدة . . . فإن المرآة قد ملأتنى ثقة واطمئناناً على محاسنى ! . . .

على أن الطلاء القرمزى ، الذى كان يصبغ البارحة شفتى ، قد تحول إلى لون وردى ، والسواد المحيط بأجفانى تبدد وبدا كأنه هالة رسمتها أنامل التعب المسترخية حول أهدابى ! . . وشعرى المرتب تبعثر وتناثرت خصلاته على وجهى المحموم . . . لقد اتخذت هيئتى وضعاً غريباً ، لكأنى أنظر فى المرآة إلى « اللذة » مصورة فى إطار ! . . . ولقد أخذت « . . . » شبه رعدة ، وهو يتأملنى هكذا ، فخطفنى بين ذراعيه من جديد . اختطاف النسر للحمامة ، وضمنى ضمة شديدة مجنونة ، فأحسست فى تلك اللحظة بشعور من الزهو والتيه ، يغمرنى غمراً لا عهد لى به من قبل ! . . . وجعل كل منا يرمق الآخر بنظرات كلها اضطراب وفزع ، كأنه لا لقاء بيننا مطلقاً بعد الآن ! . . . وأخذت أشعة الشمس الأولى تتسلل من خلال أستار النافذة ، وتلقى دنانيرها الذهبية على سجادة الحجرة ! . . . ثم انعكست على مقابض أدوات الزينة الفضية ، فوق منضدة « التواليت » ، ثم أضاء نورها وجه الساعة الموضوعة هناك ، فإذا نحن فى السادسة . . . وكان لا بد إذن من الانصراف ! . . . فنهضت فى الحال ، ونهض « . . . » تاركاً لى الحجرة لألبس فيها ثيابى ، وذهب هو ليرتدى ثيابه فى الحجرة المجاورة ، ثم نزلنا على عجل إلى الطريق وصعدنا إلى سيارة « تاكسى » ، ونحن نستقبل بوجوهنا الملتهبة نسيم الصباح ، وقد كان مطلع النهار جميلا ، وصفت السمات صفاء أحسته نفوسنا ، كما أحسته عصافير الأشجار التى حولنا فزقزقت ، وعبرت بلغتها عما لا نستطيع نحن التعبير عنه ، وأوصلنى « . . . » إلى منزلى ، وافترقنا على أن نعود إلى اللقاء فى المساء . ودخلت بيتى . . . ويا لها من وحشة ! . . . لقد خالجنى فجأة

شعور بأنى أدخل سجناً ؛ لأعيش وحدى وقد بترت عنى سعادتى بتراً . . . إن من المستحيل علىّ بعد سحر تلك الليلة أن أتصور استئناف حياتى المخيفة ، التى جاء الكذب أيضاً — الكذب الجسيم — ليزيدها كرباً !

آه ! . . . يا لها من ليلة ! . . . لن أنسى هذه الليلة ما حييت ! . . . لقد أضحكنى منظر صديقتى « مرفت » وهى فاغرة فمها دهشة ، عندما رويت لها خبر هذه المغامرة . . . لقد قالت لى :

— « وكيف تسلمين نفسك من أول ليلة ؟ . . . »

ولكن لم تلبث أن سلمت معى مقتنعة ، وأنا أجيبها باسمة :

— لأنى لست امرأة من الطراز القديم . . . تلك التى كانت تحاول دائماً أن توهم الرجل أنها قاومت طويلا حتى غلبت على إرادتها . . . لماذا هذا ؟ . . . أوَ كتب على المرأة أن تلعب دائماً دور مسلوبة الإرادة ؟! ... لا ياعزيزتى « مرفت » ! . . . هذا ليس خليقاً بامرأة تعيش فى عصرنا ! إن المرأة يجب أن تُفهم الرجل أنها مساوية له ، وأن الأمر بإرادتها هى أيضاً ، وأنها تعطى عندما تريد هى أن تعطى . . . فى الليلة الأولى أو الليلة الأخيرة سيان عندها ذلك ، ما دامت هى تريد وتحس أنها تريد ! . . .

وتعاقبت بعد ذلك أيام لذيذة ، على غرار تلك الليلة المشهودة . . نعم قد أتهم بالجنون . . . ولكن آه . . . ما أحلى الجنون إذا كنا نجد فيه ذراعين مفتوحتين دائماً لضمنا إلى صدر كالعش الأمين . . . يخفق فيه قلب بحبنا وإعزازنا ! . . .

لقد كانت لنا فى كل يوم أحلام وآمال . . . فى هذا المساء قال لى وأنا فى حضنه :

— ماذا تقولين لو سافرنا معاً ، وهربنا بعيداً بحبنا ؟ . . .

فقلت له :

— « وبيتى وأهلى ؟ . . . . »

فقال :

— « اتركى كل شيء وتعالى نظل سعادتنا تحت أشجار البرتقال فى فلسطين !. . . . »

وا أسفاه ! . . . مشروعات كهذه لم تكن سوى أوهام . . . لو أن الأمر يتعلق بقلبي وحده لما ترددت فى اللحاق به إلى آخر الدنيا. . . ولكني بعد أيام فكرت فى الأمر مليًّا ، وحكمت عقلى طويلا فيما أنا مقدمة عليه . . . إن زوجى على الرغم من فتوره الحالى نحوى ، وقربه الذى لم يعد يثير فىّ أى عاطفة قوية ، ما أساءنى قط يوماً ، بل ليعزنى ويودنى . . . وفجأة بدا لى شبح عملى المخيف البشع ، وما سوف يحدثه له من آلام لو أنى أطعت هواى ، وهربت من بيتى ، أو قطعت صلاتى الزوجية بمثل هذه الفضيحة ! . . . وتيقظت فى نفسى تلك اللحظة بقية ضمير وإخلاص ، فلم أقبل بحال أن أجعل زوجى وطفلتى ضحايا ضعف وأخطاء وعواطف هى عندى أقوى من إرادتى ! . . . إن هذا الخوف من الإساءة إليهما كتفنى وشل عزيمتى ! . . .

ثم هنالك شيء آخر : لقد فكرت فى مصير تلك المرأة التى تذهب إلى الرجل لتصنع حياتها بين يديه ، دون أن يكون فى جيبها قرش ؟ . . . حقًّا ، كيف أستطيع وأنا المجردة عن كل ثروة خاصة إذا انفصلت عن أسرتى ، وترفعت عن مد يد السؤال إلى أموال والدتى ؛ أن ألقى بعبئى على كاهل « . . . » ، وأفرض عليه أمر معاشى وكسوتى وزينتى وترفى ! . . . إن كرامتى لتأبى ذلك ، وإذا أرغمنى حبى وضعفى على التفريط فى هذه الكرامة ، فهل يطيق هو أن يتحمل هذا العبء طويلا ؟ . . . لا . . . لا ينبغى أن يضلنى الحب إلى هذا الحد ، وليس من الضرورى أن ينتهى الحب دائماً بالهرب مع الحبيب ، وهو لا شك لم يخطر بباله قط هدم عش الزوجية ، والانطلاق معه بعد قطع

ذلك الرباط الرسمى المقدس ؛ لأنه يدرك عواقب ذلك ! . . .

إن مثل هذه الفكرة وحدها كفيلة بإطفاء جذوة غرامه . . . إنما الذى أراده ولا ريب بتلك العبارة ، التى لفظها ونحن فى نشوة الغرام : أن أدبر وسيلة ، أو أخترع حجة للسفر معه بضعة أسابيع إلى فلسطين أو غيرها ، دون أن يفطن زوجى أو تتنبه أسرتى للباعث على هذه الغيبة ، ولكن هذا مستحيل ، ومهما أوتيت من سعة الحيلة فلن أجد الوسيلة ، حسبنا إذن هذا القدْر من اللقاء ، ولا يجب أن نطمع فى أكثر منه ، وإلا تعرضنا لكارثة لا يحب كلانا أن تقع ! . .



معبود من الطين

الصدمة التى أصابت «راهب الفكر» بعد أن قرأ صفحات تلك الزوجة، بلغت حداً يصعب تصويره، وإن كان لا يصعب تصوره، فلم تكن قداسة حبه وحدها هى التى انهارت وتلطخت.. ولكن كل شىء.. كل شىء عزيز عليه سقط فجأة من عليائه فى التراب وتلوث...

ياله من عجب!... كيف استطاعت هذه المرأة أن تكون كذلك!... وكيف استطاع هو أن يصنع لها ذلك التمثال الشاهق بنبله وطهارته!... لقد جل الخطب عن الحزن بل عن الجد... وانقلب كل شىء فى عينيه هزءاً وسخرية!... لقد تبين له أمره...

ياله من أحمق!... لقد كان شأنه شأن طائفة الوثنيين الذين صنعوا من الطين والوحل آلهة يعبدونها... وذكر رسائله إليها!...وما كان ينعتها به ويتخيلها عليه!... لم يبق ريب فى أن كل سطر من سطوره ليس إلا ضحكة ممتدة تشهد بحمقه وغفلته...

وا أسفاه!... ذهبت إذن هباء كل تلك العاطفة المسكوبة على الورق من أجلها!... وانقلبت تلك العبادة الرفيعة — التى عفر بها جبينه فى محرابها — شيئاً مخجلا مهزءاً كألعاب المهرجين ما دام مثل هذه المرأة هى التى كانت فى المحراب!!...

لبث الكاتب تلك الليلة المشئومة ساهراً حتى طلع عليه الصبح، وهو فى جلسته لم يغيرها، ولم يشعر بنفسه، ولا بشىء حوله....

ولم يعرف أين يستقر بقلبه الدامى ورأسه المكدود ؛ فهو تارة يتوجع على الرغم منه ، توجع من خلع له ضرس ، وإن كان فاسداً ، وتارة يضحك ذلك الضحك الذى وصفوه بأنه أحياناً كالبكاء ، وهذا ليس من خيال الشعراء ؛ فلقد حدث ذلك « لراهب الفكر » تلك الليلة ! . . . لقد خادع نفسه كثيراً ، وقال لها :

– « مالى ولهذه المرأة . . . وماذا يهمنى من سلوكها ومن عشقها وسقوطها . . . أأنا زوجها ؟ . . . »

هذا منطق العقل ، ولكن صوت النفس كان يرتفع فى صمته الجلى راعداً بين أركان قلبه : إنها كانت لك أكثر من زوجة ! . . . لقد عشت معها ولها بكل فكرك وعواطفك ، وخيالك ، ومطالعاتك ، ومؤلفاتك ، ومشاهداتك ! . . . إنها كانت شيئاً يسندك ، ويعينك ، ويشجعك ، ويقويك ! . . . إنها كانت لك نوعاً من الدين ! . . . »

حقاً إنها كانت له كل ذلك ، ولو لم تكن كذلك لما أحس الليلة هذا الفراغ المخيف ، نعم إنه قد فقد شيئاً كبيراً ، يشعر لفقده بفجيعة . . .

ولم يستطع حكم أعصابه ، فتساقطت العبرات من عينيه ، وخجل من نفسه ، وهو يلمح فى مرآة الحجرة قطرات الدمع على خديه . . وهو الذى ما بكى قط منذ شبابه الأول ! . . .

تذكر حقيقة تلك المرأة وما قرأ الساعة من خبر فجورها ، فضحك من أمره ، أو أراد أن يتضاحك . . . ولكن هيهات أن يقنع نفسه . . . فقد اختلطت عبراته وضحكاته ، وامتزجت فى شهقة واحدة . . . فلم يعد من السهل فرز الضحك من البكاء ! . . .

كل هذا حدث له ، وكل الأفكار مرت به ما عدا أمراً واحداً نسيه كل النسيان ، ولم يتجه إليه تفكيره ولا خاطره ؛ ذلك هو الزوج ذاته الذى أعطاه الكراسة ؛ فقد ألهته مصيبته هو عن مصيبة الزوج ، فلم يرها ولم يشعر بها ، حتى حان موعد خروجه فى الصباح ، فتذكر

أنه وعد الزوج برد هذه الصفحات إليه ! . . .

وهنا طفق يفكر فى أمر هذا الرجل ، ويسأل نفسه لماذا وضع هذه الكراسة بين يديه ؟ . . . ولماذا يريد أن يناقشه فيها ؟ . . . وما وجه الكلام فى مسألة كهذه ؟ . . . وماذا عليه هو أن يجيب ؟ . . . وما هذا الهدوء الذى يبدو على ذلك الزوج التعس ؟ ! . . . مهما يكن من أمر فلا مفر من لقائه ، بل إن فى مقابلته لراحة له ، وفى الحديث إليه عزاء ! .. فكلاهما قد نكب ، وكلاهما قد أصيب ، وقد أحس « راهب الفكر » عطفاً شديداً على ذلك الزوج ، ورحمة به ، وحدباً عليه ، وشعر كأن عاطفة واحدة تربط أحدهما إلى الآخر ؛ لكأنهما متضامنان فى النازلة ! ... ولكأن غريماً واحداً هو الذى نال منهما ونال هناءهما ! . . .

وأسرع فارتدى ثيابه ، ولم يجد رغبة فى تناول فطوره ، فاكتفى بجرعة من الشاى ، وخرج من حجرته حاملا تلك الكراسة التى أيقظته فجأة وبقسوة من أجمل أحلامه ! . . .

ونزل إلى بهو الفندق وهو يخفى كل أثر للانفعال ، يمكن أن يبدو على وجهه ، فوجد الزوج فى انتظاره ، وفى يده كتابه ، فحياه وجلس إلى جانبه صامتاً ، ثم قدم إليه تلك الصفحات المخجلة ، وهو لا يدرى ماذا يقول . . . ولكن الزوج قال بصوت خافت مرير وهو يتناولها من يده :

ــ قرأتها ؟ . .

ــ نعم ! . . .

لفظها « راهب الفكر » وهو مطرق ، لا يجرؤ على النظر إليه . . . وسكت الزوج قليلا ، ثم قال بأدب :

ــ إنى آسف إذ أرغمتك على قراءة مثل هذه الصفحات . . . ولكنى أعتقد أنك تدرك الآن موقفى ، وتغفر لى إثقالى عليك ، فإن زوج هذه السيدة التى قرأت عنها ما قرأت ، لا بد أن يكون فى

حاجة إلى معونة رجل فى مثل عقلك وخلقك . . .

فغمغم الكاتب قائلا :

— ثق أنى طوع أمرك ، ورهن إشارتك ، وأرجو أن أكون نافعاً لك ، فى كل ما توجهنى إليه من شئونك ! . . .

فقال الرجل ، وقد استراح قليلا فى جلسته :

— يحسن بى أن أقص عليك كل شىء من البداية ؛ كى تحيط بظروف هذا الموضوع من نواحيه كلها ، فأنت قد تجهل اسمى الكامل حتى الساعة ! . . . إنى « . . . » من أسرة معروفة كما ترى . وكذلك زوجتى ، وإن كانت أسرتى الآن متوسطة المال والجاه ، ولقد نشأت منذ الصغر فى مدرسة إنجليزية حتى بلغت رشدى ، فالتحقت بمدارس الحكومة المصرية ، ونلت شهادة « البكالوريا » ثم أرسلتنى أسرتى إلى إنجلترا ؛ لأتم دراستى فيها ، فمكثت هناك ست سنوات ، عدت بعدها إلى مصر ، وانخرطت فى سلك الوظائف ، وبالطبع فكر أهلى وقتئذ فى البحث لى عن زوجة ، ولكنى كنت ممن يعتقدون أن الزواج نعمة لا نستحقها إلا بعد أن نبلغ فى الحياة شوطاً مستقرًّا ؛ فهو تتويج لجهود الشباب ، وينبغى أن يبدأ فى وقت ينتهى الجهاد الأول فى سبيل المركز الاجتماعى ، ويطمئن فيه الإنسان إلى عمله ومستقبله ، فيهون بذلك على شريكته متاعب المرحلة الأولى ، ويشيد أسرته الجديدة على أسس من الأمان لا من القلق ، ويفتح نوافذ بيته على أفق باسم ، لا على قفر مكفهر ! . . . لذلك لم أتزوج إلا وأنا فى نحو الخامسة والثلاثين . . . وقد اختارت لى أسرتى هذه الزوجة من أسرة عريقة ، تربطنا بها أواصر المعرفة من قديم . وقد رأى أحدنا الآخر فى فترة الخطوبة ، ثم تم الزواج ، ولم أشعر قط أن قلبينا ينطويان على شىء ، غير المحبة والمودة المتبادلتين ، ولم أر منها قط شيئاً ساءنى إلا قلة اكتراثها بالكتب والمطالعة . . . وهذا شىء مقدس عندى ؛ فإن الكتاب لدى ضرورة

من ضرورات الحياة ! . . . ولعلى اكتسبت عادة القراءة من طول إقامتى فى « إنجلترا » ؛ فقد كنت أسكن ضواحى « لندن » ، وكان على أن أركب القطار فى اليوم مرتين ، فى ذهابى إلى الجامعة ، وعودتى منها ، فكنت ألاحظ فى أول عهدى أنه ما من راكب واحد لا يحمل كتاباً يطالعه أثناء الطريق ، ثم فى البيت الإنجليزى . . . ما أمتع القراءة بجوار المدفأة ! . . . وأحاديث الأسرة حولها فى مختلف شئون الحياة والفكر ! . . . لطالما تمنيت أن أبادل زوجتى الآراء فيما نطالع ونشاهد ، فنملأ حياتنا الزوجية الطويلة بخير ما تملأ به حياة ، لكن وا أسفاه ! . . . كانت هذه الزوجة مثل كثيرات غيرها ذات ثقافة سطحية مصطنعة براقة المظهر ، ولكنها فى لبها وجوهرها لا تعنى بغير التافه من شئون الدنيا ، ولقد سميتها مازحا : « الفتاة الطائشة » ولقد أردت أن أصلح من أمرها ، وأصنع منها المرأة التى أريد ، وبدأت معها بما هو أيسر لها وأسهل على طبيعتها : وهى الرياضة ، فعلمتها « التنيس » فحذقته فى وقت قليل ، من الإنصاف أن أقول لك : إنها ذات ذكاء عجيب ، ولها إرادة لا تقاوم ، ولقد أرادت فعلا أن تصغى إلى رجائى وتعنى بالقراءة ، وتم لها ما أرادت ، وكان ما تعلمه أنت من إقبالها على قراءة كتبك ، مما أخبرتك به فى حينه عند زيارتى الأولى لك . . . !

وسكت الزوج لحظة ؛ فقد أبصر « راهب الفكر » ، يطرق شارد اللب ، والواقع أنه أطرق مفكراً فى زيارات تلك الزوجة له ، تلك الزيارات التى يجهلها الزوج حتى الآن ! . . . أترى من الواجب عليه أن يخبره بأمرها اليوم ، أو يمضى فى الصمت ؟ ! . . . وتردد لحظة ووازن بين الأمرين ، فرجحت كفة السكوت ؛ فالسكوت الساعة من ذهب حقاً ، ولا ينبغى أن يفتح أى باب تنفذ منه شكوك جديدة ، قد تحوم حوله وحول هذه المرأة ، ورفع رأسه استعداداً للإصغاء ،

فمضى الزوج فى كلامه :

ـ قرأت كتبك إذن ياسيدى الأستاذ كما قرأت غيرها . . . ولا شك أنك تأسف مثلى للنتيجة . . . لم يدر فى خلدك ولا خلدى أن كل ما استطاعت هذه السيدة أن تكتسبه من ذلك هو أسلوب تكتب به مثل هذه الاعترافات ! . . . ولكن ما ذنبك أو ذنب المطالعة فى ذاتها ؟! . . . كل شىء نبيل يمكن أن يكون أداة سمو وأداة عبث ، وإن العبرة أحياناً باليد التى تتناول الأشياء لا الأشياء فى ذاتها ؛ فاليد القذرة قد تلطخ كل نظيف ، واليد المطهرة قد تنظف كل قذر . . . على أنى أستطيع أن أؤكد لك أنى ما علمت قط يوماً عن امرأتى سوءاً وإنه ليدهشنى قولها فى كراستها : إن أسرتها كانت تلقى عليها دروساً فى الأخلاق تثقل عليها ، وتقيدها بالسلاسل : كأنها كلب ليس له حق النباح ! . . . كل ما أعلمه أن أسرتها ، فيها من يتمسك بالقديم ، وفيها من نشأ على الحديث . . . وإن للفتيات الحديثات اتجاها حرًّا يعد فضيحة فى نظر الأمهات والعمات ، وكثيرات من البنات عرف عنهن الخفة فى السلوك فى المجتمعات ، والسهرات ، وعلى شواطئ البحر ! . . . والمغالاة فى الملبس والمظهر . . . والتحرير إلى حد قبول مغازلة الشبان فى الطريق أو فى « التليفون » . . . ولكن الأمر فى الغالب يقف عند هذا الحد ، وإذا تزوجت بنت من هذا الطراز ، ففى الغالب يتغير سلوكها السابق ، ويتجه إلى احترام الزوجية والحرص عليها ؛ فهل كانت زوجتى من هذا الصنف من البنات ، وكان هذا ما تلمه أسرتها عنها ، وما تراقبها من أجله ؟ . . . أو كان فى الأمر شىء أكثر من هذا ؟ . . . لست أدرى ! . . . وكيف تريد لزوج مثلى ، تعلم كيف يحترم الزوج زوجته ، يخطر فى باله أن ينبش فى مثل هذه الأشياء ؟ . . . كل ما فى مقدورى العلم به هو ما خبرته بنفسى ، من اتصالى بزوجتى طول هذه الأعوام الثلاثة . . . إنى لم ألمح عليها قط أى

نفور منى ! . . . كيف استطاعت أن تخفى ذلك عنى ؟ . . . ولماذا تخفيه ؟ . . . ولماذا لم تصارحنى ؟ . . . لقد كنا سعداء فى عامنا الأول ، وأظنها لم تنكر ذلك . . . وأحسبها ذكرت أنها بدأت تمل الزوجية بعد أول عام . . . ولكنها كانت قد ولدت طفلة جميلة ، وكنت أظن عاطفة الأمومة تصرف الزوجة عن ذلك التعلق الجامح بزوجها باللهو والمرح والنزهة . . . لقد تحدثت عن تغيرى بعد العام الأول من عقد القران . . . واتهمتنى بأنى أوصيها بالقراءة لعلمى أن السأم ينتظرها . . . أظن أن هذا هو سوء التفاهم الخالد فى كل حياة زوجية ، منذ نشأت على الأرض أسرة وزواج . . . ما من زوجة منذ القدم حتى اليوم لم تقل لزوجها هذه العبارة : « إنك قد تغيرت . . . كنت تحبنى فيما مضى أكثر من الآن ! . . » والحقيقة أن الزوج لم يتغير ، ولكن لون الحب هو الذى تغير ، دون أن يؤثر ذلك فى بنائه ؛ كما يتغير لون العمارة الجديدة من الزمن دون أن تفقد حجراً . . . ولا يزيدها لون القدم إلا إشعاراً بجلال الرسوخ ، أو كما يتغير لون التقدير الذى يظفر به الأثر الفنى ، ألا تلاحظ أن كتاباً من كتبك مثلا قد استقبله الناس عند ظهوره بالطبل والضجيج ؟ ! . . . ثم يخفت كل هذا مع مر الأيام ولا يبقى للكتاب إلا ذلك التقدير الهادئ العميق المستقر فى النفوس ؟ لا يتزعزع اعتباره . . . ولا يبلى ولا ينسى . . . وتظل تسلمه الأعوام للأعوام . . . وقد أصبح حقيقة راسخة ، لا تثار فيها المناقشة ، ولا يباح الجدل . . . ويدخل فى نطاق الأعمال التى تسمونها « الكلاسيك » بوقارها الصامت الذى حل محل بريقها الصاخب ؟ . . . فيم إذن كان الاحتفال بالعيد الفضى والعيد الذهبى للحياة الزوجية ؟ . . . أهو شىء غير مظهر تقدير لذلك الحب الزوجى وقد رسخت أعمدة هيكله فى صدر الزمان ! . . . ولكن المرأة للأسف تنسى ذلك أو تتناساه ، وإذا تذكرته فإنها لا تقتنع به ، فكل هذا لا يعدل عندها اللحظات

الطائرة العابرة لذلك الحب البراق الفوار ! . . . لا يؤثر فيها كثيراً ذلك الحب القيم النفيس الباقى ؛ لأنها جبلت على الشغف بكل ما يبرق عينيها ، ويخطف بصرها ومهجتها ، ويطير بلبها ! . . . وإنها لتدفع الذهب ، وترمى به فى سبيل اقتناء سوار من الزجاج ، أو حلية من الخزف بهرتها ألوانها ! . . . لم يكن هنالك إذن تغير منى نحوها أو فتور ! . . . على النقيض ، لقد فهمت بعد أن ولدت لنا طفلة أن حبنا قد سما وجل عن مظاهر العبث والملاعبة التى كان يحتاج إليها الحب الزوجى فى أول مراحله ليثبت وجوده ، ويبرهن على قوته . . . فهو الآن موجود بذاته قوى بنفسه . . . وتستطيع الزوجة أن تحسه فى زوجها من كلمة أو إشارة أو إيماءة ! . . . أو من مجرد نظرة جزع يلقيها عليها إذا شحب وجهها ذات صباح أو أصيبت ببرد خفيف ! . . . لا أظن كثيراً من الأزواج عاملوا زوجاتهم بمثل ما كنت أعامل زوجتى ! إنى كنت أتصرف معها كما لو كانت « ليدى » من سيدات الأرستقراطية الإنجليزية ! . . . فما كنت أسمح لنفسى بالتدخل فى شئونها ، ولا حتى بلمس خطاباتها التى كانت ترد باسمها ، ولم أسألها يوماً أين كانت ، ولا أين تذهب ؟ . . . ولا من هن صديقاتها ؟ . . . على أنى كنت دائماً « تحت تصرفها » ، وفى متناول يدها ؛ فلم أتركها يوماً بمفردها ، لا عن قصد حراستها أو تعمد مراقبتها . . . أو رغبة فى الاطمئنان على سيرها ، فتلك أفكار لم تخطر لى قط على بال ، إنما كنت أرى من واجبى ألا أتغيب عنها ! . . . وألا أخرج إلا معها ، وألا أدعها تعتقد لحظة أن لى حياة منفصلة عن حياتها ؛ فأنا رجل قد فهم الزواج على أنه شركة روحية ! . . . ولقد نفذت من جانبى كل ما يجب على فى هذه الشركة ، وقدمت كل نصيبى من رأس المال . . . حتى أصدقائى لم أرد أن أستأثر بهم ، وأنفرد بمجلسهم ، وأمنحهم من الوقت ما قد يكون من حظ شريكتى ؛ فعملت على أن أشركها معى فى استقبالهم ،

والاجتماع بهم ، ولم يكن يدور بخلدى قط أنها ستكتب يوماً فتقول ، إنها كانت تتبرم بهم وبى . . . وأنها كانت تضيق بوجودى ، وتختنق لأنى لم أتركها يوماً واحداً . . . وأنها لم تتنفس إلا يوم أعلنت إليها خبر اضطرارى إلى التغيب فى أعمال حكومية بضعة أسابيع ! ! . . . هذا فى الحق قد جاوز كل تقديرى وخرق كل تدبيرى ! . . . وكيف يقع فى وهمى أن كل ما حسبته أنا حُسن معاملة ، ظننته تصرفاً محموداً ، ورأيته تفانياً فى واجبى وإخلاصى ؛ هو بالذات موضع الشكوى منى ، وموطن ذنبى وجريرتى ! . . . إذا كان أحد يرى أنى أخطأت فثق أن هذا حدث بغير علمى ، وبدون قصد منى ! . . . وأن حياتى معها على هذا الوضع هى إذن سلسلة أخطاء . . . وكان عليها أن تنبهنى إليها ! . . .

أما أنا فلا أعرف إلا أنى صنعت كل شىء حتى لا تقع فى الملل الذى تتحدث عنه فما كان يسرنى إلا أن تقترح هى نوعاً من النزهة أو السهرة فتجد بغيتها ، وتظفر برغبتها . . . فما من حفلة من الحفلات العامة أو الخاصة أو الخيرية ، فيها شىء من الطرافة أو المتعة والتسلية ؛ لم تشاهدها ! . . . لطالما ذهبت بها إلى أفخم الملاهى ودور السينما وسباق الخيل ! . . . ولقد ذهبت بها فى شتاء عامنا الأول إلى « الأقصر » و « أسوان » ! . . . أما فى الصيف فكان الرأى لها أن تختار : بين « أوربا » أو « الإسكندرية » أو « العزبة » فى الريف . . . وقد مضينا كل صيف فى جهة من هذه الجهات ، ولست أدرى ماذا كان يجدر بى أن أصنع ؛ لمداواة ضجرها ولم أفعل ؟ . . . إلا أن يكون للملل أو السأم معنى آخر غير الذى ينصرف إليه ذهن مثلى ، ولقد ذكرت هى هذا المعنى صراحة فى كراستها ، وعبرت عنه بما سمته « الرغبة فى المغامرة. » ! . . . أظنك توافقنى على أن هذه « الرغبة » لا يمكن أن تخطر فى بال زوج ، فالمغامرة والزوجية ضدان لا يتفقان ،

إلا إذا كنت ترانى زوجاً رجعياً مخرفاً ، وكانت الزوجية فى زمننا هذا وفى بلدنا هذا قد بلغت من التقدم والتطور « المودرن »شوطاً أعجزنى إدراكه وفاتنى اللحاق به ، على الرغم من اتصالى الدائم بأحدث أوضاع المجتمع الأوربى ! . . . إذا كانت زوجاتنا ترى « المغامرة » حاجة لابد منها ، وضرورة لا يستغنى عنها ! . . . وإلا كانت الحياة الزوجية سأماً لا يطاق . . . والعواطف الزوجية نوعاً من « الروتين » الفاتر . . . فإنى لا أملك الحكم فى ذلك بمفردى ، أترك الرأى لمثلك فيه وللمجتمع ، إنما الذى أرى من حقى الكلام فيه ، هو أنى فهمت الزوجية كما يفهمها أكثر الناس ، أو كما كنت أتوهم أنا أن أكثر الناس يفهمونها . . . وثق ، وأقسم لك بشرفى ! . . « معذرة إنى لم أعد أدرى أمن حقى أن أقسم لك بشرفى المسلوب ! . . . » ، ولكنى أرى فى عينك أنك تصدقنى ! . . ثق أنى كنت لهذه السيدة زوجاً لا غبار عليه ! . .

وأطرق الرجل لحظة . . . وكأن عينيه تخترقان الماضى . . . وتنبشان أجداث ذكريات عزاز ! . . . وتأثر « راهب الفكر » لمنظره ، ولم يجد كلمات تصلح لإظهار ما يكنه له وقتئذ . . . وخاف أن ينبس بلفظ جارح لشعوره ، فآثر الصمت والإصغاء . . .

ورفع الزوج رأسه بعد قليل مستأنفاً حديثه :

— وهكذا سارت حياتنا الزوجية على الصورة التى وصفتها . . . وأنا أجهل كل الجهل — كما قلت لك — نزعات زوجتى الداخلية وخلجاتها الخفية ! . . . ولا أعلم إلا أنى أعيش حياة زوجية سعيدة فى ظل زوجة راضية قريرة العين ، وابنة نحلم بتربيتها أحسن التربية . . . إلى أن كان ذلك اليوم منذ أسبوعين . . . فقد لزمت المنزل ذلك العصر ؛ لأكتب تقريراً مهماً فى بعض شئونى المصلحية ، ودسست وجهى فى أوراق الملفات ، وأنا أرد تحية زوجتى الموشكة على الخروج ، ذاكرة لى على عجل — فيما أظن — أنها ذاهبة لزيارة صديقة من صديقاتها ، ولم أحفل

أنا بالطبع بهذا الأمر ؛ فهو شيء معتاد ، ولم أحاول حتى مجرد رفع رأسي للنظر إلى هندامها ؛ فقد كنت مشغولا بعملي ! . . . ولكني أذكر أن عطرها المثير الجميل كان يملأ خياشيمي . . . ولكن هذا أيضاً ليس عندي بمستغرب ! . . . إن أناقة زوجتي وترفها لمن الأشياء التي كانت تسرني . . . وخرجت مسرعة ، ومكثت أنا غارقاً في أوراقي ، ومضى نحو نصف الساعة وإذا خادم لنا كنا قد جئنا بها حديثاً من الريف لمعاونة الخدم في تنظيف البيت ، دخلت تحمل هذه « الكراسة » ، وكانت كما هي الآن داخل غلاف حكومي من أغلفة عملي ، ووضعتها بجانب ملفاتي ظنًّا منها أنها لي ، وكدت أنا أشكرها ، وأدس الكراسة بغلافها في ملف ؛ ظنًّا مني أنها جزء من أوراقي قد سقط . . . ولكن . . . ولكني لمحت لون الكراسة الأحمر ، ففتحتها فلاحظت أن هذا الخط أعرفه : إنه خط امرأتي . . . وما شأن كتابات زوجتي بملفاتي الرسمية ؟ . . فسحبت بيدي الكراسة ، وأنا أقول للخادم :

— أين وجدت هذا ؟ . . .

فأجابت أنها وجدتها ملقاة على الأرض تحت أقدام « دولاب » الحلي في حجرة « الست » . . . وقد دخلتها لتنظمها بعد خروجها ؛ كما أمرتها الخادم الكبرى المسئولة المشغولة . . . كما قامت بعمل آخر في الحديقة مع المرضع فأشرت إليها بالانصراف إلى عملها . . . ووضعت الكراسة فوق المكتب في غير اكتراث ؛ إذا لم يكن من الممكن أن أتصورها تحوي ما تحويه ، وكان ذهني خالياً كل الخلو من أي ريبة ، وعدت إلى عملي ، ولم يعلق في رأسي ذلك كله ؛ إلا أن هذا شيء يخص زوجتي ، قد جاءت به الخادم خطأ ! . . ويجب ألا ننسى رده إليها عند عودتها ، أو الأفضل أن أطلب الخادم من الفور ، وآمرها أن تضع هذه الكراسة في حجرة « الست » ... وتركت عملي ورفعت رأسي عن ورقي ... ومددت يدي أتناول الكراسة . . . وأنا أهم بنداء الخادم ، وإذا سؤال

يخطر لى فجأة : فيم تستطيع زوجتى أن تكتب كل هذه الصفحات ؟ . . وقلبت أصابعى على الرغم منى بعض صفحات الكراسة ، وإذا بصرى يقع على ألفاظ وعبارات وقف لها شعر رأسى ! . . . وعدت أقرأ من البداية كل ما فى يدى . . . والعرق يسيل فى كل بدنى . . . والرعدة تسرى فى أناملى ، فلا تحسن تقليب تلك الصفحات . . . وكلما مضيت فى القراءة شعرت بالظلام يدب فى عينى ؛ والدوار يصعد إلى دماغى ! . . . فتماسكت وتحاملت ، وجعلت أسرع فى القراءة وأنا ألهث إسراعاً حتى لا أخر على الأرض ، قبل إتمام هذه الصفحات . . إلى أن قرأت كل شىء . . .

مستحيل . . . من المستحيل قطعاً أن أصف لك ما حدث لى وقتئذ . . . هنالك أشياء تحس ولكنها لا توصف . . . وإنها لتشتد حتى تفقدنا صدمتها إدراكنا الوقتى بما حولنا . . . وإنما لتهول حتى تخرج من نطاق المشاعر المعنوية إلى محيط الآثار المادية فى جسم الإنسان ؛ فلقد نسيت فى لحظة كل شىء ، ولم أع شيئاً ، إلا أنى أحس ألماً كالمغص فى المعدة وميلا إلى القىء . . . وشعوراً شديداً بالإغماء . . . قاومته بكل ما بقى لى من قوة حتى لا أشعر أحداً بما أنا فيه . . . وتمددت على مقعدى ، وألقيت برأسى إلى الوراء . . . ولبثت هكذا لا أفكر إلا فى استرداد قواى . . . إلى أن انقطع تصبب العرق . . . وبدأ النور يعود رويداً رويداً إلى بصرى . . . والدوار يزول والتنفس ينتظم . . . فاعتدلت فى مقعدى منهوكاً ، وأنا أمسح وجهى بكم ردائى المنزلى . . . وذهب عنى قليلا هذا الأثر المادى للصدمة . . . ونشط إدراكى من جديد . . . فكان أول ما اتجه إليه ، ليس الحزن ولا الأسى ، ولا الألم ولا الغضب ؛ فتلك مشاعر لا نحسها فى الأحداث الجسام إلا فيما بعد . . . إننا إذ نفاجأ بموت عزيز علينا لا نفكر فى البكاء ، ولكن نفكر فى كيف يدفن . . . أما الدموع فيأتى

دورها بعد ذلك ؛ إنها للذكرى لا لمعالجة المواقف ، لذلك ما فكرت وقتئذ إلا فى أمر واحد : كيف يكون موقفى منها ؟ ! . . . من العبث أن يلقى مثل هذا السؤال على العقل وحده فى مثل هذه الظروف ؛ فكل شخص يتصرف فى ذلك الحين طبقاً لطبيعته ونشأته وثقافته ، ومن الدقة أن أقول لك : إنى لم أحاول قط أن أتدبر الأمر أو أحكم عقلى فيه . . . فلم يكن هذا وقته . . . بل لم يكن هنالك وقت لذلك على الإطلاق . . . فإن نفسى كلها قد استحوذ عليها شعور واحد ، هو مزيج من الرعب والاشمئزاز والنفور ، لمجرد الخاطر بأن عينى قد تقع على هذه الزوجة وهى عائدة ! . . . كان ما يشغلنى ويقلقنى هو أمر لقائها بعد ذلك ! . . . كلا ! . . . إن هذا لا يمكن تصور وقوعه . . . لو قيل لى وقتئذ : إن الموت قد تجسد فانظر إليه ؛ لكان أهون على نفسى من النظر إلى وجهها بعد الآن . . . ليس فى مقدورى أن أصف لك هلعى من مجرد فكرة النظر فى وجهها . . . . ذلك الوجه الجميل الذى ما كنت أمل أبداً من النظر إليه . . . وتركز تفكيرى كله عند ذاك فى تلك النقطة . . . كيف أراها ؟ . . . كيف أستطيع أن أراها ؟ . . . إنها لا شك عائدة هذا المساء ، وستدخل على تحييني لأنها طبعاً لا تعلم بعد بأنى قد علمت . فماذا أنا قائل ، وماذا أنا صانع ؟ . . كلا . . . إنه المستحيل بعينه . . . إنى أتخيل إمكان كل شىء فى هذا الوجود ، إلا إمكان وقوع عينى عليها ذلك اليوم . . . ونهضت واثباً على قدمى . . وأنا لا أرى لنفسى غير الهرب . . . نعم ! . . . فلأهرب أولا من مرآها ؛ إذ محال أن يظللنا سقف واحد بعد الساعة ! . . . الهرب أولا منها . . . الهرب . . . وليكن التفكير فى الباقى بعد ذلك ، وذهبت مسرعاً إلى حجرتى فارتديت ثيابى ، وأعددت حقيبتى ، وقد وضعت فيها كراستها مع ملابسى ، وكل ما أحتاج إليه فى غيبة طويلة . . . وطفقت عينى تقع على الرغم

منى على أثاث تلك الحجرة التى قضينا فيها معاً أياماً سعيدة . . . فإذا كل شيء فيها الآن يصيح بالخيانة . . . هذا السرير الذى وصفته هى فى صفحاتها . . . وهذا البساط الذى كانت تمشى فوقه رائحة غادية ، يوم رأت صاحبها أول مرة . . . وأنا لا أدرى سر قلقها ولا سهادها . . . كل سؤال له عندى الآن جواب . . . حتى سبب انتقالها إلى حجرة أخرى خاصة بها . . . لقد ذكرت هى لى أنها كانت تخشى أن تزعجنى بالليل ، كلما نهضت لتشرف على طفلتنا فى حجرتها مع المرضع، وأن من الخير الآن أن يكون لكل منا حجرة مستقلة، فصدقتها وشكرت لها حرصها على راحتى وراحة الصغيرة ، ولكن متى اقترحت ذلك بالضبط ؟ . . . أليس ذلك بعد عودتى من رحلتى وغيبتى المشئومة ؟ . . . تلك التى تم خلالها ذلك الإثم ! . . . ولماذا أرادت ذلك ؟ . . أليس رغبة منها فى التحرر والخلو إلى نفسها وإلى تدوين اعترافاتها ! . . . ومن يدرى ربما استطاعت أن تخرج ليلا ، وتعود دون أن يفطن أحد ! . . . ومن يدرى إلى أين خرجت عصر اليوم بهذه السرعة ، واللهفة التى أنستها — ولا شك — إخفاء كراستها حيث كانت تخفيها . . . لعلها كانت تضعها فى خزانة حليها ذات المفتاح الذى لا يفارقها . . . ولكن القضاء شاء أن تسقط الكراسة اليوم دون أن تتنبه ، وهى تخرج حلية تزين بها جمالها الفاجر ! . . . كل تلك الخواطر مرت كالبرق فى ذهنى ، وأنا فى حجرتى أمام حقيبتى . . . فأدركت للفور أن ذهابى أمر لا بد منه ، وإذا كانت الجمادات تصيح بى هكذا ، وتذكرنى وتحدثنى ، وتجيبنى عن كل سؤال ! . . . فما بال الأشخاص ؟ . . . وما بالها هى . . . بما فى عينيها من نظرات لن يستطيع الكذب بعد الآن أن يسدل عليها قناعه ؟ ! . . . وخرجت من حجرتى وناديت أحد الخدم ، فحمل الحقيبة ، ووضعها فى سيارة « تاكسى » أمرت بإحضارها . . . وذهبت دون أن أخبر أحداً أين

أذهب . . . فأنا نفسي لم أدر ما أقول للسائق ، وهو يسألني عن مقصدي ! . . . إلى أن خطر لي في الطريق أن أنزل هذا الفندق « بحلوان » ، فلطالما نزلته وأنا أعزب قبل الزواج كلما طلبت الاعتكاف والاستجمام ، جئت هنا وأنا كالشيء المحطم ، ولم أنم ليلتي ولا ما تلاها من ليال ! . . . وأعدت قراءة اعترافاتها مرة ومرتين ! . . . إنها حقاً لفظيعة ، إن الخيانة الزوجية لأمر فظيع ! . . . وإنها تذكر تفاصيلها ، وتسرد وقائعها ، لا بلهجة النادم التائب عن زلة . . . ولكن بلهجة الواثق المتحدي بأن هذا حقها المشروع ! . . . يا لله ! . . . أتلك شريكتي وأم طفلتي التي كانت تعيش إلى جانبي معززة مدللة كل تلك الأعوام ؟! ... ومضى أغلب الأسبوع الأول وأنا في عذاب أعفيك من سماع وصفه وتفصيله . . . فقد لا يهمك ذلك ، وحتى لو سألتني ذلك فإني لن أستطيع له تصويراً ، ويكفي أن أؤكد لك أني صرت إلى حالة تشبه الجنون ، أو تقرب فعلا من الجنون . . فإن عدم النوم مع التفكير المضني المستمر ، والأعصاب الثائرة المنهكة ، وتركيز الذهن في نقطة واحدة ليل نهار ؛ كل ذلك كاد يوقعني حقاً في مرض عصبي خطير ! . . . لقد كان من المتعذر على بصري أن يرى شيئاً غير صور دائمة شبه مجسدة ، لما وصفته في صفحاتها من مناظر الزنا ! . . . لقد أصبح رأسي صندوقاً لا يحوي غير هذه الصور معروضة لذهني ، لا تتغير ولا تتبدل أياماً برمتها . . لقد كنت أحياناً أضرب رأسي بيدي ضرباً شديداً ، أريد تحطيم ذلك الصندوق الشنيع ! . . . لقد كدت ذات ليلة ألقي بنفسي من النافذة ، تخلصاً من تلك الصور . . .

ولقد فهمت منذ تلك اللحظة ما الذي يدفعنا في أكثر الأحيان إلى الانتحار ! . . . إنه ليس الألم ؛ بل فكرة . . . ليس أخطر على الإنسان من اضطهاد الفكرة . . . ليس الخطر علينا من الحقائق

والواقع ؛ بل من الصور والأشباح ! . . . فإن الذى يدفعنا غالباً إلى الموت هى أشباح ، على أنى فى تلك اللحظة تذكرت ابنتى ! . . . هى التى أنقذتنى ، فتركت كل شىء ، وجعلت أفكر فيها ، لقد كنت نسيتها . . . وبتفكيرى فيها تغيرت تلك الصور المخيفة ، وانزاحت قليلا من رأسى . فشعرت ببعض الراحة ! . . . لقد أنقذتنى ابنتى من بعض آلامى ، ولعلها أنقذتنى كى أنقذها ، وإنه واجب علىّ محتم أن أنتشلها من أحضان مثل هذه الأم ، وهنا حدث تحول فى اتجاهى كله ؛ لم تعد الزوجة تعنينى ! . . . بل إنه على الرغم من الصدمة التى حلت بى لم يخطر ببالى قط لحظة واحدة أى خاطر إجرامى ، أو أى رغبة فى عقاب أنزله بها أو بشريكها فى الإثم ! . . .حتى اسمه لم أحاول معرفته أو التحرى عنه ، وربما كان هذا راجعاً إلى طبيعتى أو نشأتى وتربيتى ؛ كما قلت لك . . . إنما الذى خطر لى هو البعد بنفسى فى الحال عن هذه الأدران ! . . . وأذهلتنى المفاجأة عن كل شىء أو شخص غيرى . . . فهربت بمفردى ولو تنبهت لحملت معى ابنتى ، ولكنى أحمد الله أنى لم أتسرع ، ولم أرتكب حماقة ؛ فإنى فى مطلع الأسبوع الثانى ، وقد عرفت بعض الهدوء ، وبدأت جفونى تعرف بعض النوم ! . . .

عكفت على تدبير أمرى ، فنظمت شأنى وضمدت جراح نفسى ، وغسلتها بمطهر رائع الأثر ، أتدرى ما هو ؟ . . هو الجيد من الكتب ! . . . إنك لم ترنى هنا إلا وبيدى كتاب . . . إنى وأنا أغرق نفسى فى المطالعة القيمة ، إنما أغرقها فى محلول بلسم ، ولما سكنت العاصفة فى رأسى قليلا ، بدأت التفكير الهادئ فى الموقف كله ، فرأيت أن التصرف السليم هو فى كتمان كل ما حدث عن الناس ، ومفاوضة زوجتى سرًّا فى الطلاق على هذا الأساس : وهو أن تنزل لى عن حقها فى حضانة البنت ؛ وأن أتسلم طفلتى من الفور ، وأربيها على مبادئى ، وكما يحلو لى ! . . .

وأظن المنطق يقضي بأن مبادئي أسلم لهذه البنت على الأقل ، وأشرف لها من مبادئ أمها ! . . . وإذا أرادت الأم أن تحرص على مستقبل ابنتها ، فلتحذر كل الحذر من أن يطلع المجتمع على هذه الفضيحة ! . . . ولها أن تخلق سبباً شريفاً تبرر به الطلاق ؛ ولن تجد هي صعوبة في اختراع سبب له ؛ « فالطلاق » اليوم أصبح « موضة » وبدعة ؛ شأنه شأن « المغامرات » ! . . . إنما عليها أن تجد سبباً لا يشين ابنتها في المستقبل ؛ فالويل للطفلة إذا علم الناس الحقيقة فهم سوف يقولون مع المثل السائر : « البنت لأمها » ، وبذلك يقضى على سمعة هذه الصغيرة منذ الآن ! . . . ولكن بقيت أمامي مشكلة : من الذي يفاوض هذه الزوجة ؟ . . . أما أنا فمستحيل أن تراها عيني أو يخاطبها لساني . . . إن مجرد تخيل ذلك يصيبني بقشعريرة أخاف أن ينتكس معها أمرى ، وهنا خطر لى أن يقوم بذلك عنى رجل يعتمد عليه ، ويوثق في شرف كلمته وحفظه للسر ، ولم أتردد في اختيار هذا الرجل ؛ فقد كان هو ابن خالى ، ذلك الضابط الذي رأيته معى ؛ فلقد نشأنا معاً منذ الصغر ، ودرجنا على المودة والإخلاص من قديم ، وكان هو بين جميع أقاربي الصديق الوفي ، والأخ العطوف ، وعلى الرغم من اختلافنا في المشارب والميول ، وافتراقنا في الطبائع والاتجاهات ؛ — فإننا متحدان في جوهر السلوك ، متلاقيان في كثير من الخصال ؛ فهو يختلف عنى منذ الصبا في ميله إلى الحياة العسكرية وتبرمه بالحياة الفكرية ، وفي تفضيله الحصان على الكتاب ، وبراعة الرماية على متعة القراءة ... ولكننا نتفق في فهمنا لكلمة « الواجب » وفي تقديرنا لمعنى الشرف . . . إنه رجل ، وكان دائماً رجلا ، حتى يوم كنا أطفالا نلعب لعبة « الحصاة » ، يخفيها أحدنا في إحدى يديه ويسأل الآخر عنها ؛ فإذا غلط ضربه بالمنديل المفتول كذا ضربات ! ... كنا معشر الأطفال اللاعبين نحاول التنصل أحياناً ، والمماطلة أو

المغالطة ! . . . أما هو فكان صريحاً مستقيماً ماضياً ؛ كأنه سيف . . . إذا أخطأ مد كفيه من تلقاء نفسه ، وتلقى الضرب وهو يتلوى من الألم حتى يوفى بالشرط . . . كان هذا الأخ هو الذى فكرت فيه . . . ولم أفكر فى أحد غيره ، حتى ولا آمها ؛ خشية تسرب الخبر فى الأسرة ، وانتشار التهامس ، ثم الثرثرة ، والقيل ، والقال ، ولكن ابن خالى هذا لو قلت له : اكتم عنى فلن يتكلم ، وإن ذبح ، فاستقدمته بالتليفون إلى هذا الفندق ، فجاء على عجل ، وكان الوقت عصراً أو بعد العصر بقليل ، فلم أر أن أصف له الأمر بنفسى أو أخبره ؛ لئلا أزيد فيه أو تخوننى أعصابى ، فأصورها تصويراً ظالماً . . . وآثرت أن أضع بين يديه الكراسة يطالعها أولا ، قبل أن أنطق بحرف ، وهو عين النهج الذى اتبعته معك بعد ذلك ، فحمل الكراسة ومضى بها إلى بيته فى القاهرة ، على أن يجيئنى بها فى اليوم التالى وقد قرأها ؛ إذ كان من المتعذر عليه المبيت خارج بيته تلك الليلة ، فقد سافرت زوجته إلى مدينة « أسيوط » ، لتكون بجانب شقيقتها الحامل التى تضع . . . وتركت له إدارة المنزل ، ورقابة ولديه ، كلاهما يذهب إلى المدرسة ؛ فالولد الأكبر فى الثامنة من عمره ، والأصغر فى السادسة ؛ فهو كما ترى قد تزوج قبلى بسنوات !

وجاء الغد ، وعاد إلىّ ابن خالى بالكراسة . . . ولكن بأى وجه ؟ . . . لقد كان شاحباً شحوباً هالنى وأفزعنى ، ورأيت فى عينيه كأن مصيبتى ألجدح مما ظننت وأعظم ، وأخذتنى عليه شفقة ، وكاد يذهلنى ما به عما بى ، فقلت له وأنا أجلسه بجوارى :

— « هون عن نفسك ، ولا تدع كارثتى تفعل بك كل هذا ! . . . ولنعالج الأمر بعقل هادئ . . . فأصغ إلىّ أحدثك بما استقر عليه عزمى ، وأرجو أن تقرنى فيما اعتزمت . . . »

فلبث مطرقاً ، ولم أسمع منه إلا غمغمة تصعد من أعماق قلب

مجروح قائلة :

ـ « سحقاً للنساء ! . . . »

وأردت أن أعيد الصفاء إلى ذهنه ؛ لنتعاون على حل المشكلة حلا حصيفاً ، ولكنه انتفض قائماً ، وكأنه لا يصغى إلىّ ، وفاجأنى بقوله ، وهو ينظر إلى مكان « التليفون » :

ـ « اسمح لى طلب « الترانك » ! . . . لا . . . لا بد من الاستعلام فى أسيوط » ! . .

فاستوقفته وأنا أردد فى شىء من العجب :

ـ « أسيوط » ! . . .

فقال فى لهجة عصبية تدل على خروجه عن طوره :

ـ « من أدرانا يا أخى ؟ . . . لقد جاءنا تلغراف حقيقة بأن شقيقتها موشكة على الوضع فسافرت . . وقد حادثتها تليفونياً البارحة فوجدتها حقيقة هناك ، ولكن كل هذا لا يقوم دليلا . . . إنها تذهب كثيراً إلى أسيوط أخيراً . . . لماذا ؟ . . . ولمن ؟ . . . لقد ذهبت هذا العام أكثر من . . . أكثر من . . . »

وظل يهذى بكلام كثير عن زوجته ؛ فأدركت من الفور أنى قد ارتكبت غلطة كبرى ، دون أن أشعر ، إن الكراسة فيها لو تذكرت نبذة عن زوجته ، وآراء البعض فيها وفى تصرفاتها ، وانفراد زوجتى بالدفاع عنها ، وعن أفعالها . . . وهاك نص بعض دفاع زوجتى فى صفحاتها :

« . . . هذه الصديقة المسكينة كل جريمتها أنها أرادت أن تعيش ، وأن تتنفس قليلا ! . . . وأن تحيا كمخلوق حر متمدن ! . . . ولكنها فى نظر عمتى وأمثالها من أفراد أسرتى ، امرأة ساقطة : أفعالها وأحوالها تشبه أفعال وأحوال العاهرات ! . . .

ما من أحد يلتمس العذر لمن يغتابونهم فيذكر ضعفهم الإنسانى ،

لعلى أنا وحدى التى كانت فى قرارة نفسها تلتمس الأعذار لجميع الغوايات والغلطات على هذه الأرض ! . . . » إلخ إلخ .

ما الذى أطاش عقلى فأسلم زوجاً آمناً صفحات بها هذه العبارات عن زوجته ؟ ! . . . الحق أنى ما تنبهت لذلك ! . . . إن عينى عميتا عن كل ما تعلق بغيرى ، ولم تريا إلا ما خصنى وألم بى ! . . . إن الأثرة فينا أقوى منا ، وإن الأنانية ركبت فى كل حاسة من حواسنا ؛ كما يركب « المحرك » فى كل آلة من الآلات . . .

فلقد دفعت إليه الكراسة وأنا لم أفطن إلى أن فيها ما يمسه ، ولعله قرأها فتسمر بصره على ما يخصه ، وأرغمته على الجلوس ليفضى إلىّ بذات نفسه ، فجلس وطفق يبدى لى ألمه لما قرأه عن زوجتى ! . . . ويحاول تعزيتى تارة والثورة لى تارة أخرى ! . . . لكنه فى أكثر الأحيان كان يسهو عن موقف الصديق المحمل بمهمة ، ويخرج عن صفة القريب والخدين ، المطالب بالرأى والنصح ، ولا يبقى منه إلا زوج تنهش الريب والشكوك قلبه ، ولم يلبث أن نسى قصتى قليلا ، وأفاض فى شرح قصته ؛ فذكر لى أنه هو أيضاً لم ينم ليلته تلك بعد مطالعة الكراسة ، وأنه قام فى البيت هائجاً مائجاً ينبش فى هدوء الليل وأطفاله نيام والخدم راقدون ، صناديق زوجته وأمتعتها وخزائنها وأثوابها ، يفتح ما طاوع يده ، ويكسر ما استعصى عليه فتحه . . . باحثاً . . . منقباً عن ماذا ؟ . . . عن اعترافات زوجته هى الأخرى ! . . . لم يعثر بالطبع على شىء ، فليس كل النساء يحتفظن بكراسات ، ولا كل الزوجات يسجلن الاعترافات ، فتلك ولا شك مزية من مزايا زوجتى ، المغامرة المولعة بالحرية ، المتمدنة المشغوفة بالحياة ، وزوجته على كل حال تكبر فى السن قليلا زوجتى . . . ولها من ظروفها وميولها وطبيعتها ، ما قد يجعلها تختلف عن صديقتها بعض الاختلاف فى الأسلوب والطريقة على الأقل ، بفرض اتحادهما فى لب المبادئ ، ولكن ابن خالى

وقع فريسة تلك الصور الشائنة التى طالعها ، فخلط بين زوجته وزوجتى ، ولم يميز بينهما فى وضع من الأوضاع ! . . . وتوهم زوجته قد سارت عين الشوط الذى قطعته زوجتى فى طريق الخيانة ، وطفقت ذاكرته تمده بتفاصيل لم يأبه لها فى حينها ، والآن يرى لها من المعانى ما ترتعد له الفرائص . . هو أيضاً قد تغيب فى مهام رسمية ، وهو أيضاً طالما سمع من زوجته كلمات ، ولحظ إشارات تشبه ما قرأ فى صفحات صديقتها ، ولطالما أحب زينتها ، ووافق على تبرجها ؛ ظناً منه أن هذا يرضيها ويرضى المتبع المألوف عند نساء هذا العصر ، دون أن يخطر بباله الشك فى وفاء زوجته ، أو الارتياب فى أمانتها ! . . . إنه كان يصدق كل كلامها هو الآخر ، ليس من السهل مطلقاً على زوج أن يرتاب فى زوجته . . . ولقد صدق من قال : « إن الزوج هو آخر من يعلم شيئاً عن حقيقة مسلك الزوجة » ! . . . فإن جو الثقة الذى تنسجه الألفة الطويلة ، والاتصال الوثيق ، واحتكاك اللحم باللحم ، وامتزاج الدم بالدم ، واختلاط الاسم بالاسم . ورباط الأطفال ، وحبال الحياة بما فيها من آلام وآمال ؛ كل ذلك يلقى بالزوج فى عالم من الطمأنينة ، تهمد فيه حواس الشك ، وتنغلق فيه أهداب اليقظة وتتثاءب الفطنة وتنام .

إن الزواج هو وادى العميان ، يتعطل فيه بصر الإنسان ببعض حقائق الأشياء ؛ فهو قد لا يرى ما حدث ، وقد يرى ما لم يحدث ! . . . ومن يدرينا أن زوجته ذهبت بالفعل فى طريق الغواية إلى حد الخيانة الصريحة ؟ . . . ولماذا يبنى هذا الفرض على كلمات لزوجتى ليس فيها ما ينم عن ارتكاب إثم بالذات ؟ . . . هذا على الأقل ما أردت أن أقنع به ابن خالى ، أعالج به موقفه المؤلم ! . . . ولكن الإقناع فى هذه الأمور لا ينفع ، والمنطق لا يغنى شيئاً ! . . . ليس أخطر فى الزوجية من تنبه الريبة النائمة ؛ فإنها متى صحت دب فيها نشاط عجيب ، فلن تعرف

النوم بعد ذلك أبداً ، ولقد حفظ ابن خالى العبارات الخاصة بزوجته فى الكراسة ، واستظهرها كلمة كلمة ؛ فعبارة : « أرادت أن تعيش وأن تتنفس قليلا كمخلوق حر . . . وأفعالها وأحوالها التى تشبه أفعال وأحوال العاهرات . . . وجميع الغوايات والغلطات . . . » إلخ . . إلخ . . .

كل كلمة من هذه انقلبت فى رأسه عيناً يقرأ بها كتاب حياته الزوجية من جديد .. ويالهول ما قرأ ! .. إنه فى كل لحظة يأتى إلىّ بما يسميه برهاناً جديداً على جرائم امرأته ، وآخر ما رسخ فى اعتقاده فكرة خطيرة : هى أنه يشك فى نسب ولده الأصغر . . إنه على رزانته التى كنت أعرفها فيه يقسم لى أنه ليس ابنه ، ويدعونى إلى أن أحدق فى وجهه ، وأتفرس فى ملامحه ، فهو يزعم أنه لا يشبهه مطلقاً كما يشبهه الابن الأكبر ، ولكن لماذا لم يقل هذا الكلام من قبل ؟ ! . .وكيف لم يفطن إلى مسألة الشبه حتى الآن ! . . من العبث أن تجادل فى ذلك رجلا وضعه القدر هذا الوضع ، إنى من ساعة أن رأيت وجهه الذى رجع به ، أدركت أن الواجب يقضى علىّ بأن أمنعه من العودة إلى منزله ، وهو على تلك الحال ؛ خشية أن يرتكب حماقة مما يندم عليه الإنسان عند هدوئه ، ثم إنى خفت عليه من أثر الصدمة فى أيامنا الأولى ، وأثر الوحدة . . . ولقد جربت هذا قبله ، وأعرف مداه ! . . فعملت على استبقائه فى هذا الفندق يومين أو ثلاثة حتى نتدبر الأمر معاً ، وخاطبنا منزله ، بالتليفون فأحضروا له هنا بعض ما يلزم له من الملابس والحاجات الصغيرة ، ثم خاطب هو بعض من يثق به من قريباته العجائز ؛ ليبتن فى منزله ؛ ويحنين بأمر الولدين ، ويشرفن على البيت والخدم أثناء هذه الغيبة القصيرة التى قال للجميع : إنها من ضرورات عمله الرسمى ، ثم جعلته يطلب إجازة مرضية بضعة أيام كما سبق لى

أنا أيضاً أن فعلت ! . . ولبثنا هنا هكذا كما رأيتنا ! . . أما هو فلم ينم منذ حضوره إلا بحقنة من « المورفين » رجوت الطبيب البارحة أن يلجأ إليها ، وأما أنا فبعد أن كنت أحمل نكبتى وحدها وأطمع فى معونة ابن خالى عليها ؛ إذا بى أصبح وعلى كاهلى نكبتان . . وإذا هو فى حاجة إلى أنا ، كى يعان . .

والآن وقد انتهيت من سرد قصتنا عليك ، أراك تدرك ما أنا فيه ، وتعذرنى إذا التمست عندك الرأى أو المشورة ! . .

وسكت الزوج سكوت من قد أفرغ كل ما فى جعبته ، وبدا على وجهه ما يبدو على من ألقى مسألة ينتظر عنها الجواب ! . .

ولم يكن من السهل على « راهب الفكر » أن يخرج فجأة من جو تلك القصة ، التى سمعها ؛ ليجيب أو يفكر أو يدبر . . فهو لم يكن بالغريب عنها هو الآخر ، إنه شخص من أشخاصها ، دون أن يعلم أحد . . وإن صلته الخفية ببطلتها ، التى حركت كل هذه المأساة ، لمما يوقر نفسه بخوالج من العسير إخفاؤها ، ولكنه لم يجد بدًّا من أن يقول شيئاً ، فرفع رأسه وقال بإخلاص :

— إنى فى خدمتك . . كن على ثقة من ذلك ! . .

فغمغم الزوج :

— أشكرك ! . .

وأطرق ، وظهر عليه تردد ! . . كأنه أراد الكلام وأمسك عنه . . أو أنه كان يتوقع من محدثه دخولا فى الموضوع ، لا ترديداً لعبارة مجاملة . . وفطن « راهب الفكر » إلى ذلك ، فبادر يقول :

— نعم . . لابد للأمر من مخرج ! . .

فقال الزوج لساعته :

ـ مسألتى أنا واضحة ، الحل عندى هو ماذكرت الآن : الطلاق بلا صخب ، واحتفاظى بابنتى من الفور ، ولا يعنينى شىء آخر بعد ذلك . . . ألديك اعتراض على هذا ؟ . .

ـ لا . . هذا هو الحل الوحيد الجدير برجل محترم مثقف مثلك . . قالها « راهب الفكر » بلهجة حارة صادقة . .

ومضى الزوج يقول ، وهو شاخص ببصره إلى الفضاء :

ـ ولكن المسألة الدقيقة العسيرة : هى مسألة ابن خالى ! . . إنه لم يضع يده مثلى على خيانة صريحة ، أو اعتراف مكتوب يستطيع بمقتضاه أن يريح ضميره ، ويتصرف تصرفاً قاطعاً : ولكنها شكوك وأوهام ، تعذبه ولا تؤدى به إلى حل من الحلول . ماذا ترى فى أمره ؟ . . ماذا ينبغى له أن يفعل ؟ . . إنه لا يستطيع أن يطلق زوجته ويشرد أسرته ، لمجرد ريب خامرته . . ثم إنى أمنعه من أن يشير إلى الكراسة بحرف ، إذا خطر له أن يواجه زوجته بما جاء فيها من عبارات تمسها ؛ لأن هذه الكراسة شىء يجب أن ينسى ، وسر لا يملك أحدنا أن يذيعه ... ما رأيك ؟ . .

فتحير « راهب الفكر » ؛ فالإجابة هنا من أصعب الأمور ، ولكنه أخذ يقول ، وكأنه يخاطب نفسه :

ـ رأيى ؟ . . لا أريد أن أتحمل تبعة رأيى ، ولكنى أقول لك إن الريب والأوهام والشكوك ، دون دليل قاطع محسوس ، هى أقتل للنفس ، وأضيع للشخص من كل حقيقة . . إنك بالطبع تذكر مأساة « عطيل » . . وإذا كان « شكسبير » لم يجد حلا لغيرة « عطيل » وشكوكه ، فهل أجد أنا هذا الحل ؟ . . . ولكن الذى قد أراه علاجاً . . وأنا غير واثق ولا ضامن ــ هو المصارحة ! . .

لماذا لا يذهب ابن خالك إلى زوجته فيسارها ويصارحها فى حجرتهما المغلقة ، ويفضى إليها بشكوكه دون أن يذكر الكراسة . . .فليقل مثلا إنه بلغه كذا ، وإنه مرتاب فى كذا . . وليخرج من جوفه كل ما فيه من سم هذا الدواء . . ولينظر النتيجة : فإما أن يرى من زوجته ما يثبت شكه فى إدانتها . . وإما أن يرى من كلامها ونبراتها ما يقنعه ببراءتها . . .أظن هذا هو الأمر الذى كان يجدر « بعطيل » أن يفعله من البداية ، قبل أن يستفحل معه الداء ! . . ومن يدرى لو أنه صنعه من أول الأمر ؟ ! ... ماذا كان يحدث من نتيجة ؟ ... أعتقد أن هذا هو الحل . .

أتذكر حديث الإفك ؟ . .ذلك الاتهام الشائن الذى ألصقه بعض الناس « بعائشة » زوجة النبى محمد ؟ . . إن عذاب الشك الذى عرفه « محمد » وقتئذ بالجدير حتماً بنبى إنسانى ! . . إن هذا الحادث فى حياته لم يأت عبثاً . . إنه خير دليل على أنه جاء ليهدى الإنسانية ، وهو بشر منها ، يتعذب بكل أنواع عذابها الأرضى ! . .ما الذى صنعه« محمد » عند ذاك ؟ . . صارح زوجته بالأمر . .

أوص ابن خالك أن يفعل ذلك هو أيضاً . وأن يقدم عليه وهو رابط الجأش ، هادئ الأعصاب . فتلك مسألة يتوقف عليها مستقبل أبناء ، ولا يجوز لنا مواجهتها ، ونحن نتخبط فى ظلام من عواطفنا المضطربة ، ونفوسنا الثائرة . . .

ــ أتظن من السهل أن يحتفظ الإنسان بهدوء نفسه ، وصفاء بصيرته مع زوجته وهو فى مثل هذا الموقف ؟ . .

ــ لم أقل إن هذا سهل ميسر ! . .ولكن لابد له من أن يبذل جهداً فى سبيل ذلك . . ولابد لك من إقناعه ورياضته على امتلاك ناصية نفسه ، حتى يرى الأشياء جلية قبل البت . . .

فأطرق الزوج لحظة . . . ثم قال ، وكأنه يخاطب نفسه :

– كيف أنصح له وأنا لا أتصور أن هذا فى الإمكان . . حذار من أن تطلب إلىّ أنا – أيضاً – أن أقابل زوجتى وجهاً لوجه ؟ . . . لا تحاول ذلك معى ! . . . أرجوك ! . .

ولفظ العبارة الأخيرة بنبرة تكاد تشبه الصرخة ، زمجر فيها الغضب ، وتراءى الرعب ، ووثب العنف والإصرار . . فبادر « راهب الفكر » يقول :

– لا . . لا تخف ! . . الأمر معك مختلف ، ولم يخطر ببالى قط أن أسألك أمراً كهذا ! . . .

فاطمأن ، وقال :

– بالتأكيد أمرى مختلف كل الاختلاف ، فأنا ليس لدى ما أقول لهذه السيدة ، بعد أن قالت هى كل شىء ! . . لقد قرأت فى كراستها ما فيه الكفاية ، وقد أفصحت هى بما ينبغى لإدانتها وبأكثر مما ينبغى . . أما ابن خالى ، فلابد له من أن يقرأ فى عينى زوجته . .

– هذا بالضبط ما أردت أن أقول ! . .

قالها « راهب الفكر » كمن يتنفس الصعداء . . وصمت الزوج قليلا ، ثم قال :

– الآن قد انتهينا من أمر ابن خالى . . وسأتولى علاج شأنه ، بما ارتأيت له أنت من رأى ، وبقى أمرى أنا . . لقد ذكرت لك أنى كنت قد اعتمدت عليه فى مفاوضة زوجتى ، ولاجدال فى أنه لم يعد يصلح لهذه المهمة ، فحسبه ما هو فيه ، ولا مفر من اختيار غيره ، ولن أبحث طويلا فيما أرى ، فإنى مهما أنقب عن رجل

ثقة ، ساكن الروع ، حسن التصرف ، سديد الرأى ؛ فلن أجد خيراً منك أنت . .

فصرخ « راهب الفكر » ؛ كمن فوجئ بوخزة :

— أنا؟ ! . . .

ولم يكن لمثل هذه الصرخة مبرر ولا مقتض عند من لا يعلم سرها وسر صاحبها ، فأخذ الزوج ، ونظر فى وجه جليسه نظرة المستقصى . فتمالك « راهب الفكر » نفسه ، وتدارك أمره ، ولطف من صوته قائلا :

— إنى . . إنى . . أعجب لاعتقادك أنى أصلح لهذه المهمة . . .

فقال الزوج باقتناع :

— ولم لا ؟ . . . ليس من الضرورى أن يقوم بهذا العمل قريب من الأقرباء ! . . إنى مطمئن إليك أنت كل الاطمئنان . . إن ثقتى بك لا حد لها ، وإنى شاعر أنك تستطيع أن تتم المهمة فى جو من الكتمان ، وأن تؤدى لى هذه الخدمة على خير الوجوه . .

— ليس أحب إلىّ من خدمتك فى ظرفك هذا . . لكن . .

— لا تقل « لكن » ! . . بالله لا تقل « لكن » . . إنى ساعة لحتك هنا ، لمعت فى رأسى هذه الفكرة ؛ كأنها البرق الخاطف ، بل لكأنه وحى من السماء هبط علىّ أن ألجأ إليك . . ولقد وضعت فى يدك الكراسة عن تدبير . . وكان كل أملى أن أسألك بعد ذلك المعونة ، وقد صرت وحدى كما ترى ، فهل أنت خاذلى بعد كل هذا ؟ . . .

فأطرق « راهب الفكر » برهة . . . ولم يجد من الطبيعى أن يرفض توسل هذا الرجل . . إنه يكره هو أيضاً رؤيتها ، ويخشى لقاءها وجهاً لوجه . لكن أمره معها على كل حال هين بالقياس إلى ذلك الزوج . وإذا كان على أحدهما أن يراها ويحادثها بعد الذى حدث ، فلا ريب

أنه هو الأولى بالمواجهة ، الأقدر عليها . . . فليتحمل عن زوجها المسكين ذلك العبء . . وليكتم حرجه فى صدره ، وليقدم . . . ورفع رأسه ، وقال بصوت العزم :

ـ فليكن . .

فقال الزوج وهو يشد على يده :

ـ أشكرك . . ولن أنسى لك أبداً هذا الصنيع ! . .

ولم يلتفت « راهب الفكر » إلى جليسه . . فقد حلق بذهنه لحظة . . ثم قال له ؛ وكأنه يخاطب نفسه :

ـ أهى فى منزلها ؟ . .هل أراها هناك ؟ . . لا ... لن أذهب إليها فى بيتها . . فأنا بالطبع غريب عن البيت ، كيف أزورها فى غيبتك دون أن أثير فضول الجميع ؟ ... إذا وافقتنى فإنى أدعوها بالتليفون إلى زيارتى ! . .

فقال الزوج مرتاحاً دون تردد :

ـ افعل ما شئت ! . . .

ـ أتراها مازالت فى . . فى بيتك حتى الآن ؟ . . .

فقال الزوج وهو يفكر :

ـ لست أدرى . .إنى منذ غادرت البيت لا أعلم ما صارت إليه ، ولكن أغلب ظنى أنها هناك . . إنى أعرفها حق المعرفة . . . إنها ذات ذكاء . . وقد فهمت ولا ريب كل شىء من اختفائى المفاجئ مع الكراسة ، ولا أرى إلا أنها أوهمت الجميع أنى على سفر . . ولبثت هى تنتظر ! . .

ـ تنتظر ؟ . .

– نعم . . تنتظر خطوتى التالية ؛ لتعرف منها اتجاهى بعد هذا الحادث . . .

وصمت الرجلان صمتاً قصيراً قطعه الزوج صائحاً :

– ابنتى ! . . أتوسل إليك أن تأتى إلىّ بابنتى . . أنقذ ابنتى من يد هذه الأم . . لن أطلب إليك شيئاً آخر غير هذا . . ابنتى . . . ابنتى . . وسمعة ابنتى . . ومستقبل ابنتى . .

– أعدك بذلك ! . .

لفظها « راهب الفكر » فى شبه همسة ، كلها عزم وتصميم ! . .

اللقاء

غادر « راهب الفكر » « حلوان » فى نفس اليوم عائداً إلى بيته ، ولم يضيع وقتاً ؛ فقد أمسك فى الحال بسماعة التليفون وطلب الزوجة ، وجرى ذلك كله بسرعة ، صرفته عن التفكير فى نفسه . وكأنما هو مسير بدفعة من يد ذلك الزوج التعس ؛ فلم يكن همه إلا تنفيذ ما كلفه به ، وقد استطاع أن يقنع نفسه أن تلك المرأة أجنبية الآن بالنسبة إليه . . وأن فى مقدوره أن يلقاها بهدوء وقلة اكتراث ؛ كأنما هو يراها لأول مرة ، ولن يكون بينهما غير حديث وجيز شبه رسمى ؛ كذلك الحديث الذى يجرى بين محام وخصم فى دعوى مدنية ، فالمسألة لن تعدو عرضاً بسيطاً لمطالب الزوج وإصغاء لردها بالقبول أو الرفض ... وهى لابد قابلة ذلك العرض الكريم بغير جدال تجنباً للفضيحة . . .ولكن . . .ولكن صوتها الرقيق ما كاد يرن بدلال قائلا : « آلو » حتى ارتجفت السماعة فى يده . . .إنه صوتها . . إنه على الرغم من كل شىء صوتها الذى عرفه قديماً . مهما يكن رأيه فيها اليوم ؛ فإن مجرد صوتها لم يزل يحدث فى نفسه أثراً . . .إن فى الإنسان منطقة عجيبة سحيقة لا تصل إليها الفضيلة ولا الرذيلة . ولا تشع فيها شمس العقل والإرادة . ولا ينطق لسان المنطق ، ولا تطاع القوانين والأوضاع ، ولا تتداول فيها لغة أو تستخدم كلمة . . .إنما هى مملكة نائية عن عالم الألفاظ والمعانى . . . كل ما فيها شفاف هفاف يأتى بالأعاجيب فى طرفة عين . . .يكفى

أن ترن فى أرجائها نبرة ، أو تبرق لمحة ، أو ينشر شذا عطر ، حتى يتصاعد من أعماقها فى لحظة من الإحساسات والصور والذكريات ، ما يهز كياننا ويفتح نفوسنا على أشياء لا قبل لنا بوصفها ، ولا بتجسيدها ، ولو لجأ إلى أدق العبارات وأبرع اللغات . . وهنا أحس الخطر وخاف أن يتهدج صوته أو يضطرب نطقه فسكت ليبالك . . إلى أن رددت هى مرتين : « آلو . . آلو . . » فتنحنح ، وتكلم بسرعة معرفاً بنفسه . . فأبدت دهشة مع شيء من الفرح . . وخشى أن يطول الحديث ، أو يخرج عن قصده ، أو يحرج فيه ، فبادر يخبرها بأنه مكلف من قبل زوجها بأن يراها فى شأن هام ، وأنه ينتظرها فى أقرب وقت ، فضربت له موعداً ذلك المساء ، وختم للفور حديث « التليفون » على هذا النحو المقتضب ، حتى لا تزول عنه صبغة الجد وصفة التكليف . وجلس إلى مكتبه ينتظرها ، كما كان يجلس أيام زيارتها الأولى . . ياللعجب ! . . نعم إنه ينتظرها الآن . ولطالما انتظرها وهو جالس إلى هذا المكتب عينه ، وأنظاره اليائسة الضارعة متجهة إلى ذلك الباب . . ها هى ذى آتية عما قليل . . . وعما قليل يرى قدميها تجتازان هذه الأعتاب . . إنها عائدة الآن . وعودتها حقيقة واقعة لا وهم من الأوهام ، ولا حلم من الأحلام . . نعم هذا صحيح ! . . لكن . . لكن شتان ! . . وامتدت يده فأخرجت من بين ملفات أوراقه رزمة رسائله إليها ، وجعل يتصفحها ، ويقرأ قوله لها :

« هنالك امرأة أخرى أحبها كثيراً لأنها أيضاً على مثالك ، وإن كنت لا أرى لها جمالك : تلك هى « إيزيس » المصرية . . .

« هكذا فعلت « إيزيس » الزوجة ، وهكذا كنت تفعلين أنت أيضاً لو أنك فى مكانها ؛ لأنك أيتها الصديقة العزيزة تحملين عين القلب ! . . إنى لا أشك فى هذا لحظة . عين القلب الذى ينبع منه كل هذا الحب وكل هذا الوفاء ! . . »

« . . إن المرأة النادرة هى هبة الله الكبرى . . آه أيتها العزيزة ! . . .

لو سألونى عنك لقلت ليس فى دنياى اليوم إلا أنت ! . . »

ثم قوله فى رسالة أخرى :

« إنى فى حاجة إلى مجرد طيفك ؛ لأن طريقى موحش حقاً ....
« آه لو علم الناس أنى أحب ؟ ! . . ما من أحد فى الوجود يرى ذلك الحب المضىء فى قاع نفسى كاللؤلؤة . . حتى ولا أنت ! . . »

ووقع بصره فى إحدى الرسائل على قوله لها :

« ما من رجل فى التاريخ سعد بزوجة عظيمة إلا تخيلها على صورتك وأعطيتها ملامحك ، وأعرتها سماتك وصفاتك ! . . لاريب أنك الآن بجوار زوجك السعيد تحدبين عليه بتلك المشاعر الرقيقة التى أعرفها فيك ! . . إنى لأراك دائماً فى صورة الزوجة المثلى . . . »

وهنا لم يقو على ضبط نفسه ؛ فإن اليد التى كتبت تلك المرأة بأنها « زوجة مثلى » لتسخر الآن — ولاشك — من حسن ظنه وصائب تقديره ! . .

وانهالت كلتا يديه على الرسائل تقطيعاً وتمزيقاً ، وملأ بها سلة الأوراق المهملة عند أقدام مكتبه ! . .

. . حقاً إنها لحماقة كبرى ! . . كيف استطاع أن يخطئ فى أمرها هذا الخطأ ؟ . . وكيف استطاعت عيناه أن تبصرا جمالا روحياً ، ونبلا سماوياً ، ومثلا عليا فى مثل هذه المخلوقة ؟ ... أتراها غفلة منه وسوء بصر بالأشياء ، أم هى طبيعة الفنان أحياناً تحول القبح إلى حسن والتفاهة إلى روعة وجلال ؟ . . إنها مثل جهاز « الكاليدوسكوب » الذى يحول قطع الورق الملون وفتات الزجاج المشوه إلى صور رائعة الرسم ، وأشكال بديعة التنسيق ! . .

لعل تلك وظيفة من وظائف الفن والأدب والفكر ! . . أن تكون للإنسانية بمثابة ذلك الجهاز الذى يجمل الأشياء ! . . لقد صور هو فى تلك الرسائل امرأة مثالية ، ولو أتيح للناس الاطلاع

على رسائله لرأوا صورة للزوجة الفضلى . تبعث فى نفوسهم الرجاء وتقوى فى قلوبهم الثقة بالخير والفضيلة . وتلقى فى روعهم الإيمان بوجود الجمال الخلقى ؛ فلماذا ننزع من رءوس الناس هذا الوهم الجميل ، ونقول لهم : إن ما ترونه من كمال مثالى ، وجمال علوى ؛ ليس سوى قطع من حياة امرأة ملونة المظهر ، ملوثة المخبر ، وفتات شخصية نسائية أهش من الزجاج وأحقر ؟ ..أى فائدة نجنى إذا كشفنا للناس عن حقيقة الأمر ، وفجعناهم فى آمالهم ، وأطلعناهم على ذلك التزييف وأريناهم كيف أن تلك القطع الآدمية والفتات البشرى ، قد استوت خلقاً بديع البناء كامل البهاء ، بمجرد انعكاسها على تلك المرايا الكاذبة فى ذلك « الجهاز الكاليدوسكوبى » القائم فى قلب الأديب أو رأس الفنان ؟ ... إن إيهام الناس بوجود عالم الحق والخير والفضيلة هو واجب كل مفكر! وله أن يتخير الوسيلة التى يراها ، والأسلوب الذى يحذقه ؛ لغرس هذا الوهم فى النفوس . . .عجباً ! . . لماذا يسميه الآن وهماً ، ولا يسميه إيماناً ؟ .. أفقد إيمانه هو الآخر بوجود الفضيلة لأن امرأة خيبت أمله ؟ ! . .الواقع أنه كان يشعر ويفكر فى تلك الساعة ، لا كأديب ولا كمفكر ، ولكن ... كرجل ، وليس أدل على ذلك من اجترائه على تمزيق تلك الرسائل، ولو أن الأديب أو الفنان هو الذى كان يتصرف وقتئذ ؛ لأبقى على رسائله قائلا :

« ماذا تعنينى حقيقة النموذج بعد أن أبدعت التمثال ؟ » أو على الأقل : « ما العلاقة بين رسائلى وتلك المرأة ؟ . . إنى كنت أخاطب طيف امرأة لا صلة لها بهذه المرأة ... الطيف من صنعى ، والمشاعر مشاعرى ؛ فلأبق على ملكى ومخلوقات ذهنى... بل ولأنشرها إذا شئت على الناس ؛ كما نشرت وأنشر غيرها من صفحات ! . . . »
ولكن الرجل فيه . . . الرجل المخدوع المفجوع هو الذى كان يحس ، ويفكر ، ويتصرف ، ولئن كان زوجها لا يفكر اليوم إلا فى بتر كل سبب يربطه بها . . . فكذلك ، هو ذلك الذى كان لها فى الخفاء شبه

« زوج روحي » قد اتجه تفكيره هو الآخر إلى بتر كل ما كان يصله بها من أسباب . . ولم يكن بينهما من رباط مادى سوى تلك الرسائل ؛ فكان حتما عليه أن يصنع بها ما صنع . . . ولقد شعر حقاً ببعض الراحة . وقد فعل ذلك . . .

ومر الوقت سراعاً . وغربت الشمس ، وأقبل المساء ! . . . إن موعد مجيئها قد قرب . : . إنها فى الطريق إليه . . . إنه يسمع وقع خطواتها ؛ لأن دقات قلبه تخبره بذلك ! . . . لقد أخذت دقاته تسرع : كأنها تتابع تلك الخطى ، أو كأن بين هذه وتلك عرقاً نابضاً ، ولكن . . . لماذا قلبه يدق ؟ ... ليس يدرى ! ... ليس هو الحب على كل حال ... هذا ما يؤكده لنفسه على الأقل ! . . . وهل يمكن أن يحمل لها اليوم غير الكراهية والازدراء ؟ . . . إنما هو نوع من الا ضطراب يخالج المقبل على لقاء غير عادى ! ... فهو يحس بعواطف شتى فى وقت واحد ، يحس شيئاً من الارتياح الداخلى لرؤياها ، ولكنه لا يعلل هذا لنفسه إلا بأنه حب استطلاع ! . . .

نعم إنه مشوق إلى أن يرى وجهها الآن ، وما صارت إليه ، و يصغى إلى كلامها وما ينطوى عليه ! . . . وإنه ليحس شيئاً من الرهبة منها ، ويتمنى فى قرارته أن يجدها قد تغيرت ، وذهب سلطان جمالها ، حتى يلقاها هادئاً غير مكترث لها ، ويحس كذلك شيئاً من الغيظ والغضب ، والأسى والأسف ؛ لأنها عائدة الآن بغير الثوب الخلق النقى ، الذى تركت به تلك الحجرة آخر مرة . . . كل هذه المجموعة من المشاعر امتزجت فى نفسه تلك الساعة ، وأثارت ساكنها ، فجعل كل همه القبض على زمام أعصابه، والتهيؤ لمقابلة الزائرة رابط الجأش كعهدها به فيما سلف . . . ودق جرس الباب ! . . .فانتفض قائماً على الرغم منه ، ثم تنبه للفور فجلس فى مكانه من المكتب ، وتشاغل بالكتابة ، وفتح خادمه باب المسكن ، وسمع صوتها وهى تسأل عنه ،

وخطواتها وهى تدنو منه ، إلى أن دخلت عليه الحجرة ، وقالت :

— « بونسوار » يا أستاذ ! . .

فرفع رأسه بتؤدة ، ورد التحية بهمسة ، وأشار لها بيده إلى مقعد ، وعاد فدس رأسه فى الورق ، متشاغلا بالكتابة من جديد ! . . . وكانت تلك خير وسيلة يكتسب بها وقتاً ، يهدأ فيه روعه ! . . . ذلك أنه نظر إليها — عندما رفع رأسه — نظرة خاطفة ، وكانت تلك النظرة كافية ؛ فقد أدرك منها كل شىء ! ... إنها هى بجمالها ... هى بحسنها للأسف ، وسحرها ! . . . ولكن فيها مع ذلك شيئاً قد تغير ! . . . جمالها اليوم جمال الأمس ! . . . إنه الآن جمال خطر ! . . . إنه الجمال المتحفز . . . الجمال المتحدى . . . الجمال الذى يحلو له أن يهجم ، وأن يصرع ، وأن تكون له ضحايا ! . . . إنه الجمال المخيف الشرير . . إنه الجمال الآثم . . . إن طريقة زينتها وحدها تنطق بذلك ! . . . فصبغة الشفاه ورسمها . . . و « الريميل » حول الأعين والحذق فى وضعه . . والعطر والتفنن فى اختياره — كل شىء فيها الآن يكاد يصيح قائلا : « حذار منى ! . . . » إنها لم تعد الزهرة النضرة وكفى . . . ولكنها الزهرة ذات الرضاب المسموم والألوان الزاهية ؛ لغرض معلوم ! . . . إنها الزهرة القانصة . . . التى تتفتح بهاء لتطبق على فريستها فناء . . . رأى منها ذلك كله فى هذه النظرة . . . وهو لا يدرى أعينه هى التى أبصرت ذلك حقًّا ؛ أم رأسه وما صوره فيه الوهم ... فهو لم يكن ينتظر زيارة امرأة بريئة ؛ بل امرأة يعلم من سيرتها ما علم ! . . . مهما يكن الأمر ، فهاهى ذى تلك المرأة أمامه ، بكل سحرها وحسنها الغابر والحاضر . فليغمض عينيه عن شكلها ورسمها ! . . . وليضرب صفحاً عن شخصها واسمها ، وليواجه المهمة التى ندب لها بغير إبطاء ، وينفض يديه من هذا الأمر ، ويخرج من هذا الموقف . . . وآنس من نفسه بعض الهدوء والاطمئنان ، فنحى أوراقه بيده ؛ والتفت إلى

الزوجة قائلا بلهجة جد أصحاب الأعمال أو رجال القانون :

– الموضوع الذى استدعى تشريفك بالحضور يتلخص فيما يأتى :

ولم يتم كلامه ؛ فقد قاطعته الزوجة الحسناء قائلة :

– « پاردون » . ! . . تسمح لى بسؤال ؟ . . .

– تفضلى ! . . .

– أخبرتنى بالتليفون أنك قابلت زوجى . . . أين قابلته ؟ . . .

– فى حلوان ! . . .

– حلوان ؟ . . . آه . . . هو إذن فى « حلوان » ؟ . . . لا . . . لست أقصد مقابلتك له أخيراً . . . إنما أسأل أين قابلته أول مرة ؟ . . .

– أول مرة ؟ . . . أذكر أنه تفضل بزيارتى هنا . . .

– متى كان ذلك ؟ . . .

– منذ أكثر من عام ؟ . . .

– أتذكر لأى علة زارك زوجى منذ أكثر من عام ؟ . . .

– كان ذلك لأجل . . . لأجلك ! . . .

– لأجلى ! . . لماذا ؟ . . .

– للحديث عنك ، وعن القراءة ، والكتب ، والأدب ! . . .

– كنت تعرفنى إذن فى ذلك الوقت ؟ . . .

– نعم . . . بالطبع ! . . .

– وهل رأيتنى يومئذ ؟ . . .

– طبعاً ! . . .

– أين ؟ . . .

– هنا . . . كنت تتفضلين بالزيارة من آن لآن ! . . .

– إذن لم تكن زيارتى اليوم للمرة الأولى . . . إذن معرفتى بك ومعرفتك بى ، لم تنشأ الساعة للمرة الأولى . . . إذن وافقنى على أنه ليس من الطبيعى مطلقاً أن تلقانى الآن ، بعد افتراقنا بعام ، فلا تجد

ما تستقبلنى به من كلام ، غير هذه العبارة الجافة تصدمنى بها :
« الموضوع الذى استدعى تشريفك بالحضور يتلخص فيما يأتى . . . . »
فأطرق « راهب الفكر » وارتبك قليلا ، وأخذ يعبث بالقلم على ورقة بيضاء ؛ ثم قال بغير أن ينظر إليها :
– إنى آسف . . . ولكن . . . بأى لهجة تريدين أن أخاطبك؟ . . . لا أظن أنى غيرت كثيراً طريقتى فى الخطاب معك ! . . .
– أعترف أنك لم تكن معى يوماً قط مسرفاً فى اللطف . ولكنك على بخلك فى التودد إلىّ ، وتحفظك فى معاملتى ، كنت أشعر برغم ذلك أنك طبيعى ، وأنك لم تتكلف تجاهلى ؛ كما فعلت الساعة ! . . .
– إنى أردت أن أوفر من وقتك ، وأن أطرق الموضوع مباشرة . . .
فصمتت على مضض ، ثم قالت :
– إنى مصغية ! . . .
لفظتها على مهل ، وهى تخرج من حقيبة يدها صندوقاً أنيقاً للسجاير على أحدث طراز . تناولت منه سيجارة ، ووضعتها فى فمها ثم قدمت الصندوق إلى الأديب تعزم عليه . . . فاعتذر شاكراً . . . فقالت باسمة :
– « آه ! . . . حقًّا . . . أنت لا تدخن ! . . . »
فأجابها بنظرة تكاد تنطق بمرارة :
– وأنت أيضاً فيما مضى . . . أما اليوم فأنت تدخنين ! . . .
ولكنه تجنب الحديث فى هذه الأشياء ، وآثر أن يشرع فوراً فى الكلام الجدى . . . إلا أنه لم يدر كيف يبدأ ، فالتفت إليها كالمستعين بها ، سائلا :
– ما هو – فى اعتقادك – السبب فى غيبة زوجك ؟ . . .
فانتهزت الفرصة ، وقالت متحدية ، وهى تشعل سيجارتها

بوقادة (ولاعة) ذهبية ثمينة :

— من فضلك لا تلق على أسئلة . . . اطرق أنت موضوعك مباشرة ، وقل ما أردت أن تقول ، ولا تنتظر منى غير الإصغاء ! . .

فسكت لحظة : وقد أدرك أن الحديث فى مثل هذا الجو لن يوصل إلى نتيجة . . . فغير من لهجته قليلا ، وقال لها . . .

— أما زلت مصرة على اتهامى بأنى أسأت استقبالك ؟ . . .

فغيرت هى أيضاً من لهجتها بعض الشيء ، وقالت :

— بالتأكيد ! . . . لقد كنت أنتظر منك أن تقدر لى على الأقل قبولى دخول بيتك بعد أن طردتنى منه ، منذ أكثر من عام . . . يوم طلبت إلىّ — فى هذه الحجرة بالذات — أن أكف عن زياراتى لك ! . . .

— دخولك بيتى اليوم هو لأمر يخصك ، ويخص زوجك ! . . .

— كان فى إمكانى أن أسألك سرد هذا الأمر بالتليفون . . . ولكنى لم أكد أتلقى دعوتك ، حتى هرعت إلى زيارتك بغير تردد ! . . .

— ليست هذه أول مرة تدخلين فيها بيت رجل ، بغير تردد ! . . .

لفظها فى نبرة صارمة ذات معنى ، فالتفتت إليه فى الحال ، وقد فهمت ؛ على أنها لم تغضب ولم تعترض ؛ بل ابتسمت راضية ، وقالت وهى تنفخ دخان السيجارة من فمها :

— لا بأس ، إنى أفضلك قاسياً معنفاً . . . لقد كنت معى كذلك أحياناً فيما مضى . . . وفى هذا على الأقل شيء من الاهتمام ! . . . ولكن . . . من أين جاءك أنها ليست أول مرة أدخل فيها بلا تردد بيت رجل ؟ . . . أترى زوجى قد أخبرك ؟ . . . أم تراه قد أطلعك على . . . ؟

— نعم ! . . . على كل شيء ! . . .

قالها على عجل كمن يلقى عن كاهله عبئاً ؛ فقد هونت عليه بعض مشاق الحديث ، وسلكت به أقصر السبل إلى لب القضية . . . ورفعت سيجارتها إلى فمها ، وجذبت منها الدخان طويلاً ، ثم مضت تقول أيضاً ، وهي رابطة الجأش :

— وقرأت إذن بالضرورة ؟ ! . . .

— كراستك !

لفظها سريعاً وهو ينظر إليها ويراقب عينيها . . . لكن ياللعجب ! . ماهذا الهدوء ؟ . . . ما من هدب فيهما قد ارتجف ، بل لقد كانت عيناها مصوبتين إلى عينيه ؛ كأنهما تقرآن فيهما عوامل نفسه ، وتدرسان خوالج فكره ، ولم يجد هو بداً من أن يغض نظره ويتشاغل بالعبث بقلمه . . . فهو الذى قد تخونه عينه ونظراته . . . أما هذه المرأة . . . فكل مابدا منها عندئذ : ضحكة ناعمة طويلة تموجت فى فضاء الحجرة مع الدخان المائج . . . ختمتها بقولها :

— ما تنتظر لتخبرنى برأيك فيما قرأت ؟ . . .

فتمسك بالهدوء وقال لها :

— ليس رأيى ياسيدتى هو الذى يجب أن تسألى عنه . . . بل رأى زوجك ! . . .

— زوجى ليس صاحب اختصاص فى هذا الأمر . . . إنما هو اختصاصك ! . . .

— اختصاصى ؟ ! . . .

قالها بلهجة الغارق فى لجة لغز أو أحجية ، وضحكت هى منه وقالت :

— أنسيت هكذا سريعاً أنى كنت تلميذتك ؟ . . . يجب أن تعلم يا أستاذى العزيز أن دروسك قد أثمرت ! . . .

— أستغفر الله . . . أستغفر الله ! . . .

لفظ ذلك لا بلهجة التواضع ؛ بل فى صيحة الأسف والخجل ، والاحتجاج والذعر . . ولم تلق هى بالا إلى مقصده ، بل أنشأت تقول :

— ربما كان هذا غروراً منى . . . نعم . . . لا شك هو منتهى الغرور أن ألصق نفسى بك ، وأقرن عملى بعملك ، وأزعم أنى كتبت شيئاً يستحق التفاتك . . . إن ما قرأت ليس أكثر من محاولة قصصية . . . لك أن تسميها ما شئت ، ولكن واجبى يقضى على أن أعترف لك بالجميل . . . فأنت على كل حال الذى حبب إلى الكتب . . . ولقد أغرتنى المطالعة ، بعد ذلك . بمعالجة الكتابة ! . . . فكتبت كما ترى تلك الكراسة فى أوقات فراغى . . . وقد اختفت للأسف قبل أن تتم . . . وكان فى نيتى أن أقدمها عند تمامها . . . وأن أتخذها ذريعة على الأقل لمعاودة رؤيتك . . . وكنت على ثقة أنها ستشفع لى عندك ،وستقنعك بأنى كنت جادة يوم جئتك لتغرس فى نفسى حب الأدب ، وأنك ظلمتنى بإبعادى عنك ، وطردك إياى من جوارك . . . وإنى — حتى بعد أن غادرتك احتراماً لرغبتك — ظللت مقيمة على أن أمضى فيما وجهتنى إليه ، راجية أن ألقاك يوماً بشىء يرضيك ، ويضطرك إلى الندم على سوء ظنك بى ! . . . وقد شاء القدر أن يصل إليك عملى ناقصاً من يد غير يدى . . . وهذا لا يهم ! . . . فالقيمة كلها عندى الآن هى فى اطلاعك على هذه الكراسة المتواضعة . . . وإنى مع اعتقادى بأن هذا المجهود البدائى لن يظفر برضاك الكامل ، أرانى مبتهجة على كل حال لهذه النتيجة ، منتظرة منك أن تبدى لى رأيك بكل صراحتك وقسوتك وخشونتك ، التى اعتدت أن تختص بها تلميذتك ؛ فما هو رأيك ؟ . . . تكلم ؟ . . . لماذا تنظر إلى هكذا ؟ ! . . .

الواقع أنه فوجئ مفاجأة ؛ فهذا كلام ما كان يتوقع سماعه . . .

هى إذن بريئة من الإثم ، وتلك الاعترافات المزعومة لم تكن سوى عمل أدبى خيالى . . . اندك إذن صرح الاتهامات الموجهة إليها ، وانهار الأساس الذى بنيت عليه مهمته ؛ فهى لم تخن زوجها ، ولم تدنس شرفها ، بل إنها لم تخنه هو فى إيمانه بها ، ولم تلوث الصورة التى رسمها فى نفسه لها ! . . . ليته إذن لم يتعجل فيمزق رسائله إليها ! . . . وا فرحتاه لوكان هذا الأمر صحيحاً ! . . . وظل يتفرس فى وجهها وكأنه يريد أن يخترق حجب نفسها ، وأخيراً قال لها فى صوت ، لا يتبين منه تصديق أو تكذيب ؟ . .

– اعترافاتك إذن لم تكن حقيقة ؟ . . .

– لا ، بالتأكيد ! . . .

– وذلك الممثل السينمائى ؟ . . .

– لم أره قط فى حياتى ! . . .

– شخصية وهمية ؟ . . .

– بلا شك ! . .

– وكل تلك الحوادث والتفاصيل والوقائع ، هى من نسج قريحتك ؟ . . .

– طبعاً ! . . .

– يالها من قريحة خصبة ! . . .

قالها على نحو لم تستطع أن تستشف منه مرماه ، ولم تدرأساخر هو أم جاذ ؟ ! . . . وأرادت أن تكشف عن حقيقة قصده فقالت :

– ما أظنك كنت تعتقد أن لى قريحة روائية ؟ . . .

– أعترف أنى ما كنت أعتقد أنك بهذه البراعة ! . . .

– إنى مغتبطة . . . حدثنى أيضاً عن براعتى فى هذه القصة ! . . .

– بل فلنتحدث عما هو أهم . . . فلنتحدث عن براعتك فى

دفاعك ! . . .

— دفاعى ! . . .

لفظتها فى شىء من التجهم والاحتجاج . . . ولكنه مضى يقول :

— الحق أنه دفاع بارع جداً . . دفاع ما كان يخطر لأحد على بال ! . . . ولست أدرى كيف استطعت فى هذا الوقت القصير منذ أن حادثتك فى « التليفون » عصر اليوم . وعلمت منى أنى مكلف بتلك المهمة الخطيرة من قبل زوجك ، أن تعدى دفاعك بهذه السرعة وبهذه المهارة ؟ ! . . .

يقولون إنك ذكية ، وكنت أعرف ذلك من قبل ، ولكنى لمست ذكائك الساعة على صورة رائعة ! . . . ثم طريقة تمثيلك للدور الذى أردت تمثيله ، والمرأة بطبعها ممثلة قديرة ، ولكنك تمتازين فى التمويه والكذب ، على ما أعهده فيك من قديم ! . . . ولا أحسبك نسيت قولك لى ذات مرة إنك تحبين الكذب كما تحبين « السينما » . و « التنيس » ، و « سباق الخيل » ، و «الكونكان » !

ثق أنى لسوء حظك قوى الذاكرة جداً . . . خصوصاً فيما يتعلق بك ، وبما سمعت منك ، وقرأت لك ! . . .

وكان فى صوته شىء من الحرارة والعنف ، فلم تكره ذلك ، وصوبت إليه نظرة فتاكة ، وقالت :

— لا يدهشنى أن يكون هذا رأيك فىّ ! . .

فقال ، وهو يعبث بقلمه على ورقة :

— من واجبى أن أصارحك برأيى . . . ولقد طلبت إلىّ الساعة هذه الصراحة . . . وهأنذا أقدمها إليك خالصة . .

فقالت فى شبه تنهد :

— للأسف . . . هذا رأيك فىّ دائماً منذ زيارتى الأولى . . . إنى سيئة الحظ معك . . . هذا كل ما أستطيع أن أقول ! . . .

— لا أظن أنى ظلمتك ! . . . ربما كنت حقًا قد أسأت فهمك ، وقدرتك أكثر من حقيقتك ! . . .

ولفظ العبارة الأخيرة فى همس لا تسمعه ، ونظر بإحدى عينيه على الرغم منه إلى رزمة رسائله الممزقة فى السلة ، ثم رفع صوته قائلا لها :

— والآن يا سيدتى... هل لى أن أسألك بدورى أن تصدقينى القول.. لا من أجلى ؛ بل من أجل زوجك ؛ فنحن حتى الساعة لم نتقدم خطوة نحو الغرض الذى اجتمعنا له الليلة ! . . .

فاتخذت هيئة الجد فجأة ، وقالت بقوة :

— بل أنا التى يحق لها أن تسألك لماذا تكذبنى ؟ . . . وبأى حق يجوز لك أن تلصق بى مثل هذه التهمة الخطيرة ؟ . . . وكيف تسوغ لنفسك أن تسمى تقريرى الحقيقة أنه دفاع بارع ؟ . . . ما أظن زوجى قد أقامك نائباً عاماً لتحقق معى وتفند أقوالى ! . . . إذا كانت تلك هى المهمة التى كلفك بهـــا ، أخبرنى حتى أفهم حقيقة الموقف ! . . .

فنظر إليها مليًّا وهو هادئ هدوءاً لم يكن ينتظره ؛ فهو قبل حضورها كان يخافها ، ويتوهم أنه لن يستطيع مواجهتها ، بغير أن يخفق قلبه ، ويتلعثم لسانه . ! . . ذلك أنه كان لا يزال — على الرغم من كل شىء — يعيش مع طيفها ، الذى تمثل فيه كل الصفات العليا التى ترفعه إلى طبقة المعبودات ! . . . هذا الطيف هو الذى كان فى حقيقة المرأة يخافه ، ويقدر ضعفه وانخذاله فى حضرته ! . . . أما هذه المرأة فقد كفاه مجيئها بلحمها ودمها وحديثها ، حتى يحس الاطمئنان والأمان ، ويدرك أنه سيد موقفه ، وقد بدأ ينسى الطيف ، ويتأمل الواقع ! . . . ويدرس هذه المرأة فى كل عبارة تلفظها ، ويزن حقها وباطلها ومرامى لينها وثورتها ، إنه لم يعد يخشاها. . . ولكن من المبالغة أن يزعم أنه فقد كل اهتمامه بها . . . والاهتمام أحياناً كالرماد الساخن لنار كانت متأججة ! . . قد لا يخيف ، ولكن لا ينبغى أن يطرح

من الحساب ، على أنه فى تلك اللحظة لم يكن يفكر فى غير مهمته ، وقد تلقى عنفها بابتسامة ، وقال :

ــ زوجلك النبيل لم يقمنى نائباً عاماً ! . . . ولعله رأى من لطفه أن يعفينى من هذا المنصب الشاق، ولكنك أنت التى ألقت فى روعى أن صراحتى تسرها ، وأوهمتنى أنى حر فى أن أقف منها الموقف الذى أراه ، وقد رأيت أن أحكم عليك لا لك ! . . . هــذا كل ما فى الأمر ! . . .

فهدأ صوتها ورق ؛ وكأنها آثرت أن تعود فتأخذ محاورها باللين ، وتكتسبه بالرفق والوداعة ، فقالت :

ــ أتقسم أن ضميرك مستريح لهذا الحكم الذى أصدرته علىّ ؟ . .

ــ ضميرى مستريح ! . . .

ــ ألى أن أعرف على أى أساس بنيت حكمك ، يا سيدى القاضى ؟ ! . . .

ــ على أساس تؤمن به كل امرأة . . . على الإحساس ! . . .

ــ الإحساس ! ! . . .

ــ نعم . . . الإحساس ، وهو أساس لا يكفى وحده لإقامة العدالة فى المحاكم ، ولكنه عندى فى مثل حالتك يكفى كل الكفاية ! ... إن إحساسى وأنا أصغى إلى دفاعك الساعة ــ واسمحى لى مرة أخيرة أن أسميه دفاعاً ــ هو غير إحساسى وأنا أقرأ اعترافاتك... إنى لم أهتز لكلمة من كلماتك الآن ... وأنت ماثلة أمامى بشخصك نابضاً، والحديث يتدفق من فمك حارًّا ، ولكن كل حرف قرأته فى كراستك كان يقف له شعر رأسى . . . إنها تفاصيل لا يمكن أن تكون ملفقة . . . إنها الحقيقة قد قلتها أنت بحذافيرها . . . إنها وقائع قد عشتها بكل دقائقها . . . إنه الصدق كله قد أودعته تلك الصفحات المروعة ! . . . إن المسكين زوجك كاد يجن وهو يطالعها ،

ولقد شاء لى أن أطالعها فى ليلة ! . . . فكانت ليلة ! . . .أعنى أنى كدت أنا أيضاً . . . نعم . . . لقد كانت شيئاً فظيعاً . . .نعم . . . إنها لايمكن أن تكون غير حقيقة رويت بكل دقة. . . كل سطر فيها ينطق ويصيح بشيء حدث بلا مراء ! . . .

حقاً يالها من صفحات ! . . . كيف تستطيع امرأة أن تعرض كل هذا على الورق ؟ . . .

قال ذلك وأطرق كأنه يخاطب نفسه . . . ونظرت إليه الزوجة لحظة صامتة ، ثم قالت :

– ليس هذا بالدليل الكافى . . . لماذا لاتقول إنها موهبتى ؟ ! . . . أليس من الكتّاب من يلبس الخيال ثوب الحقيقة ؟ . . .

– هذا هراء ! . . . إن الكاتب قد يتخيل حوادث ، ويلفق وقائع ! . . . ولكن المشاعر والإحساسات لا تخترع ولا تلفق ؛ فهى لا بد أن تنبع من الصدق القراح ، وتصدر عن نفس تشعر بها حقيقة ، وتنبعث عن قلب ينبض بها حية ، ويحسها فعلا طبيعية ؛ كأنها جزء من كيانه الداخلى . . .

فإذا سلمنا معك بأن حوادثك مخترعة ، ووقائعك متخيلة ، فماذا تقولين فى مشاعرك العميقة، التى بدا منها ميولك الدفينة للمغامرات الغرامية العنيفة ، على هذه الصورة المحمومة التى أودعتها صفحاتك ؟ . . .

فابتسمت لقوله ، ثم قالت :

– وهل كنت تنتظر من امرأة أن تكتب فى موضوع غير هذا!... إن المغامرات الغرامية هى حلم كل امرأة ! . . .

– كل امرأة على طرازك ! . . .

– بل كل امرأة إطلاقاً ، مادامت جميلة ، وفى إمكانها أن تسحر رجلا ، وكذب من قال لك غير هذا ، وإنى أعرف نساء كثيرات ، وعدداً لايحصى من الزوجات لا حديث لهن اليوم فيما بينهن إلا هذا

النوع من المغامرات ! . . إن الزمن قد تغير ، وأنت فى عزلتك ، بين كتبك ، لا تعرف ما يحدث فى المجتمع . . . وأغلب من أعرف من الأسر والبيوت تجرى فيها أشياء لا أدرى ماذا تقول فيها ، لو اطلعت عليها ؟ . . . ثق أنه من النادر الآن أن تجد الزوجة التى لا يكون لها إلى جانب زوجها صديق أو خليل . أو مجرد أنيس ، مادامت قد استطاعت أن تحصل عليه فهى لن تتردد . . . اطرح من حسابك تلك التى لا تستطيع ! . . . لقد أصبح اليوم مما يمس كرامة المرأة الجميلة أن يقال : إنها عاطلة من المعجبين ، وإنهن ليتباهين أحياناً فيما بينهن بعددهم ، ويتبارين فى اكتساب أجملهم وأشهرهم وأغناهم . . . إنى أعرف صديقة متزوجة ، تفخر بأنها تملك أثمن مجموعة من المحبين . . . مجموعة يمثل كل رجل فيها ما تشتهيه المرأة من صفة : فلديها الثرى ، ولديها الشاب الوسيم ، ولديها صاحب الاسم والجاه ، ولديها صاحب النكتة والظرف ! . . . وكل واحد من هؤلاء يظن أنها له وحده . . . ولكن الحقيقة أنهم هم كلهم لها وحدها ! . . كل هذا يحدث ، وأخشى ألا تصدقنى إذا قلت لك : إن هذا يكاد يأخذ مجرى الحياة العادية فى كثير من البيوت والأسر ، دون أن يقع ما يعكر صفو الزوجية ، أو يحطم ذلك الرباط المقدس ! . . .

إنى لم أسمع حتى الآن فى محيط صديقاتى بحادث طلاق أو انفصال ، من أجل سبب كهذا بالطبع ! . . . كثير من أولئك الأزواج لا يعلمون كل شىء عن زوجاتهم . . . ولكن العواقب على كل حال سليمة . . . والعواصف التى تهب على الحياة الزوجية قليلة ؛ لذلك أرجو منك أن لا تسرف فى لومى ، على تلك الصورة التى رسمتها للزوجة الحديثة ! . . ولو كنت فى مكانك لذهبت من فورى إلى زوجى ، ونصحته بألا يبالغ هو الآخر . . . وإنى آمل أن تصنع ذلك لا من أجلى ولا من أجل زوجى ، بل من أجل حياتى الزوجية وطفلتى . . .

فإنه لمن الحمق أن نحطمها ، ونشق ثمرتها لسبب كهذا . . . هل أنتظر منك أن تقف هذا الموقف ؟ . . . إنى مصغية إلى إجابتك ! . . . تكلم ! . . . لماذا تنظر إلىّ هكذا ؟ . . .

الواقع أنه كان ينظر إليها مشدوهاً . . . هذا ليس تمثيلا . . .إنه اعتقاد ! . . . إنها طبيعتها . . . إنها تتفوه بهذا الكلام ؛ وكأنها تنطق بأشياء عادية مما تجرى به الألسن دون جدال . . . أشياء بديهية لايقف عندها التفكير . . . ترى هل ألغيت مبادئ الأخلاق فى هذا المجتمع ؟ ! . . . وحذفت كلمات الفضيلة والعفة والحياء من القواميس المعمول بها دون أن يدرى ؟ . . . ولبثت تنتظر رده ، وهى تخرج من حقيبة يدها صندوق مسحوق « البودرة » ، وإصبع الأحمر ، فتصبغ وجهها وشفتيها . . . وهو يتأمل ذلك ، ويذكر يوم كانت زينة المرأة شيئاً خفياً ، يتم فى حجرة مغلقة . . . فإذا هو اليوم عمل علنى ، تجريه فى كل مكان تحت أنظار الرجال ، والسيجارة كانت لاتدخنها من النساء غير العاهر ، والخمر لا يحتسيه غير المومس ! . . . فإذا حرائر النساء يدخن ويسكرن علانية فى السهرات والمجتمعات والحفلات ! . . . كذلك كلمة الخليل أو العشيق كانت تلفظها المرأة قديماً هامسة بين طيات الحجب ؛ وكأنما تلفظ إثماً . . . فلا عجب ، مادام كل شيء يتطور ، إذا تحدثت النساء اليوم عن العشاق المعجبين بملء أفواههن أمام الناس ؛ كأنما يتحدثن عن أثوابهن ، ويشدن بأحاديث المغامرة بالبساطة التى يدخن بها « سيجارة » ويصفن حوادث الغواية بالعناية التى يطلين بها الشفاه . . . كل هذا طبيعى عندهن الآن فلا فائدة من المناقشة ! . . . ولكنها ترمقه بعينيها تنتظر كلامه . . . ماذا تريد منه بعد ذلك على وجه الدقة ؟ . . . فالتفت إليها أخيراً ، قائلا :

— لم أفهم بالتحديد ، ماذا تنتظرين منى ياسيدتى ؟ . . .

فقالت بكل هدوء :

ــ أنتظر منك ياسيدى القاضى ألا تكون جلاداً ؛ بل تكون قاضى صلح ! . . .

ــ صلح ؟ ! . . .

لفظها فى مزيج من الدهشة والارتياع والسخرية . . .

فلم تخرج عن هدوئها ؛ وقالت مبتسمة :

ــ ولم لا ؟ . . . ألا يسرك أن يتم بينى وبين زوجى كل تفاهم وصفاء ؟ . . .

فقال بشىء من التردد :

ــ بالطبع يسرنى ذلك . . . ولكن . . . ؟

ــ ولكن ماذا ؟ . . . إنها خير خدمة تقدمها للطرفين . . . ومن يدرى ! ؟ . . . ربما كانت هذه هى المهمة التى كلفت بها . .

ــ على النقيض ! . . .

ــ أكانت مهمتك إذن إشعال نار الخصام فى بيتنا ؟ . . .

ــ لا يا سيدتى . . . بل مجرد تبليغك طلبات زوجك ! . . .

ــ ما هى طلباته ؟ . . . الانفصال طبعاً . . .

... الطلاق بغير ضجة . . . وتسليمه الطفلة . . .

ــ هذا ما توقعت بالضبط ، فأنا أعرف زوجى . . . تلك هى حلوله المادئة العاقلة الرزينة . . . لكن . . . إذا احتكمنا إلى فكرك أنت . . . فكرك العميق المتسع . . . ألا ترى خيراً من كل هذا أن نرُمّ عشنا المتصدع ، وأن ننشئ ابنتنا فى حجرنا ؟ . . .

ــ لست مكلفاً بمهمة التحكيم ؛ بل بمهمة التبليغ . . .

فسكتت قليلا . . . ثم قالت :

ــ لقد قمت بمهمة التبليغ من قبل زوجى ، فهل لديك مانع من أن تقوم كذلك بمهمة التبليغ من قبلى ، فتخبر زوجى بكل

ما أخبرتك به الآن ؟ . . . أى بذلك الذى سميته أنت دفاعاً . . . قل له : إنى أرفض اتهامى بالخيانة . . . وإن الكراسة ليست سوى قصة خيالية ! . . . أتتفضل بتبليغه ذلك ، وإخبارى بالنتيجة ؟ . . .

فتفكر « راهب الفكر » لحظة . . . ثم قال :

– ليس لدى ما يمنع من تبليغه ذلك ! . . .

فقالت . وهى تنهض للانصراف :

– لن أطمع فى أن تقف إلى جانبى ، وتعرض الأمر بما فيه مصلحتى ، فأنا ما زلت أعتقد فى سوء حظى معك ! . . . إنى لم أظفر قط يوماً بقليل من عطفك ، ولكنى أنتظر منك على كل حال ألا تؤذينى بكلمة تلقيها ضدى ! . . . كن على الحياد التام على الأقل . . .

– لك ذلك ! . . .



الزوجة المثلى

ذهب « راهب الفكر » فى اليوم التالى إلى « حلوان » ليعرض على الزوج أقوال الزوجة ، وتلقاه الزوج هاشاً له ، معجباً بنشاطه ، مقدراً لعنايته بإنهاء الموضوع فى هذا الزمن اليسير . ولكنه لم يكد يجلس إلى القادم ويصغى إلى ماجاء به ، حتى أطرق ملياً وقد صدمته عواطف شتى سريعة ! . . . فقد لاح له بصيص أمل خفق له قلبه ، غير أنه لم يكن أكثر من خطفه البرق فى ليل ملبد بالسحب . . . برق أضاء جوانب نفسه لحظة . . . ولكن ليكشف بعدها عن الحقيقة الواقعة . . . وهى غيوم سوداء ، مكتل بعضها فوق بعض ، لقد كان لقولها إنها بريئة ، وإنها لم تكتب سوى صفحات وهمية بعض اللمعان المفاجئ ! . . . ولكن الزوج ما لبث أن تذكر عبارات الكراسة التى يحفظها عن ظهر قلب ، فانقبضت نفسه من جديد ، وتلبد كل شيء فيها : هذا محال ! . . . أهذا ممكن ؟ . . أهذا معقول ؟ . . والتفت إلى « راهب الفكر » يقول بحرارة وعتاب :

أهكذا تذهب عنى أمس باليقين المريح ، لتعود إلى اليوم بالشك المؤلم ؟ ! . . . لقد كنت أرى — كما تعلم — لابن خالى وما هو فيه من عذاب الشك ! . . . لقد حمدت الله أنى على يقين ، وأن أمرى ميسور الحل . . . أهذا معقول ؟ . . . ألا تراها تحاول تغطية موقفها ، وتبرئة نفسها . . . أجبنى . . . هل صدقت أنت هذا القول ؟ . . . هل

تستطيع حقًّا أن تصدقها ؟ ! . . . أخبرنى بالحقيقة . . . بحقيقة شعورك ؟ . . . ما رأيك فى قولها هذا ؟ . . إنى أريد الاستماع إلى رأيك ! . . .

فلزم « راهب الفكر » الصمت لحظة ، ثم قال متوسلا :

— لى عندك رجاء . . . لا تطلب رأيى . . . تلك مسألة عائلية دقيقة ، لا يحسن بى أن أتدخل فيها برأى . . . كل مالى أن أفعل هو أن أقوم بينكما بدور الرسول أو السفير . . . اجعلانى فقط واسطة اتصال بينكما . . . لا أكثر ! . . .

— أو يصح أن تتركنى هكذا فريسة الشكوك . . .

— إنى آسف . . فكر لنفسك . . . واصغ إلى صوت قلبك وإحساسك . . . واقطع برأيك أنت وحدك ! . . . ولا تضعنى موضع الحرج . . . إنى لا أشك فى أنك تفهم دقة موقفى فى مسألة كهذه :

— فاهم ! ؟ . . .

لفظها بإذعان يستثير الشفقة ، وجعل يطرق ويفكر ، ويقلب فى رأسه الأمر على وجوهه . . . ثم استوى ناهضاً فجأة ، وهو يقول :

— لاتؤاخذنى ! . . . انتظرنى لحظة ! . . .

ومضى واختفى برهة ، ثم عاد يحمل الكراسة ، وجلس فى مكانه يقلب صفحاتها على غير هدى ، ويطالع فقرات من هنا وهناك . . . ثم صاح :

— وهذه حكاية وهمية؟ . . أهذا كلام خيالى ؟ . . . اسمع هذا . . . اسمع أرجوك ! . . .

وأخذ يتلو عليه قولها فى الكراسة :

« . . إن زوجى على الرغم من فتوره الحالى نحوى ، وقربه الذى لم يعد يثير فىّ أى نشوة قوية ، ما أساءنى قط يوماً ، بل إنه ليعزنى

ويودنى ، وفجأة بدا لى شبح عملى المخيف البشع ، وما سوف يحدثه له من آلام ، لو أنى أطعت هواى وهربت من بيتى ، أو قطعت صلاتى الزوجية بمثل هذه الفضيحة ، وتيقظت فى نفسى تلك اللحظة بقية ضمير وإخلاص ، فلم أقبل بحال أن أجعل زوجى وطفلتى ، ضحايا ضعف وأخطاء وعواطف ، هى عندى أقوى من إرادتى ! . . .

ثم هنالك شىء آخر : لقد فكرت فى مصير تلك المرأة ، التى تذهب إلى رجل ؛ لتضع حياتها بين يديه ، دون أن يكون فى جيبها قرش ! . . حقاً كيف أستطيع ، وأنا المجردة عن كل أموال خاصة ، إذا انفصلت عن أسرتى ، وترفعت عن مد يد السؤال إلى ثروة والدتى ، أن ألقى بعبثى على كاهل « . . . » وأفرض عليه أمر معاشى وكسوتى وزينتى وترفى ؟ . . . إن كرامتى لتأبى ذلك ، وإذا أرغمنى حبى وضعفى على التفريط فى هذه الكرامة ، فهل يطيق هو ؟ . . .

لا ينبغى أن يصلنى الحب إلى هذا الحد . . . وليس من الضرورى أن ينتهى الحب دائماً بالهرب مع الحبيب . . . وهو لا شك لم يخطر بباله قط هدم عش الزوجية ، والانطلاق معه بعد قطع ذلك الرباط الرسمى المقدس ؛ لأنه يدرك عواقب ذلك . . . وإن مثل هذه الفكرة وحدها كفيلة بإطفاء جذوة غرامه ، إنما الذى أراده ولا ريب بتلك العبارة التى لفظها ، ونحن فى نشوة الغرام ، أن أدبر وسيلة ، أو أخترع حجة للسفر معه بضعة أسابيع إلى فلسطين أو غيرها ، دون أن يفطن زوجى أو تتنبه أسرتى للباعث على هذه الغيبة ! . . . ولكن هذا مستحيل ! . . ومهما أوتيت من سعة الحيلة ، فلن أجد الوسيلة . . . حسبنا إذن هذا القدر من اللقاء ! . . ولا يجب أن نطمع فى أكثر منه ، وإلا تعرضنا لكارثة لا يحب كلانا أن تقع . . . » .

هنا كف الزوج عن القراءة ، والتفت إلى « راهب الفكر »

قائلا :

ـ أخبرنى كيف يكون هذا خيالا والأشخاص هم عين أشخاص الحقيقة : فالزوج والطفلة والزوجة ووالدتها . . . كل أفراد أسرتنا هم بعينهم وظروفهم . . . ولكن هذه السيدة العاشقة تريد أن تبرئ نفسها ؛ لأنه ليس فى مصلحتها ولا مصلحة غرامها أن تهدم عش الزوجية . . . لهذه الأسباب التى كتبتها بخطها . فهى لا بد لها أن تستبقى الزوج ؛ لتستبقى العشيق . . . أمر واضح . . أما حجتها فهى واهية ، وما أظن أحداً يصدقها غير مغفل ، ولو أنى أحسب اليوم فى عداد المغفلين . . . إلا أن ذلك حدث بغير إرادتى . . . أما عملها على إدخال هذا الوهم علىّ وتصديقى له ، فهو إمعان منها فى الاستهانة بى ، وإساءة الظن بإدراكى . وإنه لكثير على أن أكون مغفلا مرة أخرى عن وعى وإدراك . . . لا ياسيدى . . . اذهب إليها حالا من فضلك ، واستكتبها ورقة بتسليمى الطفلة . . . وأقسم لها عنى بأنه لا أمل لها أبداً فى إعادة الحياة الزوجية . . . حتى وإن ثبت صحة زعمها . . . فأنا لا آمن على ابنتى أن تربى فى كنف أم خطت بيدها هذا الكلام الشنيع ! . .

وطوى صفحات الكراسة بحركة عصبية . وأراد أن ينهض فاستوقفه « راهب الفكر » قائلا :

ـ وإذا رفضت تسليم الطفلة ، وتمسكت بحقها الشرعى فى حضانتها . .

ـ ماذا تقول ؟ . . .

ـ هذا مجرد فرض ! . . . حتى أكون مستعداً لما يطرأ . . .

ـ إذا رفضت . . . أكد لها عنى أنى لن أتردد عندئذ فى أن أسلك الطريق الآخر ، الذى أردت أن أجنبها وأجنب الطفلة نتائجه . . . طريق القضاء والفضيحة . . . ولدىّ اعترافاتها مكتوبة أقدمها للتحقيق ، وما أظن ـ أو تظن هى ـ أن هنالك محكمة تحكم ببقاء الطفلة فى حضانتها بعد ذلك ! . . .

فالأجدر بها إذن أن تفهم غايتي ، وتقدر عملي في إنقاذ سمعتنا جميعاً . . . فالطلاق الهادئ ، وتسليمي الطفلة هو في مصلحتها ومصلحتنا كلنا ، فخير لها ألا تثير أي إشكال . . . هذا كل مافي الأمر ! . . .

وسكت وهو يسأل بنظراته « راهب الفكر » عما إذا كان يود الاستعلام عن شيء آخر ، فأجابه سلباً بإشارة من رأسه . . . ونهض يريد الانصراف ليستأنف إنجاز مهمته ، وقال وهو يمد يده بالتحية :

ــ وكيف حال ابن خالك ؟ . . .

ــ حاله سيئة ! . . .

لفظها بقلق وحزن ، ثم مضى يقول :

ــ مسألة ابنه الأصغر هي النكبة . . . هذه الفكرة متسلطة عليه إلى درجة خطرة . . . لقد غافلني ، وذهب البارحة لينظر مرة أخرى في وجه هذا الابن ، وعاد في حالة مخيفة . . . يؤكد لي أنه ليس ابنه ، وتدمع عينه وهو يحدثني عن ذلك الطفل ، وقد سأله ببراءة وطهارة :

ــ لماذ تنظر في وجهي هكذا يا بابا ؟ . . .

إنه لا يدري ماذا يصنع ! . . . وهل هو مخطئ أم مصيب ؟ . . . وماذا يكون موقفه من هذا الابن غداً ؟ . . . ثم من الزوجة . . . إن هذا المسكين في حالة مخيفة فعلا ! . . . إنه لا ينام ولا يأكل ، إني أؤكد لك أنه لم تبق له أعصاب تحكم إرادته . . .

وأطرق مهموماً ، فشد « راهب الفكر » على يده مشجعاً ، وحياه صامتاً وانصرف عنه راجعاً إلى مسكنه بالقاهرة .

* * *

وفي ذلك اليوم طلب حضور الزوجة مرة أخرى ، ليعرض عليها قرار الزوج النهائي ، فجاءت في المساء ، فأجلسها إلى المكتب . . .

وقبل أن تنطق بحرف قدم إليها قلما وورقة ، وقال لها بلهجة سريعة صارمة :

— اكتبي ! . . .

فالتفتت إليه في دهشة :

— أكتب ماذا ؟ . . .

— قبولك كل شروط الزوج ؛ منعاً للفضيحة ! . . .

فنظرت إليه ملياً ؛ كمن يبحث في سريرته ، وقالت :

— ألم يعد هنالك أمل ؟ ! . . .

فأجابها باقتضاب :

— مطلقاً . . . لا أمل ولا فائدة ! . . .

— أخبرني أولا ماذا حدث ؟ . . . وماذا قلت له ، وماذا قال لك ؟ . . .

فأخبرها بكل شيء . . . وأعاد على مسمعها كل حرف فاه به زوجها ، وكل كلمة تلاها عليه من اعترافاتها ، وتفصيل رأيه وموقفه ، ومسلكه إذا قبلت ، ونواياه إذا رفضت . . . ففكرت في كل ذلك لحظة . . . ثم أخرجت من حقيبة يدها صندوق سجائرها ، وتناولت سيجارة وأشعلتها بولاعتها ، ثم نفخت في الهواء نفخة ، وقالت متأففة :

— ياحمق الأزواج ! . . .

وتعجب « راهب الفكر » لكلمتها ؛ فسألها بكل رفق :

— وما الذي بدا من حمق زوجك على الأقل ؟ . .

— عجباً ! . . . أو لا ترى حمق تصرفه ؟ . . .

— وتصرفك ؟ ! . . .

فتنهدت تنهد اليائس وقالت :

— لا حيلة لي فيك ! . . . إنك دائماً ضدي . . . إنك لا ترى

أبداً غير أخطائى أنا ، وعيوبى ، ولا تبصر سوى هفواتى أنا ، وذنوبى !. بماذا أسأتك ؟ . . . أخبرنى ! . . . ماذا صنعت لك غير أنى حملت لك مودة و . . . ومحبة لم تقدرها ولم تلتفت إليها ! . . .

فأطرق « راهب الفكر » وقد أصابه شبه رعدة . . . ولكنه قال فى الحال بصوت أجش :

— إن زوجك ياسيدتى هو المعتدى عليه ! . . .

— وأنا لست معتدًى عليها ؟ . . . وهو الذى يريد أن يحرمنى بيتى وابنتى من أجل غيرة حمقاء ؟ ! . . .

— أمن الحماقة أن يغار الزوج على شرفه ؟ . . .

— لا تتكلم هكذا ! . . . يدهشنى أن أراك تتكلم هكذا كما يتكلم الرجعيون وأصحاب الأفكار القديمة ! . . . الزمن قد تغير الآن ، والنظرة إلى هذه المسائل قد تطورت واتسعت ! . . . والمبالغة فى تلك الأشياء لا نجدها إلا فى الطبقات السفلى ! . . . إذ تسمع ، بين آن وآن ، أن زوجاً ذبح زوجته أو أخته بسبب الغيرة أو الاشتباه فى السير والسلوك ! . . . أما فى طبقاتنا الراقية فلا يصح أن نجعل من هذه التوافه مأساة بأى حال . . . أنت رجل مفكر : حر التفكير . . . فكيف تنسى أن الحرية هى أساس كل شىء الآن ؟ . . . والمرأة مثل الرجل مخلوق له حريته ، والزوجة لم تعد قطعة أثاث ، توضع فى حجرة مغلقة فى منزل الزوجية ، بل هى آدمية لها حق التنفس والحياة !... ولا بد أن تكون لها حريتها ، وأن تذكر دائماً أن لها قلباً حرًّا ، قد خلق لينبض بالحب والكره ، وأن لها جسما حرًّا ، لا يملك إلا بإرادتها ورغبتها ، وأن الزواج لا ينبغى أن يفسر بأنه قيد يوضع فى عنق المرأة . . . إنها اليوم ترفض كل قيد ، حتى وإن كان من ذهب ! . . .

فهز « راهب الفكر » رأسه ، وقال هامساً كالمخاطب نفسه :

— الحمد لله ! . . . إنى لم أتزوج ! . . .

ولم تسمع الزوجة همسه ، فسألته :

— ماذا تقول ؟ . . .

— لا شيء . . . إنما أود أن ألفت نظرك إلى أن الزواج قبل كل شيء عقد من العقود ، لا قيد من القيود — عقد بين طرفين لكل منهما حقوق ، وعلى كل منهما واجبات . وقد أخذ رأيك فيه قبل إبرامه ، وقبلت أن تحترمى شروطه ، فما من أحد يقيدك بقيد . . . ولكنك مطالبة بتنفيذ عقد ! . . .

— لا ياسيدى . . . لا تغالطنى من فضلك ! . . . لا فرق بين القيد والعقد إذا كانت الشروط تمس حرية الإنسان ، وأنت اليوم تسميه عقداً ؛ لأننا أرغمناكم على الاعتراف بحريتنا ، ولكنه فى الحقيقة قيد ؛ بل لقد كان قيداً مادياً فى يوم من الأيام، إنى لم أزل أشعر بقشعريرة كلما تذكرت ماقرأناه فى كتاب التاريخ ، ونحن تلميذات فى مدرسة الراهبات الفرنسية ، عن زوجات الفرسان فى القرون الوسطى :

لقد كان الفارس من أولئك الفرسان النبلاء ، قبل ذهابه إلى الحرب يصنع لزوجته قيداً من الفولاذ ، له قفل ومفتاح يقيد به الجزء السفلى من جسم زوجته ، ويطلقون على هذا القيد « حزام العفة » ويظل مغلقاً على هذه المواضع من بدن الزوجة المسكينة ، حتى يعود الزوج من حربه بعد غيبة طويلة . . . فيخرج مفتاحه ويحل القيد ويحرر جسم امرأته . . . ماذا تسمى مثل هذه الزوجية ؟ . . . أهى عقد أم قيد ؟ . . .

— حقاً إن الأزواج الحمقى ! ... كما قلت أنت الساعة بالضبط ! .. كيف فرطوا فى استخدام هذا « الحزام » فى العصور الحديثة ؟! . . . إنه الحزام مدهش ! . . . ما أحوج أكثر الأزواج إليه اليوم ! . . . إنى لأعجب كيف لا يطالبون بصنعه وإحضاره مع « جهاز » كل عروس بدلا من « البار » الأمريكانى ، الذى لا يخلو منه أثاث فى

قران حديث ! . . .

فحملقت فيه بعينيها . . . وقالت :

– أتمزح ؟ . . . إنك لا شك تمزح ! . . .

– بالطبع ، خذى قولى على أنه مزاح . . . ما الفائدة ؟ ! . . . كل كلام غير قابل للتنفيذ هو بالضرورة نوع من المزاح ! . . .

فقالت ، وهى تضحك :

– وإذا كان هذا قابلا للتنفيذ ؟ . . .

– ما كان يقع فى غيبة زوجك الذى وقع ! . . .

قالها طبعاً فى سره ، ولزم الصمت ، فاستأنفت هى كلامها بغمزة من عينيها كلها مكر :

– أتحسب المرأة الحديثة من البلاهة ، بحيث لا تجد لذلك حلا إذا أرادت ؟ . . . ثق أنها قديرة على أن تجعل لهذا الحزام أو القيد جملة مفاتيح ! . . .

– إنى مصدقك ، والعلم الحديث والصناعة الحديثة كفيلان بمساعدة المرأة الحديثة فى ذلك ! . . .

فقالت ضاحكة :

– ليس للزوج المحترم عندئذ إلا أن يستبدل القفل والمفتاح بختم من الشمع الأحمر ، عليه توقيعه الكريم ؛ لتكمل المهزلة ! . .

– اطمئنى ! . . . لا أرى فى نية الرجال فى عصرنا الحاضر أن يقوموا بمهازل من هذا الطراز ! . . . ولقد نزلوا فيما أرى عن جميع الضمانات ، ولم يتركوا على نسائهم من رقيب غير ضمائرهن وحدها ، وأظن النتيجة مرضية جداً . . .

فنظرت إليه لحظة ، ثم قالت :

– لا أحب منك هذه السخرية ؛ كما لا أحب فيك عواطفك الجامدة ، ومشاعرك الرجعية . . . أخبرنى ! . . . مادمنا نتكلم بمثل

هذه الصراحة . . . لماذا تستنكر أن يكون للمرأة حريتها فى الحب ، وهو كل شيء فى حياتها ؟ . . .

– تقصدين حريتها فى حب من تشاء كما تهوى ؟ . . .

– شيئاً كهذا ! . . .

– لا لزوم بالضرورة للكلام من الناحية الأخلاقية ؛ فأنا لا أحب مطلقاً أن أعطى أحداً دروساً فى الأخلاق ! . . . فهى ثقيلة لا يحتملها أكثر الناس – وأنت منهم ولا شك – ولا أن أذكر الفضيلة والرذيلة ، والعفة والحياء ؛ فهى ألفاظ فقدت اليوم معناها ؛ ولم تعد تصلح إلا للاستخفاف والتندر فى المجالس والمجتمعات ! . . . ولكنى أقول لك باختصار :

– إن المرأة إذا كانت لم تتزوج بعد فهى حرة ، تحب من تشاء وتغازل من تشاء ، ولكن عليها أن تلتفت إلى هذا الأمر البسيط : وهو أن الذى يحطم قواعد المجتمع ، لا بد للمجتمع أن يحطمه ! . . .

– ثق أن مجتمعنا العصرى اليوم لا يحطم أحداً . . .

– تلك مسألة لا أتدخل فيها ، وهى متروكة لفطنة المرأة وحكمة المجتمع ؛ فإذا وجدت المرأة أو الفتاة أنها على الرغم من حريتها الكاملة وانطلاقها الجامح ، لا زال المجتمع يحتفظ لها بمكانها المحترم ، ويرشحها للزواج المرتجى ؛ فهذا وضع . . . وأما أنها ترى المجتمع قد أسقطها من قائمة « الفضليات » ، ونفر منها طلاب الزواج . . . وسلم لها بالحرية ، وحكم عليها بالتشرد ؛ فهذا وضع آخر . . . إن صاحب الأمر والنهى فى سلوك المرأة غير المتزوجة هو المجتمع وحده ! . . . إنه القيم عليها . . . لا أهلها ولا نصحاؤها . . . فهى قد تحررت اليوم – كما تقولين – من سيطرة كل إنسان ، ولن يحد من جموحها أحد غير حيطان المجتمع ، هى التى تصدها وتوقفها ؛ لترى مكانها بين الأمكنة . . . المجتمع هو الذى يتولى الآن سلطة الولاية ، وهو الذى

يمنح الثواب ويوقع العقاب ، ويشتد أو يتسامح ، ويدمغ المرأة أو الفتاة بطابع السمعة الطيبة والاسم الحسن ، أو يكتب على جبينها بأصبع صبغة الأحمر التى تخط بها شفتيها :

« إنى غير مسئول عن هذه ! . . . »

ـ تلك هى المرأة الطليقة . . . والمرأة المتزوجة ؟ . . .

ـ المرأة المتزوجة قد أبرمت عقداً ؛ كما قلت لك ، وقد تعهدت فيه بالحب لزوجها والوفاء له . . . ولا بد أن تفى بوعدها ! . . . المرأة اليوم تكثر من الكلام عن الحرية ! . . . إن الحرية الحقيقية هى فى احترام العقود لا فى الإخلال بها . . .

ـ ما من عقد ـ كما قلت لك ـ يستطيع أن يتحكم فى قلبى ومشاعرى ! . . . إنى أحب زوجى وقت العقد ، ولكن من يضمن لى أنى أقيم على حبه بعد ذلك ؟ . . . ما قيمة العقود التى تبنى على عواطف الإنسان المتغيرة ؟ . . .

ـ إذا تغيرت عواطفك فغيرى العقد ! . . . اذهبى إلى زوجك ، وقولى له بكل هدوء :

إن عواطفى قد اتجهت إلى شخص آخر ، ولم يعد فى استطاعتى القيام بتعهداتى فى الوفاء لك منذ اليوم ! . . . والأمانة تقتضينى أن أطلب إليك الطلاق ، ولقد حافظت على اسمك وشرفك حتى هذه اللحظة ! . . .

هذا ما يجب أن تفعله المرأة ، إذا وثقت من صدق عواطفها ، ولم تكن هازئة ولا مغامرة ولا ضعيفة عن صد شهوة عابرة . . . ولكن المرأة تريد أن تأخذ من الزوج اسمه وماله وبيته، لتجعل من ذلك كله إطاراً براقاً لخيانتها ! . . . إنها تريد أن تدخل الغش فى العش ، والتدليس فى العقد ، هذا العقد القائم فى الحقيقة على جهود من الطرفين . . . . الزوج عليه الكفاح فى سبيل اللقمة ، أو فى سبيل

رفاهية الزوجة ! . . . والزوجة عليها الكفاح – على الأقل – ضد نزعات نفسها ، ثم إنفاق موارد الزوج فى معاشهما المشترك ؛ فلماذا تريد الزوجة أن تختلس مال الزوج ؛ كى تتزين به لرجل آخر ؟ ! ... لماذا يشقى الزوج من أجل امرأة تخونه مع رجل لم يشق من أجلها ؟ . . . تهزئين بحزام العفة ، وبأولئك الفرسان النبلاء . ولا ترثين لهم وهم يذهبون لبذل أرواحهم فى الحروب دفاعاً عن بيوتهم وزوجاتهم ، ليعودوا فيجدوا هاته الزوجات قد بذلن عرضهن لمن لم يسفك من أجلهن قطرة دم ؟ ! . . . لماذا يحلو للزوجة دائماً أن تجعل من زوجها ثوراً ، يدور ويكد ويكدح فى ساقية الحياة ؛ ليروى ظمأ ملذاتها ! . .

– ياله من دفاع مجيد عن حقوق الزوج ! . . . .

قالتها باسمة ، وهى تشعل سيجارة ، فقال :

– بل دفاع عن حقوق الطرفين ! . . . .

– ولماذا لم تتكلم بهذه الحماسة عن خيانة الأزواج ؟ . . .

– إنى لم أبح للزوج أن يخون زوجته ! . . .

– وإذا خانها ، أليس لها الحق أن تخونه ؟ . . .

– لا ! . . .

– النغمة القديمة التى نسمعها من الرجال ! . . . تبيحون لأنفسكم ما تحرمون علينا لأنكم أنتم السادة ونحن الإماء ! . . .

– بل لأن الرجل هو الذى يعرق ، والمرأة هى التى تنفق ! . . . اكدحى كما يكدح زوجك واعرقى كما يعرق ، فإذا تساويتما فى التضحيات تساويتما فى الحقوق ! . . . لا أقول إن الرجل يجب أن يخون ، ولكنه إذا خان خان من ماله ! . . . ولكن الزوجة تخون من مال زوجها . . .

ثم هنالك شىء آخر . . . هو النسل . . . فالزوج يخون ، ولا يدخل على زوجته نسلا مدلساً . . . أما الزوجة فإذا خانت أدخلت على زوجها نسلا ليس من صلبه ! . . . لن تكون هنالك مساواة

مطلقة بينكن وبين الرجال فى هذا الإثم ، إلا إذا تطور الزمن تطوراً آخر ، فرأينا الزوجة تناضل فى الحياة ، وتكتسب بالقدر الذى يربحه الزوج ! . . . ثم يستطاع بواسطة العلم أو بغيره من الوسائل أن يفرز للزوج نسله عن نسل غيره بغير وقوع فى شك أو ارتياب ، إلى أن يتم ذلك ، فلا تتحدثن عن المساواة فى الخيانة ! . . .

ـ إذا حدث ذلك فلن تكون هنالك زوجية ، ولن يكون لها محل على الإطلاق ! . . .

ـ ولن يكون للخيانة عندكن لذة ولا طعم ؛ إذ لن يكون الزوج ضحيتها ! . . .

ـ يالك من خبيث ! . . .

لفظتها فى ضحكة ناعمة ، أخفت ما فيها من كلفة مرفوعة بينها وبينه فى الحديث للمرة الأولى ! . . . ولم يلحظ هو ذلك ؛ فقد رأى الوقت يمضى ولم ينجز بعد شيئاً من المهمة ، وبحث عن القلم والورقة بعينيه ، ثم قال لها بلهجة الجد :

ـ هلمى اكتبى ! . . . لقد تكلمنا بصراحة أكثر مما يجوز ! . . .

فلم تلتفت إلى القلم والورق ؛ بل نظرت إليه قائلة :

ـ على العكس ! . . . إنى فرحة بهذه الصراحة بيننا فى الكلام ! . . . إنى أشعر براحة كبرى ، وأنت تحادثنى بغير تحفظ ، وأحادثك بغير كلفة . . .

ـ إذن أريحينى أنا أيضاً ، واكتبى ! . . .

فتنبهت للأمر ، وصاحت :

ـ أكتب ماذا ؟ . . . أحقًّا تظن أنى امرأة خائنة ؟! . . .

فكتم نفاد صبره ، وقال :

ـ من قال لك إنى أظن ذلك ؟ ! . . . ليس من حقى أن أحكم عليك ولا لك ، ولكن واجبى أن أدعوك إلى تحقيق طلب زوجك

الذى لن يرجع فيه ، وإذا كان لك بى بعض الثقة فاعلمى أن ما رأيت من زوجك يقطع بأن أى حياة زوجية بينكما لم تعد ممكنة ! . . .

فتأملت قوله لحظة ، ثم قالت بنبرة إخلاص :

— ولكن ! . . . ولكنى لا أكره زوجى ! . . . إنى على الرغم من كل شىء أحمل له دائماً كل احترام ، وكثيراً من التقدير والمودة ! . . .

— ليس عندى شك فى ذلك ! . . .

— إنه يغالى ! . . . إنكم تبالغون فى النظر إلى ما وقع منى كأنها مأساة كبرى ، إنها لم تخرج عن كونها عواطف لا تضر أحداً ، كان من طيشى أن دونتها . . . ومن سوء طالعى أن وقعت فى يده . . . وهذه ليست أول حماقة تأتيها زوجة . . . إن من بين صديقاتى المتزوجات سيدة ولعت بالمقامرة إلى حد أنساها بيتها وزوجها وأولادها ، فهى ليل نهار مكبة على المائدة تلعب « البوكر الأمريكانى » ، وهو اليوم آخر بدعة فى السهرات ، مع أنه أخطر من « البكاراه » . . . وقد استنفد مالها ، وأضاعت كل ما وصل إلى كفها فى اللعب ، حتى باعت أوانى المنزل الفضية لتلعب بها ، وزوجها ينظر إلى كل هذا ويضرب كفاً على كف . . . ولكنه لم يفكر فى طلاق أو فراق ، وقد يكون عذرها وفهمها . . . وأدرك أن هذا أقوى من إرادتها . . . ولا بد أنه سامحها أو سيسامحها يوماً من الأيام . . . يجب أن يتسع صدر الزوج لهفوات الزوجة ، هبنى أخطأت ! . . . ألن يأتى اليوم الذى أندم فيه ؟ . . ألا تذكر « تاييس » ؟ . . . أنسيت أنك أعطيتنى يوماً كتاب « تاييس » ؛ لأطالعه ؟ . . . لقد طالعته وعلمت أن هذه المرأة التى قضت حياتها فى الدعارة قد انقلبت فى آخر حياتها قديسة ! . . . وقد غفر الله لها وقبل منها التوبة . . . لماذا لا يتاح لى أنا أيضاً الفرصة التى

أتبيحت « لتاييس » على الأقل ؟ . . .أجبني ولا تكن قاسيا علىّ ! . . . أرجوك ! . . .

فنظر إليها مفكراً فى الجواب ، ثم قال :

– « تاييس » لم تكن لها طفلة ، ولم يكن لها زوج . . . وثقى أن زوجك – على الرغم من كل شىء – يحترم فيك زوجته التى أعزها ووثق بها ، وأقسم أنه ما من مرة ذكرك أمامى ، وهو يروى لى قصتك إلا قال عنك « هذه السيدة » . . . ولم ينسب إليك أى وصف شقر ، حتى فى أشد ثورات غضبه ! . . . إنه رجل مهذب بكل ما فى هذه الكلمة من معان ، وهو زوج كامل حقًّا . . . لكن . . . كل ما فى الأمر أنه يرى – بصفته أبا لطفلة – أن من واجبه أن ينشئها نشأة أخرى ، على مبادئ غير مبادئك . . . وأظن هذا من حقه ؛ بل هو واجبه المحتم عليه أمام ابنته ، فمن هذا ترين أنك وأنت الزوجة لا تملكين أن تكونى مثل « تاييس » الطليقة . . .

فأطرقت برهة . . . ثم رفعت رأسها بقوة انتثر لها شعرها الجميل ، وجعلت تقول :

– هذا فظيع ، ذلك الذى أسمعه منك ، حتى التوبة لا تريدون أن تقبلوها منى ! . . . ولكن أنت المسئول منذ اليوم الأول . . .

ففتح « راهب الفكر » فاه دهشة ، وقال :

– أنا المسئول عن ماذا ؟ . . .

– إنى يوم جئتك هنا – منذ أكثر من عام – لم يكن ذلك للأدب ولا للكتب ؛ لأنى كنت فى أزمة نفسية شديدة ، لقد كان مضى على زواجى نحو سنتين . . . وبدأت أحس شيئاً من خيبة الأمل ... أو من الفتور الذى يعترى الحياة الزوجية . . . إنى كنت دائماً قبل الزواج فتاة ثائرة النفس محبة للحياة الدافقة الحارة . . . شديدة الفضول لكل جديد . . . أمقت الوتيرة الواحدة فى كل شىء : فى الحديث ، وفى

المعارف ، وفى المشاعر ، وحتى فى الحب ! . . إن الحياة كان معناها عندى الحركة ؛ لأن الموت هو الجمود . . . حركة العواطف الدائمة كحركة الجسم الدائمة ... تلك هى الحياة ، ولكن الزواج ليس إلا الجمود والركود فى صورة علاقة باردة بين خطيبين محبين انقلبا صديقين فاترين . لقد فسر لى هذا ما كنت أسمعه عن كثيرات ممن تزوجن زواجاً موفقاً حسدن عليه ، ومع ذلك كن يبحثن سرًّا عن خليل أو عشيق ، أو حتى عن مجرد صديق يشعرن بقربه أنهن مع رجل غير الزوج ! . . . إن الزوج لم يعد يوحى إلينا بأنه رجل . . . إنه يوحى إلينا باحترامه ومحبته ومودته والرحمة به . . . إنه كالأخ وابن العم والقريب العزيز . . . ولكنه ليس الرجل . . . أى ليس ذلك الشخص الغريب الذى يدفعنا الفضول إلى معرفته ، ويثير فينا لقاؤه تلك المشاعر الغامضة اللذيذة ، وينبه فينا غريزة حب التزين والفتنة وانتزاع الإعجاب . . . ذلك كان إحساسى بعد عام من الزواج . . . وكنت قد سمعت بك كثيراً من زوجى إطراء منه لكتاباتك . . . ففكرت فى لقائك وذهبت إليك كما تعلم . . . ولكن للأسف لم تفتح لى صدرك ونفسك ، ولم تأخذ بيدى فى أزمة قلبى . . . وتركتنى للعواصف والأنواء ! . . . إنك لم تفهم وكفى . . . ولم ترد أن تفهم ! . . .

فاختلج قلب « راهب الفكر » وأطرق حتى لا تلمح فى وجهه شيئاً ، ثم تماسك وأمسك بالقلم والورقة ، وقال :

ـ سامحينى يا سيدتى ! . . . هنالك أشياء سأعيش وأموت ولا أفهمها . . . والآن هل تتكرمين ؟ . . .

فنظرت إلى الورقة والقلم وهو يدنيهما منها ، وقالت بعد تردد :

ـ إنى . . . إنى لم أفقد كل أمل بعد . . .

قالتها ونهضت لتنصرف ، فقال لها فى قلق :

– ماذا أنت صانعة ؟ . . .

فأجابت فى ابتسامة مبهمة :

– لن أقول لك الآن . . . إذا خاب سلاحى الأخير فإنى سأحضر لأخبرك . . .

وانصرفت قبل أن تسمع منه جواباً ! . . .



المعركة

مضى يوم و « راهب الفكر » ينتظر صامتاً ، لا يدرى ما يفعل، وقد وضعته الزوجة فى هذا الموقف المحير ، ولكن انتظاره لم يطل، إذ ماجاء ظهر ذلك اليوم حتى دق جرس تليفونه ، وإذا هو الزوج يخاطبه بصوت الغاضب ، ويخبره أن الزوجة قد عرفت مكانه فى « حلوان » ، وأنها ذهبت إليه ضحى اليوم باكية ، فاستقبلها كما يستقبل سيدة أجنبية ما سبق له أن رآها . . . وأجلسها فى بهو الفندق بأدب ، ولم يتح لها أى فرصة للكلام فى أى موضوع خاص ، ولم يبد لها قط أنه فطن إلى دموعها ، أو حفل بها ، أو اهتم بسببها . . .

ثم استأذنها بعد أقل من دقيقة ، معتذراً لها بعمل يستوجب ذهابه، وانصرف تاركاً لها الفندق ... على ألا يعود إليه إلا ليأخذ أمتعته، ويقيم فى جهة أخرى مجهولة ، ولن يخبر بمقره الجديد أحداً حتى يصفى كل ما بينه وبينها . . .

ورجا صاحبه أن يسرع بكل الطرق إلى إنهاء هذا الموضوع بالحسنى قبل أن ينفد صبره فيلجأ إلى الوسائل الأخرى المعروفة ، مع ما فيها من صخب وعنف وسوء عاقبة ! .. وانتهت المحادثة بينهما ، ووضع « راهب الفكر » السماعة وهو متردد فيما يقدم عليه : أيطلبها كالمعتاد بالتليفون ، ويسألها الحضور ، أم ينتظر حضورها من تلقاء نفسها كما وعدت ؟ ! . . .

مما لا ريب فيه أنها آتية على كل حال ، ومجيئها على هذا النحو خير من طلبها : لأنها ستأتى لتتكلم هي ، لا لتصغي إلى ما يعرض عليها من مطالب ؛ فالأجدر به إذن أن يتركها حتى تأتى بقدمها ، كل ما يرجوه ألا تبطئ فى المجيء ، وهو يقدر أنها لن تبطئ بعد أن قوبلت تلك المقابلة الباردة الحاسمة من زوجها ، وقد صدق تقديره ؛ فما كاد الليل يجن حتى أقبلت . . . لكن على أى صورة ؟ ! . . . إنها لم تبد على حال كسيرة ، بل ظهرت براقة خلابة ؛ كقطعة من النور ، تتلألأ فى ظلام المساء ! . . . ودخلت عليه الحجرة تخطر فى ثوب حريرى ، يبدى محاسن جسمها ، وقد سبقها عطرها ؛ وكأنه يفتح لها عن بعد طريق الفتنة . . . يالقوة العطور ! . . . لكأن المرأة — فى هجومها للسيطرة على الأفئدة — عرفت من قديم كيف تلجأ إلى الحرب الكيميائية ! .. ولم تجلس فى مقعدها ، بل دنت من مكتبه وبادرته قائلة :

— أين القلم والورقة ؟ . .

فلم يستطع إخفاء ارتياحه ، وصاح :

— أتكتبين ؟ . . .

— نعم ! . . . أيدهشك هذا التسلم السريع ؟ . . .

— خاب سلاحك الأخير إذن ؟ ! . . .

— صدقت ، لم تعد أى حياة زوجية بينى وبينه ممكنة ! . . .

— رأيت بعينيك ؟ ! . . .

— كيف علمت ؟ . . . هو الذى أخبرك طبعاً أنى ذهبت إليه ! ...

— نعم ! . . . أخبرنى بكل شيء ! . . .

— نعم ! . . . لا فائدة . . . إنى منذ وقع نظرى عليه للوهلة الأولى أدركت أنى أمام رجل آخر ! . . . ليس هو زوجى الذى أعرفه . . . لقد أحسست عندئذ أن كل شيء قد انتهى . . . ومن الخير أن نطوى صفحة زواجنا بسلام ! . . . إنه رجل مهذب حقاً ولا أظنك سمعتنى

أشكو يوماً من خلقه ! . . . لقد رأيت منه اليوم أنه يؤذيه ويجرحه أن يحادثنى فى مثل هذا الموضوع . . . وأن كل ما يريد حقاً هو البعد عنى ، بغير إثارة كلام ! . . . فلا أقل من أن أريحه فى ذلك ، وألا أعارضه فى رغباته . . . أما الطفلة فإنى واثقة أنه لن يحرمنى رؤيتها وقتما أريد ؛ لأن فكرة تعذيبى لن تخطر ببال مثله ، مهما يكن الحال ؛ فليكن له ما أراد ! . . . وليذهب كل منا فى طريقه . . . أمل علىّ ما ينبغى أن أكتب ! . .

فأملى عليها الصيغة التى رآها تتفق مع مطالب الزوج ، ووقعت عليها بإمضائها ، وأخذ الورقة فطواها وحفظها فى ملف عنده ! . . . واستقرت هى فى مقعدها ، وأخرجت سيجارة من حقيبة يدها ، وقالت باسمة ، وهى تتنفس :

ـ الآن أنا حرة . . . أصنع ما أشاء ! . . .

ـ طبعاً ! . . .

ـ وأستطيع أن ألقى منذ الليلة من تحلو لى مقابلته ، وهآنذى قد تجملت كما ترى ؛ لأنى على موعد فى سهرة ستكون ولا شك لذيذة ممتعة ! . . .

ـ هنيئاً لك يا سيدتى . . .

قالها بنبرة لا يتبين منها مغزاها الحقيقى : أهو المجاملة ، أم السخرية أم الغيظ ! . . . ورفعت هى أهدابها ببطء ناظرة إليه ، كأنها تحاول أن تفسر معنى عبارته ، ولكنها لم تستطع ، فقد أطرق وتشاغل بترتيب الأوراق فوق مكتبه ، ومضت هى تقول :

ـ حقاً . . . ما أجمل الحرية ! . . . إنى كنت حمقاء إذ حاولت التشبث بزواجى هذا . . . لماذا لا أجرب حظى مرة أخرى ؟ . . . إنى صغيرة السن ، ولست فيما أظن قبيحة المنظر . . . ألا ترى ذلك ؟ . . .

فرفع رأسه ونظر إليها متسائلا :

ـ أرى ماذا ؟ . . .

فلم تتراجع ، وقالت بجرأة :

ـ ترى إذا كنت قبيحة أو جميلة ؟ ! . . .

فتمهل ثم قال دون أن يلتفت إليها :

ـ ألم يحدثك فى ذلك أحد بعد ؟ . . .

ـ كل الناس . . . إلا أنت . . .

فأخذ يعبث بأوراق مكتبه ، ويقول :

ـ يخيل إلى أنى أبديت فيك رأياً ! . . .

ـ نعم . . . فى حمقى ، وجهلى ، وطيشى ، وسوء تصرفى ! . . .

ـ لقد أبديت إذن رأيى ! . . .

ـ فى ذلك ، نعم ! . . . ولكن . . . ولكنك لم تقل لى مرة واحدة إنى جميلة ! . . .

ـ رأيى فى هذا لا يعتد به كثيراً . . .

ـ عندى أنا يعتد به كثيراً ! . . .

ـ أشكرك على هذا التقدير المبالغ فيه ! . . .

فنفخت دخان سيجارتها من فمها فى الهواء بحنق ، قائلة :

ـ أعوذ بالله منك . . . إنك فظيع . . . فظيع . . . هل تظن امرأة تستطيع أن تتحمل هذا ؟ . . . أتصدق إذا قلت لك إنك الرجل الوحيد ممن صادفت ، الذى لم يخاطبنى فى الحب . . . ولم يقل لى « أحبك » ! . . . إنى أحياناً أكاد أنفجر غيظاً منك ، ويخيل إلى أنك تهيننى وتجرح نفسى وتمس كرامتى . . . وأتمنى لو أستطيع يوماً أن أقتص منك . . . لماذا لم تحبنى ؟ . . . لماذا لم تعجب بى ؟ . . . لماذا أنت وحدك تعاملنى هكذا ؟ . . . ما الذى لم يعجبك فى شكلى وجسمى ؟ . . . لطالما ألقيت على نفسى هذه الأسئلة ووددت لو أظفر بجواب ! . . .

وأطرق « راهب الفكر » . . . ومضى يعبث بقلمه فوق ورقة ويرسم عليها رسوماً لا معنى لها . . . وربما كان ذلك ليخفى بعض خلجات مرت كالنسيم فوق شغاف قلبه . . . ولكنه قال لها دون أن يلتفت إليها :

ـ ما كان يجب أن تشغلى بالك بسخافات كهذه ! . . .

فنظرت إليه ملياً ؛ كأنها تفحصه فحصاً دقيقاً ، وقالت :

ـ لا أستطيع أن أصدقك . . . إن موقفك منى ليس طبيعياً . . . إنى لأعجب كيف تسمى سخفاً اهتمامى بك . . . إنك ولا شك تزدرينى . . . أعرف ذلك ولا أكابر فيه . . . ولكن . . . ولكن ذلك لا يمنع من أن تُسر على الأقل لشعورى نحوك . . . ربما كنت تخافنى أو تحسب أنى أحادثك اليوم هكذا لغرض آخر . . . خصوصاً فى ظروفى الحاضرة . . . ولك الحق فى هذا الظن . . . فالظواهر كلها تؤيده ! . . . لكن ثق أنه ما من غرض لى غير مصارحتك بكل ما يدور فى خاطرى ! . . . إذ من التعسف حقاً ألا نكون صريحين فى كل شىء ، وقد دخلت أنت فى شئونى الخاصة على هذا النحو ! . . . اطرح من رأسك إذن أى غاية أخرى لى فيك ! . . . لن أفكر فى الزواج منك مطلقاً ! . . . إنى أعلم أنك لن تتزوج بمثلى أبداً ! . . . أليس كذلك ؟ . . . ألم أعبر عن الحقيقة ؟! . . . تكلم ! . . .

ـ الزواج منك شرف لا أستحقه . . .

ـ أف ! . . . لا تكن قاسياً فى التهكم بهذا المقدار ! . . . أخبرنى لماذا لا تكون الآن باسماً صافى النفس معى ، بعد أن رضخت لك ، ووقعت الورقة عن طيب خاطر ؟ . . . إلا إذا كنت أنت أيضاً تريد أن تقطع بى كل صلة أسوة بزوجى ! . . . وهو موقف يخرجك عن حيادك العادل . . . صارحنى بحقيقة موقفك منى ؟ . . .

ـ ثق أنى لن أخرج على موقف الحياد أبداً ! . . .

ـ إذن خاطبنى بلهجة الصداقة ، التى لا شك أنك تخاطب بها زوجى .

ـ ليس هنالك ما يدعونى إلى مخاطبتك بلهجة العداوة ! . . .

فامتعضت لهذا الجواب الجاف ! . . . ولكنها مضت فى حديثها اللين :

ـ فلنتحدث إذن كأصدقاء ، سأكشف لك عن كل خوالجى ، أتدرى ماهو نوع الزوج الذى أحلم به ؟ . . . هو نوع ليس من طراز زوجى ولا من طرازك ! . . . إن السعادة الزوجية لا يمكن أن تتوافر لامرأة فى عصرنا الحديث ، إلا مع زوج باهت الشخصية ، قليل الذكاء . . . لقد خبرت ذلك بنفسى ، وأحصيت بين كل معارفى عدد السعيدات الناعمات ، فى بحبوحة الحرية ، المتمتعات بالراحة العائلية ؛ فإذا هن المتزوجات برجال من ذلك الصنف المتوسط فى مواهبه ، المتواضع فى مداركه ! . . . إن غلطتى الكبرى هى أنى فى نوع لا يصلح لامرأة مثلى . . . ألست معى فى هذا الرأى ؟ ! . .

ـ إنى من رأيك ! . . .

ـ وأنت هل تسمح لى أن أسألك عن الطراز الذى يعجبك من المرأة ؟ . . .

ـ قليلة الذكاء ، باهتة الشخصية ! . . .

فضحكت بملء فيها ، حتى بدا لؤلؤ أسنانها يبرق فى ضوء الليل الشاحب ؛ فقد كانت الحجرة لا يضيئها وقتئذ غير مصباح المكتب الكهربائى ، ورمته بنظرة سحرها لا يقاوم ! . . . ومضت قائلة :

ـ وتربيتها رجعية ؟ . . .

ـ مثلى ! . . .

ـ وشكلها ؟ . . . حسناء ؟ . . .

– مثلك ! . . .

ألقاها فى نغمة لا يعرف فيها جدها من هزلها ! . . . وحاولت هى أن تكشف مراده لحظة ؛ ثم قالت :

– آه . . . لو لم أكن واثقة من أنك تسخر ؛ لعددت هذا أول اعتراف منك بأنى حسناء ! . . .

– وماذا يقدم هذا أو يؤخر ؟ ! . . .

فقالت بصوت مبتهج حلو :

– إنه كسب عظيم لى . . . لقد ظفرت على الأقل بإعجابك فى شيء ما ! . . .

– لا تبالغى يا سيدتى ! . .

فأخفت امتعاضها قائلة :

– « ياسيدتى » ! . . . دائماً « ياسيدتى » بعد كل هذه المعرفة ، وكل هذه الصلة ، مازلت تدعونى « ياسيدتى » ! . . . متى إذن تقول لى « يا صديقتى » ؟ . . .

– « صديقتى » ؟ ! . . .

لفظها من فم بارد فاتر ، ولكن وقعها هبط فى مكان حار من قلبه وذاكرته . . . وتذكر رسائله وكراستها ، وكيف وردت هذه « الكلمة » فيما كتب هو ، وفيما كتبت هى . . . وكيف عاشت هذه « الكلمة » حياتين مختلفتين ؟ . . . إحداهما فى سحبه ، والأخرى فى أديمها ، فهز رأسه استهزاء بهذه « الكلمة » ، وبنفسه ، وبالجميلة التى بجواره . . . ولزم الصمت ، وطال انتظارها لكلامه عبثاً ، فقطعت هى صمته قائلة ، بصوتها الناعم :

– تستكثر علىّ صداقتك أيها البخيل ، وأنا التى كانت تنتظر أكثر من ذلك ! . .

– ماذا كنت تنتظرين أكثر من ذلك ؟ . . .

ــ أن أكون لك على الأقل مثلما كانت « تاييس » للراهب « بافنوس » ! . . .

ــ تاييس ؟ ! . . .

ــ لا أظنك نسيت أنه الكتاب الذى وضعته أنت فى يدى ، يوم لقيتك هاهنا لأول مرة . ثق أنى قرأته بإمعان كلمة كلمة ، ورأيت كيف استطاعت « تاييس » أن تخلب لب الراهب ، وتجعله يخلع مسوحه ، ويهجر صومعته ، ويجرى فى أثرها كالمجنون . . . إنها هى استطاعت ذلك . . . أما أنا ؟ . . . ومع ذلك فلقد طالما سألت نفسى :

ــ لماذا جعلتنى أطالع هذا الكتاب بالذات ؟ . . .

وصوبت إليه عينين أرغمتاه على الإطراق . . . ولو كان هذا السؤال مفاجئاً لما تمكن من إخفاء اضطرابه . . . ولكن جنوحها بالحديث نحو هذه الصخور ، كان قد بدرت بوادره منذ حضورها الليلة . . . فلم يبد على وجهه تغير . . . وقال مالكاً زمام نفسه :

ــ جعلتك تطالعينه لتعتبرى بنهاية تلك الغانية ! . . .

فقالت ضاحكة ضحكتها الناعمة :

ــ إنى اعتبرت ببدايتها . . .

ــ لست أنا المسئول إذن عن اختيارك ! . . .

ــ أو كنت تريد منى أن أكره بدايتها الباسمة ، وأحب نهايتها القاتمة ؟ ! . . .

ــ نهايتها ليست قاتمة ، بل مضيئة بنور الفضيلة ! . . . لقد كان جسمها محاطاً بالدنس ، ولكن روحها كانت مرتفعة طاهرة ؛ كالزهرة البيضاء الناهضة بساقها فوق الطين ! . . .

ــ عجباً لك ! . . . هذه تعرف كيف تلتمس لها الأعذار ، مع أنها كانت فى نظر الناس ساقطة ! . . .

ــ لا أهمية لذلك ... إن الساقطة تكون أحياناً فى رذيلتها ومباذلها

أمام الناس ، ولكنها فى فضيلتها وطهارتها أمام الله ! . . . والحرة أحياناً تكون فى رذيلتها ومباذلها أمام الله ، وفى فضيلتها وطهارتها أمام الناس ! ... « تاييس » كانت نقية أمام الله ، وهكذا حدثت لها الأعجوبة ، وانقلبت تلك التى كانت ساقطة فى نظر الجميع ، قديسة تفتح لها أبواب السماء ! . . .

– ولكن الراهب « بافنوس » لم يحب فيها القديسة ؛ بل أحب المرأة ! . . .

– نعم . . . مع الأسف ! . . .

– ما من رجل يحب فى المرأة غير المرأة ! . . .

– هذا صحيح ، ولكن ذلك الراهب حقت عليه اللعنة ، وفقد السماء إلى الأبد ؛ فقد سماءه التى أنفق حياته كلها يتطلع إليها ! . . . إن لكن راهب سماءه ! . . .

– أراك أنت قد اعتبرت جيداً بنهاية الراهب ! . . .

– هل أحسن صنعاً ؟ . . .

– لا ! . . .

قالتها بشىء من التحدى . . . فهز كتفيه ، وقال لها :

– هذا رأيك أنت ، وماذا كان ينتظر من مثلك ؟

– كان ينتظر من مثلى أن تنصحك ، وأن تصارحك بالحقيقة وتقول لك : إن كل من يرفض الحب – عندما يأتى – هو ذلك الذى حلت عليه الخيبة ! . . . مضى عهد القديسين والأولياء الصالحين ! . . . اخرج معى الآن إلى المجتمع الحاضر ؛ لتعرف فى أى عصر تعيش ! . . . إنه ليدهشنى من رجل مفكر مثلك أنه مازال يحيا مع شبح الأفكار الميتة ، وخرافات الكتب القديمة ! . . .

– أعيش مع الشىء الباقى . . . إن الأفكار لا تموت ! . . .

فضحكت وقالت :

– بل لا شيء يموت مثل الأفكار ؛ إن لكل جيل أفكاره كما أن لكل عصر ثيابه . . . إن الأفكار كورق الأشجار تتساقط فى كل خريف ! . . . أين هى الأفكار التى كانت حية منذ ألف عام ؛ بل منذ مائة ؛ بل منذ خمسين ؟! . . . ولكن القبلة هى القبلة . . . لم تفقد حرارتها منذ ألف ألف عام . . . بل منذ خلق الإنسان ؟ ! . . . والعناق هو العناق ، ما زال يثير فى الجسم والنفس عين الإحساس منذ مبدإ الأجيال . . . !

– تقارنين الكتب والأفكار بالقبل والعناق ؟ ! . . . يا لها من مقارنة جميلة ! . . .

فابتسمت ابتسامة خلابة ، وقالت :

– ترى أيها الرابح فى نظرك بهذه المقارنة ؟! . . . .

– لا محل فى نظرى للمقارنة على الإطلاق ! . . .

– لسبب بسيط ، وهو أنك تجهل ما هى القبلة ؟ . . .

– وهل خسرت بهذا الجهل شيئاً كبيراً ؟ ! . . . .

– خسرت كل شيء ! . .

– ياللطامة الكبرى ! . . .

قالها فى نبرة استهزاء . . . ولكنها مضت تقول بجد :

– هى بالفعل طامة كبرى . . . لقد كنت مثلك إلى وقت قريب ، أحسب القبلة – وضع الشفاه على الشفاه – رمزاً للحب ! . . . أو معنى للوفاء ! . . . لا . . . إنها ليست رمزاً ولا معنى . . . إنها مادة حية بذاتها ، مجردة من كل معنى وكل رمز ! . . . لا شيء حقًّا يفسد حيوية المادة غير تلك المعانى أو الرموز ، التى نلقيها عليها ونكتم بها أنفاسها . . . المادة هى المادة بحرارتها المنبعثة من داخلها ؛ لا من المعانى التى تسبغ عليها ! . .

مصيبتك – وصدقنى فيما أقول – مصيبتك الكبرى هى أنك ترى فى القبلة مادة باهتة ، مختنقة تحت غطاء معنى من المعانى . . .



إنى فى زواجى كنت أجد القبلة هكذا . . . ويوم وجدت من كشف لى هذا الغطاء عنها ، أحسست كأن ستاراً قد رفع أمامى عن جنات من الإحساسات واللذات ، لم أر لها نظيراً ولا شبيهاً ، لا فى عالم الخيال ولا فى دنيا الأحلام ! . . . إن تصورات المخيلة الذهنية لا تستطيع أن تطرق باب المشاعر الجسدية ، ولا أن تحيط بها إلا كما يحيط الهواء الخارجى بجدران إناء مختوم ! . . . لعل هذا يفسر لك لماذا كتبت كراستى ؟ . . . إنه كان طيشاً منى حقًّا . . . ولكنى لم أستطع مقاومة تلك الرغبة فى أن أسجل تلك اللحظات الأولى لمشاعرى الجديدة المستيقظة . . . لقد شعرت — وأنا أصفها على الورق — كأنى أعيشها مرة أخرى ومرات ! . . . ولقد أردت فعلا أن أعيشها مرة أخرى ومرات . . ثق أيها الصديق أن الدنيا كلها بأفكارها ، وفضائلها ، ورذائلها ، وعقائدها ، ومثلها العليا ومطامعها العظمى ؛ كل ذلك يذوب فى لحظة واحدة . . . فى حرارة قبلة حقيقية ! . . .

كانت تقول ذلك ، وشفتاها الرطبتان تهتزان ؛ كأنهما كرزتان توأمتان يهزهما النسيم فوق شجرة ، واختلس « راهب الفكر » إليها النظر : ورأى ذلك الجمال كله ، وتأمل هاتين الكرزتين وما يمكن أن يكون فيهما من عسل . . . وذلك البدن البض الغض اللدن ، وما يمكن أن يحدث لمسه من أثر . . . لقد صدقت . . . إن جسمها الذى أمامه لم يكن عنده أكثر من جدار يضع عليه صوراً من اختراع خياله ، ومعانى من ابتكار ذهنه ! . . . أما الجدار ذاته فلم يلمسه ولم يعرف ما وراءه ؟ . . . كيف استطاعت هى أن تقول هذا القول الصائب ؟ . . . حقًّا . . . إن رءوسنا بما تفرز من معان تغلف بها المادة ، لتقصينا بدون أن نشعر عن لمس حقائق الأشياء ! . . . إنها المبارزة الدائمة بين المعنى والمبنى ، والفكر والجسد ، والروح والمادة ، كل منهما يريد أن يحجب الآخر ، فلا تبصر منه غير ظلال شاحبة ؛

فالفكر إذا طغى يفسر لنا الجسد بمعانيه ، والمادة إذا طغت تفسر لنا الروح برسائلها ! . . . لا . . . لا شيء يفسر المادة غير المادة ، ولا يكشف عن الروح غير الروح ! . . . لا بد أن يلتحم صدر بصدر ، وتلتصق شفة بشفة ؛ حتى يخرج من ذلك الاحتكاك قبس من شعور خاص ، هو وحده الذى يرينا ما لا يستطيع الفكر المجرد أن يتخيل ! . . . إنها على حق ، وإنه ليغالى فى تقدير الفكر ! . . . وما هو سوى عين واحدة من عينى كياننا المطل على الحقيقة ! . . .

إذن لماذا أغمض العين الأخرى ، ولم يستخدم الجسد كما استخدم الفكر ، أداة للمعرفة ؟ . . . ليس يدرى . . . إنه فى علاقاته الجنسية — كما فى طعامه وشرابه — لم يكن يتناول غير القدر اللازم لخدمة فكره . . . إنه لم يخطر له أن يجعل من تلك المآكل وليمة شهية ، ينقض عليها بأنيابه ، ويلتذها لذاتها ، ويحس كأن حلقه ينعم بمرور الطعام الفاخر فيه . وملامسته له ! . . . وكأن غشاء المعدة مرتاح بلذة الامتلاء ، والبطن سعيد بذلك الضغط الخفيف اللطيف على جدرانه اللينة ! . . . إن كل جزء من جسمنا ، وكل عضو من أعضائنا ؛ — هو مخلوق حى ، له سعادته الخاصة به ، وهى سعادة بعيدة عن كل خيال ذهنى ! . . .

وكما أن الأسنان تسعد وتنتعش وتقوى ، إذا قضمنا بها تفاحة ، كذلك كل طرف من أطرافنا يسعد بالقضم أو اللمس أو العناق . . . حتى أصابعنا تنتعش إذا لمست جسما ناعماً جميلا . . . ولكن « راهب الفكر » لم يعط لأصابعه غير لذة لمس الكتب وإخراجها من خزائنها فى ظلام الليل ! . . . كل شيء فى جسمه قد سخره لخدمة ذهنه ! . . . ذلك الساحر الدجال الذى لم يصنع شيئاً لأعضاء الجسم المستعبدة ، غير أن لفق لها لذات وهمية . . . ونظر « راهب الفكر » إلى أصابعه نظرة إشفاق ، وكأنه يقول لها :

« صبراً . . . صبراً على خداع ذلك الذهن الساحر ! . . . »

وكأنها ترد عليه قائلة :

« إلى متى هذه السخرية ! . . . نريد أن نلمس شيئاً آخر غير الكتب ! . . . »

يالها من فتنة تستيقظ على مهل ! . . . إنها بوادر الثورة تهمس من كل طرف من أطراف بدنه . . . وإنه ليتمثل تلك اللحظة التى تهب فيها كل شعرة من شعراته صائحة : « فليسقط الفكر » ، وإذا كان الراهب « بافنوس » ، لم يصمد لهذه الثورة بإيمانه المتأصل العريق ، فطرح الإيمان ؛ أفيستطيع هو الصمود بالفكر ؟ . . . والفكر ليس صلباً كالإيمان ! . . .

فالإيمان قاطع ؛ لا يحتمل الشك ولا يقبل المناقشة والجدل ! . . ولكن الشك هو نافذة الفكر ، التى تجدد دمه بهواء المناقشة والجدل ! . . .

إن إيمان « بافنوس » حماه وذاد عنه حتى اللحظة الأخيرة ! . . . ولكن الفكر ، باتجاهاته ، وتأملاته ، وآرائه ، وشكوكه ؛ سيحاور الثوار ، ويفاوضهم من اللحظة الأولى ! . . . وقد ينتهى به الأمر إلى الانضمام إلى ثورتهم ، والتماس الأعذار لها ، واختراع الحجج لتبريرها ! . . . وقد يتزعمها ، ويقوم على رأسها ، ويسعى فى تنظيمها ! . . إذا حدث هذا فلا بأس ، ولكن من ذا يتنبأ بمصير ثورة ؟ . . . إن نار الثورة تأكل فيما تأكل زعماءها . . . إنها عقاب الطبيعة لكل طغيان ؛ حتى وإن كان الفكر والإيمان ! . . . إن ثورة الأعصاء إذا شبت حقاً فهى لن تقف فى جموحها أمام الفكر : وهو ساحرها القديم ، وسيدها العظيم ! . . . إنها ستجتاحه فيما تجتاح ، حتى وإن ليس لها ثياب الذلة ، ولوح لها براية التسليم ! . . . وهكذا مضى « راهب الفكر » فى تصور هذه الثورة ، وما تسفر عنه ، وخيل إليه أنه غرق فى لجتها وانتهى الأمر . . . ونسى أنه لم يزل فى منطقة المعانى الفكرية ، على الرغم من نقده لها ، وشكه فيها ، وأنه لم يزل خاضعاً لإفرازات الرأس

وحدها . . .

ولبثت هى ترمقه فى صمت ؛ وكأنها أدركت ــ بغريزة الأنثى فيها ــ ما يجول فى خاطره ، وقرأت بعين خفية تلك اللغة الخفية التى لا يفهمها غير الأنسجة والخلايا ! . . . ولعلها رأت فى وجهه وقتئذ ؛ لا ملامح الراهب المستنكر ؛ بل ملامح المفكر المتشكك . . . ! إنها تراه فى أقرب أوقاته إلى التخاذل والتساهل ! . . .

فانطلقت تقول :

ــ نعم ! . . . إنى لا أعرف أى نوع من النساء قابلت فى حياتك ! . . إنك لم تخبرنى بذلك بعد ! . . . ولكنى أؤكد لك أنك لم تصادف امرأة استطاعت أن تسيطر بجسدها عليك وعلى جسدك ! . . .

فنظر إليها نظرة اطمأنت إليها . . . وشجعتها على المضى فى كلامها ، فمضت تقول :

تلك التى تغمرك بقبلاتها ، فتحس كأن كل ذرة من ذراتك قد شربت وارتوت . . .

فلم يجب ، فمضت تقول :

تلك التى تشعرك بأنها جوعى ، وأنها تريد لو تضعك فى جوفها بلحمك وعظمك . . . إنى لأتخيلك مع هذه المرأة . . . وقد عرفت كيف تثير فيك جوع الذئاب ، وأتصور أسنانك هذه وهى تضغط على لحمها الطرى ! . . إنك ستكون مخيفاً ، رائعاً لذيذاً فى نفس الوقت ! . . . وإنى لواثقة من ذلك . . . وأعرف ما سيحدث كأنه حقيقة وقعت ! . . .

ولزم هو صمته ، ولم تكن هى فى حاجة إلى كلامه ، فقد أفصحت نظراته بكل شىء ، إنه فى تلك اللحظة كان أشبه الأشياء بسفينة عظمى ، وقفت فيها المحركات ، وقد أخذ بزمامها قارب صغير ، يقودها إلى داخل الميناء . . . إنها أدركت منه وقتئذ أنه يدخل

وئيداً وئيداً ميناء نفوذها ، فابتسمت له ابتسامة ظفر أو إغراء أو ابتهاج . . . أو كلها مجتمعة ، لا أحد يدرى . . . كل ما كانت تعلم — عند ذاك — هو أنها قد أفلحت فى استدراجه إلى ميدانها ! . . . هاهنا ، حيث أسلحة الغريزة تبيها ، فى إمكانها أن تقهره ! . . . أما أن تذهب إليه فى ميدانه ، حيث يعتصم بحصون الفكر ، والكتب والأدب ؛ فقد باءت بالخيبة منذ الجولة الأولى ، وضحكت ضحكاتها الناعمة ، وأخذت فى حديث تافه ، وجذبت بحركة طبيعية لا تكلف فيها ولا إغراق ، طرف ثوبها فكشف عن أعلى ساقيها وحدجته بنظرة ناعسة من خلال أهدابها الطويلة علمت منها أن الدم قد صعد فى رأسه ! . . . نعم . . . لقد حدث ذلك حقًّا . . . لقد رفع الثوار راية العصيان . ! . . وبهذا صعد الدم الأحمر فى الرأس ! . . . إن الفكر الآن محاصر ، والدم حوله فى كل مكان . . . والحواس والخلايا ، والذرات والأعضاء ؛ — هى الآن صاحبة السلطان !. . .

وعندئذ نهضت كالغزال رشيقة خفيفة ، ونظرت فى ساعتها الصغيرة فى معصمها ، وقالت :

— أوه . . . لقد تأخرت عن موعدى ! . . .

ومدت يدها الرقيقة الملساء إليه تحييه . . . وضغطت على يده . . . فتناول هو يدها ولم يتركها ، وقال لها كمن يصحو من نوم :

— موعدك ؟ . . .

فقالت بابتسامتها الخلابة ، وهى ترميه بتلك النظرة التى لا تقاوم :

— ألم أقل لك — عند مجيئى — إنى على موعد فى سهرة لذيذة ممتعة ؟ ! . . .

— مع رجل ؟ ! . . .

— طبعاً . . . ومع من إذن ؟ . . .

قالتها بضحكة قصيرة لطيفة ، فترك يدها ، وقال متصنعاً عدم

الاكتراث :

ـ اذهبي إذن ! . . .

فقالت بجنو :

ـ أيسوؤك هذا ؟ . . .

ـ أنت حرة فى تصرفاتك ، لقد قلت إنك تريدين أن تنطلقى حرة تفعلين ما تشائين . . . اذهبي إذن وافعلى ماشئت ، وألقى بنفسك فى أحضان كل رجل ! . . . اذهبي ! . . . اذهبي . . . وألقى بجسمك بين ذراعى أى رجل ! . . .

فرنت إليه لحظة ، ثم قالت بدلال :

ـ أراك قد غرت ! . . .

ـ أنا ؟ . . .

ـ إنى لست طفلة حتى أجهل الغيرة ! . . .

ـ اذهبي . . . لا أريد أن أراك ! ... لقد تم كل ما بينى وبينك، ولم يبق ما يدعو إلى وجودك معى ، اذهبي إلى موعدك ، وإلى سهرتك اللذيذة الممتعة ! . . .

ـ إنى ذاهبة . . . ولكن ألا تريد أن تعرف مع من هذه السهرة ؟ . . .

ـ لا ضرورة لأن أعرف ! . . .

ـ هو رجل تعرفه ! . . .

ـ هذا لا يعنينى ! . . .

ـ إنه رجل ظريف جداً ! . . . أأخبرك باسمه ؟ . . .

ـ لا ! . . .

ـ سأقول ! . . . !

ـ لا أريد أن أسمع . . .

ـ أكتبه لك إذن . . . أعطنى قلما وورقة ! . . .

ولم تنتظر . . . بل أسرعت ودنت من مقعده ، وأخذت تنبش

أوراق المكتب بدلالها ، واستخرجت منها ورقة بيضاء ، وتناولت القلم ، وجلست بإحدى فخذيها على ساعد المقعد ، فالتصق جسمها بجسمه ، وانحنت برأسها لتكتب فانحدرت بعض خصلاتها المعطرة على جبينه . . . ثم تحركت فأحس أحد نهديها ، يلامس خده ، ويكاد من ضغطه الرقيق ينبعج بلطف ورقة ، كما تنبعج كرة المطاط لضغط أصابع اليد ، وشم رائحتها تملأ أنفه ؛ رائحة جسم الأنثى ممتزجة بعطورها ! . . . إن لعرق المرأة وأنفاسها من الرائحة الذكية أحياناً ، ما يزرى بأى عطر مصنوع ؛ فهى رائحة طبيعية فى المرأة كما فى الزهرة . . ولكنها لا توجد فى كل النساء ؛ كما أن الشذا الطيب لا يوجد فى كل الأزهار ! . . . وإن فيها لسراً تعرفه الطبيعة ، ولا تعرفه الصناعة ، هو الذى يجعل فى تلك الرائحة الطبيعية إغراء جنسياً لا يقهر . . ولم يستطع « راهب الفكر » أن يميز رأسه من قدمه ؛ فقد أمسى شيئاً ليس له زمام . . . ولم يفطن حتى إلى معنى كلماتها وهى تمازحه ، ولكن أذنه منتشية بحلاوة صوتها ، ولم يبد اهتماماً بكلماتها التى تخطها فوق الورق ، ولكن عينه تلتهم تلك اليد الرخصة البضة ! . . .

إنه لم يعد إنساناً مفكراً أو قابلا للتفكير ، فى أى صورة من صوره ، لا النافع منه ولا التافه ، إنما هو كتلة لحم ودم وأعصاب بغير قياد ! ! . . . وكان الليل ساجياً جميلا . . . والضوء القليل المنبعث من مصباح مكتبه ، يلقى أشعته الهادئة على وجه تلك الفاتنة ، وخصلات شعرها المنثور ، ونحرها وصدرها ؛ فيبدو كأن كل ذلك فيها يتحرك ويلعب بفعل الظلال والنور ! . . . ولبث هو بين كل هذا هادئ المظهر ! . . . ولكنه فى داخله يهتز كالمرجل . . . بل إنه كان فى هدوئه الخارجى ، وعنفه الداخلى ؛ كالقنبلة التى تنفجر فى ساعة معينة ! . . لقد كان يحس أنه لا بد من انفجاره . . . ولكنه لم يكن يدرى متى على وجه التحقيق ؟ . . . مجموعة أعصابه هى التى ستبت فى ذلك ! . . . كل

ما يعى هو أنه لم يزل فى نفسه منطقة تقاوم ؛ لتؤخر تلك اللحظة التى يجد فيها ذراعيه قد انطلقتا من تلقاء نفسيهما ، تطوقان هذه المرأة ليقطعها فمه تقبيلا ! . . . ولكن على الرغم من هذا السكون الذى يسبق العاصفة . . . فقد أدركت هذه المرأة كل شىء . . وفطنت إلى ما به ! . . . وشعرت بما فى أفق نفسه ؛ كأنها طير من طيور البحر التى تحس بغريزتها الزوابع قبل وقوعها . . .

بل لقد رأت منه هذه المرأة — فى صمته وسكونه وجموده — شيئاً واهياً ؛ كتمثال من رمال ، يتداعى إذا لمس لمسة أخرى من أناملها ! . . وعندئذ لم تتردد ، ومالت نحوه بجسمها ، حتى أحس ثديها الطرى كالفاكهة الناضجة يكاد يبلغ فمه . . . وأدنت رأسها من رأسه ، وجعلت أنفاسها الحارة تلهب وجهه . . . وهمست فى أذنه كنسيم الربيع بدفئه الرطب المنعش ، وهى تريه ما خطت يدها على الورق :

— « حبيبى الذى بينى وبينه الموعد هو : أنت » .

فى تلك اللحظة كانت يده قد امتدت بدون أمر منه تريد خصر الفاتنة ، وشفتاه بدون أن تطيعاه قد تحركتا تبحثان عن . . .

وإذا . . . وإذا جرس التليفون يرن ؛ كأنه الرعد الصاخب فى فضاء الحجرة . . .

وهنا . . . وهنا انتفضا انتفاضة فصلت بينهما ... وأسرع هو إلى السماعة فتناولها . . . وإذا هو الزوج يخاطبه بصوت يتهدج قائلا :

— البقية فى حياتك ... ابن خالى توفى اليوم .. انطلقت فيه رصاصة طائشة وهو ينظف مسدسه . . . أنا الآن فى « جراند أوتيل » ! . . . فى « حلوان » . . . لإجراء اللازم نحو إخراجه ، وتشييع الجنازة ! . . . »

وانتهت المحادثة . ووضع « راهب الفكر » السماعة ، وقد تبدد كل ما كان فى نفسه وجسمه . . . وعاد إليه فكره يقود خطواته — ونسى الزوجة . . . ولم يذكر إلا الزوج ومصابه بابن خاله . . . ورأى

الواجب عليه أن يذهب إليه فوراً فى « حلوان » ؛ ليكون إلى جانبه وفى عونه ؛ فهو قد بلغه فى تلك الساعة بالمصاب ، وأخبره بمكانه ليدعوه بلطف إلى لقائه ... ونظر « راهب الفكر » إلى ساعة المكتب الصغيرة ، فإذا هى العاشرة والنصف ، فأسرع إلى حجرته الداخلية ؛ ليتأهب للخروج ، ورأى الزوجة واقفة تنظر إليه متسائلة عن الخبر الذى قلبه هكذا فى لحظة ، فقال لها بصوت أجش ولهجة سريعة :

— ابن خال زوجك توفى ! . . .

— توفى ؟ ! . . .

ولم يلتفت إليها . . . ويمم شطر باب الحجرة ، وهو يقول لها مع إشارة من يده :

— إنى خارج ! . . . وداعاً ياسيدتى ! . . .

فعلمت أنه لم تعد هنالك فائدة . . . وتركها ماضياً لشأنه وهو يخاطب نفسه هامساً :

— مات الرجل ! ... لعنة الله على النساء ! ... لعنة الله على النساء ! . . .



الخاتمة

في ضحى اليوم التالي كانت جنازة « البكباشي » ابن خال الزوج تسير في موكبها العسكري إلى المقبرة ! . . . وقد وضعوا نعشه فوق عربة مدفع ، ملفوفاً في العلم الأخضر ، وسارت جنود فرقته ، على جانبي الطريق ، ببنادقهم منكسة ! . . . ووقع خطواتهم على الأسفلت يحدث صوتاً منظوماً متزناً ، في ذلك الصمت الرهيب ! . . . وكان يقطع الصمت بين آن وآن نغمات موسيقى الجيش ، تعزف لحن « شوبان » المحزن ! . . . ثم تصمت هي أيضاً ؛ لتدع دقات الطبل وحدها تلقى في النفس روعة كئيبة ، وتغمر الموكب كله في جو مهيب !... وكان « راهب الفكر » بين المشيعين ، يمشي مطرقاً في أحد الصفوف ، ورأسه نهب لأفكار شتى ! . . . إن الناس حوله يعتقدون — ولا شك — أن الفقيد مات قضاء وقدراً ؛ لأنهم يجهلون ظروفه الداخلية ، ولكنه هو يكاد يوقن أنه انتحر بذلك المسدس » ! . . .

لقد أدرك ذلك منذ أن تلقى نعيه البارحة ! . . . إن الزوج لم يقطع له برأى حتى الساعة ؛ فقد كان مشغولا بإجراءات الدفن ، ولكنه أخبره أنه عاد إلى الفندق أمس ؛ ليأخذ أمتعته ، ويرى ابن خاله ويفضي إليه بما اعتزمه ، فوجده في حجرته يفحص مسدساً له . . . فارتاع لهذا المنظر ، وخامره منه شيء ! . . . ولكن ابن خاله طمأنه قائلا : إنه يتسلى بتنظيف مسدسه ، وهذا أسهل من تنظيف

شرفه . . . ومزح معه لأول مرة منذ وقع في أزمته الأخيرة ! . . . وكان هادئ المظهر ، هدوءاً يبدد كل قلق أو ريبة ، فتركه مؤقتا ، وذهب إلى حجرته يعد حقائبه ، وإذا طلق ناري يدوى في الفندق كله . . . فحدثته في الحال نفسه بالكارثة ، وهرع إلى حجرة ابن خاله فألفاه صريعاً ! . . .

وهو لا يستطيع أن يقرر أكثر مما رآى ، ولكنه ختم قوله لراهب الفكر بنظرة ذات مغزى ، علم منها أنه يوقن مثله في دخيلته بأن هذا التعس قد انتحر ، ولكنه لا يحب أن يفهم أحد ذلك . . . ربما كانت تلك هي الحقيقة برمتها ، وربما كان الأمر قد وقع على خلاف ذلك ! . . . ولكن الزوج بادر بحزمه ولباقته ، وحسن تصرفه المعهود ، فأخفى كل رائحة لمأساة عائلية ، وكل أثر ينم عن وجود صلة بين الموت والزوجة والأطفال ! . . . ولعله فهم أن الميت قد آثر الانسحاب من الحياة ، عندما شعر بأنه عاجز عن علاج شكوكه . . . وأنه مقبل على تحطيم أسرته ، وتلويث اسم الطفل البرىء ، الذى يرتاب في نسبه ، وأنه فضل أن يجنى على نفسه ، ولا يجنى على غيره ! . . . وإذا كانت تلك رغبته ، فلا أقل من أن تحترم ، وأن يوضع ستار كثيف على ماسبق وفاته من مؤثرات ، وما اكتنفها من بواعث ! . . .

ورفع « راهب الفكر » رأسه ونظر إلى النعش أمامه ، ثم عاد فأطرق ، ومضى في تأملاته هامساً :

« يا لله ! . . . ما أقوى ذلك الرباط المقدس عند الرجل ! . . . إنه في الحقيقة رباط الرجل بطفله . . . وإن منبع القداسة فيه ذلك الدم الذى يجب أن يجرى بينهما نقياً ، فإذا تلوث ، أو تدنس ، أو داخله الغش ، أو خالطه التدليس ، أو مرّ عليه شبح الشك والارتياب ! . . . فإن الرجل قلما يحتمل ذلك ! . . . هذا مالا تفهمه المرأة ؛ لأن كل طفل يخرج من بطنها هو لها ، دون حاجة إلى أن تفرز أو تميز بين

دم ودم ! . . . ولهذا قل أن ندرك معنى لقداسة ذلك الرباط ! . . .
لا قداسة عندها لشيء إذا اصطدم بغريزتها ، أو وقف فى طريق شهوتها ! . . .

وتذكر « راهب الفكر » ماجرى البارحة ، وما كاد يقع . . . . يا للخجل ! . . . كيف استطاعت هي فى لحظة أن تنسيه كل شيء ! . . . وأن تخرجه حتى على أبسط قواعد الأخلاق ، ومبادئ السلوك ! . . .

كيف كان يستطيع أن يلقى زوجها وجهاً لوجه بعد ذلك ؟ . . . هذا الزوج الذى احترمه ، ووضع فى يده أسراره ، ووثق به وبرأيه ولجأ إليه ، واعتمد عليه ! . . . وجعل منه وكيلا له يفاوض الزوجة عنه . .
ماذا كان يقول فيه لو علم أن وكيله الأمين ، قد وقع هو الآخر فى أحضان زوجته ، ومثل عين الرواية المخجلة ، وقام بذات الدور الذى لعبه ذلك الممثل الموصوف فى الكراسة ! . . .

ثم هو الذى كان قد احتقرها ، واقتلعها من نفسه ، وطرحها من تقديره ، وعرفها غير جديرة بحبه ، ورآها عارية عن كل مايدعو إلى احترامه ! . . كيف أغمض عينه عن ذلك فى طرفة عين ، وتحركت نفسه إليها ، ورغب فيها ، وتهيأ لعناقها ؟ . . .

الحق أنه فى تلك الليلة كان قد شعر نحوها بعاطفة جديدة ، عاطفة لا علاقة لها بحبه الأول الرفيع ؛ فهى عاطفة أخرى بعيدة عن كل جونق ، فى إمكانها أن توجد مع وجود الاحتقار ! . . . . هى نوع من أزهار الحب التى تنبت فى المستنقعات ! . . . لكن . . . . كيف حدث ذلك ؟ . . . ما من ريب فى أنها هى ! . . . هذا الحب الأخير هو صنعها هى . . . ومن غرسها ! . . . كما أن الحب الأول كان من صنعه هو وغرسه ! . .

هذا هو نوع الحب الذى تريد مثلها اليوم أن تثيره فى النفوس ! . . . يا للمرأة ! . . . ذلك الجهاز المشبع بالكهرباء . . . الذى يلقى منذ

مطلع الأجيال تيارات وموجات ، لا تلتقطها غير الغرائز ؛ فما العطور التي عرفتها المرأة منذ فجر التاريخ — بما تذيعه في الجو من شذا — إلا إشارات لاسلكية تخاطب بها حواس الرجال ، وكذا النظرات والبسمات والتنهدات ! . . . وكل ما هيئ لكي يحدث على البعد أثراً يطيش بالعقول ، ولطالما حاول الشعراء أن يلتقطوا تلك الإشارات بنفوسهم الرفيعة ، وأن يفسروها بلغة النفس العليا ، ولكن . . . هذا تفسيرهم هم ، ولا شأن له بما يرمى إليه جهاز الإصدار ! . . .

ولقد حاول سلطان الدين أن يصدر — من قبابه ومآذنه وأبراجه — تيارات مضادة ، يعالج بها الأمر ، ويخاطب بها العقل والقلب ، ويوعد ويتوعد ، ويرهب ويرغب ، ويرعد ويبرق ؛ وكان لهذا بعض التأثير أيام أن كانت المرأة حبيسة خدرها وبيتها ، وجليسة أهلها ولداتها . . . لم تصل بعد إلى فمها كلمة الحرية . . . ولم تعرف بعد قدمها الطرق الصاخبة والمجتمعات الحافلة . . . فكان إشعاعها مقصوراً على التسلل من حجرة إلى حجرة ، أو من بيت إلى بيت ، وكانت تيارات الدين تطغى على كل البيوت وتسكت فيها كل إشارة . . . أما اليوم فقد تركت المرأة العصرية البيت والحجرة لصوت الدين ! . . . يدوى فيهما كيف يشاء ، ونزلت هي إلى الشوارع والحوانيت والمقاهى والملاهى ! . . . وكل مكان ، في كل حين . . . تخطر بعطرها وزينتها وابتساماتها ونظراتها . . . جهاز لاسلكي متنقل في ثياب امرأة ، يلقى في وجه كل عابر بموجاته التي لا تقهر ولا ترد ! . . .

هكذا في عصورنا الحاضرة ضعفت تيارات الأديان ، عن صد تيار المرأة ، وشحبت عبارات النصح والإرشاد ، ولم يبق لها من الحرارة في أغلب القلوب والعقول أكثر مما لأشعة الشمس في ساعة الأصيل ! . . .

لا بد للمرأة إذن من موجات أخرى قوية ، تحول مجرى حياتها إلى ناحية رفيعة ! . . الآن وقد فُتحت نوافذ الحرية الاجتماعية

وأبوابها على مصراعيها ؛ لا أمل فى قوة أى نور يأتى من الخارج ! . . . إنه لن يبهر عيناً ، ولن يفاجئ بصراً ، ولن يحدث أثراً ! . . .

هنالك أمل واحد : هو أن يخرج هذا النور ، وتنبعث هذه الموجات من داخل المرأة نفسها على نحو جديد ؛ ذلك أن المرأة ستهزأ منذ اليوم بكل رأى أو قول فيها يأتيها من بعيد ، ولن يكون هناك قيمة إلا لكل ما يصدر عنها هى ، ويخرج منها ! . . بل يجب أيضاً أن يكون ما ينبع من داخلها قطعة من غريزتها ، وجزءاً من طبيعتها ! . . .

الأمل الوحيد معقود على شيء واحد : عاطفة الجمال ! . . . إن المرأة منذ خلقت وظهرت من مبدإ الأجيال ، وفى أعماقها عاطفة ، هى عندها أقوى من الدين والعفة والفضيلة . . . تلك هى رغبتها دائماً فى أن تكون جميلة ؛ ذلك يفسر لنا قدم المرآة حتى قبل أن يعرف الزجاج ؛ فإذا استطاعت المرأة أن تدرك أن هناك نوعاً من الإشعاع يمكن أن يضيء فيها، فيمنحها جمالا لاتستطيعه المساحيق ولا اللآلئ؛ فإن المشكلة تكون قد حلت ! . . .

إن الحسناء المزينة المصنعة ، هى كالمصباح البديع المصنوع من الذهب الإبريز ، ولكن أين النور؟ . . . النور شيء معنوى ! . . إنه ليس اللهب ، وليس الشرر، إنه النور ، ذلك الإشراق الهادئ الطاهر الذى لا يحرق ولا يؤذى ، ذلك الشيء الذى ليس بمادة تلمس ، ولكنه يبعث فى النفس متعة لا تدنس ، ذلك السر الذى يمكن أن يودع فى المرأة كما أودع فى الزهرة ، فأضاءها بألوان تلقى الخشوع عن بعد فى نفوس الناظرين ، وجعلها تعبد لذاتها على عرش آنيتها ، وصانها من عبث الانتفاع المادى الرخيص ، الذى لا يرى فيها غير نبت يصلح للاعتصار ثم يلقى ، وثمرة تقتطف للاستقطار ثم ترمى ! . . .

إذا حرصت المرأة على اقتناء ذلك النور الداخلى . . . فقد انقلب جهازها اللاسلكى نغمة كبرى . . . تتحرك وتتنقل فترسل حيثما تسير موجات من الأضواء العلوية تنير القلوب ، وتيارات من الأفكار السامية تلهم النفوس ، وإشارات تخاطب الجوانب الرفيعة فى الإنسان ! . . .

لكن . . . هنالك معضلة . . . من الذى يمهد لها سبيل ذلك ! . . . إن أدوات إشعاعها المادية يهيؤها لها أناس مختصون . هم : صناع العطور ، وصناع الحلى ، وتجار المساحيق ! . . . لا بد من مختصين آخرين يهيئون لها أدوات إشعاعها الروحى ! . . .

هنا تبرز مهمة « رهبان الفكر » ! . . . نعم ! . . . كيف نسى ذلك ؟ . . . أو ليس هو الذى قال يوم زارته أول مرة : إنه يريد أن يجعل منها عروساً تمرح بشعرها المرسل ، وروحها المضىء فى مروج الفكر الرحبة المزهرة ، وأن يجعلها ملكة ، تعرف كيف تمس بصولجان روحها نفوس الرجال ، كما يمس المرود العين ، فإذا تلك النفوس قد تفتحت لترى ما لم تر ! . . . وإذا النشاط قد دب فيها ، فتثمر القرائح وتنهض الهمم ، وإذا الخير قد فاض ، والحياة قد نبضت فى الأشياء والكائنات ! . . .

أو لم يقل إنه يرجو لها روحاً تضىء داخل نفسها البلورية ، فتنطق لسانها بالحديث الرفيع ، وتطلق من صدرها المشاعر العالية والأفكار السامية ؟ . . . إذن ما الذى جرى ؟ . . . هاهو ذا رجل الفكر قد أخفق كما أخفق رجل الدين ؟ . . . كلاهما قد أحسن الظن بطبيعة المرأة أكثر مما ينبغى ، ونسج حولها أضغاث أحلام . . . !

ولم يفق « راهب الفكر » من هذه التأملات إلا أمام المسجد ؛ فقد وقف سير الموكب ، ونقل الجثمان إلى الداخل حيث صلوا عليه ، أبينما انتحى أهل الفقيد ناحية يتقبلون تعزية المشيعين ! . . . وانفضت

أكثر الجموع منصرفة بعد ذلك ، ولم يبق إلا الأقرباء والأخصاء؛ فقد رافقوا الراحل إلى المدافن ، وكان « راهب الفكر » بالطبع بين هؤلاء، فلبث معهم حتى أنزلت الجثة القبر ، وحيتها جنود الفرقة التحية العسكرية الأخيرة بإطلاق واحد وعشرين طلقة مدفع ، وجعل اللحادون يهيلون عليها التراب ، والمقرئون يلقنون الميت ما ينبغى أن يقول للملائكة عند اللقاء ، ويصيحون به :

« ياعبد الله هذا آخر يوم لك فى الدنيا ، وأول يوم لك فى الآخرة ! . . . »

تأمل « راهب الفكر » هذه الصيحة فيمن تأملها من الحاضرين ، والتفت ينظر إلى أثرها فى وجوههم الواجمة الخاشعة . . . لا ريب أنهم قد أدركوا منها جميعاً تلك الحقيقة الرهيبة :

ما أقصر أيام الدنيا بالقياس إلى أيام الآخرة ! ! . . .

أما هو فقد أدرك منها حقيقة أقسى وأرهب . . . ما أقصر حياة الجسد بالقياس إلى حياة الروح ! . . كم من الأعوام عاش جسد هذا الرجل ؟ . . . ثمانية وثلاثين عاماً ؟ . . . ولكن روحه ستعيش الأبد كله . . . هذا الجسد بحيويته وخلاياه وأنسجته وإفرازاته وملذاته وحرارته وفورته . . . كل هذا قد تفكك وتحلل واختلط بالتراب ، وصب عليه الماء ، وعجنت ذراته بالغبراء ! . . . فلن تستطيع ذرة بعد اليوم أو خلية أن تثور على الروح ، أو تطالبها بمتعة من متع الحس ، أو لذة من لذات اللحم والدم ! . . . يا له من انتصار للروح رهيب ! . . . إذن كانت الخلايا على حق وهى تثور فى إبان قوتها وعنفوان توقدها ؟ . . .

إنها كانت تعلم مصيرها المخيف . . . وتعد أيام سلطانها عداً ، وتدرك أنها ذرات ؛ لا فى جسم الإنسان ، بل فى بحر الزمان ومحيط الأبد ، الذى تمخر فيه الروح إلى غير حد ! . . . إذن فيم كانت

الروح تنافسها وتحسدها على أعوام لن تتجاوز الستين ، أو الثمانين أو المائة ! . . . ولماذا لا تدع لها هذه الأعوام القليلة الضئيلة . . . ما دام أمامها هي الخلود ! . . .

لماذا هذه المعركة بينهما دائماً فى هذا الميدان التافه : « جسم الإنسان الهش قصير الأجل ؟ . . . » علام هذا النضال القائم بينهما خلال حياته المادية الضئيلة الخطر ؟ . . . لماذا لا تترك الروح هذه الأعوام المعدودة للمادة ، تحياها كما تريد فى سلام ؟ ! . . . ليس يدرى « راهب الفكر » ما الذى كان يهتف داخل نفسه بهذا الكلام ؟... أتراها حواسه المقهورة ، راعها ذلك المنظر فنهضت تحاول الثورة من جديد ! . . . الواقع أنه وجد نفسه بعدئذ يفكر فى تلك المرأة مرة أخرى ! . . . ما الذى يحول بينه وبينها الآن ؟ . . . لماذا هذا التزمت والورع الكاذب ؟ . . لم لا يتخذها خليلة ؟ . . . ليست هى التى تعارض فى ذلك ! . . . وإن لم ينعم بها هو فإن غيره سينعم بها ولا جدال ! . . . ولا شىء يوقر ضميره ، فليس هو الذى أغراها ، ولكنها هى التى تغزيه ، أما زوجها فلا يهمه أمرها بعد اليوم . . . وقد انقطع ما بينهما بالطلاق ، فهى الآن امرأة حرة فى نظر المجتمع ! . . . لها أن تفعل ما تشاء ! . . . وليس فى اتصاله بها الآن أى مساس بكرامة الزوج ، أو تهجم على حق له ! . . . ثم من الذى سيخبره ؟... إن هذه المرأة معه ستكون محاطة بجدران من الكتمان ، لن تتوافر لها مع رجل آخر ! . . . إنه سيكون أحرص على سمعتها وسمعة الزوج من أى خليل آخر ! . . . ولو كان لهذا الزوج أن يفاضل فى هذا المجال لما اختار غيره هو ! . . .

تلك هى الخواطر التى طافت بنفسه ، ولم يغادر بعد فناء المقبرة . . . وهنا لمحت عينه فجأة صديقه الزوج الحزين المسكين على مقربة منه ، وقد لمعت فوق خده دمعة ! . . . فثاب إلى رشده ، ونظر يميناً وشمالا ،

كأنما خيل إليه أن الناس قد خرقوا بنظراتهم جمجمته ، ونفذوا إلى أفكاره . . . ويالها من أفكار! . . . سيعجبون ولا ريب كيف تخطر على بال مثله فى « مقبرة » ! . . . ولكن لحسن الحظ ! . . . ربما خلقت الجماجم من عظام سميكة لتحجب أحياناً مثل هذه الخطرات عن العيون . . . لا . . . لا ينبغى أن يفكر هكذا . . . حتى لو رضى الزوج أن تنشأ علاقة كهذه بينه وبين تلك المرأة ؛ فإن هذا الرضا لا يبرر عمله ، ولا ينزع عنه صفة القبح ! . . . إن اللذة الحسية ليست كل اللذة ! . . . هنالك أيضاً اللذة المعنوية ! . . . . إذا استمعنا إلى صياح حواسنا وخلايانا وحدها ، وصدقنا مطالبها لما كان الإنسان أكثر من حيوان ! . . . ولكن هنالك لذّات لا تعرفها أعضاؤنا المادية ! . . . إن للتضحية فى سبيل الواجب لذة ، وللحرمان فى سبيل الشرف لذة ، إن الحياة بغير القيم المعنوية هى حياة تافهة لا معنى لها ! . . وماذا يكون الفارق بين « راهب الفكر » وثور فى حقل إذا فقد اللذات الروحية ، ولم يكن له غير لذات الأنسجة والذرات ؟ ! . . . كلا ! . . . إن الروح فى حياتنا القصيرة ليست مصدر شقاق وشغب وشقاء . . . تلك مزاعم الجسد ! . . . ولكنها منبع سعادة من نوع آخر ! . . . ولو آمنت المرأة بأن كبح جماح النفس من أجل واجب الزوجية يمنحها من السعادة الروحية ، ما يعوض عليها ملذات البدن ؛ لما استهانت برباطها المقدس لحظة واحدة ، فكيف إذن « براهب الفكر » وهو الذى يعيش للجمال الفكرى ، ويبصر بنور الروح ، أيستهين برباطه المقدس ، الذى يربطه بالقيم المعنوية ؟ ! . . .

وكان الزوج قد اقترب منه ، وأخذ بذراعه فى صمت ، فسار معه إلى خارج المقبرة ، وقد انتهت المراسيم ، وأخذ الحاضرون فى الانصراف ! . . .

ودعا الزوج « راهب الفكر » إلى سيارته ، وفى أثناء السير بدا منه تلميح إلى مسألة زوجته . . . وما تم فيها ، فأخرج « راهب الفكر » الورقة التى وقعتها الزوجة ، وقدمها إليه ، فقرأها ودسها فى جيبه ، وتناول يد صديقه وضغط عليها ضغطاً ينم عن شكره وتقديره لهذا الصنيع ! وخطر « لراهب الفكر » شبح الزوجة ، وخاف أن تعاود المجىء إليه متذرعة بحجة من الحجج؛ لتحاول فتنته مرة أخرى! . . . وقد يضعف أو يلين لشيطان سحرها وغوايتها فما يجدر به أن يفعل ؟ . لا بد من تدبر الأمر منذ الآن ! . . .

إن خير حل هو أن يغادر « القاهرة » فترة من الزمن ، تكون لدفن كل هذه الحوادث تحت غبار النسيان ، وتمكن كل ذى شأن فيها من الانصراف إلى طريقه فى الحياة ! . . .

ووقفت السيارة حيث أراد « راهب الفكر » أن ينزل ، فمد يده مودعاً لصديقه الزوج قائلا :

— إنى مسافر صباح الغد إلى الريف ! . . . أمكث فيه شهرين أو ثلاثة . . .

* * *

وعاد « راهب الفكر » بعد شهور إلى « القاهرة » بنفس صافية وروح راضية . . . وقد علم من خادمه بما توقع قبل سفره . . . فقد حضرت تلك المرأة مرتين فى الأسبوعين الأولين . . . ولما أيقنت أن سفره سيطول حقيقة ، ذهبت إلى غير عودة ، وجلس « راهب الفكر » إلى مكتبه من جديد مستأنفاً أعماله الأولى . . . وقد اختفت تلك الزوجة من محيط حياته اختفاء تامًّا ، فلم يعد يسمع عنها شيئاً ، ولم يرد أن يزعج الزوج فيبدأ هو بطرق بابه ، ولعله قد نسيه أو أحب أن ينساه ، لينسى الظروف القاتمة التى عرفه فيها ، فليس هو على أى حال الذى يذكره بما كان ، ومرت الأيام . . . وإذا هو يرى صورة تلك المرأة

وأخبارها بارزة فى صفحات المجلات ، وأخبار المجتمعات ، وقد تزوجت شخصية معروفة بالتفاهة وقلة الذكاء ، فأدرك أنها قد ظفرت أخيراً بالزوج المثالى للمرأة العصرية . . .

أما هو فقد رجع إلى عاداته السابقة ، يفض رسائل قرائه فى الصباح باسم الثغر ، هادئ الأعصاب ، وإذا هو بعد زمن قليل قد وقعت فى يده رسالة بين البريد ارتجف لها :

إنها من امرأة تسأله أن يحدد موعداً للقائها ؛ لأنها تريد أن تحادثه فى شأن من شئون الأدب والفكر ! . . . فصاح فى نفسه :

« لا . . . لا . . . » كفى ! . . . ألم يعرفهن ؟ . . .

وضغطت أصابعه على الرسالة يريد أن يمزقها ، ولكن . . . ولكنه ثاب إلى رشده قائلا :

الشجاعة ليست فى تجنب مزالق الجسد ، وتحاشى مواطن الزلل بل فى مواجهتها بمصباح الحقائق ونور المثل العليا ! . . .



سلسلة (اقرأ)

للكتب التى نشرت فيها منذ صدورها فى يناير ١٩٤٣ حتى الآن

القصة

١ أحلام شهر زاد (د. طه حسين)
٦ شاعر ملك (على الجارم)
١٢ سنوحى (د. محمد عوض محمد)
١٤ من يوميات فتاة عصرية (حسين شوقى)
١٨ قنديل أم هاشم (يحيى حقى)
١٩ سيدة القصور (على الجارم)
٢٢ جحا فى جانبولاد (محمد فريد أبو حديد)
٣٠ قطر الندى (محمد سعيد العريان)
٣٢ الشيخ قرير العين (كرم ملحم كرم)
٣٤ فارس بنى حمدان : أبو فراس الحمدانى (على الجارم)
٤٣ عنترة بن شداد (محمد فريد أبو حديد)
٥١ الشاعر الطموح : المتنبى (على الجارم)
٥٨ خاتمة المطاف (على الجارم)
٦٠ شجرة الدر (محمد سعيد العريان)
٦٢ مرح الوليد (على الجارم)
٦٣ رقيق الأرض (نظمى لوقا)
٦٧ أمير قصر الذهب (طاهر الطناحى)
٨٧ غادة رشيد (على الجارم)
٩٢ الجامحة (أمينة السعيد)
١٠٥ الحب الضائع (د. طه حسين)
١٠٦ سجل التوبة (أمين الريحانى)
١٠٨ سارة (عباس محمود العقاد)
١١٦ اللحن الشرود (كرم ملحم كرم)
١٢١ عذراء الأندلس (أحمد الصاوى محمد)
١٢٢ أشطر من إبليس (محمود تيمور)
١٢٩ زامر الحى (محمود تيمور)
١٣٠ فى بطون الليالى (رشاد دارغوث)
١٣٥ ليلى العفيفة (عادل الغضبان)
١٣٦ أبو على الفنان (محمود تيمور)

١٤١ بنت قسطنطين (سعيد العريان) ٢٨١ خالدون فى الوطن (إبراهيم المصرى)
١٤٥ عيون معصوبة (محمود كامل) ٢٨٣ دماء فى الفجر (فاروق حلمى)
١٥٢ قلوب معذبة (قدرى قلعجى) ٢٨٤ عروسة على الرف (صوفى عبد الله)
١٥٣ دماء وطين (يحيى حقى) ٢٨٧ قصص من جوته
١٥٥ بنت يزيد (سامى الكيالى) (عبد الغفار مكاوى)
١٥٩ أجواء (حسن محمود) ٢٨٨ قصص الحب العربية
١٦٥ مصرع طاغية (حسن رشاد) (عبد الحميد إبراهيم محمد)
١٦٧ أنات الساقية ٢٨٩ البارونة أم أحمد (محمود تيمور)
(عبد الله القرشى) ٢٩٢ شىء من الخوف (ثروت أباظة)
١٧٦ عودة المفقود (حسن رشاد) ٢٩٧ ابن السلطان (عبد الغفار مكاوى)
١٨٣ الثريا (كمال بسيونى) ٣٠٢ نشيد الكروان (طاهر الطناحى)
١٨٦ عاشقة نفسها (حسن رشاد) ٣١٣ عفراء : قصة الحب الخالد
١٩٥ محكمة الضمير (حسن رشاد) (فايد العمروسى)
١٩٩ عرس ومأتم (البدوى الملثم) ٣١٥ أعترف إليك (أحمد فؤاد تيمور)
٢٠٠ مواطن أمام القضاء ٣٣٩ مومس تؤلف كتاباً . وقصص
(فاضل السباعى) أخرى (فتحى رضوان)
٢٠٩ حال الدنيا (حسن رشاد) ٣٤٣ إنى صاعدة (حلمى سلام)
٢١٩ ثمن الكرامة (سلامة خاطر) ٣٤٤ الوادى السعيد (لويس عوض)
٢٣٤ حبة البرتقال (أحمد العنانى) ٣٤٧ بنك القلق (توفيق الحكيم)
٢٣٨ قلب عذراء (إبراهيم المصرى) ٣٥٠ دموع فى عيون ضاحكة
٢٤٠ نفوس تتكلم (ودادسكاكينى) (يوسف جوهر)
٢٧٣ مذكرات طبيبة (نوال السعداوى) ٣٥١ من أخطاء القضاء
٢٧٦ صنيعة الشيطان (حسن رشاد) (حسن صالح الجداوى)
٢٧٨ يوسف الصديق (محمد طلبه رزق) ٣٥٢ عندما تحب المرأة (حلمى مراد)

فى الأدب

السير والتراجم

٦٥ عمر بن عبد العزيز (أحمد زكي صفوت)
٦٨ جمال الدين الأفغاني (عبد القادر المغربي)
٧٠ الجبرتي (خليل شيبوب)
٧٢ فولتير (سليم سعده)
٧٧ المغني المجنون : كاروزو (أحمد الصاوي محمد)
٧٨ سقراط (علي حافظ بهنسي)
٧٩ بيرانديللو (محمد أمين حسونة)
٨٢ فرانزليست (خليل هنداوي)
٨٥ بيتهوفن (محمد فهمي أبو النصر وهدى حبيشة)
٨٩ برناردشو (عباس محمود العقاد)
٩١ جابر بن حيان وخلفاؤه (محمد محمد فياض)
٩٩ نساء محاربات (صوفي عبد الله)
١١٢ مع طه حسين (سامي الكيالي)
١١٣ عبقرية الإمام (عباس محمود العقاد)
١١٥ الإمام المراغي (أنور الجندي)
١١٩ نساء شهيرات (مبارك إبراهيم)
١٢٥ الصديقة بنت الصديق (عباس محمود العقاد)
١٢٧ شلي (أحمد الصاوي محمد)
١٣٩ تيمورلنك (محمد محمد فياض)
١٤٠ عائشة بنت طلحة (كمال بسيوني)
١٤٢ بطل السند ومحمد بن القاسم (محمد عبد الغني حسن)
١٤٣ ابن عمار (ثروت أباظة)
١٥١ العاشقة المتصوفة : رابعة العدوية (وداد سكاكيني)
١٦٢ مكسيم غوركي (نجاتي صدقي)
١٦٤ دانتي (مصطفى آل عيال)
١٧٢ المخترعون (أحمد طه السنوسي)
١٨٧ طاغور (د. جميل جبر)
١٩٢ أدباء من الجزائر (د. إبراهيم الكيلاني)
١٩٧ جان جاك روسو (د. محمد سامي الدهان)
٢٠٤ فيكتور هوجو (د. جورج زايد)
٢٠٧ الناصر صلاح الدين (د. محمد سامي الدهان)
٢٢٣ الشاعر الشهيد هاشم الرفاعي (محمد كامل حته)
٢٣٢ أبو القاسم الشابي (رجاء النقاش)

٢٥٠ ابن حمد يس الصقلى (على مصطفى المصرانى)

٢٥٤ من أعلام الحرية فى العالم العربى الحديث (أنور الجندى)

٢٥٦ عشرة من الخالدين (إبراهيم المصرى)

٢٦٩ قلوب الخالدين (إبراهيم المصرى)

٢٧٧ عبد المطلب جد الرسول (د. على حسنى الخربوطلى)

٣٠١ مع طه حسين . الجزء الثانى (سامى الكيالى)

٣٠٦ سندباد فى رحلة الحياة (د. حسين فوزى)

٣٢٤ هوشى منه (جورج عزيز)

٣٣٦م. أيام خالدة فى حياة عبد الناصر (د. جمال الدين العطيفى)

٣٤٠ محمد عبد الوهاب (محمود عوض)

٣٤٩ هؤلاء علمونى (سلامة موسى)

سياسة وعلوم سياسية

٩ المذاهب السياسية المعاصرة (على أدهم)

٧ قضية فلسطين (محمد رفعت)

١٠٧ تحرير وادى النيل (محمود كامل المحامى)

١٤٥ أخى المواطن (فتحى رضوان)

١٧ هذا الشرق العربى (فتحى رضوان)

٢١٢ العرب ورسالتهم الإنسانية (د. على حسنى الخربوطلى)

٢١٦ وحدة العرب (إبراهيم الدسوقى البساطى)

٢٦١ عروبتنا (محمود كامل)

٢٧٤ المزاعم الصهيونية فى فلسطين (فتحى فوزى عبد المعطى)

٢٧٥ الوحدة الإفريقية (محمد أبو الفتوح الخياط)

٢٩٥ فلسطين قلب العروبة (محمد فيصل عبد المنعم)

٢٩٦ البترول العربى فى المعركة (د. محمود أمين)

٣١٠ حوار مع برتراند راسل وسارتر (لطفى الخولى)

علم النفس

علوم

جغرافيا ورحلات



وصلت فى قفزتها الأولى إلى ٥٠,٠٠٠ نسخة
وستصل فى هذه القفزة إلى ٧٠,٠٠٠ نسخة

صدر منها فى الأشهر الأخيرة :

أكتوبر ١٩٧١	:	ذكريات عارية للدكتور السيد أبو النجا
رمضان ١٣٩١	:	أحاديث رمضان للدكتور عبد العزيز كامل
نوفمبر ١٩٧١	:	بنك القلق للأستاذ توفيق الحكيم
ديسمبر ١٩٧١	:	نحو النور للأستاذ محمد زكى عبد القادر
يناير ١٩٧٢	:	هؤلاء علمونى للأستاذ سلامه موسى
فبراير ١٩٧٢	:	دموع فى عيون ضاحكة للأستاذ يوسف جوهر
مارس ١٩٧٢	:	من أخطاء القضاء للأستاذ حسن الجداوى
أبريل ١٩٧٢	:	عندما تحب المرأة للأستاذ حلمى مراد
مايو ١٩٧٢	:	خدعوك فقالوا للدكتور سعيد عبده
يونية ١٩٧٢	:	رحلة الشرق والغرب للدكتور لويس عوض
يوليو ١٩٧٢	:	بلابل من الشرق للأستاذ صالح جودت
أغسطس ١٩٧٢	:	القصر المسحور للدكتور طه حسين والأستاذ توفيق الحكيم
سبتمبر ١٩٧٢	:	أغلال القلب للأستاذ إبراهيم المصرى
أكتوبر ١٩٧٢	:	أفكار ضد الرصاص للأستاذ محمود عوض
رمضان ١٣٩٢	:	الإسلام والعصر للدكتور عبد العزيز كامل

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم ٥٢٧٥ / ١٩٧٢
مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢

